

امكتبة القبطية على الانترنت



حَيَاةُ الصَّلَاةِ

الْأَرْثُودُوكْسِيَّةِ



الأب متى المسكين

حَيَاةُ الصَّلَاةِ

الْأَرْثُودُوكْسِيَّةِ



الأب متى المسكين



لوحة رقم (١)

أيقونة قبطية من القرن السادس تمثل الرب يسوع المسيح والقديس مينا،
 ويلاحظ كيف يضع الرب يده اليمنى على كتف القديس اليماني بمودة فائقة.
 وهكذا يكشف الفناء القبطي عن عمق الوجدان القبطي في تفهم العلاقة التي
 تربطنا بالله. وقد وجدت هذه الأيقونة في دير باو يظ بالقرب من ملوي بصعيد
 مصر، وهي من روائع الفن القبطي الخالص ومن الأيقونات القليلة المحبوبة
 لدى فناني الغرب ... وهي محفوظة الآن بمتحف اللوفر بفرنسا.

قصة هذا الكتاب ..



... !!

ليست هذه في الواقع مقدمة الكتاب ، وإنما هي خاتمة . إنها آخر ما كتب منه وما طبع . وكان لابد أن يحدث هذا . إذ أنه في الحقيقة لم يكن أحد يظن منذ خمس سنوات - عندما بدء في هذا العمل - أنه سينتهي إلى هذه الصورة التي صدر بها .

كان كل شيء مختلفاً ... ولو أن هذه الصفحة كتبت في ذلك الحين ، لقرأت كلاماً آخر لا يمت إلى هذه الأسطر بصلة .

فما هي اذنه قصة هذا الكتاب ؟

١ - عندما رأينا هذا الكتاب لأول مرة ، كانت صغيراً في حجمه ، مكتوباً باللغة الانجليزية على الآلة الكاتبة في حوالى ١٢٠ صفحة تقريباً . وجده أحد اخوتنا الأعزاء مع راهب ارثوذكسى ينتمى إلى الكنيسة اليونانية فأخذه منه ، وقدمه لأحد آبائنا الرهبان الاقباط لترجمته ...

٢ - ولكن أبانا هذا كان يؤمن إيماناً أكيداً أنه قد تهرب لعبادة والتأمل فقط ، وإن اتيح له أن يترجم أو يلشركتاباً فليكن ذلك عملاً ثانوياً إلى جوار هدفه الأصلي . كان في الإمكان إذن أن يُترجم هذا الكتاب ويقدم لك من سنة ١٩٤٩ . ولكن الأب الراهب قرأ تلك النسخة الانجليزية ليتأمل ويستفيد ، وليختبر قدر إمكانه تلك المبادئ الحلوة التي سجلها الآباء

(ب)

في حياة الصلاة ... واستغرق ذلك منه وقتاً .

٣ - وهنا تدرج المشروع غمطاً خطوة أوسع . إن المنظم الأول لهذه الأقوال قد سجل مبادئ روحية منسوبة إلى الآباء الذين أعلنوها ، فما المانع في الرجوع إلى كتب هؤلاء الآباء ، ومعرفة كل ما قالوه أو كتبوه عن ذلك .. وهكذا رجع أبونا الراهب إلى المخطوطات وما طبع منها ، وأضاف إلى النسخة الأصلية كل ما رأى فيه فائدة ومنفعة في موضوع الصلاة .

٤ - ولم يقف الكتاب عند هذا الحد ، بل تدرج خطوة أخرى . ذلك أن النسخة الانجليزية لم تكن مشتملة على أقوال كل الآباء ، بل إن آباء روحيين مشهورين جداً كالقديس أوغسطينوس مثلاً لم تذكر من أقوالهم شيئاً . وهكذا رجع أبونا الراهب إلى أقوال هؤلاء القديسين في حياة الصلاة وترجمها إلى العربية وضمها إلى الأبواب التي تصلح لها . واستغرق هذا أيضاً وقتاً .

٥ - ولكن مشروع الكتاب لم يقف عند هذا الحد ، وإنما وجد من الصالح جداً أن يوضع لكل باب من أبواب الكتاب مقدمة مناسبة تشرح أهم المبادئ التي يشملها ، وتسهل على القارئ تفهم تلك الروحيات العميقة ... فوضعت المقدمات التي تصلح في حد ذاتها أن تكون كتاباً مستقلاً .

٦ - ونما كتاب « حياة الصلاة » ، نمواً آخر يستلزم إضافة أبواب جديدة إليه ، وتضمنها أقوال الآباء فيها . ولكي نفهم هذه النقطة يلزمنا أولاً أن نعرف جيداً :

ما هو معنى « حياة الصلاة » ؟

١ - أول معنى يتطرق إلى الذهن من كلمة « صلاة » ، أنها حديث مع الله ،

(ج)

وهذا حق ، ولكن ما معنى « حديث » ، وكيف يتم ؟

ب - نتدرج إلى نقطة أخرى فندأل سؤالاً خطيراً وهو : هل اللسان هو العضو الوحيد في الإنسان الذي « هب له » أن يتحدث مع الله ؟ وهل باقى أعضاء الجسم لا تستطيع أن تصلى ؟ وهل النفس لا تشترك في عمل الصلاة ؟ وهل الفكر والروح لا يشتركان ؟

ونخرج بنتيجة هامة وهي ان الإنسان كله يصلى : رفع اليدين صلاة ، وانحناء الرأس صلاة ، وركوع الركبتين صلاة ، ورفع العينين إلى السماء صلاة ... وهكذا أيضاً صلاة الفكر ، وهكذا أيضاً خفقة القلب ، وهكذا أيضاً شتى المشاعر والاحساسات يمكن أن تشترك هي أيضاً في صلاة ... وتقسم بهذا الصلاة إلى أنواع .

ج - ونصل من هذا التدرج كله أن الصلاة ، هي الصلة بالله ، هي الحلقة الذهبية التي تربط الانسان بالله . فليست هي مجرد كلمات يُسمعها الانسان لخالفه ، وليست مجرد أفكار تربط الانسان بربه ، وإنما الصلاة هي الحياة كلها . يشعر الانسان أن كل دقيقة من دقائق حياته صلاة ، حتى الوقت الذي يقضيه في الطعام ، أو الحديث مع الناس ، أو العمل أو النوم هو أيضاً وقت صلاة ، يرتبط فيه الانسان مع الله بصلة لا تنفصل .

إذا عرفنا هذا أمكننا أن ندرك كيف تتسع الصلاة حتى تشمل الروحانيات جميعاً ، وكيف أن كتاباً عن حياة الصلاة يمكنه أن يكون كتاباً عن الحياة الروحية كلها بدون استثناء ، وكيف أن للصلاة نواحي نشاط خارجية ، تؤثر فيها الصلاة ، وتؤثر هي في الصلاة ، وتعتبر هي نفسها صلاة .

خذ الصمت مثلاً كمثال : الشخص الذي يصلى تساعد الصلاة على

الصمت بل وتدعوه إليه ، والشخص الصامت له إمكانيات للصلاة أكثر من غيره ، بل قد يكون صمته في حد ذاته صلاة ، فمَنَسَل فيها التحدث مع الله عن التحدث مع الناس ، أو أنه تحدث فيه مع الناس بالمحبة ، بلغة لا تسمعها الأذن . هل كان بالامكان إذن ان نحذف من هذا الكتاب باب الصمت ؟ كلا ! وهكذا أيضاً الخلوة : إذا اختليت بنفسك وبالله تحب الصلاة ، وإذا صليت تحب الخلوة ، والخلوة الروحية في حد ذاتها صلاة ...

وبعد ...

لعلك عرفت كيف تدرج هذا الكتاب ، وكيف اتسع وكيف نما ، حتى وصل إلى يديك بهذه الصورة ، وحتى كان لازماً جداً أن يستغرق هذا الوقت كله ، من أجل أن يخرج في أكمل وضع ممكن يصلح لمعاونتنا جميعاً على خلاص أنفسنا ...

في أن نقول لك ، إنه كأي عمل من أعمال الله ، كان لابد أن يحاربه الشيطان ، وكأي عمل من أعمال الله كان لابد أن ينتصر في تلك المحاربات .. ان الشيطان مستعد يا أخانا الحبيب أن يهبك العالم كله لكي يمنعك عن الصلاة ، لأنها أقوى سلاح ضده ، أو لأنها السلاح الوحيد الذي به ينهزم . فتمسك بالصلاة ومستصل إلى نهاية الطريق حيث الله في انتظارك .

حاول إذن أن تقرأ هذا الكتاب لتحوّله إلى جزء من حياتك ، لالكي تدرسه أو تزيد به معلوماتك .

والرب معك يقويك ويعطيك النعمة والبركة لتنتفع من كل كلمة وردت فيه .

نظير جبر

مدرس بالكلية الاكاديمية

مقدمة الطبعة الثانية (١)

تشكر الله الذي أبقانا حتى نرى بداية النهضة الآبائية في الكنيسة القبطية الأمر الذي كنا نتوق إليه حينما أخرجنا طبعتنا الأولى لكتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية منذ ستة عشر عاماً، وهو الكتاب الذي زرع روح الآباء وكلمتهم في قلب الجيل السالف بغنى وفيض حتى أتى بشمار روحية كنا نظنها حُلماً فإذا هي حقيقة تُشاهد.

فقد انبثقت من هذه النهضة الآبائية الروحانية الصرف حركة التكريس الرهباني، كما امتد أثر هذا الكتاب في خارج المحيط القبطي إذ تلقينا رسالة من الأمين العام لحركة الشبيبة للروم الأرثوذكس في لبنان الأرشمندريت جورج خضر الجزيل الاحترام (٢) يقول فيها عن كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية: «ولأول مرة يتلمذ الروم على كتاب قبطي».

فعرفنا للتو أن الله اختار هذا الكتاب ليكون فيه كلمة مصالحة ونقطة تقابل، لا على صعيد الحوار الفكري أو الجدل اللاهوتي، بل على مستوى وحدة الحياة الروحية وتجليات الإيمان الذي يتجاوز العجز اللفظي إلى نور الحق الإلهي المُعاش.

ولعل من أصعب ما واجهناه في تصنيف هذا الكتاب هو تجريد يد من الروح التحيزية تجريداً يكاد يكون كاملاً ومنسجماً، ولا يخفى على القارئ أن النزاع التقليدي في اللاهوت النسكي والتصوفي سواء بين الإسكندرية وأنطاكية أو بين الشرق والغرب عموماً، أمر يطول شرحه وقد انحرف به العلماء حتى جعلوه خصومة مما أدى إلى تحطيم وحدة الروح المسيحية وتفتيت العبادة والصلاة في أنحاء العالم. هذا الخطر جعلناه في اعتبارنا الأول وتحاشيناه بكل انتباه روحي، لأننا نؤمن إيماناً وثيقاً أن وحدة الروح النسكية والتصوفية في العالم كله منبثقة من الإنجيل، ودليلنا على ذلك هذا الإنسجام الرائع الذي يجده القارئ بين كافة الأقوال المدونة تحت فصول هذا الكتاب. هذا وفي تعمقنا المستمر لتراثنا القبطي طوال هذه السنين، تيقننا أن الأفق الروحي عند آباء «تيا» و «نتر يا» و «الأسقيط» (٣) متسع وبسيط في

(١) صدرت عام ١٩٦٨.

(٢) الآن المطران جورج خضر مطران الكورة والجبل وتوابعها بليان.

(٣) أشهر براري مصر التي كانت ولا زالت موطن النك والعبادة.

آن واحد كاتساع حضن المسيح ، وقد استطاع يوماً ما أن يحتضن نساكاً عديدين من سوريا وفلسطين واليونان وروما وفرنسا وأسبانيا وأثيوبيا وكافة الأرجاء البعيدة مع ما كان بينهم من تفاوت هائل في المزاج اللاهوتي والنسكي والإستعداد العقلي والجسدي ، فلا عجب يا إخوة أن يشمل هذا الكتاب ، كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية ، أسماء من كل قطر ، فهو برهان متفائل على أن الروح الواحد الذي توزع يمكن أن يتجمع إن لم يكن على صعيد المكان فلا أقل من أن يكون على صعيد الكتاب دون أي نشاز أو تحيز إن كان الضمير صالحاً .

لذلك نحن نتوسل لدى الله القدير أن يجعل هذا الكتاب « أسقيطاً » جديداً يجمع إليه الأقطار كما انجمعت فيه ، تمهيداً لاستعلان عهد الوحدة والمصالحة .

ونحن نقدم هذه الطبعة الثانية متيقنين أن الله الذي استخدم هذا الكتاب لتوجيه الجيل السالف إلى أهمية التمسك بالروح الآبائية في بناء النفس ، قادر بنعمته أن يجعل من هذا الكتاب في طبعته الجديدة قوة دفع جديدة نحو الأعماق الروحية حتى تخرج الأرثوذكسية من جمودها إلى مستوى الحركة والشهادة ، ليس على مستوى الوعظ بل على مستوى السيرة كما كان الآباء .

فالعالم اليوم متعطش لشهادة إيمان حي بشخص يسوع المسيح ، لا ليسمعها ولكن ليعيشها . فالكتب التي تتكلم عن المسيح ما أكثرها ، والمعلمون الذين يتكلمون عن المسيح ما أكثرهم أيضاً ، ولكن الذين يعيشون مع المسيح و يتكلمون مع المسيح قليلون جداً .



والكنيسة لا يمكن أن تعيش على حقائق إيمان تدرس ، فالإيمان بالمسيح ليس نظرية بل قوة قادرة على تغيير الحياة ، وكل إنسان في المسيح يسوع لا بد أن تكون له هذه القوة ، أي يكون قادراً على تغيير حياته وتجديدها بقوة المسيح .

ولكن إيماننا بالمسيح سيظل بلا قوة حتى نتواجه معه وجهاً لوجه داخل أنفسنا بكل صبر وطول أناة وشجاعة ، محتملين الحزني العظيم الذي سيفطينا حيناً تنكشف أنفسنا وتقف عارية أمام عينيه الظاهرتين الفاحصتين ، لأننا حتماً سنخرج ولنا خبرة خاصة وتجديد لأنفسنا ومعرفة حقة ودراية بقداسة المسيح ولطفه .

كل مواجهة مع المسيح هي صلاة تجديد ، وكل صلاة هي خبرة إيمانية ، وكل خبرة

إيمانية هي حياة أبدية .

ولكن ليس معنى هذا أن حقائق الإيمان والعقيدة واللاهوت يمكن أن تتشكل أو تتغير تبعاً لخبرات الإنسان الداحية، فحقائق الإيمان تائه ثبوت الله نفسه، وإنما حيرتنا تزيدها وضوحاً واستعلاناً، فالله إنما يُستعلن في قديسيه .

فعلى قدر خبرات القديسين والأتقياء على مدى الدهور عرفنا الله وسنعرفه .

غير أن هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها، وهى أنه بالرغم من أن خبرات القديسين الإيمانية تثير أمامنا طريق المعرفة إلا أنها يستحيل أن تمهدنا بالإيمان الحي دون شهادة خاصة تنبثق من عمق حيرتنا وحياتنا، فالمسيح ينبغي أن يكون لك كما هو لكل قديس، لأنه مات عنك شخصياً .

إن المسيح أعطانا لا أن نعرفه أو نؤمن به فقط بل أن نحياه به، وأعطانا الروح القدس لا ليعلمنا فقط بل ليسكن في داخلنا، يغير سكننا ويجدد ذهننا و يأخذ كل يوم مما للمسيح ويعطينا .

فالحياة في المسيح حركة وخبرة وتجديد وعمو بالروح لا يتوقف .

ولكن كل هذه الحركة السامية المفروضة في خبرة الإنسان الفرد يلزم أن تكون في نفس انوفت مطابقة تماماً لخبرة الكنيسة العامة، ولا تخرج عن إطار عقيدتها الثابتة المحددة !

ودعوة المسيح لنا أن نصلي أمام الله، ثم إلحاحه علينا أن نصلي ولا نمل ثم نصلي بلجاجة، هذه الدعوة في الحقيقة تشير إلى المصدر الذي ننال بواسطته قوة على التغيير والتجديد والنمو، لذلك أوضح المسيح ضرورة الصلاة، لأن بواسطتها يتم أخذ شيء لا يمكن أخذه بأي طريقة أخرى إلا بالصلاة وحدها . أما هذا الشيء الذي يُعطى لنا بالصلاة فقط فهو يختص بالله نفسه « يعطي الروح القدس للذين يسألونه » (١) (لوقا ١١: ١٣)، لأن الصلاة هي اتصال روحي بالله .

(١) يقول بولس الرسول - من مصر - وهو من أتباع بطرس - « الله روح حي في شعبه هو عاين (يسوع المسيح) [لاجل بلاهوته] أي فيكم أن أحبكم بكل قبي، لأنه بسبب هذا حب الله في قلوبنا قد صرنا نحن في مكانه عيشه . لذلك أن أطلب من الله أن يربنا ونعمو بلاهوته في قلوبكم بحبة . » [الرسالة ١٣ .

وبهذه هذا المعنى يقول الأب صاروفيم آخر قديس روسي : [إن غاية الإنسان المسيحي هي أن يعقني الروح القدس .]

أما كثرة الصلاة بدون من فعرض الله منها هو أن الصلاة تحدث فينا تغييراً جوهرياً متواتراً يوماً بعد يوم.

أما كون الصلاة يلزم أن تكون بلجاجة، فذلك لكي تتحول إلى شيء أعلى من طبيعتنا. وهذا يتحقق لنا بالفعل حينما نحس بأننا أصبحنا شيئاً أكثر من أنفسنا، وهذا ما يدعونا إلى توسل كثير وإلحاح حتى نفعل صلاتنا لأت سالها ما هو ليس من استحقاقها أصلاً.

لذلك ينبغي لنا أن ندرك أن الصلاة بخددها عمل جوهري يتم خلاله تغيير وتجديد و نمو للنفس بواسطة الله نفسه، دون أن يشعر الإنسان.

فلا المسرة ولا السلام الداخلي ولا الإحساس بالاستجابة ولا أي شعور آخر، يمكن أن يساوي فعل الروح القدس السري في النفس لجعلها لائقة للحياة الأبدية. فالصلاة أقوى عمل روحي ناجح يحمل جراءة التلمائي دون برهان من الشعور. ولصلاة لا يمكن أن يكون هدفها غاية أو هدف أعظم منها هي نفسها فهي أعظم هدف لأعظم عمل.

الصلاة انفتاح على قوة الله المعانة عبر المنظورة وغير المحسوسة. فالإنسان لا يمكن أن يخرج من أمام الله بدون تغيير جوهري و بدون تجديد وذلك بصمان وعد المسيح، ولكن لا يكون التغيير على أساس الطفرة بل على أساس البناء الدقيق غير الملحوظ.

والذي يصبر به و يداوم على تسليم نفسه له بالصلاة بدون من، يأخذ في النهاية أكثر مما كان يستحق بل وأكثر مما يستحق. فكل من عاس بالصلاة، تتجمع لديه في النهاية حصيلة هائلة من الثقة بالله تبلغ حد القوة وليقين على مستوى المنظور والمحسوس، لأن النفس تتشبع بالله في كل كدها حتى إلى الأعماق فيحس الإنسان بأنه إحساساً يقينياً يبلغ حد القوة حتى يشعر بنفسه أنها أصبحت أكثر مما هي وأقوى مما هي، و يثق بوجود آخر أعلى من وجوده الأزمني وفي نفس الوقت لا يتجهل ضعفه ولا يمكن أن ينسى نقائصه.

وهذا الإحساس يهيئ بوجود الله وبصوته يبنى داخل النفس إتساعاً في مجال الإدراكات وحقائق إلهية وإتساعاً في القدرة على التمييز والرؤيا، وهكذا تشهد النفس في حدثها ميلاداً جديداً لأفق جديد لعالم جديد، هو عالمها الحبيب، عالم يسوع، الذي يصدر عن الله وليس عن الخواص والذات، يتلقن الإنسان التعرف عليه حسب مشيئة الروح وليس حسب مشيئة العقل دون تدخل من الإرادة أو الجهد أو الحكمة البشرية.

وحيثما ترتقي النفس إلى عالم النور الحقيقي الذي داخلها تبتدىء تتوافق النفس مع الله بالصلاة الدائمة حتى تفقد كل حساس داخلة وكل شك وكل قلق وذلك عندما يتحكم الحس في كل حساساتها وتحركها، وتصهر كل خرافاتها الماضية والحاضرة في حرارة المحبة الإلهية التي تستطيع أن تلغى كل تحيز الذات ومحاوفاها، وتنفي كل أخطاء الأناسة وشكوكها ولا يتبقى في إحساس النفس إلا الشعور الكامل بسيادة الروح ومنهى المسرة في طاعة مشيئته.



والمسيح حينما ساشدنا أن نداوم على الصلاة باسمه لدى الآب، فهو بما يكشف لنا تدخله العجيب كوسيط نتلقى من اتحادنا به في الصلاة قوة تدفعنا للدخول في مستويات عالم الروح الذي يفوق طاقتنا ويفوق إدراكنا وحواسنا وكل إمكانياتنا.

فكل صلاة نقدمها باسم يسوع المسيح لدى الآب، هي بمثابة دفقة روحية تنسكب من قلب المسيح إلى قلوبنا ومعها قوة حياة مقدسة غير منظورة وغير محسوسة تسري فينا وتستقر في أعماق روحنا وترفعنا فوق أنفسنا حتى توصلنا إلى الآب.

والسر في توسط المسيح في كل صلاة تُرفع باسمه لدى الآب، يكمن في شفاعته ككاهن أعظم وفي ذبيحته الدموية الكفارية التي جعلته «قادرًا أن يخلص إلى إتمام الذين يتقدمون به إلى الله إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم.» (عب ٧: ٢٥)

والمسيح إذ يأمرنا أن نصلي ثم يعود فيضمن استجابة الصلاة، يجعنا مسئولين ومُدانين إذا لم نصلي وإذا لم نثابر حتى ننال الجواب الذي يرضي مشيئته.

وهذا تصبح الصلاة من أهم وأقوى أعمالنا التي يمكن أن ندخل بواسطتها في سرية مباشرة مع المسيح ونسمع طلباتنا في الحال لدى الله الآب!

وكسر الأمر الذي ينبغي أن لا يغيب عن ذهننا قط هو أن الصلاة في عاينها النهائية ليست إلا لتجديد الله، ولتذوق رحمته وأمانته وصدفه العجيب في كافة مواعيده. لذلك أصبح من المحتم عينا أن نختبر أنفسنا ونحن نصلي حتى تكون الغاية النهائية من الصلاة هي إعلان مجد الله وحده.

وتحب هذه لغاية المباركة تدخل في الدرجة الأولى كافة الصلوات التشيعية التي تقدمها

الكنيسة من أجل نفوس المتعة والمرضية والصلاة، هذه الصلوات التي جعلتها الكنيسة واحبا عاما ملزماً على كل فرد في اسبغ بلا استثناء حياً بهنئ اساس بالكنيسة كلها في كل «أوشيه» حتى يقدم كل بيت صلواته وتوسلاته خلاص كل نفس باعتباره أن الكنيسة كلها أصبحت بخضور المسيح «مبوك وكهنة مد» (رؤ ١: ٦)، فعلى كل فرد إذن أن يتشفع ويتوسل عن القريبين والعبيدين كضرورة موضوعة وليس عن اختيار.

ولكن حبرة الصلاة ليست كلها مسرات وفوه ومفيدة مطبوعة، فالإنسان لكي منضع تحت يد الله مدخل في مراحل لا حصر لها من التهذيب والتأديب. والمعروف عن الله أنه يميت ليحيى، ويكسر نعصب، ويجرح ليستفي، ويضرب ليقتل، ويبقى ليرد إلى أحصائه. ولا بد أن يمر كل مختار به تحت نعصى، ولا بد أن يذوق كافة محبيه مرة لهجران وعلفه الصدود، ويعاني أبنائه من غضب أبوته وانتباره.

فكل من مدخل في عهد الصلاة مع الآب باسم المسيح عليه أن يسم نفسه أولاً لروضة التهذيب، ثم لمدرسة الآلام الابتدائية، ثم لمعهد الآلام العليا. فإن كان ينبغي «أن يكتم رئيس خلاصهم بالآلام» (عب ٢: ١٠)، فيستحيل أن يدخل في شركة مجده دون أن تجوز شركة الآله.

ولكن كل من يكملوا في مدرسة آلام الرب، صاروا أقوياء في الإيمان: «بالإيمان فهدوا محالك، صنعوا نراً، نالوا مواعيد، سدوا أفواه أسود، أطفأوا فوه النار، نجوا من حد السيف، تقووا من ضعف، صاروا أشداء في الحرب، هزموا جيوش غرباء... وآخرون غذبوا ولم يهبلوا النجاة لكي يمالو قيامة أفص... تجربوا في هراء... في قيود أيضاً وحس، زحموا نشروا، جربوا، ماتوا قتلاً بالسيف، طافوا... معتازين مكروبين مذبلين... تائهين في براري وجمال ومغاير وشعوى الأرض... مسهوداً لهم بالإيمان...» (عب ١١: ٣٣ - ٣٩)

هكذا كل من أراد أن يتكلم بالإيمان لا بد أن يسبق ويتكلم بهذيب الروح بأنواع وصور التعويم والتأديب المختلفة ليكون لائقاً للشهادة للإيمان بالله في وسط الآلام والمحن وتحب أشد تهديدات الموت، لكي يكون له من الآله شهادة مماثلة من الله لإستحقاق مجده: «تعالوا يا مباركى أبى رتوا المنكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم.» (مت ٢٥: ٣٤)

إذن، فحبرات الصلاة ليست هي فقط لحساب الإنسان الذي يتجدد بها ويمو، بل إنها تعكس في النهاية لتتبر على الآخر بس «فبيضىء نوركم هكذا فدام الناس.» (مت ١٦: ٥)

لذلك، أصبحت قيمة الصلاة فائقة و بلا حدود تتجاوز صاحبها إلى كافة الناس، ومقدر عمق الاختيار عند النور لصي، على كل الأحوال و يشهد الله في كل الأقطار.

لذلك، فإن نقص شهادة لدى بعانيه الناس بسبب عجز الكارزين المحترفين، لا يمكن أن يحسره إلا رحاا الصلاة شهادة حياتهم و قوة إيمانهم و بعض رجائهم. كذلك فإن شدة طغيان الباطل والنظم ومحنة المال التي انصربت بها العالم لا يمكن أن يرفع أثرها و يبطل حدها إلا وجود هؤلاء الرجال والسيدات والتسار والشابات الذين يعطون بحياتهم وصلواتهم معنى جديدا للعالم ورحاء جديدا للحياة يتحدد بقدر الشهادة الرائعة التي يعطونها نزهدهم في كل شيء وتكريسهم الحياة كلها لله والحق.

لذلك أصبحت لفظة العالم اليوم إلى شهادة إيمان حية — صادرة من نفس ها صلة حصصيه بالله — شديدة العناية لأنها تفوق في وزنها وأثرها ألف كتاب عن العقيدة والإيمان والصلاة!

وأمام سوء المنابل الذرية وهديدها بتدمير العالم لا يوجد أمامنا منقذ للسلام والرجاء والطمأنينة إلا في رحاا الصلاة الذين يستطيعون بالقوة الإلهية المذخرة فيهم أن يخلقوا فينا رؤية فائقة لعالم لا يمكن أن يفنيه الشر.

هكذا أصبحت الضرورة تلح علينا بأن ندخل مخادع الصلاة، لا لكي سغزل عن العالم الهالك فنحوب بأنفسنا ونخلصها، بل لكي نفتحم الهلاك الذي في العالم ونفديه، لأنه عندما نموت عن أنفسنا وعن العالم يحيا العالم و يتجدد! فالركب المحيية يمكن أن تغير ليس النفوس فقط بل ومصير العالم كله.

والنفس التي نحمل صليبها لا تجذب وحدها للمسيح ولكنها دون أن تدري ينجذب خفيها كثيرون: «احذبي ورائك فتجري» (نش ١: ٤)، لأن النفس البشرية ليست أبداً في عزلة عن النفوس الأخرى، فبلوغ أى نفس إلى ملكوت الله هو مكسب للعالم بصورة سرية. ولطريق المطروف سهول المسير فيه! ورحاا الصلاة علامات ثابتة على الطريق تبرز إلى أبد الدهور.

الأب متى المسكين

وادي الريان — عام ١٩٦٨

مقدمة خاصة للطبعة الثالثة (١)

عن الصلاة:

مهما تكلمنا عن الصلاة تظل الصلاة في أشد الحاجة إلى حبرة، فالصلاة في حقيقتها احتسار الوجود في حصرة الله. وفأخرج حضور الله ليس صلاة! وقد علمنا أن حق الدخول في حضرة الله أصبح بدخول المسيح طريقاً دشنة يوم ضللت، وافتتحة يوم قام وصعد، طريقاً حياً حديثاً بجسده وهو بعبية الحجاب الذي كان في الهيكل يفصل ما لله عن الإنسان، الذي انشق من فوق بيد الله إلى أسفل حيث نحن، فاندفعت علينا الحياة الأبدية التي كانت مخفية في الآب فأطهرت. فإن أصبح لنا بجسده صعوداً سرّي إليه، فبدمه الثمين لنا دخول إلى الأقداس العليا. والروح القدس يقّدمنا إلى الآب شاهداً ببسوتنا له متكلماً فينا وبنا كلاماً يعرفه من حسروه، كلاماً ملتهباً حاراً يُوقد الجسد كله ناراً فينسى الإنسان عجزه وحقارته ويكاد يرتفع إذ يتدد ثقله الذي كان بخطاياها التي تربطه بالأرض وهذا العالم ربطاً.

لذلك نسمع من القديسين الذين اختبروا قوة الصلاة أنها تعطي للإنسان أجنحة ترفعه يطير بها طيراً، وما هذه الأجنحة في حقيقتها إلا نشوة الإحساس بقرب المسيح وحلاصاً من ثقل ضمير الخطايا الذي يكّند علينا صلاتنا. فالصلاة الحارة إن تلامست بالروح أعطت في الحال خبرة موت عن خطايا، وقيامه بالروح وصعوداً سريعاً محدوداً وموقوتاً، ثم دخولاً إلى الآب بجراءة ابدي يقّدمنا إلى أبيه ممسوحين بدمه، والنعمة تلفناً لفناً فلا يظهر من عوارنا شيء. فالذي يقوله لنا القديس بولس عن الدخول إلى الآب ليس هو مجرد انفعال رسول اختاره الرب وأداه نعمة القرّبي ورؤية الجوهر الذي لا يُرى، بل هو ميراث الابن الوحيد وقد توزّع على الأنساء بسحاء كيلاً ملتبداً مهزوراً. فما كان للقديس بولس صار لنا: وهذا هو حتمنا وشهادة حق من ضمير. وتسدينا في ذلك شهادة التلميذ الذي كان يحبه يسوع: «أما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح» (١ يوا: ٣)، شركة حياة وحب في سخونة الصلاة بالروح، الذي يُحيّم علينا ليبتلع عتامتنا قليلاً حتى نحس ونلمس ونرى ما لا يُرى، هذا الذي ملأ قلبه فرحاً فأراد أن يطرحه علينا لشارك في فرح مثل هذا يكمل غنى ميراثنا في المحبوب.

متى المسكين

ليلة الأحد ٢٨/١٠/١٩٩٥

(١) صدر الكتاب في ٣ طبعات: ١٩٥٢ و ١٩٦٨ و ١٩٨٦. وصير النسخة الحالية (١٩٩٥) الإعادة الرابعة للنسخة الثالثة.

الباب الأول



طبيعة الصلاة

في هذا باب نمد شرحاً مستمضاً لطبيعة الصلاة ودرجاتها والحدود التي يمكن أن تتجاوزها الصلاة العادية لتدخل في مواهب الصلاة؛ ثم تتعرض في نهاية الباب لمشكلة واجهت الآباء في مدى سرعة التفرغ لحياة الصلاة وقيمة التعمق في الصلاة بالنسبة لدوي الأعمال والخدمات الكثيرة.

و يلزم أن توجه نظر القارئ أن حياة الصلاة الأرثوذكسية هي، في مفهومها الأول، تطبيق عملي لوصايا المسيح، أو هي تحويل البشارة بالإنجيل إلى سيرة. فالأقوال التي سَمِعَها من الآباء عن الصلاة هي في حقيقتها اختبار عملي للإنجيل، لذلك نحن نعطيها أهمية كبيرة وننظر إليها كأقوال مقدسة، وذلك بالنسبة للمصدر الإلهي الذي كان يغذي سيرتهم المقدسة هذه.

فإذا كنا نقرأ في الإنجيل عن عظمة النعمة المجانية ومعد الخلاص المجاني، فنحن نقرأ عن حتمية الجهاد والسهر وضرورة التجنُّد للمسيح والركض في ميدان الإنجيل والتسلح بأسلحة البر ورفع الجسد واستعباده والإستعداد الدائم لمواجهة عدو شديد مراوغ يجول باستمرار ويزار كالأسد ليلتلع المتوائين.

و يصور لنا المديس بولس الرسول الصراع الروحي أنه صراع خطر، ليس مع قوات منظورة يمكن رؤيتها، بل مع رؤساء الظلمة المتسلطين على فكر العالم ومع جنود الشر المهيأة لحرب الشهوات والإغراءات وإسقاط النفوس في غوائل الإثم والتعدي. كل هذا استطاع الآباء أن يكتسبوه و يتمموه: بالوا النعمة المجانية وحاربوا حروب الرب؛ انتصروا بنعمة الله على أعداء الروح وحلصوا وبألوا المجد المجاني، وبذلك أكملوا الإنجيل بالحق والعمل.

لذلك أصبحت سيرة هؤلاء الآباء المديسين وأقوالهم نوراً حقيقياً يصيء فدام الناس. من جيل إلى جيل، كإنجيل مطلق وبشارة حية تشرح قيمة النعمة المجانية في كسب معركة الجهاد ضد الشر؛ وتوضح بالسيرة العملية حقيقة الخلاص المجاني الأكيد لإنسان يطبق الوصية ويستमित في تنفيذها.

لذلك حبى نهرأ لهم عن مة هى الصلاة، فبح فى الحفيفة بنحس حبرة إبحية وتتصور مبدئياً وفة جهاد حدى مسح استحاب صوب الدند وحق الصلاة آله خلاص يحمها بيده الصعيف المرتعشة و يترك النعمة المودة إحكم الرمية و صانه الهدف . كما تتصور حتما مطر الخلاص و سنعراض نور يع الحوائر واليبس، ويلمح لأفراح والأكاليل وتكميل المجد كالمواعيد.

وحبها نهرأ هم عن الترقى فى درجات الصلاة العلى، فبح تتكشف، فى سر، انتقال النفس من محد إلى محد بقوة الروح على قدرتها من جهاد لجهاد ومن نصرة لنصرة بل من جرح لجرح وتجربة لتجربة.

فالتقدم الروحى لا يتم إلا عبر وادي الآلام والدموع.

وحبى تتكلم الآباء عن موهب ما فوق الصلاة فلا تتصور هم يتكلمون عنها وهم يائسون أو حالمون مستريحون، بل فاعوها وهم فى حصيص الضعف ولألم والمرض وقد فارقهم قوهم ونصرهم وصارت نفوسهم ملصقة بتراب الأرض « ورأيت هذه لرؤيا العظيمة ولم تبوق فى قوة، بضربى حولت فى إلى فساد ولم أضط قوة» (د: ١٠: ٨) : «فلما تكلم معى بمثل هذا الكلام جعب وحبى إلى الأرض وصمت، وقلت للوقوف أمامى: يا سبدي، بالرؤيا انصبت عنى وأحافى لما اضطت قوة... ولم تبوق فى سمة» (د: ١٥: ١٧ - ١٧). وحبى القديس بولس برسول نفسه لم تسم روحه بالرؤيا إلى لسماء لتأث (الروحية) إلا وهو واقع على الأرض بين الموت والحياة بعد أن رحمه أهل «لسترة» وحرّوه خارج لمدينة ظانين أنه قد مات! فعسير جدا أن يتذوق الإنسان شيئاً من المجد المحلى دون أن يمرح له لعالم خلا ممرارة، ولا ممكن ولا يستيع أن يقول أحد « قد أكمل » أو «إني حُصت» إلا وهو يلفظ النسمة الأخيرة على صليب العالم!

الفصل الأول

تعريف "بالصلاة وفاعليتها"

- أولاً: ما هي الصلاة
- ثانياً: عظمة الصلاة
- ثالثاً: ضرورة الصلاة
- رابعاً: فاعلية الصلاة



أولاً: ما هي الصلاة

«يا رب علما أن نصلي.»

(١٠.١١)

لقد حاول المؤلف التعبير عن فصول الصلاة بصورة رمزية ذات معاني
حتى تنصع في ذهن القارئ لتذكره بموضوعها.

« حينما قلت اطلبوا وجهي!! لك قال
فلي وجهك يا رب أتمس .»

(مر ٢٧: ٨)

لصلاة إد كذب روحية صادقة فهي بداء واستحبة ، بدء فهي واستحبة بشرية .

هذا التفسير لماهية صلاة يعتمد على حقيقة ذات أهمية ، وهي أن الصلاة لا تبغ فورها
وحقيقة كإبصار معنى الله ، إلا إذا بلغ الإنسان أثناءه إلى أعلى حالات إدراكه لنفسه ،
متيقنا أن نفسه مخوفة على صورة الله وأنها تستمد كيانها منه ، وأن أهم ما في كيانها هو وعيها
وإدراكها لذاتها ، هذا الذي حينما تتحقق منه تكون قد بلغت إلى مصدره الذي هو الله فتدرك
وتعي وتحس بذات الله . (١)

و يستحيل أن يبلغ الإنسان إدراكه لنفسه إدراكا صادقا و فعيا أمينا دون أن يدرك الله ،
لأن الله هو حلق النفس ، والنفس مخوفة على صورته ، فمجرد أن تتحقق الإنسان من نفسه
يصبح في الحار في مواجهة الله . وأكثر من ذلك فإن الوعي الذاتي ، الذي هو إحدى قوى
النفس الموهوبة له ، هو أيضا صورة الوعي بالله لذاته . لذلك فإن الطريق إلى وعي الإنسان
لذاته وعيا حقيقيا صادقا أصبح هو نفسه الطريق إلى فهمه و لوحد المؤدى إلى إدراك الله ،
خصوصا وأن في تحديد حقيقة الروح القدس في المعمودية يصبح هذا الوعي الذاتي على نفس
صورته الإلهية الأولى تماما بعد رفع تشويه الخطيئة .

والصلاة ، إذن ، أصبحت هي و فوق النفس تجاه حلقها توسط وعي تحديد الروح
لقدسها ، حسب تستمد النفس من المسيح صورة نوبتها لأولى التي كانت قد فقدتها
بخطيئته وبتعمده إلى الله الآب بجرأة كمدعوة كل حين ، كحقيقة متجددة باستمرار نحو
خالفها أو كإس لا يستريح إلا في حصن أبيه بمبادئه و باستحبة دعونه في أن واحد .

(١) يقول القديس أنطونيوس الكبير: [الذي عرف ذاته فقد عرف الله... أما أن يوس الهراطقي فإنه ضرب صورة لا شيء
منها ، فهو كمن عرف ذاته حقا ما كان يظن عما هو غير الحق ، فظاهر أنه لم يعرف ذاته ولذلك نجاس على سر الإله الوحيد .]
(الرسالة الرابعة)

فأصلاه سر معروس في كيانا ووعينا النفسي. وبحسب طبيعتها السرية، هي نداء الله استدخلي المستمر في كيان الإنسان حتى يمنع الإنسان عاينه فصد الله من حقيقته وهي الاتحاد به. أما بحسب صهرها فهي إستجابة حرة للإرادة الصالحة حسب تقوى من حين لآخر وتلي الدعوة الإلهية الممثل أمام الله والتخديع معه. وفي كلا الوضوعين، نحن في بدء المستمر لمهم والإسجدة العلية المتقطعة، تكمن الصلاة كفعل إلهي سرى، كنداء وحواب، وكمناجاة كما يسميها عديس عر بغور بوس اليسى، ولكنها مادة نشطة من جانب الله بطيئة دائماً من جانبنا. وفي الواقع، فإن كلا الطرفين يبادى وكلا الطرفين يستجيب، غير أن الله يكون دائماً البادى: «بسطت يديّ طول النهار...» (إش ٦٥: ٢)

أما الغاية الزمنية من هذا الحوار الإلهي الشري فهي نداء الإنسان تحت عناية الله صمناً لحياته على الأرض وتأكيداً لعمه، وأما الغاية النهائية فهي قول الإنسان في شركة محبة الله مرة أخرى وإلى الأبد.

وهو يظهر الله صاحب فصل في كل صلاة، لأنه هو المادى كخالق وكأب، لذلك وجب أن نبتدىء الصلاة بالشكر الكثير! وكم يظهر الله متواضعاً إذ يتنازل ويطيب الحديث معنا بالرغم من خطايانا!

لذلك لزم بالصبر لكي نرفع الله إلى مكانه اللائق أن يعطيه المجد ويعترف بخطئنا ونتوب إليه، لأنه بقدر طهارة قلوبنا يرتاح الله فينا.

وفي هذا يظهر كيف أن الله يرضى أن يكون شريكاً في حياة الإنسان لرمية بكل ما فيها من ضعف متحملاً معه مسئوليات نفاثات النظام الرمنى وتعسف الطبيعة «التي أخضعت للبطل». (رو ٨: ٢٠)

هذا التنازل العجيب من جانب الله في دعوته لنا بالمثول أمامه وقول حديثنا إليه راضياً أن يشترك معنا في كل أتعابنا: «في كل ضيقهم تضايق» (إش ٦٣: ٩)، حين ندركه بالصلاة ونختبره فعلاً في حياتنا اليومية يفتح أمامنا سر عظمة الله وسر إتضاعه معنا، ومن خلال إحساسنا بعظمة الله تتكشف لنا حقيقة أنفسنا كخطاة وما يستحقه من دينونة مستوب، أما من خلال إتضاعه معنا فتحتري فينا كل ميول الكبرياء ونسحق في حضرته بتدن كثير فتكمن ديبحة إتضاعنا وحسب له! وهذا تكشف لنا طبيعة الصلاة كإتصال فعال بالله ينشئ نتائج حتمية.

وهكذا بدأ الصلاه كدعوه سرية من الله للمتلون أدمه ، تكلم من جانبها باستجابة حرة مستقلة بتحديث إله . ثم تدخل الصلاة في مقصدها الإلهي كفعل قوية وتصهر ، ثم تسبح إلى غايتها العظمى كذبيحة محبة وإتضاع إعداداً للشركة مع الله !

وبالرغم من أن الصلاه حاسة روحانية معروسة في النفس في صميم وعيها ، لا أن كثيرا من الناس لا يستخدمونها فتصبح في ركود دائم زمام يدوم كل حده الإنسان فموت وهو لم يع حقيقة نفسه ولم يع علاقتها بالله هذه النفوس شتهتها بهذا الرسول : « كبحوا تأنه محفوظ لها فقام الظلام إلى الأبد . » (يه : ١٣)

هذا أمر خبير ، لأن الصلاة ليست حاسة موحودة لتدبر الحياة في هذا الدهر فقط ، بل هي مغروسة في طبيعتنا حتى أيضا يرتقي توسطها إلى الله ويسهي إلى الإتحاد به ، فستل من هذه الحياة الزمانية الفانية إلى الحياة الأبدية معه .

فكأننا نحن مخلوقون للصلاة...

والصلاة هي الرباط الوحيد الذي يربطنا بالله .

وهي تمثل أمام قلبنا الحياة الأبدية التي نرجوها .

والصلاة هي الحانة التي نكتشف فيها صورتنا الإلهية استمع فيها رسم لتأوت الأقدس .

حيثما نفقد الصلاة نفقد كرامة صورتنا ولا يعود نسد الله في سىء .

انه يحدنا إليه بالصلاة ، ونحن بالصلاة نسير نحوه بسر عميق لا يدرى .

وفي حقيقة نحن بالصلاه نحد الله حواء ، لأنه إلهنا يأتي و يصنع في سرنا .

المحبة عند الله ليست عاطفة بل عطاء ذات ، وفي الصلاة الله يعطينا نفسه .

الله أعطانا نفسه لما حصنا على صورته ، وأعطانا بالصلاة أن نتحد به فيصير كنه له وكسا

له !

الصلاه تفتح حياتنا على الله « في كل ضيقهم تصايق وملاك حضرته حصهم . »

(إش : ٦٣ : ٩)

لصلاة تفتح حياتنا على الله « الروح نفسه (أتعء الصلاة) يستمع فيها بأنا لا ينطق

٠٤ . » (روم : ٨ : ٢٦)

في هذا الفصل نقدم لك ما قاله القديسون عن الصلاة. فقد عرفها كل واحد كما رآها وتذوقها، ليس عن فهم أو معرفة عقلية، وإنما عن اختبار وحياة.

فواحد رآها رفع العنق وحصره مع الله، والآخر رآها مصالحة مع الله، وثالث اختبرها دموعاً وتوبة، وأخر سلاحاً ضد العدو، وآخر مصدراً للنعم والبركات، وآخر تحولاً في قلوب، وآخر خدوة مع الله وآخر رآها أعظم من أن يحدّثها لفظ أو تعبير وهكذا... فكل حمة من هذه الجمل تحمل اختباراً بل تحمل لك جرءاً من حياة كل قديس!

إذن، فجدد ربك أن تصف عند كل منها لتأمل في حياة هؤلاء الأبطال كيف اتخذوا الصلاة لهم كل شيء حتى صارت حياتهم صلاة وصلاتهم حياة. فإذن بين حياتك وحياتهم وإحتباراتك عن الصلاة وإحتساراهم: فإن الهبت روحك ضع الكتاب أمامك واسجد وصلّ، وهكذا امزج قراءتك بالصلاة.

أقوال الآباء في ما هي الصلاة:

١ - يجب عند أن يصلي يسى فقط بعده الحمد أو بعده رفع الصوت أو بعده الصمت أو بإحياء الركبتين، بل يسعى أولاً أن يراعى عقله مراعاة مخصوصة، ويستقر به حتى يكون معه و يتنوع على نفسه و يسرف على مداحين الفهم و يعتمد على حذر - السكوت و حتى سبق رفع الصوت أو الصرح نحوه، على شرط أن يكون العقل مستمباً انتباهاً شديداً نحو الله.

فيمكن النفس كلها مستسلمة لرب في صلاة موحدة لا تسرع ولا تتوه ولا تترعرع عتس على فكرها، بل تكون أحياناً مختصة بعمل كل ما يتوافقها حتى تجمعها مع أفكارهم أمام المسيح تلامذه و تتقدم، حتى يسرف على و يعتمد على حقيقة قانون الإيمان و يهتمها الصلاة الروحانية النفس الثلاثة بالله واستحود أمامه بالروح والحق.

والله هو الذى يعلم كيف يصلى الروح و هو لا يرب على الله النفس الصالحة و يقيمها أمام كرسي مجده و يستريح فيها.

أبا مكارىوس الكبير (عظة ٣٣)

٢ - الصلاة هي رفع العقل إلى الله.

الأب يوحنا الدمشقي

٣ - الصلاة من حيث طبيعتها: هي حديث الإنسان واتحاده مع الله.

ومن حيث مفعوليتها: هي سجد وعصا العلم، مصالحة مع الله، أم و سب الدموع، كفرة الخطايا، فطرة عبور السجرات، سور يتخلص صدائلنا والنفس، منطق الخصم، عمل الملائكة، طعام غير الجسداني، سعادة المستنير، مع فصلا، فيص نعم، روح حى، طعام النفس، إستارة العقل، معون فعلا لهدم الأسس، مسير الأمل صد آخر المقصد... هي سبى برهمن، وكر لمنسكين، مدنة لطبع نفس، إعلان مستنير، علامة المجد... الصلاة لمن يصلى الروح و هو يكون به تمثية محكمة وقيام في ففص الإتهام واجتياز المحاكمة أمام الله قبل الدينونة العتيدة.

الأب يوحنا الدرجي

٤ - ... كذا حد عرب... من تلامس الإله السمانية التي هي قوة الروح القدس كى فى... ب

كان أحسن منه روح المسيح وعدد أن يكون من خاصته ، فبئسك موسلا "صلاة" من الرب حتى به
اللباس الروحاني السماوي ليستر نفسه العارية من القوة الإلهية ، لأنه إذا كان يكون عبده مكسوا بالروح
وهو مكسو بعيب الشهوات الدنية .

أبا مكاروريوس الكبير (عظة ٢٠)

٥ - الصلاة سلاح عظيم ، كذا صرح ، من لا يسلط الله ، مدء هادئ وسكون من فيه
اضطرب ، "صلاة" هي مصدر واحد من تركب لا تحصى ، هي قوة وهو به تنعاه ... الصلاة مقدمة
لحب السرور .

يوحنا ذهبي الفم

٦ - حسب الله ، أجمع بعدد عظمي إلى هي لكم وفكم ، وبكم محقق في هذا العالم
لوقى فأنه فظهر من مدء ، ولكن روح مدء لا يسكن في إنسان خاطيء ، لذلك أكتب إليكم كناس هم
استطاعوا أن يعرفوا دمهم ، وألمس يعرف دمه يعرف مدء وسجد به كمن يسعى ... وأنا لا أملك من القلبي
عظيم لكي تعرفوا النعمة التي صارت لكم من الله ، لأن الله برحمته ينجي كافة الناس بأسباب من
نعمة ، فلا سموا ولا تكسوا من صرح الرب بأراوللا مستعطفين صلاح الله الآب حتى نعمة
عليكم بمعونة من العلاء فتعلموا ما يجب عليكم ...

ومن يعمل هكذا ، وبما يتراءى على نعمة و نعمة له ذلك رغب المرته لتحرق كل أسوء نفسه
وطهر عنه ، بعد ذلك يسكن فيه الروح القدس ويكون معه على اليوم وحسنه يستصع أن يسجد
للآب كما ينبغي .

أبا أنطونيوس الكبير (رسالة ٥٤ و ٥٥)

٧ - الصلاة هي رجوع المائت إلى الله ، هي بكاء "الساقط" البادء أمام الله ، هي السكات سعور
القلب في طلبات وتضرعات وتهديدات الإنسان الساقط الذي قتلته الخطية .

الأسقف إغناطيوس ب .

٨ - حينما تصلي ألا تحدث مع الله ؟ أي امتياز مثل هذا ؟

٩ - الصلاة تحول القلوب النجسة إلى قلوب روحانية ، والقلوب الباردة إلى قلوب عبورة ،
والقلوب البشرية إلى قلوب سماوية .

يوحنا ذهبي الفم

١٠ - اعتاد الآباء النجسون أن يسبروا إلى الإنجيلات خبيرة ولأعمال الروحانية بلفظة الصلاة ،
وحتى مسبرون ، معرفة بعثون الأعمال الحسنة صلاة ؛ مع أنه وصح أن صلاة ختف عن الأعمال

هي أشياء تعمل، هـ، لأن العاريف لمصوطة لا يمكن إحكامها، لأن الأشياء المادية المحسوسة المبحودة في هذا العالم، ما الأمور المخصصة للحياة القادمة فليس لها أسماء مخفية ويتم بحوطها تعريف مسدود، إذ أنها تهوي الأسماء والإسارات والتسكن والتلون وعادات وطوبى سميت جميعاً.

مار إسحق السرياني

١١ - «الصلاة» هي شعورنا الدائم بغيرنا وضعفنا بروحنا، هي رجوع الإنسان إلى نفسه لتأمل في حياته الخفية التي هي من أعمال حكمته عند ابتلائه ورحمته وقوته المتأدرة على كل شيء. «صلاة حالة شكر دائم».

الأب يوحنا ك.

١٢ - أحببنا نطمعنون كنيسة «الصلاة» على ما هو ليس صلاة بائنة، مثلاً إنسان يذهب إلى الكنيسة ويقف هناك مدة ما يفرس في الأسئلة أو في وجوه الناس وملابسهم، يخرج من الكنيسة وهو مضطرب كـ كـ صلي! أو احزنه أمام الأسئلة في ركن حافته، يخرج رأسه ويستمع بعض كلمات قد حتمها عن ظهر قلب بدون معرفة أو شعور ثم يقتنع في دمه أنه صلي! ليست هذه صلاة بل هي حال لأن الصلاة إنما تكون من شكر ومن حب مع، ولكن مثل هؤلاء إنما يمشون أوفاهم مع الناس في الكنيسة أو مع الصورة في البيت ولكن ليس مع الله في الصلاة.

وتحرون صلباً سدهم وقبورهم باردة لا تسعروا لهم تباشير، يترن هؤلاء جميعاً في معصو أكر في دونه، وسدوا من قلوبهم، وتفكروا بفحص فيما هي صلاة وما هي الشركة المتدسة.

برودة صلب حواء في الصلاة إنما هي من بدمية السطوات، وهو البرودة كلها هي بهلاك، أما نحن فلنقدم قلوبنا لله محترقة حياً.

١٣ - الصلاة هي رفع بعض واشتياق إلى الله، هي تأمل في الله، هي حديث جريء مقدم من مخلوق لخالق، ودلت حينما تقف النفس حاشية أمامه كما تكون أمام ملك عظيم، في سيات كامل لكل ما هو حولها، مفتتلة من خطاياها بحمدها برب يسوع المسيح وأمين وحمه الخفيف.

الصلاة هي تعديس النفس، تدوئ لسرعات المستقبل، وتدوئ لسعادة الملائكة، هي المظر السماوي الذي يسكن و يروى ويخصب أرض النفس وينقى ويعش العقل، هي فرح الروح، لشريط الله الذي يربط المحن بالخالق، هي شجاعة ومعونة في كافة المحن والتجارب، مصباح الحياة الذي يضيء الطريق نحو السماء، ضامن النجاة في كل المهام، كرمه مساوية للملائكة، مشددة الإيمان والأمل والحب.

الصلاة هي حياة عشرة ومشاركة مع الملائكة والقديسين الذين أوصوا الله منذ بدء العدم، هي إصلاح الحياة التي انحرفت، أم الخشوع والدموع، لقوة الدافعة لعمل الرحمة، طمأنينة الحياة، مدده

خوف من الموت، إرداء بالكنوز الأرضية، وغبة مليحة لا نهذاً نحو السرقات السماوية، إرباق الديبونة شفه، وانتظار الصامة العامة بفرح، وتعطُّس لحياة الدهر الآتي، هي جهد وعزم لخلاص نفوسنا من العذب الأبدى، بحث لا يقطع عن طلب الرحمة والإحاح في طلب عمواحاكم، شرف الوقوف في حصرة التقدير، الكفُّ عن تطوُّب النفس وعن العطف على الذات وعن التماس لأعداءها. الصلاة هي توسيع القلب حمل كافة الناس بالحب، حلولية السماء بالنفس، ثوب متبادل في الثاوث الكامل القداسة «إليه نأتى وعنده نصنع منزلاً». (يو ١٤: ٢٣)

الأب يوحنا ك.

١٤ — الصلاة بالنسبة للنفس كنسبة النفس في أهميتها للجسد.

الأب يوحنا ك.

١٥ — «هو وحب عيباً أن نصلي دواماً و بدون انقطاع؟» «صوا بلا انقطاع» (١ تس ٥: ١٧)، وهل ذلك في الإمكان؟ إن الوصول إلى قوة الصلاة ودوامها لي استطاعتنا لو شئنا وهي ليست شيئاً نستحدثه أو نخلقه خلقاً، وإنما يمكن ممارستها في كل عمل نقوم به مدى الحياة وفي كل لحظة من لحظاتها.

١٦ — حين تأخذ مكانك على المائدة إبدأ بالصلاة. لماذا التسرع؟ هل الطعام سيفر من أمامك؟

١٧ — حينما ترتدي ملابسك في الصباح، أشكر الخالق عليها.

١٨ — عندما تأوى إلى فراشك لتلتف بأعطيتك لتعم بالدفء، استشعر الحب بحوائه الذي أحسا هكذا فأعطانا ما يناسبنا في الصيف والشتاء.

١٩ — هل انتدأ اسهار؟ قم أعط شكراً لمن وهب لنا نور الشمس بالهار لتؤدى عمى اليومى، ونوراً بالليل لتخدم بقية احتياجات الحياة.

٢٠ — عندما تتطلع نحو السماء لتتمرس في حمال الحوم، صل لإله العالم المطور.

٢١ — وإذا رأيت البطيعة قد غرقت في طلعة الليل وآوت الخليفة صاغرة إلى السبات والنوم عميق، حينئذ فم أنت أعده يد أعطانا بالرغم من إرادتنا خلاصاً من ذلك اجذب لمستمر نحو الكد والتعب ليجدد فينا نشاطاً ويردنا إلى شدة قوتنا.

لا تجعل الليل يطعم علبك بظلامه الممل الطويل، ولا تدع نصف حياتك يمر فارغاً في ذلك لتعاس اللاشعورى. قم أقسم الليل واسترع من ظلامه نوراً ومن تراحيه صلاة، بل جعل حتى من تعاسك تدارساً لمنهوى. أليست أحلام نومنا هي في غالب الأمر صدى لمشاعل واهتمامات النهار؟ فكما كان

سبوك وحر يد وتفكيراً هكداً مما لا مفر منه تكون أحلامنا! وإذا كنت بمصت في الفصيلة، كانت أحلامنا فاضلة، وهكذا نصلي بلا انقطاع!

الصلاة التصاق بالله في جميع لحظات الحياة ومواقفها، فصيح الحياة صلاة واحدة بلا انقطاع ولا اضطراب.

باسيليوس الكبير

٢٢ - الصلاة يسبقها حلوة، والحلوة يمكن التمرن عليها بالصلاة، ومن لا تثق نكتسب حب الله لأن في كليهما أسباباً تدعولحبه، والحب ثمرة الصلاة.

يا أحبائي، في العشرة السرية والإسعاد في الأمور الروحية تُشار إليها بكلمة «الصلاة» سواء كانت تلاوة أقوال مقدسة عن جهر قلب ولكن تميم وإدراك، أو كانت تريبلاً وتسبحاً لله، أو تدكراً دائماً لعبايته أو سجوداً أمامه، أو مزامير التهليل والتمجيد. فالصلاة، إذن، هي نبضات الإرادة الحية بالله، المبنيّة عن الحياة اللحمية؛ لأن من صلى بالحق هو حتماً مائت عن العالم. ودوام الصلاة يعني دوام إنكار النفس وميتوتة النفس.

مار إسحق السرياني

٢٣ - صلاة السار مفتاح السماء، وبموجب يستطيع كل شيء. هي جنى نفوسنا، مصدر لكل الفصائل، السبب الذي يصعد به إلى الله، هي عمل الملائكة، هي أساس الإيمان.

أوغسطينوس

٢٤ - لا من وقف لتصلي أعط قلبك لله، فليكن الحقيقى الذى تحب به، لى تحب به أولادك وتحب به أباك وأمتك، وتحب به أصدواءك ومر يديك الذى به تحس بحلاوة الحب الطاهر بغير رياء.

الأب يوحنا ك.

٢٥ - تمر عيب في صلاتنا الطويبة دقائق قليلة نشعر فيها أن صلاتنا تُسرُّ الله، هذه تكون قوام الصلاة الحقيقية والخدمة الصادقة لله.

في أهم شيء في الصلاة أن يكون القلب قريباً من الله، وهذا يدركه بحلاوة لشعور بحلول الله في النفس.

الأب يوحنا ك.

٢٦ - علامة الصلاة الناحية هي ارتساء فكرة واضحة عن الله في النفس، ودليل سكى لله فينا هو ثبوت الفكر فيه وبذلك نصير هيكلًا لله.

باسيليوس الكبير



ثَانِيًا: بِالْعِظْمَةِ الصَّلَاةِ

« طلبة البار تقنّدر كثيراً في فعلها. » (يع ٥: ١٦)

« فلتأتِ قدامك صلاتي. » (مز ٨٨: ٢)

« لتستقم صلاتي كالبخور قدامك. » (مز ١٤١: ٢)

« قدوس قدوس رب المواب اسماء والأرض مملوءتان من مجدك . » (إش ٦ : ٣)

هذا هو جوهر الصلاة الفائض بعليه السيرافيم في الرؤيا لإشعياء النبي .

الصلاة في جوهرها الحقيقي شركة مع جند السماء لتوحيد الخالق ، وهي ستسهي حتماً إلى ذلك حينما يخضع الكل لله الآب .

فالصلاة ليست أصلاً من اختصاص الإنسان فقط ، ولا هي لتعزيزه أو لتكميل حاجاته ومطالبه ، ولكن الصلاة عظيمة لأنها من اختصاص الروحانيين عموماً ، وهي ليست من هذا الدهر ولا لهذا الدهر ، فإذا حصرناها فقط في حدود الطلبات والإحتياجات وسد أعواز الإنسان في هذا الزمان ضاعت عظمتها وفقدت جوهرها .

لإنسان في نهديسه لإسم الله وتقديم الخضوع والشكر والكرامة له في تسييح خدص ، يصير روحانياً شريكاً للقوات السمائية في هذه الخدمة الفائقة .

ولكن نحن نسأل أيضاً الأمور الرمية من الله بسبب سقوطنا من درجتنا الروحانية الأولى لكي كنا فيها بلا عوز ، وهذا ليس من طبيعة الصلاة أصلاً ، ولكن الله تبارك من أجل حوده ووعد أنه سيسمع أيضاً لصلواتنا حينما نبته أعوارنا وسكوانا ، مع أنه يسبق و يعرف كل حاجتنا ، وذلك لكي يدخلك في قلب الإنسان الإطمئنان أنه لا يتخلى عنا بسبب خطايانا وأن ضيقاتنا تهمة .

ولكن حينما نتعمق في حياة الصلاة نبلغ في النهاية إلى التحقق من أنها فعل تمجيد وخدمة إلهية فائقة الكرامة ، هكذا استمر جميع القديسين في نهاية فهمهم و مدارسهم للصلاة .

لأن الأصل في الصلاة هو أن يكرم الإنسان مشيئة الله تكميلاً مطلقاً « لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض » . ولهذا تستلزم الصلاة بالضرورة أن يفرط الإنسان في مشيئة نفسه « لتكن لا إرادتي بل إرادتك » (لو ٢٢ : ٤٢) ، وفي هذا تمجيد وتقديس لله مماثل لخدمة السيرافيم ، علماً بأن مجد السيرافيم ناسيء من خدمهم لا من طبيعتهم !!

حتى أن فرد صعد لا يعطى مجد خدمنا، إذا كانت خدمتنا مدفوعة بقوة المحبة، مخصصة
لصيه طهيرة من عبادة الله ولا لآنية. والتسليم الكلي لمسيحة الله هو بجد ذاته دحول في عهد
شركة مع الله تمهد بالإتحاد. أما فساد طبعنا فانه يصح يتكفل برفعه من
الوسط. بدم أبنة «وعبيد البار بعرفته يبرر كثيرين.» (إش ٥٣: ١١)

لذلك فالصلاة، كسجد نحن، تتجاوز حدود بقائنا وعدم استحقاقنا لأنها هي
مجد دايم فعل كمن وادعه أن يحرك نص وتعطي كل عجز!! وعندما تُخص في أداها
لتقديس اسم الله، تتكلم هي بتوسط النعمة أن تجعلنا قديسين «لأن المقدس والمقدس
جميعهم من واحد» (عب ١١.٢)! فعندما نفهم في حضرة الله لتحبيده ترفع حولنا
الملائكة تفرح بخدمته مع أن كل خطيئة يدارها، لأنه معروف أن الملائكة تفرح بالخطيئة
عندما يأتي تائباً، ونحن مدعوون كخطاة للتوبة كل يوم!!

والصلاة نحدد بها حدود سجد رأسا خوالة لتقديسه بهب الإنسان فداسة وتطهيراً فتفتح
عن الإنسان من حدود يبرر بالروح سحرة الحياة التي هي لمسيح الحميفة: «الفداسة التي
بدونها لن يرى أحد الرب.» (عب ١٢: ١٤)

لذلك، فالصلاة ليست تمدد الإنسان القلبية البائسة ويطف كدمات لإحليل
ويأكل من شجرة الحياة كل حين فيتجدد ويحيا ولا يموت.

لذلك وبهذا المعنى عدم يقوى إلهنا أسقف يسوى، إن الصلاة هي المكوث!!
ولأجل هذا نصح عسا نصح كنسرا أن يصلي: «يسعى أن يصلي كل حين ولا يُمل»
(لو ١٨: ١). لأن في الصلاة الدائم سر انكشاف المكوث في داخلنا كما يفوق لتقديس
أنطونيوس الكبير: [أحسكم بكن في وروحي، لاقتنكم الله فيكم]
أنطونيوس الكبير (رسالة ١٣)

أقوال الآباء في عظمة الصلاة:

٢٧ - إن حروف التي لمبارك رأى من مت رؤيا حليته، فمضتها وكتبتها. وهي رؤيا مشحونة بالأسرار العذبة، لأنه رأى أسراراً بهته أربعة مخوفات روحانية حمة رب خالس قوفاً.

فهذا الذي رآه التي من حب صحة الوجود كان حفاً أكيد، ولكن نسيء الذي يدل عليه هو سر هي كان معناه مخفياً عن يدهور اسماحة طهر بجنى المسيح. هذا السر هو سر نفس البشرية الجسم لكوها ستمل مولاها فيها بعد ونصير كرساً لمجده. لأن النفس الإنسانية التي تستحق لشركة لروح قدس في نور نصير كنها ممجده نفس مجد نور المسيح الراكب والخالس عليها.

حيث يكون المسيح معه فأندها ومديرها وساندها. ولكن نفس في ذاتها ليس اللاهوت طيعها ولا العظمة نص من طيعها، بل هي مخوفة عاقبة حيلة عظيمة عجيبة شريفة كصورة الله ومثاله، ولم بدحيتها من عساد وطمة الشهوات إلا بالمعصية، وإذا قلب الروح القدس نصير متحدة معه في كل حركات بردها، وإذا عمت بالمعصية ودحيتها نور الله فإنها تستريح في النور.

أما قد فسدت النفس ظلام الخطيئة فإنها ترب لعذاب... والنفس التي تشبه أن تعيش مع الله وتسريح سورة الأبدى عنها أن تأتي إلى المسيح حشر حقيقي سديح ونموت عن حياتها الأولى وعن لعالم وعن ظلمة الخطيئة والخبث حتى تنتقل إلى الحياة الأبدية...

فصل، إذن، حتى سديح بقوة ونموت عن العلم وعن الحصة والخبث حتى نموت فيها روح خطيئة ونسرح حدة الروح السمائي ونستق من طمة الشرير إلى نور المسيح ونستعيش بالحياة كل الأيام...، والذي بهم نفسهم بأحباد وبعثش ويصل إلى الرب بلا انقطاع يال الفداء ويس هذا المعنى السمائي.

أبا مكار يوس الكبير (العظة الأولى)

٢٨ - الصلاة يجب أن تُفصح على كل شيء: مرثاهم بأضيافه والمقابلته ولكن مريم تجلس عند قدميه. في كننا الأحسن يرى عبيرة سامية، ولكن هل لك أن تميز بين لعمدين؟ الرب استحسن غيره الأخمين ولكنه فصل مريم على مرث. مرثا رمز الخدمة العامه، ومريم رمز وفقة التأمل الهادئ أمام الله في

صلاة! أنت تفقدى عن نخب، لأن بكليتها سواء هذه أو بالأحرى سوف نساب ثمرة الخلاص، غير أن الأخيرة أفضل من الأولى. «مريم اختارت النصب الصالح.» (لو ١٠: ٤٢)

باسيليوس الكبير

٢٩ — ليس شيء أقوى من الصلاة، لا شيء يعادها: منك مر من دالأرحوب، ليس هي كرحل نصي مرييا تحديته مع هذا أسه ذلك بإسناد دخل ليحدث الملك تخديت حص معه في حصرة كفة أفراد الحيش من صراط وفواد ودوى لرب الرسمه المختلفة، وجميع سيرمونه بطرة إكارو: حلال. هكذا ليس بصنئون! بصور يسا يدخل في سحاعة وإفدام ويتعد، في حصرة لملائكه ولساروويم ولساروويم وكل القواب غير المنجدة، وبقرب من منك هذه القواب جميع ويتحدث معه، أي شرف هذا؟

يوحنا ذهبي الفم

٣٠ — فمة كل سعى صايع وروح كفة التديرات المنفة هو الإدمان على صلاة، لأن توسط نال باقي الفضائل إن طلبناها من الله بصبر كل يوم.

وفوة الصلاة تبنى في ندين خسوا مستحقين لشركة قداسة الله ودخلوا تحت عناية الروحانية، حتى يصير عقلم ملتصقا بالرب بحبة لا توصف.

لأن الذي يعصب عنه على الصلاة كل يوم حتى يدمس عليها و بكره محبة لله في كل شيء، فإنه يحصل على حرارة المحبة الإلهية حتى يتقد بها ويوهب نعمة الروح القدس.

أبا مكاربيوس الكبير (عظة ٤٠)

٣١ — عمل صلاة مقدس ومرتع جدا وهو مبدأ كل الفضائل. يقول فيها المقدس مكاربيوس الكبير: «فه كل سعى صايع»، ورأس الأعمال الفاضله هو المدوم على الصلاة.

الأسقف إغناطيوس ب.

٣٢ — أنها لمسحون لأحياء «دوقوا و نظروا ما أضط الرب» (مر ٨: ٣٤). هو ليس فقط مدع سدخل إليه سوء كد حصه أو غير مسحين، بل إنه يحدسا نحوه و يعتمد كيف نصرت إليه ونصلي له، ويدعوه أنا. ومن حين؟ هو ليس مدس أعصاه، عبيد صوب. حصرة كنباء ترب ورماد ... آه يا الله اعصم ارحم في كل شيء، أنت نصف رحمتك بقلنا! ولنا نطفع أنت وحد فرصه بصلاة نصلي واثق من وعدك الكبير أن صلاتنا تسمع عندك!

الأب تبخون ز.

٣٣ — صلاة في المسكن تشبه ناراً، ومن الفرحه تدفق من القلب، ولكن في الكمن تشبه نوراً

يفيح عطراً يملأ القلب. هي بشارة الرسل، عمل الإيمان، تأسس الرجاء، تجديد الحب، حركة لملائكته، فوه غير المسجدين الدائمة، بشارة الرب، علامة مقدسة، رمز طهارة، وجود الله، إظهار المعمودية، إغتسال وتجديد في حزن التوبة المفتوح على مدود، حصنة النفس لروح القدس، فرح يسوع، سرور النفس، رحمة الله، علامة الصبح، حمى المسحوب، شمع سمس الروحانية، نخمة الصبح المسرة للقلب بعد ليل خطية الحالك، دعامة مسيحية، معروف مد، آية عظمة الصلاة! هي عمل الآب والابن والروح القدس.

الأب غريغوريوس (من سينا)

٣٤ — «لا يرضي أن يترك نحن كلمة الله وحده مواند... أما نحن فنواظف على الصلاة وخدمة الكلمة» (أع ٦: ٢ و ٤)!!! عظيم هو عمل الصلاة.

الأسقف إغناطيوس ب.

٣٥ — أيوحده شيء أعظم من الصلاة؟ أوحده شيء نفع منها خبات أو أحلى منها لفلوسا؟ إنها أسمى علامات العبادة المقدسة.

أوغسطينوس

٣٦ — يا لعظمة وسمو الصلاة! سعيد هو من يصلي خراة فالشيطان لا يقربه قط، على شرط أن يتطهر من كل غش. يا لسمو الصلاة!

مار أفرايم

٣٧ — وكما أن تاج سيان كل الفضائل هو تلك الصلاة، كذلك أيضاً إذا لم ترتبط كل فضيلة بالصلاة فإنها لا يمكن أن تقوى أو تدوم.

لذلك فإن هدوء الصلاة ودوامها لا يمكن التوفر عيها أو لإسدامة فيها بدون ممارسة الفضائل، وكذلك الفضائل، التي تعتبر الأساس الأول للصلاة، لا يمكن تكميلها بدون الإستمرار في الصلاة.

لذلك، وإبنا في هذا الحديث القصير لا نستطيع أن نشرح دار لصلاة ومد عيها أو نخطط بأهدافها الرئيسية التي لا يمكن بلوغها إلا بالتوفر أولاً على ممارسة الفضائل.

عز أنه يدرما على كل حال أن نحصر ونوضح ما يسعى حفظه وم، يسعى نتحن عنه من نحن إفتان الصلاة، كما يعلمنا المثل المذكور في الإنجيل في نختص بقاء نخرج بروحي العاني وما يسقى من حساب النفقة له مقدماً.

لأن كل ما يستعد به ويستحصره لبنة الراج بروحي وإرتفاع به بصبح بدون أي قيمة ولا يصلح أن يسي أو يرتفع عليه شيء، إلا إذا نحصنا أولاً من العيوب والأخطاء وحفرنا وعمقنا حتى نزيل كل

وساحه سمس وسهوب، انعمه الله، وحسنه نرسي أساساً منياً من لسطه و تواضع على رضية
فدوب احية حصه كصحرة الانحس، ويرفع بعدد سرح الفضائل الروحانية — بالصلاة — فيسوم غير
مزعزع و يرتفع حتى يصل راسه في أمن و وثوق، لأنه حين يستمر على مثل هذا الأساس فيه مه
ثقت عليه تواضع سهوب ومهي صدومه موجات الإصصهادات ومهي هاجته فوب لأعداء لا بسط
قط بن ولا يصيب حتى مجرد الضرر.

أبا إسحق (١) في حديثه لكاسيان

٣٨ - يا لهوة غير المصوف بها انى ملك بها الرب على قوسا... حتى مهات لا يمدون أن
يسدروا قوسا بما ما إلهي، في حين أن الرب يسميها إله بالتمام بواسطة صلاة.

الأب يوحنا ك.

٣٩ - ما هو رأس كل أعمال السك انى إذا ما بلغها إنسان يشعر أنه قد تبع قبة طريق؟
انه موصول بى الصلاه بدمه ا فحين يصل إلى هذا الحد، يكون قد لمس بهايه كل مضائق وصار
مسكناً للروح القدس.

مار إسحق السرياني

٤٠ . وحدث الروح الباري العظيم ، هذا الذي فيه أنا ، فيهوه أنتم أيضاً ، أما إذا أردتم أن تفبوه
وبسكن فيكم ، ففعلوا أولاً أتعب الحسد وبواضع القلب ؛ و رفعوا أفكاركم إلى السماء في الليل
وسهره ، وصبروا . فستدعه فب هذا الروح الباري ، وحينئذ يُعطي لكم بالصلاة . أدموا ، اطلتة رجته د
من كن فبوكم فببه يُعطي بكم ، لأن ذلك الروح يسكن في القلوب المستقيمة ، وهو يكشف لكم
الأسرار لعبوة وأنبياء أحر أمست عن قولها . و يكون لكم فرح سماوي ليلاً ونهاراً .

أبا أنطونيوس الكبير

(١) قوله: «فقد عثر على الصدر الذي أسقى منه كاسان فوائده عن الصلاة» والتي نسبت له حظ.

$$x_1^2 + x_2^2 = 1 \quad y_1^2 + y_2^2 = 1$$
[illegible]

$\frac{d}{dt} \left(\frac{\partial L}{\partial \dot{x}} \right) = \frac{\partial L}{\partial x}$

[illegible]

ثالثاً: ضرورة الصلاة



«بدوني لا تقدرّون أن تعملوا شيئاً.» (يو ١٥: ٥)
«صلوا لكي لا تدخلوا في تجربة.» (لو ٢٢: ٤٠)
«أدعني في يوم الضيق أنقذك فتمجدني.» (مز ٥٠: ١٥)

«لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له.»

(يو: ٤: ٢٣)

إن صلة النفس بالله وتشوقها إلى الحديث معه وُضعت كفعل صميمي في كيان الإنسان كما وُضعت الخدمة والتسبيح في صميم طبيعة الملائكة. وكما وُضع في الشجرة أن تثمر ثمرًا كجسها، فالإنسان الذي يستجيب لروح العادة في داخله يكون كالشجرة التي تثمر ثمرًا جيدًا في حينه.

وكما تسدو الشجرة في نظر البستاني كريمة وجيدة عندما تثمر ثمرًا كأصلها المرجومنها، هكذا ينظر الله إلى الإنسان الذي يصي إليه في الحين الحسن.

وكما أن الثمرة التي تقدمها الشجرة هي غاية رجاء البستاني من زرعها وسقيها والعناية بها، والصلة التي تربط الشجرة بقلب البستاني وفكره، والعلة الأساسية التي تدفعه إلى الاهتمام بها وإيمانها في حقله، هكذا الصلاة. فالله هو الكرام الصالح، وقد اشترانا بدمه، واقتنانا في حقله، أي غرسنا في ملكوته وهو ينتظر ثمرنا لأنه غاية عمله وتعبه وآلامه على الصليب. فصلاتنا هي الثمرة الناصجة لدم المسفوك والاستجابة الواعية لعمل محبته وآلامه.

أما ضرورة الصلاة بالنسبة لوجودنا في هذا العالم، فينبغي أن نعم أننا نعيش الآن في عالم قد ارتد إلى عبادة الأصنام التي هي المال والطمع وملذات الجسد، عالم تفهقرت فيه مخافة الله وصار السبيل فيه إلى جمع الأموال واستخدام القوة والدهاء والغش والرشوة في الوصول إلى المراكز الأولى ولإلتجاء إلى الكذب لتزكية الذات والسطوة والطمع لتحقيق السيادة كلها أموراً عادية في العالم والكنيسة على حد سواء.

أما كيف «أخلص نفسي» وسط هذا العالم فأصبحت مشكلة حرجية للغاية، تحتاج إلى جهاد كثير وانزواء عن هذه الأجواء الفاسدة والإلتجاء إلى صلاة كسلاح أول وأخير!

لم تكن الصلاة في زمن من الأزمان ضرورة سديدة تتوقف عليها حسرة النفس و

خلاصهم مثل هذا الرماد الذي يمكن أن يعيش فيه الإنسان بلا إله ولا يشعر به أحد بل ويمكن أن يُمدح و يُزكى.

فالصلاة - بسببها - أياد جميعا - وسط هذا العالم الذي موح بالإلحاد والخطيئة والمظالم - تذكّر أن لها حياة، وممكناً نغذا، وحياة أخرى مجيدة، وديونة لا بد أن نجوزها.

كم تذكّر الصلاة يوما نوه أنا لسا من هذا العالم، وأنا أناء نور، وأنه لا ينبغي أن تكون لنا شركة مع المستهترين أو الفاجرين أو بني الخلاعة والإثم.

الصلاة تمسك قلبنا عن أن نشهي بصبب الظلم، وتحفظ رجلنا من أن نزلق في طريق الخطيئة، وتحفظ لساننا من الممالة والكذب.

الصلاة تمدد بصيرة بيرة حتى ننفادي التورط في المحارة في الباطل والمحاملة في الخطأ واستحسان العمل المعوج الشرير.

الصلاة بها كل يوم سلاما قلبا جديدا عوض ما نفقده من جراء الإثارات والمظالم التي يواجهها في العلم، وهي ولا نعمه الله لكاتب فادرة عاي أن تورثا المرض والفق.

الصلاة نور داخلي يكتشف عليه عيوبنا وأخطاءنا في سلوكنا اليومي، حتى لا نخترى في الأيام والحوادث إلى هاوية الجحيم.

وكما الله لا يطلب مخرد مؤمن، بل هو طالت «مثل هؤلاء الساحدين الحقيصين الذين يسجدون له - بروح والحق» (يو. ٢٣). هيا نغتر المسيح عن حالة الصلاة القنوية المعترف بها عند الآب:

فاسحق، ولا نفس صلاة إلا بالحق، أي صلاة تعرف، وتؤمن به تدمأ.

واسحق روح، ولا نفس صلاة إلا بالروح، أي صلاة يدرك الحياة الأبدية ونخضع لروح الله.

فالصلاة التي بالحق والروح هي الصلاة التوحيدية المصولة لدى الله، وهي بذلك تعبير عن اتصال حقيقي بروحي بالله!!

وهذا التعريف في الواقع هو خلاصة المفهوم اللاهوتي الكامل والمحدد عن الصلاة الحقيقية أو الصلاة الروحية.

« إن قول المسيح إن الله طالبٌ مش هؤلاء الساعدين ، أنى المصنِّ ، يكشف عن قيمة الصلاة وضرورتها وأهميتها من وجهة نظر الله نفسه : « الله طالبٌ » . فكلية « طالبٌ » تفيد أن الله يسعى لصلاة الإنسان و يسترث في هيئة طرووقها و مكابياتها ونجاحها ! وكنا حلقة الإنسان تتوقف في سبيلها على نظر الله على وجود ساعدين له بالروح والحق !! هنا يظهر الصلاة الحقيقية كواسطة أو كصلة وحيدة بين الإنسان والله ، تدونها يقصد الإنسان معنى وجوده والغاية من خلفته !

آه وتذكروا دائما أن الله طالب سجدتنا : وكأنه هو سطر ساعة صلاتنا !!

أقوال الآباء في ضرورة الصلاة:

٤١ — الذي يفتقر في الجسديات وليس له حيلة، مديده ليسأل. هكذا في الروحيات، إذا أفقرتنا الخطية، يتحتم علينا أن نطلب ونسأل بالصلاة.

٤٢ — لله ليس محتاجاً بصوابنا، فهو يعرف ما نحتاجه حتى قبل أن نسأل، لأنه عارف بكل شيء ورحوم وسكوت من حوده الطمعي حتى على الدس لا يسألون، ولكن الصلاة ضرورية لنا لأنها تجمع مفرزين ومخلصين لله.

الأسقف إغناطيوس ب.

٤٣ — إذا لاحظت أن إسبائلاً لا يحب الصلاة فاعرف في الحال أن ليس فيه شيء صالح بالمرة. فالذي لا يصلي لله هو ميت بالروح وليس فيه حياة.

٤٤ — لكي تحتفظ بقليل من الماء دافئاً لا يكفي أن تقرنه من المارمرة، ولكن يلزم أن تكون له صفة متكررة أو مستديمة بالمار وإلا فقد دونه وأدركه برودته الأولى. هكذا القلب أيضاً يجب أن يُسعل نساء اليوم باراحت الإلهي، وديت بالصلاة، لكي يحتفظ على الدوام بحرارة عواطفه فندوم غيرته ولا يعود سريعاً إلى برودته الأولى.

٤٥ — لا شيء يقدر على أن يجعلنا سمو في الفصيلة مثل المداومة على الصلاة بكثرة، فهي هيىء لنا حياة العشرة مع الله... بالصلاة يكتسب القلب الشرف والأمانة ويرفع عن أمور الدنيا ليتحد مع الله بالتدريج فيصير روحانياً مقدساً.

٤٦ — لنستمتع بضرورة الصلاة ونذكر أن في تركها فقدان حياة النفس إدمها شيء واحد لا ينقص.

يوحنا ذهبي الفم

٤٧ — الصلاة هي أم كل الفصائل. والصلاة تحفظ العقدة وترتيبها في حضنها، تُبطل الغضب وتويع عيبه، تمنع موال الكبرياء والحسد، تستدعي الروح القدس ليحل في النفس، وتسمو بالنفس لترتفع إلى السماء.

مار أفرايم السرياني

٤٨ — لجسد لا يستطيع أن يبقى حياً بدون غذاء، هكذا الصلاة هي غذاء النفس وفواء حياتها.

٤٩ — نحن نؤمن أن ليس أحد من المدعوين يقدر أن يفرح بحلاصه بدون معونة الله، ولا أحد أيضاً يستحق هذه المعونة إلا بالصلاة.

أوغسطينوس

٥٠ — الصلاة هي دعامة الواحبات الثلاثة على الإنسان المسيحي: الأول صيته بالله، الثاني صلته بنفسه، والثالث صيته بأقربى. فواحداً خوانه غوم به في الصلاة، فمدعو باسمه ونظهر حسنا وماسك به وبماسك به ونعترف به كسبع لكل الركاب. نرحوه كما نرحو أبا حقيقيا ولنحىء إليه كأطفال.

٥١ — واحداً خوانه. فالصلاة تفتس دواتنا، ونفيس بسانا لروحى، وسعى سكون أهلا لسوة الله.

وأما نحو القريب: فبأن نسأل ونطلب له كما لأنفسنا.

أبا إسحق، في حديثه لكاسيان

٥١ — كل العنايا مادة معطيا الله من داته، أما كل العنايا الروحية فهي دارة من فوق من عند أنى الأنوار. ولكن علينا أن نسألها من الله. نظهر احتياجا إليها ونؤمن أنه هو معطيا.

٥٢ — الله يأمرنا أن نصلي: «أدعنى يوم الصبح... اسألو... اصصوا... فرعوا... صلوا...» لأن احتياجنا، جسدياً كان أو روحياً، فهو إنما يقودنا إلى الصلاة.

٥٣ — نحن ولشدائد ولعور والضيقات التى نحن بها لا نستطيع أن نحتملها أو أن نتصر عليها أو نتخلص منها إلا بمعونة الله التى تعطى لبدن سألونه في الصلاة. ربح كثير بأنى بواسطه الصلاة المتضعة.

٥٣ — إن سر دوام النعمة والفضيلة هو في دوام الصلاة.

٥٤ — كل من يتوكأ على عكاز الصلاة لا تترن قدماه... وحتى إذا رلت فهو لن يقع تماماً، لأن الصلاة سند للسائر في طريق التقوى.

٥٥ — قد قدمت لملكت سكايتك المسمرة صد أعدائك فحينئذ لا تفقد سحاعتك إذا هاجوك، فأنت لن تحاهد طوبلا لأهم سربعا يرحبون من تده دواهم. لأن هذه الأرواح الحسة إنما تحشى أن تأخذ عليها فرصه بالصلاة، لأن الصلاة هي ناح الجهاد الذي إذا سمرت به نهر كما من عذاب النار.

الأب يوحنا الدرجي

٥٦ - الصلاة حارة إلى ردموع، لا تفصل فقط الإنسان المنسحق من خطاباه بل وتبني ضعف الجسد وأمرأته أيضاً... الصلاة تحدد الإنسان حمته وتحميه إنساناً جديداً... أن أكرمكم من اختاراتي.

الأب يوحنا ك.

٥٧ - أصل أنه واضح لكل إنسان أنه بدون صلاة يسحب تماماً أن تكون للنفس فضيلة، لأنه كيف يسي الإنسان أن يجاهد من أجل قضية ما دون أن يسأل ويتضرع ويسجد أمام واهب الفضائل؟

٥٨ - كل من يريد أن يعمل عملاً ناجحاً ويضمن رضى الله، سواء في البحث عن راحة عفيفة أو في السير بلا لوم في طريق التولية أو في حفظ الإنسان نفسه بقاءاً من الحسد، أو في أي عمل صالح آخر، فيمكنه أن يتمه بسهولة إذا أخذ الصلاة مرشداً له. لأن كل من يسأل عملة أو استقامة أو وداعة أو راحة فيستحيل أن ترفض مسأته: «اسألو تعظوا...» يقول الرب (مت ٧: ٧)، وهكذا يحثنا الله على المثابرة على الصلاة ونحن خاضعون لمشيئته.

٥٩ - ربما يفس بعض الكسائي الذين تعرضون عن الصلاة الحارة أنه يمكن لهم أن يبرروا ذوبهم بخدماتهم لله السيد الرب: «ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات بل الذي يعمل إرادة أبي الذي في السموات.» (مت ٧: ٢١)

الاجوب هؤلاء أنه إذا كان ادعائهم حقيقياً، فصلاة واحدة تكفي للحلاص، ولكن الله يقول: «صلوا في كل حين» «صوبوا بلا انقطاع» «اسهروا وصلوا» «صلوا لئلا تدخلوا في تجربة»، فالصلاة هي رأس كل الأعمال الصالحة، فلا العملة وحدها ولا عانت بالفقر، ورحمتهم، ولا خدمتنا للآخرين تكفي وحدها، لأن الصلاة هي أساس هذه جميعاً.

يوحنا ذهبي الفم

٦٠ - الصلاة تسجع الضمير، وتلبس العقل قوة، وتقوي الرجاء الذي يهب الصمير، فيتحد الإنسان معه الصمير ويصير على شروق الأرض. لأنه يوازن كل حين بين هذه الأتعاب وبين الخيرات العتيد أن يرثها، فيستعين بالعذابات وأنواع الآلام.

٦١ - الصلاة الكامنه ترشد إلى السماء وترذل محبة هذا العالم. بالصلاة يستدرج العملة إبي التي تسمى المكوت، لكي إذا أحسها بها سبي الأرض وما فيها، وتندكر كل حين أن لها معيلاً قوياً غير منظور.

٦٢ - بواسطة الألفاظ يدخل في الأسرار، والصلاة تهرب العقل إلى الله.

٦٣ — ليس لأحد سؤالنا يعطي الله مواهبه وإعاناته بل إنما جعل سؤالنا وطلبتنا واسطة كلام يوصل العقل إلى تفرُّس أزمته لإدراك مقدار اهتمامه بنا.

٦٤ — الصلاة التي لا تلامها أفكار غاشية فاصدة هي كلام سادح ليس لها قوة عند الله. أما إذا اقتربت الصلاة بحسن السيرة، نكون مثل لبيب ناري حركها، لأن عطية هي قوة للصلاة التي يصلها النار. أما الله فهي ليست في الألف وواحد في الله. فهذا موسى و يشوع وإليشع كانوا يفعلون المعجزات من غير صلاة (هذا استثناء لمن وصوا لدرجة السوء وعمل المعجزات).

٦٥ — الصلاة هي عمل مرتفع متعال على جميع الفضائل.

٦٦ — لدى سهاون بالصلاة و يظن أن الله نارا آحر لنوبة فهو مخدوع من الشياطين.

مار إسحق السرياني

٦٧ — عندما يشرق نور الشمس يهرب الوحوش الصارية ونعني في أوجرها، وهكذا حينما يستدعى في الصلاة. فهي تنفع يسرى على فيسصى، العقل سورها وحينئذ يهرب كل الشهوات الوحشية الجاهلة وتندد. فقط علينا أن نصلي بشدة وفكر مصوص، فإذا كان الشيطان قريباً ما يطرد، وإذا كان هناك روح نجس فإنه يهرب.

يوحنا ذهبي الفم

٦٨ — الصلاة حلقة ذهبيه تربط الإنسان المسافر في طريق الأرض بالعالم الروحي وفوق الكل بالله. روحها هي من الله والصلاة التي بالروح ترفعنا إليه. في الصلاة ربح وفير لمن يصلي بالحق فهي تعطى راحة للنفس والحمد وتمتد حتى نعم من هم حولنا، بل ويشمل الآتين بعدنا... أنظروا مقدار أهمية الصلاة!

الأب يوحنا ك.

٦٩ — نهتم للصلاة أم الفضائل: «هلم إلي أيها الأولاد اصغوا إلي فأعلمكم مخافة الرب» (مر ١١: ٣٤)، «إفتحوا لي فلو كنتم لأدخل وأسكن فيها فأعلمكم كيف تحيدون عن الشر»، أعلمكم «أن خوف الرب ركني ثابت إلى الدهر» (مر ١٩: ٩)، وأله مرهوب على كل من حوله، عند الشارويم الممتلئين لهيباً والساووفيم الممجدين جداً دوى لستة أحبة... أصبح إلي وأترك الإهتمامات لساظلة وافطم نفسك ولورعماً عن هواك، أترك عناية المسرات والمعدات، أترك الكلام اهزؤ والعث وكثرة الكلام التي تترك النفس فارعة... أذكر وعمر ألك عريب على الأرض، أما السماء فهي بيتك حقيقي وسند سكناك... إستمع إلي فيس لك مرشد سوائي. أنا الصلاة أم الفضائل... كل القديسين الذين غادروا الأرض منتصرين واستقبلتهم السماء بالفرح كنت لهم مرشدة الطريق... كل من

يأتمنتني على سره أكشف له سقطته وخطيته، فإذا مدّ لي يده أرفعه وأنتشله من الهاوية... أكشف له مكان الشيطان وأحطم له شراكه وألزمه بالفرار... أنا الصلاة أصالح الإنسان بالله، أكشف لتلاميذي ومحبّي الخالق غير المدرك وأفودهم إلى العبادة الحقة والخصوع الذي يليق بالخالق أمام الخالق... أسد في الصلب تواضعاً، وأقيص فيه يسوع دموع عزيرة، وأجعل من مريدّي شركاء للنعمة الإلهية... كل من سئمي معاليد أموره لا أتخلّى عنه لحظة، بل في كل لحظة أحضره أمام الله وأقرّبه إليه وأشبعه من عشرته، حتى يجد في الله لذة لا يجدها في الحياة حاضرها ومستقبلها.

الأسقف إغناطيوس ب.

٧٠ — الصلاة المسيحية تمتد بالصبر هؤلاء الذين يرزحون تحت عبء الآلام فتحفف أحزانهم وتبهم نعمة وشجاعة... بالصلاة وحدها يُغلب الله من تحته! لقد جعل الله الصلاة ليس فقط لتدفع عنا الشر، بل منحها لتكون أيضاً سبباً لكل صلاح!

الصلاة تسترد السموس التي دهب في طريق الموت! تقيم الضعيف وتشي المريض، تفتح أبواب السجس لتطلق الأسرى أحراراً... وتفك أغلال البريء لينعم بالحرية... تغسل الخطايا، وتدفع التجارب، تطفىء الإضطهاد، وتبطل الطم والمسف... تعزّي صغيري القلوب، وتبهب ذوي الأرواح العالية، تعود بالمسافرين، وتهدئ الأمواج، تلحم قُطّاع الطريق، وتضبط طريق الأغنياء... تعذي لمسكين وتشي المريض، ترفع الحجر وتقيم الساقطين وتسد الواقفين...

لصلاة سور الإيمان، وسلاح ودرع ضد العدو الذي يرافنا من كل ناحية، لذلك ليتنا لا نسير قط غير مسلحين بالصلاة، بالنهار متيقظين لحالنا، وبالليل ساهرين، حافظين على الدوام فوام جنديتنا بأسلحة الصلاة.

كل مخلوق يصلي: الملائكة يصون، وحتى بهائم الحقل ووحوش الغاب تصلي وتحني الركب حينما تخرج من أوجرتها ومغائرها، ثم تنظر إلى السماء وهي مبهجة، ليس بأفواه صامتة وإنما كل واحد منها يُخرج صوته برعشة ربح زفيره حسب ما وُهب من صوت... حتى طيور السماء حينما تغادر أوكارها ترتفع نحو السماء ناسطة أجنحتها كشه صليب في السماء وهي تُخرج من حاجرها ما يمكن أن يكون صلاة... وماذا يمكن أن يكون أكثر من هذا ليُشعربا بأهمية الصلاة؟ الرب نفسه صلى! هذا الذي له القوة والكرامة والمجد إلى أبد الدهور كلها آمين.

العلامة ترنوليان

رابعاً: فاعلية الصلاة



«فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحرى الآب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذين يسألونه.»
(لوقا: ١١: ١٣)

إن كل مواهب الحياة المسيحية الفائقة سوء كانت عامة مثل تجديد الميلاد الثاني أو الفداء لغفران الخطايا أو التبرير بالعمة أو التقدیس بدم المسيح، أو كانت خاصة مثل موهبة المحبة أو الإلتضاع أو التقوى أو التهاب الروح في عشرة ثابتة مع الرب، هذه جميعها لا يمكن أن تُستعلن قوتها وفاعليتها إلا بالصلاة.

فبالصلاة تُستعلن فاعلية طبيعة المسيح فينا، وبالصلاة تظهر قوة موته وحياته في أعمالنا وسلوكنا، وبالصلاة تُشتم رائحة المسيح الزكية في أقوالنا وأفكارنا بل وفي هدايتنا وصمتنا. وهكذا لا يمكن أن يُستعلن عمل الفداء المسيحي، ولا يمكن أن تظهر قوة الخلاص من الخطيئة وغلبة الإثم، أو تتم الشهادة الحية للميلاد الجديد، إلا بواسطة حياة الصلاة. وبدون حياة الصلاة تصح كافة المحاولات لإعلان هذه المفاعيل الإلهية في طبيعة الإنسان زائفة ونظرية ومن فعل الذات والإرادة الشخصية، حيث يكون الإنسان العتيق باقياً كما هو بميوله وشهواته وطبيعته الترابية.

فلو قبلنا هذه الحقيقة التي للصلاة ووضعنا قلبنا عليها وعزمنا على تطبيقها بكل قوتنا مهما كلفنا الأمر من تضحية وجهد، فلا بد أن نبلغ إلى كل أسرار المسيح الفائقة التي كنا نسمع عنها سمع الأذن.

وهذا يكون حينما تصبح الصلاة هي شغلنا الشاغل وهما الأول الذي يفوق كل همٍّ وواجبنا الذي يتحدى كل واجب ومسرتنا التي تبتلع كل مسرة. نصلي في كل وقت، ولكل ظرف، وفي كل مكان، وعلى كل حال... في شهوة لا تخمد للإتصال الدائم بالمسيح مقتدين بأقواله وأعماله وحركاته وصفاته كما قال: «تعموا مني» (مت ١١: ٢٩)، حيث تكون غايتنا من كل أعمال الحياة وظروفها أن يصبح كل شيء لمسرة الآب في طاعة شخص يسوع المسيح، الذي ينبغي أن يملأ حياتنا وتفكيرنا. نتمثله في رقادنا و يقظتنا وفي كلامنا وصمتنا حتى يصير المسيح هو الحي فينا حقاً وبالفعل وليس ذواتنا، وحينئذ سوف نحس بيقين كيف يولد المسيح في داخلنا وكيف نتغير يوماً بيوماً وتتجدد كخليقة جديدة

لسكون على صورته كشبهه حسب مشيئته ؛ وحينئذ أيضاً سوف نرى كيف يعمل فينا كل ما نشتهيه بالروح ولا يؤخر لنا شهوة ولا طلباً إطلاقاً مما نشتهيه ونطلبه في الصلاة .

كما نحس في أعماقنا كيف تتغير حياتنا وتجف ينابيع نَزَف الخطيئة وتحمد حركات الشر، وكيف تفتح لنا أذن جديدة كل صباح نتعلم بها أسرار الإنجيل التي يكشفها الروح لأذهاننا بانفتاح وقوة لنستلهم بها كل الحق .

وكلما تقدمنا في حياة الصلاة ورسخت قلوبنا في شهوة العشرة مع المسيح ، كلما تذوقنا معنى الاتحاد بالرب وتحسنا السلاسل الأبدية التي أصبحت تربطنا بشخصه والتي أصبحت تتحكم في كل حواسنا وتفكيرنا . وما كما نطلبه بدموع وكآبة ونجاهد من أجله بالعرق والحزن ، مشتهين أن تنضبط أفكارنا وأقوالنا وحركاتنا وشهواتنا حسب إرادة المسيح ، نجده كله حاضراً معنا وكأنه حلم أو رؤيا ، فالقم والشفقتان يقيم الله عليها حارساً ، والعينان يصير عليها رقيب ، والأذنان يصبحان كباب حصن إلهي لا يفتح إلا لكل ما هو طاهر، والقلب لا يشتهي إلا مسرة الله ومحبه .

وفي حياة الصلاة ينتبه الإنسان وإذا به قد عثر فجأة على الجوهرة الغالية الثمن في حقل الإنجيل بعد أن يكون قد فلقه همة ونشاط ومثابرة . إذ أن المكاسب الروحية والنفسانية والجسدية التي تهبط على الإنسان فجأة وهو مثابر على الصلاة تجعله يتيقن أنه قد عثر على جوهرة الإنجيل بالحق ، فهون عليه في فرحته الشديدة أن يبيع كل شيء بالفعل ليحتفظ بمواهب المسيح التي تفوق العقل والوصف .

وكل ما يكون قد تعلق بالقلب والفكر والجسد من شهوات وأبجاد العالم تسقط قيمته في عين الإنسان ، سواء كان غني أو علماً أو كرامة أو شهرة أو مجداً أو قوة أو صحة أو رئاسة أو لذة ، فتصير كلها كأنها حفنة تراب أو نجاسة يشتهي الإنسان أن يتخلص منها ... حتى نفس الإنسان تصبح عنده كلاً شيئاً ...

وسر فاعلية الصلاة تنكشف حقيقته في إلحاح الرب يسوع علينا أن نصلي : « ينبغي أن يُصلى كل حين ولا يُمل » (لو ١٨ : ١) ، « إسهروا وصلوا » (مت ٢٦ : ٤١) ، « كل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه . » (مت ٢١ : ٢٢)

وهذا لأن في الصلاة فقط تتقابل مشيئتنا مع مشيئته الخاصة ، ومعروف أن مشيئة

المسيح تتركز بشدة في خلاصنا وتجديدنا ونجاتنا ... ولا يمكن لأي شيء في العالم أن يعطل مشيئة المسيح نحونا إلا عدم صلاتنا !!

وعلياً أن نلاحظ أن كل المرضى والعمي والعرج والشلل الذين صلّوا وطبوا إلى المسيح أن يشفيهم هم الذين شفاهم، وقط لم يرد المسيح إنساناً آمن به وسأله ...

ذلك لأن إرادة المسيح، وهي حاضرة كل حين، مستعدة كل حين وقادرة أن تختص إلى التمام كل الذين يفتحون عليها بالصلاة بإيمان. وفي الصلاة تصير إرادتنا مثل إرادة المسيح لأننا بالصلاة نال روحه ونصير حسب مشيئته فتحل علينا قوته.

بدون صلاة لا يعرف الإنسان ما هي مشيئة المسيح بالنسبة لنفسه، والروح أيضاً لا يقبل أن يعرف ما هي مشيئة الإنسان إلا بالصلاة «لا تهتموا بشيء بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتُعْلم طلباتكم لدى الله.» (في ٤: ٦)

لذلك فالذي لا يصلي لا ينتظر إطلافاً أن ينال شيئاً من قِبَل الرب، لا خلاصاً ولا تجديداً ولا تدبيراً ولا نعمة، بل إنه يُترك لهوى قلبه ومشيئة نفسه وتدبير عقله، و يكون كمن يرفض تدخّل الرب يسوع أو كمن يحجب نفسه عن روح الله.

الذي لا يصلي هو إنسان اقتنع بحاله ورغب أن يبقى كما هو دون تغيير ولا تجديد ولا خلاص، تزداد حالته سوءاً دون أن يشعر، ويتفقر يوماً عن يوم، وتزداد روابطه بالأرض والحسد دون أن يدري، حيث تبقى ذاته هي منبع كل شهواته وآماله.

أما علاقته بالمسيح فتظل ظاهريّة صوريّة فقط ليس لها قوة على تغيير شيء ولا إصلاح شيء قط حيث يمكن إكثار المسيح نفسه وقت الخطر أو التجربة أو المرض أو العوز.

وهكذا إذا لم يصل الإنسان لا يمكن أن يتغير أو يتجدد، والذي لا يتغير ولا يتجدد لا يمكن أن تكون له صلة حقيقية فعالة مع المسيح، حيث تصبح عبادته مهما كانت ناشطة عبارة عن نتوء خارجي ونموسطحي يسقط في النهاية بلا أي ثمرة.

نحن لا نجذب إليها المسيح من السماء بالصلاة بل نكتشفه في داخلنا، لأن المسيح سرٌّ أن يحل في إنساننا الجديد بسر المعمودية حسب منهي رحمته ومحبته ومبادرته لتقديم نفسه لخلاص حياتنا. ففي الصلاة نكتشف أنه واقف داخلنا على باب قلبنا يقرع باستمرار حتى

نفتح له، وإذا استجبنا فهو يدخل حياتنا فتبدأ في الحال قيامتنا من الموت وخروجنا من عالم الظلمة. الإنسان الجديد المخلوق على شبه المسيح لا يعيش ولا ينمو ولا يتقوى إلا بحلول المسيح في صميم القلب بالصلاة والإيمان والإرادة: «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف ٣: ١٧)، لأن المسيح هو كلمة الحياة التي يمكن أن يحتويها الإنسان داخل قلبه بالصلاة وبالإنجيل.

والمسيح هو الحياة الأبدية نفسها التي تصير ملكوتاً حقيقياً داخل الإنسان، عندما يقبل شخص يسوع المسيح في القلب بالصلاة وبسر الجسد والدم.

والمسيح هو النور الحقيقي الذي يضيء ذهن الإنسان، عندما يقبل الإنسان بالصلاة حق المسيح ووصيته ليحيا بهما.

والمسيح هو قاهر للشيطان، الحية القديمة، فهو القادر أن يسحق رأسه و يبطل مشورته و يوقف غوايته للإنسان، إذا صارت للإنسان عشرة ثابتة حقيقية معه بالصلاة.

إذن، فبدون حياة الصلاة مع المسيح لا يكون للإنسان حياة ولا ملكوت ولا نور ولا نصرة على الشيطان.

الصلاة قوة فعالة توصلنا إلى المسيح الموجود داخلنا مصدر كل قوة وبركة وحياة: «الذي صار لنا حكمة من الله وبراً وقداً وفداءً.» (١ كو ١: ٣٠)

فالذي لا يستخدم قوة الصلاة، لا يصل إلى المسيح الذي فيه، وحينئذ يعيش غريباً عن حكمة الله محروماً من بر الله وقداسته وفدائه.

ومهما حاولنا أن نتعرف على المسيح بدون الصلاة، فنحن سنعرفه محلاًصاً للباس وفادياً للآخرين ومقدساً للقديسين ومبرراً للخطاة، ونبقى نحن محرومين من كل هذه النعم والمواهب، ذلك لأننا لا نراها إلا إذا قبلنا المسيح بالصلاة شخصياً داخل حياتنا وأرشناه داخل قلوبنا ليعيش معنا يشاركنا كل شيء و يدبر لنا كل شيء.

والمسيح لا يتحد بالفكر أو العواطف أو الإرادة أو الحواس إلا إذا اتحد بأعماق النفس أولاً، أي أنه يلزم أن يفتح الإنسان كيانه كله في الصلاة ليستقر المسيح في أعماق النفس التي خدفتها لنفسه على صورته و يكون مالكا لها تماماً، حتى يصبح قادراً أن يدبر حياة

الإنسان و يقود أفكاره وعواطفه ومشيبته وحواسه .

وعندما يملك المسيح على النفس بتواتر الصلاة والإنسكاب و يصير مركزاً حقيقياً لوجودها وحركتها، حينئذ لن يستريح الإنسان في شيء سوى في المسيح وحده حيث يستريح المثل على المثل . ولأن النفس خلقت لتكون خالدة فإنها تجدد في المسيح، عندما تتحد به، منتهى سعادتها لأنه يحقق بوجوده وجودها وخلودها .

أقوال الآباء في فاعلية الصلاة:

٧١ - تأمل حكمة الله ... وصلاحه، كيف يتشبه بنا ويتحسم في النفوس القديسة المستحقة لأمية، فبعد أن كان غير منظور لها يصير منظوراً، وبعد أن كان قائفاً على كل حس يصير ميموساً ومحسوساً وتُذاق حلاوته، بقدر لطافة النفس؛ فتختار صلاح بوره ورضاه غير الموصوف. ومتى شاء صار فيها باراً آكسة تحرق منها كل خبث، ومتى شاء صار لها راحة تفوق كل نطق فتعش النفس برحة اللاهوت، ومتى شاء صار فرحها وسلامها ومعزياً معانقاً لها...

فيسع كل واحد في إرضائه حتى يرى خيرات السماء بالحق ويحتر بالفضل بهجة اللاهوت وغناه لذى لم تره عبر ولم تسمع به أدن ولم يخطر على قلب بشر، أعني روح الرب الذي هو للنفوس القديسة راحة وفرح وبهجة وحياة أبدية...

والنفس التي تُحسب أهلاً لبول تلك القوة من العلاء واشتياق رائد و بانتظار وإيمان ومحبة وتعال البار السمانية بار الحياة الدائمة فإنها تنفك حفا من كل محبة عالمية وتحل من كل رباط لخطيئة.

إن حياة النفس واشرحها يكونان بالعشرة الحفية مع الملك السماوي لا غير، لأنه إن كان من أجل محبة الشركة الحسدية يترك الرجل أباه وأمه ليلتصق بزوجه فكذلك بالحرى الذين يُحسبون أهلاً لشركة لروح القدس الذي هو المحبوب السماوي، فإنهم بدون نزاع يتجردون بالكيفية من حب العالم، حيث يظهر لهم كل شيء فيه نقاية بطراً لكونهم يمثلون من الشهوة السمانية وبألفون دوام فعلها.

وإن طهر لها أنه أمر صعب أن ترجع عن كثرة خطاياها التي يبدو وكأنها تملكك فيها، فلتذكر وبعتر كيف أن رسا في مسوكة بين الشر أعاد النصر للعميان رحمة منه، وشي المشلولين وكل أنواع الأمراض لصعته، وأقام الأموات، وأخرج من إنسان واحد لجئون من الشياطين ورداً للمجنون عقله، فكيف لا يُهدى بالحرى النفس حينما ترجع إليه ملتزمة منه الرحمة وهي في حاجة إلى معونته، فإنه لا بد بآتيها إلى حار الحرية وفرح الإنعتاق من الشهوات وإلى تجديد الدهن، ويردها إلى صحة الفضيلة ونور البصيرة، ويرفع عنها غمي الكفر وصمم عدم الطاعة وموت الجهل وقلة التقوى، ويعيد إليها حكمة لمصيدة ونقاوة القلب، لأن الذي خلق الجسد هو بوعينه الذي خلق النفس، فكما أنه في سعيه على

الأرض كان كل الذين يأتون إليه و يطلبون منه العون والشفاء يمسحهم بكرمه وصلاحه كل ما يحتاجون إليه كطبيب صاحب سر له مثل، كذلك أيضاً في حال النفس والروحيات سواء بسواء. لأنه إن كان قد تحرك بالشغف إلى هذا الحد على الأحساد أي تحل وتموت وقضى لكل واحد مطلوبه برضى وإحسان فكم نأخرى يصعب لنفس الحيدة التي تأتي من الرب بالصلاة متمسكة عوياً متطلعة إلى رحمته لسوء نعمة روحه لأجل فدائها وحلاصتها ونحائها ألا بادرونها بشفاء واسفاء عن رضى طبقاً لكلمة وعده؟؟

فهذه انتعالم كلها قد نصحنا أن نلمس منه عطية النعمة بحساسة بلا مقطاع ولا فتور، فإنه جاء إلى العالم من أجل الخطاة ليرجعهم إلى نفسه ويشي المؤمنين به... إذن، فليلتصق به دائماً وبأقصى طاقتنا، فهو مستعد لمعوتنا لأنه رحيم وشفي لنس اني لا دواء لها ويفتدي الذين يدعونه ويرجعون إليه ويتعلقون به بتأمل واشتياق على قدر استطاعتهم.

أبا مكاروريوس الكبير (العظة الرابعة)

٧٢ - إن سموس أي نحب الرب حباً حاراً لا يطفى فإننا تستأهل الحياة الأبدية ونحسب أهلاً للإفتداء من الأهوال الشريرة، وتعال نور الروح القدس وحضوره الفائق لوصف وتصير معه في سرية سرية وملء النعمة.

وأما لنفوس الحدية من اهمة والجرأة ولا تطلب شيئاً من هذا فإنها لا تزال دقية كأف في الجسد لأنها لم تحصل على رجاء قداسة قلبها بالصبر وطول الأناة.

أبا مكاروريوس الكبير (العظة العاشرة)

٧٣ - لهذا نسعى لنا أن نصلي إلى الله من كل انصب وجهاد وإيمان ليهب لنا في قلوبنا «كر» المسيح الخفي وقوة الروح وفعاليته حتى نجد وندته فيما نحن أولاً التي هي الخلاص والحياة الأبدية ولرب نفسه، وعنده سنطعم أن نعيد غيرنا أيضاً لافتدارنا على الدخول فيهم فنجرج لهم من كرم المسيح الذي فيما كل صلاح بالأفوال الروحانية وبكشف لهم لأسرار سماوية. لأن إرادة لأب الصالح ارتصت أن يحل المسيح في كل من يؤمن به ويحبه، فالمسيح قال: «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له داني ولله تأتي وعده يصنع منزلاً.» (يو ١٤: ٢١ و ٢٣)

هذا هو إحسان مشيئة الرب غير المتبهي، وهذا ما ارتصت به محبة المسيح الفائقة لوصف، وهذا ما وعد به صلاح الروح ليعيد غير المسطوق به، فابعد للثالوث القدوس من أجل مراحمه، لأن كل الذين حسوا أن يصيروا بني الله المولودين من فوق من لواء و لروح يحل المسيح فيهم وينيرهم ويريحهم والروح يفودهم ويهديهم، واسعة تعمل في قلوبهم سرّاً وتكون لهم راحة روحية.

أما طرائق عمل الروح في النفس فهي مختلفة حسب مشيئة الروح وحال الإنسان: فليفس تارة تسمو بالروح كأنها في وليمة الملك وتكون في فرح وسرور لا يوصف؛ وتارة تكون كالعروس في مؤالفة عريسها متنعمة بالذات الإلهية؛ وتارة تكون في حمة وسمو وغيره كالملائكة التي لا يحجبها عن الله هذه الكثافة الأرضية؛ وتارة تكون كاشم من الخمرة عندما تسكر بالروح وبأسرار الإلهية؛ ثم تعود وكأنها في هم وتأسف على جنس البشر تتشفع في ذرية آدم كنها، وتولود وتروح على أسسرية، وتضطرم فيها محبة روحانية على طبيعة بني آدم؛ وأحياناً يتقد فيها الروح من حمة الآخرين في محبة فائضة لمدر، حتى أنها تشاء لو تحطف كل إنسان وتضعه في قلبها دون أن تفرق بين الجيد والردى؛

وأحياناً تصير في انصاع شديد وتضع نفسها تحت كل شخص محتقرة نفسها بالروح حاسبة ذاتها أدنى من الكل؛

وأحياناً تصير كالطل اللاس السلاح والدروع، نهجم على الأعداء وهي متسحة بأسلحة الروح وتقاتلهم بجرأة حتى تدوسهم تحت رجلها؛

وأحياناً تستريح النفس في هدوء وسكون وصمت إذ تكون مهمكة في لذة روحانية وسلام وأمان؛ وأحياناً تكون مشغوبة بالفهم والحكمة حينما تضطها النعمة لتعلمها معرفة الروح في أمور لا يستطيع أن ينطقها لسان؛

وأحياناً تصير عادية كأحد العوام.

هكذا تختلف طرائق عمل النعمة في النفس وهي تقودها حسب إرادة الله ورضاه، فتتمرن وتضج إلى أن تصل في النهاية إلى الآب السماوي تامة نقية وبلا دنس.

وهكذا فإن نعمات النعمة التي سردناها مخلفة، ولكن ليس لفاعليها بقطاع بل فاعلية تلي أخرى، وهكذا إلى أن تصل النفس إلى كمال الروح، فعندما يتم تطهيرها من أهواء الفساد تتحد بالروح المعري بألفة لا توصف، وتحت أهلاً أن تصير روحانية في ذاتها هذا الإنحد... وإذ تنغم بالروح القدس تصير شبه المسيح وتملك في باطنها فضائل الروح (أي ثمار الروح لسعة).

فستوسل، يدب، إلى الله في إيمان المحبة والرحاء الوافر لكي يمحها النعمة السماوية، نعمة موهبة الروح القدس، حتى يتولانا هذا الروح نفسه ويقودنا إلى إرادة الله الكاملة، لكي يمحاعيل هذه النعمة وتأثيرها يهدب روحياً فحسب أهلاً لإدراك ملء المسيح، كما نص لرسول فائلاً: «حتى تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أف ٣: ١٩). لأن الرب قد وعد كل الذين يؤمنون به أنهم إذا سألوه بالحق فإنه يعطيهم أسرار شركة الروح القدس.

يد، علينا أن ندر نفوسنا كلها للرب، ثم نجهد على قدر طاقتنا متعددين بالنفس والحواس،
مستمرين أنفسنا في صليب المسيح لعلنا نصير أهلاً للملكوت السمائي، مجددين الآب ولإبن والروح
القدس إلى مدى الدهور.

أبا مكاروريوس الكبير (العظة الثامنة عشرة)

٧٤ - من نشاء أن يأتي إلى الرب، ويحسب أهلاً للحياة لأبدية ويكون مسكناً للمسيح ويمتلئ
بالروح القدس، ويكمل وصايا الرب بطهارة ولا عيب، عنه أن يستديء أولاً بالإيمان بالرب مستمراً
بنفسه كلها هدية وصاياهم، مودعاً نفسه من العالم وداعاً بهائياً حتى لا يثقل قلبه أو فكره بشيء من
الأشياء. وبعد ذلك عليه أن يوطب على الصلاة بإيمان، منتظراً افتقاد الرب ومعونته في كل وقت،
راسطاً عمله بالمسيح في ثبات، وأخيراً عليه أن يغضب نفسه عن كل لأعمال الصالحة والوصايا،
وغضب النفس هنا لازم بسبب الخطيئة الماسكة فيه.

فعليه أن يغضب نفسه أن يكون ذا عقل متضع قدام جميع الناس فلا يطلب كرامة من أحد أو مديحاً
أو افتخاراً، بل يحمل نفسه أهل الدس وأردأهم. جاعلاً الرب مثلاً أمام عيبيه عن الدوام كما قال الرب
نفسه: «تعمدوا في الماء وتواضعوا لرب فتجدوا راحة لنفوسكم» (مت ١١: ٢٩)؛ و«ملكوت
السموات يُعْطى للعاصون يحتفظونه» (مت ١١: ١٢)؛ و«اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق»
(لو ١٣: ٢٤)، وصاعاً في ناله على الدوام تواضع ربنا ولا يتعداه، متمثلاً كيمية معيشتته وحلمه وسيرته،
جاعلاً هذا قانوناً لنفسه لا يسهي عنه أبداً.

وعليه أن يغضب نفسه على الصلاة ويُدمن عليها بلا فتور بإيمان، لعل الرب يحل فيه ويصيره كاملاً
ويقويه في جميع وصاياهم ويجعله مسكناً لنفسه.

وكل الأشياء التي يفعلها في البداية بالإغتصاب وسفور قلب فيه سيمعنها بعد ذلك بإرادته إذا تعود
الصالح، جاعلاً الرب أمامه على الدوام مقيماً على انتظاره وحبه.

فإذا رأى الرب شدة تشوقه واجتهاده الحس وكيفية أنه يغضب نفسه إلى تذكار الرب وكل
الأعمال الصالحة تواضع عقل ووداعة ومحبة ويغضب قلبه ويدفعه إلى ذلك رغماً عن مشيئته، ويجهد
نفسه ويأمرها ويغضبها، فحينئذ يُظهر الرب له رحمته ويهدده من أعدائه ومن الخطيئة الماسكة فيه ثم
يملاؤه بالروح فيصير بعد ذلك قادراً أن يفعل أوامر الرب بالحق بلا تعب أو صعوبة لأن الرب نفسه يكون
هو العامل فيه وحينئذ يُخرج ثمار الروح بطهارة.

هكذا كل من يأتي إلى الرب، عليه في البداية أن يغضب نفسه إلى كل عمل صالح حتى ولو كان
قبيحاً مخالفاً لذلك منتظراً رحمة الرب بإيمان لا يتزعزع.

يفغصب نفسه إلى المحبة إن كان خالياً من المحبة.

يفغصب نفسه إلى الجلم إن كان ناقصاً من الجلم.

يفغصب نفسه إلى الشفقة وإلى اقتناء قلب حنون.

يعصب نفسه إلى تحمل الذل والهوان بصر حيل، وإن رُدل أو فُضح فلا يتحرك بالغیظ على ذلك كما هو مكتوب: «لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء.» (رو ١٢: ١٩)

يفغصب نفسه إلى الصلاة إذا لم تكن له صلاة روحانية، فإذا رآه الله في هذا الجهاد معذباً نفسه في هذا الإعتصاب فإنه يهب له روح الصلاة الحقيقية و يعم عليه بالمحبة والوداعة والرحمة والجلم الحقيقي ويملاؤه من كل ثمار الروح.

وأما إذا عصب أحد نفسه إلى الصلاة فقط حتى يبال موهبتها من الله ولا يفغصب نفسه إلى بقية الفضائل بلارمة المتقدم ذكرها ولا يجتهد في عصب نفسه عليها، فإنه لا يمكنه أن يحصل عليها بنقاوة ويعتاد فعلها بطهارة.

لذلك على كل من يأتي إلى الرب بالصلاة أن يميل قلبه نحو كل صلاح بقدر طاقته، ويسأل الله الصالح والمحس لأن النعمة الإلهية تحل عليه في ساعة الصلاة والتضرعات بالذات والذين يسألونه ممحهم طلباتهم.

أما من كان خالياً من الصفات السابقة ولم يحاول أن يفغصب نفسه عليها ويتعودها ولم يميل بقلبه إليها، فإنه حتى وإن نال درجة من النعمة فإنه يعدمها لا محالة ويسقط في الكبرياء ولا يتقدم أو يترقى في النعمة الموهوبة له.

فكل من شاء أن يُرضي الله بالحق ويسأل منه النعمة السماوية وأن ينمو ويكمل في الروح القدس، فعليه أن يعصب نفسه إلى وصايا الله كلها ويُخضع قلبه لها مهما كانت ضد مشيئته كما هو مكتوب: «لأجل هذا، براء كل وصاياك فوّمت نفسي وكل طريق ظلم أبغضت.» (مز ١١٩: ١٠٤)

وكما أن الإنسان عليه أن يسير بالعصب والحرص حتى يثبت في الصلاة إلى أن يتعود عليها، كذلك هو الحال في جميع أفعال الفضيلة، عليه أن يفغصب نفسه إليها بعقل مطيع ويعود نفسه العادات الصالحة، ولا يكف عن مدومة الطلب والصلاة إلى الله في كل وقت حتى وبعد أن ينال كل مشتهيات نفسه وبدوى الله و بصير شريكاً في الروح القدس، إذ يلزم أن يجتهد في تربية الموهبة المعطاة له حتى يجعلها منيرة ويتأصل في التواضع والمحبة والوداعة.

والروح القدس نفسه يعلمه كل ذلك، ويعلمه الصلاة الحقيقية والمحبة والوداعة الصحيحة.

فنجذب إذن أنفسنا بالحرم والعصب... بانتظار وأمل أن يرسل الله روحه إلى قلوبنا حتى نصلي إلى

الله ونسجد له بالروح واثق، حيث الروح ذاته يصلي فبنا و يعلمنا ما ينبغي أن يصلي من أجله بالحق.
أبا مكار يوس الكبير (العظة التاسعة عشرة)

٧٥ — إن كان أحد عرياناً من اللباس الإلهية السماوية، أي هي قوة الروح القدس، كما قيل: إن كان أحد ليس فيه روح المسيح وليس هو من خاصته، فبيك متوسلاً بالصلاة إلى الرب حتى يهبه اللباس الروحاني السماوي، ليسترفسه العارية من القوة الإلهية. فعار أن يكون غيره مكسواً بالروح وهو مكسوبعيب الشهوات الدنية.

الإنسان الأول لما رأى نفسه عرياناً خجل، فما أعظم فضيحة اعري، فإن الحسد إذا تعرّى هكذا يعرضنا لفضيحة كبرى، فكم يكون السفس العارية من القوة الإلهية التي لم تكتسب باللباس الأبدي الروحاني، الذي هو الرب يسوع نفسه.

لذلك فكل من كان غير مكتسب بذلك المجد الإلهي، يجب عليه أن يستحي ويفر بفضيحته كما استحي آدم من عري جسده... و يطلب من المسيح يكسوه بالمجد والور. ومع أن آدم ستر نفسه بورق لتين إلا أن حجه لم يفارقه لعلمه بفسره وعريه، هكذا ينبغي أن لا تسخد النفس بزعمها أنها بارة وأن عليها لباس خلاص وهي في الخفية قد عمت نفسها غطاءً من الأفكار الباطلة.

فإن استند أحد على مرّة ولم يطلب بر الله البر الحقيقي الذي هو يسوع المسيح الذي جعله الله لنا برّاً وقداسة وفد، كما قال الرسول (١ كو ١: ٣٠)، فإن نعمة يصح باطلاً ولا تكون له فيه ثمرة لأن كل بر الإنسان يصير في اليوم الأخير بمنزلة حرقه نجسة كما قال النبي (إش ٦٤: ٦).

فستطلب، إذن، من الله تتوسل وصلاة لكي تلبس لباس الخلاص الذي هو الرب يسوع المسيح لور الفائق الوصف الذي إذا لبسته النفس لا يُنزع منها قط.

وكما أن المرأة التي كانت معتنة بسرف الدم لما آمنت بالحق ولمست طرف ثوب ربها شُفيت حالاً وشف يسوع دمها السحس، كذلك كل نفس فيها جرح الخطيئة الذي لا دواء له، والذي تسع منه الأفكار الخسنة السخنة، فإن هي أتت إلى المسيح بالصلاة بإيمان حقيقي فإنها تسترد صحتها وتخلص من سوء الشهوات الفاسدة الذي كان لا علاج له. لأن يسوع الخطيئة الذي يُخرج أفكاراً نجسة، لا يقصع ولا يحف إلا بقوة المسيح فقط. وليس لأحد غيره قدرة على شفاء هذه البلوى... لأنه الطبيب الحقيقي الذي يشفي مجانياً، والذي بذل نفسه وسفك دمه وصنع فداءً لنفس وحررها من العبودية وأخرجها من السطمة. لأن أفعال نفس الإنسان لبارة وحدها هي بمثابة أدوية أرضية لا تقدر أن تعالج أو تشفي هذه البصرنة العظيمة غير المطورة، أما شفاؤها فقد صار من قبل الطبيعة الإلهية وبموهبة الروح القدس، هذا هو دواؤها الذي أعاد إليها الصحة والطهارة والحياة.

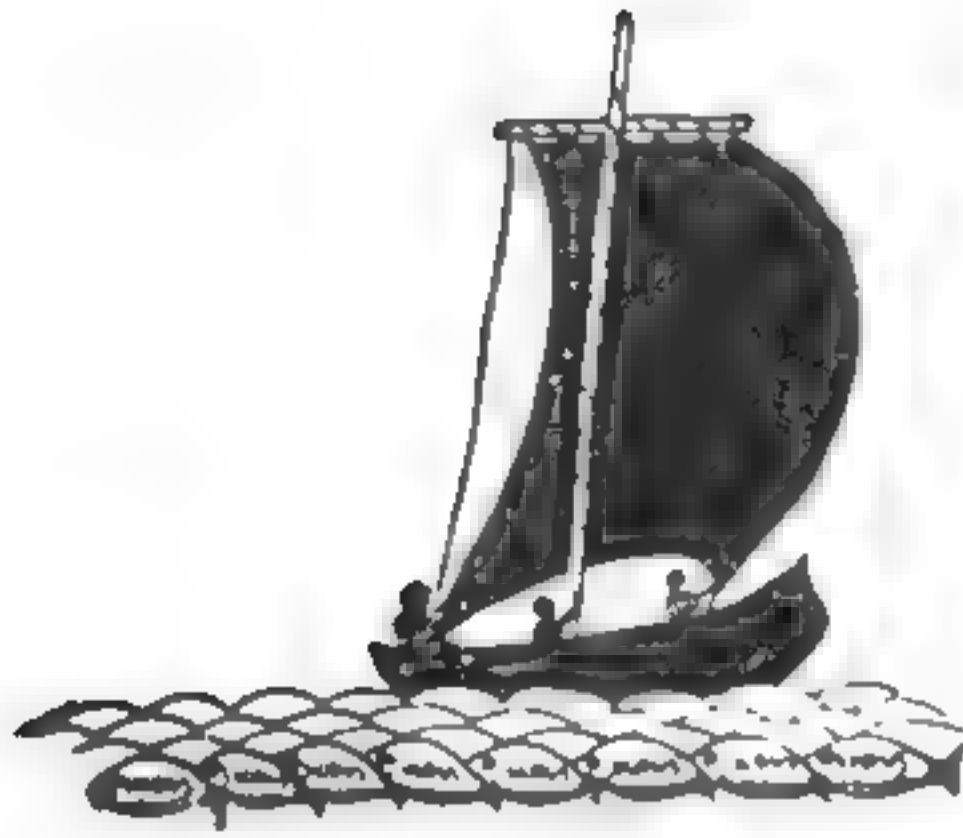
ولكن لو لم تأب المرأة نفسها في الرب ما كانت مُقَتِّت. والأعمى أيضاً، مع أنه لم يسطع أن يمشي و سأل في الرب نفسه، إلا أنه صرح صرخة أشد في فورها - من لمسير إلى الرب مستنداً على ذراع رسول، لأن الرب أتاه بنفسه وأعطاه البصر؛

هكذا الشمس التي جرحت سهوات الفساد والتي عميت بظلمة الخطيئة، فهي لا تزال على كل حال لها برادتها حتى تصرح في يسوع وتناديه ليأني إليها نفسه و يصنع لها فداءً أدياً.

فإن كان الرب عند محبته على الأرض اعتنى بالأحساد الفاسدة، فكم بالحرى يعتني بانفس غير المائتة المخلوقة على صورته؟

فلنؤمن به، إدد، ولنأت إليه باحق نيتم فينا عمله الشافي لأنه وعد بأن يعطي روحه القدوس للذين يسألونه، و يفتح لذين يصرعون، وأن كل الذين يطلونه حتماً يحدونه والذي وعد لا يكذب، له المجد والقدرة إلى الأبد آمين.

أبا مكاريوس الكبير (العظة العشرون)



الفصل الثاني

درجات الصلاة

أولاً: الهذيد.

ثانياً: التأمل.

+ «فإننا ننظر الآن في مرآة في لفر لكن حينئذ وجهاً لوجه. الآن أعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عرفت.» (١كو١٣: ١٢ و١٣)

+ «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة، نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح.» (٢كو٣: ١٨)

وكل درجة يتعالون بها نحو المجد يظنون أنهم قد
وحدوا الإنتهاء، فإذا ارتفعوا أيضاً واستاروا بنور
أكبر نسوا درجتهم الأولى وظنوا أن هنا نهاية المنتهى!
هذا لأنهم ليسوا هم المتحركين نحو المجد إنما هو
فعل الروح القدس فيهم.

(الشيخ الروحاني)

كثير منا لا يعرف عن الصلاة إلا أبسط صورة لها وهي التي نقوم فيها بتلاوة بعض
الكلمات أمام الله سواء كانت من ترتيبا الإرتجالي الخاص حسب ما توحىه إلينا الظروف،
أو من ترتيب القديسين، أو كانت قطعاً مختارة من الكتاب المقدس كالزمير أو الأناجيل أو
حلافه... ولكن هذه كلها لا تخرج عن كونها تمهيداً للصلاة الحقيقية التي بالروح والحق...
ويفيهاً لو عرف الناس ما تحويه بقية درجات الصلاة من الروعة والسمو وما تجلبه من نعم
وبركات لما توانوا لحظة في البدء بممارستها.

وإن كان ليس من السهل تقسيم الصلاة إلى درجات منفصلة لما بين هذه الدرجات من
وحدة وترابط متين، إلا أنه من الممكن توضيح كل نوع منها.

فالنوع الأول:

هو الصلاة الصوتية التي يستعمل فيها تلاوة الألفاظ والجمل كما سبق وشرحنا سواء
كانت هذه الألفاظ من ارتجالنا أو من محفوظات الكتاب أو من ترتيب الآباء، وهذا النوع
يُعتبر أساساً لأنواع الصلاة الأخرى أو تمهيداً للدخول مع الله في حديث واقعي... ولكن
يُشترط فيها أن يلازمها مجهود ذهني لمتابعة معاني الألفاظ التي نقولها مع اهتمام داخلي
بموضوعها، فلا تتوكلنا ككلام كآلة من الآخريين لله بل نحوله لأشخاصنا فنقدمه منا مباشرة...

ولكن ينبغي أن نشير هنا إلى أن الصلاة، سواء كنت بتلاوة الصلوات الفردية أو في
وسط الكنيسة أو كنت بالترنيم الفردى أو وسط خورس التسييح، يمكن أن تفتح فجأة على
حالة تأمل وخطاف بعض لوحود في حضرة الله. لأن وفقة الصلاة في حد ذاتها سواء كانت

داخل المذبح أو في الكنيسة هي في حقيقتها مثل لدى الحضرة الإلهية ودخول فعلي في مجال القوات الروحانية المسبحة والخادمة.

فإذا تقدم الإنسان إلى الصلاة الصوتية بانسحاق قلب واتضاع العبادة بشعور الخدمة أمام الثالوث القدوس، فإنه يؤهل من خلال الصلاة الصوتية عند بدء انفتاح فيه للدخول في معرفة وتأمل الأسرار الإلهية، وحينئذ تمتزج صلاته وتسبيحه بحرارة ونقاوة ومسرة فائقة الوصف.

وبكس ليس هذا معناه أن كل صلاة صوتية يلزم أن تنتقل إلى صلاة عقلية تأملية، فالصلاة الصوتية درجة خاصة بحد ذاتها لها قيمتها كخدمة إلهية، ولها فعاليتها في حياة الإنسان الروحية، وهي ليست بأقل قيمة من الصلاة التأملية.

والنوع الثاني:

الصلاة العقلية، وتسمى أحياناً بالصلاة الداخلية لأنها تكون من عمق القلب، وهذه يشترك فيها العقل مع القلب فيرتبط التفكير مع الشعور، وأحياناً يفصح عنها ببعض الكلمات، ولكنها في الغالب تُقدم في صمت وهدوء.

وأولى درجات الصلاة العقلية هي الهذيد، ويمكن تعريفه بأنه حديث مع الله يتذاكر فيه الإنسان بعض أعمال الله مع خليقته ويشرح أحوال نفسه أمام الله، فيندم على تقصيره وعلى خطيئته في موضع الندم، ويقدم عبارات الشكر في موضع الشكر ويعزم على إصلاح سيرته حسب مسرة الله.

وهذا النوع يسمونه «التنقل في الصلاة»، فهو يشمل أشياء كثيرة متعددة أحياناً لا يوجد بينها رباط، وأعظم مثل لهذا النوع هو المزامير فهي قطع مختارة من هذيد داود مع الله: تارة في الخليفة الصامته وتارة في الخليقة الناطقة، ومرة في الياقوت وأخرى في النفس، أو ربما هذه كلها في مزموه واحد، ولكنها لا تخرج عن كونها حديثاً واقعياً شجياً فيما تشعر به النفس نحو الله.

أما لدرجة الثانية في الصلاة العقلية فهي صلاة التأمل، وهما الصلاة تدخل في حالة تركيز، ليس من جهة موضوعها فحسب كأن يركز الإنسان صلاته في محيط التأمل في وصية من الوصايا المحددة أو عمل من أعمال المسيح التبشيرية أو الفدائية، بل من جهة الإنسان

نفسه، إذ يكون تحت تأثير قوي من المحبة تجعله في تيقظ ذهني كامل، وتكون كل حواسه مضبوطة وإرادته متركزة في الصلاة وقلبه مستعداً روحياً لتقبل أي توحيه من الروح القدس.

لذلك فإن صلاة التأمل يتحتم تقسيمها إلى درجتين متلازمتين:

الدرجة الأولى: درجة التأمل الإرادي:

ونجاحها يتوقف على مقدار ما يحمله الإنسان في قلبه من محبة نحو المسيح مع استعداد الإنسان لتركيز نفسه في موضوع معين يتأمله في أعماق فكره وقلبه و يكون في نفس الوقت في أتم استعداد لتقبل أي توحيه روحي.

ولكن لا تحو هذه الدرجة من معونة خفية من النعمة تلازم إرادة الإنسان وتمنحه قدرة على المتابعة والاستمرار والتعمق في موضوع الصلاة مع فتح مجال الاستنارة أمامه، فيخرج الإنسان بحصيلة روحية كبيرة من صلاته.

الدرجة الثانية: درجة التأمل بالروح:

وهي انفتاح قلب الله للإنسان بالمحبة رداً على مشاعر الإنسان وحبه التي يتقدم بها في الصلاة أمام الله. وهما يدخل على الصلاة عنصر إلهي يُخرجها عن حيز الإمكانات البشرية والإرادة، لذلك يصعب أن يقال عن هذه الدرجة إنها صلاة بل هي «نعمة الصلاة».

وبالرغم من أن هذه الدرجة تبدو خاصة وعالية في البداية، ولكن بمجرد أن يُنعم على الإنسان بالدخول فيها فإنه يعتادها أو إنها تعتاد عليه حتى تصبح سهلة وعادية وعندما يطبها غالباً يحدها، وذلك بسبب بساطة الروح القدس وسهولته واستعداده المدهش للإجابة عن كل سؤال للمحبة. ولا يُطلب من الإنسان في هذه الدرجة ليدوم فيها إلا أن يكون موافقاً دائماً لمشية الروح القدس من جهة المحبة والبساطة والطهارة القلبية، وعدم الانشغال بالأمر الأرضية وهمومها، والقدرة على تنفيذ الوصية والمشورة الروحية، ولكن يلزم أن يفهم الإنسان أنه لا توجد أية استعدادات تجعله مستحقاً للدخول في درجة التأمل بالنعمة أو انفتاح قلب الله له بالمحبة، لأنها هبة خالصة.

فعلى الإنسان أن يطبها بدموع وتوسل، كما يقول مار إسحق: «أحبيني يا رب ولو أنني غير مستحق لحبك»، ولكن لا ينبغي أن يعتقد أنه أهل لها حتى ولو دخل فيها كل يوم؛ بل حتى ولو استوهم لكافة الفضائل الأخرى من طهارة وسك وتواضع وصلاة دائمة، لأن موهبة

التأمل بالروح وانفتاح قلب الله بالمحبة للنفس البشرية، شيء يفوق كافة الفضائل.

ولكن ليس هذا معناه أن درجة التأمل بالروح معجزة، ولكنها نعمة، والدليل على أنها نعمة هو ما يلزمها غالباً من عطية التمييز والحكمة، ودرجة التأمل الروحي هي في الواقع كمال الصلاة وكمال كافة النعم والمواهب.

والذين يؤهلون لمدامومة في هذه الدرجة فإنهم يُستأنون على المواهب الأخرى التي تُعتبر فوق حدود الصلاة كالدّهش، أي الإستغراق في التأمل في الله في شبه غيبوبة روحية حيث يعاينون حقائق إلهية لا يُنطق بها.

هذه وغيرها من المواهب التي تُعتبر فوق حدود الصلاة سوف نفردها فصلاً خاصاً.

ويمكن أن نتبسط فنسمي أولى درجات الصلاة، التي هي الصلاة الصوتية، بالوقوف أمام الله بحوف؛ والدرجة الثانية، التي هي الهذيد، بالمسير نحو الله باشتياق؛ والدرجة الثالثة، بالوجود في أحضان الله بالحب.

ويمكن أن نتبسط أيضاً فنميز هذه الأنواع الثلاثة من كلام الرب يسوع: «اسألوا تُعطوا» وهذه هي الصلاة الصوتية؛ «أطلبوا تجدوا» وهذه هي الهذيد؛ «اقرعوا يُفتح لكم» وهذه هي التأمل أو درجة الوصول.

وقد اصطلح الآباء في كتاباتهم على تسمية درجات الصلاة بثلاثة أنواع من التاوريا. (والتاوريا كلمة يونانية الأصل وترجمتها الحرفية: «النظرة الروحية»، وهي ما يقابل اصطلاح التأمل الروحي من حيث المعنى):

التاوريا الأولى: وهي تاورية الطبائع المادية المخلوقة، ويطلقون عليها أيضاً الهذيد بالمخلوقات.

التاوريا الثانية: وهي تاورية الطبائع المعقولة أي الأرواح والملائكة والله فوق الكل. وهو ما يقابل التأمل بالروح بدرجة المكنسية والموهوبة.

التاوريا الثالثة: وهي درجة الدّهش المطلق في الثالوث الأقدس لا من حيث التأمل والفحص في طبيعته بل الإتحاد بنوره والذهول في عظمته وجلاله.

وسوف نبدأ مباشرة في هذا الفصل وما يليه بالصلاة العقلية ودرجاتها وتدابيرها،

مرجئ الحديث عن الصلاة الصوتية ومتعلتها إلى الباب الأخير من هذا الكتاب في موضوع «نواحي النشاط الخارجي للصلاة». يد أن الصلاة الصوتية هي في مجموعها نشاط خارجي.

أولاً : الهذيد

μελέτη Meditation

- + « لتكن أقوال في وهذيد قلبي مرضية أمامك دائماً أيها الرب صخرتي وفادئي. » (مز ١٩: ١٤)
- + « طوبى للرجل ... في شريعة الرب هواه وفي شريعته يهتئ نهاراً وليلاً. » (مز ١: ٢١)
- + « تكلمت بشهادتك ... وهذدت بوصاياك التي أحببتها جداً. » (مز ١١٩: قطعة ٦)
- + « وفي هذيدي تتقد النار في. » (مز ٣٩: ٣)
- + « اهتم بهذا وهذ فيه μελέτη ليكون تقدمك ظاهراً في كل شيء. » (١ تي ٤: ١٥)



«الهذيد» اصطلاح تقليدي قديم متصل اتصالاً وثيقاً بقراءة الكتاب المقدس قراءة قلبية عميقة تترك طابعاً لا يُمحى في الذاكرة والعاطفة واللسان.

والهذيد حسب التقليد الآبائي مفتاح كل النعم لأنه يجعل الإنسان الذي يمارسه بشغف، إنجيلي الفكر والنطق والإحساس، ويجعله متقدماً دائماً في كل موهبة، مملوءاً من الفهم الإلهي، فإذا فتح فاه انسابت كلمات الإنجيل منه بدون تصنع أو تنميق ومعها الأفكار الإلهية، فكراً يتبع فكراً، كموجات من النور تجعل عقل السامع يُغمّر في نور المعرفة الإلهية والقلب يتحرك والعواطف تشتعل.

وكلمة «الهذيد» في الأصل اللغوي العبري «هاجا»، وفي الأصل اليوناني: μελέτη والفعل هو: μελετάω تفيد معنى التدارس والتعمق في الفهم والتمرين الفكري والقلبي. فالهذيد بالحكمة μελετᾶν σοφίαν، يعني درسها باجتهاد وتعمق مع الممارسة العملية.

وحسب التقليد الآبائي، اقتصرت هذه الكلمة على كيفية تسليم العقل والقلب لكلمة الله بكل اجتهاد حتى يتغير بواسطتها الفكر والقلب، واعتبر الآباء أنه لا يصح أن يفتح الإنسان للهذيد إلا فيما يختص بكلمة الله المكتوبة في الكتاب المقدس فقط، لأن الهذيد القلبي قادر على طبع الوجدان الإنساني والفكري، والإنسان لا ينبغي أن ينطبع إلا بكلمة الله المباركة فقط وحسب مشيئته وفكره.

من هنا ارتبطت كلمة «الهذيد» بقراءة الكتاب المقدس ارتباطاً خاصاً، وأصبح استعمالها مقصوراً على درس كلمة الله تتعمق وجداني يتهي إلى التشبع والإنفعال الروحي.

وأول درجة من درجات الهذيد، حسب التقليد الآبائي، هي القراءة التي تكون بمنتهى الهدوء وعلى مهل وبصوت مسموع، مع تذوق للكلمات ثم ترديد القراءة عدة مرات، علماً بأن عادة القراءة عند الآباء كانت دائماً بصوت مسموع وكانت تسمى «الترديد». والحاصل أن الهذيد بترديد أقوال الله بصوت مسموع وبتذوق ووعي قلبي كفيل بأن يجعل الكلمات تستقر في الأعماق حيث يرددها الإنسان بعد ذلك (وكأنه يجترها) إلى أن تصبح

كلماته هو، و يكون الإنسان في نفس الوقت قد صار مخزناً أميناً لكلمة الله وصار قلبه بيتاً للكنز الإلهي «يُخرج منه جُوداً وعتقاء» (مت ١٣: ٥٢). وهذا هو المقصود أصلاً من كلمة «حفظ الإنجيل» أو «حفظ الكلمة». فالإنجيل أو الكلمة يكون قد صار محفوظاً في أمان داخل القلب كأنه في كنز صالح، أو حسب تعبير داود النبي: «خبأت أقوالك في قلبي» (مز ١١٩: ١١). وكأن الإنسان ينعكف و ينطوي على كلام الله كخزنة من حديد لا يمكن أن ينفذ إليها اللصوص.

ولهذا، فإن الصلوات الإرتجالية في التقليد الآبائي كانت ذات صبغة إنجيلية محضة بسبب امتلاء القلب حتى إلى الفيض من أقوال الله. فكانت الصلوات الإرتجالية، أو حسب اصطلاح مار إسحق: «التي يركبها الإنسان من نفسه»، عبارة عن ترديد متكامل وملتحم لأقوال الله المحفوظة، وتعبّر عن مقدار انفعال النفس وانطباعها بكلام الله وبمشيئته.

ومن هنا ارتبط الهذيد بالصلاة ارتباطاً وثيقاً كأول درجة من درجاتها الرسمية، التي يستطيع الإنسان أن يعيش بها و ينمو أمام الله بمنتهى الثقة والأمان، لأنها تكون صلاة من جوهر الإنجيل. وهي قادرة بهذه الكيفية أن تغير كثيراً وتجدد كثيراً في وجدان الإنسان وتفكيره وتعبيره. لذلك لا يمكن احتساب الصلاة الإرتجالية في التقليد الأرثوذكسي إلا إذا كان الإنسان ممتلئاً من كلمة الله، أي متمرساً بالهذيد الصحيح، وإلا فإن الكلام سيخرج غير إنجيلي والأفكار تكون غير معبرة عن مشيئة الله وفكره.

والهذيد لا يعني مجرد القراءة المسموعة بعمق، ولكن يمتد ليشمل معنى ترديد القراءة في الصمت بعمق أكثر كل مرة، حتى يشتعل القلب بالنار الإلهية. وهذا واضح بأجلى بيان من قول داود النبي في مزمور ٣٩: «وفي هذيدي تتقد النار فيّ».

ومن هنا يتضح الخيط السري الدقيق الذي يربط التمرين والاجتهاد بالنعمة وبالنار الإلهية.

فإن مجرد الهذيد بكلمة الله في منتهى الهدوء وعلى مهل مرات متعددة ينتهي، حسب رحمة الله ونعمته، بإشتعال القلب! وهذا يكون الهذيد أول صلة رسمية بين الجهد المخلص في العبادة والصلاة، وبين مواهب الله ونعمته الفائقة. ولذلك اعتبر الهذيد أول وأهم درجات الصلاة القلبية التي يستطيع أن يرتقي بها الإنسان إلى حالة حارة بالروح، ويمكن أن يعيش

فيها كل حياته .

ولا يخفى أن كلمة « الهديز » في الأصل اللغوي في اللغة العبرية الأصيلة التي تنطقها : « هاجا » ، مأخوذ منها طريقة الفهم والطق البدائي « يتها » ، فهي تعني محاولة اجتهدية جادة للفهم والتعلم فيما يختص بمشيئة الله وأسراره الخفية في كلمته ووصاياه ، لذلك نسمع داود النبي يقول في مزموره الأول أنه : « طوى للرجل الذي يتها (يهد) في ناموس الله نهراً وليلاً » ، لأنه قطعاً سيصبح رجلاً حسب مشيئة الله ، كما كان داود نفسه !!

ونتيجة هذا الهديز أو الهجاية في ناموس الله يعلنها داود ، أن الإنسان يصبح ناجحاً في كل ما يصنعه ، وكأنما الهديز نافع لأن يكون درجة لكاملين روحياً . كذلك يتبين من مفهوم كلمة « هاجا » العبرية (أي يتها الشريعة أو الناموس) أن الهديز هو الدرجة اللائقة بالمبتدئين لتكوين حياة عشرة صادقة مع الله .

ومعنى هذا أن الهديز يصلح لأن يكون بحد ذاته بداية ونهاية ، وهذا حق لأن كلمة الله هي كذلك بداية ونهاية ، بها يدخل الإنسان إلى الحق وفيها ينتهي إلى كل الحق .

لذلك كان الهديز تجارة رابحة لدى الآباء ، عاشوها ومارسوها حتى آخريوم من حياتهم : فسمع من بالليديوس كاتب بستان الآباء ، أن القديس مرقس الناسك سرد أمام بالليديوس الأناجيل الأربعة وكان عمره آنذاك مائة سنة !! وأن القديس أهرون كان يحفظ المائة والخمسين مزموراً ورسالة بولس الرسول إلى العبرانيين وسفر إشعياء بأكمله وجزءاً من سفر إرميا وإنجيل لوقا وسفر الأمثال . وقد رأى مثل هذا الرحالة روفينوس أيضاً وشهد بذلك .

ولكن ليس معنى هذا أن الهديز كان عند الآباء مجرد الحفظ عن ظهر قلب ، وإنما كان نتيجة حتمية له ، لأن التلذذ المستمر بالأسفار المقدسة مع ترديدها اليومي لا بد أن ينطبع على الذاكرة فيجري على اللسان بسهولة .

ونلاحظ دائماً أن القدرة على المداومة في الهديز القبي بالأسفار المقدسة تعبر عن الحياة التي تسري حقاً في القلب ، لأن كلمة الله روح وحياة كما عرفها لنا الرب ، لذلك فإن مداومة الهديز فيها تكشف حتماً عن اتصال سري وبالتالي عن حياة حقيقية تسري في القلب . أما القلب الذي ينصد عن الهديز بكلمة الله ، فهو يكشف عن توقف وجود . ونسمع داود النبي يوضح هذه المقارنة العجيبة بين القلب الذي يهد في ناموس الله والقلب الذي

يتوقف عن الهدد صوته: «تحمّد فنيهم مثل اللب المتجين، أما أنا فهذدت بـاموسك» (مر ١١٩: قصصه ٩). معنى أن الهديد بـاموس الله يحفظ القلب حياً دفناً متدفقاً بنار الكلمة لإلهية. وذلك لأن الهدد شمس في صميم معناه التعمق المستمر في روح الأسرار واجري وراء الحصنة تدوا الحفينة التي تكون محتنة وراء الوصية. وهذا من شأنه أن يجعل أفكار الإنسان دماً متجددة، وعواطفه إنجيلية رفيعة، وسلوكه سهلاً متحركاً ومسطحاً نحو كل لإحتمالات بنجاح.

لذلك نجد أن الهديد في درجته المتقدمة ينسخ قليلاً قليلاً عن القراءة، ليدخل في تصور حفائز الإلهية ومداخل ومحارج الوصايا وتدير الله. وهذا يبدأ الهديد بفتح على أولى درجات التأمل، أي ينتمى من التعمق في الكلمة إلى التعمق في الحق الذي تحويه الكلمة. وذلك لأن مداومة الهديد في كلمة الله الحية لا بد أن تملأ القلب والفكر بأفكار وتصورات مقدسة، وهذه بدورها تعتبر المادة الأولى التي يصنع منها التأمل أجنته الحفينة ليظهر في سماء الروح بدون واسطة القراءة.

وسكن يستحيل أن تتكون عند أفكار وتصورات مقدسة تملأ القلب والفكر وتفيض منه، بدون هديد دائم في الكلمة الإلهية وفي وصايا الرب ومواعيده.

عندما نأخذ الحصنة الهائلة من الأفكار والتصورات المقدسة التي سحورها بالهديد الدائم في الأسفار الإلهية، فوق أنها تعتبر بعيداً نعد دأها تغني الإنسان معنى الروح، وفوق أنها تكون كسيف من هب بارمعدة يقطع كل أسباب الأفكار والتصورات الشريرة، فهي تحبس الإنسان كدبحة عقيمة مرضية ومفولة أمام الله دائماً: «لتكن أقول هي وهديد فني مرضية أمامك دائماً أيها الرب صخرتي وفادتي.» (مز ١٩: ١٤)

نحكي أن راها ذهب إلى معلمه في الصباح حرياً بعد ليلة طويلة فضاها في الهديد في تعدد قصائده أحد بحوته لرهان فائلاً: «بأني قد أضعت الليلة سدي إذ جدست طول بين أعد فضائل حتى فلا فوجدتها ثلاثين فضيلة، وحرزنت إذ وجدت نفسي لا أملك ولا فضيلة واحدة منهن»، فقال له معلمه: «ولكن حزنك على حنوت نفسك من الفضائل وهديدك في فضائل غيرك هو أفضل من ثلاثين فضيلة».

هذه صوته عممية لإنطباع وصايا الرب التي تخص على لفضائل في ذهن الإنسان

وضميره، فيجعله يذهب بالروح ليفتش عليها أين توجد وأين لا توجد. هذا في الواقع يبين كيف أن الهدية في ناموس الله يولد الهدية في فحص الفضائل والجري وراءها، ويدفع النفس و يقرعها قرعاً شديداً مستمراً لكي تفتش ذاتها وتقيس نفسها على مقياس الإنجيل، ولا تجدد راحتها إلا في الحق الذي نهذ به، ولا تنهأ ولا تسعد إلا بتطبيق ناموس الله. فالهدية معلّم الفصيحة الذي يمسك بيد الإنسان ليرفعه فوق نفسه، ومصباح ينير البصيرة و يعود رجل الإنسان ليخطو خطواته العظمى نحو الأبدية.

ولكن لعل أعلى درجات الهدية هو الهدية في تدبير التجسد الإلهي، وما يتعمق به من الفداء الذي كمل على الصليب والقيامة التي أعطتنا قوة الحياة. هذا يسمى «الهدية بسر التدبير»، الذي يصممه الإنجيل بكلمات واضحة سهلة إذا وقف عندها الإنسان طويلاً تنفتح معانيها السرية على القلب وتسكب منها قوة مشعلة قادرة أن تهب الإنسان حياة جديدة: «لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته» (في ٣: ١٠)، «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع الفديسيين ما هو العرض والطول والعمق والعلو وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله» (أف ٣: ١٧ - ١٩). حيث يلتزم الهدية هنا بنفس الكلمات والعبارات و ينحصر في حدود معناها الواضح في الإنجيل، وهذا يميز الهدية عن التأمل حيث يكون التأمل في هذه الأسرار حراً غير مقيد بالكلمات المكتوبة، وإنما يعتمد على مجموعة المُدرّكات الشخصية واتساع أفق البصيرة والمعرفة.

لذلك كان الهدية في أسرار التدبير، كما دوّها الإنجيل تماماً، هو الأساس الحتمي لتأمل الفنانوني لاستعلان قوة هذه الأسرار ونورها، فالهدية الناجح المستمر يجعل التأمل ناجحاً قوياً نامياً باستمرار.

فالهدية، إذن، عمل روحي شيق من صميم العبادة وواجباتها، وهو مفروض على الجميع بلا استثناء، إذ يتعذر على أي إنسان أن يفتدي بكلمة الإنجيل إلا إذا ردها في قلبه وذهنه، وهذا هو معنى الهدية. كما يصعب على أي إنسان أن يدخل في صلاة حارة حقيقية مع الله بدون أن يردد أمامه كلمات مواعيده و يتمسك بها و يشرح موقفه منها، وهذا أيضاً معنى الهدية!

فالهدية صلاة تعتمد على ترديد كلمات الله وعوده في القلب والذهن، حتى تصبح

جزءاً لا يتجزأ من إيمان الإنسان ورجائه، وقوة حقيقية يستند عليها عند اللزوم: «خبأت كلامك في قلبي لكي لا أخطئ إليك.» (مز ١١٩: ١١)

(١) الهديز كفيض داخلي وصلاة:

حيما يكون الإنسان حاراً ملتهباً بالروح تكون صلاة الهديز عنده بسيطة جداً غير متكلفة لا تحتاج إلى تركيز أو جهد ذهني أو أي انفعال فوق الإرادة، لذلك تسمى في هذه الحالة بالصلاة البسيطة أو ذات الاتجاه السيط، فهي تكون مناجاة حارة تحدث فيها النفس مع الله خالقها بحب حسب ما تشعر به، سواء كان تمجيداً من نحو أعماله وصفاته وحكمته أو شكراً وحمداً بسبب رحمته وعنايته الفائقة المتضعة. وهنا قد تلهب النفس أثناء هذا الهديز الصامت، فلا تطيق سكوتاً، وحينئذ تبتدىء تصلي بكلمات تنطق بلا قيود تعبر عن الحب والعبادة والخضوع كما يعبر الطفل بكلماته الضعيفة عن شعوره القوي، حيث يكون القلب مفتوحاً أمام الله يحس بكل ما يختلج فيه من لمسات يد الله الحفية.

(٢) الهديز كعمل إرادي وصلاة:

أما إذا أراد الإنسان الدخول في الهديز دون أن تكون لديه حرارة سابقة تدفعه إلى مستوى الصلاة القلبية مرة واحدة، فالأمر هنا يحتاج إلى شيء من الجهد النفسي والتركيز العقلي حتى يمكن للنفس أن تتحرر من جودها ويستطيع العقل أن يتخلى عن انشغاله بالأمور الخارجية، ليدخل في قراءة واعية روحية ترفعه إلى حالة صلاة. هنا، يلزم أن تتحرك أعماق الإنسان وأن يتأهب الضمير بحركة حرة مضادة لكل المشاغل النفسية والذهنية التي جعلت الإنسان في جمود وانشغال عن العبادة والصلاة والاتصال بالله.

وحركة الضمير تعتمد على المحبة في تغلبها على الجمود والانشغال الظاهري. فالإنسان عندما يتحرك فلياً بالإرادة لمحبة الله، ولو تغصّباً في البداية، فإن المحبة الإلهية تسري فيه في الحال لأن العمل الإلهي يؤازر دائماً العمل البشري ويتحد به في النهاية.

لذلك، على الإرادة أن تظل ناشطة صابرة منتظرة حتى تحل القوة الإلهية وتسري الحرارة الروحية، فينطلق الإنسان نحو الأعماق ويبدأ صلاته وهذيزه بكل فرح وسهولة.

هذا العمل الروحي أثناء القراءة الروحية، الذي ينقل الإنسان من حالة الجمود النفسي والانشغال العقلي بالأمور المنظورة إلى حالة تعمق داخلي وحرارة وصلاة، يُعتبر في

الحقيقة أهم وأدق عمل روحي في حياة الصلاة كلها، فهو الباب الوحيد الذي يفتح على كل أسرار الحياة الروحانية، وهو أول درجة في السلم السماوي الذي يصل بين النفس وخالقها.

في هذه المحطات قد يواجه الإنسان بعض عناد من النفس التي تكون مشتتة في اهتمامات أو هموم كثيرة بلا قيمة وبلا معنى، وقد يواجه الإنسان مراوغة من العقل في تنقله من صورة إلى صورة ومن فكرة إلى فكرة وهو طائش في أمور غاية في التفاهة. هنا، على الإرادة المسلحة بنية داخلية صادقة أن تقف موقف الإصرار؛ متشبثة بالمحبة منطلقة إلى وجه المسيح في توسل وانتظار حتى تفتقدها النعمة الإلهية وتحررها وتبشها حباً بحب.

والمنبع الخصب الذي ينقن الروح القدس منه دروس الهذيد لتلاميذه، هو الكتاب المقدس، فهو المدرسة العظيمة حقاً التي لا نهاية لدروسها والتي مهما استوعبنا منها فلن نستوعب إلا اليسير... وهي غنية بمناهجها الثلاثة: المنهج التاريخي، ويشمل من بدء الخليقة حتى نهاية الدهور فيما يحيط بالخليفة الصامته والناطق من كل ناحية؛ والمنهج الناموسي، ويشمل كل وصايا الله وشرائعه ونواميسه التي وضعها لبني البشر؛ والمنهج الثالث، ويشمل معاملات الله مع أحبائه وحديثه معهم وحديثهم معه. هذه المناهج الثلاثة كفيلة بأن تغطي كل احتياجاتنا في هذيدنا مع الله، لا كأنها أشياء مضت، بل كأشياء حاضرة معنا؛ ولا كأنها حقائق لداتها بل تصير حقيقة نفوسنا نحن.

وأعظم مثل للهذيد الحر المتسع والذي يشمل كل هذه الماهج، هو الإنتاج الرائع الذي خلفه لنا داود النبي في مزاميره التي هي في حقيقتها قطع فية للهذيد، فهي تشمل حديثاً شجياً متصلاً بين داود والله.

فن حيث الحقيقة لم يترك شاردة ولا واردة إلا وذكرها مستحسناً صنعا. فحدث الله عن صنعه للسماء والأرض وما تحت الأرض والجبال والتلال والبحار والأنهار والينابيع والوديان والحقول والبقاع والأشجار والغابات والعشب والثمار؛ وتعش بالشمس والقمر والنجوم والكواكب والسحب والضباب والجليد والصقيع والحر والبرد والأمطار والعواصف؛ وتحدث عن حيوانات لبحر السالكة في البحار، وطيور السماء وحيوانات البر وحوش الغاب وبهائم الحقل والدبابات التي تدب على وجه الأرض؛ وتحدث عن الشعوب والأمم والألسنة وكل خليفة على وجه الأرض؛ ومن فرط غلوّه في الروح، هتف بها جميعاً واحدة فوحدة

لتسبح معه وتبارك الخالق وترنم لله العلي .

ثم يعود داود في مواضع كثيرة من مراميره ، وبالأخص في مزموره الخالد ١١٩ ، يحدث الله عن ناموسه ووصاياه : يصف له اتساعها وجمالها وحلاوتها ، يشهد أمام خالقه أنها أشهى له من لعس والشهد في فمه وأنها تنير عينيه ، وأنها فرحة قلبه وغنى نفسه وهذينه بالليل والنهار حتى صارت سراجاً لرجله ونوراً لسيله ؛ ويشهد لشباب أنها قوام طرقهم ، وللأطفال أنها تفهمهم ؛ ثم يحدث الله عن الكآبة التي ملكته حينما رأى الخطاة يهيمون بناموسه والمتكرين يتجاوزون الشريعة ، فيحتد أثناء حديثه مع الله على الذين يحيدون عن الناموس ويلعنهم ؛ ثم يشكر الله أنه علّمه وصاياه أكثر من أعدائه وأعطاه بها فهماً أكثر من الشيوخ .

ثم يعود داود ليحدث خالقه عن نفسه فيرى نفسه دودة لا إنسان ، حقيراً ومرذولاً أكثر من كل الناس ، يُرجع بصره إلى أيام صباه فيذكر خطاياہ التي اقترفها في جهل ، فيصرخ طالباً الرحمة ؛ ويرى آثاره الحاضرة ماثلة أمام عينيه ، فتغتم نفسه ، فيصرخ مسترحماً محدثه كيف كلّت عيناه من الدموع وانكسرت نفسه من الحزن وبليت عظامه من التنهد حتى غارت عيناه وذبل لحمه فالتصق بعظمه ، حتى شابه البومة والعصفور الفريد على سطح موحش !!! ثم يرجو خالقه أن لا يؤذبه بغضبه فهو مستعد للأدب وإنما بالحب والرحمة من أب شفيق ؛ ويتوسل إليه أن لا يميتته وهو في منتصف أيامه بل يتمهل عليه حتى يوفيه حقه من التسبيح والتجيد والشكر . وبذلك يكون داود قد استوعب مدرسة الروح القدس بأكملها ، حتى حاز شهادة الله : « إن قلب داود كان حسب قلب الله » (١ صم ١٣ : ١٤) ، وفاز بقول المسيح : « قال داود بالروح . » (مت ٢٢ : ٤٣)

وهكذا وضع لنا داود بالروح نموذجاً حياً خالداً للهدى الكامل حسب مسرة الله . فكل مزمور هو قطعة هذينة رائعة تفوم بذاتها وتكفي لتكون درساً كاملاً ، وتكون مع بقية المزامير صورة ناطقة لحياة العشرة التي قضاها داود في حديثه مع الله .

إن سر تقدم داود كان اطلاعه المتقن على أسفار الكتاب المقدس ومواظبته على الهدى بها . وإذن ، فحينما نتقدم إلى الروح القدس لنعلمنا دروساً جديدة في الصلاة عينا أن نطالع دروسنا جيداً بل ونتقن حفظها وتلاوتها ، حتى من مادة حفظنا يرشدنا الروح إلى نواحي القوة والجمال فيها . و يوضح لنا ما يخصنا فيها وما يطابق حالنا منها فتصير كلمات حفظنا وسائل لتهدينا وتبكيثنا وتوبتنا .

وأعلم أن الهذيد فن، ويحتاج إلى زمن لإتقانه، ولكن التقدّم فيه هين وسريع، وإن لم يظهر بوضوح شأن جميع الفضائل الروحية. فكلما تقدّمنا شعرنا بنقصنا وعجزنا، حتى إذا بدّنا إلى درجة عالية ننظر وكأننا لم نتقدم خطوة واحدة، وهذا من فعل النعمة فهي تخفي تقدّمنا عن أعيننا لئلا نسقط في الغرور والكبرياء. فكلما استولى علينا شعور بالنقص يكون ذلك دليلاً — كما تعلّمنا الآباء المُلهمون بالروح — على أننا قطعنا مرحلة طيبة وأمامنا مرتفع يحتاج إلى تحفّز لقفزة واسعة.



أقوال الآباء في الهذيد:

- ٧٦ — الهذيد في الكتب المقدسة ينير العقل و يعلم النفس الحديث مع الله.
- ٧٧ — الذين يعرفون الكتب المقدسة يسهل عليهم التصريح في صلاة حقيقية.
- ٧٨ — توحد قراءة تعلمك كيف تدبر أمورك ، وتوجد قراءة تشعل النفس بحلاوة الفضيلة . كن مداوماً الهذيد في الكتب الإلهية وسير القديسين ، لأن من دوام التفكير فيها تنموفيك أفكار حارة وتسهل عليك الصلاة وتجعل الضيقات هيئة في عينيك .
- ٧٩ — عمل القراءة مرتفع جداً لأنه هو الباب الذي يدخل فيه الذهن إلى الأسرار الإلهية ، و يأخذ قوة حسب نقاوة الصلاة ، ومنه يتقوى أيضاً التدريب على الهذيد .
- ٨٠ — بدون القراءة في الكتب الإلهية ، لا يمكن للذهن أن يدنو من الله .
- ٨١ — الباب الذي يدخل منه الإنسان إلى الحكمة هو الهذيد في الكتب .
- ٨٢ — صلاة الهذيد هي أفهام من جهة الحياة ، ومعرفة فاضلة عن الحياة غير المائتة . هي ربوات أفهام تختلج في قلوبنا : كيف جُبلنا من الأرض من حيث طبيعة الجسد و بيد من ارتفعنا ... وكيف تجسّسنا بحس اللاهوت ! و بأي أسرار تحكّمنا ... وهكذا يستقيم الضمير و يتعظ و يتحرر إلى الأمور المرتفعة ، و يصير هذينه في الروح .
- ٨٣ — الصلاة التي يشير بها الآباء لا تكون بالكلام فقط ولا يمكن تعلّمها بالألفاظ ، لأنك لا تصلي أمام إسماع ، بل إنك ترسل صلاتك قدام الذي هو روح . والصلاة الروحانية أعمق من الشفتين واللسان ، وأعمق من التلاوة . فإذا ما أراد الإنسان أن يصلي بها غطس إلى داخل قلبه بعيداً عن الفم واللسان ، هناك في بلد الملائكة ، بغير كلام يقّس مثلهم . فإذا عاد إلى اللسان ليعبّره عن شعوره ، فقد خرج من بلد الملائكة ومن التشبه القليل بهم .
- ٨٤ — إعم أيها الإنسان المتلمذ للحق أن طهارة الصلاة وجمع العقل فيها ، هو الهذيد الحقيقي .

٨٥ - إذا تقدم الإنسان في تدرج اهتداء فإنه يتدنى قليلاً قليلاً يلاحظ الأفهام السريّة الكائنة في كلام الله، وفي الترامير، وفي بقية الأعمال الخارقة حوله، وفي حركات الروح داخلة، وينظر سفينة حياته تسير إلى قدام يوماً بعد يوم.

٨٦ - نُسب في الصلاة أكبر من تمرير، ولكن لا سلطان الترامير حده اهتداء فقط أعط فسحة للصلاة أكبر من التداوة... وفي أثناء فترات خدمته سوسى النهار والنس أعط فرصة للصلاة فتجد نفسك بعد قليل من الوقت قد صرت شيئاً آخر.

٨٧ - إذا من صمير من اهتداء في الترامير والصبوب، استعمل في الأحيان لتلاميذ منك إلى الطياشة.

٨٨ - لا شيء يمنح الصمير حياةً وعفة مثل الحديث مع الله.

٨٩ - من الله، الإنسان يعمل بتدبير العقل الذى هو اهتداء، إلهي، وإلى أن يسع عمل التدبير الروحاني الذى هو التأمل بالروح والهدس في الله، هو يحتاج إلى الغضب في الصلاة أكثر من كل الأعمال الأخرى.

٩٠ - إذا عمل شخصه ويدبر سره عقل حمية (هدد) هي تحت سلطة الإرادة وفيها تعب وجهاد - وما حركة روحه (لأنه الروح) فهي ليست موضوع تحت حرية الإنسان، ولا تفتنى بالهدد أو التدرج أو عمل الإرادة، وإنما هي من عمل الروح، مقدس.

٩١ - هدد، الله، يؤهلنا للصلاة بلا انقطاع. ومن الصلاة نحرك القلب للهدد بعير فتور في الله.

٩٢ - هدد، الله، وسكون الأفكار، يستطيع الصمير أن يتفرس في كل أنواع الصلاة ويكتسب معرفة فاضلة عن الله.

٩٣ - الصلاة تقرب العقل إلى الله، وناهى به ينشجع العقل فيتفرس فيه فيتلقى وبتقدس. هذا هو الهدد الذى يتسلط على كل الأفكار ويضطها، فيستضيء العقل بالحميات الداخلية ومعرفة الله. ومن هه يستطيع أن يقول: «من يقدر أن يفصلني عن حب المسيح؟ أشدة، أم ضيق، أم اضطهاد، أم جوع، أم خطر، أم سيف؟ ... إني مصلوب للعالم والعالم مصلوب لي».

٩٤ - إذا حدث مع الله في الصلاة بتمه نظرة المنكوت، الموضع الذى عن مرمعون أن يقدم فيه السجود بالروح والحق الذي لا يحده جسد ولا جهة من جهات العالم.

٩٥ - من يصلي فمكر من طيشة إنما يكون بالصلاة، وما سمع أن أحد من هذه من غير مد وحمه عن الصلاة.

٩٦ - من يصلي صلاة يفتي نفسه حياءً وعند من يظن أنه في صلاة والكلام الهاديء معه.

٩٧ - حرارة الصلاة والتهذيب تحرق الآلام والأفكار السريرة كمثل نار آكلة. هذه سوع من هذه تسجد حجة وسعد في بعض الروحاني الذي يكون حياءً لروح وليس رياءً.

٩٨ - من يصلي فمكر يكون عند الخبوت كلاسىء، بل ورد في نصا، حياءً الذي هو مست لقتل. هذا هو تدبير الصلاة وهذه هي منعة التهذيب الإلهي.

٩٩ - من يصلي في حياءً في هدوء، وأبدأ برفع قلبك في صلاة صامئة! بدون بلاوه مخصوصات من مريم في سيرته و بدون سجود. إذا سقطت أنت ببيت نكس وسنة تمكنه حياءً في هديتك الحيو (اختيار للمتقدمين في تدريب السهر).

مار إسحق السرياني

١٠٠ - من يصلي (بصلاة) ويركع وينشأ فده قوة له. ويخرج نفسه مع برك كم يخرج عروس مع عرسها حسب قول سعد (٥٠٦٢). ويخرج نفسه لهرس عروسه. من يصلي عسر على أن يصلي من صل صوم بهر مسعولا (بأعمال العام) أن يخصص سنة بصلاة مداه معيه، ليحتلف في أن يصلي أن يفتي في عمل السعد في تأمل العالم الآخر الذي لا نهاية له، خلأوه كثيرة، وهذه غصه و سعرت (عن مسد من سعد) و يرتفع و يستل في هدوء. وحسب تمد سجدة دهن على فكره حياءً عن الأرضات وسعد دهن في أمور سماوية لا نهاية لها، فدرت شهء كسده عجبته لا تمكن و صلهه مع رسات حتى يحضر صوته، ولكن من يقوه وفند يحضر في معنى "رسات عسى خرج مع صلاتي".

أبا مكار يوس الكبير

١٠١ - سؤال: هل في كل الأوقات يتعمق الإنسان في هذه الأمور؟

جواب: إن السعة حاصره معاً بلا انقطاع وقد رصت ومرتحت فيه من أول عمره ... وقد حصل براء مع براء في درجه الكمال، ولكن أحياناً ترتخي سعته عنه فيسرد في درجه أسفل من كماله. وأما العسى بالسعة فلا يرح في كل حين لئلا يهراق في حال أن يكون حراً في أسور دث في سمو.

١٠٢ — ثم أن الإنسان الذي انكشفت له هذه الأمور واحتبرها إن كان يتصورها قدامه دائماً، فلا يمكنه أن يحتمل ثقل الكلام بعد ذلك، ولا يطيق أن يسمع أويهم بأمر لنفسه أو للغد، بل يجلس بغيراً في زاوية، ثملاً من فرط السمو.

١٠٣ — إن أحثّ إنسان ما الرب يسوع وداوم على محبته، فإن الله لا بد أن يعطي هذه النفس جزاءها.

أبا مكار يوس الكبير

١٠٤ — ربنا سمى تلاميذه طوباويين إذ قال: «طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولا أدانكم لأنها تسمع.» (مت ١٣: ١٦)

هؤلاء استحقوا التطويب لأنهم بطروا يسوع وآلامه وعجائنه بأعينهم الجسدية وأصفوا لكلماته ... بحسب شتهى أن ينظروا أن نسمع، ولكن هؤلاء رأوه وسمعوه وجهاً لوجه لأنه كان حاضراً معهم باحسد. والآل هو ليس حاضراً معنا بالجسد، فبحسب نسمع كلماته من الكتب المقدسة ونتقدس بالسمع فنطوب ونبتعل ومحترم الكتب التي تخبرنا بكلماته، وهكذا بواسطة تصوراتنا الماطرة التي يصفها الكتاب نتفرس بعين الفكر في هيئته الجسدية وفي عجائنه وآلامه وتقدس ونشبع ونسر ونسعد! وبوقار بعد هيئته الجسدية التي يهذبها فكرنا وتصورتنا إذ نكون بعض التصور لجلال لاهوته.

لأنه كما أننا من جسد ونفس، ونفساً هذه لا تستطيع الآن أن تقف بمفردها إلا بموازرة الجسد لدي تحتجب فيه، كذلك يستحيل أن ندرك الأمور الروحية إلا بالوسائط المادية، كما هو حاصل في حاسة السمع المادية إذ بواسطة سماع كلمات محسوسة ندرك أموراً روحانية غير محسوسة وغير مادية على الإطلاق. كذلك أيضاً بواسطة رؤيا الماطر الجسدية أو تصورتها نصل إلى وندرك الأمور الروحية. إذن، فهدية الفكر نافع لرفع القلب بالصلاة وبلوغ مدارك الروحانيات، وعلى هذا الأساس أخذ المسيح جسداً مع النفس كما للإنسان، ليظهر للإنسان قوة اللاهوت باللموسات، والمعمودية كذلك من الماء والروح وكذلك تناول، وكذلك كل أسرار الكنيسة والصلاة والتسبيح والنور والخور، في كل هذه تتعاون الماديات لحلول وتثبيت الروحانيات.

الأب يوحنا الدمشقي

١٠٥ — إذا كان الكتاب المقدس قد استطاع أن يُعرّف الله ويصوره بالحروف المادية المبروءة، فهذه الحروف تحمل خلاف شكلها المادي الظاهري معنى آخر روحانياً ومدلولاً سامياً غير مادي. أما هذه المعاني الروحية وهذه المدلولات السامية، فقد استحق كثيرون من الأطنهار أن يطلعوا عليها بالعقل ويعاينوها بعيونهم العقلية ولكنها لم تنكشف للجميع. فنحن نستطيع أن نعمل فكرنا في تصور الأمور حسب أوصافها ومدلولاتها فنذكرها كأننا رأيناها. وكما أننا نصل إلى معرفة الشيء بالاستدلال

والمقارنة كذلك نستخدم كل الحواس لإدراك الأمور التي لم نرها.

ونحن نعرف أنه يستحيل أن يرى الله أو ملاكاً كما هو أو حتى الشيطان أو الأرواح الأخرى، ولكم يتراءون لنا بشكل خاص، إذ أن العناية الإلهية من أجل ضعفا تليس ما هو ليس عمادة، أو حتى شبه مادة، صورة هيئة ما، لأجل تعليماً وتفهيماً عن قرب، لئلا نُعسى في جهل شديد بالله والعالم الروحي، ولئلا نفصل انفصلاً تاماً عن الروحيات. فإله روح نقي بطبيعته، والملائكة والأرواح بالمقارنة بالله (وهو تبارك اسمه لا يصح مقارنته بأي كائن لأنه هو وحده بلا مقارن) عبارة عن أجسام، ولكن هذه كلها إذا قورنت بالأجسام المادية فهي ليست بذات جسد.

وإذ لم يشأ الله أن يتركنا في جهل عن الأرواح، ألبها هيئة وشكلاً ومنظراً مقارباً لطبيعتها يراه العقل بالرؤية العقلية.

١٠٦ — العقول الروحية ليست في حاجة إلى الماديات لتصوراتها الروحية؛ أما نحن فإذا لازم ترايبين، فإنما نصل إلى الرؤية والإستعلان الإلهي بواسطة المناظر المدركة بالعقل.

١٠٧ — القراءة وهذيد الفكر في معاني الكلمات يهتأن طريقاً للصلاة، و يُعتبران وسيلة صالحة للكف عن الإنشغال بالأمور الباطلة.

غرض القراءة هو أن نصل إلى موضوع يسترعي انتباهنا ويحتفظ بهذا الإنتباه بلا تشتت؛ أما هذيد الفكر في معاني الكلمات المقروءة فهو قسرة العبور من القراءة إلى الصلاة، ثم هو يلزم الصلاة بعد ذلك ليعين الإنسان على الإستمرار في صلاة طويلة. إنه جيد في الصباح أن نعكف بعد الصلاة على القراءة، نقرأ قليلاً لنهت؛ ولكن الحرارة في القراءة ليست هي النهاية المقصودة، ولكن القصد هو أن نصل إلى حالة الصلاة، حينئذ نكف عن القراءة لأن العقل يكون قد كف عن طوافه.

الأسقف ثيوفان الناسك

١٠٨ — «وفي ناموسه يهذ نهاراً وليلاً.» (مز: ١٢٠)

يفوز الإنسان بسعادة كاملة حينما يتقن الهذيد غير المقطع وغير المكروب في ناموس الرب. ربما يُعترض على هذا بأنه (أي الهذيد) يستحيل بالسعة لضعف البشرية التي تحتاج إلى أوقات للراحة وأخرى للنوم والأكل، والتي يتعذر القيام بفروض الصلاة أثناءها. ولكن كلمات الرسول تؤكد الأمر: «صلوا بلا انقطاع».

لهذا يرى أن الهذيد في الشريعة لا يعني قراءة كلماتها أو تلاوتها، ولكن يتسع معنى الهذيد فيشمل تنميم أحكام الناموس بالتقوى، ليس بمجرد القراءة ولكن في هذيد عملي وتدريب على كل

واحدة منها وتتمه للتوصيه بالأعمال الى نعملها سواء في النهار أو في الليل، كما يقول الرسول.
«إِذَا كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ مَسْجِدَ اللَّهِ أَوْ مَسْجِدِ الْإِسْلَامِ أَوْ مَسْجِدِ آبَائِكُمُ الْمُسْلِمِينَ أَوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُ الْحَدِيثَ مِنْ أَحَدِ الصَّحَابَةِ فَمَا كَانَ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَعْلَمُ الْكِتَابَ فَأَعْلَمَهُمْ وَلَا يَكُنْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَعْلَمُ الْكِتَابَ وَلَا يَكُنْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَعْلَمُ الْحَدِيثَ فَمَا كَانَ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَعْلَمُ الْكِتَابَ وَلَا يَكُنْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَعْلَمُ الْحَدِيثَ إِلَّا عَلَّمَهُمْ» (أبو داود، ١٠٠٣١).
بأعمال مرضية لله تعمل دائماً لمجده.

وحدہ مثل ہندہ سیر حسب التوصلہ فی کتب خطیہ و غیرہ . ایت تصریح ہدید باللس والہ ری
ناموسہ .

الأسقف إيلاري (من بواتيه)

۱۰۹ - ایسب ہی کثرہ کلام او برکسا مضطربا بن سحید مستند فی القلب دنیا کی موضع
فی کل حین بغیر انقطاع (الہذید)۔

أو ذلك النوع الآخر (الأسفل بالروح) الذي يحدث في القلب بدون هوى (إرادة) بل من الروح، كسببه يسوع لا بهذا جريانه ولا بقطع قصه، وهذا يعطى براحة النفس، فشعبه به على يدس يعو في سجون قدامهم أعمالا وتمجيد يحملون في سبل ذلك آلام كثيرة. ومن هذه الصلاة الدائمة مع هؤلاء الشعب كآلام داخل لا تفر عنه. الذي هو أسرار به الحقة. أما يدس أسأهلوا هذه نعمه فهو أوسك يدس تدربوا في اهتداه الدائم مع الله بغير حركات ألميه (تفرج الإرادة) وشهوات شه شه نفسه. ومن هذه أسباب بدحصول في يدس في نور الشوب الأقدس — وضعها هذا على درجات، والدرجات بقدر العمل والنشاط.

الشيخ الروحاني

۱۱۰. اے کائنات! سنو! بکسرہ حرکت فتنہا مطلقہ میں حرکت اللہ ہر وہ امر ادا کروں
فک ساکتا بہدوء فقلبک حینئذ یغلی بمرکات الروح.

الشيخ الروحاني

۱۱۱ - سَكَّ لِسَانُكَ لِيَكْلِمَ قَلْبُكَ (حدیث) : سَكَّ قَلْبُكَ لِيَكْلِمَ الرُّوحَ (ابنِ عَبَّاسٍ) .

الشيخ الروحاني

١١٢ - أدخل في سب كبرك : اس الأحرار محمد دك ترك . أدخل في غرس اس اصباح امرئ
ميكوته . لأن غرسه مسعد . في داخلك . لما تطيس في يد يس لك ؟ في بيتك ميكوت ، مادا
تسجد كسره حر كاحوس في المرائ . فيك في حر الحياه . إحب واحصر في نفسك فري الملكوت
داخلك . فم احمه في حصك مثل مرء أمه . فم اسس من أعصاه رنحة حياه . فم شخص فم
بظرك في صلاتك يحتفظ فيك حمه د حث فظهرتك و ستيك و برفعك و يرفيك . ليكن هو ماكنك ولا

سبع كمي دقه داود فترته بطيبه، ولا تفرغ من عطشك إليه. ليكن لك سوء حلاوه دئم. إن كنت تحزن فديلاً في طبه فسوف تدوم فرحتك بوحوده. وإن كنت بالصيق و لدم تشهي نظره فسوف يشرف حسه بالتهليل داخلك.

١١٣ — من تخدم؟ لمن يصلي؟ فدام من بصرح وتنكى؟ أليس فدام داك الذي به سحرك وتوجد! أليس فدام من هوفيت مستريح كما في هيكنه! ولماذا لم تشعر بعد سعي ووحوده فيك؟ أه من أجل أنك لم تخلط أعمالك مهمة ولم تداوم فدام الواحد غير المنظور.

فم فتح فليك لمور لتعين المور، إذا جلس أو منيب مع الطيور فيطري أحواء طهاره، ومع الأسماك اسبح في بخار عظمته، مع شهبو افواء نسيم رائحة قدسته، ومع كلامك اخلط تقديس اسمه!

١١٤ — حملته في حصن مثل مريم أمه، ادخل مع الخوس وقرب قراينك ومع الرعاة شر بولادته. ومع الملائكة رد بتسيحه. حذه من سمعان الشبح، واحمله أب أيضاً على دراعيك. احمله مع يوسف وارل به إلى مصر. حين يقوم مع الأطفال اطله إليك وقل شفتيه، واستشق منه رائحة جسمه عيسى سكر. كس تاعاً لضوته في جميع أدوار تربته، لأن هذا يمرح فت محته بالتصافك به دائماً، فتفوح من جسده امانت رائحة الحياة التي من حسده. فف معه في الهيكل وسمع كنماته المصوة حكاه بني حطت بها السيوح حتى اندهلوا من تعليمه. وحين يسأل ويحب اصغ إليه واعجب لحكته. فف هناك عند الأردن و ستقله مع يوحنا، وادهش واعجب من تواضعه حين تراه يحفض رأسه ليوحنا ليقبل منه العماد بالماء!

أخرج معه إلى السرية، واصعد معه الجبال، واجلس هادئاً عند قدميه مع الوحوش التي جاءت لتتأنس برها. وهناك قم معه لتتعلم الحرب والقتال مع الأعداء.

فف عني سر مع السامرية لتتعلم السجود بالروح والحق، وارفع الحجر عن لعازر لتتعلم ما هي لقيامة من الأموت. فف مع الجموع المحتشدة وخذ لك لمة من الخمس حرب لتتعلم بركة لصلاة! ذهب أيقظه من نومه في قاع السفينة حينما تضطرب الأمواج حولك. بك مع مريم وبن رحليه بدموعك فتسمع منه كلمة نسد فبك، صغ رأسك مع يوحنا على صدره تسمع دقات قلبه الذي يصرخ بحب لعلم كنه!!! حد لك كسرة حمر من الذي بارك عليه وقت العشاء لتجد تحسده وتشت معه إلى الأبد.

فم مد رجلك ليقبلك لتطهر من أدناسك وخطاياك. أخرج معه إلى جبل اليريتون لتتعلم منه لسجود وحناء سركب حتى يتصيب عرقك مثله، فم استقل مع شاتميك وصاليك ومد يدك معه للقيود، اعمل وجهك مثله لنظم والبصاف، وعزّ ظهرك لصرب الشياطين. فم با أحي، لا تحزن، اجل

الصليب وقد حل وقت الرحيل . مد يدك معه للمسامير ولا تمنع رجلك ، اشرب معه المر .

قم باكراً ولصلام باق وذهب إلى القبر لترى الفصامة لعجبة . اجلس في العلية وانتظر محيئه
و لا توب معصيه . فتح أديت تتلاهما كسبات السلام التي حرجت من فقه . هيا مع الباقي إلى مكان
منفرد واحن رأسك لتأخذ البركة الأخيرة قبل الصعود !

الشيخ الروحاني



ثَانِيًا : التَّأَمُّلُ

Contemplation
θεωρία



« أصلي بالروح وأصلي بالذهن
أيضاً » (١ كور ١٤ : ١٥) •

قليل من الناس من يقضي بعض وقته في ممارسة الوجود مع الله، وأقل من هذا القليل من وصلوا بنعمة الله إلى التنعم ببركات التأمل العليا في الصلاة الداخلية. مع أن هذا النوع من الصلاة يُعتبر ثمرة الحياة الروحية وعودة آدم إلى جمال روحانيته الأولى.

لقد تكلمنا عن الهذيد كأول درجة من درجات الصلاة العقلية (أو الداخلية)، و يصح أن نذكر هنا أنه ليس هناك حدود واضحة تفصل الهذيد عن التأمل فالدرجتان متداخلتان عملياً. غير أنه يمكن أن يُقال إن الهذيد هو الأساس الذي تستند عليه الحياة التأملية، كما سيتضح من أقوال القديسين، أو بعبارة أوضح يُعتبر الهذيد تدريباً للوصول إلى درجة التأمل. وإن كان الهذيد عبارة عن تنشيط الروح بواسطة القراءة وغيرها، يكون التأمل هو هذا النشاط بلا افتعال. وإن كان في الأول يقع الجهد على قوى التصور والتفكير، فيكون الثاني هو التحرر من كل جهد. فهو النظرة الداخلية في النفس وهو الإستراحة البسيطة في القلب نحو الله.

ومن الخطأ أن نظن أن حياة التأمل معناها أن لا يعمل الإنسان شيئاً سوى أن يتأمل، وإلا كانت حياة التأمل وقفاً على النساك والمتوحدين. ولكن الأمر ليس كذلك، فالتأمل نوع من الصلاة متيسر للجميع وليس وقفاً على أحد، فهو لرجل العالم كما للراهب وهو للمتزوج كما للبتول وهو للشاب كما للشيخ.

والتأمل (التأورية)، في لغة الإنجيل، يُعبر عنه بالتفاته عقلية فيها يتواجه العقل مع حقيقة جديدة فائقة عن المعرفة العادية وعن الإدراك الطبيعي، وهذه الحقيقة الجديدة الفائقة يستشفها الإدراك الإنساني على كل المستويات الفكرية والروحية والوجدانية، و يصحبها غالباً منظرٌ يشرح هذه الحقيقة، يكون من نتيجته حصول الإنسان على درجة إيمانية قوية تفوق المعرفة.

أي أن التأمل في لغة الإنجيل هو وسيلة إيمانية عالية.

هذا المعنى نواجهه تماماً في المواضع الآتية:

(١) رؤية أمور غير عادية تتم عن حقيقة ممثلة، يكون من نتائجها حدوث تأمل إدراكي ينتهي إلى اكتشاف الحق، وهذا نجده في حادثة دخول بطرس مع يوحنا إلى القبر المقدس ورؤيته فارغاً والأكفان موضوعة في مكانها بلفتها العادية والمنديل ملفوفاً كما هو عند موضع الرأس، مما يشرح في الحال حدوث حالة قيامة الجسد المائت بدون لفائفه. فنظر القبر الفارغ واللفائف رفع عقل بطرس إلى حالة تأمل مباشر في القيامة. لذلك يصف الكتاب المقدس نظر بطرس الرسول أنه كان في حقيقته ليس نظراً عادياً، ولكنه تأمل (تاورية)، غير أن الترجمة العربية ضعيفة لم توضح هذا المعنى: «ثم جاء سمعان بطرس يتبعه ودخل القبر ونظر (Θεωρεῖ) تاورية) الأكفان موضوعة والمنديل... وحينئذ دخل أيضاً التلميذ الآخر... ورأى فأمن.» (يو ٢٠: ٦-٨)

(٢) رؤية مخلوقات غير عادية تجعل العقل يدخل في معرفة جديدة غير مألوفة وغير عادية، كرؤية الملائكة، حيث يكون النظر إليهم ليس نظراً عادياً بالعين فقط بل بالعقل غير الحسي أيضاً: «أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجاً تبكي، وفيما هي تبكي انحنت إلى القبر فنظرت (Θεωρεῖ) تاورية) ملاكين بشياب بيض جالسين.» (يو ٢٠: ١١ و ١٢)

(٣) رؤية أشخاص في حالة قيامة حيث تكون حالتهم غير طبيعية تماماً بالنسبة للحواس وبصعوبة يتميزهم النظر، كما في حالة رؤية المجدلية للمسيح: «ولما قالت هذا التفتت إلى الوراء فنظرت (Θεωρεῖ) تاورية) يسوع واقفاً ولم تعلم أنه يسوع.» (يو ٢٠: ١٤)

وكما في حالة رؤية التلاميذ للمسيح لما دخل العلية والأبواب مغلقة عشية قيامته: «فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا (Θεωρεῖν) تاورية) روحاً.» (لو ٢٤: ٣٧)



غير أن المعرفة المتحصلة من التأمل في هذه الحالات لا تكون معرفة عادية يمكن البرهنة عليها بالمنطق العقلي، لأنها تكون فائقة على كل خبرات الإنسان الحسية وكل إدراكاته العقلية السابقة، فالتأمل الروحي في الواقع يضيف خبرات وإدراكات روحية لم تكن موجودة سابقاً تفوق في قوتها ومسرتها كل خبرات وإدراكات العقل العادية. لذلك فبعد التأمل يظل الإنسان غير مصدق ما رآه وما أدركه، بسبب الفرح وبسبب عدم وجود برهان

منطقي يشرح هذه الخبرات الجديدة، وهذا أيضاً نسمعه في الإنجيل: «أنظروا يديّ ورجليّ إني «أنا هو» جسوني وانظروا (Θεωρεῖτε) تاورية) فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي. وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم...» (لو ٢٤: ٣٩ - ٤١)

ونلاحظ أن التعبيرات الإلهية في الكتاب المقدس تفرّق بين التأمل الواعي الذي يكون في يقظة العقل والحواس سواء كان بمنظر أو بدون منظر، وبين التأمل الذي يكون في غيبة العقل أي عندما يكون الإنسان في حالة غيبوبة روحية.

فالتأمل الواعي أي النظر العقلي الصاحي يسميه الكتاب: Θεωρεῖα = تاورية، أما التأمل أثناء الغيبوبة الروحية فيسميه الكتاب: رؤية = Ἀποκάλυψις (أپوكالپسيس). لذلك نجد أن سفر الرؤيا يخلو بأكمله من أي استخدام لكلمة «تاوريا» أي «تأمل» إذ جعلها مقصورة فقط على نظر الإلهيات بالعقل الصاحي.

وبقدر ما كان الهذيد يحتاج إلى تعمق في الفحص العقلي وبالتالي إلى نشاط زائد في الذهن والتفكير، بقدر ما يحتاج التأمل إلى هدوء شامل في القوى العقلية والكف عن الفحص والتعمق، لأن في الهذيد يجري العقل وراء الحقيقة ويتقصاها، أما في التأمل فالحقيقة هي التي تبتدىء تحيط بالعقل وتملأه، فبقدر هدوئه وسكوته بقدر ما تسطع فيه الحقيقة الإلهية وتتجلى وتثير.

التأمل، كإختبار روحي، ليس فيه أي شيء زيادة على إمكانيات النفس العادية عندما تكون في وضعها الطبيعي الهادي. لأن طبيعة النفس الأصلية تتناسب حسب خلقها الأولى مع التأمل في الحق الإلهي. وذلك عندما تقف النفس هادئة وصامتة أمام خالقها. والنفس في وضعها العادي والطبيعي لا يُفترض فيها أن تكون إيجابية ولا سلبية، أي لا يُفترض عليها أي عمل تعمله حتى تُوهّل لاستقبال الحق الإلهي، كما لا ينبغي أن تكون منشغلة عن الله بالشورور أو الشهوات أو توافه الأمور وإلا فلا يمكن أن تحس بالحق الإلهي.

فالنفس في وضعها الطبيعي عندما تتخلص من الشورور والأوهام تكون في حالة سهر داخلي ورزانة، ويسمى الآباء: Sobriety = νηψις، أي لا تكون منشغلة بشيء البتة، حيث يكون القلب في حالة يقظة وانتباه ويسميه الآباء: Attention of the heart =

ἡ καρδιακή προσοχή

وهذا هو أساس التأمل الذي يؤهل الإنسان لاستقبال الحق الإلهي والتأمل فيه، الذي يكون برهانه في النفس هو حصولها على التمييز والتصرف الحسن والحكم على الأمور روحياً، وهذا يسميه الآباء: الإفراز *οὐκρίσις* The faculty of discernment

ولكن لكي تكون النفس صاحبة وساهرة، أي غير ناشطة إيجابياً أو سلبياً، حتى تؤهل للتأمل؛ فهذا معناه أمران:

الأول: أن تكون النفس غير ممسوكة بأهواء خاصة أو شهوات أو خطايا تمتص اهتمامها وتُفقد اتزانها، وهذا هو الذي نسميه النشاط السلبي المحرّب للنفس الذي يُظلم النفس ويحجب عنها الحق الإلهي.

أما طريقة تحرير النفس من عبودية الأهواء والشهوات فهذا يدخل ضمن النسك *ἀσκησις* = Discipline، والنسك عموماً هو نشاط إيجابي للنفس تقاوم به النشاط السلبي. أي هو التمرين على إفضائ لقطع دابر الرذائل والعادات الشريرة، وهذا التمرين يسميه الآباء بمرحلة العمل: *πρᾶξις*

الثاني: أن تتدّى النفس بعد تحررها بأن هداً وتكث عن كل اهتماماتها وتتخلى عن اعتمادها على نفسها وعلى عقلها في التصرب إلى الله، حيث تصح الصلوات نفسها لا تعتمد على مجهود ذهني ولا نشاط نفسي فط، بل هي مجرد وقوف صامت وهادىء أمام الله، فيه تستقبل النفس الحقائق الإلهية بدون جهاد وبدون سعي وبدون استقصاء أو جدل فكري، هذه الصلاة يسميها الآباء الصلاة الطاهرة أي السقية من التصورات العقلية *προσεύχη καθαρά*، ويسميها مار إسحق بالصلاة الروحانية. والوصول إلى الصلاة الطاهرة يكون أكبر برهان على نجاح الإنسان في مرحلة العمل والجهاد النسكي، لأن بلوغ الصلاة الطاهرة معناه أن النفس تكون حتماً قد تخلّصت من النشاط السلبي وأصبحت غير ممسوكة أو مستعبدة لشيء قط.

ولكن الإنسان لا يبلغ الصلاة الطاهرة بمجرد دخوله في التأمل، بل إن الصلاة الطاهرة تمثل آخر مرحلة من مراحل الجهاد المتواصل أثناء التأمل للتحرر من النشاط الذهني الذي يزيغ المعرفة الروحانية ويفسد الحق، والتي بعدها يصح التأمل تأملاً روحياً بالحق.

ولا بد أن يعبر الإنسان على فترات طويلة في صلواته وتأملاته يتشابك فيها الذهن مع

الحق الإلهي، ولكن بالمثابرة والبساطة وحرارة المحبة يهدأ الذهن قليلاً قليلاً و يكف عن نشاطه معطياً المجال للحق الإلهي لكي يصير هو المتسلط على الذهن وليس العكس: «تعرفون الحق والحق يحرركم.» (يو ٨: ٣٢)

وطالما العقل متسيطر ونشط وفعال، فإن الإرادة تظل غير حرة وتكون واقعة تحت الرغبة البشرية لأن الإرادة تكون دائماً مربوطة بالعقل؛ ولكن عندما يبدأ العقل أن يهدأ و يكف تبدأ الإرادة تتحرر وتتجه رأساً نحو الله وتصير تحت تأثير النعمة المباشر، وهنا تدخل النفس مجال الروح فتصير صلاتها وتأملاتها روحانية حيث يشمل النفس نوع من السكينة الإلهية يسميها الآباء: $\eta\sigma\upsilon\chi\iota\alpha = \text{Hesychia}$ فيها تتحرك النفس بتأثير الروح القدس كما يقول مار إسحق.

من هنا يتبين أن التأمل أو التاوريا، في وضعه الكامل والصحيح، لا يعتمد على النشاط الذهني بل على العكس يعتمد على مقدار الكف عن النشاط الذهني، مع الهدوء والسكوت الداخلي. لذلك فهو في غاية البساطة وفي غاية السهولة، ولا يوجد في جميع ما اختبره الإنسان في حياته الروحية ما هو أسعد وأبهج من التأمل، حتى نعتة الآباء بأنه هو الملكوت بسبب عظم السعادة والبهجة والفرح المفرط والمذهل للعقل فعلاً، عندما تقترب النفس من الله وتذوقه.

ولكن بالرغم من بساطة التأمل واعتماده الكلي على الهدوء والكف عن كل نشاط ذهني أو نفسي سواء كان إيجابياً أو سلبياً، وكونه لا يتطلب إلا وقوف النفس والذهن في حالة تأهب واستعداد: «مستعد قلبي يا الله مستعد قلبي» (مز ٥٦: ٧ حسب الترجمة السبعينية)، بالرغم من ذلك فإن كثيراً من النفوس يتعذر عليها هذه البساطة وهذا الهدوء الداخلي كما يتعذر عليها توقُّف نشاطها النفساني والذهني. لذلك لزم في مثل هذه الأحوال أن تُدرَّب النفس على ما يؤهلها للدخول في التأمل.

وهذا التدريب على الدخول في التأمل هو بحد ذاته نوع من التأمل وإنما سوف نسميه «التأمل بالإرادة أو بالتدرب»، أو «التأمل المكتسب».

ولكن يلزمنا قبل الخوض في هذا النوع من التأمل أن ننبه مرة أخرى أن التأمل في أية حالة من حالاته وفي أية صورة من صورته لا يقوم أصلاً على النشاط الذهني ولا يعتمد على أي

عمل إيجابي من طرف الإنسان بل هو حالة استعداد داخلي للذهن والنفس لقبول فاعلية الحق الإلهي وسيطرته على الذهن والنفس.

لذلك فإن غاية التأمل الإرادي أو المكتسب يلزم أن تنحصر فقط في الحصول على درجة من الهدوء الداخلي والسكينة الذهنية، وذلك في الواقع يساوي مجرد الوصول إلى مؤهلات التأمل الحقيقي. أي أن التأمل المكتسب بالإرادة هو عملية توصل إلى استعداد حقيقي لقبول حالة تأمل كامل، أي تاوريا روحانية.

هذا التدريب التأملي الذي يوصل إلى التاوريا الروحانية تقليد قديم جداً عند الآباء، نسمع عنه باستمرار في تعليم الآباء الأوائل أمثال القديس مكاريوس الكبير في الأسقيط والقديس ثيودور في نتريا الذي أفرد له كاسيان فصلاً كاملاً يشرح فيه دقائقه الروحية.

والتدريب يتلخص في تركيز الذهن في آية صغيرة — ويسمى هنا Monologismos — يظل الإنسان يرددّها باستمرار بدون انقطاع ساعات طويلة كل يوم، حابساً العقل في أضيق معنى للآية أو في توسل واحد باسم الرب يسوع — ويسمى هنا Onomatolatreia — لا يخرج عنه قط، وكلما خرج الذهن عن حدوده يرده الإنسان بدون ملل حتى يتعود الذهن الكف عن التششت وهدأ ويستكين. وبالرغم من أن هذا التدريب كان في زمن الآباء الأوائل مجرد اختبار روحي يوصل إلى السكينة الروحية التي يمكن أن ينطلق منها الإنسان إلى التأمل الروحي الخالص أي التاورية الروحانية، إلا أن الآباء المتأخرين في بيزنطة جعلوه عملاً روحياً منفرداً بذاته ووضعوا له شروطاً فنية وأصولاً وواجبات كثيرة، وتطور حتى أصبح موضع نقاش لاهوتي كبير، ولكن ظل حتى اليوم موضع اهتمام بالغ الحد عند الكنيستين البيزنطية والروسية والكنائس الشرقية الأخرى.

والذي يعنينا في هذا التدريب الروحي هو نجاحه السريع المذهل في تهدئة النفس والمشاعر والأفكار، وربطه للعقل، وحبسه في أضيق حدود الصلاة.

فالفاية الأولى من التدريب هو الدخول في حالة السكينة الروحية: $\etaσυχία$ ، لذلك سمّاه الآباء صلاة «الهيزيخيا»، أي صلاة السكينة، مع ملاحظة أنها صلاة تخلو تماماً من أي قراءة أو هذيد أو تسبيح أو أي نشاط روحي إيجابي، كما سبق وقلنا.

وفي هذا التدريب بعض الإرشادات الخفيفة الخارجية وضعها الآباء لكي يسهل

الوصول إلى حالة السكينة الداخلية مثل الجلوس في مكان هادئ وعدم الحركة وتثبيت النظر العقلي نحو القلب، حتى يشترك العقل أولاً مع القلب في ترديد الصلاة ثم يدخل العقل في النهاية تحت سيطرة القلب و يتوقف حينئذ عن تسلطه.

والتدريب بهذا الوضع لا يخرج عن كونه محاولة واجتهاداً للتحرر من العوامل الخارجية والداخلية الضاغطة على العقل والنفس، والتي صارت جزءاً ملازماً لنشاط الإنسان وكأنها طبيعة له تعمل على حرمانه من الهدوء والسكينة الروحية التي كانت أصلاً من صميم طبيعة النفس البشرية.

إذن، فصلاة السكينة بترديد اسم الرب يسوع أو بترديد آية قصيرة حسب ترتيب الآباء الأوائل، كانت محاولة روحية اجتهدية للعودة بالنفس البشرية وبالذهن البشري إلى حالتها الأولى الطبيعية: حالة السكينة الروحية التي فيها يستطيع أن يسمع الإنسان صوت الله و يرى نوره في القلب، أي حالة تأمل روحي أصيل.

ولعل هذه الغاية هي التي كان يقصدها الرب يسوع من حثه لنا على المداومة في الصلاة بقوله: «ينبغي أن يُصلى كل حين ولا يُمل» (لو ١٨: ١)، والتي كان يقصدها القديس بولس الرسول بقوله: «صلوا بلا انقطاع.» (١ تس ٥: ١٧)

وهنا نوجه القارئ للرجوع إلى الباب الثاني، الفصل الثامن، لاستيعاب تدريب التأمل المكتسب بممارسة الصلاة بلا انقطاع. ونكتفي هنا بالدخول مباشرة في طبيعة التأمل الروحي الصرف أي التاوريا الروحانية: θεωρία.

والتأمل على نوعين كما سبق وأوضحنا:

النوع الأول: وهو الذي يعنينا جداً لأنه عمل روحي يمكن إتقانه والتوفر عليه بالإرادة، ولكنه وإن كان يعتمد على المجهود البشري للبدء به إلا أن الإستمرار فيه يحتاج إلى مؤازرة النعمة.

النوع الثاني: هو هبة كاملة من النعمة في بدايته وفي الإستمرار فيه أيضاً. فهو لا يعتمد على شيء من قبل الإنسان: لا أن يوجد في حالة خاصة ولا أن يسعى إليه لا بالشعور ولا بالمشيئة، وإنما هو عمل النعمة حسب مسرة الله بالقدر الذي يختاره وبالطريقة التي يراها. والنوع الثاني من التأمل هو الذي يمتد غالباً إلى حالات ما فوق الصلاة، أي الدهش في

الإلهيات والرؤى والإستعلانات والنبوة والمواهب الفائقة من عمل معجزات وشفاء أمراض.

ولكن هذه الحالات جميعاً متداخلة في بعضها، فالروح يرتفع و ينخفض من واحدة إلى أخرى دون أن يتقيد بقاعدة ثابتة. إذ أن هذه الدرجات المختلفة من الصلاة إنما توضح حالة النفس أمام الله ولا تفيد على الإطلاق تحديد موقف الله تجاهنا. فهي إختبارات نجوزها في حياتنا البشرية وليست درجات يتوقف عليها خلاصنا أو تقيد الله في تعليمنا. إنما أخذت مجراها في حياة القديسين وساروا عليها فوصلوا بها ووضعوا حدودها ووصفوا طبيعتها لتعليمنا.

التأمل الإرادي

التأمل الإرادي أو التأمل المكتسب هو التأمل المعروض للجميع سواء كانوا من الإكليروس أو كانوا من ذوي المهن العالمية المختلفة. بل إن التأمل يُعتبر حصناً منيعاً بقي هؤلاء جميعاً من مساوئ الأوساط التي يحيون فيها و يضطرون للعمل بها، لأنه يرفع من مستوى الإرادة و يُخصب الشخصية ويمدّها بقوى فائقة من العمق والبصيرة والتمييز ويؤهل الإنسان للقيادة.

لذلك تُعتبر المواظبة على التأمل من أغنى الوسائل لبناء النفس وجعلها صالحة لتبوؤ مراكز المسؤولية على كل المستويات.

الدخول إلى التأمل :

هناك أمور أساسية لازمة للنفس لكي تدخل إلى حالة تأمل صحيحة ناجحة :
فأولاً، وقبل كل شيء يلزم أن يكون الإنسان غير مُستعد للهموم الأرضية أو الخطايا أو العادات الرديئة، أي يكون حراً مجاهداً ضد الخطيئة، والذين اختبروا الهذيد وساروا فيه يهون عليهم هذا الجهاد. لأن الحديث مع الله من أهم وأقوى العوامل التي تحرر الإنسان وتحرق الخطايا وتبدد شهوتها وسلطانها، كما تعلمنا من أقوال مار إسحق في الهذيد. إذن، فهنا نكرر أهمية اختبار الهذيد والسير فيه حتى نصل بنعمة الله إلى حالة من الطهارة والتوبة تليق بالدخول في التأمل الذي سوف نواجه فيه الله وجهاً لوجه، كقول القديس أوغسطينوس. ويمكن تلخيص هذا الدور من الاستعداد بكلمتين : إنكار الذات، والانتصار

على الأهواء والشهوات بكل ما فيها من معانٍ.

و يستحيل الوصول إلى حالات ناجحة من التأمل أو الحياة الروحية على وجه العموم دون بذل الجهد في التلمذة لأعمال النسك والفضيلة، و يقول القديس أوغسطينوس: [عبثاً نحاول الوصول إلى مواجهة الله بالرؤية إلا إذا تجنبنا أسباب الخطيئة وأعمالها.]

و يقول غريغور يوس الكبير في ذلك الأمر:

[على العقل أولاً أن يتسطف من نفخة الكبرياء ومن التلهي بمرات الجسد والشهوات المختلفة وبعد ذلك يستطيع أن يرتفع في درجات التأمل.]

و يقول أيضاً:

[وعلى الرجل الكامل أن يتلمذ أولاً على اعتياد الفضائل وممارستها وبعد ذلك يدخل إلى راحة التأمل.]

ثانياً: من السهل على الذين أخضعوا ذواتهم وانتصروا على الخطايا وشهواتها ولذاتها وتصوراتها أن يُخضعوا الفكر أيضاً. لأن هدوء الفكر من الجولان عامل مهم للدخول إلى التأمل. و يقول غريغور يوس الكبير:

[يتدرب العقل أن يحجب عن عينيه أي خيالات وتصورات سواء كانت أرضية أو سماوية، و يطرد كل الحركات التي تأتيه من خارج أثناء وقوفه للتأمل سواء كانت من جهة السمع أو البصر أو الشم أو حتى الذوق أو الإحساس حتى يتفرغ لأن يطب نفسه من الداخل كأنه بغير حواس.]

و يقول أيضاً:

[إن أول خطوة هي أن يشوب العقل إلى نفسه و ينجم إلى ذاته، والخطوة الثانية أن ينظر ذاته مجموعاً مصلوباً خالياً من التصورات الجسدية، وهذا يصنع من ذاته سلماً لذاته ليصعد إلى الخطوة الثالثة التي هي فوق ذاته وهي التأمل.]

أما التعليل الفلسفي الروحي لتجميع العقل كخطوة أساسية للدخول إلى التأمل ورؤية الله، فهو أننا لا نستطيع أن نصل إلى الله إلا في أعماق نفوسنا. حقاً أن الله موجود في كل مكان ولكن ليس بالنسبة إلينا، وإنما بالنسبة إلى طبيعته التي تملأ كل الوجود. فليس مكان نستطيع أن نتلاقى فيه مع الله في كل هذا العالم الفسيح إلا في نقطة واحدة وهي داخل نفوسنا. هناك هو ينتظرنا، وهناك يمكننا أن نواجهه ونحدثه، ومن هناك يحدثنا. وفي ذلك يتأمل القديس أوغسطينوس تأملاً رائعاً في البحث عن الله، يثبت فيه أنه لا يمكن أن

يجد الإنسان الله إلا في أعماق نفسه :

١١٥ — أنت الدائم إلى الأبد غير المتغير قط .

وهبتي نعمة سكناك في ذاكرتي يوم أن عرفتك .

ولماذا أبحث أنا الآن عنك كأنما تتعدد أمكنة سكناك لي ؟

أنا متأكد أنك أعددت سكناك في منذ ذكرتك يوم أن عرفتك .

حيث أجذك عندما أدعوك لتذكرني .

ولكن أين وجدتك عندما تعرّفت عليك ؟

لأنك لم تكن في ذاكرتي قبل أن أعرفك !

أين إذن وجدتك عندما تعرّفت عليك ؟

كنت أعلى مني ... هناك في رمسي عميقاً أعمق من عمقي وعالياً أعلى من عبوي .

قد تأخرت كثيراً في حبك ، أيها الجمال الفائق في القدم والدائم جديداً إلى الأبد .

آه ! تأخرت كثيراً في حبك .

كنت في فكيف خرجت أبحث عنك خارجاً عني ؟

أنت كنت معي ، ولكن لشقاوتي لم أكن أنا معك !

فدعوت وهتفت وأخيراً حطمت صممي .

أضأت وأبرقت ومزقت ستار عمائي .

فحكت عبيقاً ، فسرت يهديني عطرك ، ألهتُ خلقتك .

دقت فحمت وعطشت .

لمستني فاشتعلت النار في .

ثالثاً: لا بد أن يكون هناك دافع من الحب: يصمم غريغور يوس الكبير على ضرورة

وجود الحب بدرجة ما للدخول إلى التأمل . و يقول في ذلك :

[إنه يلزم للذين يتوقون للدخول إلى ممارسة التأمل أن يواجهوا ذواتهم بمقدار ما لديهم من الحب . إن

قوة الحب هي المحرك الذي يعزل النفس عن العالم ثم يهّم صاعداً بها إلى العلو .]

و يقول أيضاً : [إن عظمة التأمل لا تُسمح إلا للذين لهم حب .]

وسوف يقابلنا في معرض كلام القديسين قطعة رائعة عن الحب للقديس يوحنا سابا

تركناها في موضعها واكتفيناهنا بتوجيه النظر إليها .

حالة التأمل

يأتي وقت على الذي يداوم الهذيد يشعر فيه أنه ابتداء يتخلى عن اعتماده على استحداث الإنتباه الروحي داخله . فبمجرد استعداده الداخلي لمباشرة الصلاة العقلية يجد نفسه قد دخل في عمق الصلاة وتركزت مشاعره وانجمع عقله . إلى هنا نكون قد وصلنا إلى عتبة التأمل ؛ دون أن نبذل جهداً ما لا بقراءة ولا بتصور ولا بحديث ما ... وبذلك تكون الصلاة قد أصبحت طبيعية ولا تحتاج إلى استحداث شيء ما من أي نوع . إذ أن الدخول السريع إلى عمق الصلاة والشعور بوجود الله معناه أنه قد توطدت علاقتنا مع الله واتسعت الفترة القصيرة التي كنا ننعم بها في الهذيد بوجود الله حتى شملت الفترة كلها التي نقضيها في التأمل . وهذا معناه أننا دخلنا في نوع جديد من الصلاة أبسط من الأنواع السابقة . ولكن الصعوبة كل الصعوبة في الإقتناع ببساطته . فيوم تقتنع بذلك وتنفي عنك كل الأوهام بأنه أمر روحي عالٍ ، فسوف تسير فيه قُدماً .

وكما أنه تدرى سهل بسيط ، كذلك يحتاج إلى نفس سهلة بسيطة تستطيع أن تسير ولا يهملها إلى أين تسير أو كيف تسير . إذ يشبهونه بالسير في الظلام بإيمان بسيط مبهم دون استعمالات الحواس أو التفكير أو التصور ، كأعمى ترشده للسير في طريق خال من العثرات والعوائق وليس له حدود عن يمين أو يسار وقل من يسير فيه . فإذا كان ذلك الأعمى بسيط القلب سليم الضمير هادئ التفكير قليل التصور ، فإنه يسير بإيمانه بلا اضطراب سيراً حثيثاً لا تفرقه عن سير البصير . أما إذا كان ذلك الأعمى فيلسوفاً معقد التفكير كثير التشكك والتصور ، فإنه يمشي يتحسس بعصاه ، وإذا يتهيأ له وجود حفر وحواجز ووحوش يتعثر في مشيه ويؤثر الجلوس عن المسير . هكذا طريق التأمل فهو طريق سهل ويحتاج إلى نفس سهلة تؤمن بسهولة وتسير بهدي ذلك الإيمان .

فبمجرد أن تهدأ نفسك للصلاة وتكون حواسك مهتدية إليك وعقلك منجمعاً إلى ذاته ، تتسلل النفس قليلاً قليلاً لتتحرر من هذه الحواس جميعاً ومن شغب العقل أيضاً . وكأنما هي ترتفع عن الجسد ليس من حيث البعد والمكان وإنما من حيث المستوى والكيان . فتأمل في ذاتها ملتصقة بإحدى الحقائق الروحية أو صفات الله ، وفي أثناء سيرها تصادفها أشياء جديدة وحقائق عجيبة بعضها يدركه العقل وبعضها لا يدركه العقل ، فيعترى الإنسان

شعور لذيذ من الفرح والعجب والسرور معاً، إذ يرى نفسه وقد استؤمنت على حقائق وأسرار مخفية. وبذلك يزداد الإيمان وتزداد الثقة وتلتهب الحرارة من فرط هذا الشعور، فيقوى الرجاء وتنشط الروح وتجاهد لتمتد أكثر في ذلك الطريق السهل الصعب، إلى أن تقترب من مصدر هذا النور الذي يوحى بكل هذا الشعور، حتى إذا واجهته، في لحظة، يقف العقل وتبطل الحواس جميعاً وتقع النفس في دهش من ذلك الشيء الذي يصفه القديس أوغسطينوس بأنه الشيء الذي لن يعتريه التغير: الله.

ولكن إذا توقف العقل في أثناء تطوافه الهين السهل، وأخذ يبحث في إحدى الحقائق المعروضة عليه و يناقشها باهتمام، فإن التأمل يقف في الحال و ينتهي عند ذلك الحد؛ ويكون من العبث حينئذ أن يحاول الإنسان مواصلة التأمل إذ يكون العقل قد ارتد إلى الوراء واختلطت المشاعر وسادتها الفوضى من جديد.

لذلك، ففي أثناء ابتدائنا بالصلاة سواء بالهذيد أو بالتأمل، بمجرد أن يشتعل القلب بالحلب وتسري في النفس لذة الإنطلاق، علينا أن نضع جانباً كل الوسائل التي نستخدمها في الصلاة سواء كانت قراءة أو تفكيراً أو مزامير أو سجوداً، ونصمت هادئين وننتظر بفرح انطلاق النفس، ولا نحاول أن نستمر أو نفكر في هذه الوسائل لأنها سوف تعطل انطلاق النفس والدخول في درجة التأمل. كمثل الذي يدير محرك سيارته بيده، فأول ما يستجيب المحرك و ينطلق في دورانه أليس من العبث أن يستمر هو في تحريك يده؟ عليه إذن أن يفرح ويركب لينطلق في تجواله.

وهكذا نكون قد انتقلنا إلى حالة صلاة هي بالروح أكثر منها بالقلب أو العقل. فبدل أن كنا نحادث الله بكلامنا ومشاعرنا، وقفنا نحن أمامه ليتحدث هو إلينا، لا بكلام ولا بحديث، ولكن بأمور لا يُنطق بها، لا تحملها أذن، ولا تراها عين، ولا تخطر على قلب بشر، كتعبير القديس بولس الرسول، الذي اختبر أعلى درجات التأمل والإستعلانات. ويكون شعورنا في ذلك الوقت: «مستعد قلبي يا الله مستعد قلبي» (مز ٥٦: ٧ حسب الترجمة القبطية، وهو المزمور الثاني من مزامير صلاة الساعة السادسة في الإجبية المقدسة).

وحيثما نتقدم في تأملنا قليلاً قليلاً، يصبح استعداد العقل والحواس والقلب للدخول في التأمل أمراً اعتيادياً لذيذاً نسعى إليه كل حين في يسر بغير عناء، وبذلك تصبح صلاتنا حارة بل ملتهبة حباً وشوقاً. ويصبح وجود الله حقيقة ملموسة للنفس حتى أنه قد يتراءى

لبعض الناس في هذه الدرجة بعض المناظر، ولكن يظل الإنسان في شك أنه لم ير شيئاً، إنما الحقيقة التي لا غش فيها أن الله يكون حاضراً بالفعل أمامنا ونحن ملتصقون به وإن كانت لا تدركه الحواس الداخلية إدراكاً كاملاً، ولكن يكون أثره واضحاً في النفس، إذ تكون منفصلة انفعالاً لذيداً لم تسبق أن ذاقته مثيلاً له من قبل. وتبطل حركات الشعور والتفكير، ويكف العقل عن جولانه، ويهدأ كل شيء ويصمت في انتظار القادم ليعطوا له الكرامة، كقول القديس مار إسحق.

وبينا تكون النفس تنتظر حبيبها كأنه آت من بعيد متلهفة لتراه وهو قادم إليها، إذ تشعر به فجأة وقد حلّ داخلها دون أن تراه، فتمتلئ النفس حلاوة وسروراً. فتحاول النفس أن تتبين حبيبها ولكن كأنما قد وضع يديه فوق عينيها فلا تراه، إلا أنها تشعر به وتلهب حباً وسروراً وهي واثقة أنه هو هو الله. تحاول أن تفهم شيئاً من هذا كله، فيقف العقل عاجزاً والحواس شبه نائمة لا تتبين شيئاً. هذا هو الاتحاد العجيب. وهكذا تقف النفس قانعة بما يحدث لها، ولكن خائفة لئلا تفقد هذه السعادة المهمة.

وفي أثناء هذا يفصل الإنسان عن العالم سحابة خفيفة عازلة، فإذا حدث شيء حوله، كأن يناديه إنسان، فهو يسمع الصوت ولكنه بمشقة عظيمة يستطيع أن يرد، بنوع من التلقائية. فكأنما هو مغلق عليه في هدوئه العظيم المقدس لا يملك أن يخرج منه ولا يرغب في ذلك بشدة.

تمر دقائق وربما ساعات دون أن يشعر بها الإنسان وهو مستريح في تأمله.

انتهاء التأمل:

ينتهي التأمل ولكن بعض آثاره تستمر في النفس عدة أيام، هدوء يشمل الأعضاء جميعاً، فكل حركة يأتيها الإنسان تكون بطيئة والتفكير صعب التركيز، فيه روية كثيرة والنظرات ثابتة ساهمة، وإعراض كثير عن الاشتراك في الحديث أو المجاملة. وفي أثناء هذه المدة ربما تتكرر حالات الدخول إلى التأمل، ثم تنتهي هذه الحالة على أن لا تعود إلا بعد فترة طويلة ربما تطول إلى سنين. ولكن توجد نفوس مهيأة للتأمل، فإذا لم تعوقها المعوقات الأرضية فيمكن أن ترتاد التأمل يومياً وباستمرار، كما هو الحال مع القديس مكار يوس الكبير الذي كتب عنه بالليديوس وسيرابيون المعاصر له أنه كان لا يوجد إلا في حالة ذهول وتأمل مستمر، وكان يحتاج كل من يريد أن يتحدث معه أن ينبهه حتى يستطيع أن يأخذ

منه إجابات روحية.

في هذا العرض السريع لهذا الإختبار الروحاني العميق نكون قد مررنا مروراً على حالات التأمل ونكون قد تلامسنا، في قليل، مع حالات ما فوق الصلاة وهي بداية درجة الذهول والدهش بالإلهيات التي سوف نفرد لها فصلاً كاملاً. وإليك أقوال القديس مار إسحق في معنى الدخول في درجة التأمل المغبوبة:

١١٦ — أهلي يارب أن أعرفك وأحسك لا بالمعرفة الموجودة في تشتت العقل الحادثة من تعليم الكتب، بل أهلي لذلك العلم الذي به يعرفك العقل عندما يزول منه الإحساس بالعالم ويرتفع عن التصور والإرادة، فيستير بك برباط الصليب ويمجد طبيعتك بحرية النظر إليك والإتصال الدائم بك.

١١٧ — إذا ما تحرك العقل في الأمور الروحية بنعمة الله تعالى، فلأجل لذة الفرحة بتلك المعرفة يتخلف عن الهذيد والتذكار ويقف ساكناً متعجباً. هذا هو بداية الدخول في التاورية الإلهية (التأمل).

مار إسحق السرياني

و يُعتبر تأمل القديس أوغسطينوس في المزمور ٤٢ عرضاً شاملاً لحياة الصلاة الداخلية. فهو يبتدىء بالهذيد، ثم تلهب النفس فتعبر إلى التأمل، ويرتفع التأمل إلى الرؤية، وكلام القديس أوغسطينوس ليس شرحاً أو تعليقاً ولكنه صلاة ودموع، فهو قطعة خالدة من عمل الروح، وتوافق نادراً بين القلب والعقل والقلم. ويلاحظ أن هذا المزمور بالذات كان موضوع تأمل سابق للقديس أنطونيوس وبنفس المعنى. ونجد تلميحاً على ذلك في الرسالة رقم ١٧ يقول فيها:

[إني سأجوز في موضع مظلمته العجيبة (خيمة الرب) إلى بيت الله: فهذا العبور يُظهر لنا نمو النفس، لأن النبي يذكر هنا أنها بلغت الكمال بوصولها إلى بيت الله كونها قبلاً كانت بعيدة عن الله.] أبا أنطونيوس — رسالة ١٧

وعلى نفس النمط تماماً يشرح لنا القديس أوغسطينوس هذا النمو الروحي للنفس حتى يصل بها إلى الكمال أي الوصول إلى بيت الله في الأعالي بالدهش الذي هو نهاية التأمل:

١١٨ — «كما يشاق الإيل إلى ينابيع المياه، كذلك تتوق نفسي إليك يا الله».

نص رقم ٢ — عنوان هذا المزمور (مزمور للمعرفة)، ولكن أي معرفة يقصدها داود؟ تعالوا يا إخوتي اشتركوا في غيرتي وافهموا اشتياقي، ليتنا نشترك سوياً في الحب ونتقاسم ذلك العطش ونسرع

جميعاً إلى ينبوع هذه المعرفة، نتوق إليها كما يتوق الإيل (ذكر الغزال الذي يقود قطع الغزلان) إلى ينبوع المياه... هو ينبوع النور و ينبوع المياه وهو ينبوع المعرفة أيضاً يملأ النفس المتعطشة إلى المعرفة بالنور والماء. نوره غير متجسم لا يرى من خارج، فهو نور داخلي لا يُستعلن إلا للذين يسعون وراء المعرفة!

إسمعوا يا إخوتي إلى اليابيع واشتاقوا إلى المياه، فانه هو ينبوع الحياة الذي لن يجف ونوره لن يُطفأ. اشتاقوا، إذن، إلى هذا الينبوع الحي والنور الذي يُستعلن لعين القلب الداخلية.

نستقي من ينبوعه لإرواء عطشنا الداخلي حينما يشتعل فينا، إسمعوا... إسمعوا إلى الينبوع وتوقوا إليه ولكن لا تسعوا إليه كما يسعى أي حيوان، ولكن كالإيل في سعيه.

نص رقم ٣: فالإيل عدو الأفعى، وهو حينما يصارعها و يأتي عليها فإنه يلتهب عطشاً فيعدو عدواً ليروي ظمأه... آه! فالأفعى هي الشرور والخطايا والآثام أعداء حياتنا، فعليك أن تأتي عليها جميعاً وحينئذ تلتهب عطشاً إلى ينبوع الحق. ولكن طالما كنت غارقاً في شرورك وشهواتك وزناك فكيف يوجد فيك اشتياق للحق يدفعك أن تجري إلى ينبوع المياه، أو كيف تشتهي ينبوع الحكمة وأنت تقتات من سم الدنس؟

عليك أن تطهر ذاتك مما هو ضد الحق. فإذا رأيت نفسك تنثت من الشرور والشهوات فلا تقف جامداً كأبك قد وصلت، لا زال يوجد أمامك مرتفع عليك أن تتسلقه بعد أن ألقيت وثق خطيتك عنك، فلم يعد فيك عدو يعيقك أو يمنحك... قم أسرع إلى ينبوع المياه الذي أعده الله لإنعاشك وإروائك عند وصولك إليه لاهثاً كالإيل المسرع في غدوه بعد انتصاره على غدوه...

نص رقم ٥: ولكن لا يزال الإيل يعدو على رجاء، فهو لم يصل بعد إلى ما يرجوه، فعليه أن يحتمل هزء أعدائه، في الطريق يسخرون من رجائه غير المنظور وهو يتحرق غيظاً لأنه لا يستطيع أن يربهم ما يرجوه «أين إلهك؟» (مز ٤٢: ٣ و ١٠)

نص رقم ٧: أهدأ الليل والنهار، أفتش عن الله حتى أجده لكي لا أؤمن فقط بل أراه!! وها أنا لا أرى إلا الأشياء التي قد صنعها بقدرته أما هو فلم أره بعد...

يسبحث عقلنا عن الله و يفتش عن الحق الذي لا يتغير أو يتبدل وعن الشيء الذي لا يسقط أبداً. ولكن العقل ذاته ليس من هذه الطبيعة، فكيف يدرك ما هو فوق طبيعته؟ فالعقل يتغير من تقدم إلى تأخر ومن معرفة إلى جهل ومن ذاكرة إلى نسيان... إن عقلاً يكون من طبيعته هذا القلب لا يستطيع أن يتوافق قط مع طبيعة الله...

نص رقم ٨: أبحث عن الله في المنظورات والمخلوقات فأجد آثاره ولا أجده، أعود إلى نفسي عسى

ألمس طبيعته فيّ فلا أجده، فاللهي شيء أعلى من نفسي ... إذن، فلنكني أصل إليه، عليّ أن أذكر هذا كله وأنطلق بنفسي فوق ذاتي: «ذكرتُ هذا فاستفاضت عليّ روحى» (أي خرجت مني) (مز ٤٢: ٤). وهل أستطيع أن أصل إلى ما هو فوق نفسي إذا لم أتحرك أولاً من ذاتي؟ ... إذا استراحت نفسي فيّ قناعة براحتها فلم تنعم برؤية ما هو فوقها «متى أجيء وأبظر وجه الله»! لأن في اكتفائها برؤيتها لذاتها امتناعاً أكيداً لرؤية الله.

بصرخ أعدائي «أين إلهك»! بلى دعهم يقولون، فطالما أنا لا أراه فسعادتي معطلة «صار لي دموعي خبزاً نهاراً وليلاً» (مز ٤٢: ٣)

أعود أطلب إلهي في كل ذي طبيعة جسدية، أرضية كانت أو سماوية، فلا أجده ... ثم أعود أبحث عن طبيعته فيّ فلا أجده ... ولكن بينما أنا في حيرتي أبحث عن الله وعن أموره غير المنظورة المدركة في المخلوقات ... «ذكرتُ هذا فاستفاضت عليّ روحى» (أي فاضت وخرجت مني)، فلم أعد أدرك من ذاتي شيئاً سوى الله: هناك من فوق نفسي حيث يتطلع إليّ ويراني، هناك حيث يدبرني ويهيئني، من هناك يحبني ويدعوني ويقودني في الطريق إليه حتى النهاية.

نص رقم ٩: «أجوز في خيمته العجيبة حتى إلى بيت الله» (مز ٤٢: ٤)
ذاك الذي هبأ له بيتاً بالسر في الأعالي، له على الأرض أيضاً خيمة ... هي الكنيسة ومنها نطلبه، ومنها يتبدى الطريق إلى بيته العالي ...

كم أنا أبجل ما في خيمته: نصرة النفس على الذات، مع فضائل خدام الله ... ولكن إن كنت أقف عند حب هذه الفضائل وتمجيدها فأنا لا زلت أسيراً في حدود خيمة الله ...

إني أجوز هذا أيضاً ولو أنها خيمة عجيبة حقاً — وأخذ طريقني حتى أصل إلى بيت الله! هناك أدهش في مقدس بيت العلي حيث ينبوع المعرفة ... وبذلك يكون داود قد انتقل بنا من عجب الخيمة (أي فضائل النفس)، إلى دهشة البيت العالي (أعلى درجات التأمل).

وهو يأخذ الطريق من الخيمة (أي يتبدى بالفضائل) يقوده شغفه بالله وفرحه السري الداخلي، ويسير كأنما يدعوه من هناك من مقدس بيت العلي نغم موسيقى شجي، فيجوز الخيمة يقتاده ذلك الصوت الداخلي وبحلاوته يسير على هداه، مُقرضاً عن ضجة اللحم والدم، يشق طريقه عالياً حتى بيت الله ...

ينتقل داود من الخيمة إلى البيت وكأنما يقول: أنتم تبجلون الخيمة هنا على الأرض (أي الفضائل التي تعملها النفس بالمجهود الجسدي) وهذا جميل، ولكن كم يكون إعجابكم ودهشتكم حينما تأتون إلى مقدس بيت العلي؟

«بصوت تهليل وتسبيح ولحن المعيّدين.» (مز ٤٢: ٤)

هناك في بيت الله وليمة لا تنتهي قط، حيث زمرة من الملائكة يعيدون بسرور وفرح عيد الأبدية الذي لا ينتهي في حضرة وجه الله. من هذه الوليمة تخرج أنغام رقيقة عذبة تسمعها آذان القلب فتجذب إليها، إذا لم تطف عليها أصوات ضجيج العالم وشغبه.

وبينا يسير داود في الخيمة متفكراً في أعمال الله العجيبة لفداء المؤمنين، إذا بأذنيه الداخليتين تسمعان صوت الوليمة، ويفتن به ويحمل قلبه بعيداً بعيداً هناك حيث مجاري المياه.

نص رقم ١٠: ولكن فساد الجسد يعترض مسير العقل و يدفعه إلى أسفل، وحتى إذا استطاع أن يبدد عنه سحب ظلمة الجسد الكثيف التي تحيط به، ويصل إلى مصدر النور فإنه بالجهد يفوز بأن يستطلع شيئاً من هناك، من بيت الوليمة... إذ أن شغب الجسد يدفعه إلى أسفل فينحط إلى مستواه الأول ويتبدل الفرح والتهليل إلى حزن أسيف... لذلك فقد «صارت لي دموعي خبزاً هاراً وليلاً»... ويئن إذ يشعر أنه لا زال تحت الموت يحمل ثقل هذا الجسد المتهالك و يعاني إساءات هذا العالم.

يعود فجأة فينظر إلى نفسه كأنما هو عائد من هناك من ذلك العالم الآخر السعيد فيقول لنفسه: «لماذا أنت حزينة يا نفسي ولماذا تزعجيني؟» (مز ٤٢: ٥)، هوذا أنا لساعتي كنت أنعم بمسرات داخلية، وبعينتي لمحت ذلك الشيء الذي لن يعتريه تغيير قط: الله. لماذا أنت تزعجيني، ولماذا أنت منطرحة، وها أنت تثبت من الله فلن تعود تشكين بعد... أنت لست عاجزة الآن أن تردّي على أعدائك حينما يصرخون نحوك: «أين إلهك»، فقد رأيت الآن ما لن يتغير.

وكأنما ترد عليه نفسه في داخله: لماذا أزعجك إلا لأني لست بعد هناك، حيث السرور الذي ذهلت به وكأنما مرّ وعبر.

ألا أخاف وأنا لا زلت أشرب من مياه معطشة؟
أو ألا أهتم بشيء كأنما قد أخضعت أهوائي مع شهواتي؟
أليس عدوي قائماً أمامي يراقبني؟

كيف لا تر يدني أن أزعجك وأنا لا زلت في هذا العالم في طريق عُرْبتي بعيداً عن بيت الله!

أوغسطينوس

تعليق:

أنظر كيف كشف القديس أوغسطينوس السرائر الخفية في هذا المزمور العجيب، مبيناً كيف تنقل داود من الهذينة إلى التأمل حتى إلى الدهش ورؤية الله.

ونلخص المبادئ التي تناوّلها تأمل القديس أوغسطينوس في المزمور فيما يلي: —

النص رقم ٢ : هنا يثبت اشتياق النفس الطبيعي نحو الله ، وشهوة البحث عنه التي تطغى على النفس فتهم به باحثة عنه في كل الوجود ... والإجهااد والإعياء الذي يعتري النفس في البحث عن الله غير المنظور بين المنظورات ... وهكذا يُثبت القديس أوغسطينوس من اختبار داود النبي ضرورة البحث عن الله أولاً في مخلوقاته . وأهمية هذا الإجهااد كبداية وأساس لإنطلاق الروح في التأمل بعيداً عن الذات والمنظورات ، و يشرح أهمية النور الذي يعمل في الداخل عند الباحثين عن الله بالحق ، وكيف يقودهم ذلك النور وذلك الهاتف من العالم إلى الفضيلة ثم إلى الله .

النص رقم ٣ : وضع أساساً هاماً للدخول إلى المعرفة الروحانية والتأمل الروحي ، وهو تنقية النفس من الخطيئة ، بحيث يمكننا أن نحكم على حالة التأمل أنها حقيقية أم كاذبة باختبار الطهارة وخلو الإنسان من الخطايا والشهوات ، فلا يمكن أن تقوم حالة تأمل صحيحة طالما كانت هناك خطايا متشبثة بالإنسان . لأن الحياة الروحانية هي ثمرة الحياة النسكية : « طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله . » (مت ٥ : ٨)

النص رقم ٥ : يكون الإنسان قبل الدخول في التأمل في حالة رجاء فهو يرجو أن يرى وهذا عامل مهم .

النص رقم ٧ : حالة هذيد يبحث فيها عن الخالق بين المخلوقات .

النص رقم ٨ : عجز العقل عن إدراك طبيعة أعلى من طبيعته والتزامه بالخروج عن ذاته .

النص رقم ٩ : الوصول إلى حالة قبل التأمل مباشرة وهي تأمل الفضائل والمواهب التي تُمنح لخدام الله ، ومن هذه النقطة يتقدم إلى عتبة بيت الله . وهكذا يوضح القديس أوغسطينوس أن الدفعة التي سببت انطلاق النفس إلى الدرجة الأعلى منها هو تأملها في القداسة والفضيلة التي هي رباط النفس بالله ، فهي نقطة التحول الحقيقية بين النفس والله . وهذه وجهة نظر فريدة يشترك القديس أوغسطينوس مع داود النبي في إظهارها وتوضيحها .

بعد ذلك يدخل في عمق التأمل ، ومواجهة الحواس الداخلية لحقيقة النور وبطلان حركتها وتوقف العقل والدخول في الدهش .

النص رقم ١٠ : سرور النفس الداخلي وانكشاف الأمر للعين العقلية لتري ، ولكن إلى لحظة ، كلمحة عابرة . هنا جوهر التأمل ونقطة الوصول ، ورؤية الشيء الذي لن يتغير .
ثم إنهاء التأمل بالرجوع الأسيف إلى الحالة الأولى بدافع ثقل الجسد وإلحاح الحواس ثم لهفة النفس للحياة هناك .

أقوال الآباء في التأمل :

١١٩ — أنت تقول يا أخي لماذا لا أبصر هذه المرمعات ، ولا أفحص أنا أيضاً الخفيات ، ولا أفهم هذه الأسرار المجيدة ؟ ... إسمعي يا أخي لأقول لك ما هو سبب عدم حصولك على هذه الخيرات ، بالحقيقة أيها الحبيب لا يوجد عقل ناطق إلا وقد خُلق ليكون ناظراً لجميع ما كان وما سيكون لولا أنه عمي بهذه المنظورات ، لا يوجد قلب لإنسان إلا وقد جُعل ينبوعاً للأسرار الخفية التي في حضن الآب لولا انحراف طريقه نحو الآلام النجسة ، لا يوجد لسان لإنسان لم يخصص للنطق بالعجائب شبه الله ولكشف أسرار الخفية لولا انحجابه عن هذه بالسيئات . ولا توجد نفس لإنسان إلا وقد جُعلت لتحتضن المسيح فيها لولا تنجسها مع أعدائها بانحلالها ... ولكن التوبة تلدها نبياً جديداً شبه الله .

الشيخ الروحاني

١٢٠ — حينما تقرأ كلمة الله في خشوع في الحقاء ، تثبّط النفس لخطاياها ويجوز فيها سيف من الحزن ، ووخزات في الضمير ، فلا تستطيع إلا أن تبكي فتغسل أوزارها بدموعها .

وأيضاً حينما تؤخذ بنعمة التأمل وترى أشياء عليا ، فمن فرط اشتياقها تنساب في بكاء حلو وتجذ في الدموع عزاءها إذ أنها لا تستطيع أن تدوم في التأمل طويلاً .

غريغوريوس الكبير

درجة الحب :

١٢١ — أولئك الذين أشرق عليهم بشعاع من حبك لم يحتملوا السكنى بين الناس ، بل ألقوا عنهم كل حب جسدي وتغربوا عن كل شيء في طلب المحبوب ، نزعوا كل أمراحهم وذهبوا يلتمسون طريق الحبيب بالدموع ؛ بكوا لما وجدوا أنفسهم في الطريق غير مستأهلين لجمال المحبوب ... نفضوا كل لذة جسمية ، ونبذوا كل تمتع بشري ، وأحبوا الشقاء والتعب ، ليحسّنوا قلب الحبيب عليهم !

تركوا الأب والأم والأخ والصديق ، وسعوا خلف الغني بحبه ، لأنهم أدركوا أن في قلبه لهم حياً كثيراً ، وفي محبته لهم عزاء يفوق كل عزاء ! ساعة أن أدركوا شهوة حب الوحيد ما صبروا أن يبقوا في أفراح العالم لحظة ، ولما لم يجدوا عندهم شيئاً يليق بتقديمه إليه قدموا ذواتهم بالحب على مذبحه ، وأسلموا

أجسادهم حتى الموت فرحين، إذ وجدوا شيئاً يقدمونه إليه!

يجرون في طريق الأحزان بلا شيع، و يسرعون حاملين تعاديبهم، صلبوا الأعضاء مع الشهوات مسرورين، وشربوا مرارة المرمتلذذين. آه منك أيها الحبيب! لقد سلبت منهم كل شيء، حتى ذواتهم، فلم يشعروا أنهم أحياء بل المسيح هو الحي فيهم... حينما تحيط بهم الشدائد من كل جهة لا يرغبون فيما يعينهم على الخلاص بل يطلبون المزيد مع قوة للإحتمال من أجل المحبوب!

هؤلاء سكروا بالحب، ولما سمعوه يقول: «طوبى للباكين الآن»، لم يكفوا عن السكاء!! من هذا الذي اشتعل بالحب فاشتق قلبه وخرج منه ينبوع مياه الحياة؟ فلما لم تحتمله ركبتاه في الصلاة خرَّ على وجهه، وكلما قام سقط، ومن حرارته انفلقت مقلته فخرجت منها ينابيع دموع ملتية أحرقت الحدود بحرارتها وانحدرت على الأرض فغسلت لعنتها.

إيه أيها الحب الإلهي! رفعت النفس حتى أجلستها في نور خالقها وطهرتها حتى تشبهت بسيدها، فاستأنست الوحوش بها، وإذا رأت فيها صورة خالقها لم تكف عن أن تستنشق رائحته.

وليست الوحوش وحدها هي التي خضعت لها، بل والشياطين أيضاً فزعت لما رأت النفس مستنيرة بالحب وولت لما رأت فيها صورة سلطان الله.

الشيخ الروحاني

١٢٢ — إذا وُجدت النفس في طقس طبعها الأول كانت في العلاء، أما إذا كانت خارجاً عن طبعها في أسفل الأرض تكون.

باسيليوس الكبير

١٢٣ — لا تتسرع إلى التأمل طالما هو ليس وقت التأمل. حتى يأتبك هو و يضبطك وأنت في جمال التواضع ليتحد معك إلى الأبد بالروح للطهارة.

الأب يوحنا الدرجي

١٢٤ — حالتان متغايرتان توضحان غنى النعمة العظيم الذي يعمل بطرق مختلفة في كل واحد حسب قياسه: فواحد تهبه النعمة غيرة حادة فيضاعف ويزيد من عدد صلواته، وآخر تهبه النعمة هدوءاً في نفسه يشمله تماماً حتى أنه يضطر لإختصار صلواته الكثيرة إلى صلاة واحدة قصيرة يرددها في هدوء.

مار إسحق السرياني

١٢٥ — كل الأشياء التي تصادف الحواس هي ظل لحقيقة النفس. يوجد إنسان آخر داخلنا بخلاف ذلك المنظور لنا قد أعمى الشيطان حواسه، و يسوع جاء ليجمع ذلك الإنسان الداخلي صحيحاً

معاني.

أبا مكاروريوس الكبير

١٢٦ — كل أنواع وترتيبات الصلاة التي يصلي بها الإنسان لله، حذوها الصلاة البقية؛ معظم القديسين يقولون إن عقولهم تُخطف أثناء الصلاة، وتعبّر حدود الصلاة المعروفة وتصل إلى الذهول والدهش حيث يتوقف الإنسان عن الصلاة. الصلاة تختلف عن التأمل ولأنها يتسببان من بعضهما، وفي التأمل يصل الإنسان إلى الرؤيا حيث يبقى الشخص بلا حراك.

مار إسحق السرياني

١٢٧ — القديسون في العالم الآتي لا يصلّون، لأن العقل قد ابتلع مهم بالروح. وهم يسكنون في الدهش في ذلك المجد الإلهي.

مار إسحق السرياني

١٢٨ — التأمل الحقيقي هو إماتة القلب. فالقلب المائت بالتقام عن العالم هو بالكمال حي بالله.

مار إسحق السرياني

١٢٩ — الشعور بالمرحة أثناء الصلاة، خلاف الرؤية أثناء الصلاة، والأخيرة أرفع من الأولى كما يمتاز الرجل البالغ عن الولد الصغير. إنه يحدث أحياناً أن الكلمات تصبح حلوة في الفم حتى أن كلمة واحدة تملأك سروراً، ومن فرط الشعور بعدم الشبع لا يدعك أن تتركها إلى ما بعدها. ولكن حينما يدخل الإنسان في التأمل يجعل الصلاة بكلماتها تتلاشى من الشفاء. والذي يؤهل لهذه النعمة يشعر أنه بلا جسد من فرط عدم الشعور به ومن الذهول الذي يغشى العقل الواعي. هذا ما نسميه الرؤية في أثناء الصلاة وليس هو صورة أو شكلاً من تزوير الخيال كما يتراءى للحمال.

وحتى هذه الدرجة تُدعى صلاة لأن الفكر لم يعبر تماماً ذلك الحد الذي يفصل الصلاة عما هو أعلى منها، لأن حركات اللسان والقلب أثناء الصلاة هي مفتاح لذلك الشيء الذي من بعده يكون الدخول إلى موضع الكنز، حيث يكف اللسان وتجمد الشفاء ويهدأ القلب ويقف العقل عن طوافه وترتخي الحواس ويعجز الفكر عن التحليق ... يقف الكل بلا حراك، والصمت يسود مملكة الإنسان الداخلية لأن السيد قد حلّ في هيكله.

مار إسحق السرياني

١٣٠ — يوجد إحساس روحي يتولد من الهذيد فينغم القلب ويُفرج النفس ويهيجها، ويوجد إحساس تدقائي آخر يحل في النفس بسبب المعرفة الحادثة من الهذيد وذلك من فرط محبة المعرفة للأمور الروحية والتقدم في الحديث مع الله بمخافة، وانشغال الضمير بمحبة هذه الأشياء، ويكون ذلك من

التقدم في الهذيد الحس الذي لأجل الله والهَمُّ بالإلهيات (أي دوام الإهتمام بها في القلب لا الفكر).
والمهَمُّ بمحبة التدرب على هذه الأمور لتقوم عمله، تتولد فيه على الدوام نظرة هذه الأمور بالروح.

فإذا تنقَّت النفس بخوف الله، عند ذلك تحل التاوريا الروحانية (أي درجة التأمل الثانية التي من هبة النعمة) من غير أن تكون له عناية بها، فكل حين يصادف الإنسان بضميره فهماً ما فإنه يدخل لوقته في حالة الذهول الذي لا يُنطق به، وهذا يكون له ميناء كل الراحة، هذا هو مبدأ الدخول للمنزلة الثالثة التي هي التدبير الروحاني.

مار إسحق السرياني

١٣١ — ليس صلاة، بل إحساساً تحسه النفس بالأمور الروحية التي للعالم الآخر، شيء يفوق عقل البشر أن يفهم الأشياء التي يحرك بها، لأنه نظر عقلي وليس حركة صلاة أو طلب، ولكن من الصلاة يأخذ سبباً (فتكون الصلاة هي الوسيلة)، والذين بلغوا إلى هذه الدرجة من النقاوة تجدهم كل حين يتحركون بالصلاة في داخلهم وكل وقت يزورهم الروح القدس يجدهم في الصلاة. ومن الصلاة يخطفهم إلى التاوريا (أي التأمل) التي تفسرها نظرة الروح (أي التأمل الروحي). وهم يكونون غير مفتقرين إلى مدة صلاة طويلة أو ترتيب في الخدمة، بل إنه يكفي أن يتذكروا الله فقط وحينئذ يُسبوا بالمحبة و يُحفظوا. ولكنهم ما يهملون القيام ليعطوا للصلاة كرامتها، فهم يقفون على الدوام على أقدامهم في هذه الأوقات التي تزورهم فيها النعمة.

مار إسحق السرياني

١٣٢ — لأنهم بتمجيد الله يتحركون بلا فتور، وبتصور التاورية يرتفعون إلى الثالث المسجود له، و يشبتون في الدهش بنظرة عظم ذلك المجد. وهذا التدبير عتيد أن يكون جميع البشر في القيامة العامة.

١٣٣ — كلما يدنو الإنسان لمعرفة الحق، ينقص نشاط حواسه ويميل إلى الصمت. في حين أنه كلما يدنو من تدبير العالم تزداد يقظة حواسه و يكثر تقلبها فيه.

١٣٤ — يتحد العقل بحركات الروح فيرتفع عن طقس الصلاة لأن الدهش يكون عوض الصلاة، وعوض الإيمان الذي هو أجنحة الصلاة تكون نظرة فاحصة داهشة في سكون الحواس، ليس للبحث في طبعه بل تفرساً في عظمته ومجده وحبه.

١٣٥ — إن عمل الفضيلة وتدبير سيرة العقل الخفية (الهذيد) هي تحت سلطة الإرادة وفيها تعب وجهاد، وهي محصورة داخل عمل الهذيد، وأما الحركة الروحانية (التأمل بالروح) فهي ليست موضوعة تحت حرية الإنسان ولا تُقَتَّن بالتعليم أو التدريب أو عمل الإرادة، وإنما توهب لأنقياء القلوب.

١٣٦ — وإذا قرب الإنسان من المنزلة الثالثة (التأمل بالروح) وحظي بمحدودها، يجد أن الأشياء التي كان يعملها متغصباً ينجذب إليها في كل وقت بلا تغصب وبلذة. والدهش يجذبه إليه بغير إرادته، ويوجد جائياً ساجداً بوجهه على الأرض بلا أفكار أو صلاة أو هديد، وإنما تتأمل روحه في عظمة الله وسياسة تدبيره وحكمته. ولكن حتى إلى هذه الدرجة هو يكون بعيداً عن الدهش الكامل بطبيعة الله.

وفي الوقت الذي تُصادف فيه النفس هذا الشعور الخفي حينها يتحرك العقل بالنعمة الروحانية، يتخلف في الحال عن الهذيد وتتخلف الحواس عن عملها ويبقى في حالة دَهَش.

مار إسحق السرياني

١٣٧ — صلاة اللسان مفتاح لصلاة القلب. وصلاة القلب يكون بعدها الدخول إلى الكنز، حيث لا تكون صلاة ولا دموع ولا تضرع، لأن العقل وجميع الحواس تتخلف إذ تكون الروح قد دخلت إلى التاوريا الروحانية.

فالصلاة، إذن، شيء والتاوريا شيء آخر، ولكن الثانية متعلقة بالأولى. فإذا شبهنا الأولى ببذر البذار، فالثانية هي حمل الثمار. ولا يصح أن نسمي التاوريا أو الدهش باللاهوت صلاة، إذ أنها تكون من فعل الروح القدس وتدبيره وليس من فعل الإرادة وسلطانها. وقد عبّر عن ذلك القديس بولس الرسول: «أفي الجسد لست أعلم أم خارج الجسد لست أعلم» (٢ كور ١٢: ٢) — فقط أعرف أنني اختطفت ونظرت ولكن لا أستطيع أن أعبر.

وإن سأل إنسان لماذا تكون التاوريا والاستعلان في وقت الصلاة فقط؟ يقول إنه في وقت الصلاة يكون عقل الإنسان مجموعاً إليه وشاخصاً في الله ومنتظراً بكل اشتياق أن تأتيه الرحمة. وأي وقت من الأوقات يكون الإنسان فيه مستعداً محترساً كمثّل وقت الصلاة؟ أعمل ذلك يكون في وقت نومه؟ أم إذا باشر أعماله؟ أم إذا كان عقله مشتتاً يوهل لهذه الموهبة؟ — أما القديسون فلم يكن لهم وقت يجلسون فيه بطالين من الصلاة، لأنهم في كل وقت يتفاوضون بالأمور الروحية فيكونون مستعدين للصلاة، إما في قراءة مير القديسين أو في هذيد أقوال الكتب أو في تصوّر المخلوقات بهذيد فاضل نافع.

متى ظهر الملاك لزكريا وبشره بيوحنا؟ والقديس بطرس ألم يظهر له الاستعلان بدعوة الشعوب إلى الإيمان وهو يصلي «الساعة السادسة»؟ وأيضاً كرنيليوس ألم يظهر له الملاك حينما كان يصلي؟ وهوشع أيضاً حينما كان ملقى على وجهه في الصلاة تكلم الله معه! وكذلك أنبا أنطونيوس حينما كان يصلي نظر نفساً صاعدة بكرامة عظيمة وأعطى الطوى لذلك الإنسان الذي أهل لهذه النعمة، وكانت هذه هي نفس أمونيوس الذي من جبل نتريا، وكان ذلك الجبل يبعد عن مكان سكنى أنطونيوس مسيرة ثلاثة عشر يوماً.

وهذا لأن أوفق الأوقات لنوال هذه المواهب والمعارف الروحية هو وقت الصلاة إذ يكون العقل منجمعاً والنفس يقظة ومستعدة.

مار إسحق السرياني

١٣٨ — حوار بين راهب حديث وشيخ مجرب:

الأخ: هل يمكن للإنسان أن يرى المناظر الإلهية؟

الشيخ: الكتاب المقدس أطلعنا على هذا الأمر.

الأخ: كيف؟

الشيخ: دانيال رآه قديم الأيام، وحزقيال رآه على مبركة الشارويم، وإشعيا رآه على عرش المجد

العالي، وموسى أُلح أن يكون معه و يراه فرأى جوده في العاصمة.

الأخ: وكيف يقدر العقل أن يرى ما لا يمكن أن يُرى؟

الشيخ: الملك وهو جالس على عرشه لا يُستطاع رؤيته بالقدر المضبوط كما هي حقيقة شكله.

الأخ: وهل يصح للإنسان أن يتصور الله بهذه الكيفية؟

الشيخ: وأيهما أفضل للإنسان أن يصور الله في عقله أو ينحط ليتصور الماظر والأفكار القبيحة؟

الأخ: ألا يُتد هذا إثمًا (تصور الله)؟

الشيخ: لا، ولكن عليك أن تتدّى حسب ما أوضح الكتاب، وتتميم الأمر على الوجه الأكمل

يأتي من ذاته كما قال الرسول: «الآن كما في لغز...» (١ كو ١٣: ١٣)

الأخ: ألا يكون هناك ارتباك في العقل من جراء هذا؟

الشيخ: إذا كان الإنسان ذا غرض مستقيم ومارس حياة التأمل لا يكون هناك ارتباك، لأن أحد

الشيوخ قال: «إني أمضيت أسبوعاً سبعة أيام بدون تذكر أي شيء بشري في قلبي». وقال آخر:

«كنت مرتحلاً في طريق ورأيت ملاكين بجواري واحداً عن جانب والآخر عن الجانب الآخر وسارا

معي ولكني لم أتطلع إليهما».

الأخ: لماذا لم يتطلع الشيخ إليهما؟

الشيخ: لأنه مكتوب: «لا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبلية ولا علو ولا

عمق ولا خليفة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا». (رو ٨: ٣٨ و ٣٩)

الأخ: هل يستطيع العقل أن ينشغل ويبقى في النظر الإلهي باستمرار؟

الشيخ: مع أن العقل لا يستطيع أن ينشغل ويبقى في النظر الإلهي باستمرار، إلا أنه حينما يتنقى من

الأفكار يستطيع أن يطير إلى الله فلا يُحرم من النظر الإلهي، وإني أقول لك إنه بمجرد أن يتقوى العقل

ويتدرب تماماً على النظر الإلهي يكون أهون عليكم أن تحركوا الجبال من أن تحذروه من علوتأمله.

فكما أن الأعمى إذا انفتحت عيناه ورأى النور لا يشاء مطلقاً أن يعود إلى الظلمة مرة أخرى، هكذا

العقل أيضاً حينما يؤهل لرؤية النور الإلهي فإنه يكره الظلمة الأرضية ولا يشاء أن يذكرها إلا رغماً عنه، والعقل ذاته يأخذ راحته هناك. بالهدوء والصلاة تقوى هذه الدرجة التأملية، ومن كثرة الصلاة تعود الصحة للعقل.

شيوخ مصر بقلم بالليديوس

١٣٩ — النعمة حاضرة على الدوام ومتأصلة فينا، كما أنها تعمل فينا منذ البدء حتى وقتنا الحاضر عمل الخميرة وكأنها وراثية طبيعية. ولكنها تدبر الإنسان لخيره بطرق مختلفة حسب مسرتها. فأحياناً تشتعل فينا كالنار وتضطرم بعنف كثير، وأحياناً أخرى بلطف واعتدال، فيكون النور الحادث من تفاعلها فينا تارة متأججاً بلمعان واضح وتارة أخرى يخبو ويظهر خافتاً. ولكن على أي حال، فالمصاح على الدوام مشتعل ومضيء وعليك أن تشدبه بعناية من حين إلى حين ليشتعل بالحب وينير. غير أنه، بسماع من الله، يضعف أحياناً على الرغم من كل المحاولات ويظل خافتاً ولكنه يبقى منيراً.

١٤٠ — تتلطف النعمة فتعزي مرديها بأساليب شتى، فمرة تظهر كعلامة صليب منيرة وتلتصق بنفس الإنسان الداخلية، وأخرى تعشى على الإنسان في صلاته فتقلبه إلى حالة من الغيوبة، وثالثة تشرق بنور عجيب في القلب حتى أن الإنسان ليكاد يُبتلع في ذلك الوقت من فرط حلاوة التأمل، ويكاد يفقد حتى السيطرة على نفسه. ولورآه الناس وهو على هذه الحالة، ظوه محمواً أو بربرياً بسبب تلك الحلاوة الآخذة بلبه والحب الطاغى المتسيطر عليه. مع أنه في ذلك يكون قد بلغ إلى ملء القامة الروحية والحرية والطهارة. إلا أن النعمة بعد ذلك تتخلّى قليلاً فيحل ستار من القوة المصادرة، فيعود من حيث أتى ليقف على أولى الدرجات التي ابتداء منها.

أبا مكاروريوس الكبير

١٤١ — والنعمة «بعلامة الصليب» نهديء كل الأعضاء والقلب، حتى أن النفس لشدة الفرح تظهر كطمع بريء لا تعرف أن تدين إنساناً، حتى وإن كان خاطئاً أو محمياً للعالم؛ ويتطعم الإنسان إلى جميع الناس بعين نقية فيراهم أطهاراً ويعرج بالعالم كله ويود لو أن الجميع يعدون الله بالحب الذي فيه؛ ويرى شرف نسبه إلى الله كابن له، فيشق شجاعة وإقدام في ابن الله كما في أب له؛ وتفتح له أبواب فيدخل مواضع كثيرة، وكلما يتعمق داخلاً يفتح له مائة موضع لتقوده إلى مائة أخرى فيستغني؛ وكلما ازداد غنى تكشفت أمامه عجائب أخرى فيؤمن كابن وريث على أشياء لا تستطيع الطبيعة البشرية أن تنطق بها أو يصفها لسان أو فم، والمجد لله آمين.

أبا مكاروريوس الكبير

١٤٢ — إذا وُفق الإنسان أن يسمو بروحه إلى منطقة الإدراك العقلي المطلق، بعيداً عن التصورات المادية والفكرية ليطلع على حقائق الأمور هناك، فإنه يرى أن غاية الفضيلة هي أن تسعد بحب ما تراه

هناك، وغاية السعادة هي أن تملك ما تحبه، لأن هناك تُستقى الحياة السعيدة الحقيقية من منابعها. أما السعادة عندنا في هذه الحياة المائتة فما هي إلا رشاش يتطاير من منابع السعادة الحقيقية هناك، فيسقط رذاذاً على منطقة المحسوس والملموس هنا.

وهاء الرب هناك لا يُرى بالعين الجسدية أو بالتصور وإنما بالمنظر المعقول حسب استطاعة العقل البشري بنعمة الله. هناك يتحدث معه فألفم من أهل بالنعمة لهذا الحديث، ولكن ليس بهذا الفهم البشري بل بالعقل.

أوغسطينوس

١٤٣ — حينما تتحقق النفس من عظمة الطبيعة التي أخذت منها، فإنها بثقة عظيمة للغاية تأخذ طريقها نحو الله، أي بالتأمل في الحق وفي الموهبة السرية السامية التي تسمى نحوها، ومن أجل هذا تسمى جاهدة ما استطاعت.

لأن أعلى ما تستطيع النفس أن تصل إليه من الدرجات الروحية في هذه الحياة ينحصر في رؤية الحق والتأمل فيه، إذ فيه كل الفرح وكل السعادة والتلذذ بأصدق الخير وأعظمه، وتنسّم رائحة صفاء الأبدية المرتقبة. هكذا رأى كبار الروحانيين، ونحن نؤمن أن ما رأوه وما كتبوه هو حق. وأنا أجزؤ لأجزم بالأمر أننا لو اتبعنا طريق الرب التي أوصانا بها، فنحن حتماً بقوة الله وحكمته سوف نصل إلى بدء كل الأمور وعلمها (الله) وبالعقل نراه.

أوغسطينوس

١٤٤ — قد وهب الله لبعض الناس حرارة روحانية ألهمت عقولهم ورفعتهم من الأمور الأرضية الفانية ليحلّقوا في نور الحكمة الأبدية.

أوغسطينوس

١٤٥ — ماذا أحب فيك يا رب حينما أحبك؟ إنه نور وضياء. هذا هو ما أحب! وهو نغم شجي، وعبيق عطر، وعناق ملتهب! هذا هو ما أحب حينما أقول إني أحبك يا ربّي!! إنه إنساني الداخلي الذي يسعد بذاك النور وذاك العبيق وذاك العناق!

— يشرق في نفسي إشراقاً لا يحويه فضاء مهما اتسع ...

— و يوقع في داخلي نغماً لا يقوى أن يمحوه الزمن ...

— و يفيح أريجاً عطراً لا ترحزه الريح ...

— و يذيقني حلاوة لا تؤول فيّ إلى نقصان ...

— و يلتصق بي ملتياً في عناق لا يفرقه شبح ...

هذا هو ما أحب ، حينما أقول إني أحبك يا ربى .

أوغسطينوس

١٤٦ — ما هذا الذي يومض في أحشائي و يقرع قلبي دون أن يؤلني ؟ فأرتجف هلعاً أحياناً وألتهب حباً أحياناً أخرى . أرتجف بقدر ما أرى نفسي أني لست أشبهه ، وأطمئن بالقدر الذي فيه أرى نفسي أشابه ، إنها الحكمة ! هي التي تومض في أحشائي .

أوغسطينوس

١٤٧ — رأيت شيئاً لم أحتمله طويلاً .

أوغسطينوس

١٤٨ — يوجد في التأمل جهد كبير على العقل حينما يهم رافعاً ذاته نحو الأشياء السماوية حينما ينحصر انتباهه كدية في الأمور الروحية جاهدأ لمحاولة العبور فوق كل المنظورات ، مستضيئاً في ذاته ليصل إلى السعة المطلقة ... وأحياناً يغلب حقاً و يعلو فوق الظلمة العتيدة التي تغشاه فيدرك النور الحق بعض الإدراك كمن يسرقه خلسة بقلية وندرة ، ولكن سرعان ما يرتد إلى نفسه مغلوباً من ذلك النور و يعود لاهثاً إلى ظلمة غشاوته الأولى متنهداً .

غريغور يوس الكبير

١٤٩ — حينما نعرف الله ونشبهه من كل شهوتنا وعقلنا ، حينئذ تجف فينا كل الشهوات الجسدية الأخرى . وبعد أن كنا نطلب الله ونحس ملتصقون بالعالم ، يبتدىء حب العالم يضعف فينا ، و ينمو حب الله وحده بشدة . و بقدر ما يزداد حب الله عمقاً ، بقدر ما يضعف حب الجسد فينا شيئاً فشيئاً .

غريغور يوس الكبير

١٥٠ — إن حلاوة التأمل تستحق منا كل الحب . فإنها تحمل النفس فوق ذاتها لتخلق بها نحو السماويات ، فتتحقق أن الأشياء الأرضية تستحق الإزدراء لتسمو نحو الروحيات وتغض الطرف عن الأشياء الجسدية الفائية .

غريغور يوس الكبير

١٥١ — علينا أن نعرف أنه طالما نحن نحيا في هذا الجسد القابل للموت ، لا يستطيع أحد أن يتقدم في قوة التأمل بالدرجة التي فيها يملأ عيه و يتفرس ميتاً في ذلك النور غير المفحوص . لأن الله القادر على كل شيء لم يُر بعد بذلك الوضوح . إما كل ما تقدر عليه الروح هو أن تستطلع ما يحيط به ، فتستعش وتنموتدرك مجد منظره .

وحتى حينما يتقدم العقل في التأمل ، لا يستطيع أن يتأمل الله كما هو ولكن فيما هو دونه ، غير أن مثل

هذا التأمل يقود إلى اختبار تدوُّق الهدوء الداخلي جزئياً — على حد القول — وليس كاملاً، كما هو مكتوب بالحق في سفر الرؤيا: «وكان هدوء في السماء نحو نصف ساعة»، لأن السماء هي النفس البارة، وبتدوُّق التأمل العقلي يصير فيها هدوء إذ تكون ضوضاء الإشعالات الأرضية قد تلاشت، وقد تحرر الفكر من ارتباكها؛ ولكن بسبب أن هدوء العقل لا يمكن أن يكون كاملاً في هذه الحياة، لم يقل إنه صار هدوء في السماء ساعة كاملة، ولكن نحو نصف ساعة! لأنه في حال ما يرتفع العقل ويعشاه الهدوء الداخلي شيئاً فشيئاً، لا يستقر هناك كثيراً بسبب إلحاح الأفكار التي تدركه بشغفها فيختل هدوء العقل من ذاته، ووقوعه في مثل هذا الارتباك تغشاه الظلمة مرة أخرى فبعمى.

١٥٢ — كل من يتذوق ذلك السرور المعرط الذي في التأمل، حينما ترفعه النعمة الإلهية ليشترك زمرة الملائكة بعقله، وهو محصور في النظرة العليا بعيداً عن كل أمور العالم، تجده دائماً غير قانع بمشاركته للملائكة، إنما يتوق لو يستطيع أن يتفرَّس فيما فوق الملائكة، إذ يكون في رؤية الله وحده سر الانتعاش الحقيقي لعقولنا. وهكذا من مجد إلى مجد، فمن مشاركة الملائكة المرفعين نرتفع بعيون عقولنا لتأمل مجد جلاله الأسنى. وإلى أن يراه يبقى العقل جائعاً متلهفاً، حتى إذا ما رآه يشع ويقع! ولكن طالما نحن مثقلون بهذا اللحم الفاني لا نقدر أن نرى الله كما هو.

غريغوريوس الكبير

١٥٣ — إن موضوع التأمل الناضج هو الحكمة الإلهية حين تُدرك بالمكر وتلمس لمساً رقيقاً. فعندما يتقدم منا التأمل لترتقي إلى درجة التأمل في حكمة الله — أوبالبحري ترتقي هي بنا إلى ذاتها — حينئذ يكون عظم اتساعها الذي لا يُحدُّ مساً للإقتناع بامتساع كمال المعرفة على العقل البشري، إنما فقط بالحب نتلامس مع هذه الحكمة تلامساً ولا يجوز خلالها بأي حال من الأحوال.

١٥٤ — بعممة التأمل يتفعل العقل الشري صوت الفطنة العليا، وتستمتع أذن القلب الداخلية إلى كلمات الله. وهذه النعمة العليا تؤهل لمعرفة أشياء فائقة.

١٥٥ — يُقال إن التأمل ما هو إلا إشعاع صادر من نور المدينة السماوية، حيث يغلب على العقل أن يبقى معيقاً في ذلك التأمل الإلهي مستهجاً بما يدركه من مناظر الأبدية المطلقة التي لم ترها عين ولم تسمع بها أذن.

١٥٦ — «هذا منظر شبه مجد الرب. ولما رأيته خرتُ على وجهي» (حز ١: ٢٨). لم يقل حزقيال إنه منظر المحد ولكن شبه مجد، حتى يظهر أنه مهما جاهد العقل ومهما ضبط نفسه من كل تحيل المناظر والصور الجسدية وأخفى قلبه من الإهتمامات الزائلة، فهو يبقى على الرغم من ذلك غير قادر على رؤية مجد الله كما هو، طالما يسكن في هذا الجسد القابل للفساد... فكل ما يصادفه العقل من إشراق إنما يكون بالشبه فقط وليس بذات الجوهر.

١٥٧ — إن اللاهوت لا يعلن حقيقة ذاته كما هي للذين يمارسون التأمل فيه طالما هم في هذه الدنيا، إنما يكشف عما يحيط به من إشراق بقدر بسيط حتى تحتمله عيون عقولنا التي أعمتها الظلمة فلم تعد تطيق التحديق في نور اللاهوت.

غريغور يوس الكبير

١٥٨ — الشمس التي استطاعت أن تنظر إلى الله تتيقن من صغر كل المخلوقات. ومهما كانت ضالة السور الذي تطلع عليه، فهو كميل أن يعطي فكرة عن عظمة الخالق وصغر المخلوق. لأن بنور النظرة الداخلية يتسع حضن العقل ويمتد في الله حتى يصير فوق الخليقة كلها، حتى وفوق النفس ذاتها، إذ أن جزءها الرائي يكون أعلى منها. فعندما يُخطف هذا الجزء الرائي من النفس ويعاين نور الله، فإنه يتسع في ذاته داخلياً ويتعالى جداً فيرى ويدرك صغر هذه الأمور السفلية التي لم يستطع أن يدرك صغرها وتفاهتها عندما كان في حالته السفلية الأولى.

وإذا كان العالم يتراءى له بأجمعه أثناء تحليقه في نور الله، فذلك لا يكون بسبب انكماش السماء والأرض وإنما بسبب اتساع ترائي النفس، الذي استطاع أن يحوي في نظرة واحدة كل ما هو دون الله بلا عناء.

غريغور يوس الكبير

١٥٩ — نحن نعلم أن هناك أشياء صالحة كثيرة، لا ننكر أن الرسل المباركين وكل من هم على شاكلتهم حازوها إما بالطبيعة أو كهبة من النعمة؛ فالعفة حسنة، والحزم مع البصيرة يستحقان الإعجاب، والشفقة مكرمة، والرزانة محبوبة، والإعتدال حشمة، والرحمة مغبوبة، والعدل طاهر، كل هذه نحن لا نشك أن الرسول بولس كان متحلياً بها جميعاً مع بقية رفقاءه الرسل، حتى أنهم علّموا الدين بدرس من فضائلهم أكثر من كلامهم.

وقد كاسوا منهمكين في رعايتهم الدائمة لكل الكنائس، متيقظين في خدمتهم، وكان بولس الرسول يحترق من أجل الذين يخطئون وينحلّ ويضعف إذا ما ضعفت وخارت الخراف. ما أعظم هذا الإشفاق!!

ومع أن كل الفضائل التي اقتناها بولس الرسول تظهر رائعة للغاية وجواهر ثمينة، إلا أنها تتضاءل إذا قورنت باللولؤة الفريدة البالغة في الحسن، التي يبحث عنها تاجر الإنجيل ويشتهي اقتناءها ويود لو يبيع كل ماله ويشتريها.

هكذا تظهر قيمة هذه المحاسن ضعيفة تافهة أمام هذا الأمر الواحد الفريد الحسن.

وما هو ذاك الأمر الواحد الذي بلا نظير، الذي يعلو فوق هذه الأشياء الصالحة والعظيمة جميعاً؟

حتى أنها بينما تُحتقر هذه كلها احتقاراً، يصير هذا الأمر الواحد محبوباً ومُشتهى؟

بلا شك هو ذلك النصيب الصالح الذي يدوم بالحق، الذي قال عنه السيد أن مريم فضّته، فتركت واجبات الصيافة والمجامة الإنسانية وافتته: «مرتا مرتا أنتِ تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة ولكر الحاجة إلى واحد، فاخترت مريم النصيب الصالح الذي لن يُزع منها.» (لو ١٠: ٤١)، (٤٢)

إذن، فالوجود مع الله بالتأمل الروحي هو الأمر الواحد الذي تصغر أمامه كل الفضائل وكل الاستحقاقات التي نالها بسبب أعمال البر المتعددة. وهو، كذلك، اللؤلؤة الكثيرة الثمن التي يفوق بهاؤها كل الأحجار الكريمة مهما كانت غالية. هكذا تُعتبر جميع الاستحقاقات التي ينالها الناس بسبب أعمال البر صالحة، إلا أنها — كمحصول جسدي — تُعتبر أموراً تافهة ونفاية كلام لا تستحق إلا أن تُباع إذا قورنت باستحقاقات التأمل في الإلهيات.

الأب يوحنا كاسيان

١٦٠ — لأنه ليس منظر الحسد منظر عالم الروحانيات، لأن النظر الحقيقي إنما يكون بالنفس، لأن النفس تنظر كل شيء على حقيقته بمعرفة، أما الحسد إذا نظر بلا عقل فيكون كالبهيمة، أما النفس فتتنظر بدون اجسد نظراً روحانياً. العقل والنفس ليسا مرتبطين لأن النفس وإن كانت ساكنة في الجسد، لا أن معرفتها تمتد إلى كل شيء، وعلى الرغم من ارتباطها بالجسد تبقى متحررة منه؛ وفرحها دائماً يكون مفصلاً عنه، وعلى الرغم من وجودها معه على الأرض فهي دائماً تميل إلى العلو حيث بلدها الحقيقي. وهي وإن كانت محبوسة في هذا العالم إلا أنها تُحسب من أهل السماء؛ وإن كانت تحيا مع الترابيين إلا أن لها حياة مخلدة مع الروحانيين وتمجد معهم خالق الكل.

فاحم نفسك يا أخي واحرص على أن يكون مسكنك عند سيدك. إرفع أجنحتك من الأرض وتطلع إلى البلد الذي استعداد له، لأن هناك يشاء الخالق أن تكون سكناك دائماً.

هو إليك مشتاق، وإلى رؤياك عطشان، فاخرج كلّم خالقك لأنه يحب كلامك وحديثك أفضل من المراتب العالية، وهو مشتاق إلى صوتك أعظم من ضجة الروحانيين، وهو يحب الترابي أفضل من مجمع السورانيين، ويرح بصوتك وكلامك معه أفضل من بهاء الساروفيم، ويحب صورة الإنسان أفضل من شعاع السمايين، وسماجة آدم الذي خلقه أفضل من كل المخلوقات. هو لمحبه لك أقي ليطلبك فاخرج أنت في طلبه. هو تهازل إلى حقارتك ليرفعك إلى علوّه؛ وأظهر ذاته للأرضيين ليجعلك مع السمايين. فبالحة التي أقي بها إليك، أسلك أنت أيضاً بها وامض إليه.

مار إسحق السرياني

١٦١ — ليس من ينظر حسن هذه الاستعلانات والرؤى، و يرضى أيضاً أن يتفرس في حُسن شيء مما في عالمنا هذا. ليس من استغنى بوجوده مع الله، ولم يهْن عليه المال كالزبل. ليس من استأنس بهذه وسكر بالهذيد فيها ومعها، ولم يمقت من عينيه دالة الناس وأنسهم. ليس من انطلقت في نفسه محبة المسيح، و يقدر أيضاً أن يحتمل وساخة الشهوة المردولة. ليس من صار رفيق الملائكة واستأنس بأسرارهم، ولم يرذل رفقة العالم ومكائده. ليس من شُبي عقله بالله وبألهم به، و يرتبط بشيء مما في هذا العالم. ليس من وجد الله وعرفه، ولم ينس العالم وما فيه. هذه الجواهر الحسنة يجمعها ويجعلها في كنوز قلبه.

هذا هو التاجر المستأنس بالصلاة الذي يسبح دائماً في بحرها، ويجلس إلى ذاته و ينقيها في لجج النور لتضيء، وتكون لباس برفير للمسيح الأبدي. هذا هو الهاديء النشيط المسي بشهوة البحر الغاسل لخطاياها. طوباك يا من تطير على قم النور بأجنحة الروح القدس وأنت محبوس في العمق الحابس للكل الذي قراره لا يُدرَك. طوباك يا من اغتسلت في بحر الطهارة الذي أمواجه نورٌ ولججه نار محرقة لخطية الخطاة الذين يتقدمون إليه. طوباك! فقد صار صانعك هو معلمك، وغناك في روحه، وغذاؤك من نظره، ومشروبك من لذة روحه. طوباك! فشمسك لن تغيب، والليل لن تراه حدقة عين نفسك. طوباك! فورك هو ضياء المسيح، ولن يعبر من نفسك إلى الأبد. طوباك! فإن فركك في الله. طوباك! فقد صرت مع الروحانيين وأنت لا زلت على الأرض. طوباك! فقد صار حديثك مع خالقك. طوباك أيها العمال النشيط بعمل الصلاة والمستريح بيقظة الروح القدس داخلك، وفي نفسك تسمع كل حين أسرار الخفية وتقديسه الروحاني لبهجة قلبك.

الشيخ الروحاني

الفصل الثالث

ما فوق حدود الصلاة

أولاً: الدهش

ثانياً: رؤية الله

ثالثاً: الاتحاد بالله

— « لكننا نتكلم بحكمة بين الكاملين ، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عطاء هذا الدهر الذين يبطلون . بل نتكلم بحكمة الله في سر . الحكمة المكتومة التي سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا . التي لم يعلمها أحد من عطاء هذا الدهر . لأن لو عرفوا لما صلبوا رب المجد . بل كما هو مكتوب ما لم ترعني ولم تسمع به أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه . فأعلنه الله لنا نحن بروحه لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله ! لأن من من الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه ؟ هكذا أيضاً أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله . ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذي من الله لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله . التي نتكلم بها أيضاً لا بأقوال تعلمها حكمة إنسانية بل بما يعلمه الروح القدس ، قارنين الروحيات بالروحيات . ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة ! ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يُحكّم فيه روحياً . وأما (الإنسان) الروحي فيُحكّم في كل شيء وهو لا يُحكّم فيه من أحد . لأنه من عرف فكر الرب فيعلمه ؟ وأما نحن فلنا فكر المسيح . » (١ كور ٢ : ٦ - ١٦)

— « ... جعل نحو البرية وجهه ورفع بلعام عينيه ورأى إسرائيل حالاً حسب أسباطه فكان عليه روح الله فسطق بمثله وقال : وحي بلعام بن بعور وحي الرجل المفتوح العينين ، وحي الذي يسمع أقوال الله الذي يرى رؤيا القدير مطروحاً وهو مكشوف العينين ... أراه ولكن ليس الآن أبصره ولكن ليس قريباً . يبرز كوكب من يعقوب و يقوم قضيب من إسرائيل فيحطم طرفي موآب وهلك كل بني الوغى . » (عد ١ : ٢٤ - ٤ و ١٧)



١٦٢ — « جلسنا نتحدث سوياً في لذة واشتياق ، نتساءل فيما بيننا عن الحق وعن الحياة الأبدية التي سار إليها القديسون ... »

هكذا ابتداء القديس أوغسطينوس يروي قصة تأمله . وأما جليسه في هذا الحديث فكانت أمه « مونيكا » قبل أن ترحل عن العالم ، عندما رجع إليها ابنها بعد حياة غارقة في الشر . وهذه القطعة المختارة من تأملات أوغسطينوس تتدرج بنا حتى تنتهي إلى ما فوق حدود الصلاة في سهولة ويسر .

« كنا نتوق معاً في داخل نفوسنا إلى هذه الينابيع السماوية التي تفيض بالحياة عندك ! نشتهي أن نبلغ إلى مستواها لنحصل ولو على القليل منها ... وعندما كنا نصل إلى هذا التوافق في هذه الرغبة الميعة، كانت تتضاءل أمامنا ألد المسرات بأشهى عروضها حتى تصغر عن أن نقارنها أو حتى نذكرها بجوار سعادة تلك الحياة الأخرى ! كنا نخلق بشهوة ملتهبة نحو الله، ونجوز في تخليقنا أجواءً وأجواءً من عالم الماديات، حتى السماء بجلالها بشمسها وقرها ونجومها، كنا نجوزها بغير عناء، إذ كنا نشعر في دواخلنا برفعة أخرى غير منظورة ... حتى نصل إلى نهاية حدود الفكر ثم نجوزها أيضاً لنصل إلى الرحب اللانهاي حيث جلسك (يا الله) تطعم الأبرار من طعام الحق إلى الأبد ...

حيث الحياة هناك هي الحكمة التي منها وُجدت الأشياء جميعاً، كل ما كان وكل ما سيكون، أما هذه الحياة في ذاتها (الله) فهي لم تُستحدث قط، فكما كانت هي كائنة وستكون، لأن ليس فيها ماضٍ ولا مستقبل، إذ هي حاضرة دائماً لأنها أبدية ...

وكنّا في حديثنا الشيق عنها (أي عن الحياة أي عن الله) نتلامس معها تلامساً من عمق القلب ولكن في مشقة ... فكنا نتهد إذ نجد أنفسنا وقد أسرتها باكورة ثمار الروح . ثم ننعكف مرة أخرى إلى الحديث، تحدثنا كلماته ذات البداية وذات النهاية .

إلى هنا يعرض القديس أوغسطينوس عينة من الإشتياق الملتهب الذي كان يُشعل حياته بالقداسة وهوّن عليه كل صعوبة في الطريق . إن هذا الشوق الحار هو الشرارة التي سوف تُشعل الجسد والنفس والروح جميعاً، لتجعل من أوغسطينوس قديساً ينير لكل الأجيال بتعاليمه ذات الفلسفة الروحانية من الطراز الأول ... نعم فالإشتياق الحق الملتهب للقداسة هو الطريق الوحيد للقداسة .

نعود إلى حديث أوغسطينوس لنرقى معه هذا السلم الروحاني :

« فقنا لو أن حركات الجسد هدأت، وخیالنا الفكرية هدأت أيضاً من طوافها سواء في البر أو في البحر أو في السماء، وهدأت النفس إلى ذاتها ودون أن تفكر ابتدأت تسوف فوق ذاتها، فحينئذ لا يكون خیال أو مناظر مما يصنعها الفكر ولا كلام ولا إشارة، بل الكل في هدوء وسكوت يسبح خالقه . حينئذ تنسمع الأذن إلى هذا التسبيح الصامت « هو صَنَعْنَا وليس نحن الدائم إلى الأبد » . ثم يتكلم (الله)، ليس بواسطة حواسنا أو تفكيرنا، ولكن يتكلم بذاته، لا بلسان ملاك أو إنسان ولا برعد أو حفيف الريح، ولكن بصوته الذي نحمه ونتوق إليه دون وسيط أيّا كان ... وفي لحظة وفي طرفة عين نتلامس مع الحكمة الأبدية في الأعالي ! فلو قُدِّر لنا أن نعيش في هذه اللحظة أبداً، بعيدين عن كل مناظر وإحساسات ومجاذبات الأمور المادية في هذا العالم غارقين في بحر هذا السرور، ألا يكون هذا هو الملكوت ؟ « ملكوت الله داخلكم » ... « أدخل إلى فرح سيدك ! »

هنا يعبرُ بنا القديس أوغسطينوس على ثلاث درجات متداخلة للوصول إلى التلامس مع الحكمة الإلهية:

أولاً: سكوت الجسد. ثانياً: سكوت الفكر. ثالثاً: سكوت النفس.

أما هذا التدرُّج فليس جزافاً، إنما يستند على نظرية هامة في أنواع الإدراكات التي يدركها الإنسان، والتي ينبنى عليها التدرُّج في المعرفة الروحانية حتى الوصول إلى الدرجة المطلقة التي فيها يعاين الإنسان الله.

و يلخص القديس أوغسطينوس نظريته في الإدراك — مستنداً على اختبارات العملية واختبارات السابقين له — في ثلاثة أنواع من الإدراك:

الأول: الإدراك الجسدي:

وهو الذي ندرك به الأشياء الطبيعية بالحواس الجسدية.

الثاني: الإدراك التصوري:

الذي به ندرك الأشياء الطبيعية في غير وجودها، أي وهي غائبة عنا، سواء كان بالذاكرة أو التصور — سواء كان بإرادتنا أو بإظهار الله إياها لنا، كرؤية بطرس الرسول للحيوانات المجتمعة في ملاءة مدلاة من السماء.

الثالث: الإدراك العقلي المطلق:

(و يُراد بالمطلق أن لا تتدخل حواس الجسد ولا التصور الفكري أيضاً في إدراك هذه الرؤية.)

وهو إدراك العقل للحقائق والصفات المطلقة التي ليست لها صورة ما والتي لا يستطيع الخيال والتصور أن يحدها بصورة ما.

و يستخدم القديس أوغسطينوس لتوضيح هذه النظرية المبسطة الآية: «تحب قريبك كنفسك». فعندما تقرأ هذه الحروف المتراصة بجوار بعضها تدركها إدراكاً جسدياً، أي باستعمال النظر أو السمع، وإذا كان قريبك هذا غائباً فإنك تتصوره على صورة ما وهذا هو الإدراك التصوري. أما إذا أمعنت الفكر في الآية فإنك تدرك فيها فكرة مطلقة عن الحب، وهذا هو الإدراك العقلي المطلق.

و يشترك الإدراك الجسدي مع الإدراك التصوري لإدراك الأشياء القابلة للتغيير على

وجه العموم، في حين أن الإدراك العقلي لا تُدرك به إلا الأشياء غير القابلة للتغيير على وجه الإطلاق، أي اللانهائية غير المحدودة، كالحكمة المطلقة والمعرفة المطلقة والحب المطلق ... إلخ.

وفي اشتراك الإدراكين الجسدي والتصورى لشيء ما هناك احتمال للوقوع في الخطأ، أما الإدراك العقلي فليس فيه احتمال للوقوع في خطأ ما.

أما إذا حدث خطأ فيكون بسبب أن النفس لم تصل وصولاً محققاً إلى الإدراك العقلي النقي خالي تماماً من الإدراكين الجسدي والتصورى. لأن الإدراك العقلي يختص بمعرفة الحق الكامل المطلق الذي لا يمكن أن يكون فيه «تغير ولا ظل دوران»، طالما كان الإدراك إدراكاً عقلياً محضاً.

ويقول القديس أوغسطينوس بوضوح:

[إن الإدراك العقلي لا يحتمل الخطأ على الإطلاق، لأنه إما أن يكون الشخص يرى شيئاً آخر خلاف الحقيقة فهو إدا لا يرى عقلياً، أو يرى الحقيقة تماماً فيكون الإدراك صادقاً].

أما الأنواع التي يتعرف عليها الإدراك العقلي فهي أولاً طبيعة العقل ذاته، ثم الفضائل المطبقة في حقيقة جوهرها لا في استعمالها كالحب والفرح والسلام وطول الأناة والحكمة والمعرفة — وهذه كلها تُمثِّلُ لله بصلة، وأخيراً الله في جوهره. أما هذه كلها فهي تشترك في اللانهائية فلا يحدها إحساس ما أو زمان أو مكان أو شكل ما على الإطلاق. ولا تُدرك إلا بنظرة العقل المتحررة من كل إحساس جسدي أو تصورى، أي نظرة عقلية متصفة بذات صفة هذه الأمور أي اللانهائية.

وهذا يتضح لنا حقيقة اللانهائية وحقيقة إدراك اللانهاثيات.

ويزيد القديس مار إسحق على ذلك و يثبت أن نظرة العقل لا يمكن أن تتطهر وتصل إلى الكمال إلا برويتها الحق ذاته، أي أن العامل الأساسي للوصول بالعقل إلى درجة النقاوة المطلقة إنما يكون بواسطة رؤيته للحق المطلق، وبذلك يسهل علينا القديس مار إسحق هذا الأمر عملياً. فهو يرفعه من أيدينا ليضعه في يد الله. فليس أمر الوصول بالعقل إلى درجة النقاوة الكامنة يتوقف على سعيينا أو جهادنا وإنما يتوقف على عمل النعمة:

١٦٣ — فكروافهم أن الفضيلة هي الجسد، والتاوريا (التأمل الروحاني) هي النفس. ولإثنان

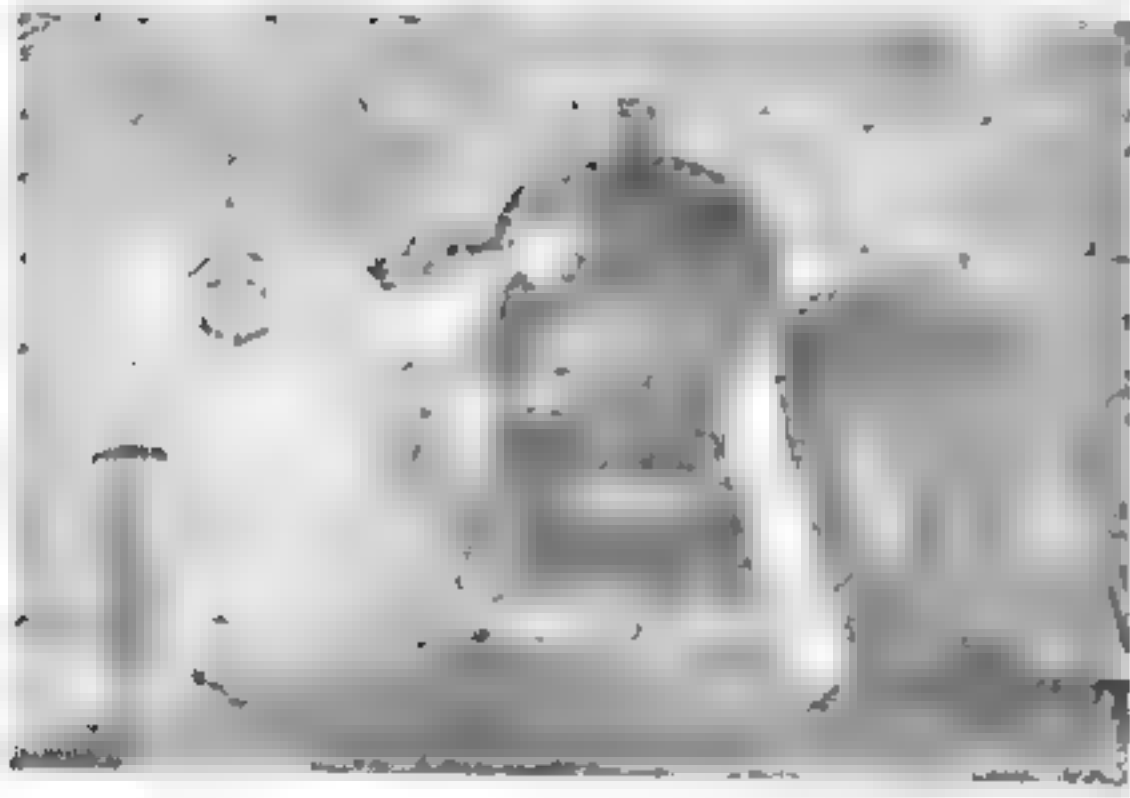
يَكُونُ إنساناً روحياً كاملاً متحداً من جزئين : الأول محسوس والآخر معقول . وكما أنه يستحيل على النفس أن يصير لها وجود أو ميلاد بدون تمام تكوين جبلة الجسد، هكذا والتأوريا أيضاً يستحيل أن تُدرك وتولد في رحم الذهن الذي هو بيت نمو البذرة الروحانية بدون أن يكمل في هذا الذهن كمال تجسم الحق .

مار إسحق السرياني

أولاً: الدّهش

Ἐκστασις

Ecstasy



«فخرجن سريعاً وهربن من القبر لأن الرعدة والحيرة Ἐκστασις أخذتا هن.» (مر ١٦: ٨)

وصف الكتاب المقدس حالة الدهش بكلمة ἑκστασις، وتفيد في الأصل اللغوي معنى الذهول أو الإغماء وانخفاف العقل حيث يخرج الإنسان عن وعيه، وقد تُرجمت بالعربية إلى كلمة «حيرة» كما في قول داود النبي في المزمور ١١٦: «أنا قلت في حيرتي إن كل الناس كاذبون». وهنا، للأسف الشديد، فهمت كلمة «حيرة» أنها تفيد الارتباك، ولكن هي في الواقع تفيد حالة سموروشي هو الدهش الروحي حيث قرينة الكلام توضح هذا المعنى، إذ يقول داود النبي بعد ذلك: «بماذا أكافئ الرب عن كل ما أعطانيه، كأس الخلاص آخذ وباسم الرب أدعو» (مز ١١٦: ١٢ و ١٣)، أي أنه يعترف بمقدار النعمة التي رُفعت إليها نفسه أثناء الدهش (الحيرة). أما قوله إنه في دهشه رأى أن كل الناس كاذبون فهو المعنى المطابق لقول سليمان في سفر الجامعة: «الكل باطل وقبض الريح» (جا ١: ١٤). أي أن داود استُعِلن له أثناء دهشه الروحي أن كل ما للإنسان باطل. (١)

كذلك وردت كلمة «حيرة» كترجمة لمعنى الدهش الروحي ἑκστασις في العهد الجديد في عدة مواضع لتفيد الإندهاش والتعجب الفائق المذهل للعقل بسبب الفرح أو التأثير الروحي الشديد مثل: «فأخذت الجميع حيرة ἑκστασις ومجدوا الله وامتلاوا خوفاً قائلين إننا رأينا اليوم عجائب.» (لو ٢٦: ٢٦)

ووردت أيضاً في سفر الأعمال بنفس هذا المعنى: «وعرفوه أنه هو الذي كان يجلس لأجل الصدقة على باب الهيكل الجميل وامتلاوا دهشة وحيرة = ἑκστάσεως مما حدث له.» (أع ٣: ١٠)

ووردت أيضاً في موضع آخر حيث تظهر قوة الكلمة: «بل بعض النساء منا حيرتنا (أي أوقعننا في الدهش) ἐξέστησαν ἡμᾶς إذ كنَّ باكراً عند القبر، ولما لم يجدن جسده أتين قائلات إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حي.» (لو ٢٤: ٢٢). ويتضح معنى الكلمة أكثر في الموضع الآتي: «فخرجن سريعا وهربن من القبر لأن الرعدة والحيرة ἑκστασις

(١) وهذا يشير إليه القديس غريغوريوس البسي بقوله:

[حينما هل داود إن كل الناس كاذبون فهو يعني أن كل محاولة يحاولها الإنسان لكي يشرح بها الرؤية العاتقة يكون في ذلك كدماً]

أخذتاه ولم يهل لأحد شيئاً (انعهد لسانهن) لأنهن كن خائفات. » (مر ١٦: ٨)

وفي الواقع قد أُسيء في ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية وخاصة في النسخة السيروتية فهم كلمة *καταστα* اليونانية بترجمتها بكلمة « حيرة »، فهذا غير صحيح وغير واقعي، بل وقد أُسيء أيضاً إلى استخدام كلمة « حيرة » نفسها إذ جُعِلت مرة في موضع الدهش الروحي السامي ومرة أخرى في موضع الإرتباك دون مراعاة لدقة الترجمة للكلمات اليونانية ودون مراعاة للمواقف الروحية.

والدهش أو العيوب الروحية، حالة اختطاف روحي يعبر عنها الكتاب المقدس بعدة اصطلاحات مثل: « وكان روح الرب عليه » (قض ٣: ١٠ : ١١ : ٢٩)، أو « يد السيد الرب وقعت عليّ » (حز ٨: ١)، أو « اختطف إلى السماء الثالثة... أفي الجسد أم خارج الجسد لست أعلم. الله يعلم. » (٢ كو ١٢: ٢ و ٣)، أو « مطروحاً وهو مكشوف العينين » (عد ٢٤: ٤)، أو « كنتُ في الروح. » (رؤ ١٠: ١٠)

وهذا الإحتياز يستلزم أن يكون الإنسان في حالة استعداد روحي داخلي لقول إعلانات الله، لذلك والدهش يكون دائماً ملازماً لحالة الهدوء الكامل والسكينة *ἡσυχία* التي بعدها يتوقف اتصال الإنسان بنفسه وبالعالم المحيط و يصحح تابعاً لله بكل كيانه. وفي الدهش يفقد الإنسان السيطرة الحرة على عقله وحواسه، لأن الروح القدس هو الذي يفوده في هذه اللحظات، فتستع حررته في مشيئة الروح و يكون تحت تديره وإعلاناته.

والدهش يسجده العهد القديم بمنهى الوضوح في كافة الحالات التي كان يتقبل فيها الأنبياء صوت الله وأوامره وإنذاراته، حينما كان يُخطف عن لبي فجأة و يصير في غيبوبة يعود بعدها إلى نفسه لينطق بكلمة الله بمنهى الصحو والرزانة والوضوح؛ أو ينطق أثناء دهشه بكلمات الله وهو في نصف وعيه واصفاً ما يراه وما يسمعه؛ أو يكتب بيده — وهو في دهشة — كل ما يمليه الله عليه كما في حالة دانيال النبي: « أما أنت يا دانيال فأتخف الكلام واختم السفر إلى وقت النهاية » (دا ١٢: ٤)؛ وفي حالة يوحنا في سفر الرؤيا في العهد الجديد: « وقال لي لا تختم على أقوال نوة هذا الكتاب لأن الوقت قريب. » (رؤ ٢٢: ١٠)

و يتجسد ابن الله وحلول الروح القدس على الكنيسة وانسكابه على كل شر كوعده الله في سفر يوثيل النبي وكوعده المسيح قبل الصعود وكتحقيق سفر الأعمال يوم الخمسين، صار

كل إنسان في المسيح يسوع مهياً بالنعمة التي بالمسيح، ومعداً بالسر الإلهي المنسكب عليه بالروح القدس أن يكون تحت سيطرة الروح القدس وتعليمه وتديره المباشر كما كان الأنبياء، ولكن لا ليأخذ من الله إعلانات جديدة للإيمان العام كالأنبياء أو الرسل ولكن ليعرف ما يخصه في هذا الإيمان عينه، وليدرك خلاصه و يكتشف سر محبة يسوع المسيح المذخرة له شخصياً، و يتقبل منه إعلانات خاصة لنفسه كوعده المسيح: «أحبه وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١)، حيث الدخول تحت سلطان الروح القدس وتديره يختلف تأثيره على النفس البشرية من إنسان لإنسان.

فالدهش لا يزال إلى الآن، كما كان في العهد القديم، أحد وسائل الاتصال المباشر بين الله والإنسان، إنما بدرجات متفاوتة قد تصل إلى الدرجة الكاملة وذلك لزيادة المعرفة وغو علائق المحبة الفردية الشخصية بين الله وأحائه الأمناء المخلصين، هذه المعرفة، أو هذه المحبة هي التي وعد الله أنها تظل تزداد من يوم إلى يوم وإلى الأبد.

أما السؤال لماذا لا تُستعلن كل الأسرار الإلهية الفائقة التي تختص بمعرفة الله ومحبه بواسطة العقل الواعي؟ فالجواب بسيط وسهل، وهو أن عقل الإنسان الواعي ذو طبيعة قائمة على أساس القياس المادي والتصورى والمنطقي، وقد نمى وكبر ونضج بتأثير هذه القياسات، لذلك نشأ عاجزاً تقريباً عن معرفة الله الكاملة والحقيقية، لأن طبيعة الله ليست خاضعة للقياسات المادية أو التصورية أو المنطقية. لذلك صار الإيمان بالله أمراً يفوق العقل بالضرورة، فالذي يريد أن يؤمن بالله حقاً لا بد له أن يسمو فوق نفسه وفوق عقله وفوق الدنيا كلها. ولهذا أصبحت قيمة الإيمان أعلى من قيمة الإنسان نفسه ومن الدنيا كلها. وهذا صار جزء الإيمان أعلى من كل ما يملكه الإنسان وأعلى من أمجاد الدنيا بأسرها. فجزء الإيمان هو الله نفسه. وبذلك فقيمة الإيمان في الواقع أعلى من قيمة الدهش والرؤى والإعلانات في حد ذاتها: «طوبى للذين آمنوا ولم يروا.» (يو ٢٠: ٢٩)

ولكن لكي يعلن الله محبه للإنسان الذي أحبه وآمن به، استلزم أن يُظهر الله نفسه للإنسان أحياناً حتى تكون محبه شخصية ذاتية حقيقية على الواقع البشري: «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١). ولكي يعلن الله ذاته للإنسان يستلزم حتماً وبالضرورة أن يتجاوز الإنسان كل ما يمكن أن يقع تحت بصره وسمعه وفكره وكل حواسه حتى لا تدخل هذه الحواس الجسدية والعقلية وتزيف حقيقة الله الذي يفوق حواس

الإنسان، من هنا صار ظهور الله للإنسان وإعلان محبته لمحبيه يستلزم بالضرورة توقُّف نشاط وفاعلية العقل المتصل بالحواس فترة معينة يتم فيها هذا الإ اتصال الفائق للطبيعة المحسوسة، وهذا هو الدهش بالله، الذي سميناه الدهش المطلق بسبب تساميه فوق المحدود والمحسوس.

واختبار الدهش بالله لا يتوقف على استحقاقات معينة يشترطها الله ليعلم نفسه للإنسان سوى المحبة العميقة من كل العقل والقلب والنفس حسب الوصية. والعجيب حقاً أن العلاقة القوية والأساسية بين الحب الجارف الحار وبين الدهش بالله تظهر بصورة اختبارية أكيدة. فكل الذين دخلوا في اختبار الدهش بالله، هم في الحقيقة الذين دخلوا في حالة حب قلبي كامل لله، فمجرد أن تبلغ حرارة المحبة القلبية حداً معيناً يكون ذلك إيذاناً بإمكانية الدخول في حالة الدهش؛ لذلك يسمون الدهش أحياناً بالسرور المفرط: Rapture. ولكن تظل النعمة غير مقيّدة حتى بهذا الشرط، إذ يجوز للنعمة أن تفتقد الإنسان وتباغته فجأة دون أي استحقاق أو استعداد وتُدخله في حالة الدهش، وكأنه وقع فريسة محبوبة للحب الطاغي الذي يُفقد حريته وإحساسه بنفسه لينعمه بمسرات ومعرفة لا يُنطق بها.

لذلك فإن اختبار الدهش لا يمكن أن نعتبره درجة للمتقدمين روحياً، بل يميل بعض الآباء، مثل سمعان الناطق بالإلهيات، إلى اعتبار الدهش اختباراً مناسباً للمبتدئين، معتبراً أن عدم خبرة المبتدئين بالنور الإلهي الداخلي يجعلهم عُرضةً للإصطدام المفاجيء الشديد بحقيقة بهاء ذلك النور الفائق مما يسلبهم وعيهم في الحال، كالإنسان الذي اعتاد الظلام حينما يُفاجأ بنور شديد.

ولكن في رأينا، أن المبتدئين يكونون في حالة توهلهم للدهش ليس بسبب عدم تعودهم على النور الإلهي بل بسبب شدة حرارتهم الأولى التي تفوق العقل. فالمعروف بالاختبار العملي أن حرارة ومحنة الإنسان المبتدئ نحو المسيح تبدأ من القمة حيث تبلغ في اللحظات الأولى من حياته الجديدة أعلى مستوى لها، الأمر الذي يجعل الإنسان في فرح ونشوة روحية تفوق العالم كله وتفوق العقل حتى أن الإنسان يكاد يكون في حالة ذهول دائم.

لذلك نسمع مراراً وتكراراً من الآباء المعلمين الأوائل أنه يئزم للإنسان أن يعيش في شعور وحرارة وحب اليوم الأول الذي تاب فيه وترك العالم وراء ظهره. وقد أثبت كثير من الآباء إمكانية هذه الحياة الحارة الدائمة المفعمة بالحب والدهش، مثل القديس مكار يوس

الكبير الذي نقرأ عنه لدى بالليديوس أنه كان دائماً في حالة دهش .

وفي رأي القديس ديونيسيوس الأريوباغي أن الدهش عممية لاإرادية « يتقرب بها الإنسان نحو الله » وذلك مكافأة له عما يكون قد ابتعد به عن العالم ، فبقدر ما يفقد الإنسان يجد ، وبقدر ما يموت يحيا . والدهش يستلزم فعلاً أن يكون الإنسان حاضعاً لله خضوع الميت الذي استسلم لله كلياً .

وفي نظر الروحانيين على وجه العموم نجد أن الدهش يعبر عن عملية ارتقاء وتصاعد سري للطبيعة البشرية نحو وضعها الأفضل الذي دُعيت إليه من واقع خلقها ، لأن الإنسان مخلوق ليتغير وهو مدعو ليتغير روحياً إلى أعلى ليصير أقرب إلى الله .

ولكن ليس الدهش اللاإرادي هو المدخل الوحيد لهذا الارتقاء أو التصاعد السري للطبيعة البشرية وتفرها من الله . فتوجد نفوس ذات مجال روحي عميق متسع وذات بناء عقلي قوى تستطيع ، وهي في كامل وعيها ، أن تبلغ درجة من التجرد الذاتي فيها تتقابل مع الحق الإلهي ومع وجه يسوع المسيح في صميم قاعدتها الواعية حيث تتواجه مع الله بكافة قواتها وطاقاتها الروحية والفكرية والحسية معاً في لحظة واحدة حينما تبلغ النفس حالة صادقة من الحب . وهذا الاختبار الواعي الذي تتواجه فيه النفس مع الله بالرغم من أنه يكون أقل قوة وعمقاً وأصالة من حالة الدهش والغيوبة الروحية غير الواعية وغير الحسية ، إلا أنه يُعتبر أكثر صلة بحياة الصلاة وأكثر واقعية لجمال العبادة ، حيث تذوق النفس فيه أسعد مسرات الروح وتعزياته وتصير كأنها في حالة سكر واعي .

وجميع الحالات التي ذكرت في الكتاب المقدس التي وُصفت فيها النفس كأنها ثملة من الخمر وفورن فيها عمل الروح القدس في النفس بعمل الخمر في العقل ، هي تصوير مباشر لحالة الدهش في حالاته المختلفة بين الدرجات الواعية وغير الواعية ، كاختلاف درجات تأثير الخمر على العقل تماماً .

الذهش أي الجذب الإلهي

وما يلزمه من انفعالات نفسية

يُعتبر الذهش ظاهرة للوغ قمة التأمل ونهايته، لأنها تُعبر بكافة الوجوه عن حدوث حالة اتصال سرّي وثيق بين النفس والله التي هي عاية الصلاة وكل نشاط روحي.

ولأن الإنسان يكون منجذباً نحو الله بقوة خارجة عن إرادته، بينما تكون النفس والعقل وكل الحواس مخطوفة وغير قادرة على مباشرة نشاطها الطبيعي وفاقدة كل استجابة للمؤثرات الخارجية، فإن هذه الحالة تُعتبر تشخيصاً واقعياً للتأثير الروحي الكبير الذي يتعدى اللاشعور ليشمل الشعور نفسه بكل ميكانيكيته وتنبيهاته. وهذا يُفصح عن أن الاتصال بين الله والإنسان إذا تم فعلاً فإنه يصبح من القوة والعظمة والعمق إلى الدرجة التي لا يمكن للإنسان فيها أن يتمالك نفسه أو يحتفظ بوعيه تماماً أو يظل يباشر اتصاله بهذا العالم الخارجي المنظور!... «الإنسان لا يراني ويعيش.» (خر ٣٣: ٢٠)

والجذب الإلهي ليس واحداً لكل السائرين على الطريق، فدرجة العمق والوضوح تختلف حسب المدرج الروحي الذي يسلكه الإنسان لأنها تُعبر عن حالة اتصال بالله. وحالة الاتصال هي في جوهرها فعل إدراك ومعرفة فائقة، والإدراك بالتالي يتناسب دائماً مع اتساع القلب بالحب وحرية الضمير في الحق وهذه ليست واحدة عند الجميع. لذلك لا نسمع عن القديسين إلا همسات شاردة متباينة عن اختبارهم لهذه الحالة يمنعمهم عن الإسترسال في وصفها لصعوبة التعبير وشدة الإضغاع أيضاً! وعلى حسب تعبير بولس الرسول:

— «أني الجسد أم خارج الجسد لست أعلم، الله يعلم...» (٢ كو ١٢: ٣)

— «اختطف إلى الفردوس وسمع كلمات لا يُنطق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم

بها.» (٢ كو ١٢: ٤)

ولكي نحيط بحالة «الدهش» التي ينتهي بها التأمل غالباً، يلزمنا جداً أن نعرض للنواحي الجسدية والنفسية والروحية التي تشترك بالضرورة في حدوث هذه الظاهرة غير العادية:

النواحي الجسدية:

الدهش الإلهي حسب الفحص الطبيعي هو حالة غيبوبة تتراوح بين العمق الشديد والخفة، وتتفاوت في مدتها بدءاً من الاستغراق الطويل إلى اللحظات القصيرة، حسب عمق وسرعة التأثير الذي يستجيب به الجسد لموضوع التأمل.

وهذه الحالة يدخل فيها الجسد إما تدريجياً وببطء كانتقال طبيعي من حالة التركيز الذهني في موضوع التأمل إلى حالة استغراق وانشغال شديد ثم إلى حالة الدهش، حيث يبتلع الموضوع كل أنواع النشاطات الذهنية والنفسية الشعورية و يصير الجسد في حالة غيبوبة.

وإما يكون الدخول في «الجذب» فجائياً وسريعاً لمجرد لمح الذهن لموضوع التأمل أو عرض منظر أو سماع كلمة لها صلة بالموضوع.

وسواء كان الدخول إلى الجذب تدريجياً أو فجائياً، فإن الإنسان يشعر أثناء العبور إليه بحالة مسرة فائقة أو سرور مفرط يكون بدوره عاملاً شديداً من عوامل الدخول في الغيبوبة.

وبمجرد أن يدخل الإنسان في حالة الغيبوبة، تظهر عليه العوارض الطبيعية التي يسجلها الطبيب عادة لإنسان في هذه الحالة، من انخفاض في سرعة التنفس وهبوط في الدورة الدموية وبرودة الجسد وتصلب الأعضاء وثبوت الجسد في وضعه مهما كان هذا الوضع مؤلماً وغير طبيعي.

وقد تصبح الغيبوبة عميقة لدرجة فقدان كل الإحساس وعدم الاستجابة لأي مؤثر ألمي، ولكن العجيب حقاً أن الجسد أحياناً لا يُضار من الإيذاء مهما بلغ هذا الإيذاء، كما في حالات التعذيب التي كان يتعرض لها الشهداء والتي كانوا بعدها يقومون معافين، وأحياناً لا تترك التعذيب أي آثار جسدية فيهم مع أنها قد تكون جروحاً مميتة! فالجسد هنا لا يكون خاضعاً لقانون الطبيعة والألم بل خاضعاً لقوة القيامة كأجساد الثلاثة الفتية؟ وكجسد القديس بولس الرسول بعد أن رجوه في لسترة: «وجرّوه خارج المدينة ظانين أنه قد مات! ولكن إذ أحاط به التلاميذ قام ودخل المدينة وفي الغد خرج مع برنابا.» (أع ١٠: ١٩ و

(٢٠)

ومثل كثير من الروايات العينية التي رواها الآباء عن الشهداء، والقديس أنطونيوس الكبير يشرح هذا بقوله :

[لأن الجسد يرجع تحت سلطان الروح القدس ، فأنا أقول إن ذلك الجسد قد اتحد شيئاً من الجسد المزمع أن يقوم في قيامة الصديقين] الرسالة الأولى .

هذه الحالة تشرح لنا تأكيد بعض الحجاج الأتقياء الذين يقولون إنهم حملوا « النور » — الذي يخرج من القبر المقدس في يوم السبت العظيم بكنيسة القيامة — وجعلوا الشموع المنيرة في وجوههم دقائق كثيرة ولم يتألموا ولا ظهر عليهم آثار حروق بل آثار فرح وسرور مفرط ؟؟؟

و يقص لنا القديس مار إسحق قصة عن راهب آخر وهو في الحقيقة يتكلم عن نفسه فيقول :

[وكان هذا القديس بهر كثيراً ، وكان يقول : إنه في الليلة التي أسهر فيها من العشاء إلى الصباح وبعد ذلك أستريح قليلاً أقوم من النوم وأكمل نهاري كمثل من هو ليس في هذا العالم ، ولا يصعد على قلبي أي فكر أرضي ولا أحتاج إلى تكميل قوانين الصلاة المروضة لأني أطل نهاري كله ثابتاً في الذهش . وفي أحد الأيام وكان النهار الذي أريد أن آكل فيه قمت أصلي قبل العشاء لكي أفطر فوقفت في حوش فلاني وكادت الشمس عالية (خلف ظهري) وأحسست أنني بدأت بمزمر الخدمة فقط (أي المزمور الخمسين) ، ومكثت حتى إلى ثاني يوم وإذا الشمس أشرقت في وجهي وحميت الثياب التي على جسدي ولم أكن أحس أين أنا ، ولما أحرقت الشمس وجهي انجمع عقلي إلي ونظرت وإذا هو نهار ثاني . فشكرت الله على كثرة إنعامه على بني الشر إذا عرفت إلى أي رفعة وعظمة قد أهل طالبه .] الكتاب الأول — الميمر التاسع .

ولكن هذا الذهش أو الغيبوبة التي يتلذذ بها الجسد في حالة الجذب الإلهي هي إحدى الظواهر الثانوية على الطريق الروحي ولا تنم عن قيمة روحية أساسية خلاصية في حد ذاتها . فهي إذا لم تكن على أساس إيمان صحيح وإتصال روحي عملي بالله و يصاحبها نموي المعرفة والسلوك والمحبة ، فإن هذا الذهش أو هذه الغيبوبة تصير ظاهرة مَرَضِيَّة ، و يصبح الذهش إدعاءً وتزيفاً من اللاشعور ، كما عند الأشخاص الذين يسرون على الطريق الروحي يدفعهم الطموح الشخصي إلى بلوغ الدرجات العليا في الحياة الروحية بسرعة .

هؤلاء تشدّهم حرارتهم المتولدة من اشتياقاتهم المريضة وتدخلهم فيما يشبه الدهش تماماً.

ومعروف أنه يوجد أشخاص ذوو بناء نفسي وعصبي وذهني ضعيف، إذا وقعوا تحت مؤثر نفسي أو ذهني شديد فإنهم يفقدون وعيهم و يتعرضون لحالة إغماء أو غيبوبة، أو كالأشخاص المعروفين بالوسطاء في عمليات التويم المغناطيسي، أو الأشخاص سريعو التأثير الذين يميلون إلى الاستغراق في التفكير في موضوع وسريعاً ما يستحكم على كل انتباههم وبالتالي يقودهم إلى حالة ذهول ثم ما يشبه النوم.

ولكن واضح في جميع الحالات المَرَضِيَّة أن الفكرة المتسطة أو الموضوع الذي يهود إلى حالة الغيبوبة غالباً ما يكون تافهاً أو غير معقول، كما أنه غالباً ما يكون راجعاً لقصة قديمة في حياة الفرد أو لخبرة مؤلمة.

أما في الدهش الإلهي فتكون الغيبوبة فوق مستوى العلل العصبية والعقلية، بل كحالة انسلاب تحسه النفس وتعيه في البداية بصورة متألقة واضحة، وكأنما يد إلهية حانية تحمل النفس وهي مستلقية عليها كطفل على ذراع أمه وترفعها إلى ما يشاء الروح، تدخل بعدها النفس في واقع الدهش وهم ثمانية في حالة نشوة عالية لترى وتسمع وتحس ما لا يمكن أن يُعبّر عنه بالكلام. أما الفكرة أو الموضوع الذي تنسلب له النفس فلا يخرج عن الله ذاته الذي يكون قد احتل كل اهتمام النفس ومحبتها بصورة حية صادقة.

هنا لا تكون الغيبوبة ناتجة عن ضعف البناء الجسدي للإنسان أو بسبب هبوط الطاقة العصبية، إنما تكون بسبب تفوق القوة الروحية على ميكانيكية الشعور البشري. حتى أنه كلما كانت البنية العصبية والعقلية سليمة قوية؛ كلما كان الدهش في أصح وأروع أوضاعه.

كذلك فإن الفارق الباطني بين الغيبوبة الناتجة عن الضعف العصبي المرضي وبين غيبوبة الدهش الإلهي يمتد ليظهر بكل وضوح وجلاء بعد الغيبوبة، إذ أن الدهش السوي الذي هو بسبب النعمة ومن عمل الروح القدس يخلص حياة الفرد وينميها، ويجعله أكفاً في تفهم الحياة ومواجهة الواقع، بل ويحتفظ بصلابة البناء العصبي والفكري.

أما الغيبوبة الناتجة من الحالات المَرَضِيَّة فتؤثر تأثيراً سيئاً متواصلاً على نفسية الإنسان وتجعله أقل كفاءة في مواجهة الحياة وتريد بناءه العصبي ضعفاً.

والدهش الإلهي بالنسبة للنفس السوية يُعتبر غذاءً عالياً ووجبات دسمة تعيش عليها

النفس سنبر طويلة، و يكون لها بمثابة دعامات تستند عليها وقوة م ذخرة تجدد نشاطها ليس الروحي فقط بل وحتى الجسدي أيضاً: «تُسمِني سروراً مع فرح فتبهج عظامي المنسحقة.» (مز ٥١)

ولكن في حالات المسك الشديد يواجه الإنسان بالضرورة حالة ضعف في الطاقة العصبية يجعل احتلاط الدهش بحالات غيوبة مَرَضِيَّة أمراً محتملاً، ولكن من المعروف أن الإنسان الذي ذاق التأمل السوي ووصل إلى حالات الدهش الإلهي يسهل عليه جداً التفريق بين ما هو سوي وما هو ناشئ عن ضعف أو مرض.

ومن الثمار المقدسة التي يفتدي عليها العالم كله والتي هي ثمار حالة دَهْش مقدس وغيوبة بالروح: سفر الرؤيا للقديس يوحنا اللاهوتي، الذي يبين بوضوح صفات ومكايات الدهش كرسالة إلهية لستريه كلها، كذلك أيضاً رؤيا داياال النبي، وبفية النبوات التي تمت تحت تأثير الدهش.

النواحي النفسية:

الدهش الإلهي من جهة الفحص النفسي هو حالة مرونة في الشعور الواعي تؤهله للحركة والإسحاب من الواقع السطحي نحو باطن النفس وإعطاء اللا شعور (وهو ما يُعبّر عنه بـ «الإنسان الباطن» بحسب تعبير الإيجس) فرصة لممارسة أقصى نشاطه ولتوليه زمام السطة على كل عمليات الحياة.

ومن حيث التعبير النفسي الدقيق، يُعتبر الدهش حالة تركيز كلي في موضوع «واحد» هو الله، فيه يُدفع الشعور حتى إلى حافته إما إرادياً أو لا إرادياً.

وفي حالة الصحة النفسية السوية ينته الإنسان من الغيوبة الروحية وهو في أعلى حالات النسوة والتألق الروحي والذهني، حيث تزداد قدرة الإنسان على «الحدس» أي المشاهدة العميقة والتعمق الفكري مع الإستمارة في موضوع الدهش الذي انحاز العقل نحوه واستغرق فيه أثناء الغيوبة التي قد تطول إلى ساعات طويلة وأحياناً إلى أيام، كما نعلمه عن الآباء اعظام كالقديس مكار يوس الكبير والقديس أرسانيوس ومار إسحق و يوحنا الدلياني (الشيخ الروحاني).

فالدهش من وجهة النظر النفسية يُعتبر في الواقع شرحاً عميقاً واقعياً لحالة تأمل بدع أعلى

حالاته أي «التركيز في الموضوع الواحد»، حيث تكون الغيبوبة الروحية من هذه الناحية «ضمناً» تصنعه ميكانيكية النفس للحفاظ على حالة التأمل العليا، لأن التأمل في درجاته الأخيرة يحتاج إلى هدوء كلي ونعرات عن صخب العالم وشوشرة الحواس، وكأنما تدرك النفس هذه الضرورة فتعمل لها لاشعورياً بانسحاب وتوقف الشعور والدخول في حالة اللاشعور لتكميل فرصة التأمل.

والواقع أنه يوجد بين أعلى درجة للتأمل الواعي أثناء اليقظة وبين الغيبوبة حالة قصيرة يكون فيها الإنسان متعطشاً جداً لإستكمال الصلة السرية مع الله والإقتراب إليه، وحينما يبدأ فعلاً ليخطو أول خطوة نحو الأبدية فإنها تكون بمثابة استدعاء لغيبوبة.

والمعروف نفسياً أن شدة التركيز الكلي في الموضوع الواحد مع الرغبة الشديدة في الإنعزال عن كل موضوع آخر يمهّد عملياً للدخول في الغيبوبة.

ومن هذا التشخيص النفسي نستنتج أن الدهش حالة مكتملة للتأمل وملازمة له، وكأنما النفس تلتزم لاشعورياً بقول الرب: «متى صليت فادخل إلى غدعك» (مت ٦: ٦)، حيث تمارس النفس، وهي في حالة نعاس الحواس، أسمى حالات الصلاة ويتم لها قول نشيد الأنشاد: «أنا نائمة وقلبي مستيقظ» (نش ٥: ٢)، لا بصورة رمزية ولكن كحقيقة واقعة!

وإذا كان الشرح النفسي لحالة الدهش يعتبر أنها حالة أدنى إليها شدة التركيز الكلي في موضوع «واحد» وهو الله مع رغبة أكيدة في ترك ونسيان والإنعزال عن «الكل» أي العالم، فإنه بذلك يتمشى إلى حد كبير مع هدف الإنسان الروحي السائر على الطريق، بل ويطابق أيضاً تعاليم الآباء القائلة: «إن خلاصة الطريق الروحي هي أن يترك الإنسان الكل و يلتصق بالواحد» كقول مار اسحق.

لأنه إذا كان التحليل النفسي يرى في الدهش حالة استغراق كلي في الموضوع الواحد الذي أصبح ملاً في الإنسان كل تفكيره وقلبه وقدرته، إلى الدرجة التي لا يعود يقوى فيها الإنسان أن يحتفظ بوعيه الشخصي أو يحتفظ بإحساسه بذاته منفصلاً عن موضوع اهتمامه، بل إنه يخضع ويستسلم بكل كيانه له، فإن هذا الوصف أيضاً يشرح غاية قول الإنجيل وسعي الروح أن يحب الإنسان إلهه من كل فيه وفكره وقدرته وأن يموت الإنسان عن العالم والجسد ليحيا لله وهذا يتم في الدهش بصورة لاإرادية.

كذلك إذا كان التشخيص النفسي لحالة الدهش يحاول أن يثبت أيضاً أن الإنسان يصبح في الدهش متحداً فعلاً بموضوع اهتمامه، لأن الإغماء يُعتبر أقصى موقف عملي يمكن أن يعبرو ويكتشف عن صلة الإنسان بالموضوع الذي يبتلع ليس تفكيره فحسب بل وكل نفسه، إذن فالدهش من وجهة نفسية يطابق المعنى الروحي الإنجيلي كإختبار حي لبلوغ حالة الإتحاد بالله التي يسعى لها الإنسان بالإيمان على مدى الطريق وبكافة الوسائط الروحية.

وفد لوحظ في سرد أخبار الآباء القديسين أن في حالات الدهش المتكررة يصبح مجرد لمح أى إشارة رمزية تخص موضوع التأمل، كميل أن يدخل الإنسان في حالة الدهش في الموضوع نفسه، سواء كانت هذه الإشارة عملية كالوقوف أمام المذبح للتناول من الأسرار المقدسة مثلاً أو النظر إلى الصليب أو سماع لحن أو آية معينة من مزمور محبوب.

وهذا يعمله علماء النفس بازدياد فطرة الشعور على التحرك إلى الداخل والإنسحاب من الواقع المحسوس، أما من جهة الروح فهذه السهولة في الدخول إلى الدهش ترجع إلى توطيد الصلة بين النفس والله وإلى جذب الله المستمر: «اجذبني وراءك فنجري» (نش ١: ٤)، وإلى اعتياد النفس على الدخول في حظيرة الرب: «تدخل وتخرج وتجد مرعى.» (يو ١٠: ٩)

ولكن التعليل النفسي لحالات الدهش والتشخيص الطبي للغيوبة يختص فقط بالظواهر وعملها، لذلك يراها حالات نفسية محضة ويظل في حيرة من أمر النتائج الباهرة التي يحصل عليها الإنسان الذي يجوز هذا الإحتثار النفسي، لأنها تتعدى مجرد التأثيرات النفسية والشعورية وتصل إلى أقصى ما يمكن أن يبلغه الإنسان من حيث السمو الذهني وارتقاء المعرفة والنظرة العقلية الحادة، مما يثبت قطعاً حصول اتصال بين النفس والله وخروجها محملة بهبات إلهية ممتازة.

فسأنة الدهش ليست، إذن، مجرد تركيز كلي في فكرة واحدة تسلب الشعور وتدخل الإنسان في غيبوبة كما يعللها علماء النفس، ولكنها شيء أعمق وأكثر من ذلك بكثير فهي تشمل حدوث تغيرات باطنية فيها تتوحد كل القوى الداخلية للنفس وتتعاون معاً ثم تنفتح فجأة على المجال الإلهي الأعلى لتخدم قضية أهم بكثير من قضية الشعور والحواس والعالم الظاهري: تلك هي قضية الموضوع «الواحد» والحياة الأبدية التي تستعلي وتستظهر على

الحياة الحاضرة بالنسبة للنفس بصورة عملية رائعة، حتى أنه يمكن أن يُقال إن الدهش على حسب التشخيص النفسي يصبح شهادة من الشعور واللاشعور كليهما على أهمية وعظمة «القيمة الإلهية الخالدة» أو الحياة الأبدية في اعتبار الإنسان.

إذ نرى أن الشعور عندما يعجز بكل اتساعه وإمكانياته عن مواجهة الله، ينسحب في الحال ليعطي الفرصة للاشعور الذي يُعتبر مجاله أوسع وأعمق من الشعور، ثم نرى اللاشعور يعود من مغامرته بفنائم تفوق في قيمتها كل أبعاد هذا العالم، ويخرج الإنسان من هذا الاختبار أكثر قوة وأكثر نفعاً وأكثر سعادة.

النواحي الروحية:

أما الدهش من وجهة الروح فهو درجة روحية مرتفعة لإدراك غير المدرك.

هذه الدرجة تظل محتبئة في الكيان النفسي إلى أن يواجهها الإنسان فجأة وذلك عندما يجهد الوعي الروحي للإمتداد نحو الله مضحياً بكل شيء، فيفاجأ بالإجابة على هذا الجهد بالدخول في الدهش حيث يكشف الإنسان أغنى الهبات التي يمكن أن تذوقها نفس في هذا العمر، إذ أنها تدخل في شركة سرية مع الرب وتذوق الحياة الأبدية!

فالنفس البشرية أثناء الدهش تحيا في الأبدية كما يحيا الجسد الطبيعي الآن في هذا العالم.

ولأنه يستحيل على الإنسان أن يمارس الحياتين معاً بالجسد، فإن الجسد بحواسه وعقله الشعوري يتخلف معطياً الفرصة للحياة الأفضل.

لذلك، فإن الدهش بالنسبة للتأمل يُعتبر حالة مؤقتة لتكميل السعي وبلوغ الإتحاد، ولو كسبق تذوق، حيث الوصول إلى الله لا يكون بالرؤيا من بعيد وإنما بالوجود الواقعي في الحضرة الإلهية وبالإتصال الفعلي أيضاً حيث يعرف الإنسان الله معرفة الحبيب الحبيب.

في التأمل يعرف الإنسان كثيراً عن الله و يدرك أموره وأعماله ومشيته ومواعيده، ولكن في الدهش يعرف الإنسان الله و يدركه بغير منظر أو صورة. لذلك فققدار الغبطة والمسرة والفرح العميق الذي يملأ نفس الإنسان أثناء الدهش يكون فوق الوصف. كذلك تكون الثقة ويكون الإقتناع والرضى الذي يملأ النفس من جهة أنها رأت الحي الخالد الأبدي الذي لا يتغير والحقيقة والحب والرحمة التي لا تُرى، شيئاً لا يُنسى إلى أبد الآبدين،

وكأن النفس قد حثت لغز الحياة والوجود وكشفت لغز نفسها واطمأنت إلى المصير!

أما الدهش من جهة الجسد والحواس فيعتبر الستارة المعتمة التي لا بد أن تُلقَى على الحواس حتى يتسنى للروح أن ترى ما للروح.

وأما الدهش من جهة الروح فهو بمثابة رفع البرقع الموضوع على العقل، لتعاین النفس لله بالمشاهدة العقلية الحرة وبالوعي الباطني الكامل اللذين هما الوسيلة للدخول في حالة شركة واتصال. لأنه لا يمكن معرفة النور إلا بالدخول في النور!

وحالة الدهش في كثير من الأحيان لا تبلغ درجة العمق الكافي للدخول في غيبوبة كاملة، فكثيراً ما تقف عند حالة الإستكانة العميقة والهدوء الداخلي حيث تواجه النفس حالة سرور مفرط وستوة روحية، وأحياناً يرافقها إحساس بارتفاع النفس وتحركها خارج الجسد ولكن لا تطلع إلى الغيبوبة. وهنا يحس المتأمل نفسه وكأنها مخطوفة إلى أعلى تعاین وتشاهد الأمور غير المنظورة ولكنه يكون في كامل وعيه، غير أنه لا يستجيب للمؤثرات الخارجية بسهولة وربما لا يستطيع أن يستجيب على الإطلاق. ولكن المعروف أن مقدار اطلاع النفس على الحقيقة وشركتها في النور يتناسب مع عمق حالة الدهش والإستغراق الكلي في اللاشعور.

والذي يميز حالة الدهش الحقيقي من حالات الغيبوبة المزيفة من الناحية الروحية، هو شعور الشخص في حالة الدهش الروحي الصحيح بفقدان فرديته واختفاء الإحساس بذاته من جراء الاتحاد السري الذي يتم بين النفس والله، لأن وجود الله في النفس يجعلها لا تحس إلا بالله حيث يكون هو مصدر كل فرح واهتمام. أما اهتمامها وفرحها بالله فيثبت ضمناً عدم ملاشاة كيانها!!

أم الغيبوبة المزيفة فلا تؤثر سلبياً على ذاتية الإنسان بل تزيدها ضخامة، وتجعل «الأنا» المصدر والغاية التي تبدأ وتنتهي إليها كل مسرة واهتمام.

كذلك أيضاً، فإن المعرفة المتولدة من الدهش الإلهي تختلف عن أية معرفة تتسرب إلى لعقل بواسطة الغيبوبة المزيفة التي يصطبغها اللاشعور بواسطة الحرارة المتولدة من الطموح ولرغبة في الإرتقاء لإشباع مسرة الذات. فإن المعرفة المتولدة من الدهش الإلهي بالرغم من أنها ترفع من قدرات الحكمة والتمييز والإفراز الروحي إلا أنه لا يمكن شرحها بالكلام لأنها

ليست مكتسبة بالفهم العقلي ، ومثلها كمثل معرفة الراحة والهدوء والسلام والفرح والحب المتولدة من الدخول فيها ، فهي معرفة خبرة ووجود واتحاد في الله ، معرفة الحياة بقبول الحياة .

أما المعرفة المريفة فهي من صُنع لعقل نفسه ، لذلك يمكن تذكُّرها وسردها بكلماتها لأنها تكون موجودة تحت مستوى العقل وغالباً تكون تافهة وبغير ذي نفع .

ولكي نفرق بين الصحيح والمزيف من الدهش ، يلزم أن نضع الدافع الذي يقود النفس إلى الصلاة والتأمل في الموضع الأول بل في القمة لأنه هو الذي يحدد نوع الدهش إن كان إلهياً أم مزيفاً ، فالدافع الصحيح السوي ينشئ خبرة صحيحة سوية على الدوام !

أقوال الآباء في الدهش:

يلزم لمن يرتفع إلى الإدراك التصوري أن يستغني عن الإدراك الحسي الجسدي. لأن الخيال شيء ومنطقة المحسوس الجسدي شيء آخر. كذلك من يصل إلى الإدراك العقلي الكامل، يلزمه أولاً أن يفقد الإدراكين الجسدي والتصوري كليهما معاً، حتى يستطيع أن يدرك الحق إدراكاً واضحاً غير مزيف بتداخل الحواس والتصور. أي يدرك الحق كما هو في ذاته وليس كما يصوره الخيال.

وفقدان الإنسان للإدراك الجسدي والتصوري معاً هو الذي يُعبّر عنه بكلمة «الدهش». وهي حالة يشبّها القديس أوغسطينوس بحالة ما بين النوم والموت:

١٦٤ — الإنتباه العقلي حينما يفارق الحواس الجسدية ويتخلّى عنها يسمى حالة ذهول (دهش) وحينئذ لا يرى الإنسان كل ما يعرض من الأقسام أمام عييه وهما مفتوحتان، كما لا يسمع الأصوات أيضاً. هي حالة متوسطة بين النوم والموت، فيها تكون النفس محطوفة ومتخلية عن الحواس الجسدية بدرجة أكثر مما هو في حالة النوم الطبيعي ولكن أقل طبعاً مما في حالة الموت!

أوغسطينوس

وفي قطعة أخرى يشرح بوضوح خروج العقل عن دائرة الحواس وأهمية ذلك:

١٦٥ — الدهول هو ذهاب العقل كما يحدث أحياناً من الفزع والرعب، وهو يكون لاستعلان ما، وذلك بإبعاد العقل من منطقة الحواس الجسدية حتى يتسنى للروح أن تطلع على ما يُراد إطلاعها عليه.

أوغسطينوس

وهنا يعترضنا سؤال عن كيف تستطيع النفس مفارقة الحواس الجسدية، هل بخروجها من الجسد؟ فإذا كان الأمر كذلك ألا يكون الجسد في حالة موت حقيقي؟ يشرح ذلك القديس أوغسطينوس في موضوع رؤيا القديس بولس الرسول:

١٦٦ — لم يعرف بولس الرسول حينما اختطف إلى السماء الثالثة هل كان في الجسد؟ لأن النفس

تكون في الجسد حينها يكون حياً، سواء كان في يقظة أو في نوم، أو يكون في حالة ذهول حيث تكون نفسه مبعدة عن الحواس الجسدية فقط، أو تكون نفسه قد فارقت جسده فعلاً حتى أن جسده انطرح ميتاً إلى أن انتهت الرؤيا فعادت النفس إلى الأعضاء الميتة، لأنه لم يستيقظ كمن هو قائم من نوم ولا كمن استفاق من حالة ذهول وعاد إلى حواسه، ولكنه قام كميت عاد إلى الحياة. ولأنه لم يكس متاكداً حينها فارقت نفسه الجسد أكان جسده في حالة موت تام أم ترك الجسد حياً بطريقة ما والنفس فيه، والعقل وحده هو الذي احتُطف ليرى و يسمع أمور هذه الرؤيا غير المنطوق بها. ربما من أجل هذا السبب قال: «أفي الجسد أم خارج الجسد لست أعلم. الله يعلم».

أوغسطينوس

والموضوع لم يستغلق فهمه على القديس أوغسطينوس بوضعه الأمر بين علامات الإستفهام، وإنما هو يعرض موضوع الدهول أو الدهش عرضاً يوضح فيه احتمال وقوعه على نوعين:

فالنوع الأول: اختطاف العقل فقط بعيداً عن حواس الجسد حيث يبقى الجسد مع النفس. وفي هذه الحالة يستجيب الجسد لكل المؤثرات الخارجية ولكن بدون توجيه العقل إنما بنوع من التلقائية. فهو يرى و يسمع ولكن لا يستجيب إذ يكون في حالة ذهول. كما سبق في قول القديس أوغسطينوس.

و يقول في ذلك الأب سيرا فيم (الذي من صروف):

١٦٧ — حينما ينشغل الإنسان داخلياً بالتأمل في النور الأبدي يكون عقله نقياً لا تشوبه تصورات الأشياء المحسوسة إذ يكون مبدئياً بتأمل ذلك الجمال العائق غير المخلوق، وينسى كل متعلقات الحواس ولا يرعب في التطلع لشيء حتى إلى نفسه، ويتوق أن يختفي عن كل الأنظار حتى لا يُحرم من الله.

الأب سيرا فيم ص.

١٦٨ — أعرف إنساناً بعد أن تدرب بالعمل وتكمل قوانين صلاته، وصل إلى هذه الرتبة: أنه لم يقدر أن يصنع صلاة قدام إنسان، لأنه في بدء خدمته أو في وسطها كان يصنع سجدة فيُستلَع عقله بالدهش بالله، وكان يتوقف عن المعرفة وكل الحركات، وكان يشبث الليل كله بغير ذكر، وعندما كان يقوم على رجلبيه وهو مستأنس بخدمته تشرق في عقله ريارة الروح وتحل فيه و يدوم بلا حركة بدهش عظيم... ياللعجب كيف تحتمل أعضاء الجسد في هذه المدة كلها صعوبة انحناء الجسد أو الوقوف بغير حراك! لكن هي اللذة الروحية العجيبة التي هوت عليه احتمال هذه المشقة. وكان يقول: إنه في بعض الأوقات إذا تحركت من مكاني وأنا في هذه الحالة لضرورة ما، أمشي حتى ألتقي بجائط وأصطدم

به دون أن أراه إذ يكون الكل قد ارتفع من أمام نظري ومن دائرة حواسي.

الشيخ الروحاني

١٦٩ — كان إنسان يقول: إني إذا جلست أحياناً وعقلي مسي بدهشة نظر الله وقد انتلج باللذة، يكون وقت أن يخطر على جسدي غفلة اليوم أن الملاك الذي معي يهز جسدي ليستيقظ، ولكن العقل أثناء ذلك لا يضطرب أو يعود من موضعه.

الشيخ الروحاني

١٧٠ — وربما تُخطف العقل بواسطة الروح مرشده ليسع في بحر النور الأزلي. قال لي أخ: حينما كان يُخطف عقلي لهذه النظرة البهية كنت أراه يتفرس في بحر الحياة يسبح في لبح من نور، ويستنشق رائحة الحياة، و يدهش و يتجلى بفرحة عظيمة. و يتغطى بالنور و يغلي بفعل الحب والفرح و بإشراق عجيب، و يتأمل في حوقات الملائكة المشرقة حوله، و يسقط معهم وفيهم و يقدر بتقديسهم بالعجب، و يحطمونه ليلع معهم مناطق النور العليا فينجس فيها و يُذهل بنظرة المجد المحيطة بالنور الأعظم. وهناك يشب العقل إما لحظة صغيرة أو ساعة واحدة أو النهار كله أو الليل كله حسب مشيئة الروح وكفدر العطية.

وفي الوقت الذي تكون فيه هذه الموهبة في النفس، فلو كانت كل الخليقة أصواتاً واضطراباً، لا تستطيع أن تحمل العقل يهبط من موضعه أو يعود لذاته من فرط انشغاله من التعجب والدهش وفقدان كل صلة بشعور الجسد.

الشيخ الروحاني

و يقول القديس ديوناسيوس الأريوباغي في اختطاف العقل:

١٧١ — يدخل العقل بالعمل إلى ذلك الغمام الروحي غير المدرك حيث هناك يتعري من كل شعور بالمعرفة، و يشب في ذلك غير المنظور وغير المحسوس و يلتصق بالتقام في داك الذي هو فوق الكل. وذلك إنما يكون بإبطال كل قوى العقل التي للمعرفة (من جهة الحس والتصور) متحدداً فقط بأعلى نقطة منه في ذلك الشيء... إذ أنه حينما يصل إلى درجة التحلي الكامل عن كل معرفة حينئذ يصل إلى معرفة الحق الذي هو فوق الفهم.

ديوناسيوس الأريوباغي

و يقول في ذلك أيضاً القديسون:

١٧٢ — «ولكن إذا كان عقلاً مبدداً في الأشياء الأرضية فهو لن يستطيع بأي حال أن يبصر شيئاً لا في ذاته ولا في طبيعة النفس. لأنه يكون مُسافاً في أفكار كثيرة وقد أعمته المعتقدات، لذلك فإن أول خطوة هي أن يجمع العقل إلى ذاته ثم يحاول أن ينقلب ليعطي ظهره للعالم ثم يهبط صاعداً فوق ذاته

مستسلماً لنية التأمل في خالقه غير المنظور.

ولكن للعقل لا يستطيع أن يجمع ذاته إلا إذا تدرب كيف يصدّد عنه عن كل الخدلات ولتصورات، سواء كانت حص الأتية الأرضية أو آسمانية، ويرقص ويردري بكل المشاعر التي تعرض على فكره حتى يكون في داحه كما لو كان قد فقد المشاعر والإحساسات جميعاً، لأنه حينها تصارق هذه الحيلالات عن العقل حسنه ترى النفس قدرد بها كما خُصت دون الله وأرفع من الحسد، حتى إذا ما تصنت الحياة من هو فوقها تعطيها للحسد الذي هو دوابها وتحت سلطانها».

غريغور يوس الكبير

١٧٣ — وهذه النار (الروح القدس) تحرق حشنة التي في العين لئلا تطغى ويرد العقل إلى بقاوته، فإذا عادت إليه قوة النظر الأصلية فلا يقطع من معاينة عجايب الله.

أبا مكار يوس الكبير

١٧٤ — وقعت على قمة العالم عندما أحسست في داني أني لا أنهي شيئاً ولا أخاف شيئاً، لأن الذي يحترق أمور هذا العالم و يردري بها حتى الجيده الحسه فيه وبه تنعان فوقها جميعاً.

١٧٥ — والعقل بقوة التأمل يُحتمل بعيداً عن الحسد وكه شغل فساده يبقى متعلناً به، وعلى الرغم من كونه بعيداً عن العالم فإنه يبقى متعلقاً بالحسد.

١٧٦ — وعاد يكون عقل لأمرار مستعلاً حداثاً لتأمن لأمرار لعلها، حتى أن مظهرهم يكون كمص أصيب بمخدر.

غريغور يوس الكبير

١٧٧ — النظر الإلهي هو استعلان العقل بلا حواس.

مار إسحق السرياني

١٧٨ — لأن طسعة امصوب الروحانيه لا يمكن أن تُنظر خارج عن العقل. وهذه المنظره بدون بصوة للعقل (أي بدون المدرجة المطلقة بعيد عن الخوس الحسديه والتصور لفكري) لا يمكن للإنسان أن يصلها.

١٧٩ — لأن جمع حركات محصلاه وبربيها إنما يوصل العقل إلى بدايه اسطرة وفي ذلك يكون جهد ونعب، ولكن بعد هذا الحد تتحلف الصلاة ولا يكون إلا دهش وتعجب بظرفه العقل. ولا يكون للعقل سلطان في ذاته وإنما يساق ويتدبر من قوة أخرى إلى حيث ما لا يدري. لأنه يمشك (على الطسيع) في ذلك الوقت سكوب، ويحفظ العقل دون أن يحس سيء. هها يصدق القول: إن كان

بالجسد أو بغير الجسد لا أدري حسب ما يقول الكتاب .

١٨٠ — هذه النعمة يؤهل لها الإنسان ، إذا ما تعرى العقل من الإنسان العتيق .

١٨١ — وأما قوله : إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال لا يحس الإنسان بتنعيم الملكوت ، فقد قالوا في ذلك إن ملكوت السموات هو التاوريا الروحانية ، وهو لا يُقبل بالأفكار والمعرفة ولكن بذوقها الإنسان بالنعمة ؛ فإلى أن يتطهر الإنسان من الأفكار والمعرفة لا يكون فيه كفاية ولا للسمع بها ، لأنه لا يُفتنى بالتعليم والتلقين ، ... فإن كنت يا ابني قد بلغت إلى النقاوة التي تُفتنى بالقلب ونسيت معرفة العالم فإنك تجدها بغتة داخلتك من غير بحث أو فحص .

١٨٢ — بدون النور الإلهي ما تقدر عين العقل أن ترى الحق ، كالعين الجسدية فإن قوة نظرها لا تعمل إلا بحضور النور الطبيعي .

١٨٣ — إذا ارتفع العقل من الكائنات عند ذلك تزول من الجسد كل علامات الصلاة حتى الدموع وكل حركة وكل إحساس ، ما خلا نبضات الحياة الطبيعية ، لأن تلك المعرفة (أي رؤية الحق) لا تتنازل لتأخذ مشاركة الحواس ، أو تستمير أشكالا وصوراً من هذا العالم المحسوس بل بنظر العقل ... إن كان بالجسد أو بغير الجسد لا أعلم ، الله يعلم . هكذا سمع المغبوط بولس كلاماً لا يُنطق به ما لم يسمعه بحواس الجسد ، ونظر أشياء لا تُنظر بالحواس ولا تُدرك بأشكال متجسمة ولا بمشاركة الإرادة ، بل بحركة العقل حينما يُختطف من الجسد .

١٨٤ — هوذا القديس أنطونيوس إذ كان واقفاً يصلي على قدميه تسع ساعات أحس أن عقله اختطف وارتفع . وآخر مكث في الدهش أربعة أيام .

١٨٥ — وأما تدبير السيرة الروحانية فهو فعل بعيد عن عمل الحواس ، وهو الذي كتب عنه الآباء جميعاً في كتاباتهم . لأن عقول القديسين إذا ما قبلت التاوريا (النظرة الروحية أو التأمل الروحاني) عند ذلك ترتفع وتزول كثافة الجسم . فتكون النظرة حينئذ روحانية بحتة ، ومن هذه النظرة يدرك العقل إدراكاً حراً نقياً ما هي المعرفة الحقة ، هذا هو الدهش والتعجب بالله عز وجل ، وهذا هو التدبير العظيم المزمع أن يُعطى بحرية في الحياة الأخرى التي لا يشوبها موت بعد القيامة . حيث لا تكف حينئذ الطبيعة البشرية هناك ولا تنقطع قط من حالة الدهش الدائم بالله تعالى . ولا تتصور هناك شيئاً من الخلائق أو ترتبط بها لأن الله يكون الكل في الكل .

١٨٦ — إذا انقشعت حواجز الآلام من أمام عين العقل ، وشخص العقل في ذلك المجد ، فإنه للحال يتعالى بالدهش .

١٨٧ — يا يسوع إلهي المرید فی قوته ، طوی للذی حظی بمعونتك وقد وضع فی قلبه مصعداً إلیك !
رُدَّ وجهنا أنت یا رب من العالم بالإشتیاق إلیك ! إلی أن ینظرك كما أنت ! لا تدعنا نركن إلی الغی
كأنه حق ! جدد فی فكرنا الإجتهد والحرص قبل الموت لكي نعلم قبل خروجنا كيف كان دخولنا إلی
هذا العالم وكيف یكون خروجنا منه ، إلی أن نكمل العمل الذی قد دُعِیَا إلیه أولاً بحسب قصدك
بوضعنا فی هذه الحیاة .

نرجو بفكر مملوء ثقة أن نقل العظام كما بشرها الإنجیل ، ونتدوق المواعید الذی أعدتها محبتك فی
التجید الثاني ، الأمور الذی ذكرها محفوظ فی أمانة السر . والمجد لك یا رب . آمین .

١٨٨ — فإذا أدركته النعمة ، فإنه یسكر منها مثل الخمر ، وتنحل أعضاؤه ، ويمكث فكره
حائراً ، ویُسَبِّی قلبه خلف الله ، ویصیر كأنه سكر من الخمر . حتی أنه وهو لابس جسده لا یعلم إن
كان فی هذا العالم أم لا . هذا هو مبدأ النظرة الروحانية واستعلان الفكر لها .

١٨٩ — الذی یقولون إنه یمكن رؤية سیدنا فی هذا العالم بالحواس هم مثل الذین یعتقدون أن فی
العالم الجدید شيئاً محسوساً ، وأن تنعم الملكوت یكون بالحواس والوجود فیهِ یكون مادياً ، وهذان الإثنان
قد زاغنا عن الحق . لأن الشیء شبيه یكون . أوغریس الطوباوی هو شاهد أمين لأنه قال : إن كان
الجسد البشري هو جزء من العالم ، فإذا ما زال العالم فمعلوم أن شكل الجسد یزول أيضاً .

١٩٠ — فی الدرجة الأولى : یتهاون الإنسان بأمور العالم وبالتحایل البشري ، وهذه هی الأمانة
(الإیمان) .

فی الدرجة الثانية : یثق الإنسان بالله ویتكل علی الخالق فیثبت فی الحق .
فی الدرجة الثالثة : یتأحح الحب فی قلبه فیبتلع بلذة مذاقته ویرتمی فی أحضان الله كالطفل مع
أمه .

فی الدرجة الرابعة : تنسكب علیه حكمة الله وتوَهَّلُهُ للنظرة العاخرة الذی بالروح .
فی الدرجة الخامسة : یختطف منه العقل بالذهول ، ویدرك بقوة الروح الدهش فی الله .

ولكن إن لم یضف العقل ویتنق من حركات الجسد والفكر لا یستطیع أن یشترك فی عمل الروح .
مار إسحق السريانی

١٩١ — إننی فی وقت ما كنتُ جالساً وقد سُي عَقلی بالنظر الإلهی ، ولما احل تنهدت بقوة .

الشیخ الروحانی

نستحقق من أقوال القديسين أن درجة الدهش الأولى — أي رفعة العقل الحر الطاهر
لخالی من حركات الجسد والفكر — إنما فی بدايتها تكون اجتهداً من قِبَل الإنسان . فهي كما

يقول غر يغور يوس الكبير:

«وقعت على قمة البعالم عندما أحسست في داني أني لا أنسهي شيئاً ولا أخاف شيئاً... لأن اندي يختبر و يردري بأمور هذا العالم حتى اجنده الحسة قد وبه سعال فوقها حيعا».

وكذلك يقول:

«ولكن لعمل لا يستطيع أن جمع دانه إلا إذا ندرت كيف يصدّدته عن كل الخيالات ولتصورت، سواء تلك التي حصص الأمور الأرضية أو السماوية و يرفض و يردري بكل المشاعر اني تعرض عليه».

إذن، فاندیس تحرروا على جمع فكرهم وضبطه أثناء الصلاة وعدم السماح للحواس الجسدية بالاشتغال بشيء طالما كان الإنسان واقفاً في الصلاة، يسهل عليهم أمر رفعة العقل للتحرر من الحواس جملة، ومن تصورات الفكر وطياشته في الأمور العالمية عموماً. والذين تدرّبوا على الهدية يكون عندهم الاستعداد والموافقة للدخول في هذه الدرجة من التحرر من بعية الحواس استعداداً للانطلاق للرؤية. كل هذا من جانب واحد وهو جانب الاجتهاد السري، ولكن يستحيل أن يرتفع العقل ليدخل في منطقة المعقولات المطلقة إلا بمساعدة ومؤازرة النعمة كما قرأنا لما راسحق:

«بدون السور الإلهي ما تدرّس العقل أن ترى حق (الله)، كالعين الجسدية فإن فوه بصرها لا تعمل إلا بحضور النور الطبيعي».

فالنعمة تدخل عندما نجد استعداد العقل كاملاً ليُهَمَّ مرتفعاً فوق المحسوسات والتصورات، لترفعه النعمة من تحت سلطان الحواس الجسدية، وتحرره من سلطان الماديات، وتشرّكه معها لتحصّره أمام الله بعبا مطلقاً. وهذا الانتقال يُعتبر الخطوة الحرجة لتعبور من البعالم المادي إلى العالم الروحاني الحر. ولكن بمجرد تدخل النعمة، يحصل هذا جميعه في لحظة و يكون نتيجة ذلك أن يترك الجسد بلا مدبّر، إذ يكون العقل، وهو بقوة المسيطره على حواسه وإدراكاته، قد فارقه ليعاين هذه الموهبة العظمى التي من أحلها جاهد هذا الجهاد الشاق اللذيذ.

وبعبارة أخرى، ليس على سبيل الاستجيع وإنما للمريض حقيقة، أن أي جفاف أو ملل أو قلق أو صيب يعتبر في الإنسان وهوي بدء اختياره للتأمل لا يكون علامة على عدم الاستعداد أو الملل، لكن على العكس تماماً. فهو علامة الدخول في عمق التأمل، وما هذا لصيب

والملل والقلق والجفاف إلا بسبب الضيقة التي تعتري النفس عند محاولة تحلُّصها من الجسد الذي ارتبطت به بطول الرمس ارتباطاً صعباً يحتاج إلى جهد وتعب وصبر لتحطيم قيوده، وهذا ما يعبر عنه القديس بولس الرسول بالتحرر من الإنسان العتيق.

ويحثنا القديس ديوناسيوس الأريوباغي على التمرين على التاوريا بقوله:

١٩٢ — إذا قصدت التمرين على التاوريا (أي التأمل بالروح)، أترك وراءك الخواص وكل عمليات العقل بأنواعها، سواء التي بممارسة التصور أو الفكر أو البحث في الأمور في كل ما هو موحود وكل ما هو غير موحود أيضاً، واجتهد صاعداً ببساطة غير مهتم بمعرفة شيء ما. فعندما تتخلي عن كل هذه ببساطة وطهاره تاركاً الكل ومنحزراً من الكل حينئذ تُحصل على شعاع اسودين ديك العمام الإلهي.

ديوناسيوس الأريوباغي

وله أيضاً:

١٩٣ — الشرط الأساسي لكي يدرك ذلك الذي يفوق كل معرفه وكل رؤية هو أن لا نفهم ما لنا من معرفة أو تخيل مهما عبت وحينئذ يصل إلى المنظر الحقيقي والمعرفة حمة

ديوناسيوس الأريوباغي

أما النوع الثاني من الذهش:

وهو تحرر النفس كلية من ربيعة الجسد، فهو انسلاب النفس وخروجها متحررة من كل علاقة تربطها بالجسد، حتى أن الجسد يُترك مُسجى في شبه حالة موت، لا يستجيب للمؤثرات الخارجية في شيء، حتى ولا إلى قطع الأعضاء! ويكون العقل رفيق النفس في نظرها العليا. ويستمر الإنسان على هذه الحالة إلى أن تعود النفس إلى الجسد مرة أخرى. وهذه الحالة هي التي احترها القديس بولس الرسول تماماً عندما اختطف إلى السماء الثالثة وعاد مرة أخرى وهو متحير هل كان في الجسد أم خارج الجسد؟

و يقول في ذلك القديس أوغسطينوس:

١٩٤ — عند الوقوع في درجة الذهش الروحي الكامل يفقد الإنسان كل مشاعر الجسد، ويُحمل إلى الله، ثم يعود إلى حاله الأولى.

١٩٥ — النفس تكون مخطوفة ومتحلية عن الخواص الجسدية بدرجة أكثر مما هو في حالة اليوم الطبيعي، ولكن أقل طبعاً مما هو في حالة الموت.

١٩٦ — إن ذلك الاستعلان الفائق مُنح لبعض الرجال القديسين، وهم لم يموتوا بالمعنى الكامل حتى يصح أن يُقال إنها جثث تستوجب الدفن.

أوغسطينوس

في هذه الأقوال التي للقديس أوغسطينوس، يقلل من المغالاة في القول إن الجسد يكون في حالة موت كامل، أي أن تكون النفس — وهي مصدر الحياة — قد فارقت نهائياً، ولكنه يرى أن الجسد إنما يكون في حالة حياة كما في قوله عن رؤيا بولس الرسول: «بظريفة ما، كان الجسد حياً».

و يورد الأب يوحنا كاسيان اختباراً عملياً في هذا الموضوع هو طريفة لغافة، وقد سمعه من أحد آباء البرية واسمه «يوحنا» أيضاً:

١٩٧ — بنعمة الله الصالحة أذكر أني كنت غالباً أمتك في حالة ذهول لا أعني فيها هل كنت في الجسد؟ تقطع نفسي فجأة من كل المناظر الخارجية وتقطع من الأشياء المادية على وجه العموم، حتى أنه لا عيني ولا أدبي كائناتا تقومان بعملهما العادي. ونفسي تمتلئ بالهديد الإلهي والتأملات الروحية، حتى ألي، غالياً، ما كنت أعني وأنا في وقت المساء هل تناولت طعام يومي أم لا، وأحياناً يُمسي عليّ اليوم فلا أذكر هل كسرت صيامي في الأمس أم لا.

الأب يوحنا (عن مناظرات يوحنا كاسيان)

١٩٨ — إنه في الليلة التي أسهر فيها من العشاء إلى الصباح وبعد ذلك أستريح قليلاً، أقوم من النوم وأكمل نهاري كمثّل من هوليس في هذا العالم، ولا يصعد على قلبي أي فكر أرضي، ولا أحتاج إلى تكميل قوانين الصلاة المفروضة، لأني أضل نهاري كله ثباتاً في الدهش.

مار إسحق السرياني

١٩٩ — حينما تنفوي النفس وتبلغ أشدّها في الإحتراس واليقظة وهي سائرة في طريق البحث عن الحق، فإن عامل التصور والتخيل لا يقوى على خداعها، فهي تزدرى حينئذ بكل التصورات التي ترد عليها، لأنها كما سقطت هذه الصور والمرثيات عن مستواها، فهي تجهد، لكي تدون هذه المرثيات وتخيلاتها ترتفع فوق داتها. فبعد أن كانت في حالة معيبة مبعثرة مشردة بين الكل، تكثّر لتجمع نفسها إلى واحد حتى إذا أمكها أن تغلب وتسود بالقوة العظيمة التي بالحلب حينئذ تستطيع أن تتأمل في الكائن الواحد غير الهويولي.

غريغوريوس الكبير

٢٠٠ — والذي يؤهل هذه الناوريا يكون في أنثائها كجثة لا نفس فيها وهذا ما ندعوه

بالنظرة.

مار إسحق السرياني

٢٠١ — لا يكون هناك ضعف بشري ولا يكون هناك صلاة أو سؤال أو طلب أو أفكار أو حركات، ولا حياة بشرية متحركة ولا ذكر شيء مما هنا ولا من المزمعات، بل يكون متحداً مع الله الذي يتكلم فيه، وهو يعرف في ذاته أنه ابن الله، ومثل الابن يتكلم مع أبيه بدالة، ويصير حينذاك ليس كمن يصلي، بل كمن يقبل الصلاة ويستجيب لكل الأسئلة من كثر ليس هو المتسلط عليه بل من غنى أبيه... آه للسر الذي لا يُفسَّر، ولا يُمَيَّن أيضاً تقدر أن تظهر مرادي بالكتابة!! ليت الصانع لذات السر هو بنفسه يفسره لكم. فالإنسان الذي وصل إلى هذه الدرجة لا يصلي عمن طلبوا منه الصلاة، بل الرحمة فقط تتحرك فيه بالشفقة قبالة كل المحتاجين، والروح الذي فيه المتحد به هو الذي يشفي أوجاعهم ويتم حاجاتهم!!

في ذلك الوقت الذي تكون فيه الموهبة فقالة في داخل الإنسان، لو كانت كل الخليقة أصواتاً واضطرابات لا تقدر أن تجعله يعرف ذاته أو يعود من ذهوله وذهشه، حتى أن جميع ما يتكلم به ذلك الإنسان يكون كأن الله يتكلم وكل مخلوق بطبعه، لأنه ليس هو المتكلم بل الله الحال فيه، الذي له المجد إلى الأبد آمين.

الشيخ الروحاني

٢٠٢ — حينما تستنير النفس حينئذ يرتفع الكل من قدام وجهها وتصير هي لذاتها كأنها غير موجودة إذ تكون متحدة مع الله بغير إدراك. في هذا الحين تصمت الحواس بدون أي فعل و يقف الضمير أيضاً بلا حركة، إذ تكون النفس قد جازت إلى عالم آخر ليس هو عالم الحس والحركات، تستنير هناك بدهش وعجب.

هناك تحيا النفس بالحب مع سكان ذلك العالم وتكون بينهم كضيف غير مقيم، تتحدث معهم ولكس بدغة غير مدركة للعقل، إذ لا يكون للسان الجسداني نصيب في تركيب حروفها، فلا يستطيع العقل أن يستذكرها، ولا اللسان أن يسترجمها، ولا القلب حتى أن يتصورها.

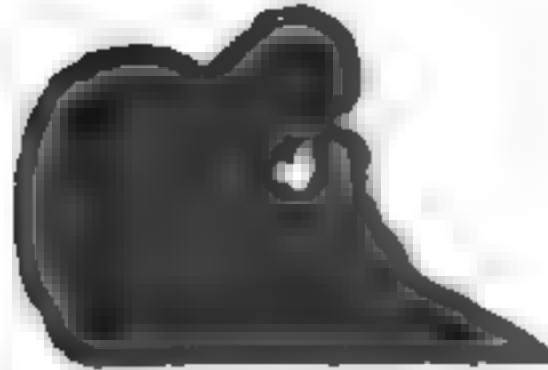
الشيخ الروحاني

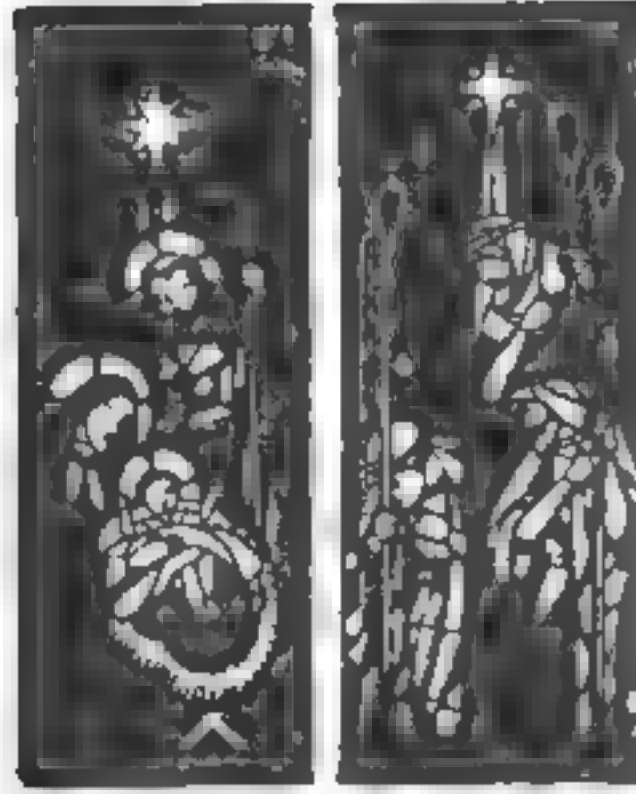
وهكذا نرى أن بعض القديسين يرون أن في حالة الدهش الذي يكون بخروج النفس وطوافها في الأماكن العليا، إما أن يكون الجسد ملقى في حالة موت، أي أن يكون خالياً من فاعلية النفس لخروجها منه؛ أو أن يكون الجسد في حالة بين النوم والموت، وإن كانت أشد من النوم ركوداً، ولكن تكون النفس فيه بطريقة ما.

ونختم بحثنا في هذا النوع من الدهش بقول للقديس أوغسطينوس الذي يميل إلى الرأي الأول:

٢٠٣ — إذا لم يكر الإنسان ميتاً عن هذه الحياة بأي شكل كان — سواء كان قد فارق الجسد نهائياً أو كان قد تخلص منه وهجر حواسه المادية حتى إنه يكون غير مدرك أفي الجسد هو أم خارج الجسد — فهو لا يستطيع أن يصل إلى المرتبة العالية حيث يكون هناك الله في سر بلا واسطة.

أوغسطينوس





ثَانِيًا: رُؤْيَا اللَّهِ

*Αποκάλυψις

*Ορασις

*Οπτασία

+ «لأنه تشدد كأنه يرى من لا يُرى.» (عب ١١: ٢٧)

+ «فإني آتٍ إلى مناظر الرب وإعلاناته...» (٢ كو ١٢: ١)

+ «ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف...» (٢ كو ٣: ١٨)

+ «ها أنا أبطر السموات مفتوحة وابن الإنسان قائماً عن يمين الله.»

(أع ٧: ٥٦)

الرؤيا هنا ليست رؤية العين الجسدية لشيء منظور، ولكنها رؤية المعرفة، حيث الرؤيا تكون بكل طاقات المعرفة وأعماقها، بالعقل والقلب والنفوس والروح وكل المشاعر. وحيث المعرفة هي التعرف على شخص الله بكل ما يتعلق بالمعرفة من إدراك وحب وثقة وصلة.

فالإنسان مدعو لرؤية الله، بمعنى أن يتعرف عليه بأقصى ما يمكن من إمكانياته وبأقصى ما يمكن أن تحتمله المعرفة البشرية من حب واتصال.

ولكن يلزم أن نوضح من البداية أن رؤية الله لا تعني الإحاطة بالله، رؤية الله من حيث التعرف عليه ممكنة، ولكن من حيث الإحاطة به فهي غير ممكنة قطعاً. فالله في ذاته مُدرك كامل يُدرك ولكن لا يُدرك كماله!

لذلك فالإنسان مدعو لرؤية الله، أي للتعرف عليه على قدر إمكانيته واتساع مُدركات نفسه وعقله وروحه، وليس على قدر اتساع الله، لأن الله غير متناه في اتساع كمالاته.

ولكن ليس معنى هذا أن الله يُدرك جزئياً، فالله ليس فيه جزء وكل، بل هو واحد بسيط وكل كامل، وبساطته غير محدودة غير متناهية.

ولكن ضعف إدراك الإنسان وانقسام معرفته، بسبب التعدي وغشاوة ظلمة الخطيئة التي أضعفت جداً من وضوح الرؤيا الداخلية للحق، جعل الإنسان لا يرى الله كما هو في بساطته الكاملة. فالإنسان يستعلن الله ويتعرف عليه بقدر طهارته وحيه وطاعته واتضاعه، وكلما نمي الإنسان في هذه الصفات اتسع مجال رؤيته لله وظهر الله له أكثر كمالاً.

أي أن رؤية الله تتعلق دائماً بإمكانيته الإنسان الداخلية التي تؤهله لكشف الله بنسبة متوازنة من القداسة: «القداسة التي بدوها لن يرى أحد الرب.» (عب ١٢: ١٤)

إذن فطالما نحن غير كاملين في القداسة، فلن نرى الله على حقيقته «كما هو»، بمعنى أن الذي لم يكمل في طهارته وطاعته وحيه واتضاعه فإنه يظل عاجزاً عن رؤية الله في بساطته

الكاملة، فيراه قاسياً أحياناً و يراه رحيماً أحياناً أخرى، تارةً يطمئن إلى محبته الشديدة وتارةً أخرى يجزع من عدله، مرة يدرك عمق حكمته وعنايته الفائقة بالخلقة ومرة يشك في هذه العناية و يدينها.

وهكذا يظل الإنسان من جهته عاجزاً عن تكوين رؤية كاملة لله « كما هو» إلى أن يبلغ القداسة التي تؤهله للرؤيا الكاملة، والقديس يوحنا الرسول يخبرنا في رسالته الأولى أننا لن نبلغ هذه القداسة الكاملة إلا بظهور الرب نفسه: «ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو.» (١ يوحنا ٣: ٢)

ولكن نعود ونقول إن ظهور الله ليس معناه رؤية شكله أو صورته بالعين الجسدية، ولكن رؤية صفاته وأعماله وفهم حكمته ومعرفة محبته الفائقة المعرفة! هذه الرؤية لا يمكن أن تتضح لنا الآن تماماً في هذه الحياة بسبب فساد طبيعتنا. ولكن هذا الفساد ليس كلياً، لذلك يتبقى لنا دائماً فرصة جزئية لمعرفة الله، هذا بالإضافة إلى وجود إمكانية جزئية أخرى في صميم كياننا جُعِلت للتغلب على فساد طبيعتنا وهي التي تسمح لنا بالنمو في معرفة الله.

وهاتان الفرستان، فرصة بقاء طبيعتنا تحمل شيئاً من عدم الفساد، وفرصة وجود إمكانية متبقية في صميم كياننا يمكن أن تغلب بها عوامل الفساد، هاتان الفرستان هما اللتان تفتحان أمامنا مجال الإيمان بالله. «الذي وإن لم تروه تحبونه. ذلك وإن كنتم لا ترونه الآن لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا يُنطق به ومجيد.» (١ بطرس ١: ٨)

إذن، فالإيمان في حقيقته نوع من الرؤيا ولكنها غير واضحة، أو هو رؤيا جزئية لأنها رؤية غير مفهومة تماماً بسبب انقسام معرفتنا «لأننا نعلم بعض العلم ونتنأ بعض التنبؤ... فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز.» (١ كورنثوس ١٣: ٩ و ١٢)

وهذا أمر حقيقي وواقعي، فالإنسان الآن مهما بلغ إيمانه يظل يسأل لماذا عمل الله هكذا ولماذا لم يعمل هكذا، وتبدو أمور كثيرة أمامه غير مفهومة وغير معروفة تشوبها ظلمة عقلية، ولكن بالإيمان يتخطى عدم المعرفة، وبالإيمان يتجاوز الانقسام في المعرفة، وبالإيمان يتخطى الظلمة العقلية. لذلك، فبالرغم من أن الإيمان رؤيا لله ناقصة وغير مفهومة تماماً، إلا أن جزاءها يساوي الرؤية الواضحة تماماً، وهي بالفعل تمهد لها، فبالإيمان ننال منذ الآن قوة القيامة التي فيها سنرى الله وجهاً لوجه:

— «فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز لكن حينئذ وجهاً لوجه، الآن أعرف بعض المعرفة

لكن حينئذ سأعرف كما عرفت (أي سأعرف الله كما يعرفني الله) أما الآن فيثبت الإيمان...» (١ كور ١٣: ١٢ و ١٣)

ولكن هنا يتبادر سؤال: هل من هذا يفهم أنه يستحيل على الإنسان أن يرى الله رؤية واضحة أي أن يعرفه معرفة كاملة في هذا الدهر؟

ولكي نجيب على هذا السؤال، يلزمنا أن نفحصه فحوصاً روحياً مطلقاً، فنقول إن رؤية الله رؤية واضحة تعتمد كما قلنا اعتماداً أساسياً و كلياً على قداسة الإنسان. فإذا بلغ الإنسان قداسة كاملة، بمعنى أنه إذا تخلص من فساد طبيعته تخلصاً كاملاً حينئذ سوف يرى الله حتماً رؤية واضحة كما هو. وبذلك يتحول السؤال إلى سؤال آخر هو: وهل يمكن للإنسان الآن في هذا الدهر أن يبلغ إلى حالة قداسة كاملة أي يلبس تجديداً كاملاً لطبيعته؟

وللإجابة على هذا السؤال يلزمنا أن نعلم علم اليقين أن هذا هو جوهر المسيحية بالدرجة الأولى، فالمسيح جاء وبذل جسده وسفك دمه، وأعطانا أن نتحد به بسر الإيمان وعمل الروح القدس، حتى نبلغ بواسطته إلى القداسة الكاملة التي تؤهلنا، ليس فقط لرؤية الله، بل وللإتحاد به والحياة معه أيضاً... «قد اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.» (١ كور ٦: ١١)

إذن، فبسر الإيمان بالمسيح وعمل الروح القدس المنسكب على طبيعتنا ننال تقديساً نؤهل به لرؤية الله أي معرفته معرفة صميمية، معرفة اتحاد وشركة: «لكي تتغذى قلوبهم مقتزنة في المحبة لكل غنى يقين الفهم لمعرفة سر الله الآب والمسيح.» (٢ كور ٢: ٢)

ولكن لأن التقديس والإغتسال والتبرير، التي هي عوامل الرؤيا الأساسية، قد ارتبطت كلها بالإيمان، والإيمان بطبيعته ينقص ويزيد و يسمو ويتوقف بسبب ارتباطه بطبيعة الإنسان المتغيرة والقابلة للنمو والتغير، صارت رؤية الله (معرفته) قابلة بالتالي إلى التغير والنمو.

فالإنسان بقدر نموه في الإيمان بالله وبقدر ثقته فيه واعتماده عليه وحببه له ينمو في رؤيته لله!

فهل يمكن أن ينمو الإيمان إلى درجة كاملة يبلغ بها الإنسان إلى حالة القداسة الكاملة،

فيرى الله رؤية واضحة في هذا الدهر؟

هذا الأمر من الوجهة النظرية ممكن لأنه حق وواجب: «إن آمنتَ ترين مجد الله» (يو: ١٦: ٤٠). ولكن من الوجهة العملية مستحيل بسبب تدخل حواس الإنسان وعقله المبنية على الإنقسام والشك والفحص التي تتدخل في الرؤيا فتفسد المعرفة وتقلل من وضوحها، وقد تلغىها بالشك: «يا سيد قد أُنْتِنَ لأن له أربعة أيام (في القبر)». (يو: ١٦: ٣٩)

إذن، فطبيعة الإنسان مهما تجددت في هذا الدهر يظل فيها شيء من عنصر الفساد ممثلاً في الحواس الجسدية والعقل، وكلاهما يمنع الرؤية الواضحة لله، ولن يزيل هذا العنصر الفاسد المتبقي إلا القبر، ثم القيامة. لذلك، فن جهة الإنسان وطبيعته وإمكانياته يستحيل عليه أن يرى الله في هذا الدهر رؤية واضحة.

ولكن هل من جهة الله يستحيل عليه أن يُظهر ذاته للإنسان؟؟

والجواب المنطقي بحسب اليقين اللاهوتي هو أن الله لا يستحيل عليه شيء!!

إذن، فالله قادر أن يُظهر ذاته للإنسان، وقد أكمل ذلك بصورة فائقة في سر التجسد الإلهي الذي وهب للإنسان بمقتضاه سر رؤية الله وذلك بتوسط المسيح الذي يتكفل بإزالة كل العوائق الفاسدة من طبيعة الإنسان عند لحظة ظهوره، وذلك بإبطال كل النشاط السلبي من الحواس والعقل وتطهيره تطهيراً كاملاً بقوة تقديسية فائقة تجعل الإنسان بمثابة خليقة جديدة متجلية في مجال قداسة الله، وحينئذ يرى الإنسان المتجلي الله رؤية واضحة كما هو: «أَلَسْتُ أَنَا حَرّاً؟... أَمَا رَأَيْتُ يَسُوعَ الْمَسِيحَ؟» (١ كو: ١٣: ١)

وبذلك يصبح هنا في هذا الدهر طريق جديد للرؤيا الواضحة، ليس بالإيمان البشري وإنما بالاستعلان الإلهي. حيث إظهار الله لنفسه بحسب مسرة مشيئته المطلقة يكون هو الوسيلة الوحيدة لرفع كل عوائق الرؤيا الواضحة، والتي يبلغ فيها الإنسان تقديساً كاملاً بالرؤية نفسها. غير أنها رؤية مؤقتة لا يبقى تأثيرها مستمراً تمييزاً عن الرؤيا الواضحة التي ستكون في الحياة الأخرى التي تكمل بالاتحاد الدائم.

هذا المبدأ اللاهوتي العملي بخصوص ظهور الرب وتقديسه للإنسان نراه واضحاً غاية الوضوح في تعليم القديس أنطونيوس في قوله:

٢٠٤ - وإذا كان يصنع العجائب والأشفية كان يأمرهم أن لا يُعلموا أحداً، وكان هذا تواضعاً منه لأجساد، ولم يكن تركه للإفتخار خوفاً من الإفتخار، كلا! لأنه كان قادراً أن يُظهر قوة لاهوته في أي وقت أراد، بل كان ذلك منه ليُعلمنا، حتى إذا نظرنا الرب نظل نحفظ مسكنتنا وضعفنا ونتواضع. لأنه ظاهر أنه لا يمكن لأحد أن يتضع اتضاعاً حقيقياً من قده إلا من قد نظرت نفسه الرب.

ومذكور عن الآباء الأطهار الذين جاهدوا، أنهم تواضعوا بالأكثر لما نظروا الرب، فأيوب رأى الرب في السحابة وتكلم، فافتحت عينا قلبه ونظر الرب، فعُدَّ نفسه تراباً ورماداً وندم على كل ما قاله سابقاً.

وإشعياء النبي بما كان يبكت الشعب على خطاياهم، لما رأى الرب أظهر تواضعه في الحال وقال: «ويل لي لأني إنسان خاطيء ونجس الشفتين».

وتلاميذ الرب الذين كانوا يأكلون ويشربون مع الرب لم يخافوا عند مفاوضته، ولكن لما تجلى على حل تابور أمامهم تغير شكله فسقطوا على وجوههم وعرفوا مسكنتهم وضعفهم.

ونحن عندنا شهادات كثيرة تثبت أن سبب كثرة تواضع القديسين هو ما نظروه من مجد الرب. فالإتضاع الحقيقي يكون للنفس في هذا العالم عند نظرها من البعد المجد المزمع أن تناله.

أنبا أنطونيوس (الرسالة السادسة عشر)

٢٠٥ - ولما نظر بولس الرسول الرب يسوع حصل له الكمال. وهو أولاً انعتق من الشر ثم لم يتعبد لشيء من الشهوات إذ صار ناسكاً، وفي الآخر تحرر بسبب نظره الرب يسوع المسيح. فعندما نظره، للوقت تبع أقواله بلا تأخير وصار في غاية الكمال والإتضاع. وهكذا كل الذين يتمسكون بأقوال الرب، فإنهم يعرفون الحق والحق يصيرهم أحراراً ويعتق نفوسهم من كل شر، كما صار لبولس الرسول الذي صار حراً لما ظهر له مخلصاً، لذلك يقول عن نفسه: أفلسْتُ أنا حراً؟ أما رأيتُ الرب؟

أنبا أنطونيوس (الرسالة السابعة عشر)

والآن أصبح من الممكن هنا أن نوضح الفارق الكبير بين مفهوم رؤية الرب ومفهوم ظهور الرب. فرؤية الرب تفيد ما يستجلبه الإنسان من الصفات الإلهية على حسب إمكانياته وقداسته. وهذا المعنى يستحيل على الإنسان الوصول إلى رؤية كاملة عن الله.

أما ظهور الرب فيعني إعلان الرب لنفسه أي تجليه للإنسان على حسب كثرة محبته ورحمته ومسرة مشيئته، وفي هذا الإعلان يكشف الله أعماق نفسه للإنسان، ويتكفل هو بتقديس الإنسان ومنحه كل القوة التي بها يطلع على مجد الله: «الروح يفحص كل شيء

حتى أعماق الله. » (١ كو ٢: ١٠)

وهذا التفریق الأساسي بين الرؤية الناتجة عن السعي والتقديس، والرؤية الناتجة عن ظهور الرب محاناً، يتضح لنا شرح الفارق بين الآيات التي وردت في العهد القديم وفي العهد الجديد على السواء لتؤكد، مرة عدم إمكانية رؤية الرب، ومرة أخرى إمكانية رؤيته.

فأولاً: نجد الله يقول لموسى: «إن الإنسان لا يراني ويعيش» (خر ٣٣: ٢٠)، والروح يقول: «الله لم يره أحد قط» (يو ١: ١٨). وبولس الرسول يقول: «أوصيك... أن تحفظ الوصية بلا دنس ولا لوم إلى ظهور ربنا يسوع المسيح الذي سيبيته في أوقاته، المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب الذي وحده له عدم الموت ساكناً في نور لا يُدنى منه، الذي لم يره أحد من الساس ولا يقدر أن يراه، الذي له الكرامة والقدرة الأبدية آمين.» (١ تي ٦: ١٤-١٦)

وثانياً: نجد في نفس الوقت الآيات التي تثبت أن الله أظهر ذاته بالفعل لموسى وإشعيا وأيوب وغيرهم في العهد القديم. أما في العهد الجديد فقد «رآه كل بشر» (١ش ٤٠: ٥؛ لو ٦: ٣) على حد النبوة، «فالحياة الأبدية أظهرت» (١ يو ١: ٢) كقول القديس يوحنا، والمسيح يقول: «من رأي فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩)، ووعد أيضاً بقوله: «من أحبني أحبه وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١)، والقديس بولس الرسول يقول إن: «الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله.» (١ كو ٢: ١٠)

ومن هذا يتضح أن الأمر الذي كان مستحيلاً على الإنسان بالجهد أو الاستحقاق وهو رؤية الرب، صار ممكناً بظهور الرب كفعل محبة وعمل نعمة مجاني؛ ولا يزال هذا قائماً حتى الآن، فمحاولة رؤية الرب أمر مستحيل على الإنسان إلا بالقدر الضئيل الذي يتناسب مع طهارة الإنسان وحبه وطاعته لوصاياه، أما ظهور الرب فيعطى للإنسان بدون قيد ولا شرط ولا جهد ولا استحقاق، إذ يمنح الرب القدرة والقداسة للإنسان التي يرى بها الله كما هو أي كما يشاء الله أن يعلن نفسه.

وهذه الحقيقة واضحة غاية الوضوح في قول الرب نفسه «كل شيء قد دُفع إليّ من أبي وليس أحد يعرف من هو الابن إلا الآب ولا من هو الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن *ἀποκαλύψας* له» (لو ١٠: ٢٢) حيث كلمة «يعين» هنا بمعنى «يظهر بالرؤيا».

ومن قول الرب هذا، يتضح أن إعلان أو رؤية الآب والإبن أي معرفة الصفات الجوهرية لله معرفة جوهرية مرتبطة حتماً وبالضرورة القصوى بمشيئة يسوع المسيح وبتوسطه، حيث الإعلان هنا هو لرؤيا التي تؤدي إلى المعرفة الواضحة بالظهور والإستعلان الحقيقي التي بها يدرك الإنسان الحق الذي في الله، فيبلغ مسهى السعادة إذ يصح في صميم حياة الشركة مع الله.



ولأهمية موضوع الرؤيا، يحسن بنا أن نعود إلى آباء الكنيسة اللاهوتيين الأوائل لنتبع أفكارهم واختباراتهم وتعبيراتهم عن حياة الرؤية في المسيحية باعتبارها التعبير المباشر عن الخبرة الإيمانية وفعالية التجسد، وقد اخترنا ثلاثة لاهوتيين ممن تمسكوا بالإنجيل والتقليد الأبائي تمسكاً لا انحراف فيه:

(١) ثيوفيلس الأنطاكي:

كتب هذا الأب الفديس رسالة إلى أحد الوثنيين حوالي عام ١٧٨ م يوضح له فيها معنى رؤية الله، رداً على تحديه إن كان يستطيع أن يريه الله الذي هو إله المسيحيين:

٢٠٦ — قل أن أريك إلهاً أرى أنت إنسانك وأعطي الرهان على أن عيني نفسك تستطيع أن ترى وأذن قلبك تستطيع أن تسمع، لأنه لا يستطيع أحد أن يري الله إلا من كانت عيون نفسه مفتوحة. أما الذين انطمست عيونهم بجواهر وسدود الخطيئة فإنهم لا يرون الله. فهل يمكن وصف الله للذين لا يستطيعون أن يروه؟

فهئية الله لا توصف بالكلام ولا يمكن شرحها لأنها غير منظورة بطبيعتها للعين الجسدية... فإذا حلت طبعتك التي فسدت، وإذا لست بغير الفساد، حينئذ ترى الله على قدر استحقاقك، لأن الله سيُحيي حسدك ويجعله مع نفسك عديم الموت، وعندما تصبح عديم الموت حينئذ ترى الله الذي له عدم الموت، هذا إن كنت تؤمن به الآن. (١)

وقول ثيوفيلس الأنطاكي هنا إمتداد لقول القديس بولس الرسول عن الله: «الذي وحده له عدم الموت ساكناً في نور لا يُدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» (١: ٦: ١٦). وهو يفصح بهذا عن الرؤية الأخروية التي سوف يُؤهل الإنسان لها عندما يلبس عدم الفساد أو عدم الموت، صائراً بذلك على مستوى طبيعة الله «الذي وحده له

عدم الموت». و يلاحظ هنا صفة عدم الموت التي هي صفة الله وحده، التي سيلبسها الإنسان مجرد لئس، في حين أنها هي من طبيعة الله وجوهه.

أي أن الرؤية الحقيقية لله لا يمكن أن تتم إلا إذا بلغ الإنسان إلى درجة عدم الفساد، أي عدم الموت، ليس من جهة النفس فقط بل ومن جهة الجسد أيضاً بالقيامة. لأن الرؤية لا تكمل بالنسبة للإنسان إلا ككل، أي بالنفس والجسد معاً، حيث لا يكون هناك تنازع أو تناقض بين العقل الصافي والحواس الجسدية.

ولكن يعود ثيوفيلس الأنطاكي و يوضح إمكانية التعرف على الله والإمساك بجلال مجده الآن في هذه الحياة كتمهيد للرؤية الكاملة الأخروية، فيقول:

٢٠٧ — إن كل شيء قد خلق من لا شيء، حتى أن جلال مجد الله أمكن إدراكه والإمساك به بواسطة العقل من خلال أعماله — في الخليقة... كالنفس البشرية التي تحيي الجسد والتي بالرغم من كونها غير منظورة صارت مدركة في حركات الجسد وأعماله! هكذا الله الذي خلق كل شيء «بالكلمة والحكمة» أصبح يمكن إدراكه من خلال تدبير عنايته ومن أعماله.

وقول ثيوفيلس الأنطاكي هنا هو امتداد لقول القديس بولس الرسول: «إذ معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم، لأن أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته حتى أنهم بلا عذر.» (روا: ١٩ و ٢٠)

ثم يمتد ثيوفيلس الأنطاكي لكي يكون صورة حية ذهنية عن الله من أعماله في الخليقة، كتطبيق عملي لقول القديس بولس الرسول، فيقول:

٢٠٨ — ولو أن هيئة الله لا توصف بالكلام ولا يمكن شرحها لأنها غير منظورة بطبيعتها للعين الجسدية غير أننا حينما نقول إنه «نور»، فأنا أعبر عن انبعاثه.

وحيثما نقول إنه «كلمة»، فأنا أعبر عن وجوده الذاتي كأصل لكل وجود آخر.

وحيثما نقول إنه «العقل»، فأنا أعبر عن قوة الروح ومعرفة الحق والحكمة المدبرة.

وحيثما نقول إنه «روح»، فأنا أعبر عن أنفاسه المحيية.

وحيثما نقول إنه «الحكمة»، فأنا أعبر عن بنوته الذاتية.

وحيثما نقول إنه «قوة»، فأنا أعبر عن استطاعته بالفعل والقوة معاً.

وحيثما نقول إنه «العناية»، فأنا أعبر عن صلاحه أي (إحاطته العامة والخاصة وتوجيهه الفعال

ورسم غاية لكل شيء).

وحيثما نقول إنه «الملكوت»، فأنا أعبر عن مجده وجلاله.

وحيثما نقول إنه «الرب (السيد)»، فأنا أعبر عن طبيعته كحاكم وهذا تعبيراً عن عدله.
وحيثما نقول إنه «الآب»، فأنا أعبر عن طبيعته كعلة عامة لكل شيء.
وحيثما نقول إنه «تار» فأنا أعبر عن غضبه.

وهكذا فإن الله الذي خلق كل شيء «بالكمة والحكمة» يمكن أن يُدرك من خلال تدبير عاينته ومن أعماله.

ثيوفيلس الأنطاكي

وهذا يقدم لنا ثيوفيلس الأنطاكي محتويات الرؤية الحاضرة المناسبة لحياة هذا الدهر، كاشفاً عن صفات الله التي يتحتم علينا التعرف عليها من خلال أعماله في الخليقة كتمهيد حتمي للرؤية الأخروية المناسبة لحياة «عدم الموت».

فهي ولو أنها رؤية غير مباشرة الآن، إلا أنها تكشف عن صفات الله الجوهرية كآب وابن وروح قدس.

وباختصار، فإن القديس ثيوفيلس الأنطاكي يثبت قطعاً من صميم الإنجيل أن الله ولو أنه غير مُدرك الآن في ذاته مباشرة، إلا أنه يمكن أن يُدرك من أفعاله بتكافؤ الإيمان وبتدرُّج قد يصل إلى الإدراك المباشر، وكذلك الآب فبالرغم من أنه محتجب تماماً عن كل عقل وعين إلا أنه ظاهر في ابنه و بروحه القدوس كقول الإنجيل: «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر (أو هو أوضحه وشرحه) (ἐξηγήσατο)» (يو: ١٨). وكقول المسيح: «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو: ١٤: ٩). بمعنى أن أعمال المسيح وصفاته تكشف عن حقيقة الآب وطبيعته بصفته أنه هو أبوه الذي أرسله.

(٢) القديس إيرينيئوس:

وكذلك القديس إيرينيئوس يمدنا بتعاليم رسولية كتبها حوالي عام ١٩٠ م يشرح فيها معنى رؤية الله. فهو يتدبَّر تعاليمه بتوضيح إستعلان الله المتدرج بالظهورات التي أكملها الله في «الكلمة» منذ البدء، حيث يعتبر «الكلمة» أي الوجود «إستعلاناً حقيقياً للآب الذي لا يمكن أن يُرى طبيعياً».

٢٠٩ - فسيما جلال مجده ظل مخفياً تماماً وغير مُدرك إلا أنه أعلن عن نفسه بواسطة أعمال محته بواسطة الكلمة الذي به خلق كل شيء. (٢)

فالإنس هو الذي بإظهاره لنفسه أعطانا معرفة الآب، لأن معرفة الآب تكون هي نفسها بإعلان الإبن.

٢١٠ — فإن كان الآب هو ما لا يُدرَك من طبيعة الإبن فالإنس هو ما يُدرَك من طبيعة الآب! (٣)

٢١١ — الكلمة أي اللوغوس استعِن عندما تجسد وصار إنساناً. فبينما كان الإنسان قبل التجسد يُمْكِن أن يُقال عنه إنه خُلِقَ على صورة الله، إلا أنه لم يُمْكِن ممكناً توضيح ذلك وإثباته، لأن الله الوحيد الذي خلق الإنسان على صورته كان لا يزال محتفياً، هذا بالإضافة إلى أن الشبّه الحقيقي — (الذي كان يحميه لإنسان في صورته) — سرعان ما فقده. فاللوغوس بتجسده وتأسسه أعاد هذه الصورة والشبّه لأنه هو نفسه صار واحداً من الذين خلفهم على صورته، فأوضح بجلاء عظيم هذا الشبّه، عندما جعل الإنسان بواسطة اللوغوس المظور المتجسد مشابهاً تماماً للآب غير المظور. (٤)

٢١٢ — وهكذا ارتفعت الإنسانية من خلال تدبير الإبن والروح القدس إلى حياة الله. (٥)

ثم يبتدئ القديس إيرينيئوس يوضح أن استعلان الله بعد ذلك أصبح من مسئولية الإنسان بتقدمه الروحي المتدرج، محققاً في نفسه بالروح القدس هذا الشبّه الذي منحه له الله. هذا النمو والتدرج في الروح هو، في الحقيقة، يفوق قدرة الإنسان الجسدية والنفسانية والروحانية معاً، لذلك مع الله الإنسان روحه الخاص القدوس ليهب له القدرة على النمو، فيرفعه إلى مستوى حياة الله بمقتضى الصورة والشبّه المتأصلين فيه واللذين انطمسا بسبب ضعف الإنسان وخطيته.

وهكذا منح الله للإنسان، بواسطة ابنه وبواسطة روحه القدوس، أن ينمو ويتقدم بالروح حتى يبلغ إلى حياة الشركة والاتحاد مع الآب:

٢١٣ — وإذ قد ملنا الآن موعد الروح القدس نصرخ يا أبأ الآب، وهذا هو الشبّه الذي يعبر عما سيكون بالقيامة عندما نراه وجهاً لوجه، حينما تلتحم الأعضاء وتصبح جمعاً محتشداً يسبحون تسبيحة العبادة ولخلاص كرامة للذي أقامهم من الأموات وأعطاهم حياة معه إلى الأبد. (٦)

وهكذا، فإن رؤية الله عند القديس إيرينيئوس هي دائماً إستعلان من لدن الله، يكمله الله حسب مشيئته هو. فالله، في نظر إيرينيئوس، ليس موضوعاً يمكن فحصه ومعرفته، ولكنه ذات لا يمكن التعرف عليها إلا إذا أعلن هو عن ذاته وأفصح عنها. وهو إنما يكشف

(3) Against Her. IV, 6,3 – 6.

(4) Against Her. V, 16, 2.

(5) Against Her. V, 9.

(6) Against Her. V, 8, 1.

عن نفسه باختياره بسبب محبته فقط وكنوع من التنازل.

لذلك حينما يقول الله إنه «لا يمكن أن يُرى»، فإن هذا القول حق تماماً كقوله: «أظهر ذاتي». لأن المستحيل لدى الإنسان بالجهد والتصاعد، هو ممكن لدى الله بالحُب والتنازل. لذلك يقول إنه مستعد أن يُظهر ذاته لمن يحبه و يتضع بالحق. وفي هذا يقول القديس إيرينيئوس:

٢١٤ — الإنسان نفسه لا يستطيع أن يرى الله، ولكن لأن الله يريد أن يُظهر ذاته، لذلك فإنه يُرى عند الذين يختارهم في الوقت الذي يريد وبالقدر الذي يشاء. (٧)

وكأنما القديس إيرينيئوس يريد أن يقول إن الله ولو أنه لا يُرى بالطبيعة إلا أنه يُرى بالنعمة.

وعلى مدى تعاليم القديس إيرينيئوس، يتحقق عنده ثلاثة أنواع من الرؤية: الرؤية الأولى: وهي بواسطة إلهام الروح القدس، ويسمى رؤية نبوية، فيها يُستعلن شبه مجد الله.

الرؤية الثانية: وهي بواسطة يسوع المسيح، ويسمى رؤية بنوية، وهي للمختارين.

الرؤية الثالثة: رؤية الآب، وهي رؤية الوجه للوجه لحياة الملكوت.

والرؤية السبوية بالروح القدس تمهد للرؤية البنوية في المسيح، والرؤية البنوية في المسيح تُحضر الإنسان إلى رؤية كاملة للآب، والآب يهب الإنسان عدم الموت.

والإنسان في كل هذه يتحقق من أنه يرى الله بالفعل^(٨)؛ لأن هذه الرؤى الثلاث متداخلة جداً، وكلُّ منها يحتوي الآخر خلقه.

ومن هذا التعليم نرى أن القديس إيرينيئوس يتحقق من أن رؤية الآب في الملكوت تهب بحد ذاتها شركة في الحياة الأبدية، لأنها تمنح الإنسان عدم الموت!

وهنا توضيح مبدع للصلة القائمة بين الرؤية الكاملة وبين عدم الموت!

وفي هذا ينكشف معنى أن الإنسان لا يستطيع أن يرى وجه الله ويعيش (خر ٣٣: ٢٠).

(7) Against Her IV, 20, 5

(8) Against Her IV, 20, 3.

أي لا بد أن الإنسان الخاطيء يموت أولاً ليتحول الفاسد إلى عدم فساد، حتى يستطيع أن يرى وجه الله ويعيش إلى الأبد.

فوجه الله الذي كان لا يمكن أن يراه الإنسان بدون موت يصير في الدهر الآتي وبالقيامة من الأموات منبع حياة أبدية. وفي هذا يقول القديس إيرينيئوس:
٢١٥ — لأن الناس حينئذ سيرون الله لكي يعيشوا، إذ يصيرون بواسطة الرؤية غير مائتين ومتقدمين دائماً أبداً في الطريق نحو الله.

٢١٦ — إنه يستحيل أن يحيا بدون حياة والحياة تنبثق من الله، فلكني نعيش بنزيم أن نتصل بالله،
والإتصال بالله إنما يتم بمعرفة أي رؤيته وبتقبل صلاحه.^(٩)

لذلك يعود القديس إيرينيئوس ويعرج على هذه الحياة الحاضرة و يعتبرها شركة جزئية مع الله، أي رؤية جزئية اتضحت جداً بتجسد ابن الله وصارت رؤية متبادلة. فالله أعلن أو أظهر نفسه بتجسد «الكلمة» أي المسيح، والكلمة أي المسيح بدوره أعلن الإنسان وأظهره وقدمه لله!^(١٠) هذه هي الرؤية الصميمية المتبادلة بين الإنسان والله التي تمت جوهرياً بالتجسد وفي التجسد، والتي لما مُنحت للبشرية بواسطة المسيح من خلال جسده «من يأكلني يحيا بي» (يو: ٦: ٥٧)، انفتح أمامنا مجال الرؤية المحيية رؤية الشركة الفعلية مع الآب بالإبن وبالروح القدس.

٢١٧ — وهكذا أصبح أي إنسان حي (حياة أبدية) هو استعلان لمجد الله، وأصحت الحياة (الأبدية) في الإنسان هي رؤية الله. فإذا كان من نتيجة استعلان الله في الخليقة — كعلة — منخ الحياة (الزمنية) لكن خليقة على الأرض، هكذا بالأكثر جداً يكون استعلان الآب بواسطة الكلمة (اللوغوس) فإنه يوصل الحياة الأبدية لكل من يستعلن الله الآب ويراه.^(١١)

وحجر الزاوية الذي يستند عليه القديس إيرينيئوس للرؤية الكاملة، هو تجلي المسيح على جبل تابور. فهو يعتبر أن مشيئة المسيح في إعلان مجده بالرؤية الواضحة على جبل التجلي، هي في الحقيقة تُعبر عن مشيئة الله في اشتراك الإنسان في نور الله غير المنظور الذي سُمِّنَح للإنسان بصورة دائمة بعد ذلك، ليجمعه غير قابل للموت وبالتالي حياً إلى الأبد، وفي ذلك يقول:

٢١٨ — أن يرى الإنسان النور، هو أن يكون قائماً في النور ومشاركاً في بهائه، هكذا كل من يرى

(9) Against Her III, 20, 5. (10) Against Her V, 20, 7. (11) Against Her. IV, 20, 7.

الله فإنه يصبح قائماً فيه ومشاركاً في حياته الممجّدة. لذلك فكل من يرى الله يشترك في حياته. (١٢)
والقديس إيرينيئوس يعتبر الرؤية معرفة لله ممتدة إلى ما لا نهاية، حتى في الحياة الأبدية:

٢١٩ — وحتى في الدهر الآتي سيكون الله دائماً معلماً والإنسان دائماً متعلماً منه. (١٣)

وباختصار، فإن القديس إيرينيئوس يعتبر رؤية الله حتمية وواقعية بالنسبة للإنسان سواء كان الآن أو في الدهر الآتي، أما الآن فبالإيمان كشركة جزئية، فيها نرى الله غير المنظور وغير المدرك في نور يسوع المسيح الواهب القيامة والحياة الأبدية.

فرؤية يسوع المسيح الآن هي في الواقع رؤية محيية تلبس الإنسان إمكانية عدم الموت، وبذلك فهي تمهد تمهيداً حتمياً لرؤية الآب التي هي بعينها الحياة الأبدية أو عدم الموت!

(٣) القديس كيرلس الإسكندري الممثل الحقيقي للاهوت الإسكندري:

من بعد آباء القرن الثاني دخلت الكنيسة في حوار خطر مع الغنوسية ومع الفلسفة اليونانية، وكلاهما كان يعتمد على العقل في البحث عن الله والحقيقة، وقد انبرى لها لاهوتيو الإسكندرية وأبرزهم كليمنندس وأوريجانوس اللذان استطاعا بالفعل أن يكسرا شوكتيهما، ولكن لم يكن ذلك بدون ثمن، فقد أدخلوا في حوارهما ودفاعهما أصول الغنوسية والفلسفة اليونانية مع كثير من مصطلحاتها، بل واقتبسوا ذات المناهج التأملية التي استخدمها أفلاطون.

وكان نصيب الحياة التأملية في التلوث بالقيم الغنوسية والنظرات الفلسفية الأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة قدراً كبيراً جداً، مما صار عبئاً ثقيلاً على الروح النسكية الآبائية البسيطة الأولى.

وإن كان ليس هنا مجال لكي نشرح بالتفصيل المبادئ والمناهج الأوريجانية في الحياة التأملية ومقدار الهوة الكبيرة التي تفصلها عن الروح الإنجيلية البسيطة، فيكفي أن نبصر القارئ بالأثر الذي تركه كل من كليمنندس وأوريجانوس، هذا الأثر الذي لم يقتصر على مناهجها والذي لم يقتصر على مدرسة الإسكندرية في ذلك الزمن بل تعداه إلى أقصاء الأرض. فالذين تأثروا بأوريجانوس بل والذين تتلمذوا له بأمانة جنونية هم من أبرز لاهوتيين

(12) Against Her. IV, 2, 5.

(13) Against Her. II, 28, 2 – 3.

العالم. وهنا يجزئ القلم من أن يعدد ويردد الأسماء، ولكن الذي نحمد الله عليه أن هذه التأثيرات الغنوسية والفلسفية الهلينية على وجه العموم لم يُكتب لها النجاح في الميدان اللاهوتي، واقتصر تأثيرها على مناهج الفكر الروحي سواء النسكي أو التصوفي، وهذا بدوره تصفّى قليلاً قليلاً على مدى الزمن وإن كانت آثاره لا تزال عالقة حتى اليوم في عديد من المبادئ والمصطلحات في جميع كنائس العالم.

ولكي نعرّف القارئ في بساطة واختصار بمضمون مناهج الفكر الفلسفي والغنوسي الذي اصطبغت به تعاليم الأوريجانية، نقول إن الأوريجانية وكل المناهج التي سلكت سلوكها في الروحانيات هي تحوّل من الإيمان الواقعي الحي إلى الفلسفة الروحانية والإختباء وراء التأمّلات؛ كما يمكن وصفها بأنها تحوّل من حب نحو الله واقعي فعّال إلى حب فكري في الخيال؛ كذلك هي انتقال من شركة فعلية متألمة مع المسيح إلى تأمل هذه الشركة والتلذذ العقلي بها.

والأوريجانية أيضاً تضع مناهج عقلية وخططاً نسكية للوصول بالاجتهاد إلى الله، وكأنما الله نقطة نشبتها نحس على الخريطة الروحانية ونبتدىء نتحرك نحوها بعقلنا ونسكنها حتى نبغها.

وللرد على كل المناهج العقلية والفلسفية يكفي أن نقول إن المسيح لم يكن فيلسوفاً ولم يعتمد على العقل أو المنطق لا في محبته ولا في بذله لذاته. وهو لا يُستعلن للعقل كموضوع أو نظرية أو فكرة نصل إليها باجتهادنا، ولكنه يُستعلن للقلب كقوة فعالة مجددة، وكحب كبير فاد، وكحياة أبدية مبهجة، فهو القائل: «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله» (مت ٥: ٨). على أن المسيح هو الذي يأتي إلينا عندما نحبه، ويستحيل أن نقرب إليه باجتهادنا.



ولقد أشرق على الكنيسة بظهور القديس كيرلس الإسكندري عصر جديد دخل فيه اللاهوت الإسكندري عموماً نار المخص، فتطهّر تماماً ونهائياً من النسكيات الأوريجانية والفلسفة العقلانية، سواء كان اللاهوت النظري المختص بالمبادئ الإيمانية ومصطلحاتها أو اللاهوت النسكي الإنجيلي.

فلاهوت القديس كيرلس لاهوت أرثوذكسي صافٍ إنجيلي حلو، يُشبع الروح و يلهبها، والرؤية عند القديس كيرلس هي التحام صميمي بالله كمسرة إيمانية وبهجة خلاص وليست تلذذات عقلية.

والمعرفة عند القديس كيرلس الكبير ليست هي وسيلة للوصول إلى الله ولكنها بالعكس نتيجة وثمره وموهبة حلول الروح القدس فينا. وهكذا قلب القديس كيرلس الكبير موازين الأوريجانية كلها.

ولعل من المؤثرات المباشرة والموجهة للاهوت القديس كيرلس الكبير والقديس أثناسيوس من قبله، حياة القديس أنطونيوس وتحقيقه لملء السعة وكمالات الفضيلة وكافة المواهب الروحانية ليس بالتأمل النظري ولكن بالإيمان والحياة وبساطة القلب وتطبيق الإنجيل، حاصلاً على كل مؤهلات التركة في الطبيعة الإلهية بالصلة المباشرة مع المسيح في دالة الحب والبذل والصلاة.

ومن روائع لاهوت القديس كيرلس الكبير أنه لا يضع الاتحاد بالله نتيجة للجهادات نسكية وتطهيرات وتأملات، فالإتحاد بالله قد تم وأكمل فينا بالتجسد، فنحن بالمسيح أبناء الله الحي «أبناء بالشركة»؛ واتحادنا بالطبيعة الإلهية هو تعبير مساو تماماً لبنوتنا لله وهذا نناله كمعطية من الله بالإيمان بالمسيح وحلول الروح القدس الذي يشهد في الحال لأرواحنا أننا صرنا أبناء له.

و يقول القديس كيرلس الكبير إن اشتراكنا في لاهوت المسيح معناه إتحادنا بالثالوث، وهذا بالتالي يجعل الطبيعة الإلهية تتخذنا وتنهبنا كما تلهب النار قطعة الحديد فتجعلها نارية. وما عينا بعد إيماننا بالمسيح وشركتنا معه إلا أن نعطي الفرصة للجمال الإلهي الذي لطبيعة الثالوث، غير المنطوق به، أن يشرق فينا ويتوهج و يضيء. (١٤)

فالجهاد النسكي، عند القديس كيرلس، ليس سوى محاولة للتوافق مع الروح القدس الذي فينا، وانسجام مع فكر المسيح الذي يملأنا.

والروح القدس الذي يعطيه الله لنا بمجرد أن يحل فينا يجعلنا مؤهلين أن نأخذ شبه المسيح وبالتالي نصير كصورة حقيقية للآب! (١٥)

(14) Relic 5, P. G. 75, cols. 65 – 68

(15) On St. John, P. G., 74, col. 541

وعندما نأخذ شه المسيح بحلول الروح القدس فينا بصير «أبناءً بالشركة»، وعندما نشترك في الطبيعة الإلهية كأبناء مع المسيح نصبح في اتحاد مع الله بواسطة الروح القدس. (١٦)

٢٢٠ — فإذا حدث أن فقدنا عشرة الروح القدس — وهذا أمر غير محتمل على أقصى الظروف — فيستحيل أن نأمل أن يكون الله فينا. (١٧)

والروح القدس ليس فقط هو ينبوع الحياة الروحانية في النفس بل وأيضاً هو علة المعرفة الروحانية وأساسها، وهو الذي يجعلنا نستشعر النعمة في هذه الحياة.

وبذلك فإن المعرفة الكاملة لله أي الرؤية بأقصى معناها ليست هدفاً نهائياً لحياتنا نسعى إليه الآن أو في الدهر الآتي، بل هي جزء لا يتجزأ من حياة الشركة التي نعيشها في صميم الطبيعة الإلهية بالإيمان منذ أول لحظة بالروح القدس.

ويقول القديس كيرلس الكبير إن المسيح يضيء فينا بالمعرفة بواسطة الروح القدس، فدرك الله، لأنه يصبح «لنا فكر المسيح» (١ كو ٢: ١٦). وأما فكر المسيح فهو بعينه الروح القدس الحال فينا. (١٨)

أما نمونا في الإدراك الكامل لله فهو مرتبط بحياتنا السرائرية:

٢٢١ — فالمعرفة الكاملة للمسيح تبدأ بالمعمودية إذ نحصل فيها على الإستارة بالروح القدس. (١٩)

٢٢٢ — وحتى الحسد — وفي هذه الحياة الحاضرة — فإنه يقال نصيباً ما في سر الاتحاد بالله وذلك في مضمون سر الإفخارستيا على وجه الخصوص كشركة جسد بحسد مع المسيح. (٢٠)

ونلاحظ هنا أن المعرفة الكاملة، عند القديس كيرلس الكبير، التي هي بعينها الرؤيا بأجل معانيها والاتحاد السري بالله، الذي يسميه كيرلس الكبير مراراً وتكراراً بـ «التأله»، ليساهما هدفاً نسعى إليه بقدر ما هما حقيقة يحصل عليها الإنسان بالروح في السر كهبة ونعمة. فالرؤيا لا تقف على قمة منهاج تأملي دقيق، بل هي استنارة تتم بحلول الروح القدس. والاتحاد الذي هو نهاية كل نهاية، ليس هو هدفاً بعيد المنال، بل هو مذكور في سر الشركة، سهل وواقعي كأكل اللقمة أو كشرب الكأس، وما على الإنسان بعد ذلك إلا أن

(16) Relic 31, P. G., 74, col 598.

(19) On EX., II, P. G., 69, col. 432 A.

(17) On St. John, P. G., 74, col 545 A

(20) On St. John, VI, 54, P. G., 73, cols 577 - 8

(18) On St. John, P. G., 74, col. 284, 5.

يدرك ما فيه، و يقيم فيما أنعم به عليه و يُظهر بالفعل والعمل الرحمة التي جاءته مجاناً، و يردّ دَيْن المحبة التي انسكبت في قلبه بالروح القدس.

وفي لاهوت القديس كيرلس، لا نجد أية إشارة إلى منهج ديونيسيوس الأريوباغي الذي أخذ عنه الغالبية العظمى من اللاهوتيين في الشرق والغرب ومتصوفي الغرب بوجه مخصوص، هذا المنهج السلبي الذي يستغرق في وصف الطريق التجريدي لمعرفة الله في الظلام وفي اللاشيئية واللاإسمية واللاموجودية بالنسبة لله؛ فالقديس كيرلس يرى الله في سَطْع نوره المعلن في وجه يسوع الذي جاء ليبدد كل معنى الظلمة و يضيء لكل إنسان آتٍ إلى العالم، و يردد القديس كيرلس كلمتي «الور» و «الإستنارة» في كل تعاريفه ومذكراته عن الله.

والقديس كيرلس يتعرّف على كمالات الله بالرؤية المشرقة في قلبه التي هي من عمل الروح القدس، حيث يعطي للإنسان أولاً فكر المسيح الذي به يرى الآب ويحبه و يتقرب إليه بكل جرأة وقدم الإبن بإيمان المسيح نفسه ودالته.

ولا نجد القديس كيرلس يتناول قط لبحث عن الله بدون هداية الروح وقيادته المضيئة المنيرة لقلب الإنسان وفكره، لذلك لم يتخبط لاهوت القديس كيرلس قط في الظلمة المحيطة بالله والحاجة لمجد الألوهة عن العقل البشري غير المؤلّه بالمسيح والروح القدس.

ولم يحاول القديس كيرلس أن يغالب عجزه و يتجاوز جهله ليتأمل في الله بغير فكر المسيح، لذلك خلا لاهوته كليةً من اللامعرفة المظلمة واللافهم المغلق، لأنه كان يعيش في المسيح حقاً وفعلاً، فكان يرى الآب في ابنه يسوع المسيح رؤية سهلة مقنعة، جعلت لاهوت القديس كيرلس يكرّس لنا طريقاً سهلاً حياً حديثاً لرؤية الله.

وفي لاهوت القديس كيرلس نجد أن الفارق الوحيد بين رؤية الله في الحاضر والرؤية الكاملة في الدهر الآتي هو أن المسيح في الحاضر يهبنا نوره و يهبنا فكره بالقدر الذي يتناسب مع خلاصنا وبالكيفية التي تؤهّلنا للقيامة الأولى، أما في الدهر الآتي فإنه سيفدق علينا من نوره وفكره إلى أقصى ما يعوزنا للحياة مع الآب وما تستلزمه الرؤيا الكاملة للآب التي فيها «سنرى الله كما هو». (٢١)

(21) On Malach., IV, 2 – 3. P. G., 72, col. 360, AC.

و يعرف القديس كيرلس الكبير معنى رؤية الله وجهاً لوجه فيقول:

٢٢٣ — إننا سرى الله كما هو، وهذا يعني أننا بوجه مكشوف و بفكر غير منحصر أو متعوق نحصل في ذهننا على انطباع حقيقي لجمال طبيعة الآب نفسه، وذلك بتوسط تأملنا في مجد ابنه الوحيد الذي خرج منه إلينا. (٢٢)

وهكذا يتضح من لاهوت القديس كيرلس العميق السهل أنه يستحيل علينا استحالة مطلقة أن نحصل على رؤية واضحة كاملة لله بدون توسط المسيح، حيث يعمل المسيح فينا بشخصه من خلال سر تجسده، ثم من خلال سر موته، وأخيراً من خلال سر قيامته وتمجده، لأن مجد الآب في عُرف القديس كيرلس الكبير لا يُرى إلا من خلال مجد المسيح! لأن مجد المسيح هو هو استعلان وقوة مجد الآب: « كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جذّة الحياة » (رو ٦: ٤). كذلك فإن مجد الآب لا يُستعلن إلا باستعلان مجد المسيح « متى جاء بمجده ومجد الآب. » (لو ٩: ٢٦)

ويركز القديس كيرلس الكبير كثيراً على أن جوهر الرؤية هو استعلان مجد طبيعة الآب، وهو من حيث تأملنا وإحساسنا جمال فائق (جمال الطبيعة الإلهية) (٢٣)، والذي نشترك فيه هو هذا الجمال عينه بتوسط الروح القدس.

أما مجد المسيح فيشرق في العقل كمعرفة جديدة أو كرويا، ويسمى القديس كيرلس الكبير « البصيرة الإلهية $\Theta\epsilon\iota\alpha \sigma\acute{o}\nu\epsilon\sigma\iota\varsigma$ »، التي هي نفس التعبيرات التي استخدمها بولس الرسول: « كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبواً لمجد روح الحكمة والإعلان في معرفته مستنيرة عيون أذهانكم لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه ... » (أف ١: ١٧ و ١٨)، وذلك عندما يُلهب الروح القدس النفس ويؤله الطبيعة البشرية. فيرى الإنسان المسيح وجهاً لوجه بتوسط الروح القدس، حيث رؤية المسيح توصلنا إلى شركة سرية في الثالوث، والتي تُستعلن بالاستنارة الكاملة في الدهر الآتي. (٢٣)

ونلاحظ في لاهوت الإسكندرية عموماً والذي يمثله القديس كيرلس الكبير تركيزاً كبيراً على أن مجد المسيح ومجد الآب هما جوهر الاستعلان والرؤية. ويعبر القديس كيرلس الكبير عن الوصف الرؤيوي لمجد المسيح بتعبير مبدع في الإحساس اللاهوتي وهو « جمال الطبيعة الإلهية »، معتبراً أن هذا الجمال هو موضوع الشركة وفرح لا يُنطق به كقول الإنجيل: « لكي تفرحوا في استعلان مجده. » (١ بط ٤: ١٣)

أقوال الآباء في رؤية الله:

ماهية رؤية الله:

يحدثنا القديس أنطونيوس الكبير عن ماهية هذه الرؤيا وفعلها في النفس وثمارها موضحاً أقواله من احتبارات القديس بولس الرسول في تصريحه أنه رأى الرب كما رآه الرسل، ليس بسطرة العين البسيطة التي لا ترى في المسيح إلا إنساناً ضعيفاً ولكن بنظرة العقل المكشوفة التي رآته إلهاً ممجّداً:

٢٢٤ - لأنه (بولس الرسول) اعتق أولاً من السر، وثانياً لم يتعد شيئاً من شهوات لكونه صار ناسكاً، وفي الآخر حرر برؤية لسيد المسيح. فعندما نظره لموت تبع أقواله بلا تأخير وصار في غاية الكمال والإتضاع، وهكذا كل الذين يتمسكون بأقوال الرب فإنهم يعرفون الحق، وأخيراً يصيرون أحراراً ويعتنق نفوسهم من عبودته سر كما صدر بولس الرسول، لأن مخلصاً حرره بإظهار ذاته له، بذلك قال: «لست أنا حرّاً، أما رأيت يسوع المسيح رباً؟» (١ كور ١٠: ٩)

كثيرون يفتنون بحواسهم إلهم رأوا الرب يسوع مثل الرسل، وهؤلاء يا أولادى محدوعون وصالحون وليس هم عيون يفتنون بها كما ينظر الرسول الرب، لأن الرسول ينظر الرب كما كان ينظره الرسل الذين كانوا معه، وكما ينظره الذين آمنوا به كد ربه إلهه الذي رآته بعيني قلبها وآمنت أنه إله ولمست طرف ثوبه بإيمان فربت... ولكن بيلاطس وبنحس وبنحس رأوا الرب كممثل سائر الجموع الذين كانوا ينظرونه بعيني الحسد فقط، لأنهم لم ينظروه بأمانة مثل نظرة الرسول، ولذلك لم يستفيدوا شيئاً بنظرهم إياه... أما الرسول فنظره نظرة أخرى بعين قلبه بإيمان قوى كممثل ما بنظرته البارقة أيضاً. هكذا ظهر ربنا يسوع المسيح لرسوله بولس بعد غيبته للأوجاع وصبره حرّاً... هكذا كل من اعتنق من الأوجاع فإنه ينظر الرب بعيني قلبه ويتحرر، ولكن لا يستطيع أن ينظر بعيني جسده ذلك النور البهيم الذي ينظره بولس الرسول. لأن ربنا يظهر لأولاده الذين ليسوا هم عبيداً للأوجاع. ومكتوب عن شعباء لبي أن الرب م عاد يظهر له لكونه لم يكتفِ منك غريباً ومنع من السوء، وبعد وفاة غريباً يظهر له ملاك الرب وظهره بحمرة النار التي من على المذبح.

واعلموا يا أولادى أن الإنسان إذا ماتت منه الخطية فإن الله يظهر للنفس ويطهرها مع الجسد

أيضاً... فإن كانت الخطيئة حبة في الجسد فلا يمكن للإنسان أن ينظر الله. لأن النفس تكون مظلمة ولا يظهر لها النور الذي هو نظراته...، وداود يقول: «سورك يا رب نعاين النور». وما هو هذا النور الذي نعاين به الله؟ هو النور الذي ذكره ربنا يسوع المسيح أن يكون الإنسان كله نيراً وليس فيه حزنه مظلم. ومكتوب أيضاً أنه: «ليس أحد يعرف الآب إلا الابن ولم ير يد الإنسان أن يكشف له». فالإنس يا أولادي لا يُظهر أناه لني الظلمة بل لثلاثين في النور الذين هم أبناء النور وقد استضاءت عيون قلوبهم بمعرفة الوصايا... موسى لما تحرر من عبودية فرعون، استحق أن ينظر النار المشتعلة في العوسحة وهي لا تحترق وقال إنها رؤية عظيمة، وكانت له بداية ثم نظر السر الأوسط وبعده كان الكمال...

واعلموا يا أولادي أن رؤية الله تكون لغير الكاملين مثل الباطنين في مرة، وأما الذين قد وصلوا إلى الكمال فإن عيون قلوبهم تنكشف ويظهر لهم نور عظيم براحة وليس بتعب. لأن عيون الكاملين تكون قد تفتت من الخطيئة وآثارها. الذي يقول عنه بولس الرسول أبا نوجوه مسفرة بنظر إلى مجد الله كمن يسطر في المرأة ودواتنا تتبدل من مجد إلى مجد... ومن فضيلة إلى فضيلة أكمل، فهذا الانتقال والتقدم هو الذي يقربنا إلى الرب فأخذ بنظر المعرفة القوية، لأن الله يقول بلسان النبي إن الذين يقتربون إليّ يعرفون قوتي، فالعقل الذي لم يقترب بعد من الله فإن الشيطان ينمو فيه مثل شجرة لسان، فإذا اقترب العقل من الله واتحد به وصار معه واحداً فإن المفاق لا يعود يظهر فيه، بعد أن كان مرتفعاً ومتطاولاً مثل أرز لسان كما يقول داود: «رأيت المفاق قد زاد عدواً وارتفع متطاولاً مثل أرز لسان ثم عبرت فإذا هو كأنه لم يكن، طلبته فلم أجد مكانه». وداود لم يطلب المفاق إلا لأنه يبحث عن معرفة الله التي إذا عسرا إليها لا نجد للمفاق فيها موضعاً بالحيلة، لأنه بقوله «عسرت» أي «جرت وتقدمت» كقوله أيضاً في المزمور ٤٢: «إني جرت من الحيمة العحبية إلى بيت الله»، فهذا هو العور الذي يُظهر لنا نمو النفس إلى الكمال بعد أن كانت بعيدة عن الله قليلاً...

فاجتهدوا إدن يا أولادي لتصلوا إلى نظر الله الذي بالتأور يا الروحانية بعمدة ربنا يسوع المسيح لمجد من جميع الباطنين مع أبيه والروح القدس من الآن وإلى أبد الأبد آمين.

أبا أنطونيوس الكبير

في هذا العرض الاختباري الذي لقديسنا العظيم أنبا أنطونيوس نرى أسس اختبار النظرة الروحانية ورؤية الله مرتبة بوضوح:

فأولاً: للتقدم لرؤية الله ينبغي التخلص من جميع الشهوات والخطايا وآثارها.

ثانياً: يجب أن يمارس الإنسان أنواع الفضائل التي توصلنا إلى درجة النسك.

ثالثاً: الإشتياق نحو الله ومحبة الحق.

رابعاً: بنظرة الحق الذي هو الله نصير أحراراً من عبودية الخطية وننتقل إلى درجة أولاد الله الذين لا يخطئون.

كذلك شرح القديس أنطونيوس معنى رؤية الله، وفرّق بين النظرة الجسدية والرؤية الروحية التي بعين العقل المطلق بالإيمان. ووضح كيف تُرفع هذه الهبة، أي هبة رؤية الله إذا عاد الإنسان إلى عصيان أوامره، كما كان الحال مع إشعياء النبي وكيف استلزم الأمر أن يطهره الله بجمرة النار التي من على مذبح الله لكي تعود إليه هذه الموهبة مرة أخرى؛ كذلك فرّق القديس أنطونيوس بين النظرة غير الواضحة التي لغير الكامدين والنظرة المكشوفة التي للكاملين.

وعلّق القديس أنطونيوس أهمية قصوى على اختبار اقتراب العقل من الله والوصول إلى نظرته، وأبان كيف يصير العقل مسكناً للشيطان بانتعاده عن معرفة الله والتأمل فيه.

وبذلك يكون القديس أنطونيوس أول من رسم الطريق للتأمل في الحق ورؤية الله وفتح ذلك الباب العجيب أمام القديسين الذين جاءوا من بعده سواء في الشرق أو الغرب.

التعطش نحو المطلق:

٢٢٥ — الله جوهر بسيط غير متغير، والنور والهواء هما من طبيعته. وسوف تعلن حكمة الله ذاتها لمختاريه يوماً واضحة كل الوضوح. غير أن الله وعد أنه سيكون لنا نصيب في رؤيته ونحن هنا على الأرض قبل أن تنتقل إليه، بقوله: «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي...» (يو ١٤: ٢١)

وصرّح أيضاً أنه: «طوبى لأتقياء القلب لأهم يعايون الله...»، وقال بولس الرسول: «إننا ننظره الآن كما في مرآة ولكن حينئذ يكون وجهاً لوجه... الآن أعرف جزئياً ولكن فيما بعد سأعرفه كما أعرف ذاتي الآن».

أما قول بطرس الرسول: «الذي تشتهي الملائكة أن تطلع عليه»، فهذا ليس لأن الملائكة لا تراه قط إذ أنه صرّح قائلاً: «إن ملائكتهم يظرون وجه أبي في السماء كل حين»، فهل في قول الروح تعارض؟ حاشا، ولكن إذا قارنا كلتا الحملتين معاً فإنه يتحقق لنا أنه ليس بينها أدنى اختلاف. لأن الملائكة يظرون وفي نفس الوقت يشاقون أن يظروا! فهم في تعطشهم نحوه يتطلعون إليه... لأنه لو قدر لهم أن لا يسعدوا قط بظره على الرعم من اشتياقهم ورغبتهم في النظر إليه، لأصابهم القلق من عدم الحصول على ثمرة اشتياقهم الملتج، والقلق يستوجب اللوم والعقاب، فكيف يتأتى أن تُعاقب الملائكة وهم أبعد ما يكونون عن المخالفة والعقاب؟ أو كيف يتلاقى العقاب والبركة معاً!! إذن فهم عنأى عن

العقاب ومماى عن القلق أيضاً... ولكي نوفق بين القولين في معنى واحد مسجّم نقول إنهم دائماً يرون ودائماً يشتاقون، فلا يكون إذن قلق في اشتياقهم، إذ هم يحققون ما يشتاقون إليه. ولكي لا يكون في دوام تحقيقهم لما يشتاقون فيه فعود أو مصايقة، فهم على الدوام يشتاقون وعلى الدوام يبتطرون. ينظرون وجه أبي كل حين!

وهم يشتاقون بلا عناء لأن اشتياقهم محموس لهم، ولا يصيبهم ملل في تحقيقهم لإشتياقهم، لأن رؤيتهم لله تشتعل فيهم بالإشتياق على الدوام.

هكذا نصير نحن أيضاً يوماً من الأيام حينما نأثى إلى يسوع الحياة، ويطمع على مُحيّانا بهجة دوام الإشتياق وبهجة دوام الرؤيا معاً!!!! حينئذ يتحرر اشتياقنا من العجز والفصور، وتتحرر رؤيتنا لله كذلك من المل والفتور، لأننا إذ نكون مشتاقين لرؤية الله، نراه وعندما نراه نزداد اشتياقاً إليه. هكذا يرى الله و يكون لنا ذلك إكليل جهادنا، إذ يصير بعد حلقة الظلمة التي تكاثفت على عالمنا الميت سعادة القُرْبى من نوره العجيب.

غريغوريوس الكبير

البحث عن المطلق:

٢٢٦ — دخلتُ في أعماقي ورأيت نفسي ما هو أعلى من ذاتي وأعلى من نفسي، رأيت ذلك النور الدائم الذي لن يعتريه تغيير قط. ليس هو من هذا النور الذي يراه كل ذي جسد، ولا هو من نوع أرق كأن يكون أشد ضياءً أو أعظم بهاداً أو أرق رواءً، ولا هو أعلى مني كعلو السماء عن الأرض... ولكن هو أعلى مني لأنه صناعي، وأنا دونه لأني مخلوق به... إن من يعرف الحق يعرفه، ومن يعرفه يعرف الأبدية... إن الحب يعرفه... إيه أيها الحق الأبدى والأبدية المحبوبة والحب الحقيقي! أنت هو الله ومن أجلك أنا أتهد نهاراً وليلاً...

٢٢٧ — إني أبحث عن الله لا لكي أؤمن به فقط، ولكن لكي أرى شيئاً منه!

٢٢٨ — حينما يتحقق العقل من الأمور المنظورة يدرك أنه أرفع شأنًا منها، وحينما يتحقق من تغير ذاته ومن ضعفاته الكثيرة و يسلم بذلك، و يتطلع إلى الحكمة، يرى أنه يوجد ما هو أعلى منه وأرفع شأنًا، ألا وهو الحق الثابت الدائم الذي لا يتغير قط...

فالإنسان يسمع قولاً، سواء من إنسان آخر أو من ملاك. فلكي يشعر ويتأكد أنه حق يعود بعقله إلى داخل نفسه (بدون أن يناقش الأمر أو يحكم عليه بالمقارنة) يستوحي الحقيقة من هناك... فالحق الثابت الذي لن يتغير قط يشع داخل النفس كالشمس فيصيرها شريكة ذلك الحق...

أما هذا الحق الثابت فهو يحيط بكل ما هو غير متغير كذلك، وإدراكه ليس هو وقفاً على أحد ولكنه

ملك لكل أحد فهو أمر مفتوح لكل من يسعى ليدرك الحق...

والحماس أن كل حقائق الأمور جميعاً تدرك من خلال ذلك الحق الثابت فهو عامل الحق المشترك^{٢٢٩} والمبدأ على ذلك: إذا رأيت شيئاً في كلامي أنه حق، وإذا رأيت أن في كلامك أنه حق، فمن أين لك ومن أين معرفة هذا الحق؟ لا أثر دحض في نفسك ولا في دحض في نفسي، ولكننا نحن دحضنا في الشيء الواحد وهو الحق عبر المنع الذي هو أغنى وأعظم من نفسي ومن نفسك!

إذن، للوصول إلى معرفة الحق سببه العقل على أن يكون في نور الحق الإلهي الثابت.

٢٢٩ - نستاق موسى أن يرى الله في ذات جوهره ليس بشيء محبوف ما ثأً كان إنما بصورته هو بالذات على القدر الذي يستطيعه الإنسان، بعداً عن الحواس الحسنة وبعداً نصاً عن كل مرأ ورمر روحى (أن تكون الرؤيا حالة من تدخل الإدراك الحسى وإدراك التصوري) ... في تلك المنة العليا حيث الله هناك يتحدث سر بلا واسطة ما وراء ما يفوق الكلمات المطوقة! ...

هذه كتب رعبه موسى أن يرى الله في صبيته كما رآه القديسون هناك ... فهو لم يسمع أن يحدثه الله فماً لقم تحت صورة ما وإنما أراد أن يراه كما هو...

أوغسطينوس

٢٣٠ - كل من تدفق ذلك السرور المفرط الذي يكون في التأمل حين يرفع ناسعة لبشارك زمرة ملائكة بعصمه المصنوع، وهو محصور في اسطرة العبياء، بعداً عن كل أمور العالم تحده دنماً غير فاع بمشاركة ملائكة إله يتوق لو يستطيع أن تنفوس في الذي هو فوق الملائكة، إذ أن سر الإلتعاش الحقيقي لعقولنا يكون في رؤية الله. فمن مشاركة الملائكة انعم برفع عقولنا شأمل مجد جلالة الأسى ... وإلى أن يراه العقل يبقى جائعاً لهما حتى إذا ما رآه قنع وشبع...

غريغور يوس الكبير

في عرض هذه المطلاع المختارة ترى همة نحو معرفة الله معرفة عقلية مطعمة، واستيقاً لرؤية الله على حميفته المظلمة بلا واسطة حواس أو فكر أو تصور. ترى هذه لبهفة وهذا الإستيق في معرض حديث القديس أوغسطينوس عن نفسه مدلاً على صحة هذا الإتجاه بما يشابهه عند موسى. إذن، فهي حميفته ثابتة عند بني البشر. فاشتاء رؤيا الله أمر يختص في نفوس الساس جميعاً وسعور يداعب قلوباً بين الحق والحين. غير أن الجرأة في الإعلان عن ذلك أو انهدم لسؤل واضطه من أحسن هذا الأمر يختلف باختلاف الدالة التي تربط الإنسان بالله، وإلى تتوقف على حسنة القديسة التي يحيها الإنسان أمام الله. وليس عجب في هذا الإستيق من نحو رؤية الله كما هو. والإنسان يحمل روح الله في داخله: «... روح الله

يسكن فيكم» (١ كو ٣: ١٦)، «به نحيا ونتحرك ونوجد» (أع ١٧: ٢٨)، وهولن يستريح
قط طال هو بعد عن الله. ولن يستمر إلا إذا شعرت النفس بقربها من حالها. و يقول في
ذلك الأب سيرافيم (من صروف):

٢٣١ — إذا كنت لا تعرف الله بسحب عينك أن تحبه، ولن تمكث أن تحبه إلا إذا رأيته، ولكن
لا تستطيع أن تراه إلا إذا عرفته!

وهنا يرى تدرجاً لطيفاً نحو الرؤيا، فحين بدأ علاقتنا بالمعرفة ثم تتطور هذه المعرفة إلى
حب و يتطلع الحب نحو الرؤيا ليثبت و يتقوى!

و يقول أيضاً القديس إيرينيئوس:

٢٣٢ — الرجل الحي هو مجد الله، أما حياة الرجل فهي رؤية الله.

أنواع الرؤيا:

كما رأينا، فإنه يوجد عند الجميع استنباط عام لرؤية الله، غير أن هذا الاستنباط يُفصح
عنه بدرجات متفاوتة من الإهتمام والسعي، كذلك نجد هذا التفاوت واضحاً حتى عند بوع
لرؤيا، فوجد في احتضار القديس أنه لما بلغوا الرؤيا بلغوها على درجات متفاوتة من
الوضوح:

أولاً: الرؤيا الواضحة:

من الذين يتحدثون عن احتمال اختار رؤية الله بوضوح، القديس أوغسطينوس:

٢٣٣ — توجد حياة أخرى بين فيها موت وليس فيها مرض، هناك سوف يرى وجهها ما يراه
هنا في مرآة في عر؛ ولكن يمكن أيضاً أن يصل إلى ذلك هنا إذا بعدنا كثيراً في تأمل الحق.

٢٣٤ — إن الحق في والمدبر جميع المخلوقات بوضوحها وبهيوها، أن يرى حمار عدم العبد
كسعد الحن سحي موسيقى بارع، وحينئذ يؤمن المدبر بعدون الله بالحق، أن يأمن جوهر الحق
لأنه... وحتى هذا التأمل في جوهر الحق (بالعنان) يمكن أن يكون أيضاً في زمان الإيمان (ثناء
الحياة على الأرض).

٢٣٥ — حتى ندر هذا (رؤيته الحق كعبه لكن حقيقته) فحينئذ نتحقق من اتصال كل ما هو
حب الشمس، وندرك بعد الأشياء ارضية في انحاء عن الأشياء ارضية حقيقية إلى في بعد الآخر،
و حينئذ نعرف حقائق الإيمان التي نتمتع بها وجمال وظهر ما نبتدأ به أما الكيسة، و يرى في طسعة
أحسادنا حقيقة المعنى والقيامة العبيد وسر النجس الإلهي والميلاد من عذراء، و موت لا يعود

يحييها بل نشهيه كما نشهي بصرأ أو مكسأ حتى تتحرر النفس وتنطق بالحق بكاملها.

أوغسطينوس

كذلك يشترك القديس يوحنا سبانا في تقرير إمكانية الرؤيا الواضحة إلى حد ما:

٢٣٦ — باطرس محد الله ممتش يفيأ وتكالأ بلا فحص لأنهم لطبيعة الله المحبوبة عن الكل ينظرون وفيها يتأملون بحركة وديعة لذينة ممتزجة بفرح.

الشيخ الروحاني

٢٣٧ — كما أن اسباط بظر العين أوسع وأعرض من لعين ذاتها كذلك بظر النفس لتي تحدث بالله، فإنها تنبسط بنظرها فيه بلا مانع ولا عائق!

الشيخ الروحاني

٢٣٨ — الذيس يسهون لرؤية الله يشناهون أن يروه ليس تحت هيئة ما وإنما بدات الجواهر الذي هو به كائن — هذه كانت رعة موسى أن يرى الله في ذات طبيعته كما سيره القديسون في السماء. فهو لم يكتف بأن يتحدث إليه فألفهم ووجهها لوجه تحت هيئة ما ولكنه سأل: أرني ذاتك مكشوفاً حتى أتمكن من رؤياك.

٢٣٩ — إن التأمل في الله وجهها لوجه قد وعد به لنا، ليكون نهاية سعينا ومشي مسراتنا.

٢٤٠ — هناك يرى الرب ليس بالبصر الجسدي، أو بالتصور الروحي، ولكن بالمظهر المعنوي على قدر ما يقوى عليه العقل البشري بعممة الله، حتى أن من أهل هذا الحديث يتكلم فألفهم، ولكن ليس بالفهم الجسدي، وإنما بالعقل.

أوغسطينوس

٢٤١ — «إن كان معكم بي سرب فالرؤيا أستعد له في الحلم أكلمه. أما عدي موسى فليس هكد بل هو أمين في كل بيني فأ إلى فم وعياناً أتكلم معه لا بالألفار، وشبه (منظر) الرب يعاين.» (عد ١٢: ٦ — ٨)

في هذه المقطع نرى بوضوح إمكانية الرؤيا واضحة أثناء هذه الحياة؛ إلا أنه يعترضنا سؤال مهم، وهو قول الرب لموسى: «لا تصدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش.» (خر ٣٣: ٢٠)

ولكن للقديس أوغسطينوس رأياً قاطعاً بخصوص هذا المعنى:

٢٤٢ - ربما يُسأل كيف أن ذات جوهر الله يمكن أن يُرى لإنسان لا زال في هذه الحياة. هذا لا يتأتى إلا إذا حُتِطِفَ العمل الشرى من هذه الحياة إلى الحياة الملائكية، قبل أن يجور الموت الطبيعي بانفصال النفس عن الجسد نهائياً.

هكذا اختطف بولس الرسول وسمع كلمات لا يُنطق بها ولا يصح لإنسان أن يتكلم بها، إذ كان قد فارق حواسه الجسدية لدرجة أنه لم يستطع أن يقرر هل كان في الجسد أم خارج الجسد حينما رأى وسمع هذا. فقد كان في حالة دهول شديد، وعفنه متعرب تماماً عن هذا العالم وما فيه. وكان بجسد قد انفصل انفصالاً كاملاً كما هو في حالة الموت حتى أنه طابق قول الرب أنه ليس حياً في ذاته «الإنسان لا يراي و يعيش»، لأنه يتحتم على العقل أن يفارق الجسد والحياة تماماً و يُحمل ليستطيع منظر الرب كما هو. ثم بعد ذلك لا يستطيع أن يعتر عما رآه. ولا يصعب تصديق ذلك أن هذا الاستعلان المائق مُنح لبعض القديسين، ولكهم اجتازوه دون أن يموتوا بالمعنى الكامل الذى تصح فيه أجسادهم جثثاً هامة.

أوغسطينوس

وله أيضاً قطعة في ذات المعنى :

٢٤٣ - إن الاستعلان الذى ينراى فيه الله، يكون الحديث فيه ليس بالفاظ وإنما سر يُدرك في الحال بلا تعبير ما، فهو حديث غير مسطوق. ويتحتم على الذى يستطلع منظر الله أن لا يكون حياً بجسد، أو في يقظة حواسه أو شعوره، وهذا إما أن يكون بالموت الطبيعي، وإما أن يكون عفاقة لنفس والعقل للجسد في حالة الدهول. حتى أنه لا يدرك وهو في هذه الحالة شيئاً عن حسده، فهو لا يعرف إن كان في الجسد أو خارج الجسد.

يتحتم على الإنسان أن يصل إلى هذه الحالة حتى يستطيع أن يرى بهاء الله ليس بتوسط حواس الجسد أو بقوة التحيل كأن يكون بلمر أو بصورة كما في مرآة، وإنما يكون وجهاً لوجه وفقاً لقم كما كان مع موسى، أي أنه بالعباد يرى الله كما هو. غير أن ما يستطيع لعقل أن يدركه عن الله يكون قليلاً جداً مهما كانت درجة نقاوة العقل وحلوه من الشرور وابتعاده عن الحواس الجسدية. أما السماء الثالثة التي اختطف إليها بولس الرسول فلا يستطيع العقل أن يرى شيئاً فيها إلا إذا انفصل وانتعد وتعرب تماماً عن الحواس الجسدية، ونفى من كل تأثير صادر من الجسد أو الخيال حتى يمكنه أن يسمع و يرى بوضوح الأشياء التي هناك، وداب جوهر الله، والله الكلمة، والروح القدس.

أوغسطينوس

هكذا يوضح القديس أوغسطينوس نظرية الرؤيا الواضحة، و يكشف عن معنى عدم إمكانية رؤية الله طالما كان الإنسان حياً بحواسه. وبذلك يستقيم المعنى تماماً، لأن موسى

رأى الله بالصعل و سرب أعين ذلك : « عياناً أتكلّم معه لا بالأنعاز ومظن الرب يعاين » .
 وطبع ذلك كإن يتوسط حياه الدهول التي يفقد الإنسان فيها كل صلته بالجسد والعالم
 ويرفع بعض طاهر حياً من كل تأثيرات الحواس وإنما يصير ليضع على حقيقة الله المظنة .
 و يؤمن أومستقيوس أن موسى رأى الرب في حقيقته جوهره . و يرى أن هذا الإحتد راييس
 هو وبقا سبي أحد ، إنما هو مستطاع لكل من يسعى دحو لرؤية حق .

ثانياً: الرؤيا غير الواضحة:

الديس احتسروا هذ النوع من الرؤيا وعمّموا بعده إمكانيّة الرؤيا الواضحة طالما كان
 الإنسان موجوداً في هذه الحياة، هم عاسية الآباء وفي مقدمهم غريغور يوس الكبير ومار
 إسحق و يوحنا سابا وديونيسيوس الأريوباغي:

٢٤٤ - عبد الله يعرف أنه ضالّ نحن حيا في هذا الجسد لندين لنموت ، لا نستطيع أحد أن يتقدم
 في قوة التأمل بدرجة التي فيها تملأ عيشه و سترس منه في ذلك سور غير متحوص . لأن الله لا يدر على
 كل شيء . ثم بعد هذا الوضوح ، إنما كل ما تستقصيه بنفس هو أن ترى ما يحيط به ، فتستعش وتسمو
 سدرت بعد مقصره ، وحتى حين يقدم البعض في التأمل لا يستطيع أن يتأمل الله كبر هو . غير أن مثل هذا
 التأمل يعود إلى أحد ريدوث الهدوء بل حتى حرثاً - على حد قول - في سر كماله . كما هو مكتوب
 في سر الرؤيا : « وكن هادئ في سماء حوصف مسعة » لأن سماء هي النفس الدرة . و يدور
 - تأمل البعض يصير بها هدوء ، لتكون الصوص ، و ليسه لا لأرضيه قد تلاست ، وحرر الفكر من
 الأرضية ، ولكن سب أن هدوء البعض لا يمكن أن يكون كمالاً في هذه الحياة ثم ينس إليه صر هدوء
 في سماء مسعة كامنة ، ولكن وان حوصف مسعة ! لأنه عيش يرتفع عن كل دنس و دنس إلى الهدوء الداخلي
 لا يسر مسعة كثير بسب الأفكار التي لا تترك دنس سعة فصحت هدوء عقل من ذاته ، و يوقوه
 في هذا الإرتباك تغشاها الظلمة مرة أخرى فيعمى .

٢٤٥ - إن عنوان الذين عمارسون التأمل لا تترك من سور خفيف ، لا يصعد حافت ، ولكن يد .
 اسقط عوا أن يصصوه - وهذا - در - فيه يسمو د حبه مصد عف عظم ... واندر متى يره هؤلاء
 ستمون من لا يديه فبين . ولكن من ذلك البعض تمارش في عفوهم في الساع في حراره واجب .
 و - ردداد هذه الحراره وهذا حب سكب النور فيهم كز ولكن كبر من ثوب صفة في عرفة مصمة .
 هذا الإتساع في التأمل إنما يوهب فقط للذين يحبون .

٢٤٦ - ب. موصوح سأل السصح هو حكمة لإجته حبي يدركها البعض البعض ونمى سب
 ريف .. فعمد تقدم ب سأل سرتقي إلى حكمة الله . وواحد ترقى هي ب إلى دأها - حسد
 تكون عصف ساعها الإلهاني سداً لا ساع بعحرنا ومتشع كمان معروفة على البعض استري ! إنما فقط

بالحب تتلامس مع هذه الحكمة تلامساً، ولكن لا نجوز خلالها بأي حال من الأحوال.

٢٤٧ — «منظر شبه مجد الله. ولما رأيته خررت على وجهي.» (حز ١: ٢٨)

لم يصل حرفيان إبه مطرا احد ولكن «شبه مجد»، حتى يظهر أنه مهما جاهد العقل ومهما صسط نفسه من كل تخيل الماطر والصور الجسدية وأحلى قلبه من الإهتمامات الزائنة، يبقى على الرغم من ذلك غير قادر على رؤية مجد الله كما هو، طالما يسكن في هذا الجسد القابل للفساد... فكل ما يصادفه العقل من إشراق إنما يكون بالشبه فقط وليس بذات الجوهر.

٢٤٨ — لا يستطيع العقل طالما نحن في منفى هذه الحياة أن يغشى نور الأبدية مهما جاهد في سبيل ذلك. فكما نحاول أن نحقق ملياً في ذلك النور العجيب نُعَلَب من ضعفا، فنرتد عنه، وقد غشيت نصاربنا العنصرية سحابة الظلمة... لأن الجسد الذي يثقل كاهلنا الروحي يحرمنا بضعفه من أن يرى نور الأبدية كما هو. حقاً إن العقل يتقد فينا أحياناً فيحتطف ليكون مع الله، وحينئذ يكون كل فكر وحس شرى خاصعاً له، ولكن على الرغم من هذا كله فهو لا يرى الله كما هو.

٢٤٩ — طالما نحن محاطون بأنواع الفساد الذي تبعثه أجسادنا، فقوة ضياء اللاهوت ستظل مخفية عما في حقيقة ذاتها وحقيقة ثبوتها الدائم غير المتغير. ولن تستطيع عيوننا العقلية أن تحتل ذلك الإشراق الهابط من النور الأبدي الذي يضيء فوقها ببريق يفوق احتمالنا.

٢٥٠ — إن اللاهوت لا يعلن حقيقة ذاته للذين يمارسون التأمل فيه طالما هم في هذه الدنيا، وإنما يكشف عما يحيط به من إشراق بقدر بسيط، حتى تحمله عيون عقولنا التي أعمتها الظلمة، فلم تعد تطيق التحديق في نور اللاهوت.

٢٥١ — مهما أحرزنا من نمو وتقدم ونحن في الجسد فنرى الله بواقع منظره الحقيقي، ولكن نراه كما في لغز كما من خلال صحيفة من رجاح البلور، فكم من القديسين ارتفعوا إلى أعلى درجات التأمل ولكن لم يره أحد قط كما هو. يتبارون مجاهدين بصبر وعزم موجَّهين كل لتفاهم نحوه ولكهم لا يروونه عن كذب، ولا يتمكنون أن ينفذوا إلى عظم بهائه لأن ضباب فسادنا يحجبنا عن ذلك النور غير الفاسد. فإذا ما وُهب لنا أن نتطلع إليه فيكون ذلك بمقدار، ويتراءى لنا كأنه آت من بُعد سحيق!! فلو كانت رؤيتنا له مُحَكَّمة واضحة، لما اعترضتنا هذه السحابة الكثيفة التي تحجز حقيقته عنا.

٢٥٢ — مهما كان لتقدم في المضيئة فإن العقل لا يستطيع أن يستجلي منظراً واضحاً للأبدية. وغاية ما يصل إليه هو أن يراها كما من خلال صباب معتم بشيء من التحيل، لذلك يدعونها رؤيا الليل. في أثناء التأمل يعترض الشعاع المبعث من الشمس الداخلية سحابة الفساد الجسدي، التي تغشى حياتنا فتحجب اسور وتمنعه من أن يصل إلينا كما هو، فلا يتراءى الله لعيوننا العقلية إلا كما في منظر ليلي.

٢٥٣ — حينما يخلق العمل عالياً في التأمل فهو لن يبصر الله مهما كان له من قوة على الرؤيا! إذن، هل هناك نوع من الحقيقة في معرفتنا الله (على وجه العموم) طالما نحن تحت سلطان الحواس؟ أقول نحن لا ندرك شيئاً على حقيقته المطلقة فيما يختص بالله.

٢٥٤ — أي إنسان يدرك شيئاً من الكائن الأبدى — (الله) — بالتأمل فإنه يرى نفس الشيء في صورة الله المساوي له في الجوهر والأبدية... حينما ندرك شيئاً عن أبديةه بالمقدر الذي تسمح به طبيعته فسطره الذي يستعمل لعنسا هو بالذات ما نراه في منظر الله! إذن، من صورته الإبن الذي ولد وهو بلا بداية نحن نجهد أن نستطلع بشكل ما ولو وميضاً منه، هذا الذي لا بداية له ولا نهاية.

٢٥٥ — ولكن أكيد أننا نحن لا نرى الله كما يرى هو ذاته! كما أننا لا نستطيع فيه بالمقدر الذي يستريحه هو في ذاته... لأن رؤيتنا له أو راحتنا فيه تشابه إلى درجة ما ولكن لا تعادله في حقيقته... ولكن لا نحور لأننا أعطينا جاحاً للتأمل يرفعنا لثحمل خارج دواتنا لتعده به... هذا الخروج ليس لراحة الدائمة وبما مجرد الخروج فيه كمال الإستراحة. ولماذا قسا كمال الإستراحة؟ لأن بطرنا الله وتميزنا به بالمقدر الذي نستطيعه كميل ليرفعنا إلى كمال الإستراحة! ولكن لا يجب أن يساوي راحتنا فيه باستراحته هو في ذاته إذ هو لا يحتاج مثلاً أن يخرج من ذاته ويتحد بأحر ليستريح فيه!

وهكذا فإن رحتنا فيه تشابه بعض الشيء ولا تدابه في كل شيء، وإنما نحن نفتي أثره لرتاح فيه، فستعديس هذه الإستراحة. ولكي نسعد وبدوم إلى الأبد نفتدي بذلك ابدانم الأبدى. لأنها أبدية ونمود. عظيم جداً أن نكون معتدين بذلك الأبدى، ووارثين لمن نفتدي به، ونحن برؤيته بشرك فيه، وفي الشركة نفتدي به.

نستدئ أولاً بالإيمان فراه، وبعد ذلك تكمل الرؤيا هناك حينما نشرب من تفجر جداول حكته في لأبدية معه. هذه الحكمة ستخرجها الآن من شفاء الوعاط والعارفين بمشقة كثيرة.

٢٥٦ — حينما تدرك النفس قياس ذاتها وتتحقق من سموها فوق الأمور الجسدية وفوق المنظورات جميعاً، حينئذ تتقدم لمعرفة حائقها... وإذا كانت النفس مهما حاهدت لا تبغ قط إلى سبر غور ذاتها كاملاً، فكم وكم يكون عجزها وقصورها عن إدراك عظمة المدير الذي استطاع أن يخلق هذه النفس... ولكن حينما يجاهد ونثار بعره راغبين في أن نستطلع شيئاً من هذه الطبيعة الخفية نجهد ونفهر، ولكن على أي حال ولو أننا لانستطيع الدخول من الباب، إلا أننا بالمجهود الذي بذلناه للرؤية نستطلع من بعيد ما هو بداخله.

غريغوريوس الكبير

٢٥٧ — من أجل أن نجد طبيعته هو الذي يتراءى لمحبيه، وليس جوهر طبيعته، لذلك فين إن الله

لم يره إنسان قط .

الشيخ الروحاني

٢٥٨ — يكون لهم اتحاد مع أزليتك مثل الأعضاء مع رأسها، ولكن نعمة هذا الاتحاد هي مع مجدك وليست مع طبيعة أزليتك، إنما هو اتحاد بمجدك وليس بجوهرك لتعيمهم، لأهم يكونون مشتاقين ليتغيروا إلى شبه مجدك.

الشيخ الروحاني

٢٥٩ — الغمام الإلهي هو النور غير المفترَّب إليه، الذي يُقال إن الله ساكن فيه، وفيه يدخل كل من وُجد مستحقاً أن يرى ويعرف الله، ليس برؤية ومعرفة الشيء للشيء، ولكن بالوجود فيه، هذا الذي هو فوق كل معرفة.

ديوناسيوس الأريوباغي

٢٦٠ — نحن نصلي ليكون لنا حظ الوجود في ذلك الغمام الإلهي الذي هو دون طبيعة جوهر لنور.

ديوناسيوس الأريوباغي

٢٦١ — والكل يستنير من الشمس الواحدة المعقولة، كل واحد حسب ما يستحقه على قدر تديره. ولا ينظر أحد منزلة من هو أعلى منه أو من هو دونه لئلا يعرض له من ذلك حزن وكآبة عندما يقيس نقصه إلى كمال غيره، أو تكبر وتشامخ عندما يقيس كماله إلى نقص غيره. لكن هالك لا يوجد حزن أو تهؤ ولا سر وتكبر، بل كل واحد يُسرِّي داخله بحسب النعمة المعطاة له.

مار إسحق السرياني

٢٦٢ — نظرة مجد الله هي أن يتحرك في العقل فهم على عظمة طبيعته فقط.

مار إسحق السرياني

٢٦٣ — كل عقل حسب مقدار تدرُّجه يستنير بكمية محدودة من النور.

مار إسحق السرياني

يتفق غالبية القديسين على أن نظرة العقل بالتأمل في الله (الذي يُعبَّر عنه بالنور الثابت — والنور الذي لا يتغير — ونور الأبدية والنور الأبدي — والحق الثابت) إنما تكون جزئية، أو مبسطة، أو كأنها من خلال العتمة أو الضباب، وليست كنوع من التقدير أو القياس أو الفلسفة ولكن هي حقيقة ما اختبره القديسون عن الله في أثناء اشتغالهم بالرؤية. وهذا ما يطابق قول موسى عن الله: «ليس مثل الله يا يشورون. يركب السماء

لمعونتك والغمام في عظمته.» (تث ٣٣: ٢٦)

وقول داود: «طأطأ السموات ونزل وضياب تحت رجله.» (مز ١٨: ٩)

وهذا ما عبّر عنه القديس غريغور يوس في اختباره عن رؤية الله في جميع أقواله، وخصوصاً عندما قال: «عندما يُخطف العقل في التأمل فإنه يعاين جوهر الحقائق كأنه من خلال ضباب.»

والقديسون في تعبيرهم عن الله بالنور والحق لا يقصدون أن يفصلوا ما يُرى من الله عن طبيعته؛ وإنما يقصدون بالنور الذي يروونه والحق الذي يدركونه أنها هما بالذات طبيعة الله. فالله نور وحق. ويقول في ذلك القديس غريغور يوس: «في رؤية بهاء نور الله نرى الطبيعة الإلهية.» غير أن العمل المطلق لا يستطيع أن يتعمق في طبيعة الله أكثر من ذلك، طالما هو مرتبط بالجسد في هذه الحياة.

ثالثاً: الرؤية المحدودة بصورة أو شبه:

٢٦٤ — حينما أتطلع إلى آباء العهد القديم أرى أن كثيرين من الذين يذكروهم التاريخ المقدس يُشهد لهم أنهم رأوا الله. فيعقوب رأى الله وقال: «نظرت الله وجهاً لوجه، ونفسي نجت» (تث ٣٢: ٣٠)، وما رآه يعقوب كان بصورة إنسان صارعه حتى مطلع الفجر. وكذلك موسى رأى الله الذي كتب قائلاً: «ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه» (خر ٣٣: ١١). ويوب أيضاً رأى الرب وقال: «بسمع الأذن سمعتُ عنك والآن رأيتُ عياني» (أي ٤٢: ٥). وشعيا رأى الرب وقال: «في السنة التي مات فيها غزياً رأيتُ السيد جالساً على عرش عالٍ ومرتفع» (إش ٦: ١). وميخا رأى الرب وقال: «رأيتُ الرب جالساً على عرشه وكل جند السماء واقفين بجواره عن يمينه وعن يساره.» (أي ٢: ١٨: ١٨)

وماداً يعني الكتاب إذن عندما يقول يوحنا: «الله لم يره أحد قط»؟ قد أعطي لنا أن نفهم بكل وضوح أنه طالما نحن نحيا هنا في هذا العالم بهذه الحياة التي تنتهي بالموت فالله إنما يُرى لنا بتشبيهات خاصة، وأما بمنظر جوهره الحقيقي فلا يمكن أن يُرى.

فيعقوب الذي يشهد أنه رأى الله، لم يره إلا في صورة ملاك. وموسى الذي خاطبه الله وجهاً لوجه كما يخاطب الإنسان صاحبه نجده يقول للرب بعد هذا: «إذا كنتُ قد وجدتُ نعمة في عينيك، أرني وجهك لكي أعرفك!» (خر ٣٣: ١٢ — ٢٣). وبقيناً إن الذي يخاطبه هو الله بالذات، لأنه لا يقول له: «أرني الله» بل «أرني وجهك»! فإذا كان الله هو الذي يتحدث معه وجهاً لوجه، فلماذا إذن يتضرع له ليراه وهو يراه؟ ولكن من الرجاء الذي قدمه يُستدل أنه كان متعطشاً أن يدركه بجواسه في

وصوح طبيعته الإلهية، مع أنه بالكاد ابتدأ يراه بتشبيهات فقط، وذلك استدعى أن يحل جوهر اللاهوت في العقل ويملاه لكي لا يعترض إسقاطه الذي يمتد إلى الأبدية أي تشبيه آخر أو صورة مادية من فعل الحواس في هذه اللحظة ...

لذلك فإن الله لم يره أحد قط. وأيوب يقول إن الحكمة — التي هي الله — مخفية عن أعين جميع الأحباء. وبما الله يتراءى للأحياء في هذا العالم بواسطة العقل المطلق في صورة وتشبيه من جوهره، ولكن لا يُستطاع أن يُرى كما هو في نور الأبدية غير المدرك.

غريغوريوس الكبير

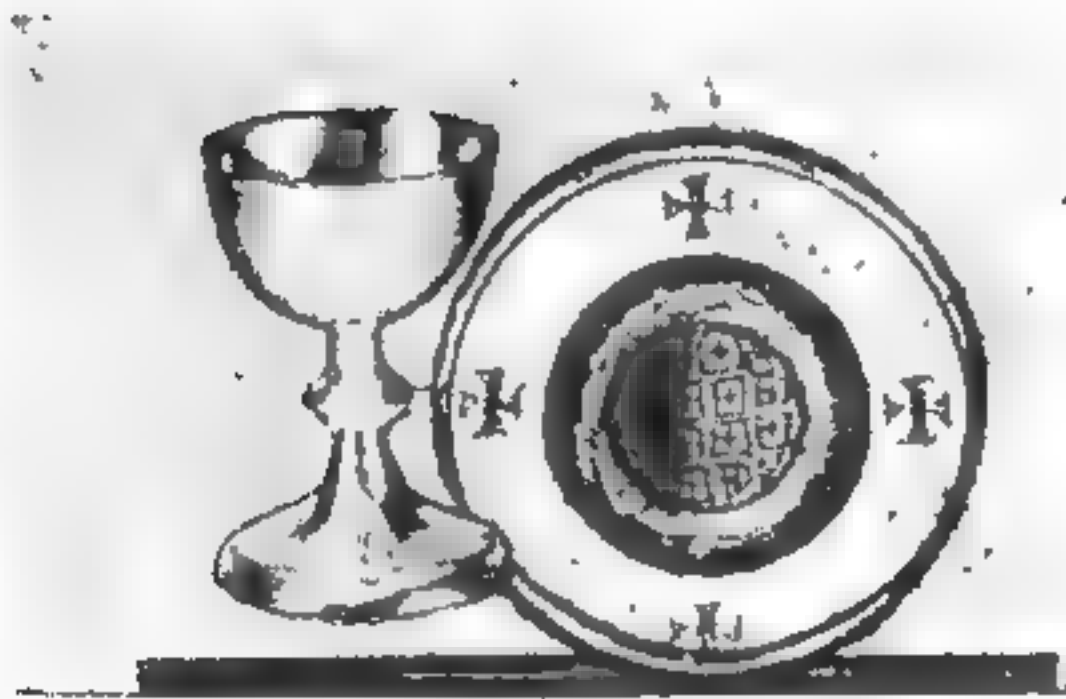
٢٦٥ — وقد كان يظهر أيضاً لكل من الآباء الأظهر على ما شاءه واستحسسه، فظهر لإبراهيم بطريفة وإسحق وأخرى وليعقوب بطريفة ثالثة و غيرها لنوح ولدائيان ولداود وسليمان وإشعيا، ولكل من الأنبياء، وسوع لإيليا وآخر لموسى، وهكذا ظهر الله لكل من القديسين لخلاصهم وإرشادهم إلى معرفته.

أبا مكاريوس الكبير



ثالثاً : الاتحاد بالله

Itheahenosis Θεια ένωσις



« كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا
فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا . »
(يو ١٧ : ٢١)

« من التصق بالرب فهو روح
واحد . »
(١ كو ٦ : ١٧)

الإتحاد بالله هو تعبير لاهوتي مختصر للحالة التي يطلبها المسيح لنا من الآب: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا.» (يو ١٧: ٢١)

وفد تحققت لنا هذه الطلبة بموت المسيح وقيامته، فصرنا حسب قول بطرس الرسول: «شركاء الطبيعة الإلهية.» (٢ بط ١: ٤)

والكنيسة تضع هذه العاية أمام أولادها منذ اللحظة الأولى التي يدخلون فيها إلى جرن المعمودية، فحسب قول القديس إيرينيئوس: [بواسطة الروح القدس نرتفع إلى المسيح وبواسطة المسيح نرتفع إلى الآب] (١)، حيث الإتحاد هنا يُستعلن على ثلاثة مستويات. وبحسب قول القديس أثناسيوس الرسولي: «في ابن الله نصير أبناء لله» (٢)، حيث هنا الإتحاد يُفهم أنه رسوخ في علاقة بنوية أبدية خالدة.

و يشترك كل زمرة آباء الكنيسة العظام في التأكيد على الإمكانية الجديدة التي اكتسبتها الطبيعة البشرية ككل — في تجسد المسيح وتأنسه — وقبولها خلقة جديدة سماوية بالماء وبالروح بتوسط المسيح، فيها تصح الطبيعة البشرية في حالة اتحاد بالله بالنعمة، التي يعبر عنها الآباء بكلمة «تأله»: [لأن ابن الله تأنس لتأله نحن.] (٣)

ولأهمية هذه العقيدة اللاهوتية القائلة بإمكانية «تأله» الإنسان نشرها باختصار إلى بعض المواضع التي ورد فيها شرح هذه الصيغة اللاهوتية عند الآباء الأوائل:

Dial. 124.

(١) يوستين الشهيد:

Adv. Haer. v.

(٢) إيرينيئوس:

Protrep. II, 88, 114, A. N. F.

(٣) كليمنس الإسكندري:

Philos. 34, A.N.F.

(٤) هيپوليتس:

(1) Against Her. V, 36, 2.

(2) Cont. Ar. XLIII.

(3) Inca. Verbi, 51

Incat. Verb. 51.

(٥) أثناسيوس :

Poem. Dogma. X.

(٦) غريغور يوس اللاهوتي :

Orat. cat., XXXV.

(٧) غريغور يوس النيسي :

وإليك بعض مقتطفات لاهوتية فيما يختص بهذه العقيدة الأرثوذكسية الكبيرة :

٢٦٦ — إني أوصي حتى يكون يسهم إتحاد قائم على أساس جسد وروح يسوع المسيح، الذي هو حياتنا الأبدية، إتحاد بالإيمان والحب لا يفوقه ولا يعترضه أي شيء آخر، إتحاد خاص بيسوع والآب.
إغناطيوس الإنطاكي — الرسالة إلى ماجنيسيا

٢٦٧ — كان يستحيل عيباً أن نعرف أمور الله لولا أن المعلم والسيد الذي هو كلمة الله صار إنساناً. إذ أن أي كائن، مهما كان، لا يقدر أن يعلن لنا أمور الله، لا كلمته الخصوصية. لأنه شيء شخص يقدر أن يعرف فكر الله؟ أو من صار له مشيراً؟ (رو ١١: ٣٤).

هكذا كان لا يمكن أن نتعلم بأية وسيلة أخرى سوى أن نرى المعلم ونسمع صوته الإلهي بأذاننا، حتى إذا استطعنا أن نفتدي بأعماله وسعد وصاياه نصبح لنا شركة معه، ثم نرداد نمواً في هذه الشركة من الله الكلي الكمال...

بواسطة الفداء الذي أكمسه لنا بدمه، مسلماً ذاته فدية عوض الدين وفجوا في الأسر بواسطة العدو... فاسترددهم لخاصته... معطياً نفسه لفوسا وحسده لأجسادنا، وساكباً روح الله الآب عيباً لتكميل الإتحاد والشركة بين الله والإنسان، واهباً اللاهوت بالحقيقة للبشرية بواسطة هذا الروح، ومن ناحية أخرى يُجري نفسه للبشرية ارتباطاً والتحاماً مع الله بواسطة تحسده، واهباً لنا، بذلك، الخلود المرمع أن يمجحه لنا بالحق وإلى الأبد عند محبته، بتكميل شركة اتحادنا مع الله الآب.
إيرينيئوس (ضد الهرطقة ٥ : ١)

٢٦٨ — لمجد لك أيها السور الحقيقي الذي أشرق فينا، نحن المدفونين في الظلمة المحبوسين في ظل الموت. لقد أشرق لنا النور من السماء، أنقذ من الشمس، وأطيب من الحياة التي على الأرض، لأنه هو الحياة الأبدية وكل من يشترك فيه يحيا، هذا هو معنى الخليفة الحديدية... بذلك النور الذي حوّل غروبنا إلى شروق، الذي بالصليب رفع الموت إلى حياة، وأنقذ الإنسان من الهلاك، وأصعده إلى السموات... واهباً لنا ميراثاً إلهياً مع الآب، مؤثماً الإنسان باليعم السماوي، جاعلاً نوميسته في أذهاننا مكتوبة في قلوبنا...

كليمنديس الإسكندري

٢٦٩ — بعد تدريس أن الله ليس بشيء نحن، واستغنينا في حسد إنسان منطور لكي تتفصل نحن ص ٥

الآب غير المظور، واحتمل ظلم ووفاحة الإنسان لكي نحتمل نحن ميراث الخلود.
أثناسيوس الرسولي (تجسد الكلمة: ٥٤)

٢٧٠ — حينما نشترك في المسيح «الكلمة» نشترك في الآب، لأن «الكلمة» هو كلمة الآب.

فلو كان المسيح هو في الآب بالمشاركة وليس من الآب بالجواهر لما استطاع أن يؤثها إذ يكون هو نفسه مؤثهاً وحسب. فإذا كان الذي يملكه المسيح هو بسبب المشاركة — مع الآب — لاستحال عليه أن يعطيه للآخرين، لأن الذي له لا يكون حينئذ يملكه، بل يكون ملكاً للذي وهبه.

أثناسيوس الرسولي (الرسائل الفصحية: ٥١)

٢٧١ — كان لا يمكن للإنسان أن يتأله إذا كان إتحاده بالمسيح هو مجرد إتحاد مخلوق بمخلوق، أو إذا لم يكن المسيح هو من جوهر الله بالحق. كذلك ما كان ممكناً للمسيح أن يحضر الإنسان أمام الآب وفي حضرته لو لم يكن هو كلمة الله بالطبيعة والحق...

هكذا لا يمكن للإنسان أن يتأله، إذا لم يكن الكلمة الذي صار جسداً هو بالحقيقة من جوهر الآب وأنه كلمة الآب الخاصة.

لذلك أصبح المسيح قادراً أن يكمل إتحاداً من هذا النوع بحيث يوحد طبيعة الإنسان بطبيعته الإلهية التي هي طبيعة الآب، وهكذا أصبح خلاص الإنسان وتألهه مؤكداً.

أثناسيوس الرسولي (العظة الثانية: ٧٠)

٢٧٢ — المسيح لم يكن إنساناً ثم صار إلهاً، ولكنه إله صار إنساناً وذلك لكي يؤثنا ...، لذلك فكل الذين دعاهم الله أبناءً فهؤلاء اختارهم وألهمهم بواسطة «الكلمة» الإلهي بالجواهر.

أثناسيوس الرسولي (العظة الأولى: ٢٢)

٢٧٣ — من الذي لا يتعجب ويكرم هذا؟ ... فلولا أن أعمالاً إلهية للمسيح الكلمة قد حدثت بالفعل بواسطة الجسد ما كان ممكناً للإنسان أن يتأله.

كذلك وبنفس المعنى، فلولا أن خواص الطبيعة البشرية الضعيفة (كالموت مثلاً) قد أُسندت «للكلمة» ما كان ممكناً للإنسان أن يتخلص منها.

أثناسيوس الرسولي (العظة الثالثة: ٣٣)

٢٧٤ — وكما أن الرب قد صار إنساناً (تأثس) لما لبس جسداً، هكذا نحن نتأله «بالكلمة» حينما نتحد بجسده وحينئذ نرث الحياة الأبدية معه.

أثناسيوس الرسولي (العظة الثالثة: ٣٤)

٢٧٥ — لقد صار إنساناً لكي يؤلّهنّا في نفسه، وهو حُبِلَ به ووُلِدَ من امرأة عذراء حتى ينسب لنفسه جنسنا الحاطي، لكي نصير نحن جنساً مقدساً «شريكاً في الطبيعة الإلهية» كما كتب بطرس الرسول.

أثناسيوس الرسولي (رسالة إلى أدلفوس: ٤)

٢٧٦ — نحن لا نتألّه إن كنا نشترك في جسد إنسان عادي، ولكننا نتألّه لأننا بأخذ جسد المسيح الكلمة بذاته.

أثناسيوس الرسولي (رسالة ٧١ إلى مكسيموس: ٢)



وهكذا نجد أن أكثر الآباء استخداماً لهذا الإصطلاح اللاهوتي هو القديس أثناسيوس الرسولي الذي أورده كثيراً جداً في مواضع عديدة، شارحاً وموضحاً في كل مرة الارتباط الصميمي بين تأنّس الله وتألّه الإنسان.

ولكن مفهوم التألّه $\Theta\acute{\epsilon}\omega\sigma\iota\varsigma$ الذي يقصده الآباء لا يعني تحول الطبيعة البشرية إلى طبيعة إلهية، ولكن تأهيل الطبيعة البشرية للحياة مع الله في شركة المحبة، وذلك برفع الحاجز الخطير الذي يفصل حياة الإنسان عن حياة الله أي الخطيئة؛ وذلك بتوسط غسل وتقديس دم المسيح لنا وتناولنا من جسده. لذلك فالتألّه أو الإتحاد بمفهومه الكامل كحياة مع الله لا يمكن أن يتحقق إلا بالقيامة من الأموات، ولكن لأنه قد أُعطي لنا منذ الآن وسائط نعمة ووصايا وقوة إلهية لكي نغلب بها الخطيئة والعالم وحياة هذا الدهر، لذلك فقد انفتح أمام الإنسان باب إمكانية تذوق الإتحاد بالله بشركة المحبة والطاعة منذ الآن.

إذن، فاتحاد الإنسان بالله، أي التألّه، هو هدف شرعي بموجب سَبَقِ اتحاد اللاهوت بالناسوت في التجسد الذي جعله المسيح غاية لنا أيضاً، حيث يشمل الإتحاد كل وسائط النعمة المجانية وهي المعمودية والتناول والتوبة الدائمة، كما يشمل جهادات كالصوم والعفة وضبط اللسان والفكر والصلاة باستمرار وكل أعمال المحبة والإتضاع، كما يشمل حتماً معونة الله الخفية للمجاهدين. فبالرغم من أن الإتحاد بالله هو الغاية النهائية التي لا يمكن أن تكمل لنا إلا في القيامة، إلا أنه حصيلة الإيمان والعمل الذي ينبغي أن يكمل هنا في هذا الدهر.

وبالإختصار، فإن الإتحاد بالله في مفهومه الحاضر في هذه الحياة يعني التحول المستمر

من حياة حسب الجسد إلى حياة حسب الروح الذي نجوزه بالإيمان والجهد والدموع كل يوم وكل ساعة وفق مشيئة الله وحسب شروط الملكوت التي أعلنها الإنجيل.

ولكن الذي ينبغي أن يوضع نصب أعيننا باستمرار إزاء إمكانية الاتحاد بالله هو شخص يسوع المسيح، لأن من خلال طاعته وحبه يكمل الاتحاد بالله لأنه هو الذي أكمل اتحاد اللاهوت بالناسوت في نفسه أولاً لكي يعطيه لنا بسر الحب الفائق.

فالإتحاد حقيقة عملية في المسيحية ندوقها في عبادتنا وحبنا للمسيح، ولكن لا يمكن أن نفهمها أو ندركها بعقلنا، فهي من حيث المنطق العقلي أمر مستحيل، أما من حيث سر التجسد وخبرة المحبة والإيمان، فهي أمر حقيقي وواقع مُذاق.

والإتحاد بالله ليس موضوعاً ثانوياً في الإيمان أو العقيدة بل هو أساس كل الإيمان والعقيدة، فهو غاية الله النهائية التي من أجلها أرسل ابنه الوحيد إلى العالم متجسداً: «إذ عرّفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها في نفسه لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض في ذاك (المسيح).» (أف ١: ٩ و ١٠)

أي أن سر اتحاد البشرية بالمسيح هو أقصى غايات التجسد والصلب والقيامة بل والخلقة كلها.

إسمع ما يقوله القديس مكار يوس الكبير في ذلك:

٢٧٧ — لأنه إن لم تنل النفس في هذه الحياة تقديس الروح القدس بالإيمان القوي وبالصلاة، وتشترك في الطبيعة الإلهية إذ تختلط بالنعمة التي بها تصير بلا عيب وتعمل بكل وصية سقاوة، فلا تكون أهلاً للملكوت!!

فالنفس، إذن، هي صنيع إلهي عظيم مملوء عجباً، ... والحاصل إنه خلقها من نوع يصيرها له عروساً ورفيقة حتى يمتزج بها فتصير معه روحاً واحداً.

أبا مكار يوس الكبير (عظة ٤٤، ٤٦)

هكذا نرى أن الاتحاد بالله هو أساس الكنيسة وسر الإنجيل، لأن عمل الكنيسة أو غاية الإنجيل هي دعوة البشرية للإيمان بشخص الرب يسوع، وعمل الإيمان بالمسيح وغايته النهائية هما إتحاد البشرية في جسد المسيح السري، وغاية الإتحاد هو إعلان ملكوت المسيح وظهور مملكة القديسين التي ستملك فيه وسيملك فيها.

وفي هذا الملك المتبادل أو الميراث المتبادل الذي يعبر أقوى تعبير عن مفهوم الإتحاد بالله، يقول القديس مكار يوس الكبير:

٢٧٨ — كذلك الله الذي يعتني بالإنسان و يتراءف عليه، فإن النفس التي تأتي باشتياق إليه، ينقاد هو إليها بالمحبة وبتحننه الطبيعي المحتص به، و يتحد بعقلها (أي نفسها)، و يصير معها روحاً واحداً، كقول الرسول. لأن النفس بالتصاقها بالرب وبعداومة العقل في نعمة الرب بلا انقطاع، يتراءف الرب عليها و يسكب محبته عليها و يلازمها، وبذلك فإن النفس تصير هي والرب روحاً واحداً وامتزاجاً واحداً وعقلاً واحداً، وإن يكن جسدها على الأرض فإن عقلها يكون بكليته في أورشليم السماوية، يعلو إلى السماء الثالثة (الروحية) و يتحد بالرب إتحاداً شديداً و يخدمه هناك. وكذلك أيضاً هو، لما يكون جالساً على كرسي العظمة في الثلا فهو يكون معها بكليته، لأنه وضع صورتها فوق في المدينة السماوية مدينة القديسين أي أورشليم، وأما صورته الخصوصية أي صورة نورهوته الفائق الوصف فإنه وضعها فيها، هو يتولاها في مدينة جسدها وهي تخدمه في مدينته السماوية، هي وريشته في السماء وهو وارثها على الأرض، فالرب يصير ميراثاً للنفس والنفس تصير ميراثاً للرب.

أبا مكار يوس الكبير (عظة ٤٦)

وهكذا نجد في تراثنا الكنسي أن كل الحقائق اللاهوتية التي استلهمها الآباء اللاهوتيون المعظم المملوون بالروح القدس، تحقق منها الآباء النساك البسطاء بالفعل وعلى صعيد الحياة اليومية والسلوك والخبرة الشخصية، بصورة حية ناطقة تجعلنا نشق ونتيقن أن الروح القدس يدعونا إلى هذه الشركة المقدسة المباركة مع الآب والإبن والروح القدس.

أقوال الآباء في الإتحاد بالله:

يتحدث القديس أوغسطينوس عن اختبار هذه الدرجة الفائقة من النعمة بتعبير رقيق فيقول: «إنه نوع من الإ اتصال الروحي بالنور الثابت». ويقول أيضاً: «نحن نجاهد ونمجد، وفي ومضة فكر نتلامس مع ذات الحكمة الإلهية الساكنة في الأعالي (الأقنوم الثاني)».

و يتحدث أيضاً عن فاعلية هذه الحكمة في النفس وأثر النور الذي يملأها:

٢٧٩ — ما هذا الذي يومض في أحشائي و يقرع قلبي دون أن يؤلمني؟ وأرتجف هباً أحياناً وألهث حباً أحياناً... أرتجف بغير ما أرى نفسي أي لست أشبهه، وأطمئن بالقدر الذي فيه أرى نفسي أشابه! إنها الحكمة هي التي تومض في أحشائي.

أوغسطينوس

كذلك يتحدث عن يغور يوس الكبير عن هذا الإتحاد معبراً عنه بنفس تعبيرات القديس أوغسطينوس فيقول:

٢٨٠ — إن موضوع التأمل الباطن هو الحكمة الإلهية حينما يدركها العنص المطلق فيتلامس معها.

غريغور يوس الكبير

ولكن يقيماً يُعتبر القديس مكار يوس المصري الكبير أول من أدرك هذا الإتحاد العجيب الحادث بين النفس والله، فهو أول من اختبره وأول من تحدث عنه وأول من علّمه لأولاده.

وكذلك هو أول من عبّر عن هذا الإتحاد الروحاني الطاهر بأنه زيجة النفس المقدسة بالله، واصفاً النفس بالعروس، والمسيح بالعريس السماوي، والإتحاد بينها بالزيجة المقدسة. والأمر ليس مجرد تشبيه ولكنه حقيقة السر الذي يتم بين النفس المقدسة وبين الله لتصير معه روحاً واحداً. وإليك أقواله في هذا الموضوع:—

٢٨١ — إن لنفوس حينما تأتي إليه باشتياق، فإنه من فرط حبه يتحد بعقلها ويصير معها روحاً واحداً كما يقول الرسول. لأن النفس التي التصقت بالرب يكون الإثنان واحداً، وبعدها العنص في

نعمه الرب بلا انقطاع تصير هي والرب روحاً واحداً وامتزاجاً واحداً وعقلاً واحداً، وإن يكن جسده مبقى على الأرض فإن عصفها مكبته تكون في أورشليم السمائية، عالياً في السماء الثالثة، يتحد بالرب إتحاداً شديداً ويخدمه هناك ...

أبا مكار يوس الكبير

٢٨٢ — ... هذا ما عناه لرسول بقوله: «لكي نستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو المعرض والطلوب والعمو والعمو وتعرفوا أيضاً محبة المسيح الي تفرق العدم لتمتثلوا بكل من «الله» (أف ٣: ١٨ و ١٩). فليستأمل في الأسرار الفائقة عن الوصف الي لتلك النفس التي يبرع الرب عنها الظلمة المحيطة بها، و يكشفها عنها و يكشف لها نفسه أيضاً، وكيف أنه مد و يوسع أفكار عقلها إلى الأعرض والأطوال والأعماق التي في الخليقة المنظورة وغير المنظورة. فالنفس هي بدن صبيغ إلهي عظيم مموء عجباً. لأنه حين صنعها الرب، صنعها من حسن لا يختلط بطبيعته احتلاط فساد، بل صنعها على شبه فصائل الروح. ووضع فيها من الفصائل والبصرة والمعرفة والفطنة والإيمان والمحبة. وكشف الرب نفسه لها، وقد وضع فيها فهماً، ونظام أفكار، ومسيئة وعقلاً، وصيرها خفيفة منحركة وليست حاصعة متعب، وأبعم عليها بالإستطاعة على المحييء والدهاب في لحظة، وأن تخدمه في أفكارها برؤي الروح. والحاصل أنه حينها من نوع يصيرها له عروساً ورفيقة حتى يمتزج بها فتصير معه روحاً واحداً (كما قال الرسول).

٢٨٣ — حتى كما أن الله نفسه محبة وفرح وسلام وإحسان وصلاح كذلك تكون النفس في الإنسان الجديد بالنعمة.

٢٨٤ — لأن النفوس التي تطيب تقديس الروح، تُعلّق حينها كنه بالرب وتركز أفكارها فيه وتسعى لتصل إليه. هؤلاء يمكنهم أن يعرفوا هذه الحياة بلا سقوط لأهم يكونون مفضولين تماماً لدى العريس السماوي.

٢٨٥ — إن الله غير المحصور الذي لا يمكن لإنسان أن يدوم معه، غير المخوف، يتحد لنفسه جسداً بصلاحه الذي لا يُحد. وتخلّي عن ذلك الحد الذي لا يُستطاع الدوم معه، لكي يصير بذلك قابلاً للإتحاد مع خلائفه المنظورة كالنفوس، أعني نفوس القديسين لكي يقدرُوا هم أيضاً أن يشتركوا في حياة اللاهوت.

والنفس على نطاقها تصرف في أعضاء الجسد — في العين والأذن واللسان واليد — لترى وتسمع وتطو وتعمل، وبالإختصار في الجسد كنه وبأعضائه جميعاً. كذلك أنه غير محصور تدرك، صلاحاً منه، وليس أعضاء هذا الجسد وانحد بها لتأخذ إليه النفوس المقدسة المفضولة لأمية و يصير معها روحاً واحداً، ونفساً في نفس، وحوهراً في حوهر، لتعيش النفس باتفاق تام، وتدور في الحياة

الحالدة، وتصير شريكه في المجد الذي لا يفسد — أعني النفس المستحقة المفضولة لديه.

وهكذا بمدرة حكمته عبر المحصورة تشبه لنا، بحيث أنه إذا ساء تحته في نفوس الخمسة، فاختار صلاحه، ومضى ساء صار باراً آكناً، ومتى ساء صار راحاً فائزاً، ومضى ساء صار فرحاً وسلاماً وتعزيةً ومُعانقاً للنفس.

٢٨٦ — إن كانت النفس تخصص ذاتها للرب، وتمسك به وحده، وبسر بوضيعة، وعطى روح المسيح حقها إذ هي أتت عنده وظللتها، حينئذ تُحسب أهلاً لصير روحاً واحداً وتركيباً واحداً معه، كما نص على ذلك الرسول في (١ كور ٦: ١٧).

٢٨٧ — ومن حيث أن النفس تكون معروضة بمحبة الروح السماوي، وكثيرة لإستيقاق إخراج إلى عريس السماوي بالعمة لساكنة فيها، وتشبه دواماً أن ندخل بالتمام إلى الشركة السرية معه الفائقة الوصف بتقديس الروح. حينئذ يكشف نظرها فرى العريس السماوي بعين بنية وجهاً لوجه في ذلك النور الروحاني الذي لا يوصف، فتختلط به في ثقه كاملة، وتصير مصاعبة لموته، وتستظر دائماً بالشوق الوافر أن تموت من أحل المسيح، وترضى شقة الإيمان المضاء الكامل من خطية وظلام الشهوات، حتى إذا تطهرت هكذا بالروح وتقدّست بمسا وحسداً، تُحسب أهلاً لأن يصير إبناً نقياً معداً لقبول المسحة السماوية، وحلول المسيح الملك.

٢٨٨ — النفس التي يخطبها المسيح العريس السماوي لنفسه لأحل شركته السرية الإلهية، بعد أن ندوى العنى السماوي ولومرة، يجب عليها بكل الجهد والميل العقلي أن ترضى المسيح حينها... وترفع نفسها إلى هذا العريس السماوي بسيرتها الحسنة.

٢٨٩ — وكذلك فإن قيمة النفس عظيمة وجوهرها العقلي كثير القيمة. لا تسك في ذلك! لأن الله لم يعمل على ملائكة هم يصنعهم على شهباء ومثالبنا، بل قال ذلك من أحل الإنسان. ولأرض وسوء تزولان وكر الإنسان محلاً ليكون مع الله إبناً له وعروساً. لأن في الأمور المادية لمطورة عبداً، يصير للعروس كل ما للعريس، وكذلك جميع ما للرب هو محفوظ لك.

أبا مكار يوس الكبير

هكذا يحدثنا القديس مكار يوس عن أعظم هبة ينالها الإنسان المسيحي لدى تقدس بالحق واستحق هذا الاتحاد السري العجيب مع المسيح في اتحاد زيجي مقدس بالروح لول الشركة مع العريس والميراث المذخر له في مجده.

وإليك بعض تأملات القديسين في هذا الاتحاد العجيب:

٢٩٠ — حينما يطلع العقل على ذلك النور (في التأمل) تقف حركته و يسي ذاته . ومن عمام ذلك السور لذي يُقال إن الله ساكن فيه تشرق إشعاعات من النور على العقل المستحق بالرحمة ، فتسطر النفس وجه رها وتندهل بذوق حلاوته وتستنشق رائحته الطاهرة... وتدخل إليه إلى أن تلتصق به ولا تعرف كيفية الخروج من هناك ، إذا لم يلقها هو من اتحاده . إذا أنها تشعر في ذاتها أنها محبوسة كما في جبل أولجة من النور تغطيها من كل جهة . هكذا يكون في الإختطاف الذي بُعث بأنه نظر محمد الله .
الشيخ الروحاني

٢٩١ — هؤلاء يكون لهم اتحاد مع أزلتيك مثل الأعضاء مع رأسهم ، ولكن نعمة هذا الاتحاد هي مع مجدك وليست مع حقيقة أزلتيك ، فهو اتحاد بالمجد وليس بالجوهر وذلك لتعيمهم ، لأنهم يكونون تائقين ليتغيروا إلى شبه مجدك .

٢٩٢ — « أنت يا أبي في وأنا فيك وأيضاً هم ليكونوا واحداً فينا » طوى لمن ذاق طعم هذه الطوى ... طوى لمن صارت نفسه مع لحمه وعظامه في هذه اللذة .

٢٩٣ — كل واحد ينظر في داخله و يفرح بحسنك و يتعجب و يظر أنك حال في هو وحده ، مع أنك حال بكمالك في كل واحد ... فكل واحد يراك في عقله أنك هناك بالتمام ، مع أنك أنت هكذا حال فيهم كلهم بالتمام .

٢٩٤ — حينئذ لا يكونون لاسي النور بل يكونون هم بأقومهم نوراً : « حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في مكنوت أبيهم » ، هناك لا تكون نظرة الشبه وإنما يسطرون عدد ربوبيته .

٢٩٥ — متحدين به ولكن كاتحاد البار بالحديد ، فيصير الحديد ناراً ، وهو محتفظ بطبيعته . ولكن الحديد يصير كشبه طبيعة البار . هكذا الأبرار يصيرون شبه طبيعة الله . بالحقيقة أقول أنا بالدالة التي لي عند الله ولا أكذب ، إنه مراراً كثيرة ، الذين اقتوا حياً بحواله بطروا أعظم من هذا وأكثر وأرفع .

٢٩٦ — إذا أشرق السور الإلهي في النفس ، وإذا اتخذت هي به ، تعبر بالعمل في كل الطبائع سوء في السماء أو الأرض أو الجبال أو البحار ، أو الناس أو الأجساد الكثيفة ، وتظهرهم كما هم ، ونكون معهم بنظر واتحاد ... ومن هذه التاوريا ترتفع إلى تاورية الطبائع المعقولة (غير المادية) ثم تلح في النور القدوس العالي وتبشع نظرتة ويرتفع كل ما عداه من أمامها كأنه لم يكن ، وتنسى ذاتها باتحادها بمجد عظمتة .

٢٩٧ — من يستطيع أن يعلم سر اتحاد العقل بالله حينما يحس فيه متشبهاً بالله صابعه و يتحد معه بانسماطه المتحلل الكل ، وفوق الكل بما لا يدرك . أي كلام يستطيع أن يفسر كيفية هذا الاتحاد الذي يلبس العقل فيبعده من كل طياشة وفكر وحركة عالمية !

٢٩٨ — يتحرك العمل بفعل الروح القدس بلذة فيتفرس في الله و ينسبط معه و يتحد به ...
فيتعجب بحس المجد المتحد بعقله وإشراق شعاع النور الممتزج بأقنومه، وهو حامل وداعة وعفة في
كل حركاته.

٢٩٩ — وكما أن انسباط بصر العين توسع وأعرض من العين ذاتها كذلك بصر النفس التي اتحدت
بالله، فإنها تبسط بنظرها فيه بلا مانع ولا عائق.

٣٠٠ — إذا اتحدت القوة الإلهية بالإنسان يمتلئ جميعه بلهب محرق ولذة مع سببان، ورفض
لكل ما في العالم بدهشة تفوق الطمع. والقوة النفسية والروحية تبطل بالكمال ويكون مثل من هو
ليس بحي.

٣٠١ — إذا ما وصل الإنسان بسعمة الله إلى هذه الدرجة، فإنه يقتني وحدانية مع ذاته وهذا
حركات الجسد للنفس، وحركات النفس للعقل، و ينسبط العقل لمعرفة الله و ينظر الرب وحها لوجه
فيستضيء به و يتعب إليه ... هذا هو الإتحاد الكامل بالله حيث كل معرفة وإستعلان ونبوة وتكلم
بالسنة ومواهب شفاء.

٣٠٢ — حينما يصيء على النفس حُسن طبعها، وتنظر هي حقيقة ذاتها، وترى النور الإلهي مشرقاً
فيها، و يبدؤها إلى شبه فيرتفع طبعها من أمام بصرها، حينئذ تنظر ذاتها شبه الله بإتحادها بالنور الذي
لا شبه له، الذي هو نور الثالث المشرق فيها. وبذلك ترتفع نظرة العقل، فتري نوراً إلهياً لا بساً
الكل ومنخللاً الكل بغير مانع حتى أنها ترى به أقصى الخليفة وما هو خارج عن أقصاها، وما هو
فوق السماء وما في أعماق البحار، ويرتفع العقل و يتداخل من نور إلى نور حتى تكشف النفس كل
نفس أخرى ثم ترتفع فتكشف طبع الملائكة، ثم تستمر في رفعها حتى تنهي إلى غمام المجد الذي يحيط
بمن سبى قوة شهوتها واشتياقها ...

الشيخ الروحاني

٣٠٣ — إن العقل في هذه الحالة (الرؤية) لا يستطيع أن ينظر شيئاً، حتى ذاته، لأن روحانيته
تكون متحدة بذلك النور الطاهر الملتحف به.

الأسقف فيلوكسينوس



إن الإتحاد بالله هو هدف حياة الصلاة والعبادة المقدسة، وهو سبق لتذوق حياة المجد
العتيدة التي سينالها المسيحيون في الدهر الآتي. فالتلامس مع الحكمة التي اختبرها
أوغسطينوس، والشركة السرية في الزيجة المقدسة التي تحصل عليها النفس مع العريس

السمائي والتي تذوقها القديس مقار يوس الكبير، والإتحاد الشديد الذي يربط العقل بالله الذي اختبره الشيخ الروحاني، والنور الذي يستولي على العقل فيهره والذي وصل إليه فسوكسينوس، كل هذه هي فاعلية عمل الإتحاد الذي يكون بين النفس والله ليصير روحاً واحداً. وهذا هو ملكوت السموات داخلاً الذي يوجهها إليه الإنجيل المقدس، الذي إذا ما وصلنا إليه نستطيع أن نتذوق معنى حب الله الكامل من كل القلب ومن كل النفس ومن كل الفكر، والقريب كالنفس تماماً.

بالإتحاد مع الله، نكون قد غطينا حدود المادة ووصلنا إلى ما وراء هذا العالم المنظور. وهذا ما كان يفصده السيد الرب في صلاته للآب: «لستُ أسأل من أجل العالم... لستُ أنا في العالم... أنا لستُ من العالم، العالم أبعضهم لأنهم ليسوا من العالم... لستُ أسأل أن تأخذهم من العالم — أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذين أعطيتني ليكونوا واحداً كما نحن... أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد...» (يو ١٧)

باصلاة، يسير في طريق الملكوت. وبالإتحاد مع الله، نصل إلى الملكوت الذي هو ليس بعيداً عنا، بل في داخلنا. فالإتحاد مع الله الذي احتسره الآباء القديسون هو نهاية كل جهاد وسعي، سواء في تتميم الفضائل بالجسد أو جهاد النفس أو المثارة على التأمل الروحي: «قد جاهدتُ الجهاد الحس، أكملت السعي، حفظت الإيمان وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر...» (٢ تي ٤: ٧)

إذن، فالسعي في الطريق الروحي لنوال حياة روحية في عشرة مقدسة قوية مع الله تفوق العالم الحاضر، هو من صميم حقوق المفدين بدم العريس السماوي.

والمواهب الروحية هي أمر موهوب لنا، ومطلوب منا أن نجاهد ونسعى لنوالها بكل قوتنا وإرادتنا وفكرنا، بموازية النعمة الحاضرة معنا وفيها على الدوام «إتبعوا المحبة ولكن جددوا للمواهب الروحية، هكذا أنتم أيضاً إذ أنكم غيرون للمواهب الروحية اطلبوا لأجل بنيان الكنيسة أن تزدادوا» (١ كو ١٤: ١، ١٢)! وليست الهبة الروحية هي أن نعمل المعجزات والآيات، وإنما هي أن نحيا للروح ونختبر ونتذوق ثماره. وقد سُميت هبة لكونها تفوق العالم الحاضر، غير أنها ليست فائقة بالنسبة للحياة الأخرى، وإنما هي طبيعة حياة الدهر الآتي. فإن كما حقاً لسنا من هذا العالم — كما يودنا المسيح أن نكون — إذن فسلوكنا يجب أن يكون مطابقاً لحياة الدهر الآتي، وسعيًا منصّباً على السير بمبادئ الروح مُعرضين عن كل ما

في هذا العالم، بل واشتياقنا يجب أن يكون دائماً هو الوصول إلى الله والإتحاد به.

«إن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة، اللذين هما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمين لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية، هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة. ولهذا عينه وأنتم باذلون كل اجتهد قدّموا في إيمانكم فضيلة، وفي الفضيلة معرفة وفي المعرفة تعقفاً، وفي التعقّف صبراً وفي الصبر تقوى، وفي التقوى مودة أخوية، وفي المودة الأخوية محبة. لأن هذه إذا كانت فيكم وكثرت تصيركم لا متكاسلين ولا غير مثمرين لمعرفة ربنا يسوع المسيح. لأن الذي ليس عنده هذه هو أعمى قصير البصر قد نسي تطهير خطاياہ السالفة. لذلك بالأكثر اجتهدوا أيها الإخوة أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين. لأنكم إذا فعلتم ذلك لن تزلوا أبداً. لأنه هكذا يقدم لكم بيعة دخول إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدي.» (٢ بط ١: ١ — ١١)

وهذه الشركة في الطبيعة الإلهية التي يدعونا إليها بطرس الرسول هي ذات السر الذي يعلنه لنا يوحنا الرسول بعبارة عُرس الخروف: «لنفرخ ونتهل ونُعطي المجد لأن عُرس الخروف قد جاء وامراته هيأت نفسها وأعطيت أن تلبس بزاً (حريراً) نقياً بهياً، لأن البز هو تبررات القديسين» (رؤ ١٩: ٧، ٨). وما هو هذا العرس ومن هي العروس المزينة بالحرير السقي البهي الذي هو تبررات القديسين؟ «هلم فأريك العروس امرأة الخروف. وذهب بي بالروح... وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة... لها مجد الله.» (رؤ ٢١: ٩ — ١١)

ومن هي أورشليم التي لها مجد الله إلا الكنيسة؟ ومن هي الكنيسة إلا جماعة القديسين؟ وما هو المجد الذي يحيط بهم إلا فاعلية إتحادهم بالمسيح؟ هكذا اتخذت الكنيسة المسيحية منذ عصورها الأولى هذا التقليد في التعبير عن الصلة السرية الكائنة بين النفس الطاهرة والمسيح. فالنفس هي العروس المبررة المزينة بالقداسة، والعريس هو الخروف المذبح من أجل النفوس التي خطبها لنفسه! «وأخطبك لنفسي إلى الأبد» (هو ٢: ١٩)، «خطبتكم لرجل واحد...» (٢ كو ١١: ٢)، أما العرس فهو الإتحاد الكائن بين النفس والمسيح.

٣٠٤ — جميل جداً أن تفرز النفس ذاتها لله بالتنام وتلتصق به وحده فقط، فتستريح في وصاياه، وباستحقاق تمجد المسيح الذي حل بروحه فيها وظللها، فيسمح لها بأن تكون روحاً واحداً وتركيباً واحداً معه كما يقول الرسول: «أما من التصق بالرب فهو روح واحد.» (١ كو ٦: ١٧)

أبا مكار يوس الكبير

٣٠٥ — إن النفوس التي حطبت ذواتها به بالحُب والحق والتي تتوق على الدوام أن تكون بكنيتها به، لا ترى في ذاتها حاجة ما تشعنها بذكر الآخرين، ولا تقدر أن تحتل ولا إلى لحظة أن تكون محرومة من حبها المتأجج للرب أو تكف عن استيقاظها السماي له. بل بالحرى تود لو تكون مصلوبة دائماً بكنيتها على صليب ربنا يسوع المسيح.

هذه النفوس تشعر في ذاتها يوماً بيوماً بانفد الروح نحو العريس السماي.

٣٠٦ — وانفس التي تحب الله بالحق ولو أنها تعمل عشرة آلاف من أعمال البر، فهي تعتبر ذاتها أنها لم تعمل شيئاً بسبب أنها لا تشبع من إلهام الله.

وعلى الرغم من أنها تُجهد الجسد بأصوام وأسهار كثيرة، إلا أنها ترى درجتها بالسنة إلى الفضائل كأنها لم تبدأ بعد بأي عمل جدي فيها.

وبالرغم من عطايا الفضائل الروحية الكثيرة والإستعدادات والأسرار السماوية التي ينعم بها عليها، فهي تشعر في ذاتها أنها لم تحصل على شيء السة. وذلك بسبب حبها غير المحدود لله الذي ترى أنها لم تشبع منه قط.

طوب الهار تحوج وتعطش بسبب الحب والأمانة، تصلي مداومة وتستمر في تنعيم الفضائل وفي التنعم بالأسرار بغير شبع، يدفعها حبها المتأجج للروح العليا... باستمرار تتحرك بلا هدوء في داخل نفسها بالإلهام والنعمة نحو العريس السماوي متشوقة أن تصل إلى ملء الإتحاد معه بالقداسة لتستريح. وفليلاً فليلاً يرتفع الحجاب الثقيل عن وجه الروح فتحذق في العريس السماوي وجهاً لوجه في نور الروح الذي لا يُعترعه فتلامس معه بكمال الثقة. وإذا تشكل به تروى حائرة بشوق عظيم أن تموت للمسيح لتكون معه على الدوام... وهي تعتقد واثقة أنها ستال بالنعمة اعتافاً كاملاً من الخطية ومن ظلمة الشهوات، حتى إذا ما اغتسلت بالروح وتقدسست بالنفس والجسد يُسمح لها حينئذ أن تكون إبناً طاهراً معداً لاستقبال المسحة السماوية لصياغة الملك الحقيقي يسوع المسيح. وحينئذ يؤهل للحياة الأبدية، إذ تكون قد صارت إلى الأبد مكاناً طاهراً لسكنى الروح القدس.

أبا مكار يوس الكبير

٣٠٧ — حينما تُخطب عذراء لرحل غني، تنتقى منه هدايا كثيرة قبل الزواج، من حلي وملاسل

وآنية ثمينة، ولكنها لا تفنع حتى يحين موعد الزفاف لتصير له ومعه كلية... هكذا أيضاً النفس حينما تُحطّب كعروس للعريس السماوي تلتقي — كعربون من الروح — عطايا روحية: معرفة وفهماً وإستعلاءً وربما أشفية، ولكنها لا تفنع هذه حتى تدرك الإتحاد التام به، بصدقة لا يمكن أن تتغير أو تسقط أبداً، وفي حرية كاملة بلا شكوك أو تردد.

أو قل إنها تشبه طفلاً جائعاً قلّد بالآلىء والملابس الغالية، فتحمده لا يلتفت إلى شيء مما عليه بل يزدري بالكل متطعماً فقط إلى ثدي أمه كيف يستحوذ على نصيبه من الرضاعة... هكذا أتوسل إليكم أن تقيسوا بذات القياس حالة النفس مع الله الذي له المجد إلى الأبد.

أبا مكاريوس الكبير

٣٠٨ — إعدم أيها الإنسان قيمتك من حيث كونك أخاً للمسيح (عب ٢: ١١)، وصاحباً للملك (يو ١٤: ١٥)، وعروساً للعريس السماوي (٢ كو ١١: ٢)، لأن كل من استطاع أن يطلع على قيمة نفسه يستطيع أيضاً أن يطلع على قوة الطبيعة الإلهية وأسرارها، وبذلك يزداد إتضاعاً لأن بقوة الله يرى الإنسان ضعفه (٢ كو ١٢: ٥)، فيحوز الآلام مع المسيح (رو ٨: ١٧)، ويصلب ذاته ثم يتمجد معه (رو ٨: ١٧)، ويقوم معه ويحلس معه (أف ٢: ٦)، ويتحد بجسده ويملك معه في ذلك العالم.

أبا مكاريوس الكبير

— ها هوذا العريس قد أقبل، فانظري يا نفسي لا تنسي... بل اسهري متضرعة لكي تلتقي المسيح الرب بدهن دسم، فيعم عليك بفرس مجده الإلهي الحقيقي.
الأجبية (من قطع الخدمة الأولى من صلاة نصف الليل)



الفصل الرابع ثمار التامل

+ «أما ثمر الروح فهو محبة، فرح، سلام، طول
أناسة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفف»
(غل ٥: ٢٢)

+ «من يزرع للروح فمن الروح يحصد حياة أبدية»
(غل ٦: ٨)

+ «روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة،
روح المعرفة وخفاة الرب» (إش ١١: ٢)

عرصاً في الفصل السابق بعضاً من نتائج التأمل من الناحية النفسية العفوية المطننة كما عدهن ورؤية الله وإتحاد بالله. أما في هذا الفصل فستعرض ثمر التأمل من الناحية سلوكية وما تسعه حياة التأمل على أفراد من صفات روحية فاضلة تجده وتقدمه للمجتمع الإنساني شخصاً جديداً ذا طابع خفي ممتاز، يضيء على من حوله إشعاعاً من قدسته، تفوح منه راحة المسيح الزكية، بينما يشعر في عمق اتضاعه بعدم استحقاقه لأن يحيا بين الناس.

تجديد الحواس:

والواقع أن لشخص يجوز تغيراً عاماً يشمل كل حياته الداخلية والخارجية معاً، وتتغل حواسه إنتقالاً واضحاً من المادية إلى الروحية، فالعين بعد أن كانت تجد مسربها في الجمال المخوف سوء كان في مناظر الطبيعة الخلابة أو الحيوانات والطيور الرشيفة لبديعة أو بهاء الوجوه السريه، تجدها قد انتقلت إنتقالاً مجيداً من هذه الماديات لزائنة وهذا الجمال لزئف المتغير والمنسب إلى أصل الجمال وحالته، ذلك الجمال الحق الذي لن يتغير قط أو يعتريه منه تغير، فتجد العين مسربها في التأمل إلى ما هو وراء كل جمال، إذ تستطيع أن ترى جمال الله في كل شيء: وهكذا تتغل من المخوف إلى الخالق ومن الأشياء لزائنة إلى رؤية الحق الثابت.

وكذلك يسهل السمع من تعلفه بالأصوات المحسوسة إلى الترقى لسماع أصوات لتسبيح والتمجيد، حتى تعجز الأذن المادية الضعيفة عن أن تبلغ إليها فيما تكون الأذن الروحية قد وصلت إلى حساسية رقيقة تتسمع بها أنغاماً أخرى آتية من الأبدية، عذبة حلوة غاية في الرقة وعذبة في الفوه تحطم لقضاء في جرؤوت وتحترق أصوات ضحيح لعالم اللاهية، لتصل إلى أدن القلب لمهمة، تتفود النفس بعذب ألحانها إلى التأمل في السعادة المعذة. وكذلك تستغل سفاه واللسان إلى اتحدث بمجد الله والتسبيح لاسمه الحي. وتتغل أعضاء الشم إلى تسيم رائحة صفاء الأبدية، وأعضاء الحس إلى الإحساس بوجود الله وتمييز فترات لتتبع بالقر من فترات الحرمان بالبعد عنه.

٣٠٩ — وإد... فصل هذه النعمة، عند ذلك يطرد الروح القدس عن النفس كل المصاعب التي

تأتي عليها من شهوات القلب. وهذا الروح، بسبب شركته مع العقل ينزع عن النفس أوجاعها التي امتزجت بالجسد واحدة بعد أخرى. فالعينان تضيئان باستقامة وتنظران بالطهارة. والأذنان تسمعان بسلامة لا بسميمة، وبالرحمة على كل الخليقة. واللسان يتكلم بالطهارة وينطق بالخير والبركة، إذ لا تكون فيه إرادة جسدية. واليدان تتحركان للصلاة وعمل الخير والعطاء، ويكمل عندها قون داود النبي: «إن رفع يدي ذبيحة مسائية». والبطر أيضاً تتحرز من المآكل والمشرب التي تكون بشرهة وشهوة وكل ما هو فوق الحاجة، فيتم قون بولس الرسول: «إن أكلتم أو شربتم... يكون لمجد الله». وأرحلان أيضاً يفضبطهما القلب الذي امتلأ بالنعمة ويحركها بفعل الروح القدس ليخضع الأمور الحسنة. وهكذا يصير الجسد بحواسه مشاهداً لذلك الجسد العتيد أن يقوم به الصديقون يوم القيامة.

أبا أنطونيوس الكبير

٣١٠ — يحدث دائماً في زيارة النعمة الإلهية أن يمتلئ الإنسان بعبيق عطر وحلاوة مبهمة تفوق الإدراك والتحصيل. حتى أن السمع من فيض السرور تستقل إلى حالة مذهلة وتنسى أنها تحيا في هذا الجسد.

يوحنا كاسيان

أما هذه الحلاوة وهذه الرائحة العطرة فهي تعابير مادية لا تتناسب قط مع حقيقة هذه المواهب الروحية التي تنكشف لحواس النفس عندما تبلغ الدرجة الروحانية. وكم مرة حاول الروح القدس أن يشرح لنا جمال السماء وحلاوة العشرة مع الله وأوصاف العريس السماوي بتعابير مادية لعلنا نستطيع إدراك حقيقة أمرها.

فيقول الروح القدس:

— «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب»! (مز ٣٤: ٨)

— «لرائحة أدهانك الطيبة إسمك دهنٌ مُهراقٌ. لذلك أحببتك العذارى...

ما دام الملك في مجلسه أفاح نارديني رائحته...

كم محبتك أطيب من الخمر!

وكم رائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب.

شفتاك يا عروس تقطران شهداً...

تحت لسانك غسل ولبن، ورائحة ثيابك كرائحة لبنان.

ناردين... مع كل عود اللبان... مع كل أنفاس الأطياب.

أنا نرجس شارون سومنة الأودية.

كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي، ثمرته حلوة في حلق...

صوت حبيبي، هوذا آت طافرا على الجبال، وافرأ على التلال. قد دخب جني ي
أحني العروس فطفت مري مع طيبي، أكلت شهدي مع عسلي، شربت حمري مع لسبي.
حلقة حلاوة وكله مشتيات، هذا حبيبي.» (نشيد الأنشاد)

تبدو هذه لأوصاف والتعابير الروحية كنها الغاز، وكثير من المسيحيين يصعبون فهمها
علامات سنمها، ولكن الروح لا يقصد قط أن يصنع أقوال الله مهمة، طالما كان في
لإمكان شرحها بوضوح أكثر.

فالروح، في هذه لأوصاف والتعابير، قد شرح جمال العريس وجمال النفس وما يبادل
كل منهما الآخر من عواطف رفيعة وحب و إعجاب، شارحاً هذه لعواطف بأقصى ما يمكن
أن تستوضحه أفكارنا ومشاعرنا بواسطة حواسنا المادية. غير أنه قد أغلق علينا فهم هذه
لأوصاف حيث لأب نطربها في حدودها المادية فقط، كأننا هي في متناول الإحساس
جسدي البسيط! ولكن ليس لأمر كذلك إذ يلزمنا أن نتفكر بحواسنا وتفكيرنا وتصورنا من
امادية لمعدنة الرائية إلى الروحية المطبقة الدائمة، حتى نستطيع أن ندرك قيمة النفس
الحقيقية وأوصاف العريس السماوي الحقيقية، ونستحلي بحواسنا الداخلية عظمة الخالق
وأجد اسماء، وحسنه سوف ندرك معنى آخر لجمال ومعنى آخر للذوق والشم والسمع
والإحساس. وعندما نصل حقا إلى هذا الحد من الإدراك الروحي، فسوف ندرك مقدار
طفولتنا الروحية وعجزنا الذي كنا نفهم به هذه الأوصاف التي استخدمها الروح في تعبيراته
عن الله: «... ولكن لما صرت رجلاً أبطلت ما لبطل، وإب سطر الآن في مرة في لغز ولكن
حينئذ وجهاً لوجه.» (١ كور ١٣: ١١)

فسفر نشيد الأنشاد، مثلاً، إذا ما أخذناه كما تراه الحواس البشرية فحسب، لا نجد فيه
إلا ما يثيرها فتسقط إلى التلذذ الحسي بالأقوال. أما إذا كانت النفس قد سمّت فوق
الحواس الحسدية، وتدربت حواسها الداخلية على استجلاء غوامض التعابير الروحية فإنها
تري في هذه الأقوال — سواء التي في سفر نشيد الأنشاد أو التي في بقية الأسفار الشعرية —
معاني روحية في غاية السمو والرفعة، وهي في واقعها بعيدة كل البعد عن الإحساس
الجسدي والتلذذ الحسي البسيط. فإذا وُصف حب العريس لنفس بالخمر الطيب مثلاً،
يكون هدف الروح من هذا الوصف ليس اللذة الحسية المتولدة من شرب الخمر بل درجة
التأثر التي تستهدفها النفس من اتصالها بالمسيح من تأثير الخمر الجيد على العقل والجسد؛

فكما أن العقل يسكر ويخف و يتحرر والجسد يتخدر وتذهب أوجاعه وآلامه ، كذلك النفس بسبب الحب المفرط الذي تتذوقه من قربها للعريس السماوي تنسى أوجاعها وآلامها ، والعقل يسكر بحبه و يدخل إلى الدهش الذي هو درجة السكر الروحي . والعجيب أن الدرجات التي يمر عليها العقل في أثناء شرب الخمر إلى أن يصل إلى درجة السكر الكامل ، هي ذات الدرجات التي تمر فيها النفس إلى أن تصل إلى الدهش الكامل بالله . إذن ، فوصف حب المسيح للنفس بالخمر هو وصف في غاية الدقة والإحكام ، ولكن ليس كما يحتمله المعنى البسيط الحسي المباشر وإنما يتعداه إلى المعنى التطبيقي الذي يحتاج إلى سمو في الإدراك النفسي والعقلي ، وترفع عن المعاني الحسية البسيطة .

إذن ، فنحن لن ندرك حقيقة الروح وحقيقة الأوصاف الروحية في الكتب المقدسة طالما كنا محصورين تحت مادية حواسنا ، ولا سبيل للخروج بها من حيزها الجسدي إلى الحيز الروحي المنطلق إلا بالتدرب على الهذيد والتأمل فننتقل بها ونترج من محد إلى مجد . وعندما نصل إلى مباشرة رؤية هذه الأشياء واستجلاء غوامضها بحواس النفس الداخلية فحينئذ سوف ندرك حقيقة هذه الأوصاف وجمال الحياة الروحية حقاً .

مواهب الروح :

نقرأ عن مواهب الروح . وفي شعور من الحزن واليأس ، نقول إنها أحداث الماضي البعيد وقد مضت وانقضت ؛ ولكن ليس الأمر كذلك ، فالموهبة هي قوة الكنيسة التي ترافقها في جميع الأجيال إلى الإيقضاء ، وهي علامة الروح وثمرته التي تميز عمل الله في كنيسته .

غير أنه لضعف الإيمان وإهمال حياة النسك والعبادة المجردة من الأغراض والشهوات وليول المنحرفة ، وبسبب برودة المحبة التي تربط جماعة المؤمنين ، صارت النعمة وفاعلية الروح أمراً مستغرباً وعسيراً في هذه الأيام ؛ شأننا في ذلك شأن أهل الناصرة : « ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم » (مت ١٣ : ٥٨) . فالعيب ، إذن ، ليس عيب الروح لأن الوعد صادق وأمين : « والآيات سوف تتبع المؤمنين يخرجون الشياطين باسمي و يتكلمون باللسنة جديدة ، يحملون حيات ، وإن شربوا سُماً مميتاً لا يضرهم ، و يضعون أيديهم على المرضى فيبرأون . » (مر ١٦ : ١٧)

وليس هو عيب الزمن ، لأن المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد . و يقول القديس أنطونيوس :

٣١١ — كرس من زحرفى الروحانيات فيه ينال قوة الله لأن الله ليس عنده مخافة ولا يأخذ بوجوهه، من هو في كل الأجيال — حيلة بعد حين — يعطيها لمن يعمل بأعمالها ... حتى أنه لم يحل قط حين من الأجيال من بلوغ هذا الحد ولا الأجيال الآتية أيضاً تخلو منه.

أبا أنطونيوس الكبير

كذلك كد السد المسيح: «أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠). إذن، فالعيب هو عيسا حن وعيب إيماننا الهزيل وإعراضنا عن الروحانيات: «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها.» (يو ١٤: ١٢)

والكنيسة، لشدة إيمانها، لا تصنع حداً فاصلاً بين المواهب وبين التمار الروحية التي تُمنح كنتيجة للسعي في طريق البر؛ أو عبارة أوضح، ترى أن هناك علاقة قائمة بين المواهب وبين السعي والإجتهاد في السير بالبر والقداسة: من تميل بالأكتر إلى الاعتقاد بأن السعي وراء لعممة يهودى، وتقديس ونواب المواهب لمفعة الآخرين وتثبيت إيمان الضعفاء.

والقديسون جميعاً هم ورثة لمواهب من الأجيال الأولى حتى وقتنا هذا، يشاركونهم في ذلك من تصدقوا رتب الرئاسات الكنسية بالظاهرة وعاشوا فيها عيسة تيق بكرمها، وهم غالباً الذين تستعملهم الرؤى والأحلام والبصائر، إذ تكون لتسلسل الحركة الرسولية بوضع ليد أهمية عظيمة للحمل وتسييم شعلة النار التي حلت يوم الخمسين.

وكيستنا تمتاز بخراتها في طيب المواهب والتمار الروحية لأولادها بلا تردد. وفي إحدى سيتورجيات (القداسات) القديمة — وهي «ليتورجية عهد رسا» التي صل الكهنة يقدسون بها من ما بعد القرن العاشر — طلبة خاصة من أجل المواهب وتشبيها. يقول الكهن: «إسند يا رب حتى النهاية الذين هم مواهب الوحي، وأئد الذين هم موهبة الشفاء، وعزز الذين هم موهبة الألسنة». ولأنبا أنطونيوس رأي صريح في هذا الموضوع:

٣١٢ — وقد صرح من فحن ورثة الله وشركاء ميراث القديسين، فبأولادي وورثين مع القديسين يست الفصائل تجمعهم بعيدة عنكم بل هي لكم ومكم، وأنتم ستم محفيس في هذ العالم من طاهرون به، وروح به فيكم. ولكن إذا ما ستم هذه المواهب يا أولادي لا تطوا أن من أعمالكم بل هي قوة مقدسة مشتركة معكم في جميع أعمالكم ...

٣١٣ — أصبر، بسلامه وبه، هذا الروح الناري، وحيث يُعطى لكم، لأنه هكذا وصل به يسا ليسبى وإيسع وكفة لأسياء، ولا تفكروا في فوكم ونكونوا ذوي فسي وتقولوا من يقدر أن

يصل هذا. لا يا أولادي، لا تدعو هذه الأفكار خطر على قلوبكم، بل اطلبوا باستقامة قلوبهم، وأيضاً أنوكم أجهد معكم وأطلب لأجلكم أن نألوه لأني عارف أنكم كامبون وودرون على نوبه. لأن كل من يفلح دته هذه الفلاحه فإن لروح يعطى له في كل حيل وبن لأند. وهو يكشف لكم الأسرار العنوية.

أبا أنطونيوس الكبير

إلا أن الآباء على وجه العموم يحدرون من السقوط في الغرور سوء قبل أن يحصلوا على النعمة أو بعد أن يحصلوا عليها؛ ويتحفظون أيضاً من ضلالة الشياطين التي تتسبب بملائكة نورانية لتخدع السائرين في الطريق الروحي لتضلهم عن بلوغ الحق. وقد كتب الآباء القديسون تحذيرات وارشادات كثيرة في هذا الموضوع ليكشفوا بها للسائرين في طريق القداسة والبر أنواع ضلالة الشيطان وحيله وكيفية العلبة والإلتصار عليها. ومنهم من بالغ في وصف حدود الشيطان، ومنهم من حذر أعماله واستصغرفوته. والقديس مار اسحق مثلاً يدلّك على حدود الشيطان بعمره الطويل وخبرته المتنوعة، ويرى وجوب عدم محاورته في أي فكر سرير بل لهرب منه هروباً في كل ما يعرضه عليها. بينما نرى الشيخ الروحاني يسهزيء بقوته و يصفه بدبابة ضعيفة، وأن إشارة الصليب كافية لحلّ قوته.

٣١٤ — قال الحكماء: إن الشياطين يرصدون الحركات النفسية، لأن الطبع بد بدأ تتحرك طبعاً حسب الترتيب الذي وضعه له الخلق، تبدأ الشياطين أيضاً أن تعمل ما يشاءه حركات انطبعه (من حيث جوع الكادب والعطش الكادب ومحب النوب في غير وقت النوم وتحرك أعضاء لشهوه بلا سبب ح. ح. «)، لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً حرجاً عن دبت، وبسبب ذلك حرج كثيرون عن سبيل الحق لأنهم سمحوا لأنفسهم أن يتبعوا الخيال.

٣١٥ — لنصر الحقيق يسعه هدوء ودهون في الإلهيات. و سطر الخدع يتبعه اضطراب الصمير، وعجبه، وتسويس كثير... لا تطلب من لفظة إسرافاء، ولا من الكذب كلاماً عن الحق.

غريغوريوس الكبير

٣١٦ — لا يسعى — من غير ضرورة أكيدة — أن يسأل أو يشبه أي تكون على أيدي أعجوبة طهارة أو استعلاء. لأنه إذا لم تكن هناك ضرورة فالرب لا يظهر قوته ولا يعطي آية طهارة بلا سبب... حتى لا تكون معونه حقيرة في أعيننا وبترأى لنا أنها أمر زفه... أما إذا جدّ أمر يستدعي إظهار قوته فإنه لا يتولى في إظهار أهميته مقدسه، فهو يسرّكهم أولاً حتى تظهروا حرصهم حسب قوتهم بالصلاه، وقد عسر عنهم أمر ما ولم يكن في صعبهم الكفابة له، فحينئذ يسممهم هم بعظم قوته. هوذا القديس أمونيوس لما مضى إلى نار العظم أنطونيوس وصل الطريق، أنظر ماذا قال: «نارب دلي على مغره عندك».

وماد فعل لله معه؟ سمع بدءاً يرشده إلى الطريق! ... وذكراً أيضاً ما صنع مقاريوس لما كان في الطريق وزبائنه على كتفه قال: «يا رب أنت تعرف أنه ما بقي فيّ قوة»، فوجدني لموضع لذي كان ماضياً إليه!

مار إسحق السرياني

٣١٧ - قد سطر لك ما صحت مني نحو وتدرج المندس وكل من بهوى أن يصعد ذلك السمع الروحاني، حيث كل المواهب معنة، إن كنت معرفة الحميا وموهبة لإستعلانات أو سوة أو موهبة لأفسس وموهبة لشفاء المثثة انقوى (أى التى لأمراس الحسد ونفس والروح) وغيره من المواهب حتى لم يأتى لى روح أن أظهرها على الورق من أجل قمة الأمانة وعدم بديرة.

الشيخ الروحاني

من ذلك يرى أن حياة المديسين لم تحل من السعي للحصول على ثمار النعمة، يلهمهم قول بولس لرسوب: «جذّوا للمواهب الحسنى» (١ كو ١٢: ٣١)، ومتشبهين بغيره الرسل الأظهار: «ولآن يا رب أنظر إلى تهديداتهم وامسح عبيدك أن يتكلموا بكلامك بكل مجاهرة بمد يدك لشفاء، ولتحر آيات وعجائب باسم فتاك القدوس يسوع.» (٤ع: ٢٩ و ٣٠)

غير أن من مبادئ الكنيسة الصريحة والفاطمة أن لا تكون المواهب هدفاً لجهادنا الروحي، وإنما تكون — كما يقول القديس يوحنا ذهبي الفم — معيناً لنا لبلوغ طريق أفضل: «جذّوا للمواهب الحسنى وأيضاً أريكم طريقاً أفضل ... المحبة!! المحبة لا تسقط نداءً. أما السبوات فستبطل والألسنة فستسهي والعلم فسيبطل ... متى حاء الكمل ... اتبعوا المحبة ولكن جذّوا للمواهب الروحية.» (١ كو ١٣ و ١٤)

وإذا ندنا الحق في حياة الطهارة والعممة بالميلاد في جرن المعمودية، أصبح واجباً عين استعمال ذلك الحق لسير في طريق البر والقداسة ولسعي والتدرّب لنول شعبة الروح الملتبة المسلمة لنا يوم الخمسين:

٣١٨ - وذلك الروح البارى العظيم هذا الذي فلتته أبا اقبوه ثم أيضاً. أما يد أردء أن نفسوه ويسكن فيكم فهذمو أولاً أنعاب الحسد ونواضع القلب، وارفعوا أفكاركم إلى السماء في الليل والنهار، واطلوا باستقامة قلب هذا الروح الباري وحينئذ يُعطى لكم بالصلاة.

أبا أنطونيوس الكبير

والأثر لمسار لفصول شعبة الروح القدس الفعالة، هو أن النفس تتعمق وتتداخل في معرفة الروحانيات وتنكشف لها الحكمة بعد أن كانت مستورة عنها بسبب ظلمة الشهوات

الجسدية، وتنتقل النفس لتنضم إلى زمرة الروحانيين. و يشدد القديس ديودونخس في تعريفه للنفس التي وصلت إلى هذا الحد بأنها « النفس ذات الطابع الروحاني الصرف »، وعني هذا أن النفس لا تتأمل في الروحيات فحسب بل تكون هي ذاتها موضوع تأملها أيضاً؛ تتأمل وتنطق بالإلهيات لا كأها أمور غريبة عنها بل من ذات طبيعتها!

٣١٩ — فأما النفس التي تحب الرب الذي هو لكر الحقى - صبر والمداومة بإيمان، فإنها تثمر ثمار الروح وتكمل كل برووصايا الرب التي يربها الروح فيها بدون تقصير أو عيب.

أبا مكاريوس الكبير

أقوال الآباء في ثمار التأمل :

حكمة ومعرفة روحانية :

٣٢٠ — من نعمة التأمل وجود صوت التمييز السماوي في العقل ... حتى أن كدمات الله تدركها أدن القلب وتعيها ... وبنعمة فائقة تفهم أسرار الأمور العليا .

غريغور يوس الكبير

٣٢١ — هؤلاء يسألون بصر الحقيق الذي هو الإقرار (الحكمة لروحية) ، الذي ليس سيء أعظم منه في الأمانة المسيحية .

أبا أنطونيوس الكبير

٣٢٢ — هكذا المقدسون ، يا أحنائي ، في كل الأجيال عندما وجدوا هذا الروح وسكن فيه رفعوا إلى الرب شكر عظيم لأنه لا يسكن إلا في نفوس الطوباويين و يكشف لهم أسراراً عظيمة .

أبا أنطونيوس الكبير

٣٢٣ — إن قوة نعمة الله الروحية تعمل عملها في النفس بناة وحكمة وتدير عيني سرى . فإذا صبر الإنسان ينكشف له أخيراً كمال صنيع النعمة جهرأ .

أبا مكار يوس الكبير

٣٢٤ — إن قوة نعمة الله في الإنسان ، عندما تحسب النفس أمية بقول الحكمة ، تعدها بولها بعد جهد عظيم وصبر كثير وتجرب متنوعة واختصار إرادتها ، فإذا احتضنت لنفس ولم تحرر الروح القدس وكانت موفقة لها ، فإنها تحسب حسنة أهلاً لأن تطلق من شدتها لتتأمل مع الروح وغنى الحكمة التي ليست من هذا العالم .

٣٢٥ — وحتى إن لأن جميع الذين يحبون الله ويردون كل الأشياء لأحبه و يوطنون على الصلاة ، تتعمق الأسرار التي لم يعرفوها من قبل لأن الحق يظهر لهم دونه و يعمهم كل ما هو حق .

أبا مكار يوس الكبير

٣٢٦ — أما الذين يمدحون في نعمة الروح ، فإنها تعطيهم بدم لميتوتة عن أوجاعهم و يدخون إلى

راحة النفس حيث يتنعمون بالمعرفة الروحانية، فيفرزون أعمال الشياطين وخطايا الشرير والأوجاع والأفكار التي فيهم والحروب التي معهم، ويحشون أيضاً بزيارة الروح التي تكون عند الأطهار، ومن رائحة ثيابهم يفرزون الطاهر من النجس بواسطة النور الإلهي.

الشيخ الروحاني

حرارة التبشير بأمر الله:

٣٢٧ — عندما يحشون القديسون في تأمل الأمور العليا و يتذوقون جمال الحياة الروحية وثمارها، يجدهم يشون من ثقل الحياة الجسدية، و يتحمسون لإعلان محاسن السماء لأحسانهم بقدر ما يستطيعون... وذلك لأن عقوهم تكون ملهبة بحب ذلك الهاء الداخلي الذي لا يستطيعون حتى مجرد وصفه كما رأوه. ولكن عندما يتحدثون عن هذه الأمور تنفذ كلماتهم في قلوب سامعيهم وتشعلها ناراً.

٣٢٨ — كل من يحبي مسفعة من التأمل ورؤية المناظر الروحانية يرتبط بضرورة التحدث بها للآخرين (الساخرين في طريق التأمل الروحي)، لأن هذه الأمور إنما استعلنت له من أجل منفعة الآخرين أيضاً. فعليه أن يعظ الآخرين و يعتني بتقدمهم.

٣٢٩ — حينما يعود الإنسان من تأمله لتأدية فرائضه التي يعملها بالجسد (صلاة. صوم. سجود... إلخ.)، تحده يغذي ذاكرته بحلاوة الله فتدسم نفسه من خارج بحركات خشوعية وشوق مقدس من لداخل، مجتهداً دائماً أن يستعيد تذكرها والتحدث بها.

غريغور يوس الكبير

«لم أكر معانداً للرؤيا السماوية، بل أخبرت الدين في دمشق وفي أورشليم حتى جميع كورة اليهودية ثم الأمم أن يتوبوا و يرجعوا إلى الله.» (أع ٢٦: ١٩ و ٢٠)

بولس الرسول

كشف النفس لذاتها:

٣٣٠ — كلما ساهم مستوى العقل في تأمل الأشياء الخالدة انزعجت النفس من الأشياء والأعمال الرائلة، وانقضت منها بخوف. وعندما تدرك بُعد ذاتها عن النور الحق بسبب آثامها، تكتشف مقدار جرمها وتعديها. وهكذا كلما يستير العقل يرداد خجل النفس بسبب ما تستوضحه من مقدار جوحها عن مبادئ الحق.

غريغور يوس الكبير

٣٣١ — بمقدار ما يتقدم عقل الإنسان ويمتد نحو الصفاء والنقاوة في التأمل، كلما يظهر له دنسه وعدم نقاوته، عندما يرى ذاته في وجه مرآة الطهارة الحقّة! لأنه كلما ترتفع النفس إلى تاورية أعلى

وتعتمد إلى الأمام، تتوق إلى أشياء أعلى من التي تتممها وتتأكد حينئذ من حفاضة وتفاهة الأشياء التي تؤديها. لأن أسطرة خادقة تكشف حبايا كثيرة. والحياة التي بلا لوم نشيء حرباً عميقاً على ما فرط من الخطايا.

يوحنا كاسيان

اتساع القلب:

٣٣٢ — حينئذ لا تظنوا فقط عن أنفسكم بل وعن الآخرين. لأن كل من قبل هد الروح لا يسعى له أن يطلب عن ذاته فقط ولكن عن الغير أيضاً. أما أنا فطمني من تحكم ليلاً ونهار لئلا يكون فيكم عظمة لذة هذا الروح الذي قد قبله جميع الأطهار.

أبا أنطونيوس الكبير

٣٣٣ — هؤلاء بمودهم الروح وعملهم همّاً وأسعاً على جسس الشر لدين رثوا، فيتشبعون في ذرية دم كلها وتضطرم فيهم محبة الروح للطبيعة الشريرة حتى أنهم، لو استطاعوا، لخطفوا كل نفس بسان متعب إلى أحشائهم دون تفريق بين جيد وورديء.

أبا مكاربوس الكبير

حفظ ورعاية:

٣٣٤ — وإذا نظر الرب هذه الثمرات الحسنة في النفس فإنه يصبها إليه كرائحة بحور مختار و يفرح بها مع ملائكته الأطهار، ويحفظها في جميع طرفها لتصل إلى موضع راحتها ولا يعوى عليها الشيطان لأنه يظن إلى الحارس لعوى المحيط بها. فافتوا لكم هذا الروح لكي تخاف منكم الشياطين، وتحت عليكم الأتعاب، وتحولكم الإلهيات.

أبا أنطونيوس الكبير

سهولة وراحة:

٣٣٥ — وإلى العمة الأولى يرجع العقل — أي يرجع إلى البدير الروحي الكامل — فيتأمل في حب الخالق وعنايته وكرامته الصالحة، وتنطلق من الإنسان حينئذ كل الشكوك والخوف.

مار إسحق السرياني

٣٣٦ — وليس فقط تكون الحروب عنده كلاً شيء بل ويزدري أيضاً باللحم الذي هو سب القتال. هذا هو تدبير لصلاة، وهذه هي منفعة الحديد الإلهي، وهذا هو العمل الكامل الذي يكون برفعة التأمل بالعقل... ومن هنا نحس، بالعقل، أننا ننال الآب السماوي وورثة مع يسوع المسيح.

مار إسحق السرياني

٣٣٧ — هؤلاء يكونون متشبهين بالله في حبه حركاتهم النورانية وسهولتهم، يصنعون مشيئة الله بفرح وحب. الأوقات والأرمنية تكون خفيفة هبة عليهم مثل دقيقة من ساعة، لأنه من أجل نذهم يسود لزمان ويستينون بالضيقات.

الشيخ الروحاني

فرح:

٣٣٨ — هذه لموة الروحانيه حينما تخل في النفس تعطيا لذة وتملاًها فرحاً وسروراً يوماً بعد يوم وتشعل فيها حرارة إلهية.

مار إسحق السرياني

٣٣٩ — الروح لمدس يعيش النفس، و ينفذ في جوهرها، ويرؤح ويرطب حتى أعضاء الجسد براحة إلهية لا توصف.

٣٤٠ — لأن الدير تحسوا أهلاً لأن يبر المسيح أدهامهم بالروح، يهودهم الروح هدايات مختلفة، ويعمل للعملة في قلوبهم سرّاً، وتكون لهم راحة روحية، فتارة تعوهم وتفرح قلوبهم بفرح وسرور لا يوصف، وتارة تجمعهم كالعروس لي تنعم حب عريسها، وتارة تخلقهم فيصرون كالملائكة، ثم من فرط الإندهال بالسرائر الإلهية.

أبا مكار يوس الكبير

٣٤١ — «ومعديو الرب يرحعون ويأتون إلى صهيون بترنم وفرح أبدي على رؤوسهم. إسحق وفرح يدركهم ويهرب خرون ولشهد» (س ٣٥: ١٠). النفس، بالتأمل، تصل حتماً إلى جرنها لسري المعاني، الذي على رحائه تعبت وحاهدت كثيراً فتعمر بفرحة الخير الحقيقي وتنشئ رائحة صفاء وهدوء لأبدية وأفراح أخرى غير موصوفة:

سرور خفي في الداخل

فرح وطرب في القلب

إشتياق ملتهب نحو الله

تهليل داخل النفس لا ينقطع

أوغسطينوس

رحمة متسعة:

٣٤٢ — وتدير مسيرة الروحانية تتكامل هذه الأكامل كالثلاثة: المودة والمفاودة والكمال. فُسُن للمديس ما هي التوبة؟ قال: هي ترك الأمور المتقدمة والخرن على ما فرط من الخطية بقب مسحق. وُسُن ما هي المفاودة؟ قال: حب رحوم على جميع طبائع الخليقة سواء كانت سرّاً أو طيوراً أو وحوشاً أو

دباب (ثعالب وحيات)، حتى أنه يكون من مجرد ذكرهم فقط تفيض العيان بالدموع من شدة الرحمة
بي تعصر القلب، ولا يحتمل أن يسمع أو ينظر أذية تلحق بإحداها حتى ولو كانت حيواناً مؤدياً لأهل
الرحمة الفياضة في القلب بغير كيل بشبه الله.

مار إسحق السرياني

محبة:

«لأن محبة الله قد انسكت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا.» (رو ٥: ٥)

٣٤٣ — إن الدين يتساقط عليهم بدي روح الحياة «يرل مثل المطر على الجراز ومثل الغيوث الزارفة
على الأرض» (مر ٧: ٦)، تجذب قلوبهم بحب إلهي للمسيح، بأسرهم ذلك الجمال والمجد إلى أشياء
دائم نحو المسيح.

٣٤٤ — يكونون مسيرين بالجمال الإلهي، مرقصى بالحب، إذ تكون حياة الحود قد انسكت في
قلوبهم. لذلك فإن شهوهم دائماً في الملك السماوي، واضعيه أمام عيونهم على الدوام، ولكي يصوبوا
شهوتهم فيه ينحلون من كل محبة العالم وما فيه.

٣٤٥ — فشل هذه النفوس التي أحست الرب حياً حاراً لا ببطيء تستأهل للحياة الأبدية، ومن ثم
تُحسب أهلاً أيضاً للإفناء من الأهواء والشهوات الشريرة، وتعال قوة من الروح القدس وشركة سرية
مع المسيح على الدوام.

٣٤٦ — وأما النفس التي وصفت إلى درجة الحب المشتعل فيها تعمل أعمال لرب بلا إحصاء، ثم
تظهر بسيرتها أنها لم تفعل شيئاً البتة بسبب الحب الحار المشتعل فيها نحو الله. ومع أنها تمتع الجسد
بالأصوام والسهر، إلا أنها لا تكف عن ممارسة الفصائل كأنها لم تتعب قط. وذا تُحسب أهلاً لمواهب
الروح مختلفة وبعام مواهب الأسرار السماوية، إلا أنها بسبب حبها المتأجج لله تظهر على الرغم من
ذلك كأنها ليست أهلاً لشيء ولا تملك في ذاتها شيئاً.

أبا مكاريوس الكبير

٣٤٧ — عندما يتذوق العقل حلاوة التأمل يشتعل بالحب.

غريغور يوس الكبير

وداعة واتضاع:

٣٤٨ — كلما تقدم القديسون في فضيلة التأمل، احترقوا دواهبهم وعرفوا أنهم لا شيء وأقل من لا

س٤٠٠

غريغور يوس الكبير

٣٤٩ — عوض الأفكار الكثيرة التي كانت تتجاذب في النفس، يمتنع الإنسان بالأفهام الروحانية و يسبح الصمير بالتأمل في عظمة الطبيعة الإلهية و بالهذيد بالثالوث القدوس، و بتذكاردائم لعشق المسيح و نور محده الإلهي، و بالهذيد يرتب الملائكة المعجدين، و ذكر الفردوس و أرواح الصديقين الذين كمنوا جهادهم. و يخاف الإنسان من الدينونة و يحسب كل إنسان أحمق منه. و إذا نظر الناس سواء كانوا زبارة أو طاملين بعترهم أفضل منه في ضميره الحق باخو وليس بالكلام الطاهر، و بقلب طاهر من كل شيء ينظر كل شيء أنه حسن إذ يكون بضمير الله يفكر و ينظر.

مار إسحق السرياني

٣٥٠ — و يصير رحوما بالحق حتى أنه لا يعرف أن يهزق بين المستحق و غير المستحق، و متواضعاً بالحق حتى أنه إذا مدح وهو مستحق للمدح ما يستر يح قلبه.

مار إسحق السرياني

إحتمال عجيب:

٣٥١ — و عندما يسكن فيهم روح الله فإنه يريحهم في جميع أعمالهم، و يخلوهم حمل نير المسيح فلا تعب سواء في عمل لفصائل أو في الخدمة أو في سهر الليالي. لا يعضون من شتيمة الناس ولا يخافون البسة، لا من نساء ولا من وحش ولا من غلاء ولا من شيطان، لأن فرح الله معهم ليلاً و نهاراً يربي عقولهم و يغذيها فتتمو النفس بالفرح الدائم.

أبا أنطونيوس الكبير

طهارة:

٣٥٢ — و لذين امتلأوا من حكمة الروح إذا ما الهت فيهم الشهوة فلا يستسلمون لها البتة، و إذا رأوا الخطيئة ماثلة أمامهم فإن عقولهم لا تتجسس بها أو تفكر فيها، لأن أصل الشر وزرعه يكون فيهم جافاً محترقاً، هذه هي درجة العظماء بالنعمة حقاً!

أبا مكاريوس الكبير

رهبة:

٣٥٣ — و الذين اسهوا شهوة الروح السماوية المقدسة، الذين سُيت قلوبهم بحب الله و تأحب فيهم لبار الإلهية، التي جاء الرب لإلغائها على الأرض (لوقا ١٢: ٤٩)، و هو لا يريد إلا اضطرامها، هؤلاء جميعاً ينظرون إلى الأشياء التي في هذا العالم — الثمينة و المعترة جداً — كأنها أشياء كرهية بسبب نار حب المسيح المشتعلة في قلوبهم ليلاً و نهاراً.

أبا مكاريوس الكبير

عدم ديونة:

٣٥٤ - لا سلطان ساهم من بلاوة المرامير وهليل الروح حتى أنهم لا يعطون فرصه لشيطان أن يُنقى
 وهم ساهموا المتقدمة، وحتى تمتلئ النفس من ثمار الروح نغزى تماماً من الكآبة واصبى و صحر،
 وتلبس للإنساع و سداد و مفرح . بعد وفتح في قلبه . ب حث لسترا اساس . نصر بين والهر
 محققه على ر ب فيه ، فطرد كل فكر يوسوس له . ر ب هذا صبح و دك شرير، هـ ر و دك
 حاصي، ر ب حواسه . حبه و تصاحبها مع النفس و صمير ثلا يحرث واحد منها . لعصب أو
 ر بعبره على واحد من أفراد حبة . أما النفس العاقر الحاية من ثمار الروح فهي لاسه حقه على
 بروء و عصب و لخص و كآته واصحر والإضطراب، وتدين على الدوم قربها بحد و ردى .

مار إسحق السرياني

حرارة العبادة:

٣٥٥ - عذوب سرور لعمه الإلهي المسديء بالطريق الروحاني، تررع في قلبه انضغاً، وتعمل
 فكره تحب لشر ب، وسمده دموع على ذكر خطاياه وتغني في فيه الترتين، وتعطيه حقة ودة في
 خدمته لطوبئة، وحب له سجود موصل، تشعل في فيه حلاوة ذكر القديسين وأعمالهم وقصصهم،
 وتعطيه حراره لئلا تنسى دعه هم، تحب به القراءة المستتيرة وفتح دهبه لفهم المكتوب وتحرك فيه شعورا
 باسمه على خطاياه مع دموع بلا كل، تحب للإنسان عمل الخير ومساعدة المرضى ولضعفاء والمثل إلى
 هدوء و لصمت ... و حث تحرك فيه . حتى هذه الحركات الروحية وأحر تشعه بجميعها، كل حسب
 احتياجه واشتيافه.

الشيخ الروحاني

٣٥٦ - حديث للأب صاروفيم ساروفسكي مع تلميذه عن اقتناء الروح القدس:

تلميذ الأب صاروفيم: «أنا لا أفهم كيف يمكن للإنسان أن يتأكد أنه موجود ودفن في الروح
 القدس» أو كيف يمكن أن أحصل على وجه التأكيد من أن هذا الإستعلان فيّ أنا؟»
 الأب صاروفيم: «لقد سبق أن قلت لك إن هذا أمر بسيط، ولقد تحدثت لك كثيراً عن حالة
 نوسنت دس يكون موحود في الروح، وقد سبق أيضاً أن شرحت لك كيف تتحقق من هذا الوجود
 فينا ... فإذا يعوزك أكثر من ذلك يا صديقي؟»

التلميذ: «أنا يلزمني أن أفهم ما سبق أن قلته لي بأكثر وضوح».

صاروفيم: «سمع يا صديقي، نحن الآن كلنا في هذه اللحظة موحودين في روح الرب ... لماذا لا
 ننظر إلى؟»

التلميذ: «أنا لم أعد أستطيع أن أنظر إليك يا أبي، فإن عيبك يسع منها نور كالنور خاطف وقد
 صار وجهك يتوهج أكثر من الشمس، لقد تأذت عيني من النظر إليك!»

صاروفيم: «لا ترتعب فأنت في هذه اللحظة أيضاً قد صرت مصيئاً كما صار لي، فقد أصبحت أنت لآخر الآن في ملء روح الله وإلا ما كنت قد استطعت أن تراني بما رأيتني فيه».

والمخني يحوي وأسر في أدبي: أشكر الرب على صلاحه اللاهوتي بخود، وهوذا أنت ترى أنني لم أعمل شيئاً قط من أجل دين حتى ولا إشارة الصليب، ولكن كان بكفى أن ناديتُ الرب مصيئاً بفكرتي ومن في فناء: «سأرب أجمعته مستحقاً أن يرى بعينه جنون روجت الذي تعم به على حداثتك عندما يتراءى لك أن تظهر لهم في بهاء محدث العجيب». وهكذا ترى يا صديقي أن الله استجاب في الحال لصلاة صاروفيم لمسكن. فكم ينبغي أن يسكر الله على هذه العطية لقائفة التي منحها لنا كنيسا، عبداً ربه حتى لآباء في الصحاري لم توهب لهم دائماً هذه العطية التي بها استعلن صلاحه. إن نعمة الله كأنه مملوءه حياً وحياتاً نحو أولادها رأب أن تعزى منك لمضطرب سقاعة أم الله... فلماذا أراك يا صديقي لا تريد أن تحدي في وجهي؟ أنظر فتى غريبة تدون خوف والرب معاً الآن!...

التلميذ: «فما نسحني بهذه الكلمات نطعنُ إليه فانسكت بحوف مقدس!... تصور أنك رفعت عينك فجأة من فرص الشمس الوهاج في عرّ الظهر لتحدو في وجه إنسان داخل هذا الفرص وهو يتحدث إليك!!!...»

كنتُ ألاحظ تحرك شمعتيه وملامح عييه وأسمع صوته وأحس بيده وهو ماسك كتي، ولكن لم أسمع أن أرى لا يديه ولا باقي جسمه والكل غاب عن بصري ما عدا النور المتوهج الذي يحيط به ولدي يشع منه فيسقط على الثلج الذي يعطي الأرض من حوله و يضيء قطع الثلج المتساقطة عنسا من السماء (الوقت شتاء والأب صاروفيم كان يعيش في لعاية في العراق)».

صاروفيم: «بماذا نحس؟»

التلميذ: «سعادة تفوق الوصف!»

صاروفيم: «أي سعادة؟ حدّد بالضبط».

التلميذ: «أشعر بهدوء وسكينة وسلام في نفسي لا أحد لها كلمة نستطيع أن نعرّعها».

صاروفيم: «إسمع يا صديقي، هذا هو سلام المسيح الذي وعد به: سلامي أترك لكم سلامي أعطيكم. السلام الذي لا يستطيع العالم أن يعطيه. السلام الذي يعزى كل عقل. ولكن بماذا تسعر أوصاً؟»

التلميذ: «بسرور لا حد له داخل قلبي».

صاروفيم: «حيثما يأتي الروح القدس ويحل على إنسان ويغطه بماء وجوده، تنبض النفس فرح لا ينضب به لأن الروح مملأ كل ما يلمسه بالسرور. فإذا كانت ناكورة الفرح لسمائي قد ملأت فبك هذه النعمة وهذه السعادة، فماذا يقول في الفرح الذي سيعطاه في المنكوت الذي ينظر كل الذين يتطرونه الآن على الأرض! وأعلم يا صديقي أنك وإن كنت قد بكيت أيضاً هنا في زمان غربتك على الأرض

فاسطر أي فرح أرسه لك الرب ليعرَى فنك أيضاً الآن ها . من أجل ذلك ينبغي أن نجاهد في الحاضر حتى نسلع إلى فياس قامة ملء المسيح وتتشد أكثر فأكثر لأنه حينئذ يتحول الفرح الحزني المؤقت الذي بحسه الآن و يُستعلَى في ملء كماله ليفمر وجودنا كله بمسرات لا يُنطق بها ولا يستطيع أحد أن يزعمها منا!!»^(١)

خاتمة مفرحة:

٣٥٧ - إن بين المهمكن بأمور العالم وبين المشتغلين بالتأوري (أي التأمل الروحي) فرقاً: فالأولون تبديء أمورهم حلوة بهجة مفرحة، وتنتهي مرة كثيرة مظلمة. أما الآخرون فتبديء أمورهم مريرة محزنة مظلمة إلا أنها تنتهي بالفرح والبهجة والسرور. والذي داق الطريقتين يعرف قيمة هذا القول.

مار إسحق السرياني

(١) Mystical Theology, by V. Lossky, p. 229.

الفصل الخامس

حياة النائم وحياة العمل



+ «وأما من عمل وعلم، فهذا يُدعى عظيماً في ملكوت السموات.» (مت ٥: ١٩)

+ «وأما من فنواطب على الصلاة وخدمة الكلمة.» (ع ٤: ٦)

أولاً: التسليم بمبدأ وجود الحياتين في الكنيسة:

من نعم الله على كنيستنا أن جعلت لحياة الخلوة والتأمل نظاماً مرتباً فيها، ووضع له نظمه وفوائده، وحافظ عليه أشد المحافظة. فردّها الجميل ستة عشر قرناً وهو يغذيها من ثمرة جهاد أفرادها.

هذا هو نظام الرهنة الذي افتتحه بولا القديس السائح وأنطونيوس و باخوميوس ومصريوس، هؤلاء الذين خرجوا من العالم طلباً للخلوة والمعيشة مع الله، في حياة تأملية خافية من اهتمامات الجسد ومطالب الحياة الكثيرة الباطنة. فيها وصلوا في سعيهم لاجح إلى نتائج روحية واضحة وملموسة، احتضنتهم الكنيسة، واعترفت بنظام حياتهم العجيب، وامنّت بالحياة التأملية في مجموعها (أي الفقر والعفة والطاعة) كمبدأ كنسي. بل إنها امتزجت به حتى صارت الرهنة والكنيسة شيئاً واحداً.

وإن كانت الرهنة تعاني في هذا الجيل شحاً في روحانيتها فما ذلك إلا لعدم سلوك آبائها سلوكاً عملياً في حياة الخلوة بالتمرن على الصلاة والتأمل للوصول إلى بركات الحياة الروحية. فأنطونيوس خرج شاباً ضعيفاً لا يعرف كيف يصلي، خالياً من كل معرفة وحكمة ختبارية - اللهم إلا إيمانه الذي كان يملأ قلبه الكبير - حتى إن الشياطين سهرأوا به واحتتمعوا عليه وأوسعوه ضرباً مبرحاً أفقده عافيته. وكذلك أبو مقار وبقية الآباء كدهم استدأوا الطريق وهم مثلاً ضعاف في كل شيء. ولكن بجهادهم في الخلوة وتدرهم المستمر على حياة الصلاة والهذيد والتأمل، امتلأوا معرفة وحكمة روحانية ووصلوا إلى أعلى آفاق الروح؛ وإلى حد النبوة وكشف أسرار النفس، وعمل المعجزات وشفاء المرضى وإقامة الموتى. وهذه المواهب جميعها لم تُعْطَ لهم إلا كنتيجة لجهادهم الطويل وخيرتهم بالطريق وتحكمهم بالروح...

ولا زلت لرهنة، والطريق هو هو، والروح مستعد أن يعطي سخاء؛ ولكن يعوزنا لسفوس الملتبة لاجتياز صعوبة الطريق الضيق اللذيد، والصوب المملوءة حباً لتسكب فيها الحكمة الروحانية سكباً.

حياتان:

٣٥٨ — تعلّمنا الله بكلماته المقدسة نوعين من الحياة: حياة التأمل وحياة العمل:

أما حياة العمل فهي أن تعطي الجائع خبراً، وتعلّم الحاهل حكمة، وتهدي الخطاة، وتدعوا إلى لسلوك بالتوصع، وتعنى بالمرضى وتمده باحتياجاته وتنكس بالمحتاجين الذين يلتجئون إليك.

أما حياة التأمل فهي أن يحتفظ لإسباب عقده ومشاعره لحب الله، يكف عن همامات لعالم ليلتصق فقط بشهوة خالفه، فلا يجد العقل مسرة في شيء سواه ولا يهتم بشيء إلا بالصلاة ورؤية الله... يحتمل بالفرح أحرار الجسد ويمد بروحه لبشارك زمرة المرمس من جوفات الملائكة مهلاً مع السمانيين من أجل نعمة الخلود التي سيتمتع بها في حضرة الله إلى الأبد.

غريغوريوس الكبير

٣٥٩ — في لكيسة نوحان من الحياة: الأول بالإيمان، والثاني بالعباد، واحد لزمان الغربة والآخر لزمان الخلود. واحد للشغل والكد والآخر للهدوء والسكون، واحد للطريق والآخر للسند الذي يسهي إليه الطريق، واحد لجهاد العمل والآخر هبة التأمل، واحد لترك الشر وعمل الخير والآخر ليس فيه شر يُترك بل خير يُدرك، واحد في حرب العدو والآخر بلا حرب وبلا عدو. واحد ينمو ويتفوق بالتجارب والمحس والآخر ليس فيه محال للتحربة ولا شعور بالمحبة. واحد يمتطي شهوة اللحم والآخر يسير وراء الروح. واحد يهتم ليال النصر والآخر يحيا في النصر بلا هم. واحد يسأل المعونة في البلية والآخر يحيا غير مبالٍ بالبلايا، إذ يكون في حفظ من يعين وقت الهموم والبلايا، واحد يساعد المحتاج والآخر يعيش بلا حاجة. واحد يغفر للمذنب إليه ليغفر ذنبه والآخر لا يشعر أن أحداً قد أذنب إليه أو هو أذنب إلى أحد، واحد يُرزا بالشر لئلا يستعلي بالخير، والآخر لا يؤذ لأنه بالنعمة ينتص بالخير الأعظم. واحد يبرئ من الخير والسر والآخر يرى الخير في كل شيء. لذلك فالأول حس ولكه لا يرل يشق أما الآخر فهو أحسن ويبقى حسناً.

أوغسطينوس

٣٦٠ — حقيقتان موضوعتان أمام كل إنسان: الأولى عمل والثانية تأمل. بالأولى يرتغل والثانية سلخ من هاية الإرتحال. بالأولى بكذ وتعب لكي تظهر قنوسا، وبالثانية هداً فرى لله. الأولى تصادى نهموس الحياة الحاضرة والثانية توفى روح الحياة الأبدية! الأولى بالجهد والتعب لبطهارة والثانية بالسكوت والهدوء للتمتع بنور الطهارة المدركة. بالأولى تكون لنا حياة فاضة في هذا العمر الرائل، وبالثانية نؤهل لرؤية الحق وحياة الدهر الآتى.

لعد اختص ثلاثة من البشيرين الذين هم متى ومرفص ولوقا بتسجيل كلمات وأعمال مخلصنا لسلوك نالحق في الحياة الحاضرة، وليسهلوا لنا طريق الفضيلة والعمل، وحتص يوحنا الحبيب بتركية

أفضلية حياة التأمل .

أوغسطينوس

٣٦١ — روجتا يعقوب تمثالان لنا الموضوع بوضوح : فيعقوب قبل ليثة مُجَبَّراً على رجاء الحصول على راحيل التي كان يحبها قلبه . فجهاد الحياة والعمل الذي يقوم به بالإيمان هو على رجاء نوال حياة التأمل الأبدية في الله ، واثقين من أننا سوف ننال مسرات الحق .

إبه على رجاء التنعم بالتأمل في الله إلى الأبد نتوب عن شرورنا ونُطَهِّر من خطايانا . أما إذا توخينا الحقيقة فليس أحد يميل بطبيعته إلى التعب والمشقة ، وليس أحد يُغرم بحياة الجهاد حباً في التعب أو جرياً وراء الألم . فإن كنا نقوم بهذه الأعمال ونحتملها بالرحب ، فكوسيلة توصلنا إلى حياة التأمل الأبدية في الله . فلو ترك كل واحد لرغسته الصادقة ، فإنه يود لو أمكن أن يصل مباشرة إلى بركات حياة التأمل في الله دون القيام بأعباء الجهاد الذي يجابه الإنسان في الحياة العملية ، ولكن هذا مستحيل في عالمنا المادي الذي نحيا فيه ، إذ يتحتم أن تتقدم حياة الجهاد والعمل ومباشرة أعمال الخير والفضيلة على التنعم بمسرات حياة التأمل . فكل عقل يتوق إلى الإطلاع على الحق ، يهون أمامه جهاد حياة العمل ، إذ بدون هذا الجهاد لن يستطيع العقل أن يصل إلى هدفه الحق المطلق الذي يسعى إليه في حب ملتهب .

وهكذا حينما يتذوق الإنسان لذة الجهاد ولذة الوصول إلى هدف جهاده (أي حياة التأمل بالروح) ، فإنه يتحقق من جمال اتحاد الحياتين معاً ، أي حياة جهاد العمل والفضيلة وحياة التأمل بالروح . هدفنا ، إذن ، واحد وهو حياة تأملية مع الله الأبدية ، ولكن إذ يتعذر بل يمتنع أن يستطيع الإنسان البقاء في هذه الحياة التأملية دواماً بسبب ضعفات الحياة المادية ، وشغب الجسد الفاسد الذي يجذب النفس من رفعة تأملها لتسقط إليه ، لذلك فإن الإنسان يعود إلى أعماله المادية وجهاده ... وهكذا بسبب الشيء الواحد يحتمل الإنسان أموراً كثيرة ...

هما حياتان الواحدة محسوبة والأخرى محتملة من أجل المحبوبة . ولكن تلك المحتملة لها ثمارها الكثيرة أيضاً ، حتى أنها قد تصير هي أيضاً محبوبة ، إن لم يكن لذاتها ، فلسبب إنتاجها الخصب : «ورأى الرب أن ليثة مكروهة ففتح رحمها . وأما راحيل فكانت عاقراً ، فحبلت ليثة وولدت ابناً ودعت اسمه راوِين ، لأنها قالت : إن الرب قد نظر إلى مذلتني ، إنه الآن يحبني رجلي . » (تك ٢٩ : ٣١ و ٣٢) . فالبشارة بالإنجيل عملية ولادة مستمرة للملكوت السموات ، في حين أن الحياة المحبوبة أي حياة التأمل لروحي هي اتجاه دائم نحو التخلي عن كل المهام ، لذلك فهي حياة عاقر للعالم . لأن في السعي الدائم نحو التخلي عن كل شيء لإدكاء روح التأمل — إهمال الحياة الآخرين المحتاجين إلى معونة وإصلاح .

ولكن حياة التأمل لم تُعَد إنتاجاً وأثماراً ، فعند اكتمال شعلة الحب تتولد في النفس رغبة قوية لتعليم الآخرين وتسليمهم ثمار حياة التأمل .

إن السُّرِّيَّة تَمِيلُ أَكْثَرَ نَحْوَ الْحَيَاةِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَذَلِكَ طَبِيعِي لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَسْعَى لِتَكْمِيلِ مَصَالِحِهِ وَسَدِّ أَعْوَارِهِ ، فِي حِينٍ أَوْ حَيَاةٍ اتَّأَمَّلَ لَا تَحْتَمِلُ إِلَّا السَّعْيَ نَحْوَ كُلِّ مَا يَخْتَصُّ بِاللَّهِ وَالْحَقِّ الْأَبَدِيِّ .
أوغسطينوس

ثانياً : العلاقة القائمة بين الحياتين :

إن موضوع العلاقة بين حياة التأمل وحياة العمل والخدمة ، من أهم المواضيع التي بحثها الآباء بحثاً دقيقاً لم يترك مجالاً لمُحَدِّث . فقد تعرض الآباء لكل دقائق الموضوع وقرروا مبادئ راسخة ، وفرضوا واجبات على كل من ينتحي إحدى الحياتين :

يلخِّص القديس أوغسطينوس آراءه في قول بسيط : « إن دراسة الحكمة الروحانية وتحصيلها تُلْزِمُ الْإِنْسَانَ عَلَى الْمَسِيرِ فِي طَرِيقِ الْحَيَاتَيْنِ مَعاً : حَيَاةَ التَّأَمُّلِ وَحَيَاةَ الْعَمَلِ » .

وإليك بعض القطع المختارة من أقواله :

٣٦٢ — الَّذِينَ قَدْ أُنِيطَ بِهِمْ أَعْمَالُ الْخَيْرِ وَرِعَايَةُ النُّفُوسِ ، مُلْزَمُونَ أَنْ يَحْمِلُوا لِنَاسٍ شَهَادَةً عَنْ الْحَيَاةِ الْآخَرَى . لِذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يَتَفَرَّغُوا لِدَرَاةٍ وَتَأَمُّلٍ الْحَقِّ وَالْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ .

وكما أنه ليس من الإنصاف أن تكون حياة التأمل سبباً في تعويق إنسان كفاء للقيام بالمهام الكنسية ، كذلك أيضاً ليس من العدل أن يكون الإنسان كفاءاً لأمانة القيام بإدارة شؤون الكنيسة ، ولكونه توافاً وممتهاً لحياة التأمل واستهمام الحكمة ينسحب من ميدان العمل لينقي نفسه في فراغ التأمل اللانهاي .

إذن فالوضع السليم يحث على عشاق حياة التأمل والخلوة ، أن ينزلوا إلى ميدان الجهاد والعمل متى ألحَّت عليهم ظروف العمل وحاجة الكنيسة ، وهذا تصير حياة التأمل والخلوة في موضع الإحترام عند كافة الناس .

أوغسطينوس

٣٦٣ — إن الكنيسة تفرح بمن وهوا ذواتهم لحياة الخلوة والتأمل الروحي ، وساروا في طريق هذه الحياة باتضاع ، لأنها تستطيع حينئذ أن تهتف واثقة بهم : « أنا نائمة وفيي مستيقظ » ، وتستريح ، وتعلم أن أوقات فراغها لا تصيب في الباطل إذ يكون جهاد هؤلاء على أشده لتحصيل المعرفة والحكمة الروحية . فحينئذ تبدأ الكنيسة من الأعمال ، يسمو عقلها (أي رجالها القديسون) عالياً نحو محبة الله . ولكن هؤلاء الذين سُرَّت بهم الكنيسة وفرحت بفراغهم من الأعمال — إذا جدَّ بها الأمر — تفرع بابهم بصوت عريستها : « ما تسمعونه في الأذن نادوا به على السطوح » ، وتهتف بهم لتقطع عليهم حلوتهم

قائلة: «إفتحوا لي» إذ تكون في حاجة ملحة إلى كلمة وعظ لإكتساب قطعان جدد، ولكن إذ تشفق على هؤلاء القديسين من اضطراب حياة العمل وتخشى عليهم من الخطية، تتضرع من أجلهم نحو عريسها قائلة بصوت عروس شيد الأنشاد: «قد غسّلتُ رجلي فكيف أوسخها؟» — حينما يخدمون أرض الخطية — ولكنها تسأل من أجلهم «إعسلني كثيراً فأبيض...».

أوغسطينوس

٣٦٤ — أما بخصوص أنواع الحياة الثلاثة: حياة الفرغة من كل شيء للتأمل، وحياة الإشغال بالعمل والخدمة، وحياة إشراك التأمل والعمل معاً، فمعروف أن أي إنسان يمكنه أن يمارس ما يلائمه منها. دا ثابر بإيمان وحب وعقيدة، فيصل إلى بركاتها الدائمة. ولكن يجب أن يكون لكل إنسان نصيب من محبة الحق ونصيب من الخدمة وعمل البر، ولو كان على حساب نفسه. فلا يجب أن يكون الإنسان متمرعاً لدرجة أنه لا يهتم بخير القريب، ولا مشغولاً لدرجة أنه لا يتفرغ للتأمل في الله. كذلك لا تكون لذته في الراحة ومسرته في الكسل، بل في فرغته وراحته يجتهد في اهتمام باحثاً عن الحق... وبذلك يستطيع كل واحد أن يتقدم في الحق ولا يحقد على الآخرين أو يصنّ عليهم بما اختبره وناله.

وليكن المشتغلون بحياة الخدمة في هذا العالم بعيدين كل البعد عن محبة الكرامة ومظهر القوة. وإنما العمل ذاته الذي يؤديه، إذا ما كان لصالح الآخرين كما يجب، وواسطة لخلاص النفوس بالحق، فحينئذ يكون هو الحق والكرامة والقوة معاً.

ولكن يجب أن لا يُعاق أحد من متابعة التأمل ومعرفة الحق، الذي هو عين العمل المستحق لكل مديح. فمحبة الحق هي التي تدفعنا لسعى نحو الفراغ والهدوء المقدس، وضرورات الخدمة تجعلنا نحمل عبء المشغوليات المقدسة.

أوغسطينوس

٣٦٥ — ولكن إذا لم يوضع علينا هذا الثقل — أي نير الخدمة — من أحد، فعلياً أن نسّم ذواتنا إلى البحث والتأمل في الحق، إلى أن يوضع علينا نير الخدمة فنحمله من أجل ضرورة الرحمة: «الضرورة وُصعت عليّ فويل لي إن كست لا أبشر...» وحتى في ذلك علينا ألا نهمل مسرة التأمل، لئلا إذا عُدمناها نفرق حتماً في هذه الضرورات التي تحملناها.

أوغسطينوس

وللقديس غريغور يوس الكبير تعاليم كثيرة في موضوع علاقة حياة التأمل بحياة العمل؛ تُعتبر فذة لوفرة أبوابها التي يطرقها القديس في جرأة وسماحة، فلم يترك إنساناً مسئولاً في الكنيسة إلا وأوقفه على حقيقة وظيفته وخطورة مسؤوليته تجاه الحياتين معاً. ولأهمية هذه

النواحي في الخدمة جعلنا في ختامها ملخصاً لأهم المبادئ التي ينادي بها القديس لكي تكون قانوناً لحياتنا الروحية:

٣٦٦ — طالما نحن في هذه الحياة ونحن لا نندوق إلا لفيل من بداية التأمل؛ في حين أن الحياة لعامة يمكن استجلاء كل نواحيها المتعددة هنا على الأرض.

٣٦٧ — الهدوء الكامل الذي هو فوam حياة التأمل الصحيح لا يمكن أن نحصل عليه في هذه الحياة... والتأمل نفسه لا يمكن استكماله أيضاً في هذه الحياة، حتى ولو كنا ممتلئين عيرةً وحاساً. فابرجل الكامل المختار يستطيع أن يتم كل ما يُعطى له من أعمال ومهام على أتم وجه إلا التأمل، فهو لن يحصل منه إلا على مجرد بدايات هذه الحياة اللانهائية.

٣٦٨ — ومع أن حياتين هما من هبة النعمة، إلا أننا طالما نحيا في وسط الناس ونحن محثرون لسير في حياة العمل والخدمة، غير أن حياة العمل لا بد أن ترافقها حياة تأمل لكي تكون خدمة كاملة.

٣٦٩ — نحن نصل إلى مرتفعات التأمل على درجات حياة العمل والخدمة.

٣٧٠ — الحياة العامة تكون أولاً، حتى يمكن أن تُدرك الحياة التأملية بعد ذلك. ولكن يجب أن نعلم أنه: كما أن الوضع الصحيح أن نمر أولاً على حياة العمل، كذلك يكون من النافع جداً أن نعود بين الحين والحين من حياة التأمل إلى حياة العمل والخدمة، لكي نستثمر ما اجتناه العقل من معرفة لتقوم حياة العمل... وكذلك أيضاً يجب أن نؤهلنا الحياة العملية للدخول في حياة التأمل ولا نقف عاثماً أمام تقدمها في الحياة التأملية... وهكذا نستخدم ما نحصل عليه من استعمال و بصيرة في التأمل للرجوع إلى العمل...

غريغور يوس الكبير

اتحاد الحياتين لصالح الخدمة:

٣٧١ — المسيح — تبارك اسمه — وضح في سلوكه الشخصي نوعين من الحياة. أي حياة الخدمة وحياة النشاط الروحي. ومع أن حياة الخدمة والعمل تختلف تماماً عن حياة الهدوء والتأمل الروحي، غير أن فادينا لكونه أن يدون خطبة أو شهوة جسد، استطاع أن يعطيا في شخصه أمثلة لحياتين معاً.

٣٧٢ — إن من يتيقظ في أثناء تأدية خدماته المقدسة يشعر أن عمه يمتد به ويدخل إلى أعماق نفسه. لذلك فإن تأدية أنواع الخدمات الدينية المختلفة لازمة لحياة التأمل. وكل واعظ يبحث أساساً على لإستقبال في لعادة إلى حياة التأمل مباشرة، مهمللاً الخدمة وحياة العمل التي يجب أن تُمارس أولاً، يُعتبر وعظاً غير كامل! كذلك من يهمل واجب التأمل الروحي بسبب ارتباط الخدمة والمسؤوليات... من أجز هد كان محلصنا الصالح بصنع المعجرات في المدن والأسواق ثم يذهب إلى اجبال مكرساً ليل

كله للصلاة. « كان في النهار يعلم في الهيكل، وفي الليل يخرج ويبس في الجبل » (لوقا ٢١: ٣٧). « وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي وقضى الليل كله في الصلاة لله، ولما كان النهار دعا تلاميذه... ونزل معهم » (لوقا ١٢: ١٧)، حتى سلوكه هذا يعلم المرشدين الكاملين أن لا يحرموا حياة الخدمة من لذة وبركة التأمل، وألا يستخفوا بقيمة حياة الهدوء أثناء خدماتهم. لأنهم بالإعتكاف والتأمل يستلهمون الحكمة والمعرفة، ثم بالخدمة يسكبونها في قلوب سامعيهم. ففي التأمل يرتفعون إلى محبة الله، وبالخدمة والوعظ يهبطون مرة أخرى إلى محبة القريب. وهكذا يجب أن يتشبع ضميرنا بحب الإثنين معاً، أي حب الله وحب القريب. فلا يليق أن تُسر النفس وتسعد بحب الله في حياة الهدوء وحسب للدرجة التي تنكر فيها الإهتمام بخدمة القريب! كما أنه لا يقيق أيضاً أن تنهك في محبة القريب إنهما كما يُفقداهما الهدوء فتتظنى من قلبها جذوة نار حب الله.

إذن، فكل من كرّس حياته ذبيحة حية لله، يلزم عليه أن لا يمتد في الخدمة حتى يلقي بذاته في اتساعها فيفقد نفسه، وإنما عليه أن يمتد في ذات الوقت إلى علو التأمل.

غريغور يوس الكبير

ممارسة الحياتين لصالح الرعاية والرعية:

٣٧٣ - الراعي سواء كان كاهناً أو أسقفاً يجب عليه أن يكون قريباً من الجميع بالشفقة، ومرتباً فوق الجميع بالتأمل، حتى بأحشاء رحمته يحمل فوق ذاته ضعفات الآخرين، و برفعة التأمل في طلب الله يُحمّل هو فوق ذاته. وبذلك لا يردري بضعفات الناس حيناً يشعر بضعفه في الإجتهد نحو التأمل. وكذلك لا ينسى الخلود إلى الهدوء وحياة التأمل حيناً يطلع على نقائص وضعفات الآخرين. والراعي الذي يتمسك بحياة التأمل وحياة العمل معاً يكون قد وصل إلى قمة الكمال.

غريغور يوس الكبير

دوام الرجوع إلى الخلوة والتأمل هو سر نجاح الخدمة والخدام:

٣٧٤ - عندما يخرج الآباء القديسون من اعتكافهم بعد حياة تأملية، يتقدمون كالأنوار ليعطوا يداً للخدمة في الحياة العامة. فيضيئون كسهم من نور في فضاء الخدمة المتسع. وبعد أن يؤدوا نصيبهم يرتدّون إلى حضن تأملاتهم وهدوئهم، ليحيوا لهيب غيرتهم فيتأجج و يلمع من جديد بلمسة من نور السماء. لأنهم يجمدون بسرعة في وسط أعمالهم الخارجية، بالرغم من صلاحهم، إذا لم يعودوا قلقين نواقين إلى نار التأمل لتنبعث فيهم الحرارة والنور، تجدهم يخرجون من حضرة القدير ومن نعيم بهاء نوره الذي ينسكب على عقولهم، وهون عليهم ذلك من أحل الحب المشتعل فيهم نحو الآخرين! فيتقدمون خطوة نحو الحياة العممية، إلا أنهم يرتدون سريعاً إلى درسهم اللذيد في الهدوء والتأملات المقدسة.

حينما يتحدثون إلينا يسكبون ذواتهم في آذاننا و يقلون إلى قلوبنا حياة مجسّمة في كلمات محسوسة،

إلا أنهم يتركوا سريراً ليعودوا إلى أفكارهم الصامتة ليطلبوا مصدر الحياة والبر!!

وهم إذا لم يعودوا على الدوام، بعقول شغوفة، إلى الهدوء والتأمل في الله فإنه يصيبهم الفحط والجفاف الذي يظهر واضحاً في كلمات وعظهم!

غريغور يوس الكبير

خطورة إهمال إحدى الحياتين بالنسبة للرعاة والخدام:

٣٧٥ — ليتك، أيها الراعي، لا تُفصص من اهتمامك بداخل نفسك حينما تشغل في الخارج بأمور الآخرين. كذلك لا تهمل إشرافك على أمور رعييتك خارجاً حينما تحدد في نفسك، حتى لا تعثر أنت في داخلك إذا أعطيت نفسك للآخرين ولا تسقط بسبب حقوق المظلومين إذا أعطيت اهتمامك لنفسك فقط.

غريغور يوس الكبير

الإنحياز الزائد لحياة العمل والخدمة نتيجة ضعف الخادم والمخدوم:

٣٧٦ — الذين أقيموا سياسة وتدير إحتوتهم يسون غالباً أنهم مسئولون عن الفوس في كل شيء، فيهممكون ويرتسكون بكل قوتهم ومن كل فلهم ليخدموا أمور الآخرين. وتخدمهم تارةً ينهجون في خدمتهم وتارةً يشغلون ويعقون إذا انقطعت أحوالهم، ويصابون بحمى لتفكير والفق لنهار والليل... فوحدث أن الله أنعم على مثل هؤلاء بحياة الهدوء والتأمل بعيداً عن مصادر شغافهم تجدهم قنمين أيضاً في هدوتهم لأنهم يظنون أن الإغراق في الإشغال أمر حسن أو مشكور. بل إنهم يحسون أنه تعب وألم لهم إذ لم يتعمسوا ويتألموا بتوافه الأمور الأرضية الزائلة. فبينما تخدمهم في إشغال كثير مضبوط بارتباك في أمور لا قيمة لها، تخدمهم جهلاء بمعرفة الروح وأسرار النفس الداخلية التي كان يجب عليهم أن يتفوه معرفتها، حتى يتسنى لهم معرفة وقيادة اسفوس التي سلّمت إليهم. هؤلاء تخدمهم باجحين في كل شيء إلا أن الحياة بينهم فاقدة الحس.

غريغور يوس الكبير

في إنحياز الراعي لحياة التأمل والخلوة هلاك للرعية:

٣٧٧ — وأيضاً يوحد من يأخذ مسئولية تدير الرعية، ولكنه يوجد دائماً توافاً للتفرغ لرياضة الروح، حتى أنه لا يريد أن يدخل في ترتيب أي عمل خارجي بالمرة. وبالنسبة لتخليته عن الأمور الجسدية تخدم بعيداً عن تفهم احتياجات من هم تحت تدبيره. ولا غرابة إذا نظرنا إلى مثل هذا الراعي ببطرة صغيرة، فبالرغم من أنه يُصلح من شأن الحاطيء والأثيم إلا أنه لا يعيهم بحاجات الحياة الضرورية، فيصير وعظه غير محبب للنفس، لأن كلمة الشريعة والحق لا تجد طريقها إلى قلب إنسان معتاز، إذا لم تسندها يد الرحمة! لذلك فليكن الرعاة ذوي غيرة حكيمة على مطالب النفس الداخلية لمن يرعونهم.

وفي نفس الوقت لا يهتمون احتياجات حياتهم الجسدية، لأن عقل الرعية يتشتت عند سماع الوعظ إذ كانت حالتهم الجسدية مهملة من الراعي.

غريغور يوس الكبير

في إنخياز الراعي لحياة الخدمة هلاك لنفسه:

٣٧٨ — على الرعاية أن يكون عندهم محافة دئمة وعناية ساهرة، لئلا يسيما يكونون مهتمين بالأمر الخارجي يتعدون و يسقطون عن عرض خدمتهم الأساسي. لأنه عادة حينما يكون عقل الرئيس يخدم بلا حذر في هموم العالم الرمنية، يفقد قلبه حرارة الحب الداخلي. وهذه علامة الإنسان الذي يكون موزعاً في الأمور الخارجية غير متيقظ لداخل نفسه، أنه لا يحشى بل يصرح إذا قلت له: نك ستأخذ مسئولية نفوس! يجب أن يكون هناك حد محدود يمنع تمادي الراعي من الانشغال هموم الأمور الخارجية.

غريغور يوس الكبير

٣٧٩ — كل من كان خاضعاً تحت رئاسة دينية وعُرضت عليه وظيفة ذات سلطان — حتى ولو كان قد سبق فوهبت له صفات يخدم بها و يصنع بها خيراً للناس — يجب عليه أن يهرب و يرفض من كل قلبه ولا يخضع إلا صاغراً وبغير إرادته.

غريغور يوس الكبير

كيفية ممارسة حياة التأمل في وسط العمل والخدمة:

٣٨٠ — حينما يُرغم القديسون على ضرورة العمل فيشتركون في الخدمات الخارجية، تجدهم على الدوام يركزون ذواتهم همة في فحص وتمتيش أسرار قلوبهم، وهكذا تجدهم على الدوام مرتفعين بسمو أفكارهم الداخلية. وحينما يفرعون من شعب الأعمال الزائلة تجدهم عند قة تأملاتهم، يمحسون في أحكام الإرادة الإلهية. ومن هنا نسمع عن موسى كيف كان باستمرار يلجأ إلى خيمة الاجتماع في الأمور المشكوك فيها، وهناك يستشير الله سراً ليعلم الأمر الحقيقي المقطوع به الذي يجب أن يسير بمقتضاه. وإن تركه لسجموع المزدحمة والتجاءه إلى خيمة الاجتماع هو في الواقع بمثابة الكف عن شغب الأعمال الخارجية والدخول إلى خلوة العقل، لأن من هناك يُستشار الله بالحق. وما سمعه من الداخل في هدوء القلب هو ما يجب أن ننادي به ونصنعه في الخارج علانية.

هذا الطريق الصالح يتبعه الراعي الصالح فلا يُقدم على القطع والبث في لأمر المشكوك فيها — حتى ولو كان عارفاً ببواطن الأمور — قبل أن يخلو إلى ذاته في هدوء العقل، و يتسمع سراً إلى صوت الحق الذي يهتف إليه في هدوء وعدم تشكك أو أدنى انقسام، وحينئذ يأخذ المشورة كما من الله.

ولكي يبقى القديسون على اتصالهم الدائم بالله، تجدهم وهم في وسط العمل الخارجي مستعدين على الدوام للإنسحاب بسرعة بعقلهم وقلوبهم ليدخلوا إلى مخادع القلب السرية، حيث تعودوا أن يسمعوا

صوت الحق من الله في أمان من ارتباك الحواس والمشاعر والميول.

غريغور يوس الكبير

العمل والخدمة ينميان الحياة التأملية:

٣٨١ - كم تسع لنفس في محبة الصديق كم سميت في معرفة الله، وهي بالحب تسع في
لأمة م ومعرفته من سميت في قوى، ومن نصير إلى أعلى وأعلى كم اتسع وامتدت في للأمم نحو
لقريب!

ليتنا حب الله ونحب الصديق من عمق فئسا. ليتنا تسع في متاعر الحب حتى يرتفع نحو المجد
الأسنى لدى يفيض منه نابع الحب. ليتنا نكسب حنان الصديق بالحب حتى يتصلق مع الله في نور
لمعرفة، يسر سرل وسرك حتى يدرك أن أح لنا في الشريعة لأنه بذلك يسوي مع ملائكة في السماء.

غريغور يوس الكبير

٣٨٢ - يرى الحكمة وقد سطعت واضحة تفسر لنا لماذا أحد المسيح جسداً مثل طسعت استشرية.
بذهب في احسان مسرود و يفضي البيل كنه في الصلاة! ثم ينزل حيث الجموع قد احتشدت فيصنع
الخدمة بالمعجرات والآيات عسا! به بذلك قد رسم الطريق لبرعة ومدبري النفوس، حتى يرتفعوا أولاً
بالصلاة والتأمل ثم يتقدموا للخدمة المحتاج! ترك فهم الحب على مرتفعات التأمل، وترك لهم الرحمة في
الأسواق، فعليهم بقدر ما يمتدون نحو الرحمة أن يرتفعوا حيث الصلاة.

غريغور يوس الكبير

٣٨٣ - حين يرتفع عن الحياة العملية لدخل في هدوء التأمل، نجد أن العمل لا يستطيع أن يدوم
في التأمل طويلاً. فكل ما يُشخص إليه من أمور الأندية نراه العقل كم في لعركصورة في مرة، ثم يعبر
عنه مضروداً من عظم الإرتفاع اشدهو؛ و يرتد إلى نفسه ليعرف فيها من حديد. وحينئذ يفسح العمل
سرومية اجهاد في الخير وممارسة الأعمال الفاصلة، إذ يشعر بخفرتة وضعفه أمام فهم التأمل العالية (عن
مستواه بروحي)، فلا مانع في سرول إلى السفح لخدم بالصباع على قدر ما يستطيع. وبذلك يكون
الخير لدى يؤديه بين أسس من عمل وخدمه عاملاً مهماً لرفعه إلى قمة التأمل! وهناك يتقوى من مرعى
الحب التي يقوده إليها تأمل الحق.

وهكذا نثبت صعباً وفساد طبيعتنا لا نستطيع أن ندوم طويلاً في التأمل المصنوع الآخر، فيعود في
نعمس ونعمس، تنهسا حلاوة الأوقات التي تذوقها فيها الله. وهكذا يدعنا من الأعمال الصالحة بنمو
بالتأمل في نور معرفة الحق وشهوة حب الله.

غريغور يوس الكبير

٣٨٤ — في الحياة العملية يستطيع العقل الثبات في العمل بلا سقوط، ولكن في حياة التأمل يُغلب من ثقل ضعفاته فيحور. لأن في عمل الخير للقريب يستمر العقل بنشاط سببياً، إذ تكون الأعمال من طبيعته، فينفج لها من داته. أما في حياة التأمل فإنه يحور سريعاً لأنه بهمّ ليسمو فوق حدود الجسد وطبيعته، جاهداً ليستعلي فوق ذاته هو.

وهكذا في حياة العمل تحد العقل يمتد في مستوى الأرض والأرضيات ليزرع خيراً فيحد مكاناً لتقديمه ليقف. أما في التأمل فإنه يربو إلى فوق نحو المرتفعات الروحية التي هي أعلى منه. فإد لا يجد مكاناً لتقديم يجاهد ولكنه يكلّ سريعاً فيهبط إلى نفسه.

وأيضاً نجد أن في الحياة العملية، الذين يتجددون بالنعمة يهجرون أعمال الشر والخطية تماماً فلا يعودون إليها إطلاقاً. ولكن في حياة التأمل نجد أن الذين يوهنون النظر الروحاني لا يستطيعون أن يدوموا باستمرار في نعمته، حتى ولو انفصلوا تماماً عن حياة العمل وارتكبات العالم؛ بل نجدهم يترددون على باب هذه النعمة من حين إلى حين. لذلك يلزم لهم عمل قريب مناسب يحدد قوهم وتهيئهم للتأمل دائماً.

ولكن بالرغم من أن ممارسة حياة التأمل تكون على فترات متقطعة وليست على لدوام، إلا أننا نكس تأكيد ندوم بلا إخفاق ليدركها بالتمام. إذ ولو أن العقل يقع منها مغلوباً بضعفه، ولكن بمعاودة الحاف بها في اجتهاد مستمر يدركها حتماً. فلا يجب أن نطش أن العقل فهد ثباته في متاعة ما يربو إليه ولو أنه يسقط كثيراً في السعي وراءه؛ إلا أنه يقوم ليلحق به.

غريغور يوس الكبير

ليدكر من يحيا في التأمل ما عليه من ديس لمن يحبون في الخدمة والعمل:

٣٨٥ — يوجد بعض من الديس يصيبون خطأ ولو بسيطاً في بداية الحياة الروحية، حينما يرون رؤساءهم قد وُجَّهوا كره اهتمامهم وأفكارهم للأمور العالمية والمهام الرائدة، أنهم يبتدون يلومون العناية الإلهية لفائقة؛ معتقدين أن هؤلاء لا يليقون للقيام بالحكم لما يقدمونه من قدوة منحرفة في سلوكهم العالمي، ولكن مهلاً فلا يمكن إدارة الأعمال وتديرها إلا بالإنهماك في الأمور العالمية وتفهّمها. لذلك فإن الله سبحانه لا يلقي عبء الحكم إلا على ذوي القلوب الخافة التي تديق لطبيعة العمل الذي وُضِعَ له، حتى يتسنى للروحانيين ذوي المزاج الرقيق أن يتخلصوا من الإنشغال بهموم العالم. فيسمح الله لبعض بتقديم دوتهم للإنغماس في المهوم العالمية والأعمال الجسدية ليتحصن الآخرون من ضجيج العالم وضوضائه.

فما كيف يُرتب هذ في الكنيسة كما بتعيين إلهي، فإنه يظهر بوضوح في أمر تشييد حيمة

الإجتماع: فانه أمر موسى أن يحبك ستائر من كتان رفع وحر بر أحر (فرمز) وأروق (أسمانجوني) ليعطي بها قدس الأقداس من لداخل، وأن يعطي الكل من الخارج ستائر من جند وشعر معرى. فما هو الجند وما هو شعر المعزى الذي يعطي خيمة الإجتماع إلا العقول القاسية واجافة الي تُصَب على الكنيسة بحكمة لله وتديره لحي ... في أنهم سعوا وراء التوطف ولم يمشوا خدمه لمهم العالميه، فباضروا لا بد لهم أن يتحملوا صامتين عواصف التحارب التي يعصف لعلم بها عليهم. وما هو حر بر بفرمز والأسمانجوني والكتان الرفع إلا حباة المديس الرهيفة الرافه للماعة: التي بي هي محسنة تحب طمعات الشعر واجلد الخشبة القاسية تحتفظ بكل حاملها، لأنه لكي يحتفظ الكتان الأبيض بإشرافه والقرمر ببريو حُمرته والأسمانجوني بصفاء رفته يتحتم أن يحتفل الجند وشعر لأمطر ولرباح ولا تربة.

وإذن، فعلى الذين يتقدمون في الحدا الروحي وهم في حضن الكنيسة المقدسة، أن لا يحتفروا أعمال رؤسائهم حياء يروهم وقد اهتمكوا في مساعدهم العالميه. لأنهم إنما يتعمقون في أسرار الروح في هدوء وأمان على حساب لمعونه التي يفوم بها هؤلاء الرؤساء، محتضين عنهم عصف الروح التي لا تزال تعصف بهم من الخارج. أو كيف يمكن أن يحتفظ الكتان الرفيع بحماة إشرافه إذا كان يتعرض للمطر كل يوم؟ أو كيف يدوم على الفرمز والأسمانجوني روعه وليعه إذا ألقه الرب واصوء؟ إذن، فدع الجند والشعر دا انقوام لقاسي والجاف في مكانه فوق الكل، ليقود بمساوته مساواة الروح و لفضوء ولا تربة. أما الأسمانجوني الرهيف اللائق بالزينة الدافئة فدعه من تحته! نعم دع هؤلاء الذين يستغفون بالسعي الروحي في هدوتهم، لأنهم زينة الكنيسة! واجعل عنهم حفظة من هؤلاء الذين لا يكلون من مشغوليات العالم.

ولا يتدمر في الكنيسة من استصاء سهجة الروح على من نُصِب لخدمة شئون العالم. لأنك إذا كنت نصي من الداخل في هدوء وأمان كالفرمز والأسمانجوني فماداً ننوء شعر المعزى الذي يحمي؟

غريغور يوس الكبير

٣٨٦ — الذين لست لهم دراية بالتأمل، عليهم ألا يرشدوا أو يهودو آخريين.

غريغور يوس الكبير

٣٨٧ — من هو الأعمى — الذي يهود غيره — إلا الذي يجهل نور لتأمل الإلهي!

غريغور يوس الكبير

ثالثاً: أفضلية حياة التأمل:

يرى المديس أوغسطينوس مع كافة القديسين بلا استثناء، رفعة خاصة في حياة التأمل إذ أنها هي الحياة التي بها يبتدىء هنا لتكملها في الأبدية؛ أي أنها عربون الحياة الأبدية.

ومدفة المكوث نذي سوف يحا فيه إلى الأبد، بينما يرى حياة لعمل والخدمة موقوتة بحياة هذا الدهر الفاني، وأنها حتماً تنتهي بانتهاء العالم الحاضر.

ويعتقد القديس أوغسطينوس، بلا أدنى تردد، أن حياة التأمل تفوق حياة العمل. ولاعتقده هذا أهمه كبرى في الكنيسة إذ أنه من الأشخاص لميلين الذين مارسوا حياتين أي حياة العمل بالوعظ والخدمة ونسير ودر يس — وهو كاهن —، وحياة التأمل في هدوء وانصراد. وبنى قصر يته هذه — التي ينص فيها جميع القديسين بلا استثناء — على ما احتره في الحيائن سواء من جهد تحصله الروحي لداته أو من جهة لتأثير لمباشر وغير مباشر على التعب. وهذا حق وقد أثبتته الأبياء بمنتهى الوضوح. فحياة أوغسطينوس التي عاشها في تأمل وخذوة مع الله لم تنته بموت أوغسطينوس بل ظلت تعمل في ملايين لنفوس في كل الأجيال ستة عشر جيلاً؛ وكانت سبباً لتحديد وخلص البشر من كل لسان وثمة!! أما حياة أوغسطينوس لعملية فقد مات يوم مات هو. ولكن الأمر لمستم به هو أن حياة أوغسطينوس التأملية مع الله ومدكراته القليلة التي كان يكتبها مخاصاً بها الله معترفاً بأخصائه وتروره، التي لم تكن يتوقع قط أن أحداً من الناس سوف يقرأها، هي التي ظلت وستظل إلى الأبد ترسم طريق التوبة للخطاة وتفتح أمامهم باب المكوث رحماً.

أو ماذا عمل بولا القديس السائح أو القديس أنطونيوس أو أنومفاره الكبير؟ لا بد أنهم عملوا أشياء كثيرة، ولكن ما عملوه لمصلحة الآخرين جسدياً قد انتهى بانتهاء حياتهم الجسدية؛ أما حياتهم الروحية وتأملاتهم مع الله، فظنت وستظل نورا للكنيسة إلى انقضاء الدهر! إن مجرد ذكر اسم أبنا بولا لكفيل أن يعطي عظة صامته لإحتفال عظمة العالم وفخضحته لزئلة!! إن سرفاعية هؤلاء القديسين جميعاً، سواء كان أثناء حياتهم أو بعد انتفاهم، لم يكن بسبب أعمالهم بقدر ما كان بسبب اتصافهم الشخصي بالله!

وإن طمبتنا اني نقدمها إلى الله في هذه الأيام أن يرسل لنا عيمات من أبنا بولا وأن أنطونيوس وأنا مكار يوس و القديس أوغسطينوس، لا لكي يقودوا الكنيسة؛ كلا! فهؤلاء لم يصودوا الكنيسة، ولكن لفودوا أنفسهم، لأن اتصال إنسان واحد بالله اتصالاً صحيحاً كفيل بإنارة الكنيسة كلها بل والعالم!

٣٨٨ — مرثا اختارت نصيباً حسناً، ولكن مريم اختارت النصيب الأحسن! — مرثا هي

ورل. ومادا اختارت؟ خدمة الخانع والعطشان والذى لا مأوى له. هذه كلها سوف تذهب. أي

لرماد الذي لن يكون فيه جائع أو عطشان. وحينئذ يُنزع مثل هذا النصيب الرائل و يتوقف كل شط من هذا النوع. مريم اختارت النصيب الأصح الذي لن يُنزع منها. ومادا اختارت مريم؟ اختارت حياة التأمل.

نصيب مريم مقدس وعظيم. غير أن نصيب مريم أقدس وأعظم. فيه تصطبرت أحتيا وتخدم وتعتني بأشياء كثيرة، حسنت هي بلا عمل ساكتة تسمع! نصيب مريم لن يُنزع منها؛ أما نصيب مريم فسوف يُنزع منها. فخدمه المحتاجين والقديسين سوف تنهي، أو لن سوف يُعطى طعام وليس هناك من جائع؟

نصيب مريم ثابت لن يروك لأن مسرهما كانت في الحق والبر وسط الحق والبر إلى الأبد موضوع مسرة الجميع.

ما احذر به مريم هو دائم اسمو، لأن القلب الظاهر البار إذا كانت مسرته وسعدته هي الآن في الحق والحكمة والله، فهناك سوف تكون سعادته من ذات النوع ولكن في وفرة وكثرة. لأن حلاوة الحق لأبدى أبدية أيضا ولن تُنزع هناك، بل تزيد هنا لكل هناك إلى الأبد!

إن في سلوك هاتين المرأتين إعلاناً عن حياتين فيهما مسرة القدير ولكن:

الأولى حياة الحاضر؛ والثانية حياة المستقبل،

الأولى حياة انشغال؛ والثانية حياة هدوء،

الأولى حياة الكد؛ والثانية حياة السعادة،

الأولى حياة زائلة؛ والثانية حياة دائمة.

كننا الحياتين ممدوحتان، ولكن الأولى بالتعب والجهد والأخرى بالفرحة والهدوء. إن عمل مريم هو صورة من صور الجهاد الذي نحيا فيه؛ ولكن عمل مريم هو أملنا السعيد الذي نحيا لأجله. والقدر الذي هدى به وترك كثره شعاعا واهتماما ليرفع إلى حياة التأمل بشانه مريم، مريم هي رمز الحياة للتأملية المطلقة ولو أنها هي ذاتها لم تبلغ إلى كل حدودها!

أوغسطينوس

٣٨٩ — إن السيد المسيح سوف يعود المؤمنين إلى تأمل الله، وذلك يكون لهم نهاية لكل أعمال الخير التي قاموا بها، يستريحون في سرور إلى الأبد، في راحة لن تُنزع منهم. مريم سفت فداقت مثل هذا الأمر حينما جئست عند قدمي السيد، ملفنة بعيداً عنها كل عمل أو إنشغال، وبعكفت تصغي إلى الحق ما استطاعت حسب ما أوتيت من حكمة في هذا الدهر. وهي بهذا استطاعت أن تحتس، في حدها، صورة ما ستكون عليه في الحياة الأبدية.

كل ذلك وميراثا مهمكة في أمور رأيت أن إعدادها هام ولاثق، ولكنها لم تدرك أن جميعها مقصي عليه

بالرواى عندما يحبس الرمس ... ولما تدمرت على أختها راجعها السيد ، لا لأن ما عمله مرثا غير لائق . ولكن لأن تدمرها في غير وجه حق ، إذ أن ما عملته مريم كان ألبق وأفضل مما تعمه هي . لأن لدى احتار أن يخدم حاحاب وأعوار هذا العالم سوف تنهى خدمته عندما تطل الحاجة ، وعندئذ يكون جزاؤه نصيب مريم الذي اختارته هي منذ البدء .

لأن التأمل في الله هو الكل في الكس ، وليس يكون نصيب لإسبأ أعظم من هذا ، إذ فيه كل ستارة وفرح وسعادة .

أوغسطينوس

وللمديس أوغسطينوس شرح مسهب في هذا المعنى رأيا لضيق المقام أن نكتفي بتخيصه لثلا يطول بنا الحديث :

فهو يرى أن العمل الذى يقوم به لتأدية واجبات رمنية يختلف عن تأمل الأمور الروحية الذى يمتد بنا إلى الأبدية .

والحياة العمية تمتد إلى المعرفة العملية المحدودة ، وأما التأمل فيختص بالحكمة الثابتة ، والعمل سينتهي لأنه مقصور على نظام العالم الطبيعى ومرتبطة بأشياء زائلة في مجموعها . ويتوسط الفديس أوغسطينوس فيلخص الحياة العمية بأنها نشاط جسمي وعقلي محدود للإعراض عن الشر واجتهاد لتحصيل الخير ، ولا يخرج هذا النشاط الخير عن كونه ممارسة لمضائل الأخلاقية وعمل الرحمة سواء بخدمة الأمور الروحية أو خدمة الأمور الجسدية للآخرين . في حين أن التأمل أو الحكمة يختص بإدراك الأمور الأبدية إدراكاً ذهنياً مطلقاً بمعناها الحقيقي الثابت الذي سوف نصير إليه ، وبمحبة الله حباً ثابتاً يتصف بالعشوق ، لشدة حرارته وانفراد الله وحده بتملك كل حدود الفكر وكل نشاط الجسد والنفس . ولذلك صارت الحياة التأملية أعلى مرتبة وأفضل قيمة من الحياة العملية . إذ أنها تشمل جميع أوجه النشاط المبدول في الحياة العملية مضافاً إليها الإنطلاق بهذا المجهود إلى دائرة أوسع ، أى إلى الحياة الأبدية ، وإلى هدف أعظم وأبقى ، أي الله الأبدى . وفي هذا المعنى يقول :

« ومن ذا الذى لا يرى أفضلية صرف الجهود في إدراك ومعرفة الحياة الأبدية والله على صرفها في تأدية أمور محكوم عليها بالزوال ؟ »

وله أيضاً قطعة تعليمية عن الحياة التأملية وأفضليتها على الحياة العملية في شرح الأصحاح الأول من سفر التكوين :

٣٩٠ — إن السفوس المتعطشة إليك التي تقف لتتراءى أمامك ، أنت تروها من نبعك العذب ، فتشمر في لأرض أثمارها ، إذ تأمر أنت أيها الرب الإله فتخرج نفوسا براعمها التي هي أعمال الرحمة بأنواعها المتعددة . ثم تنظر إلى هذه الثمار التي أثمرت لنا في الأرض وتراها حسنة ، فتبتدىء تقود نفوسا من هذا الإثمار الخطيئ البسيط إلى ثمرات التأمل العليا التي تظهر كأشعة مبعثة من الحياة الأبدية على عالمنا هذا .

أوغسطينوس

ومن تعبير أوغسطينوس المحازي البديع ، أنه يرى في تعاقب الليل والنهار في رواية التكوين إشارة خفية إلى نوعي الحياة ، أي المنهمكين بأعمال العالم والمهتمين بأعمال الروح ، فالشمس هي النور الأعظم الذي يحكم النهار وهي تشير إلى الحكمة التي تنير لأبناء النور وأبناء النهار ، والقمر هو النور الأصغر الذي يحكم الليل ، وهو يشير إلى نور المعرفة العقلية الضئيل المنعكس من نور الحكمة الأعظم والذي ينير على أبناء الليل السائرين في ظلمة هذا العالم .

٣٩١ — إن تأمل الحق ، أي ذهاب العقل إلى عتبة بيت الله وجهاده لإدراك الأمور الحية والعظمى هالك ، هو أعظم عمل يستطيع أن يقوم به إنسان ، إذ ليس بعد هذا شيء أكمل أو أفضل .

أوغسطينوس

وعلى نفس النمط وبنفس الغيرة والحماس لتزكية الحياة التأملية يتحدث إلينا غريغور يوس الكبير :

٣٩٢ — ولو أن الحياة العملية حسنة ، إلا أن الحياة التأملية أحسن .

٣٩٣ — وإن كانت الحياة التأملية تأتي بعد حياة جهاد وخدمة ، إنما في الاستحقاق هي أعلى وأعظم . فإن كان نصيب مرثا لم يُستقد ؛ إلا أن نصيب مريم مُدح ، لأنه إن كانت استحقاقات العمل والخدمة مجيدة ؛ إلا أن استحقاق التأمل في الله أجد .

غريغور يوس الكبير

٣٩٤ — مريم ومرثا تمثلان هاتين الحياتين ، واحدة مرتبكة في خدمات كثيرة والأخرى جالسة عند قدمي السيد تستمع لحديثه الإلهي . وحينما ابتدأت الأولى تشتكي أختها لأنها تركتها وحدها وأهملتها ، أجابها الرب قائلاً : « مرثا مرثا أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة ولكن الحاجة إلى واحد ، فاخترت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها . » (لو ١٠ : ٤١ و ٤٢)

أنظر معي وافهم، فإن لسيد لم يدم نصيب مرثا من جهة العمل والخدمة، وإنما مدح نصيب مريم مع أنها لم تعمل ولم تخدم. لم يصر إن مريم اختارت نصيباً مساوياً لها، ولكن قال إنها اختارت نصيباً أصبح (نص الترجمة اليونانية) حتى يمكن أن يقال أيضاً إن نصيب مرثا كان حساً.

وذلك لأن الحياة العممية سوف تنوف وتنتهي مع الجسد، لأنه هل يمكن أن يُعطى حزن الخنع في الحياة الأبدية؟ أو هل هناك ميت لندوس أو حاهل لتعلم أو مريض لتعنى به؟... إن الحياة العامة ستسهي بانتهاء هد لعالم؛ أما الحياة التأملية فهي تتدىء ها لتكم هناك إلى الأبد. ونرا حب لتي شعلها ها سوف تشتعل وتضطرم كثر حينما نتلاق مع المحبوب هاك. لذلك فإن حياة للتأمل سوف تبقى معنا ولن تُرْعَ ما. وحيه يطفىء سراح هذا العالم الحاصر حينئذ تكم هاك.

غريغور يوس الكبير

٣٩٥ — القديسون حينما يحثقون عالياً في تأمل الأمور العليا... يعودون إلى أحبائهم ويعنون لهم محاسن السماء التي استطاعوا أن يلمسوا جمالها وجلالها... وحينما يتحدثون تعذ كلماهم في قلوب سامعيهم فتشعلها ناراً.

غريغور يوس الكبير

— «لم كس معابد للروبا السماوية، ولكني استدت أشربالتوبة والرجوع إلى الله.»
(أع ٢٦، ١٩ و ٢٠)

بولس الرسول

وللقديس مار إسحق رأي قاطع في الموضوع، فهو يفصل الحياة التأملية، بشرط ألا يكون فيها اهتمام أو اضطراب من أحل خدمة أو رحمة مهما كانت. وهو لا يمانع أن السالك في طريق التأمل والوحدة يعطي كلمة وعظ لمحتاج أو يمد الضعفاء بصلاة، ولكنه لا يوافق قد أن يخرج من خلوته ليعمل ويخدم بين الناس. ولرأي القديس مار إسحق أهمية خاصة، إذ أنه قدّم لتدبير عمل الأسقفية على مدينة نينوى العظمى، ولأنه وحد أن القيام بأعمال الخدمة سيعوقه عن الإستمرار في سلوك الحياة التأملية، قطع في الموضوع رأياً واحداً عجيباً وهو أنه ترك الأسقفية وذهب إلى المغارة ليكمل الحياة التي وحدها أفضل وأبقى. وهو بذلك يعطيت درساً عملياً يكاد يكون فريداً من نوعه، فهو قد فضل بالعمل حياة التأمل على حياة العمل وخدمة، ولم يكن تفضيله حياة التأمل هروباً من حياة العمل والخدمة. والدليل على ذلك أنه لم يمانع في الخدمة والعمل الذي يليق بطقسه، فصار فيما بعد أباً ومرشداً لجميع طبوب لرهبا، وكتب أربعة كتب في الإرشاد الروحاني هي في غاية البلاغة والفسفة

الروحانية، وصارت إختباراته التي وصل إليها في الحياة التأملية نوراً وهداية لكل من طرق باب الحياة الروحانية من درجة العلماني المبتدئ إلى درجة المتوحد.

٣٩٦ — إن كنت عذماًياً ينبغي أن تُدبّر بالسيرة الحسنة التي للعلمانيين؛ وإن كنت راهباً تُدبّر بالأعمال الفاضلة التي للمتوحدين؛ وإن كنت تريد أن تسير في تديرين معاً، أي تدير أهل العالم وتدير الرهبان، فإِنَّكَ تسقط وتغيب من الإثني. لأن عمل الرهبان هو هذا. الإعتاق من كل محسوسات والأمور العالمة ولوجود مع الله هديذ القلب وتعب الجسد بالصلاة. فهل يمكن أن تقر مع هذا حياة العالم وبتعالاته؟ إنه يستحيل طبعاً. وكذلك يستحيل على الراهب أن يحيا حياة الفصيصة ويكون له اتصال بالعالم، أي يكتمل التديرين معاً: لداخل (الهديذ بالقلب والوجود مع الله) ولخارج (أي الإهتمام بأمور الآخرين).

ونحن نجد أن الذين يخدمون الملوك هم ذوو مكانة جليلة لوقوفهم أمام الملك في كل حين أكثر من الذين يسمعون أوامر الملك في الخارج. وهكذا أيضاً في الأمور الإلهية يرى أن الذين يتأملون في الله بالصلاة في كل وقت هم دالة قد اقتسوها من دوام الهديذ به، وقد سلطهم على ثروته السمائية ولأرضية، وأعطاهم سلطاناً على كل الخليقة حتى أن الكل يخضع لهم بغير مقاومة وبكل وفاء وكرامة. هؤلاء أفضل من الذين يخدمونه بعمل البر نحو إخوتهم الذين هم عبيد مشهم؛ وإن كان هذا حسناً جداً لكنه أنقص من درجة الذين يعيشون لله في خدمته المباشرة بالصلاة والهديذ والتأمل. فإذا حُيرنا فلا نختار الدرجة لأنقص، بل لأحد درجة الشطاء الخادفين أصحاب سيرة الهدوء والصلاة الذين رفضوا الأرضيات، وصاروا جسداً للملك السماوي وهم بعد على الأرض. تركوا الأرضيات ورفضوها دفعة واحدة ورفعوا أيديهم نحو السماء.

المديس يوحنا لتايسى، كنز الفضائل وصاحب السوة، ألهه بالأمور الجسدية كان يساعد إخوته أو الذين يأتون إليه؟ ألم يكن بالصلاة التي كان يصليها من أجل الذين يسألونه؟

أنا أعرف أن الذين يخدمون احتياجات الآخرين هم فضلاء حقاً، لكنهم ليسوا مثل الذين يعيشون بالصلاة وللصلاة، رافضين كل شيء من أجل حب الله، بل هم أقل وأنقص منهم جداً.

أما المصفة التي تكون للناس من الذين يسبرون في حياة الحوة ولتأمل فهي أن يعضدوهم بكلام وعظ نافع، أو يصلو عنهم وقت الصرورة. أما خارجاً عن هذين الأمرين فلا يسعى هم أن يتركوا في فنيهم ذكراً أو اهتماماً لأي من الأمور الجسدية، لأن هذا ليس من عمل الحكمة التي يسعون وراءها.

مار إسحق السرياني

٣٩٧ — في بداية لرهسة المسيحية من رهبان مصر كانت فكرة الحياة التأملية في أوج بضوحها،

واندفع الآباء في هذه الحياة بلا حدود، حتى أنهم رأوا أن في اتخاذهم نظام الشركة الباخومية تعويقاً لإسقاطهم في حياة التأمل؛ فعاشوا فرادي في قلالي منفردة غالباً في شبه حياة توحد. ولكن لما تجمعوا بعد ذلك في محامع — داخل الأسوار — ابتدأوا يفقدون عظمة التأمل، لأنه معروف أن أي أمر يدفع الراهب إلى الخروج من حلونه لقيام بأي عمل جسدي — وعلى الخصوص مع آخرين — فإنه يشتت تركيزه العقلي ويضعف من حدة انطلاق الرؤيا التي يمارسها.

يوحنا كاسيان

باب التأمل مفتوح للجميع:

٣٩٨ — الآن أجروا أن تؤكد أننا إذا تمسكنا بالطريق الذي رسمه لنا الله في عزم وثبات، والذي تعهدنا أن نسير فيه، فنحن حتماً سوف نسير بقوة الله وحكمته حتى ندرك أصل كل الكائنات والعلة الأولى لكل المخلوقات.

أوغسطينوس

٣٩٩ — إذا كنا في حياتنا أمناء مخلصين، نكون قد وصلنا إلى طريق الإيمان. ونحن إذا لم نتخل عن أمانتنا نحو الله فنحن بلا شك سوف نصل إلى معرفة الأمور غير الجسدية الدائمة غير المتغيرة التي لا يدركها أحد في هذه الحياة بالمرّة، بل نحن نصل أيضاً إلى أعلى درجات التأمل التي يدعوها الرسول: «وجهاً لوجه»، لأنه حتى الأصاغر الضعفاء إذا داوموا على السير في طريق الإيمان فإنهم يبلغون إلى منة نعمة التأمل؛ بينما الذين عندهم كل علم وعرفان في الأمور الإلهية اللاجسدية غير المتغيرة وغير المنظورة، حينما يرفضون السير في طريق الإيمان المؤدي إلى موطن السعادة الحقّة لأنه يظهر لهم كخرافة — أي الإيمان بيسوع المسيح مصوباً — فإن هؤلاء، بالرغم من علمهم ومعرفتهم، يستحيل عليهم أن يدركوا هذه السعادة الأبدية المقدسة، مع أن عقولهم تكون قد تلامست عن قرب بالإشعاع الصادر من هناك.

أوغسطينوس

٤٠٠ — يسعد هؤلاء النساك بحديثهم مع الله إذ يلازمونه بعقول طاهرة، وتشملهم الغبطة والسعادة في تأمل حُسن جماله الذي لا تدركه إلا عقول الأطهار.

أوغسطينوس

(في كلامه عن النساك الذين في برية القديس مكار يوس بمصر)

٤٠١ — ليس صحيحاً أن نعمة التأمل تُمنح فقط لذوي التدبير العالي ولا تُعطى للمبتدئين، بل إنما هي تُمنح للعالمين وأيضاً للمبتدئين بل ولأقل مبتدئ، كما أنها تُمنح للراهب البسيط، وأحياناً ينال المتزوجون أيضاً هذه النعمة.

فأي إنسان يحتفظ بقلبه داخه، يستير بمرور التأمل. ولا يتعظم أحد إذا مال هذه النعمة طائفاً أنها

انتهت إليه وحده.

ليس عظماء الكيسة أو مشاهيرها هم وحدهم الذين نالوا موهبة التأمل، بل كثيرون نالوها وصعدوا إلى قتها، ولا زالوا يحتلون درجات متواضعة في الكيسة. بل إن الله القدير يسكب من نعمة التأمل في قلوب أولاده الذين يتراءون للناس كأنهم أدنياء ومزدرى بهم، وهم قد أسلموا ذواتهم سرّاً للحكمة الإلهية، يسعون وراءها بغير شبع وقد ثبتوا عقولهم في مسرات الحياة الأبدية.

غريغور يوس الكبير

٤٠٢ — يجب أن نعرف أن تركيب كل نفس يختلف عن غيرها اختلافاً غير محدود. فيوجد أشخاص لا استقرار لهم، إذا سكتوا عن الحركة والعمل، يعملون تَوّاً في الباطل، و يكونون معرضين دائماً لشغب الفكر وطياشته في الشر كلها وجدوا فسحة أو فرصة للتفكير بلا عمل. وأيضاً ذوو العقول الهادئة المستقرة تضرهم الأعمال الزائدة، إذ يمتنع عليهم في أثنائها أن يتسع أو ينسبط مدى تأملهم. وهكذا ذوو العقول العجولة غير المستقرة يضرهم الهدوء، إذ في أثنائه يمتنع عليهم أن يحدوا أو يضبطوا تفكيرهم. كذلك الذين يشتغلون بالتأمل في الله من محبي الخلوة والهدوء لا يستطيعون أن يستمروا في هدوئهم وتأملهم حينما يتحملون عبء المشغوليات.

وأيضاً أولئك الذين عاشوا بارتياح منتفعين من انشغالهم في خدمة بني جنسهم يذبلون و يضعفون إذا ركنوا إلى الهدوء والسكينة.

ولكن من المحزن أن بعض ذوي النفوس التي لا استقرار لها بينما ينظرون إلى التأمل كشيء صعب المنال وحارج عن دائرة استطاعتهم، تجدهم يبدؤون في وقتهم وتفكيرهم في مسابقة المذاهب والنظريات الخاطئة. و بينما لا يجدون وقتاً أو عقلاً يتعلمون به للحق في روح الإلتضاع يجتهدون أن يصيروا أساتذة ومعلمين في توافه الأمور الزائلة.

ويجد أيضاً بعض الناس الذين لم يستطيعوا قط أن يستطلعوا شيئاً من العالم الخارجي — إلا سفسطة كلام خارج عن الدراية الحقّة والاختبار — تجدهم يزجون ذواتهم في التأملات المرتفعة فيقعون في معرفة غاشة معكوسة توقعهم في ضلالة التفكير والإيمان. فإذا كنت يا أخي غير كفء للحياة الروحية والتأمل بدرجة مناسبة من التمييز والفطنة، فالزم حياة العمل والخدمة...

ولكن لو لم تكن الحياة التأملية لغالبية الناس لما قال السيد الرب:

— «إهدأوا (تفرغوا) واعلموا أني أنا الله.» (مز ٤٦: ١٠)

— «جيد للرجل أن يحمل النير في صباه يجلس وحده و يسكت لأنه قد وضعه عليه.» (مراثي

إر ٢٧: ٢٨ و ٢٨)

غريغور يوس الكبير

٤٠٣ — ليتهم يختارون لأنفسهم النصيب الصالح !
 ليتهم يكرسون ذواتهم لكلمة الله !
 ليتهم يشتاقون إلى حلاوة الشريعة !
 ليتهم يشتغلون بالمعرفة التي توصل إلى الخلاص .

أوغسطينوس

ملخص المبادئ الهامة في هذا الفصل :

- (١) الكنيسة تؤمن وتشجع الحياة العملية والحياة التأملية . فالكنيسة تحترم طريق الخلوة والتأمل كإرسالية منها للأشخاص ليتعلموا دروساً في الروح يستحيل عليهم أن يتعلموها أثناء العمل والخدمة ، ثم تطالبهم الكنيسة بهذه التعاليم التي وصلوا إليها لكي تكون معيناً ومرشداً للعمل والخدمة برسائلهم .
- (٢) لا يصح أن يزدرى من يخدم بمن يحيا حياة الخلوة والتأمل . كذلك لا يصح أن يزدرى من يسير في طريق الحياة التأملية بمن يعمل ويخدم في الكنيسة .
- (٣) لا يصح أن يستمر الخادم في خدمته دون أن تكون له فترات محدودة مناسبة يمارس فيها الصلاة الطويلة والتأمل بدرجاته ، لأنه مُطالب أن يعلم و يرشد النفوس إلى الأمور الروحية والحكمة والحق والله .
- (٤) لا يصح أيضاً للمشتغلين بالتأمل أن يهملوا الكنيسة والخدمة فلا يذكروا احتياجات الآخرين . بل عليهم بقدر ما تسمح به ظروفهم واستعداداتهم أن يوصلوا للكنيسة ثمار حياتهم الروحية ، إن كان بشرح كلمة الكتاب أو بالوعظ أو الإرشاد بالرسائل .
- (٥) لا بد لكل شخص من أن يكون له نصيب في الحياتين أي حياة العمل والخدمة وحياة التأمل .
- (٦) الخدمة الناجحة قوامها السلوك في الحياتين بلا تحيز ، فالخدمة تكون بقدر النعمة والحكمة المأخوذة من الصلاة والتأمل ؛ وإلا فتكون خدمة عقلية ليست لها الفاعلية الروحية على التوبة والتجديد والولادة . والمسيح كان يقضي الليل كله في الصلاة ، ثم يقضي بعض النهار في الخدمة والتعليم . فلا يصح أن نلقي بذواتنا في مشاغل الخدمة إلى

الدرجة التي ننسى فيها ذواتنا كلية؛ فالخادم والمرشدون مسئولون عن نفوسهم قبل نفوس من يخدمونهم. والمثل الذي قاله السيد عن الأعمى الذي يقود أعمى ينصبُّ كليةً على حال الخادم الذي لم يتلقَّ بعد نور الحكمة والمعرفة الروحية وتفسير الكلمة بقوة النعمة لا العقل، و يعتقد أنه يستطيع أن يرشد النفوس و يعرفها الحق الذي يجهله هو.

(٧) ليست مسرة الكنيسة أن يكون فيها أعضاء عاملون ذوو خدمات كثيرة بلا فاعلية روحية على تجديد النفوس وولادتها ولادة حقيقية في الروح لنوال ملكوت السموات. بل مسرتها في القادة ذوي البصيرة الروحية الذين يسيرون والخراف تتبعهم. ولا تستطيع أن تحصل على البصيرة الروحية بالعمل أو الدراسة؛ ولكن بالهدوء والخلوة والصلاة الطويلة بدرجاتها المختلفة.

(٨) كل من أجبرته ظروف الخدمة على صرف أوقات كثيرة خارجاً عن خلوته، عليه أن يمارس الصلاة الداخلية ورفع القلب والعقل إلى الله والشعور بوجود الله ومحاسبة الضمير أثناء العمل، وبذلك يمارس نوعاً من التأمل البسيط وهو في عمله.

(٩) الأساقفة الذين وثقت بهم الكنيسة كمديرين ومرشدين للرعية عليهم أن يمارسوا الحياتين معاً: أي حياة مشاركة الشعب في ضيقاتهم ومشاكلهم العملية واحتياجاتهم المادية، وحياة الخلوة والتأمل واستلهم روح المعرفة والحكمة، فالأساقفة الذين ينهمكون في الأمور المادية والعملية فحسب؛ هؤلاء يذبلون روحياً وتصير أعمالهم بلا حكمة وكلماتهم يضعف منها الروح وتصير بلا قوة أو منفعة، حتى أن الرعية تنصرف من حولهم إذ تشعر بجفاف المرعى الذي اقتيدت إليه. كذلك الأساقفة الذين يتركون أمور الرعية المادية والعملية ليتفرغوا للخلوة والصلاة والتأمل فقط؛ تكون النتيجة أن الرعية لا تستطيع أن تسيرهم فتعتقد مشاكلهم، ولا يستطيعون أن ينظروا إليهم كمُثل عليا، لأن الشعب يحتاج إلى من ينزل إليه ليساعده مادياً فيرفعه معه روحياً.

كذلك عليهم، كمديرين، أن لا يقطعوا في الأمور قطعاً إلا بعد استلهم روح الحق في قلوبهم، أو بعد صلاة وتأمل حتى تكون أحكامهم صادرة عن الله.

(١٠) الراعي الصالح مُطالبٌ بأن يكون شاهداً أميناً لأسرار الروح وحاملاً صورة الملكوت في عمله وفيه، أي أن يكون صورة ناطقة لما يعلم به الكتاب. فأول واجب عليه،

بل وأهم عمل له، هو أن يختلي ويصلي ويتدرب على التأمل لينال موهبة المعرفة الروحانية والإفراز، ليدبر بها أمور الرعية الجسدية والروحية. والحنوة للكاهن هي بمثابة قدس الأقداس، والصلاة والتأمل هي الأورم والتميم الذي من ورائه يكلم الله ويسأل حلاً لمشاكل الرعية التي تستعصي عليه. والكنيسة الرشيدة تعلم الكاهن هذا الدرس يوم يال نعمة الكهنوت، فتضع عليه أن يختلي أربعين يوماً لا يخالط فيها بيته ولا شعبه بل يقضيها في صلاة وخلوة. ليحل عليه نور الحكمة والمعرفة التي سيدبر بها شئون رعيته.

موقفنا من الحياتين:

ولكي يكون موقفنا صحيحاً منتجاً تجاه الحياتين أي حياة العمل والخدمة وحياة الصلاة والتأمل، يجب أن نضع أمام عيوننا هذا المبدأ:—

«أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزداد لكم» (مت ٦: ٣٣). فيوم أن نضع أمام عيوننا هذا المبدأ الإلهي لن نخطيء قط في حياة الخدمة، لأن أية علاقة ننشئها مع إنسان، أو صلاة نقدمها أمام الله، إذا لم يكن ملكوت الله هو هدفنا الذي نسعى إليه وهو موضوع انشغال ذهننا وأملنا وسعادتنا التي نرنو إليها، فلن نخدم خدمة صحيحة قوية بحب وإيمان. فأي انحراف أو ميل أو إهمال أو أي انشغال زائد في الخدمة أو انهماك كثير فيها سيُشعرنا في الحال بأنه يعوقنا عن المسير في طريقنا الرئيسي نحو ملكوت السموات. وأي كسب مادي أو صيت أو شهرة أو مجد بشتهيه أو نسعى إليه خفياً، سنشعر في الحال أن ذلك سيوقفنا تماماً عن السير إلى الملكوت. وهكذا إذا كان ملكوت السموات هو طلبتنا الأولى وهدفنا المفضل، فسيصير كالسوط يلهب ظهورنا للسير بلا تعويق في طريق الحياة العملية والخدمة.

بهذا نرى أننا إذا تمسكنا في صلواتنا بملكوت السموات وطلبناه حسب وصية الرب أول كل شيء، وقوام كل شيء ونهاية كل شيء، وطلبناه من كل عقولنا وكل قلوبنا وكل قوتنا، وطبقتنا قولنا وطلبنا بسعي عملي واضح نحو هذا الملكوت المعد لنا والقريب منا، والذي هو بالحق فينا، فحين سوف نسير في الحياة العملية أو الحياة التأملية سيراً صحيحاً مشمراً نحو الله.

ولكن كيف نكوّن شعوراً دائماً لطلب الملكوت وتكون فينا رغبة مستمرة لا تهدأ لطلب الله؟ لقد اتفق الآباء عموماً على أن ذلك لا يأتي إلا بالحب الذي هو جاذبية جارفة تجرف كل الشعور والإحساس والتفكير والأعمال والنفوس بأكملها لتتصل بالله وتتحد به.

وما السبيل إلى مثل ذلك الحب الجارف؟ قد اتفق الآباء عموماً أن ذلك لا يأتي إلا بدوام الصلاة. ليست الصلاة التي يقدمها بين الحين والآخر، أو التي نقدمها بالسؤال والطلب، بل بتلك التي يدعونها حياة الصلاة. فالصلاة التي توصل إلى الحب هي صلاة دائمة أو هي دوام الصلاة التي يقول عنها مار إسحق: «إذا لم يداوم الإنسان على الصلاة والحديث مع الله لا يستطيع أن يحس بالحب».

وما هو الطريق العملي إلى حياة الصلاة؟

هذا ما سنقدمه لك في الباب القادم:

الباب الثاني

نواحي النشاط الداخلي للصلاة

+ «الذبيس بسبب التمرن قد صارت لهم الحواس مدربة على التمييز بين الخير والشر.» (عب ٥: ١٤)

+ «في تعب وكدّ، في أسهار مراراً كثيرة، في جوع وعطش، في أصوام مراراً كثيرة، في برد وغري.» (٢ كو ١١: ٢٧)

قدما في الباب الأول بمصوله الخمسة كل ما يختص بالصلاة في ذاتها ، وفي هذا الباب نقدم كل ما يختص بالمصلي في ذاته ؛ من حيث العوامل التي تؤدي إلى نجاح الصلاة والعوامل التي تؤدي إلى التعويق عن الصلاة . وإن كنا سنعرض شيئا من ممارسة أنواع من الفضائل ، أي النسك ، فنحن لن نخوض في هذا المضمار إلا بالقدر الذي يتصل بالصلاة اتصالاً وثيقاً لا يغني عنه ، كنوع من النشاط الداخلي الذي يكون للصلاة بمثابة جمر النار للبحور .

وأنواع الإماتة المختلفة ، أي النسك كالصوم والسهر والصمت واليقظة الدائمة بالصلاة ، كل هذه من ألزم ما يكون لحياة الصلاة ، لأنها تُميت شهوة الحياة الآدمية وإرادة الخطيئة الكائنة في أعضائنا . وقد سبق أن أخذنا حق هذا الموت الطبيعي عن حياة العالم في المعمودية ، لأننا بالمعمودية نموت عن آدميتنا لأخذ مسيحيتنا ، وذلك كهبة مجانية من هبات الفداء والموت الذي جازه المسيح عنا .

فإذا كنا نمارس حياة النسك والتقشف ، فما ذلك إلا امتداداً للموت عن العالم الذي ابتدأناه في المعمودية .

وعلى قدر ما لهذه الإماتة أو النسك من أهمية عظيمة ، فهي لا تخلو من خطورة ليست بقليلة . لذلك رأينا أن نقدم بعض الإرشادات في مقدمة هذا الباب بخصوص ممارسة النسك حتى لا ينحرف بنا فنضل الطريق :-

(١) لا ننظر إلى وسائل التقشف أو أنواع النسك كهدف أو غاية نفرح ونُسِرُّ بتتميمها ، فنتهينا عن متابعة السير نحو الله للإتصال به بالحب الكامل .

(٢) أنواع النسك لا تخرج عن كونها وسائل تُميتُ بها الإنسان العتيق ونصبب بها إرادتنا مع أهوائنا وشهواتنا التي تعمل فينا للخطية ، ونُظهر بها عواطفنا وحبنا لله .

(٣) الإستمرار في ممارسة أنواع النسك المختلفة ، بعد تجديدها وامتلائنا من النعمة ، يكون لمع تحرك الشهوة نحو العالم ولضبط الإرادة من الميل نحو الخطية .

- (٤) يجب أن لا يكون هذا النسك سبباً لغرورنا عندما نتقدم فيه ، فينمي فينا روح البر الذاق الذي من شأنه أن يمنع أي نمو أو تقدم في الحياة الروحية .
- (٥) لا تستطيع أقسى أنواع النسك أن تغفر لنا خطية واحدة أو تكفر عن ذنب بسيط اقترفناه ، إذا كانت خالية من الحب نحو الله ، وتوسط النعمة المجانية التي أخذناها بدم المسيح .
- (٦) يجب أن لا ننحرف بهذا النسك ونقسو على أجسادنا إلى الدرجة التي فيها نُعاق عن تأدية واجبات الحياة بنشاط .
- (٧) يجب أن يكون تركيزنا كله داخلياً موجّهاً إلى الإرادة التي تسوقنا إلى الشهوة والخطيئة . فإرادتنا المنحرفة تطلب ما لنفسها ، وأهدافها كلها ، تنتهي عند ذاتها . هذا هو عدونا الذي يجب أن نصارعه بأصوامنا وأسهارنا و يقظتنا حتى يموت تماماً ، وحينئذ نأخذ الإرادة الجديدة التي تعمل مشيئة الله فقط !
- (٨) النسك لا يجب أن يكون أنواعاً من الضغط والكبت الجسدي الذي عندما يزول موثره يكون له رد فعل أقوى ، فيعود الإنسان إلى حالته الأولى أكثر انحلالاً ، بل يجب أن يكون باتزان وحكمة ليس عن حزن وألم بل بفرح وسرور .
- وحدوده يجب أن توضع بترتيب وإرشاد أب حكيم حتى لا تنقص أو تبطل لتفوقها عن حدود استطاعة الإنسان فتندم الثمرة المرجوة منها ، بل يجب أن تبتدىء بسيطة أقل من استطاعة الإنسان ثم تنمو وتزداد طبيعياً إلى أن تتحول إلى صفات طبيعية للشخص ، وتدخل كجزء هام في أسلوب حياته .
- (٩) إذا خلت التقشفات وأنواع النسك من عامل الحب والفرح بالرب ، تكون سبباً للكآبة والعبوسة وثورة النفس والاعتداد بالبر الذاق .
- (١٠) كثيرون جاهدوا وحرروا أنفسهم من العالم بأنواع من النسك القاسية للغاية ، ولكن لأنهم لم يسلموا ذواتهم ليد الله وعمل النعمة بمسكنة واتضاع ، ضلُّوا الطريق . فإذا تحررنا من العالم يجب أن نتحرر أيضاً من أنفسنا ليتسلمها الله ويعمل بنا ما يشاء .

المفهوم الكنسي لمعنى النسك

في الأرثوذكسية

إن كلمة «النسك» وباليونانية: $\delta\sigma\kappa\eta\sigma\iota\varsigma$ — كما سبق وقلنا — تفيد عموماً كل نشاط إيجابي لتحرير النفس تقاوم به النشاط السليبي، أي هو التمرين على الفضائل لقطع دابر الرذائل والعادات الشريرة.

والحقيقة أن استخدام هذه الكلمة في الكنيسة قديم جداً، فأول ما نصادفها في الحياة المسيحية نصادفها في وصف العلامة فيلو اليهودي لأول جماعة مسيحية مصرية متعبدة في ظاهر الإسكندرية حول بحيرة مريوط الذين أسماهم: «نُساكاً».

ولكن أول تحديد لعمل النسك في المفهوم المسيحي نجده واضحاً في محاجة العلامة أوريجانوس مع الوثنيين، الذي فيها يشرح اختلاف مفهوم النسك وعمله بين المسيحيين عنه بين الوثنيين، إذ يقول:

[أما النسك عندنا فهو ضبط الجسد وقعه لإماتة أعضائه التي على الأرض التي هي الزنا والنجاسة والشهوة وكل الانحرافات في الغريزة والعاطفة].

أوريجانوس

(في المحاجة ضد كلسوس)

و يبدأ هذا الإصطلاح يأخذ صفته الكنسية في قوانين الرسل في القانون رقم ٥١: [أيما أسقف أو قس أو شماس أو من كان من زمرة الكهنوت بالجملة أو أي فرد من الشعب، امتنع من الزينة واللحوم والخمر، لا لقصد النسك بل لكونه يشمئز منها على أنها

دسة مرذولة، ناسياً ما قيل بأن كافة الأشياء هي حسنة جداً (١ تي ٤ : ٤) ... فإما أن يتقوّم أو أن يُقطع ويُطرح من الكنيسة] .

ومن هذا يتضح أن كل امتناع صحيح عن الزيجة أو عن أكل اللحم أو عن شرب الخمر كلبية برضى القسب، كتقوى أو نذر حياة أو من أجل تقويم الجسد، هو محسوب في تعاليم الكنيسة وقوانينها الرسولية أنه «نسك»، سواء كان ذلك بالنسبة للكهنة أو الرهبان أو العلمانيين على حد سواء .

ثم يأتي مفهوم كنسي أكثر اتساعاً لكلمة «نسك»، حيث يشمل الإمتناع عن مجرد الأكل مدداً طويلة — كما يصف القديس إيرينيئوس المسيحيين الأوائل .

وهكذا يستدعى يتسع معنى النسك في الكنيسة ليشمل كل ممارسة صادقة لأي وصية إنجيلية . فالصبر على الآلام والتعذيب والسجن حفظاً للإيمان، يعتبره يوسابيوس القيصري نسكاً (شهداء فلسطين : ١٠) ، كما يعتبره القديس أثناسيوس الرسولي «أعظم نسك .» (١)

والذي يداوم على الصلاة والطلبة مثل حنة النبية تعتبره الكنيسة «ناسكاً» (القديس كيرلس الأورشليمي : عظة ١ : ١٩) .

والذي يهب ممتلكاته للفقراء ويختار حياة الفقر لنفسه تعتبره الكنيسة «ناسكاً» (العلامة جيروم : تاريخ الكنيسة ٧٦ : ٤١) .

والذي يعيش منكراً لذاته تعتبره الكنيسة «ناسكاً» (القديس كيرلس الكبير لإسكندري : شرح إنجيل يوحنا : ١٣ : ٣٥) .

والذي يمارس الفضيلة الإنجيلية هو في الحقيقة ناسك لأنه يدرّب و يضبط نفسه (القديس يوحنا ذهبي الفم : شرح أعمال الرسل ٢ : ب) .

والذي يتخصص في خدمة الفقراء حباً في التقوى تعتبره الكنيسة «ناسكاً» (المؤرخ يوسابيوس : شهداء فلسطين : ١١) .

والذي يتخصص في دراسة الكتاب المقدس واهباً حياته لهذه الدراسة يعتبره العلامة ترتليان «ناسكاً» . (٢)

(1) Syn. Scr. Sacr.

(2) De. Puecr. 14.

ولكن على الرغم من هذا المعنى المتسع لكلمة «ناسك»، فإنها يمكن بكل سهولة اقتصرها على كل مسيحي يجاهد ليحفظ وصية المسيح بإيمان وحب، أياً كان وأينما كان وكيفما كان!! وهذا المعنى الموضوعي المحدد نجده واضحاً في تعليم كليمنندس الإسكندري إذ يعتبر أن المسيحية من حيث واقعها العملي هي «نسك»^(٣)، فالعمل النسكي في عرفه هو برهان صدق الاختيار.

أما الذين أرادوا أن يتوفروا على تطبيق الحياة النسكية، أي الحياة المسيحية، توفراً دقيقاً كاملاً: فيصبح عليهم أن ينزحوا من الدنيا و يسكنوا القفار والجبال، فيعتبرهم كليمندس أنهم هم الذين يشهدون بأنهم «مختارون أكثر من المختارين». حيث صارت لهم قوانين نسكية خاصة (قوانين القديس باسيليوس مثلاً).

أما القوانين النسكية بالنسبة للمسيحي العادي فهي وصايا الإنجيل.

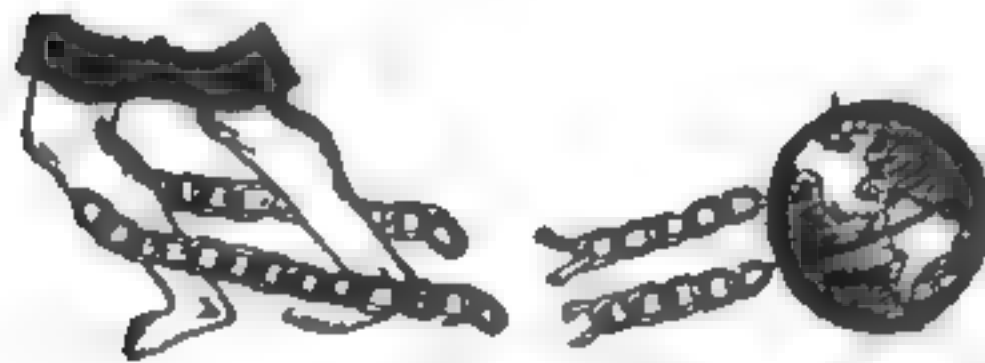
وأما القوانين النسكية بالنسبة للرهبان والمتوحدين فهي ضمانات إضافية تكفل تنفيذ وصايا الإنجيل الأساسية.

(3) Strom., IV, 22.



الفصل الأول

تحرير النفس



«وقفت على قمة العالم حينما أحسست في نفسي أنني لا أشتهي شيئاً ولا أخاف شيئاً.»
غريغور يوس الكبير

النفس البشرية بطبيعتها خفيفة نقية، سرّية الإستجابة لنداء الله، شديدة الرغبة في الوجود معه والإلتصاق به، حرة في تخلّيقها إلى أعلى، كما أنها مُحبّة لبني جسدها أي لكل نفس بشرية أخرى، منفتحة على أحاسيس الغير بدون تحفظ؛ مُحبّة ومبسطة إلى أقصى ما يمكن، قادرة بطبيعتها أن تكون مع الله والناس وحدة متكاملة من الحب والألفة والعمل المنسجم.

وفي النفس البشرية المفتحة لله يكون عنصر الموهبة والخفة وحرية واعية لفنية غير محدود، قابلاً للنمو والزيادة والتكامل إلى ما لا نهاية بسبب استمرار استمدادها لهذه الصفات من الله.

فما الذي يعطل خفة النفس، إذن، ويوقف حركتها و يبطل حريتها؟

الجواب على ذلك هو أنهم وأحطروا ما يعنينا في حياتنا الروحية، لأننا لو اكتشفنا عنصر الثقل الذي يهبط بالنفس إلى الأرض باستمرار ويوقف حركتها ويحرمها من حريتها ويعرقل امتدادها ونموها، استطعنا أن نركز اهتمامنا وجهادنا وصواتنا ضده حتى نتحرر. أما هذا الثقل المعادي والخطر فهو «الذات»، الذات البشرية.

الذات البشرية يمكنها أن تريد غير ما يريد الله، فهي يمكنها أن تميل وتستهين ضد منيئته، وتتحرك عكس ما يأمر، ولا تستجيب لندائه وتحذيره، وترفض مشورته وتحتقر محبته وتستهين ببطمه وطول أناته! وتتسبب بالنهاية في هلاك الإنسان كله.

ولكن هل الذات البشرية شيء غير النفس البشرية؟

في الحقيقة ليست الذات إلا النفس عينها ولكن:—

(١) إما أن تكون النفس خاضعة لله تماماً، فتكون هنا الذات البشرية غير مستقلة بذاتها أي ليس لها كيان مستقل عن الله، بل تكون إرادتها هي إرادته ومشيتها هي مشيئته، وفي هذه الحالة تكون الذات البشرية مهيأة للوجود الدائم مع الله وبالله، أي مهيئة بذاتها حياة بالله.

(٢) وإما أن تكون النفس غير خاضعة لله، وذلك عندما تستقل بحريتها عن مشيئة الله وإرادته وتعمل هواها وشهواتها، وهنا تكون الذات البشرية حياة لذاتها مهيئة عن الله، ويصح لها وجود وكيان مستقل عن الله ولكنه وجود في السر وكيان قائم على الوهم

المادي، لذلك فيكون وجودها المستقل عن الله وكيانها الفردي في الخطية هما وجود وكيان زائلان، لذلك فالذات المستقلة عن الله تصح ذاتاً هالكة.

ولكن خروج الذات عن إرادة الله يكون بغواية الشيطان بخداع شديد كخداع الحية لحواء في الفردوس: «ولكني أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح.» (٢ كور ١١: ٣)

ولكن هل من طريقة نُميت بها الذات البشرية عن دأها لتحيا بالله؟

نعم، والوسيلة الوحيدة هي الخضوع الكامل لإرادة الله!

في خضوع النفس لله خضوعاً كاملاً ينهي كل استغلال للذات البشرية.

والخضوع هنا يعني استسلاماً كاملاً لإرادة الله فيما حدث وفيما يحدث وفيما سيحدث، دون قلق أو تدمير أو يأس، لا بمعنى أن يُبطل الإنسان جهاده لحل المشاكل ودفع الأصرار ومعالجة الأمراض وحسم المواقف بمشيئة روحية يقظة مستمدة من الله، بل لفصد من الاستسلام لإرادة الله هو الرضى بالنتائج الهائية بعد أن يبذل الإنسان قصارى جهده، على أن يتحقق الإنسان دائماً وباستمرار من أن إرادته وفق إرادة الله ولا يعمل شيئاً بكبرياء أو حماقة أو تسرع أو باندفاع بمشيئته الخاصة.

وكيف يتم خضوع الذات البشرية لله حتى تتحرر النفس وتعيش في استسلام كامل لمشيئة الله؟

أولاً: حذار أن تعتمد على حكمتك أو قدرتك أو على ذراع بشر في أي عمل، لئلا ينقلب عقلك وتنطمس بصيرتك فلا تدخلك النعمة ولا ترى الطريق الإلهي وتضل عن الحق، فتقع في فخ العدو وتُسعبد لداتك ولمشيئات الناس.

«ويل للحكماء في أعين أنفسهم والفهاء عند ذواهم.» (إش ٥: ٢١)

ثانياً: حذار أن تكون فكرة عن نفسك أنك شيء مهم، وأنه لولاك لتوقفت الأمور وتعطلت الأعمال، فتدو ذاتك في عينيك أنها عظيمة وكبيرة؛ ولكن اعد أن الله يمكنه أن يعمل بغيرك أفضل منك، ويستطيع أن يجعل الأقوياء ضعفاء والضعفاء أقوياء والحكماء جهلاء والجهلاء حكماء. فكل ما هو جيد ونافع فيك هو من الله وليس منك، وإذا لم تسلمه الله وتنسبه إليه في داخل ضميرك فإنه يبرعه عنك،

وإذا افتخرت بذكائك أو صلاحك يتخلى عنه الله فيتحول إلى فساد وخسارة وضرر.

ثالثاً: إذا كرهت ذاتك الخضوع لله، وتهربت من الاستسلام له، وتعظمت بقدرتك، ونسبت ذكاءك وصلاحك ونجاحك لنفسك، فالله يسلمك لتأديب متواصل، تأديب تلو تأديب وضيق بعد ضيق حتى تخضع صاغراً وتستسلم، فإذا رفضت التأديب وكرهت احتمال الضيق يتخلى عنك الله إلى الأبد.

رابعاً: إحذر، إذن، وافتح أذنك فإنه إما تعتبر نفسك لا شيء بالفعل والعمل والقول وتضمّر في نيتك أن تستسلم لله بكل قوتك وحينئذ تتحرر من ذاتك بنعمة الله راضياً، وإما تُسلم للتأديب حتى تتحرر من ذاتك مُرغماً. فإن أحسنت، فالزم طريق الخضوع الإرادي واحسب نفسك من الآن أنك لا شيء وسر وراء النعمة إلى حيثما يشاء الروح.

خامساً: أعلم أن الخضوع لله والتسليم الكامل لمشيئته وتدبيره هو في الواقع هبة ونعمة، لذلك فهو يحتاج بجوار الصلاة والتوسل إلى ثقة الإيمان في نوال هذه الموهبة، مع الحاجة في القلب أن لا يسلمنا الله للتأديب بسبب جهالتنا ولا يتركنا لحكمتنا. وإزاء ذلك يلزمنا التصميم بعزم شديد للغاية أن نجحد أنفسنا في كل وقت وكل عمل ليس أمام الناس ولكن داخل الضمير. وطوبى للإنسان الذي يكتشف ضعف نفسه وجهالتها و يقر بذلك معترفاً أمام الله حتى آخريوم من حياته.

سادساً: إذا وقعت تحت التأديب، فاعلم أن هذا خير عظيم، لأن الله يسوق التأديب على النفس التي سهيت عن ضعفها وتعظمت بقدرتها ونجاحها حتى تدرك ضعفها، خصوصاً إذا لم يُعط مع الضيق منفذاً وحاصر الذات من كل جهة ومرمرها بالإهانة الداخلية أو الخارجية، بالخطيئة أو بالفضيحة حتى تكره نفسها كرهاً وتلعن ذكاءها لعناً وتجحد مشورتها جحداً، وأخيراً تستسلم له صاغرة متصاغرة منسحقة. في هذا الوقت يصبح سهلاً على الإنسان أن يبغض ذاته، بل يشتهي أن يبغضها الجميع. وهذا هو طريق الإقضاع الحق الذي يوصل إلى الاستسلام الكامل للتدبير الإلهي، وينتهي بتحرير النفس من سطوة الذات وغشها وعنادها وكبريائها!

سابعاً: إن سئلت أن تبلى تحرير النفس من أصحَّ طريق وأبسطه، فاجلس متأدباً للنعمة كل يوم وافحص أفكارك وحركاتك ونياتك وأغراضك وأقوالك وأعمالك في نور أفوار الله، وحينئذ سوف تكتشف فساد الذات وغشها ومكرها وخداعها وكسرياءها وبجاسها، فإذا واطت على ذلك كل يوم بانسحاب قلب تستطيع أن تعزل نفسك عن هذه الدات الكاذبة الشيطانية، ثم تفوى عليها شيئاً فشيئاً حتى تجردها وتبغضها وتحرر من سطوتها. وأخيراً تدرك مقدار المصيبة التي أوقعتك فيها الذات حينما كنت تطيعها وترتاح إليها وتفخر بها وتطلب كرامتها!!

وفي اللحظة التي تتحقق فيها من عمق كيانتك أنك لا شيء وأن الله هو كل شيء، تكون قد تحررت حقاً.

كذلك توحد عوامل مستترة تتدخل في حركة النفس الروحية فتعرقها ثم توقفها وتطرحها في النهاية على الأرض:

أول هذه العوامل الجهل، الجهل بإرادة الله ومتيسته، الجهل بالطريق الضيق المؤدي إلى الحياة الأبدية، الجهل بحيل عدو الخير الذي لا يكف عن غوايتنا حتى نتعظم ونشهي فنعصى الله، الجهل بتفاهة العالم وزوال مجد الدنيا وحقارة اللذة الحسية.

أما الجهل بإرادة الله، فعلاجه في الإنجيل وفي الصلاة المستمرة. والجهل بالطريق الضيق، فعلاجه في الشجاعة والبدء في المسير منذ هذه اللحظة. والجهل بحيل عدو الخير وغواياته، فعلاجه في التواضع لدى الله والسهر على النفس. والجهل بتفاهة العالم وزوال مجد الدنيا، فعلاجه رحلة إلى المقابر.

ولكن لا يزال يوجد عامل أخطر يتسلل في حياة الصلاة فيضيق محالها ويتحكم في حركاتها ويطفىء شعلتها: وهو العادات الجسدية والنفسانية وما ورثه الإنسان من أسرته من أخلاق وسلوك غير مسيحيين.

والعادات الجسدية هي مثل لذة الأكل وكثرته، والكسل وحب النوم الكثير، والتندد الجنسي، وهذه تولد التهرب من العمل والجهاد والصلاة وكراهية القراءة الروحية وبغضة

التعمق الفكري في التأمل في المواضيع الروحية والتلذذ بالبلادة الفكرية، والركون إلى الأحاديث التافهة والإيهام في رؤية التليفزيون وقراءة الجرائد والمجلات والكتب التافهة، والركون إلى طياشة العقل طول النهار بلا أى هدف قيم، والسهر الكثير في التوافه والرغبي.

والتححرر من هذه سُرْبُط لا يكون إلا بقطعها بسكن الحماس لروحي وتفعل روح الرجوة، فطريق الله يحتاج إلى رجال أبطال في الإيمان والعمل.

أما العادات النفسانية فهي إما مظاهر ضعف مثل: لكذب، والإدعاء، والنيمة، والدبوبة، ولتردد، والجبن، وممالة الآخرين، والعطف على الذات، والبكاء على الكرامة المحروحة؛ وما تكون مظاهر تعظم مثل: الاعتداد بالرأي، وتصلب الفكر ولعجرفة لعقلية، وتحيل استخدام غوة، والظلم، والإفتراء، وشهوة الرئاسة والتسلط والتعليم.

وهذه المظاهر أو تدت، هي في الواقع نتيجة مباشرة لانحراف الذات بسبب البعد عن الله وعدم الخضوع الكامل لمشيئته وتدبيره.

ولتححرر من هذه الرُّبُط لا يتم إلا بتوبة صادقة منسحقة تحت يد الله.

أما الأخلاقيات غير المسيحية فهي مثل: الفسوة على الحدة ومعامتهم بتسلط، والسخرية من الضعفاء والمشوهين، واحتقار الطبقات الفقيرة، وعدم الأمانة في تأدية الواجب، والإزدراء بالهوانين والرؤساء، ومعاملة المتل بالمثل، والإستهتار بحريات الآخرين وكرامتهم.

وهذه الأخلاقيات المحطية تكشف عن الهوة التي تفصل النفس عن المسيح. وعلاجها لا يكون إلا بعودة إلى معنى الصليب.

إذا ربطنا عصموراً بخط فهو لن يستطيع أن يطير. وبمحاولته الطيران وهو مربوط، حتماً سيكسر جناحه و يترصص جسده، بحيث لو فككناه بعد ذلك قلر يستطيع الطيران!

كم من لموس تستطيع الطيران نحو الله لولا ارتباطها بأشياء العالم؟ عشا يحاول الإنسان أن يرتفع إلى الله وهو موثق برُّبُط هذا العالم. وحتى لو استطاع الإنسان أن يتحرر من جميعها إلا واحداً، مهما كان بسيطاً وتافهاً، فهو لن يستطيع أن يحيا لله، بل وتكون

الخطورة أكثر بسبب هذا الرباط الأخير، لأنه سيحاول أن ينطلق وهو مثقل بهذا الشيء الذي لا زل متعنماً به، فتكون النتيجة أنه بعد أن يرتفع قليلاً ويتوهم أنه سار في طريق الله، إذ بهذا الشيء يجذبه مرة أخرى فيسقط من عبوه الروحي فتأذى نفسه جداً، وتتكرر هذه المحاولة يفقد حرارته وحماسته على الإنطلاق في الحياة الروحية.

كثيرون حاولوا المسير في حياة صلاة والعبادة، ولكن فجأة توقف مسيرهم واعترضهم الجمود ونكصوا على أعقابهم. وكان السبب في هذا الإرتداد المحزن هو وجود إحدى هذه الربط الخفية، ربما حظية أو نوع من المكيفات أو عادة من العادات، أو ربما شهوة التلذذ بإحدى متع العالم، أو سعي حتى في النفس للشهرة والكرامة والمجداً باطل، أو محبة جسدية لإنسان ما أو لشيء ما مما في هذا العالم! إن واحدة من هذه كفيينة أن تعرف النفس وتقيدها، فلا تستطيع الإنطلاق الدائم في جو الصلاة وحياة التأمل.



ولعل من أهم النصايا التي يوصي بها كل سائح مخلص في طريق الحياة الأبدية، أن لا ينخدع إذا أحس أنه تحرر من خطاياهم ومعوقاته الأولى. لأن كثيرين وثقوا في أنفسهم عندما أكرمهم الله ورفع عنهم ثقال خطاياهم وسرورهم فأحسوا أنهم قادرون على تحرير الآخرين بإمكانياتهم، وانغمسوا في أوساط الخدمة والعمل فل أن تصح أرواحهم الضوحي الذي يجعل حريتهم إلهية وليست بشرية، تعمل لمجد الله وليس لشهرة النفس والإسم، فكانت النتيجة أن وثبت عليهم خطاياهم الأولى أو تمكنت في نفوسهم أنواع جديدة من الشرور الدائمة مع انقسام داخلي واظهور بمظاهر القوى فكاتب أو اخرهم أسر من واثمهم.

فتحرير النفس لا ينحصر في ناحية واحدة، بل يرم أن يشمل الحياة الداخلية كلها. فلا يهادن الإنسان مع العالم ولا يرصخ لمشورة تفيد حريته في المسيح مهما كاتب هذه المشورة. وأفضل للإنسان أن يعيش ميتاً في بطن الناس والعالم ويخلص، من أن يتبوا أعظم المراكز والخدمات ويخسر حريته وحياته الأبدية، كما أنه أفضل للإنسان أن يقال عنه إنه جاهل وضعيف ويزدرى به ويكون سائراً في طريق الحق والحياة، من أن يكون شغفه لتساعل مديح لأفواه على المنابر كقوى وعظيم وتكون حياته الداخلية خربة وحالة والصمة تلاحقه.

كذلك إن كانت ثمة بصيحة أحيرة نقدمها للإنسان المحب لله بخصوص تحرير النفس، فهي أن يحتسب جداً من إضافة خطايا جديدة على خطاياہ باغلاله واستتاره وعدم ضبط نفسه وحواصیه. فالخطايا القديمة تحتاج إلى دموع كثيرة وتحفُّظ كبير حتى يتخلص الإنسان من آثارها المرضية و يتحرر من سلطانها، أما إذا أصاف الإنسان كل يوم خطايا جديدة فإنه يتعذر شفاؤه.

أما الخطوة العملية الأولى اليها بدخل في حقيقة الحرية وفوتها، فهي أن نخضع خضوعاً كاملاً مطلقاً لإرادة الله وتدبيره دون أن نعترض مشيئته فينا، فهذا يؤهنا أن نحمل في قلوبنا نوعاً من الحرية أو التحرر من أنفسنا وشهوتنا لأنها تكون داخل محال فعل النعمة وتأثيرها.

والإنسان الذي يعيش في دائرة إرادة الله و يتمسك بها تمسكاً شديداً عنيداً، في خضوع وشكر واستسلام كامل، فإنه يحصل على ماعة كبيرة ضد كل محاولة لإخضاعه للخطيئة أو الشر أو أي انحراف.

وحيثما تسع عمسة خضوع النفس لإرادة الله درجتها الصحيحة، يصبح الإنسان غير مستعد لفول أي مسرة أو لذة أو راحة أو غواية مفسدة تبعده عن حالة الخضوع لله والتمتع بطاعته! وهذا هو منتهى الحرية!!

أقوال الآباء في تحرير النفس :

أقوال من تعاليم الأب إسحق تلميذ أبا أنطونيوس الكبير في حوارهِ مع كاسيان :

٤٠٤ — لكي نقدم صلاة باهتمام ونقاوة قلب يجب أن نراعى المواعيد الآتية : —

أول كل شيء يجب أن نتخلص من الإهتمام بالأمور الجسدية أثناء وقوفنا للصلاة .

وثانياً : يجب أن لا نترك فرصة لأفكارنا أن تشرذ في الإهتمام أو حتى مجرد ذكر أي عمل من الأعمال .

وبجانب ذلك ، يجب أن نلقي عما تماماً : كل اعتياب وعميمة ، الأحاديث الفارغة ، المزاح وكلام لسهه ، الغضب والعسوسة الكثيرة المعلقة ، الشهوة الجسدانية المؤدية إلى الهلاك ، الطمع . كل هذه لأوجاع ولعيوب التنفسية يجب أن نتحرر منها تماماً ، ونقاومها بشدة بالصلاة ونفتنعها من أصولها . فحينما نقطع هذه العن وبغيرها التي لا تنحى على أحد ، حينئذ أول كل شيء ، يجب أن نضع أساساً أميناً من التواصل العميق ، يصلح ليكون أساساً لرح الفضائل الذي سيرتفع نحو السماء .

ويجب أن تتدرب النفس على صسط الفكر ، حتى تستطيع أن تدخل إلى لصلاة الهادئة وبأمن لله . وبلاحظ أن كل ما كان يفكر فيه العمل قبل ساعة الصلاة فإنه يعرض لنا أثناء الصلاة من جراء دوام نشاط الذاكرة ، لذلك يجب أن نعد ذواتنا للصلاة قبل البدء بها . لأن لعمل وقت صلاة يكون متأثراً بحالته السابقة ، فحينما نتقدم للصلاة يستحضر العقل ذات الحوادث والصور والأحاديث وينتدىء تتراقص أمام محيلتنا لتدفعنا للغضب كسابق عهدنا ، أو للكآبة والعم ، أو تسترجع بنا ذكرى شهواتنا وأشغال ، أو تدفعنا لضحك أحمق على بادرة عيبة سلفت أو ننتسب على حدث مضى ، أو أن هذه جميعها تتحد معاً فتتحطف النفس بجمعها لتهمك في أحاديثها ومواقفها السابقة .

سلك فإذا كنا نود أن لا يطوف بنا شيء عندما نصلي ، علينا أن نحترس قبل لصلاة لنظهر قلوبنا بعزم من كل هذه الأشياء حتى ندخل إلى معد القلب وحدنا لنتمم أمر الرسول : « صلوا بلا انقطاع . » (١ تس ٥ : ١٧)

أما بخلاف ذلك فلا يستطيع أن يقوم بحق الصلاة الداخية ، ما لم يتطهر عقلاً من كل شر لخصه

أولاً ليستم إلى امضية، حتى يكون صلاحه طبيعياً ليس عن كبت أو اضطباع، فتكون لفضيلة هي طعامه الذي يتغذى منه ليدوم على التأمل في الله.

٤٠٥ - إن صفة نفس تبارك برئته في غاية الرفعة والنعومة، وهي كحبح حبيب غانة في الحمة، وإذا لم ينح هذه الرية أو هذا الحبح عارض ما أو يلف بسب الرطوبة الخارجية فإنه يُحمّل عالياً حتى عيان السماء، طبيعياً من تلقاء ذاته بعامل خفته ومعمونة نفخة بسيطة.

أما إذا لحق به حمل أو ألقت به رطوبة فليس فقط تعجز أن خمنه حمة طبيعته إلى أي عوفاً، بل به يسحدر إلى أسفل تثقل الرطوبة التي احتوته. هكذا أيضاً النفس، إذا لم تثقل بالعيوب التي تؤثر في طبيعتها الروحانية بهموم هذا العالم أو تفسدها الشهوات المؤدية، تستطيع، كما كانت في أول أمرها، أن تُحمّل عالياً بمواهب نقاوتها الطبيعية بمعمونة نفخة خفيفة من التأمل الروحي، تاركة وراءها كل لأمر اسقية لمادية تنعبر هي إلى السموات وإلى غير المرثيات.

ومن ثم فوصية لستد تنحى الآن أمام عيوبها بوضوح. «إحترسوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في خمار (نخمة الأكل) وشكر وهموم الحياة.» (لوقا: ٢١: ٣٤)

لذلك، إذا كان يريد أن تصل صلواتنا إلى السماء، علينا أن ننقي نفوسنا ونردها إلى طهارة طبيعتها الأولى، خالصة من عيوب لأرض نهيته من كل ما يؤثر في حفة الطبيعية، هذه ترتفع صلواتنا إلى الله لا تعيقها أي خطية بلا مانع.

٤٠٦ - وحديثنا أن نلاحظ الأسباب والعلل التي أشار إليها السيد وأن أنها هي التي تسب تثقل للنفس: فهو لم يذكر رب أو الحق أو القتل أو التحديق أو الخطف فحسب، هذه التي يعرفها كل واحد، ويدرك جميعاً أنها لا تثقل فحسب، بل إنها مكروهة وممينة، وإنما ذكر الولوع بالأكل إلى حد التحمة (سُخْمَار) ولإيهامك بمساعل وهموم هذه الحياة، التي بعمس فيها أهل العالم دون أن يدركوا خطورتها أو يعتدروها أموراً مردوة، حتى أن بعضاً من الذين يسمون أنفسهم رهباناً مثقون بهذه الأمور عينها كأنما هي أمور عادية.

ومع أن هذه الرذائل الثلاثة، أي شهوة الأكل والسكر والإهتمام بأمور العالم، حينما تفتح لها باباً في أنفسنا كفيلة أن تفصلنا عن الله ونرمينا في ظلمة الأرض، ولكن ليس عسيراً أن نكف ونصنع عن هذه الأمور الثلاثة، لاسي لما نحن الذين انفصنا عن رجاء وأمن هذه العالم القاني. وليس هناك من سب يدعو أن نرغمي في أحضان أي منها، فلا حاجة بنا إلى السكر أو التدد بالأطعمة أو الإنشغال والإهتمام بأمور هذا العالم.

ولكن هناك نخمة غير أكر، وشكراً غير حمر، لا نفل خطورة عن سانسها واشعاعاً وهدماً بالعالم،

حتى بعد أن يكون قد بفضنا أيدينا تماماً من العالم وخيراته الزائلة. فندون ولائم وبلاخر وبعيداً عن لعالم بفع في ذات الفح فنشغل بها. عن هذا يقول البى: «إسمعي أيتها البائسة والسكرى وليس بالخمر.» (إش ٥١: ٢١)

فإذا لم ننظف ذواتنا من هذه العلل — الظاهرة والحمية — وعمسك ذواتنا من الولوع بالشهوات، يتنفس قلبنا من غير سكر أو امتلاء من الطعام ولكن بسكر آخر ونحمة أخرى أشد خطورة.

وحينما نتطهر، تنجلي أفكار النفس مرة أخرى وتعود من حماة الطين إلى طهارة طقسها الأول لتحمل الصورة الملائكية. وحينئذ، وفي كل ما تأخذه وكل ما تمسحه وكل ما عمله، تكون الصلاة نقية خالصة.

٤٠٧ — إن الدير يسحشون بالحق عن الراحة الصادقة، وأدوية الشفاء من طبيب النفس الحقيقي لس يتركهم معتازين في شيء قط. والذين لا يستخمون بمصيبتهم ولا يسترون خطورة جرحهم بل بقلب متضع يقظ يلوذون بالطبيب السماي من أمراضهم التي أضغطهم، سواء عن جهل أو خطأ غير راضين علاج التوبة، إن سهل أو صعب، فإنما يفوزون بالرعاية فوق وقبل الكل.

ذن، عدينا أن نشقى من عللنا وجراحاتنا. أما إذا لُذنا بالأماكن المقدسة، لنحني فيها أنفسنا أو عيوبنا، أو ركشاً إلى العزلة والإفراد دون أن نواجه أنفسنا لشقى من جراحنا وأسقامنا، يكون ذلك بمثابة قمع وكبت لها وليس استئصالاً. أما الشعور بهذه الأوجاع فهو لا يهدأ ساعة واحدة، إذ أن جذر الخطية موجود لم يُستأصل، فإنه يقبع مخفياً داخلنا أو بالحري ينمو متسللاً ليظهر في حينه!

أما كون جذر الخطية لا زال حياً فينا فنذكره بالعلامات الآتية:—

(أ) إذا كنا ننتظر أحد الإحوة فتأخر عما قليلاً لسبب من الأسباب، وابتدأ عقننا بغضب و يوم إبطاء سرأ و يتسب قلما لهذا التأخير في ارعاح لنا، فامتحان صميرنا يعلن أن حطيتي لفصت والضجر لا زالتا كامنتين في القلب بوضوح.

(ب) إذا طلب أحد الإحوة كتاباً ليقراه أو أي شيء آخر منا ليستعمله فبرعجا سؤاله و يكذّرنا، فليس هناك شك أننا لا زلنا ممسكين بقروننا في الشح والطمع.

(ج) إذا خطر ببالنا فكر عابر أو قراءة صفحة من الكتب المقدسة فاستحضرت إلى ذهننا ذكر امرأة وشعرنا عيل بحوها، فعدينا أن ندرك أن خطية الزنا ما انطفأت ناره بعد ولا انخمدت شهوتها من قلوبنا.

(د) وإذا كنا نقارن صرامتنا وتدقيقنا الروحي برخاوة وأحلال غيرنا من الناس فيتسرب إلى عقلنا

فكر إعجاب بذواتنا، فواضح، إذن، أننا مصابون بداء الكبرياء.

وحيثما نكتشف هذه العلامات التي تدلنا على أصول العلل والأسقام الدفينة داخلنا، علينا أن ندرك بوضوح أن فرصة الخطية فقط هي التي لم تسنح لنا، إلا أن شهوتها لم ترل ناقية! وبالتأكيد إذا سنحت الفرصة وكان عيبنا أن تحتلط بالحياة العادية بين الناس، فإن هذه الشهوات تنبعث في الحال من مكامن أفكارنا وتنفجر لتظهر واضحة عارية أمام عيوننا بعد بحاس طان أمدته.

هذا يكر لكل إنسان حتى ولو كان متوحداً أن يختبر داته و يكشف عنه وجدور الخطية المترعة فيه، ولا يكون همًّا إخفاء عيوبنا، بل بالحري كشفها وإظهارها لمن لا تخفى عليه أسرار القلوب.

٤٠٨ — لم يكن العلاج الشافي بالأمر العسير أو النادر لم وضعوا في ذواهم أن يُشفوا من أمر صهم، غير أن أنواع العلاج عديدة ويجب أن يُبحث عنها بنفس الطريقة التي اكتشفت بها علل لنفس الدفينة.

لأنه، كما سبق وقبلا، إن أخطاء الرجل العادي في الحياة ليست معدومة بين العُتاد أو المتوحدين، غير أن السيرة على الشفاء من علل النفس وافتناء الفضيلة هي على أوجها بين الذين قطعوا ذواتهم من حياة هذا العالم.

وحيثما يكتشف أحد بواسطة هذه العلامات التي وصفناها سابقاً أنه مصاب بثورات من قلة الصبر أو من الغضب مثلاً، عليه أن يدرب نفسه على الدوام فيما هو ضدها ويقاومها، واضعاً أمام نفسه كل علل وأوجاعه كأنما هي مقدّمة إليه من إنسان آخر. وابتدىء يقنع ذاته متصوراً أن تعدياته على الآخرين كأنما وقعت عليه هو، فيحملها باتضاع كامل ومسكّة. ويستعرض على نفسه كل أنواع المظاظة والقسوة التي كان يعامل بها الآخرين متصوراً أنها وقعت عليه هو، ويتقبها بحزن وانكسار قلب ويستعطف نفسه أن يعاملها بلطف ووداعة أكثر وهكذا.

ثم يقرأ ويتأمل في جميع المشقات التي حصلت للقديسين أو بالحري على الرب نفسه وعلى رسده الأظهار وبالأخص بولس الرسول. وحيثما بتدىء يحتمل الضيقات والمشقات التي تقع عليه بصبر، حتى أنه يرى أن جميع التعبيرات وأنواع العقاب التي تأتي عليه هي أقل مما يستحق، وهيبىء نفسه لإحتمال كل أنواع الشدائد.

وعلى الإنسان أن يتدرب كيف يكون مؤدّباً لنفسه صارماً، ليقمع شهواته وأهواءه السرية، ويواجه نفسه بكل أنواع أخطائها الثقيلة مدرباً نفسه على إصلاحها في تأملاته اليومية؛ ويوبخ نفسه ويزجرها أمام التجارب والضيقات، فثلاً يقول لنفسه:

— «يا صديقي الصالح أفأنت الذي تدرب نفسك على ممارسة أسس العبادة والتأمل وقد حاطرت بكل تصميم؟ كيف انتكست سريعاً وتلاشى صبرك وخسرت أول معركة بتحربة تافهة وأمام مشكّة

بسيطة!! وأنت كنت الآن توثق في نفسك أنك تستطيع أن تحتل أشد التجارب هولاً متوهماً أنك كفو لمواجهة كل العواصف؟ كيف استطعت بمخة بسيطة أن تززع أساسات حصك الميع الذي توهمت أنك بنيت على صخرة؟ أين ذلك الذي أعلنته وقت السلام حينما كنت تشوق بثقة عمياء أن تواجه جيشاً من أعدائك؟ كيف أن روحاً حقيراً استطاع أن يزعجك ويفسد عيذك استعدادك للحرب؟»

بهذه التعييرات والتوبيخات الصارمة يحث على كل إنسان أن يدين ضميره ولا يسمح لتجربه المفاجئة أن تأخذ منه مأخداً، ودا ما أصابه منها ولو قليل من الارتباك لا يسمح أن يترك نفسه تمر بلا عقاب، فيقتصر من جسده بأنواع عقوبات الصوم والسهر ويقتصر من رعوته وحفة عقله بدوام الحذر والانتباه وضبط النفس.

٤٠٩ — إن القانون الإلهي ليس موضوعاً للقمّة والعقاب على ذات الفعل فقط بل إنه يتعدى ذلك إلى مجرد تذكار الضرر أو الشرف في القلب نحو الآخرين. وهذا قد أوضحه السيد المسيح وحرّمه قطعاً، فليس مسموحاً أن يتحرك القلب بالغضب نحو الآخرين لسبب خسارة تصيينا مهم، لأنه أية خسارة أو ضرر أكثر من أنه سبب هذا الغضب المفاجيء تفقد النفس قدرتها على مواجهة بهاء نور الأبدية وتخسر رؤية من قال عن نفسه إنه وديع ومتواضع القلب!

أنا أسألك ماذا يكون أخطر من أن يفقد الإنسان قدرة تمييزه للخير وقياسه وحكمه على الأمور؟ هذا يفقده الإنسان أثناء غضبه! وكيف لا يُعاقب الإنسان حينما يأتي أمراً وهو في كامل شعوره كما يأتيه السكر والأبله؟

حينما يتأمل الإنسان ملياً يدرك خطورة الأضرار التي تنشأ عن هذه النزعات الخاطئة والسلوك امريض، وحينئذ يهون على الإنسان التأديب في سبيل الشفاء، بل يهون عليه احتمال كل إساءة ومصاص يلحمه من إنسان قاس ولا يسقط في حماة الغضب، لكونه سيدرك أنه ليس كثر مرارة وضرراً من الغضب، وليس ثمر من سلام العقل ونقاوة القلب غير المنقسم، هذه التي من أجبها يجب أن لا نفكر التة في أي ربح مهما كان، ليس في الأمور الجسدية فحسب بل وفي الأمور التي تظهر أنها روحية أيضاً، إذا لم يمكن عملها بغير تشويش أو تعكير لهدوئنا وسلامتنا.

٤١٠ — إن الذين استطاعوا أن يتدربوا على الصلاة الدائمة لمغبوطون حقاً، حتى ولو كان تميمهم لوصية الرسول «صنوا بلا انقطاع» ليوم واحد. هذا الأمر يترأى للذين انغمسوا في الخطايا الثقيلة كأنه شيء غير هام وتافه، ولا يدركون أن حكمهم هذا من وحي خطاياهم المرة التي أعمت عيونهم ... فالذين في طريق الكمال يدركون قيمة هذه الأشياء التي تظهر بسيطة.

ويستبىه ذلك يتضح من مثل الآتى: رجلاان، الأول ذو بصر حاد ورؤية سميمة؛ والثاني ذو بصر عليل وعشاوة من بطمه تحجب عنه الرؤية. وإذا دخل الإثنان منزلاً فحماً مؤثلاً بالريش لفاخر والتُحف البادرة ومربياً بكل ربة، فإذا يكون من أمر ضعيف البصر، لا أن يدعى ويحزم أنه ليس فيه إلا صناديق ومقعد وكن ما دونه عليه أصابعه، فيما الآخر ذو البصر حاد والرؤية السميمة يستطيع أن يعدد لك كل دقائق ما في ديك البيت ويصف لك روعه ورحفه ويدبغ أثاثه وريشه. هكذا أيضاً القديسون فإنهم ذوو بصيرة روحية قوية وتميز نفساني حاد، حتى أنهم بحداقة بادرة يكتشفون دقائق العيوب والأخطاء التي في أنفسهم، وأنبياء لو حذفوا فيها ميباً وأمعنا التمييز والفكر بعسر عيب أن يدرك نوع الخطأ أو الإحرف فيها، وذلك لعشاوة الطنمة التي بسحبها يد الخطايا الثقيلة على عقولهم. فينبغي هم يحكمون عيوبهم ويديسون دواهم من أحلها بعف شديد، لا نحس لا نكثر بها!!! بل أحسادهم الطاهرة لبيضاء التي لم تتكدر بفدر الخطية تظهر أمامهم كأب مصوغة بالإثم، مع أني أفدر أن أجرم وأقرب أنه لا يحصر بعقوبهم فكر شرير، بل إنه محدد ذكر المرمور تحفظ عقولهم من الله وقت الصلاة.

٤١١ - وكس ما هو السبب الذي يوقعا في مثل هذا القصور - أي في عدم القدرة على كشف الخطايا الصغيرة والبرعات الحاطة - إلا جهلنا بشروط القصية! وكيف أب تحوم من كل إثم ومن كل ما هو صدى الحق. وأيضاً لأننا لا نرى في تصوراتنا المنحرفة وأفكارنا الشريرة ما بوجت الحزن أو الندم على أنها خطايا. فتكون لتيحة أن هذه الفأوة في التمييز والمعرفة تتحول إلى بلادة، فتصاب بالعمى الروحي الذي من شأنه أن يجعلنا لا نرى في دواتنا إلا الخطايا الكبيرة والتعديت الرئيسية التي تدخل تحت العصا السدي، حتى إذا أنصربا دواتنا أننا لا نأثيها كافي لناس نعتقد أنه لم يعد فيه خطية الستة!!! بل ونعتقد في دواتنا أننا أصبحنا من فئة الذين يبصرون ويعرفون الأمور!!! لأننا لا ننصر هذه الأدناس الصغيرة المتراخمة داخلنا، فلا نحزن بسبب الضجر الذي يملك على أفكارنا ولا نأسف لأننا مضروبون بداء الصلف، ولا نبكي على صلواتنا التي نقدمها متأخرة باردة، ولا نعتبره أمراً محجلاً وخطية كبيرة أن يشرد فكربا في الشرائع الصلاة!!! ولا يرتعب من قلة خجلنا على ما ننصوره في أدهاننا من أمور مخزية يبدى لها الجبين لا يمكننا التلفظ بها أمام الناس بل نكتمها في قلوبنا مع أنها مكشوفة ظاهرة أمام نظر الله! بل وأحلامنا الدنسة لا نرى أنها تستحق الإنسحاق والدموع الغزيرة لغسل بها وسخ طبيعتنا المنحرفة!

ولا نكتب سبب ترددنا المدموم في تقديم المساعدة أو الرحمة للآخرين الذي مبعته الأنانية والشح والبخل! ولا نرى الخسارة التي تحيق بنا حينما نترك الجلوس تحت أقدام الله ونذهب لننشغل في أمور وقتية زائلة! حتى أصبحت هذه الكلمات التي تفوه بها سيمان بالروح تطبق علينا: «ضربوني ولم أتوجع، هزأوا بي ولم أعرف.» (أم ٢٣: ٣٥)

الأب إسحق تلميذ أبا أنطونيوس
(في حوار مع كاسيان)

٤١٢ — والعابد الحقيقي لله ليس فقط يمسك شهوة بطنه ثم يدع المجد الباطل يتسلط عليه! ولا يقهر لشهوات القبيحة و يترك محبة المال تملك عليه!

وكسر بالإجمال هو لا يسمح لذاته أن يخضع لشيء من الآلام مثل العصب أو البعوضة أو حسد أو الكبرياء أو الشره. لأن الوصايا مرتبطة ببعضها: فمن يضبط ذاته عن المجد الباطل معروف أنه متصع، ومن تمتع عن محبة المال فقد أقوم الرهد بالكمال، والذي لا يندنس بالعصب فهو الوديع. والرجل الكامل في عبادته يضبط لسانه وعينه وأذنيه عن كل ما يُغضب الله. أما الذي لم يتدرب على هذا فهو لم يصل بعد إلى العبادة الحقة. لأن الضحك مثلاً علامة بحلان النفس ولا يُفنع إلا بخوف الله. لأن خوف الله يجعل الإنسان يُظهر شعوره بانتسامة الوداعة فحسب! فأما من يقهقه في الضحك فهو ليس بضابط لذاته، ولا نفسه هادئة. يقول عنه يشوع بن سيراخ: «إن الحاهل يرفع صوته بالضحك، أما حكيم فهو يتسم». لأن المسيح لم يوجد صاحكاً قط وإنما وُجد باكياً.

٤١٣ — قد تكون هناك أعمال كثيرة ليست هي خطية تتساهل فيها من أجل حياتنا، ومع ذلك يجب أن نترفع عنها إن كان في ذلك ربح لفوسا أو لإخوتنا كما قال بولس الرسول: «إن كان طعام يعثر أخي فمن آكل لحماً إلى الأبد لئلا أعثر أخي» (١ كور ٨: ١٣). وكذلك قال إنه كان له سلطان أن يعيش كآخرين و يتزوج ولكن لم يستعمل هذا السلطان لئلا تُعاق الخدمة وترد نفسه.

٤١٤ — العابد الحقيقي هو من يقطع كل أصول الآلام الحسدية ويتحرر منها، حتى الطبيعية منها. فعليه أن يقلع شوكة اللذة، لأن اللذة هي بذرة الشرير، وكأنها صنارة في يد الصياد يُسقطها بها في الخطية وتُساق إلى الموت بسبب شهواتها.

٤١٥ — لدى قهر كل الآلام إلا واحدة فليس هو بعد صحيحاً معافى. ولذي ساد على أهوائه وشهواته إلا واحدة فهو بعد عبد مربوط.

باسيليوس الكبير

٤١٦ — حينئذ تصور النفس صافية بعيدة عن تذكارات الآلام ولشروا المتنوعة، لأنها تكون قد صطبت كل حركات الجسد الطبيعية ودلت طبيعته الشهوانية، فتكون في هدوء وورع يبيق بالصلاة. وإذا صارت في المناظر الإلهية فإنها تدوم بالأكثر داهشة في أعمال الله بفرح وخوف وهدوء، وتظل محقة في نور الحكمة الإلهية بغير اضطراب.

ثم إن لم نكن قد ضطبت شهواتنا الطبيعية ولم نزل متعلقة بأمور العالم، فالآلام لجسد الطبيعة وبذرة شهوة الأشياء لي في عالم تنح عليها وتقوم عليها كالكلاب المفترسة جائعة حينما تفق للصلاة. وكل شهوة وكل لذة وكل ألم جسدي تجذب النفس إلى ما تريد، وتنفى النفس حائرة مبلبلة وقت

الصلاة، لأنها توانت مع أن لها السلطان من قِبل الله.

باسيليوس الكبير

٤١٧ — يحب على رجل الله أن يضبط لسانه ليس عن الكذب فقط، بل وأيضاً عن النسيمة والسعاية والشتيمة والسذمر والهراء ولتعبير وانتكيت والمراح والديبوبة والمماحكة والمحاصمة، وبالجمال عن الكلام الضار والباطال سدي يعطل البيان. فمن يتكلم فيسكلم بكلام الرب بالتضاع فلب، بأعماله قل أقواله. لأن كل من لا يعمل بكلام الباموس فقد احتقر واضع الباموس. والتكلم به دون العمل جزاؤه الديبوبة. لهذا قال الرب: «طوبى لمن عمل وعلم»، «وطوبى لعيونكم لأنها تنصر ولاذنكم لأنها تسمع». ولكن اليهود أيضاً كانوا ينفثون ويسمعون! لكن الطوبى صارت لمن آمن وعمل.

سمعان العمودي

٤١٨ — إذا كان الله موجوداً في كل كائن وأنت خالٍ منه، فالحياة هي خارج عنك فماذا ينفعك منها؟ وإذا كنت مملوءاً حياة وتشعر أن الله فيك، فالموت هو خارج عنك. فماذا يهمك؟ نظرت أنت لتراه في ذاتك متحداً بك! فإذا نظرته حقاً فيك، فانزع ذاتك من نظرك لترى الله وحده يحيا كل حين فيك.

٤١٩ — لا يقدر إنسان أن ينظر الحُس الذي داخله قل أن يهين ويرذل كل حُس خارج. ولا يمكنه التمتع بالله قبل أن يحترق العالم كله. من وضع نفسه ورذلها نال الحكمة من الله، ومن يحسب نفسه حكيماً زالت عنه حكمة الله.

٤٢٠ — يا مهمكين بالعمى (الأمور المادية وظلمة هذا العالم) إرفعوا رؤوسكم ليشرق النور في وجوهكم، أخرجوا من أوجاع العالم... ليخرج للقائكم النور الذي من الآب، ويأمر خدامه أن يخلّوا رباطاتكم لتمشوا في ضيائه إلى عهد أبدي. يا حبذا لو تقطعت رباطاتنا لنرى إلهنا.

٤٢١ — لا يدخل مدينة الروحانيين من كانت له صلة بالعالم وبشهوة العالم. لا يدخلها إلا كل من عمقت دالة الناس وغرور الحياة. فكل من انطلقت في نفسه وفي عظامه محبة المسيح لا يقدر أن يحتمل قذرة الشهوة الرذولة، وكل من صار رفيق الملائكة واستأنس بأسرارهم لا يقدر أن يحتمل عيشة العالم ومكائده. وكل من ربط عقله بالله والإنشغال بالسوء لا يستطيع أن يربط عقله بالعالم والإنشغال بالأرض.

٤٢٢ — من ذا الذي يستطيع أن يقتل ويهلك الأوجاع والخطايا في نفسه إلا من استأنس كل ساعة بالهديد في الله! واشغل عن العالم بل انفصل منه ومن كل ما فيه من شرور ومشاكل.

٤٢٣ — إذا أمات الإنسان ذاته عن الحياة الوقتية باشتهاء الله، يكون من ذلك الحين حياً بالله، ولا ينقطع جريان أنهار مياه الحياة من قلبه.

٤٢٤ — إن كانت شهوتك في العالم فهذه أيضاً للكلاب والخنازير أي شره الأكل ولربا. وإن كانت شهوتك في الله فهذا نصيب الملائكة.

الشيخ الروحاني

٤٢٥ — كلما يصغر العالم ويُبْهَـأ في بطرك ؛ كلما تترابد فيك محبة الله، وتأتيك نعمة الروح القدس. وكلما تزيد فيك محبة العالم والتمسك به ؛ كلما تنقص منك محبة الله.

٤٢٦ — الذي يشتد إلى الروحانيات، يجب عليه أن يهاون بالجسديات و يرفضها بفرح.

٤٢٧ — إذا أردت أن تخرج من العالم وتترك الأقارب والأهل والبلد وتتبع المسيح بسيرك في طريق الفضيلة، فلا ترتبك بأفكار الهم والقوت والكسوة. لأنه إذا كان عملك مع الله، فالله هو المهم باحتياجك وإلا فإيمانك يتساوى مع الكافر.

٤٢٨ — لا يكن، يا أحبائي، هم شيء من أمور العالم حاجزاً بيننا وبين الله! فإذا تركنا همومنا، يتسقى فكرنا في الصلاة. من أجل هذا أمرنا السيد له المجد بالتجرد من العالم ومما فيه والتمسك بالمسكنة والفقر والابتعاد عن كل هم، حتى يتحرر عقلنا من كل شيء وتخلو أفكارنا من العالم فنشتاق إلى الحديث الدائم مع الله والإهتمام به.

٤٢٩ — النفس المُحِبَّة للأشياء الجديدة لا تشع. فهي تبسط قلوبها لكل ريح.

٤٣٠ — محبة العلم التي ليست مملَّحة بحب يسوع وفعل الروح القدس، غريبة عن العالم الجديد، وهي ليست لها قدرة على قطع الآلام من النفس.

٤٣١ — لا تظر أن اقتناء الفضة والذهب فقط هو حب المِثْية، بل كل ما تتعلق إرادتك بشهوته.

٤٣٢ — كما أن الزارع في الشوك لا يستطرح له حصاداً، كقول معلمنا الصالح، هكذا الحقود ومحب المال لا يترجى فائدة، بل يتهد على مضجعه من فرط السهر ومواصلة الهم بالأمور.

٤٣٣ — تضرع إلى الله أن يحود عليك بإحساس عرض الروح واشتياؤه، لأنها متى وفدا إلى النفس حينئذ يبتعد منك العالم وأنت تتخلف منه.

٤٣٤ — لا تظر، يا هدا، أن الابتعاد عن علل الآلام وأسبابها أمر هين أو شيء يسير.

٤٣٥ — الحركة الأولى التي يسكنها الله في قلب الإنسان المتقدم إليه هي التهاون بالعالم. ومن هذه الحركة المباركة ينموفيه كل عمل صالح.

٤٣٦ — بمقدار ما يتهاون الإنسان بهذا العالم ويجتهد في خوف الله، تبتدىء العناية الإلهية ترافقه، وهو يحس بمؤازرتها له إحساساً لطيفاً سرياً، وتتبعه رحمة الله وتعزيه.

٤٣٧ — إذا كان المرص والضعف وهلاك الجسد و الخوف من الأشياء المؤدية ترعج وفكر، وتصرف شوقك عن بهجة أملك ورجائك، وتعطل استمعاك في حضن الله، وتؤحرك عن لذة اهتدك والحياة معه، فاعلم أن الجسد هو الحلي فيك لا المسيح له المجد.

مار إسحق السرياني

٤٣٨ — سنتمس من الله أن يهب لنا أجنحة حمامة (مر ٥: ٦) أي الروح القدس، لطير إليه ونطمئن. ونتوسل إليه أن يقضي عنا الروح الشرير ويقطعه قطعاً من بهوس وأجسادنا، أي الخطية الساكنة في أعضائنا الجسدية والنفسية، لأنه هو القادر وحده على ذلك: «هذا هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم».

٤٣٩ — والرب يطلب منك أن تغصب نفسك وتقاوم فكرك ولا تخضع لتلذذ الأفكار الشريرة ولا تراودها أو تتنازل معها، أما استئصال روح الشر الكائن فينا فهذا يتم بالقوة الإلهية عندما يجد الله جهادك وصرك ضد الشر، ونبتك الصالحة للخير، لأنه لا يمكننا أن نستأصل الخطية من أعضائنا، وإنما علينا فقط أن نقاومها ونصارعها ونضاربها، أما نزعها واستئصالها فهو الحرة الموضوع في يد الله بمنحه لنا. وإلا لو كان في مقدورنا أن نقاوم الخطية وننزعها أيضاً، فأى حاجة كانت، إذن، لمحيي الرب؟ فكما أن العين لا تستطيع أن تنظر بلا نور، كذلك نحن لا نستطيع أن نرى الله إلا بنوره: «بنورك يا رب نعاين النور».

٤٤٠ — وأما إن قلت أن القوة المعادة هي أقوى مني؛ وأن الخطية هاد على الإنسان سلطان مطلق، فقد نسيت الظلم لله!! إذ كيف يدين إدادك الطبيعة الشريرة لإطاعتها الشيطان؟ والحق أن العدو أقوى في ذاته وقد يُخضع الطبيعة الشريرة بموته ولكن، «إن كان الله معنا فمن علينا»؟ وداود في المزمور ٤٤: ٥ يقول: «لك ناطح أعداءنا». فالنفس التي تطلب الله، تحذف فيه عوناً وبصراً، وهو ينعم عليها بالفداء.

٤٤١ — لأن النفس التي تكون في شوق كثير إلى الإيمان والمحبة تُحسب أهلاً لنوازل تلك القوة العلوية، فتنتفك من كل محبة عالمية وتنحل من كل رباط الخطية.

٤٤٢ — وإن كان لك كتاب المقدس يقول: «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته»، وذلك من أجل حفظ كيان المحبة الجسدية، فكم يكون علينا إذا أردنا أن نشترك مع الله في حياته الحب الإلهي والبشارة معه يتحتم علينا أن نتجرد من كل حب العالم وكل لأمر الخارجية

المنظورة؟

أبا مكار يوس الكبير

٤٤٣ — الذين يلتهون شهوة الروح السماوية، الذين مرضت نفوسهم حباً بالله، لذين اضطربت فيهم السار التي جاء المسيح ليلقيها على الأرض ولا يود إلا اضطرامها (لوقا ١٢: ٤٩)، الذين التهبتم نفوسهم بحب المسيح: هؤلاء ينظرون إلى العالم والأشياء الفاخرة الثمينة التي فيه كأنها أشياء تافهة بل كرهة! بسبب الحب المضطرم فيهم الذي لا يمكن أن يفصلهم عنه شيء مما في السماء أو على الأرض أو تحت الأرض كما ذاق بولس وشهد له (روما ٨: ٣٥).

٤٤٤ — لم يُسمع قط أن إنساناً استطاع أن يحيا مع المسيح دون أن يتحرر عقله من هموم العالم والقيود الأرضية، سواء كانت بالحب الطبيعي المغروس فينا أو من جهة الشهوة الفاسدة التي تعمل فينا لحرماننا من الحياة الأبدية.

٤٤٥ — فإن كانت النفس تخصص ذاتها للمسيح، فقد التصقت بالرب وصارت معه روحاً واحداً (١ كور ٦: ١٧)؛ وإن كانت قد سلّمت نفسها لغرور الحياة وهموم الغنى (متى ١٣: ٢٢) وسعت وراء الشهرة أو المركز العالمي والكرامة والفخر، فقد انعدمت منها القدرة على الالتصاق بالمسيح.

٤٤٦ — إن الشر يعمل فينا حقاً بقوة، ويحرك كافة الشهوات الدنسة والفاسدة فينا، لأن هذه هي طبيعته، ولكن، من مراحم الرب أن الشر غريب عن طبعنا ولا يمتزج بطبيعتنا قط كما متزج الماء بالخمير مثلاً بل يكون منفصلاً كوجود الروان مع القمح في الأرض.

٤٤٧ — من شاء أن يتقدم إلى الرب ويُحسب أهلاً للنجاة ووارثاً للحياة الأبدية ومسكاً للمسيح، يجب عليه أن يبتدىء بالإيمان ويثق بالرب ويسلم نفسه بكليتها ليسوع ويودّع العالم وداعاً تاماً.

٤٤٨ — متحررين من كل الأهواء المشوشة للحياة الروحية، ساعين بلا انقطاع بحواله، غير متكئين على عطية ولا على بر.

أبا مكار يوس الكبير

٤٤٩ — أول ما يجب عليك عمله أن تقاقل طبيعتك في عاداتها القديمة وشهواتها التي تمت معك. وعند مقاومتك للعادة والطبع ستصادف أفكاراً مضادة من عدو الخير، تردك إلى عمل الأمر الذي تسعى للتحرر منه والذي خرجت منه بجهد شديد، فعليك أن تضاعف حركتك وتقدم لنفسك أدلة وبراهين لكشف قوة الظلام الخفية الخادعة الكائنة في القلب. واعلم أن الرب

قريب من نفسك وجسدك بحيث يرى قتالك، إلا أنه يتركك لتأخذ معرفة وكفاءة إلى أن تتقوّم. وأيضاً تهديك النعمة إذا ازدادت ضيقتك. وبعد أن تصل إلى الراحة تعرفك النعمة بنفسها وتبين لك جهراً أنها تركتك لتدرب لأجل خيرك «قد علمتُ يا رب أن أحكامك عادلة. وبحق أدلتني» (مز ١١٩: ٧٥)، «خير لي أنك أدلتني لكي أتعلم حقوقك.» (مز ١١٩: ٧١)

٤٥٠ — إن ربا يسوع المسيح أنى لكي يحوّل ويغير ويحدد ويخلق النفس التي فسدت بالأهواء الدنسة والمعصية، بحيث يمزجها بروحه الإلهي. فهو يخلق عقلاً جديداً لها وعيوناً جديدة وآذاناً جديدة ولساناً روحياً جديداً، فهو يحددنا تماماً ويمسحنا بنعمته ليجعلنا آنية جديدة تصلح للخمر الجديدة، أي روحه القدوس، لأنه هو المائل: «الخمر الجديدة تُعمل في رفاق جديدة.» (مت ١٧: ٩)

٤٥١ — إن من يختار العيشة الإنفرادية يجب عليه أن يعتبر كل الأشياء التي صادفها في العالم بعيدة عن طريقه وغريبة عنه، لأن الذي يتبع صليب المسيح حق ويحدد جميع الأشياء حتى نفسه ينفي له أن يصيد عقده بحب لمسيح، بحيث يفضل طريقه الذي سار فيه على الوالدين والإخوة والزوجة والبنين والأقارب والأصدقاء والأملالك (لو ١٤: ٢٦).

أبا مكاروريوس الكبير

٤٥٢ — إن المروى بين أولاد الله وأولاد العالم كبير، فكل ذرية تشبه أباه. فإذا سلّم أولاد الله أنفسهم للعالم ولأُمُور الأرض ولفخر هذا الزمان الحاضر، فإنهم يذبلون ويموتون روحياً ولن يجدوا راحة في حياتهم لأنهم يكونون بعيدين عن أبيهم، حيث يخنقهم الشوك الذي هو هموم هذا العالم وغرور الفنى.

أبا مكاروريوس الكبير

٤٥٣ — وأقول أيضاً إن النفس لها أوجاع تخبركم بها وهي: كبرياء، غصب، تعيير الناس، قلة إيمان، عدم عفة، وبمية الآلام. ولكن إذا أسلمت النفس ذاتها للرب بكل قوتها فإن الله الصالح، يُظهر لها هذه الأوجاع والعيوب واحدة فواحدة لكي تحيد عنها.

أبا أنطونيوس الكبير

٤٥٤ — الرب عالم بطغيان الشيطان، لذلك أمر أولاده أن لا يكتزوا هم كنوزاً على الأرض.

٤٥٥ — وأنا أطلب إليكم باسم ربا يسوع المسيح أن لا تتواخوا عن حياتكم وخلاصكم، ولا تدعوا هذا الرمان الرائر يسرق منكم الحياة الأبدية، ولا هذا الحسد اللحمي الذي يبعدكم عن المملكة النورانية. ولا هذا الكرسي العالي الهالك ينزلكم عن كرسي محفل الملائكة. بالحقيقة يا أولادي إن نفسي لمدهشة وروحي منزعة لأننا أعطينا كلها الحرية أن نكون قديسين ونحن بعمانا سكرنا بأوجاع هذا العالم.

٤٥٦ — وأنا أطلب إليكم يا أولادي الأحياء أن تعلموا أننا خُلقنا ذوي سلطان على إرادتنا، من أجل ذلك تقاومنا أرواح الشر لتُضعف هذه الإرادة منا. ولكن ملاك الرب يعسكر حول حائقيه ومن جميع أحزانهم يخلصهم.

أبا أنطونيوس الكبير

ملخص المبادئ الهامة:

- (١) يجب أن نعدّ ذواتنا للصلاة قبل البدء بها، وهذا يستلزم أن نتدرب على الشعور بحضور الله معنا أثناء العمل والحديث والأكل؛ أي أن حياتنا تسير في حضرة الله.
- (٢) علينا أن ننقي نفوسنا؛ وذلك بالتدقيق في حياتنا. فلا نعمل ولا نفكر ولا نتكلم إلا ونحاسب أنفسنا: لو كان المسيح أمامي الآن هل يوافق على عملي أو فكري أو كلامي؟
- (٣) الإحتراس من العلل التي تثقل قلوب الأطهار: شهوة الأكل والإمتلاء من الطعام، شرب الخمر والتلذذ بالمسكر، الإشتغال بهوم العالم للإتساع والشهرة وجلب الكرامة والغنى.
- (٤) لكي نُميت الشوك الضار يلزم استئصال الجذور. جذور الخطية هي الإرادة التي تميل إلى الشهوة والشر. الجذر يدل على نوع الشجرة، فالتلذذ برؤية وجوه النساء وأحاديثهن يدل على خطية الزنى المختفية في القلب؛ ورفع الصوت والتشبث بالرأي يدل على الصدف والغضب؛ والتألم عند طلب ما لنا أو استعارة شيء منا يدل على البخل وعدم الرحمة؛ واحتقار الناس أو شعورنا بأننا نمتاز عن غيرنا يدل على الكبرياء. فإذا لم نقاوم هذه العلل ونقطع أصول هذه الجذور التي تظهر في مبدأها أموراً تافهة، فإنها تنمو وتصير أشجاراً كبيرة تحمل ثمار الموت.
- (٥) لا تحاول إخفاء عيوبك وكنم علك وخطاياك، مهما كانت صغيرة، ولا تظن أنك تستطيع أن تقاومها أو تقضي عليها بقوتك، فهي كالماء يظهر سهلاً ليناً لا قوة فيه إلا أنه يحمل أعظم السفن. إذن فاكشف عيوبك لمرشد نصوح وتتبعها حتى تفنيها.
- (٦) درّب نفسك على ما هو ضد علك. فإذا كنت مصاباً بالغضب، وبعّ نفسك بشدة

على حماقتك وتسرعك . حاول أن تضع لنفسك حدوداً تتذكرها وقت الغضب فتقف
تواً عندما تصل إليها ، مهما كانت الخسارة التي سوف تحقق بك . لأنه أهون علينا أن
نحتمل أي خسارة كانت ولا نخسر الله وسلامنا معه . درّب نفسك على الإحتمال فهو
يقطع دابر الغضب .

(٧) كن مدققاً في حياتك ، لأن التدقيق من أهم قواعد الحياة الروحية . فلو دققت في
نفسك بأمانة لكشف الله لك ذاتك فتراها ملأى بالخطايا الصغيرة المفسدة المستترة
فيك التي تمنعك عن الإنطلاق في حياة الصلاة والعبادة مثل : الضجر — التشبّث
بالفكر — التصنّف — الصلاة الباردة — التشبّث والأفكار الشريرة — البخل وعدم
مساعدة الناس — الضحك والقهقهة .

(٨) اللذة صنارة في يد الشيطان ، إذا أمسكتها بيدك أو بفمك أو بلسانك أو بعينك أو
بأذنك ، جذبك معها بجملتك إليه . قاوم اللذة ، أرفضها .

(٩) الخطايا سدسة متصلة الحلقات ، متى سقطت في إحداها سهّل سقوطك في الأخرى .
فقاوم حتى الدم جميع علل الخطايا ولا تستهن بأصغرها .

(١٠) لا تستسلم لمحبة الأشياء الجديدة واقتناء الأشياء الحديثة ، لأنها تربط قلبك بالعالم .

(١١) لا تكن محباً للعلم الكثير الذي للمجد الذاتي والشهرة ، لأنه قد يحرمك من الله .

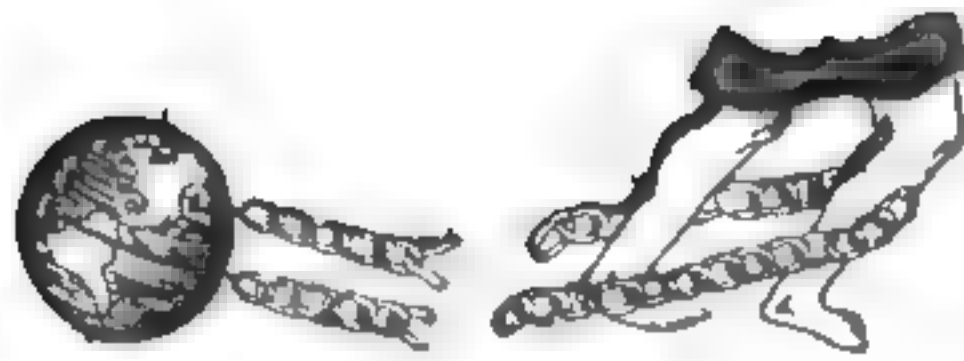
(١٢) ابتعد عن الأماكن التي تُعشرك والأشخاص الذين لا تستطيع أن تضبط نفسك معهم
فتجارهم في الشر ، وكذلك الكتب والمجلات والصور ، وسماع الأغاني المعثرة ، فإن
مجرد الابتعاد عن علل الخطايا وأسبابها هو نصف الانتصار .

(١٣) اغضب نفسك وقاوم فكرك حتى لا تخضع للتلذذ بالأفكار الشريرة التي يعرضها عليك
فكرك ، واعلم أن سبب عودة الأفكار إليك راجع إلى رضائك عنها وتلذذك بها أحياناً .
ففي اليوم الذي فيه ترفضها تماماً وتُظهر نيتك أمام الله أنك غير راضٍ عنها ، يرفعها
عنك من أجل تعبك وجهادك .

(١٤) ليس الشيطان أقوى منك ، لأنك لست وحدك .

الشر ليس من طبيعتك لكنه كالزوان يغرسه فيك العدو . فلا تيأس لأن نفسك نقية
كالشمس و يوم تطلع الزوان من قلبك يظهر لك جماها .

(١٥) إذا عادت نفسك إلى الشرف لا تيأس، بل ضاعف جهادك: «قاوموا إبليس فيهرب منكم» (يع ٤: ٧)، لأن الرب واقف يرى جهادك وتعبك وسيرفع عنك ثقل الحرب في الوقت المناسب.





الفصل الثاني

تنقية القلب

+ « فوق كل تحفظ احفظ قلبك ، لأن مه مخارج الحياة . »
(أم ٤ : ٢٣)

+ « من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة ... » (مر ٧ : ٢١)

+ « أما الشهوات الشبابية فاهرب منها واتبع البر والإيمان والمحبة
والسلام مع الذين يدعون الرب من قلب نقي . » (٢ تي ٢ : ٢٢)

القلب، في المفهوم الإنجيلي، هو القاعدة التي تصدر عنها كل مفاعيل حياة الروحية والجسدية: «فوق كل تحفظ احفظ قلبك لأن منه محارج الحياة» (أم ٤: ٢٣)، ليس الصالح منها فقط بل والشرير أيضاً: «لأن من القلب تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف.» (مت ١٥: ١٩)

لذلك أصبح القلب هو المعبر عن حالة الإنسان الهائية إن كان صالحاً أو شريراً: «الإنسان الصالح من كثرة فيه الصالح يُخرج الصلاح والإنسان الشرير من كثرة فيه الشرير يُخرج الشر» (لو ٦: ٤٥)، وذلك يعني أن حركة القلب الداخلي تصبغ الإنسان كله أي تصبغ تفكيره وأقواله وأعماله. فيستحيل أن يتكلم الإنسان دون أن يكشف عن قلبه شاء أو أبى: «فإنه من فضة القلب يتكلم فيه» (لو ٦: ٤٥). لذلك أصبحت كلمة الإنسان شهادة طبق لأصل تعبر عن حقيقة قلبه وبالتالي يمكن أن تقرر الإنسان أو تدينه: «بكلامك تتبررو بكلامك تُدان.» (مت ١٢: ٣٧)

وعلاوة على ذلك فالقديس بولس الرسول: «إن القلب يؤمن به للرب والهم يُعترف به للخلاص» (رو ١٠: ١٠)، فالقلب حينما يؤمن، لا بد للقلب أن يعترف بنوع الإيمان.

ولكن الإنجيل يحدثنا عن إمكانية وجود قلبين للإنسان، واحد يعبر عن حالة الإنسان تماماً، والآخر مريّف تصدر عنه أفكار وأقوال وأعمال كاذبة لا تعبر عن حالة الإنسان الحقيقية، فيتكلم ويعمل بالصالحات ليوهم الناس أنه صالح مع أنه شرير: «يا أولاد الأفاعي كيف تقفرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار، فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم.» (مت ١٢: ٣٤)

ومن كلام الرب نفهم أنه يستحيل على الإنسان أن يتكلم من نفسه بالصالحات، وهو شرير، إلا إذا كانت فيه قوة إضافية أو قلب آخر من الشيطان لتزييف الصالحات. وهذا نسمحه من وصف الرب لهؤلاء المريّفين للصلاح أنهم أولاد الأفاعي، فالأفعى تعبر رمزي

عن الشيطان، حيث يكون القصد من إظهار الصلاح هو الإبقاء على الشر وتأمين استمرار مفعوله، وهذا هو من صميم عمل الشيطان.

أي أن عمل الشيطان بالنسبة للقلب لا يكتفي بتلوينه بالشرور والتهوت فيصبح كز القلب شريراً ينصح بالشرور، بل و يضيف الشيطان إلى ذلك إمكانية إعطاء قلب ثانٍ للإنسان يتكلم بالصالحات حتى يحى بها الشرور ويؤمن عملها وسريانها.

أما عمل الله بالنسبة للقلب فهو انتراع القلب الشرير جملةً وخلق قلب جديد يفرسه الله في الإنسان، وعندما يصح القلب قلباً آخر يصبح الإنسان بالضرورة إنساناً آخر!! « فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر، ... وكان عندما أدار كتفه لكي يذهب من عند صموئيل أن الله أعطاه قلباً آخر. » (١ صم ١٠: ٦ و ٩)

وحقيقة خلق قلب جديد للإنسان تأتي في الكتاب المقدس مترادفة مع ثلاث عمميات أساسية: الأولى: إنسحاق قلب الإنسان الخاطيء، والثانية: غسل الإنسان وتطهيره كله من الداخل، والثالثة: حلول الروح القدس.

وهذه العمميات نجدها واضحة أشد الوضوح في المزمور الحادي والخمسين لداود النبي:

«رحمني يا الله مثل عظيم رحمتك ومثل كثرة رأفتك امحُ معاصيَّ.

اغسلني كثيراً من إثمي ومن خطيئي طهّرني ...

طهّرني بالزّوفا فأطهر، اغسلني فأبيض أكثر من الثلج ...

قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله وروحاً مستقيماً جدد في أحشائي، لا تطرحني من قدام

وجهك وروحك القدوس لا تنزعه مني ...، القلب المنكسر والمنسحق لا ترذله يا

الله ...».

ولكن كان خلق قلب جديد للإنسان في العهد القديم عملاً استثنائياً وفردياً. أما في

العهد الجديد فأصبح عملاً معممًا، لا بالنسبة لخلق قلب جديد فقط بل بالنسبة لخلق إنسان جديد جملةً.

أما العمليات الثلاث فنجدها متضمنة جميعها في سر المعمودية أساساً، حيث يجري

صورة الغسل والتطهير القلبي بالإيمان: «إذ طهّر بالإيمان قلوبهم» (أع ١٥: ٩)، وذلك أثناء

الدفن في الماء باسم المسيح، ولكن لا يتم الغسل والتطهير إلا بالإنسحاق القلبي بالتوبة

والرجوع عن الخطيئة حيث يتم الغفران: «توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس» (أع ٢: ٣٨)، أي أنه بتكميل الغسل والتطهير بالإيمان والتوبة يحل الروح القدس.

وهكذا أصبح ممكناً لكل إنسان أن تتم له الحقبة الجديدة للقلب الجديد من الماء والروح، وذلك من خلال الإيمان والتوبة. ولكن هناك فارقاً هاماً جداً وخطيراً بين تنقية القلب بالإيمان والتوبة وبين قبول خلقه قلب جديد نقي بالروح القدس!

فتنقية القلب عمل حتمي وضروري بالنسبة لنا، أما خلقه قلب جديد نقي فهذا عمل فائق على الطبيعة يختص بالله وحده. ولكن عمل الله مرتبط بعملنا، لأنه بقدر ما نقي قلوبنا من الشرور بالإيمان والتوبة بقدر ما نصبح قادرين على استيعاب القلب الجديد المخلوق فينا بشبه الله، بمعنى أنه بقدر ما نكره الشرور ونجزع من الأفكار والشهوات الشريرة ونرتعب من أعمال الخطيئة، بقدر ما نصبح قادرين على استيعاب قوة القداسة لتسكن فينا كطبيعة جديدة مع فاعلية المحبة الإلهية وإحياءات البر، وبقدر اجتهدنا في تنقية القلب من ظلمة الخطيئة التي تعمي البصر الروحي نصبح قادرين على احتمال سُكنى الحق فينا وتغفله في أعماق كياننا. أو بمعنى آخر، أنه بقدر ما نخلع الإنسان العتيق بشروره وقائحه نستطيع أن نظهر في قوة الإنسان الجديد الإلهي: «إذ خلعتهم الإنسان العتيق مع أعماله ولبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه.» (كو ٣: ٩ و ١٠)

وهذا ندخل في مجال اللاهوت السكي، الذي يجعل من عمل الإنسان واجتهاده المؤازر بالنعمة قاعدة أساسية لهبات الله الفائقة على عمل الإنسان وطبيعته!

والآباء النشاك عموماً جعلوا «تنقية القلب» أساساً حتمياً للخلاص الذي يؤهل لإستعلان الإنسان الجديد، حتى يمكن أن يعيش الإنسان في جدة الحياة الروحية كإنسان روحي في المسيح.

والقلب في المفهوم الآبائي *hē kardia* مطابق لمفهوم الإنجيل، إذ يعتبرونه مركزاً لكيان البشري عموماً. فالقلب، بالمعنى الروحي عند الآباء، يطابق في وصفه وعمله المخ عند الأطباء، بل وربما أشمل من ذلك، فهو مركز للقدرات والطاقات والذكاء والبصيرة والإرادة والحكمة والرؤيا، تنبعث كلها منه وتنصبُّ كلها فيه:

٤٥٧ — كذلك القلب، يوجد فيه العقل كمدبّر، وتوجد فيه الية كمؤنّب، وتوجد فيه الأفكار تشكو وتعفو.

أبا مكار يوس الكبير (العظة ١٥)

و يصفه القديس مكار يوس الكبير أيضاً في نفس هذه العظة أنه: (معمل للعدل والظلم والبر والإثم).

فيقول، ولو أن القلب قد يصبح ملتبس كل الشرور إلا أنه قد يكون أيضاً:

٤٥٨ — ملتبس الله والملائكة والحياة والملكوت والنور والرسول حيث توجد فيه كلها مع كل كنوز النعمة.

أبا مكار يوس الكبير (عظة ٤٣)

٤٥٩ — فإذا ملكت النعمة على مراعي القلب أصبحت مطلقة في تدبيرها لجميع الأعضاء ولأفكار، لأن من القلب يستمد العقل قوته مع كل أفكار النفس وأملها. ولذلك إذا ملكت النعمة على القلب تغلغل في كافة أعضاء الجسد.

أبا مكار يوس الكبير (العظة ١٥)

نفهم من هذا أن النعمة في نظر الآباء يمكن أن تتغلغل إلى الفكر والإرادة والضمير والأعضاء كلها إذا ما ملكت على القلب، بمعنى أن طبيعة الإنسان، الذي تملك النعمة على قلبه، تصبح بالتالي طبيعة روحانية جديدة. ومن هنا تظهر قيمة تنقية القلب تمهيداً لسكنى النعمة.

والقديس مكار يوس الكبير يتمسك بأن القلب الشرير يلوث الإرادة والمشية، وينجس الميول والغرائز الطبيعية، ويصير كل شيء غير طاهر في عيني ذلك الإنسان وفي يديه دون أن يدري!!!

٤٦٠ — جميع الذين هم بنو الظلمة تتسلط الخطيئة على قلوبهم فتتغلغل في الأعضاء كلها «لأن من القلب تخرج الأفكار الشريرة». فإذا انتشرت في الأعضاء تظلم طبيعة الإنسان كلها ... لأن الخطيئة تسري من داخل القلب إلى الأعضاء كما يسري الماء داخل القناة ... وكل الذين ينكرون هذا فهم مختلون حقاً ويظهرون أنهم مثقلون بالخطيئة التي تكون قد ظفرت بهم دون أن يدروا لأن الشر الذي فينا يجتهد أن يختبئ ويختفي بالكلية ...

أبا مكار يوس الكبير (العظة ١٥)

لذلك أصبح أول جهاد الإنسان وأول همه للتغلب على انحرافات الإرادة وإصلاح الميول والغرائز التي تكون قد خضعت لسلطان الشر، هو تنقية القلب بالدرجة الأولى، أي مواجهة حركة الشر داخل القلب وضبطها ومقاومتها والقضاء عليها.

والقديس مكار يوس الكبير يصف القلب في العظة ١٥ بأنه: [قصر المسيح الذي يستريح فيه]، كما يصفه أيضاً بأنه: [مدبر السفينة الذي يأمر وينهي ويدبر كل شيء] وأنه: [قائد العربة الذي يقبض على أعتة الخيل ... متى شاء تحمله المركبة بأسرع ما يمكن ومتى شاء أوقفها وأي طريق يريد الميل إليها تميل معه، فالمركبة كلها في قبضة ماسك الأعتة، كذلك القلب].

وهكذا يعبر القديس مكار يوس عن خطورة عمل القلب وأهميته العظمى كمدبر لسفينة حياتنا وكقائد للمركبة التي تجرّها أجسادنا، فإذا كان المدبر جاهلاً أحمقاً فإذا يكون مصير السفينة؟ وإذا كان القائد أرعناً مجنوباً فإذا تكون نهاية المركبة وخيلها؟ وإذا كان البيت نجساً فكيف يحل فيه الملك أو يستريح؟

٤٦١ — كم بالحري يحتاج بيت النفس، الذي هو القلب، لزيّنات كثيرة ونقاوة حتى يمكن أن يدخله الله التي من كل عيب! هذا هو القلب الذي فيه يحل الله وكل الكيسة السماوية.

أبا مكار يوس الكبير (العظة ١٥)

والقديس مكار يوس يرى أنه كما تبدأ إعادة بناء المدينة بهدم الخرب، وكما تبدأ زراعة الأرض بحرق الأشواك، كذلك تبدأ سيرة الحياة بتنقية القلب!

٤٦٢ — وكما أن المدينة الخربة إذا أرادوا أن يبنوها من جديد، فأول عمل هو هدم الخرابات لقائمة المتساقطة ... وكما أن من أراد أن ينشئ بستاناً في مكان قفر رديء، بشرع أولاً في التنظيف وقلع الأشواك ... كذلك الإنسان فبعد السقوط يصير قلبه قفراً خرباً ... فلا بد من كثرة التعب والكد للإنسان، إذن، لكي يضع الأساسات ويطهر القلب لتدخله النار.

العظة ١٥

ولكن لماذا اختار الله قلب الإنسان ليكون مكاناً مخصصاً له دون سواه؟ «يا ابني أعطني قلبك ولتلاحظ عيناك طريقي» (أم ٢٣: ٢٦)!! وأول وصية: «تحب الرب إلهك من كل قلبك» (مت ٥: ٦)!!

في الحقيقة، لا يملك الإنسان ما هو أعمق من القلب، شعوراً وحناناً ولطفاً ورحمةً ووداداً. فالقلب هو تعبير عن مركز عواطف الإنسان أرقها وأصدقها، ولكن ليس من أجل ذلك يطلب الله قلب الإنسان!!

إذ يوجد للقلب صفة فائقة على اللطف والحنان والرحمة والوداد، وهي أنه يُعتبر القاعدة التي تنبثق منها الشخصية بكل مكوناتها ومميزاتها، فالقلب هو بمثابة قدس أقدس الإنسان. وهذه هي الصفة الوحيدة التي تجعله مناسباً لله. فالإنسان إذا أحب الله من كل قلبه، فهذا يعني أنه أحبه من كل كيانه، بل ويعني أنه قد وهبه كل نفسه!

وحيثما يقول القديس مكار يوس أن القلب يشمل العقل والضمير والأفكار ضمن مكوناته، يكون قد وضع يده على العلة الأساسية التي جعلت الله يطلب قلب الإنسان ويهتم بحبه!!

فالله لا يهتم بحب العواطف مهما كان عنيفاً وجارفاً، لأنه حب ينطفيء حتماً في الطريق حينما تنجرح العواطف أو تُهان.

ولكن الله يهتم بحب القلب، لأن ذلك معناه أن الإنسان يكون قد فرط في ذاته وكل كيانه، وهذا هو الحب الذي تزيده الجروح اشتعالاً والآلام اكتمالاً والموت كمالاً!!

لذلك أصبحت تنقية القلب بالنسبة للمحبين لله أمراً بالغ الأهمية والخطورة لأن الله لا يطلب ولا يرضى بالحب النصفي أو الجزئي، فلا بد أن يكون كل القلب لله!! فعنى «كل القلب» هو تصفيته تماماً من كل شوائب العواطف البشرية القائمة على روابط اللحم والدم أو الميول والعواطف الحسية، كما يعني تطهيره تماماً من كل الأوثان والمعبودات السرية. فقدس الأقداس ينبغي أن يُقدس ويُزَيَّن لله فقط.

أقوال الآباء في تنقية القلب :

٤٦٣ - « فوق كل تحفظ احفظ قلبك لأن فيه محارح الحياة » (٢٣: ٤م). هذا يعني أن لا نعقد التفكير في الرب لأي مسك كن، ولا أن أفكار العالم الرائل نحب ذكر عجائنه عما، فنحمل فكر الله المقدس أنه سرب، كختم ثابت لا يُمحى مطوع في قلوبنا بتدكار دائم. هكذا نستطيع أن نفتنى حب الله على الدوام بدي يدفعنا لتكمين وصاياه بالفرح، فتلذ لنا الوصايا و يدوم لنا الحب.

باسيليوس الكبير

٤٦٤ - لقد حتنا لطبيعة الطاهرة حب ما هو طاهر وجميل. أما بخصوص جمال الله الفائق فنحن لا نستطيع تدوَّق حاله لعجيب إلا إذا نظهر القلب من كل ما هو باطن، وحينئذ تشتعل فينا هذه البدة لروحانية لأنها دفة حنة غير محصورة، كسهوة طاهرة معروسة فينا تصوع على الدوام في حنين نحو مسعها، وتشتاق إلى صاحب ذلك الجمال الفائق: «إني مريضة حباً.» (نش ٥: ٢)

باسيليوس الكبير

٤٦٥ - «من الأعماق صرخت إليك يا رب.» (مز ١٣٠: ١)

ما معنى «من الأعماق»؟ إنها ليست هي صلاة الشفتين أو مجرد تحريك اللسان، التي تخرج دون أن يكون للفكر أو القلب نصيب فيها! إنها صلاة عمق القلب ومن أساسات النفس بحرارة شديدة وغيره متمدة. مثل هذه الصلاة تستقيم صاعدة أمام الله بشدة وبأس ولا يمكن أن تتزعزع أو تطيش، حتى وهو هاجمها الشيطان بكل ما أوتي من جرأة وتوفح. ولكن تلك الصلاة الهزينة التي تخرج من الفم فقط، التي يكون مبدؤها اللسان ونهايتها الشفتين، هذه لن تصل إلى الله لأن القلب لم يشترك فيها. وكل من يصي هكذا فهو الذي تتحرك شفتاه وقلبه فارغ وعقله بليد متكاسل.

يوحنا ذهبي الفم

٤٦٦ - الرب لا يطيب نسق الكلام ومهارة تركيب الألفاظ، بل يطيب حرارة النفس وغيرها. وكل من يتقدم هذه لعيرة والحرارة ويتكلم أمامه بما يشعربه وهو راخص عما يقدمه، يخرج من لدن الرب وقد نال كل شيء.

٤٦٧ — ليتنا نعرف ما هي الأشياء التي تدنس الإنسان، وحيثما نعرفها نهرب ونفر منها.

نرى الذين يأتون إلى الكنيسة يعتقدون جيداً كيف يأتون بثياب بهية نظيفة، مغتسل الأيدي والوجوه، ولكن كيف يقدمون نفوساً نقية طاهرة أمام الله، هذا لا يعون به لا في كثير ولا في قليل.

لست أقول هذا لأمنعهم عن غسل اليد أو القدم، ولكن أريدهم أن يغتسلوا كما يجب من الداخل والخارج، ليس بالماء فقط بل بالفضائل أيضاً!!! لأن قدارة الفم الحفيفة هي الكلام الخبيث والخداع والشتيمة وكلام الغضب وكلام السفاهة والضحك والمزاح. فإذا تيقظنا لأنفسنا وتنقينا من هذه الأدناس — التي منبعها القلب — حينئذ نستطيع أن نقرب إلى الصلاة في ثقة!

أما إذا كنت قد اتسخت بهذه الأمور فلماذا إذن هذا الجهد والعناء باطلاً! تغسل فك بالماء وتجهد نفسك مراراً كثيرة، وبعد ذلك تملأه بكل قدارة الألفاظ ووسخ الحديث المميت!

أخبرني: إذا حملت رثلاً على يديك أو طيباً، أتحروا أن تقف وتصلي؟ كلا بلا شك، مع أن ذلك لا يدنسك بقدر الأعمال والأقوال التي تأتيها والتي فيها كل الضرر والهلاك!

ما هذا، ألا نصلي إذن؟ كلا، بل نصلي ولكن ليس ونحن ملوثون بهذا الطين والوسخ الداخلي!

وماذا أعمل وقد لحقني هذا الأمر؟ اغتسل وطهر ذاتك ...

كيف وما هي الوسيلة؟ إليك، تأوه، قم اعتذر لمن أهنت وصالحه، قدم الصدقة، اغسل لسانك ونظمه جيداً من كل ما يُغضب الله، لئلا بصلاتك نهى الله وتغيظه بالأكثر...

لأن من ملأ يديه رطلاً وطيلاً وأراد أن يمسك بقدميك ليتوسل إليك، فإنك تطرده طبعاً دون أن تسمع إليه. فكيف تجرؤ إذن وأنت بمثل هذه الحالة أن تقترب من الله؟ فسانت هو اليد التي تمدها في الصلاة! فلا تدنسه لئلا يقول لك: «يا صاحب كيف دخلت إلى هنا؟ ... خذوه اطرحوه في الظلمة الخارجية!» (مت ٢٢: ١٢ و ١٣)، وإذ ذاك «إن كثرت الصلاة لا أسمع» (١ ش ١: ١٥)، لأن «الموت والحياة في يد النساء» (أم ١٨: ٢١). «وبكلامك تنبرر وبكلامك تُدان!» (مت ١٢: ٣٧)

٤٦٨ — لذا أنا آمرك (من قِبل الرب) أن تحفظ لسانك أكثر من حذقة عينك! فاللسان هو الحصان الملكي، فإذا أَسْرَجْتَهُ حسناً ودرَّبْتَهُ أن يخطو بانتظام وترتيب فالملك سيجد فيه راحته و يأخذ مكانه عنده؛ أما إذا تركته يجمع بلا ترتيب هنا وهناك و يندفع و يقفر بجهالة و بلا مبالاة فيصير وحشاً مهياً لمطية الشيطان والأرواح النجسة.

٤٦٩ — ولا تهين لسانك! وإلا فكيف يتوسل من أجنتك وقد فقد ثقته وشجاعته الأدبية؟ زينه يا

نحي بالإنضاع واجعله أهلاً للوقوف أمام الله . إملأه بالنعمة وكلام الرحمة والسلام . زينه بالتبريك من أجل كل شيء . وكل أيام حياتك جمّله بحلاوة ترويد وصايا الله : « إن كان أحد فيكم يظن أنه دين وهو ليس يدغم لسانه بل يخدع قلبه ، فديانة هذا باطلة . » (يع ١: ٢٦)

٤٧٠ — ونحن إذ قد زينا أنفسنا هكذا تأتي إلى إلها ومحرعد قدميه ليس بالجسد فقط ولكن أيضاً بالعقل . ليتنا نعتر من هو ادي نقتر إليه وإلى من نتوب . فحين نقتر كثيراً من الله ، الذي يتطعم إليه الساروفيم فيديرون وجوههم غير مستطيعين التمرس في هائه ، والذي من منظره يرتعب الشاروفيم . نحن نقتر كثيراً من الله « الساكن في نور لا يُدنى منه » (١ تي ٦: ١٦) . باقترابنا إليه نُعتق من الجحيم وننال غفران الخطايا ونجو من العدايات غير المحتملة ونرتفع إلى السماء ونُصح أشياء سماوية . أقول ليتنا نخر أمامه بالجسد والعقل كديها حتى يرفعنا عندما يرى انخفاضنا . وإذا تحدثنا إليه ليتنا نتحدث بكل خشوع ولطف ووداعة .

يوحنا ذهبي الفم

٤٧١ — يجب أن نصلي ليس فقط باللسان ولكن بالقلب ، بأن تخرج الصلاة أولاً من القلب ، لأننا في الصلاة نقدم ما في قلوبنا من رغبات وأشواق ومشاعر .

لهذا يجب أن نفكر بالعقل ونشعر بالقلب ، في كل كلمة ورعة يقدمها اللسان أو تتلفظها الشفتان ، وإلا أصبحت صلاتنا كلاماً فقط .

الأسقف تيخون ز.

٤٧٢ — أعمان جسدية دون طهارة عقل ، كزخم عاقروثدي ناشف . لأن بأعمان الجسد وحدها لا يتقدم الإنسان أي خطوة نحو الله . فهي إجهاد للحسد بلا نفع . وهي لا تقوى حتى على استئصال أهوية القلب المحرفة ونزعاته المريضة ولهذا فهي غير ناعمة لشيء قط .

مار إسحق السرياني

٤٧٣ — إذا سأل إنسان في الصلاة من أجل البجاة من تجارب أو الراحة من أتعاب أو قتال أو طلب البصرة على البلايا والمحس ، أو حتى نوال الفضائل وغبطة النعمة وحرارة وفرح الروح ، ويطلب بغرض مستقيم وقلب حريص ، فانه يتأثر ليكمل إرادة ذلك الإنسان ويمنحه رغبته .

أما بخصوص الأسرار التي للروح ومواهب و بركات الصلاة الروحية ودحول العقل خيف حجاب قدس الأقداس ، ويدراك كنه الميراث الذي لا يضمحل ، فإذا لم يدفع الإنسان ثمنها وما هو مستحق عنها ، فانه لن يعطيها ، حتى ولو قامت الخليفة كلها تتوسل نيابة عنه ! أما استحقاقاتها فهي طهارة (نقاوة) النفس !

مار إسحق السرياني

٤٧٤ — ما هي نقاوة النفس؟

— هي قلب مملوء رحمة نحو الخليقة.

— وما هو القلب الرحيم؟

— هو القلب الذي يتحرك بالرحمة فتش أحشائه بإشفاق وحنوً بالغ نحو كل الخليقة، بما فيها من إنسان وحيوان ووحوش ودبيب وكل ما هو كائن حي، حتى أنه من مجرد التفكير في ضعفها يذرف الدمع ويبكي، ويصير القلب رقيق الإحساس إلى درجة لا يقوى فيها على سماع أو رؤية أذية تلحق إحدى هذه الخلائق! وهو يتقدم نائياً عنها مقدماً صلوات بدموع على الدوام من أجلها، سواء كانت هذه المخلوقات عاقلة أو غير عاقلة، لكي الرب يحرسها ويشدها.

مار إسحق السرياني

٤٧٥ — إذا كسب بقي القلب فحينئذ تكون السماء داخلك. وترى في نفسك الملائكة ورب الملائكة أيضاً.

مار إسحق السرياني

٤٧٦ — الله نار يضرم القلب كلهيب، فإذا شعرنا بالبرودة في قلوبنا فهذا يعني أن العدو اقترب منا لأن الشيطان برودة، وعلينا حينئذ أن نصلي إلى الرب حتى يأتي و يلقى ناره في قلوبنا للمحبة نحوه ونحو القريب. لأن إزاء وجه الله الكلي الدفء، يهرب الشيطان وتنقش برودته من القلب.

الأب سيرايم

٤٧٧ — كلما تقى القلب وتطهر، اتسع وكروا استطاع أن يجد مكاناً أوفر لأحباء أكثر. بيد أنه كلما تلوث بالإثم ضاق واستضايق فلا يستطيع أن يحمل إلا ذاته إذ يكون مشغولاً بحب نفسه. نحن نحب دوتنا في أشياء لا تتناسب قط مع أنفسنا الخالدة: من ذهب وفضة وطعام وشراب وسُكُروزي وما شابه.

الأب يوحنا (ك.)

٤٧٨ — يجب علينا كمسيحيين أن نكون ذوي قلوب نقية، حتى نستطيع بما وهب لنا من إبرة عيوبنا لقلبية أن نتمتع بحب الله وكمالاته وجمال الملائكة ومجد العذراء وهاء نفسها كأما لله الكلمة، وحنس أنفس القديسين وحبهم لنا؛ كذلك حتى نستطيع أن نتعم بحقائق الإيمان المسيحي ونذكر عظمة أسرارهم، وبنقاوة قلوبنا ندرك كل ما في أنفسنا من عيوب أو جمال. أما القلب غير النقي والمشغول بشهوات هذا العالم فلا يتمتع إلا بشهوة العيون الجسدية وتعظم هذا العالم، فلا يرى شيئاً مما ذكرناه.

الأب يوحنا (ك.)

٤٧٩ — إنه مذهش ويستحق العجب، كون الذي لا تستطيع الملائكة أن تنظر إليه ولا ينطق به البشر أو يدركه عقل ما، يتنارل بدخوله قلب الإنسان ويسكن فيه! هو مخفى عن الأعين النارية التي للساووفيم ويرى ساكناً في محادع القلب! الأرض لا تقوى على حمل خطواته والقلب النقي يحمله داخله! السماء أصغر من أن تستقر على كفه، ويجد في القلب متسعاً لسكنائه! كل الخليفة لا يستطيع أن تحتويه بأقصى حدود اتساعها وإذا طلبة قلب صغير فهو يسعه ويحتويه! لقد اختار الله مكاناً صغيراً في الإنسان لسكنائه، فإذا حلّ فيه، صار الإنسان كله هيكلًا لله!

النفس هي هيكل الله والقلب هو المذبح المقدس الذي عليه تُقدّم ذبائح التسييح والحب الطاهر، والعقل هو الكاهن الذي يقوم بشرف الخدمة هناك.

مارأفرام السرياني

٤٨٠ — كيف استطاع آباؤنا السّاك والحكماء أن يشعلوا في ذواتهم روح الصلاة ويثبتوا مقيمين فيها؟ كان الشيء الأول الذي فتنوا عليه وطلبوه هو أن يبقى القلب ملتباً دائماً نحو الله بلا انقطاع! والله يحتاج إلى القلب لأن منه منبع الحياة، وحيث يكون القلب ينبضاته الحياة يكون الصحو والانتباه والعقل وكل الحواس. فحيثما يكون القلب مع الله تكون النفس فيه أيضاً ويقف الإنسان أمامه كعابد حقيقي بالروح والحق.

الأسقف ثيوفان الناسك

٤٨١ — وكما أن كل قوة الأحكام والوصايا التي وضعها الله لجس البشر تحدها نقاوة القلب، هكذا أيضاً كل أنواع الصلاة التي يصلي بها بنو البشر تحدها الصلاة النقية.

مارإسحق السرياني

٤٨٢ — بـمداومة حفظ القلب تتولد فيه النقاوة التي بها يرى الله، حسب شهادة الرب: «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله.» (مت ٥: ٨)

الأب سيرا فيم س.

٤٨٣ — يجب أن تتحلّى نفسك بثوب مشرق البياض ليس فيه أثر للإنقسام والتعقيد، خال من أفكار الشر أو النفاق والتظاهر لإرضاء الناس أو تشامخ المكر أو إخفاء الشهوة في القلب، هذه لُطخ سوداء تلوث ثوب النفس وتعطيه رائحة العبادة الفريسية.

الأسقف إغناطيوس ب.

٤٨٤ — ما هي العلامة التي تدل على أن الإنسان قد وصل إلى نقاوة القلب؟

— حينما يرى كل الناس في نور جميل، دون أن يتراءى له أي إنسان أنه دس أو نجس. مثل هذا

الإنسان يكون قد وصل إلى النقاوة. هذا تحققه كلمة الرسول: «حتى تفتكروا فكراً واحداً بنفس واحدة مفتكرين شيئاً واحداً. لا شيئاً بتحزب أو بعُجْب، بل فليحسب بتواضع كل مسكماً صاحبه أفضل منه» (في ٢: ٢ و ٣). وقول بطرس الرسول: «وأما أنا فقد أراني الله أن لا أقول عن إنسان ما أنه دنس أو نجس.» (أع ١٠: ٢٨)

فما هي النقاوة إذن وما هو حلها؟

النقاوة هي تجاهل كل أنواع المعرفة التي ليست في الأصل من طبيعة النفس النقية بل أوجدتها طبيعة العالم وحكمته العاشة. أما حذوها فهو أن تتحرر من هذه المعرفة الغريبة عن الطبع الروحاني إلى درجة نصل فيها إلى البساطة الأولى وكمال الطبيعة التي للطفل.

مار إسحق السرياني

٤٨٥ — لذلك يجب على المسيحيين أن يجتهدوا دائماً أن لا يفرط منهم حكم على أحد، لا على الزانية التي على قارعة الطريق، ولا على الخطاة الظاهرين بأعمالهم، بل يرى كل الناس على وجه العموم بنية طاهرة وعين نقية، حتى يصير كاموس ثابت طبيعي في النفس أن لا تحتقر أي أحد أو تزدرى بأحد، أو تميز بين واحد وآخر.

فإذا رأيت إنساناً فقد إحدى عينيه، أنظر إليه كمن هو سليم. أو إذا كان مبتور الذراع أو الرجل فلا تتفكر فيه كمن به عيب بل أنظر إليه كأنه صحيح معاف. كذلك المفلوج والأخرس والأصم وكل من به نقص. هذه هي نقاوة القلب، حينما ترى خطاة أو مرضى فتكن فيك شفقة عليهم وليكن لك معهم حنان ورأفة.

أبا مكاريوس الكبير

٤٨٦ — فيلزم أن تطلب مصباحاً تنيره لتصل إلى حقيقة نفسك الطاهرة وأفكارك النقية بطبيعتها الأولى.

أبا مكاريوس الكبير

٤٨٧ — صل:

يا رب امنحني قلباً بسيطاً، رحيماً، طاهراً، مؤمناً، محباً، كريماً يستحق أن يكون مكاناً لسكناك أيها المنعم العظيم.

الأب يوحنا ك.

٤٨٨ — النفس النقية ترى الله في كل نفس أخرى، كما أعلم الله بطرس حين كان في يافا واقفاً على السطح يصلي، لأنه ليس من أجل البهائم والوحوش صار له الصوت والرؤيا أن «ما طهره الله لا تنجسه أنت»، بل لينظر إلى كل الناس كأنهم أطهار. لذلك قال بطرس بعد أن تلقن وتعلم من الروح

القدس: «وأما أنا فقد أراني الله أن لا أقول عن إنسان ما أنه دنس أو نجس.» (أع ١٠: ٢٨)

كذلك أنت يا محب الإله، قم صل لتتعلم نقاوة النفس لترى كل الناس أطيهاراً. قم اصعد على سسم النفس وارتفع إلى الطابق الأول منها الذي هو أعمال الحسد وصنع الفضائل، وحينئذ يمكنك الإرتفاع إلى الطابق الثاني من نفسك الذي هو ضبط العسل والتسلط على الأفكار. فإذا ضبطت فكرك بالطهارة وصار هذيك في الله فقط، حينئذ ترتفع إلى الطابق الثالث الذي هو نقاوة النفس فترى وأنت قائم تصلي كمث بطرس على السطح أن كل شيء طاهر للطاهر!!

فإذا نظرت أناساً أشراراً وفسقة أو نمامين وشتامين أو متوانين ومتكاسلين، فلا تظر أنهم من طبع البهائم حيقوا بل اعلم أنهم من الله أتوا إلى الوحود! وحينئذ يصيرون أطيهاراً في عيبك! وإذا نظرت أناساً جهلة ورناء وعبدة أوثان، فلا تقل في نفسك أنهم مثل الكلاب والخنازير، بل اعلم أنهم على شبه الله خلِقوا، وهم له إن قاموا أو سقطوا.

والمسيح لما علّمك أن تزور المسحوبين أرادك أن تفهم أن الذين في الحبس هم المسيح بالحقيقة: «كنت محسوساً فأتيت إلي»، لأنه «بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (مت ٢٥: ٣٦ و ٤٠)، ونحن نعلم أنه لا يكون في الحبس، غالباً، إلا عاملو الشر والسارقون والزناة والسحرة والفتنة. إذن، فالمسيح أراد أن يعرفك أن تنظر إلى فاعلي الشر كالأبرار، وأن لا تحكم على أحد بأنه دنس أو نجس أو شرير... فهو يطلب نقاوة قلبك مع نقاوة عينك.

وإذا نظرت قوماً مسيحيين وقوماً يهوداً وقوماً وثنيين، فبعين المحبة أنظر للجميع كأهم واحد، لأن المسيح قدمنا من أجل الجميع.

وهكذا إذا نظرت جميع الخليقة بفكر طاهر ونفس نقية ورأيت أن الكل طاهر أمام عينيك، فاعلم أن المسيح حقاً ساكن فيك.

الأسقف أندريانوس

٤٨٩ — إن كنت قد وُلدت بالمسيح حقاً، فكل مولود من المسيح هو أخوك. فإن أحببت نفسك أكثر من أخيك فهذه الزيادة التي لك ليست من المسيح.

الشيخ الروحاني

٤٩٠ — الصديق يلقي همّه على الرب، من أجل هذا — بغير شفقة على نفسه — قسّم وفرّق وأعطى المساكين. لأن يد الرب مفتوحة أمامه وهي مملوءة على الدوام فيأخذ ويعطي بسذاجة وبغير هم.

الشيخ الروحاني

٤٩١ — إحذر من أن تكون جالساً وتفكر في إدامة أخيك ، فهذا يستأصل جميع أعمال الفضيلة ولو كنت قد ارتفعت إلى حد الكمال .

مار إسحق السرياني

٤٩٢ — نقاوة السكر شيء ونقاوة القلب شيء آخر ، والفرق بينهما كالفرق بين عضو واحد من الجسد وجميع الجسد . فالفكر هو أحد حواس النفس ، والقلب هو ضابط كل الحواس الداحية ، وهو أصل كل الحواس ، فإذا كان الأصل مقدساً فكل الأغصان مقدسة أيضاً .

٤٩٣ — إذا ما تبقى القلب ، دامت نقاوته دون أن تتسخ سريعاً . لأنه يقتنيها بصعوبة وضيقات كثيرة .

مار إسحق السرياني

٤٩٤ — القلب الفاش لا يتقى أبداً .

٤٩٥ — كل شهوة حاطنة انضبط القلب بحبها وشغف بها ، بألف حيلة وجهاد أعمال كثيرة وربوات صلوات ودموع ينعتق منها .

٤٩٦ — الذي اقتنى الفضائل العظيمة مثل الصوم والسهر والنسك وما اقتنى حراسة القلب واللسان ، فهو يعمل في الباطل و يتعب للريح . لأنك إذا وضعت كل أعمال التوبة في كفة والتدقيق وحفظ القلب وتنقيته في الأخرى لرجحت الأخيرة .

٤٩٧ — إذا حفظت عينيك وأذنيك ولسانك لكي لا يدخل إلى قلبك شيء باطل ، يتقى قلبك سريعاً .

٤٩٨ — النفس التي امتدأت تحمل الثمار البهجة هي التي تحررت من الضيق والكآبة والضجر ، واتسعت لتحمل السلام والفرح بالله ، وفتحت القلب رحباً لمحبة سائر الناس ، وجلست على بابها تطرد كلام الفكر « هذا صالح وذاك شرير » ، « هذا بار وذاك خاطيء » ، ثم قامت لتجلس على عرش القلب لترتب فكر الضمير مع التمييز وتصلح حواسها بالنقاوة ، لتلا يفلت واحد منها فيشتعل خلعة بالغضب أو الغيرة أو الحسد فتظلم بقية الحواس .

٤٩٩ — إذا كنت مشتاقاً لسلامة القلب التي وهدوء الضمير ، اقلع من قلبك شجرة معرفة الحيد والردى التي أمر الله أول جنسنا أن لا يأكل منها لتلا يموت !!

٥٠٠ — إذا جدست تفرز بين أخلاق الإخوة وتدابر سيرهم ، فإنك بالضرورة سوف تحسر كثيراً ، لأنك ستدين الناس ، وبدون أن تشعر تنوم مدمر الخليفة ، وتبرر نفسك ، فتسقط في الكبرياء . أنظر كم

من الخطايا ولدتهم هذه الشجرة القاتلة!

مار إسحق السرياني

٥٠١ - حذر أن تستقد أعمال الناس. إحذر من الطون والعظمة والحدس في لدع وفي أقوال الناس المحرفين.

٥٠٢ - بعد جهد تجد قلوبين من الأفراد استطاعوا أن يردلوا وفرة العم الذي قتنوه، ويختاروا عيه البساطة وسذاجة القلب، هؤلاء هم أكاليل في تاج الملك.

٥٠٣ - إن مسرة الله هي أن يكون أنقياء مثلها حيصا. فحين نحرنه حيصا بغير الشيء الذي حصنا عليه، فالنفس على صورة الله البقية خُيقت، إلا أننا أبدلنا هذه النقاوة بما يحالفها، لأنها يوم خُيقت كانت فيها استطاعة أن تنظر الله بدالة. ونحن ضللنا بعيداً عنه وتعبدنا لآلام العلم والجسد!

٥٠٤ - بارك دائماً بفمك ولا تدم أحداً، فلا تُدم أنت من أحد قط، لأن المدة تولد مذمة، والبركة تجلب بركة.

٥٠٥ - لا شيء يستطيع أن ينقي القلب و يقربه إلى الله مثل الرحمة! والأفضل لك أن يدعوك الناس إسائاً عامياً من أجل بساطة يدك في العطاء بعرض مخافة الله وليس لطلب المديح، ولا يدعونك حكيماً رزين العقل لأجل عدم اضطرابك مع كل أحد!

مار إسحق السرياني

٥٠٦ - أحب المساكين، فإنهم بتوسطهم لك تحظى برحمة الله!

٥٠٧ - لا تكره روائح المرضى، لأنك أنت أيضاً ذو جسد!

٥٠٨ - لا ترذل المنسحقين، موسرين كانوا أو معسرين، لئلا تُصرب بأعصى التي بها ضربوا وتطلب معزياً فلا تجد!

٥٠٩ - لا تشمئز من المفطوعين وذوي العاهات، لأن ذلك لا يحدرهم إلى الحميم!

٥١٠ - أحب الحطاة وامقت أعمالهم ولا تردهم من أجل زلاتهم، لئلا تُمتحن بما امتحنوا به!

٥١١ - أذكر أنك من الطبيعة الآدمية وشريك للخطاة في نتن الخطية.

٥١٢ - إتبع البساطة كتعليم الصيادين المستقيم الخالي من الغش.

٥١٣ - إن كنت نقي القلب رحيماً بالحق، فإذا ما استزع منك مالك ظلماً فلا تحزن من دحل ولا

تشرح خسارتك لآخرين، بل لتكن خسارتك بمشيئتك مغتصرة برحمتك مستورة بصدقتك! فينغب ظالمك كما تنغب جرة النار في وسط مياه كثيرة!

٥١٤ — أظهر أنت علامة نقاوة قلبك بمقابلتك الشر بالخير والبشاشة.

٥١٥ — فس مشة الكلام واسطبه الواقع عليك كأنه حق، ولا تهتم كيف تقع لئلا تس أبت شُبتت أو ظُلمت، بل اسأل واطلب العفو!

٥١٦ — بسط جناحك على المذنب. وإذا كنت لا تستطيع أن تحمل أوزاره عيذك فالأقل ستره.

٥١٧ — إن كنت لا تقدر أن تسد فم المتكلم على إنسان بالشر، فلا أقل من أن تحفظ فمك من مشاركته في هذا الأمر!

٥١٨ — إذا قيل فيك رديئاً وتعب ضميرك وتألم، فهما قدمت من صلاة ودموع لا يعتق ضميرك من التحرك بالفضب، وتغص نفسك بالهم، إلى أن تعتقد تماماً أنك أنت المخطيء والمسيء سواء أخطأت أو لم تخطيء!

مار إسحق السرياني

٥١٩ — الدير يتراءون أمام الرب في الصلاة ولا يتقدمون بكل قلوبهم، بل يكونون ذوي رأيين، وجميع ما يصنعونه إنما يصعبونه حتى يبالوا المجد من الناس، فهولاء لا يستمع الله هم في شيء ما من طلباتهم، بل بالأكثر يفضب عليهم.

أبا أنطونيوس الكبير

٥٢٠ — «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله»، لأنه بغير طهارة لحسد ونقاوة القلب لا يستطيع أحد أن يكون كاملاً. فاحرصوا يا أولادي أن تقوا قلوبكم من الحقد والغضب بعصكم على بعض لئلا يفاحنكم لموت فتعدو مع الفسلة: «لأن من يغضب أخاه فهو قاتل نفس». ومن ظلمكم فديقل ذلك بفرح و يعطي الحكم للحاكم العادل. ومن ظلم رفيقه فيسرع إليه و يتضرع أن يغفر له، ولا تدعوا الشمس تغرب على غيظكم.

أبا أنطونيوس الكبير

٥٢١ — إن الشرط الأساسي لنجاح الصلاة هو تنقية القلب من الشهوات عموماً ومن التعلق بأي شيء محسوس أيأ كان. بدون هذا تطل الصلاة في درجتها الأولى أي درجة التلاوة. و بعد ما تبقى قلبك بعد ما تس من صلاة التلاوة إلى الصلاة العقلية المتحدة بالقلب، حتى إذا ما أصبح القلب نقياً تماماً فحينئذ ترى أنه حين عيذك أن تدوم في الصلاة فلا انقطاع! ... وكيف تبدل لعمل؟:

في الكنيسة تدبج الخدمة بانتباه واربط أفكارك ومشاعرك بأفكار ومشاعر الخدمة ذاتها. في البيت أيقظ في نفسك مشاعر الصلاة وحول أن تداوم على إيماء روح الوجود في حضرة الله.

الأسقف ثيوفان الناسك

ملخص المبادئ الهامة:

- (١) وسيلة الوصول إلى نفاوة القلب هو تذكار الله الدائم في القلب بحيث لا يحجب ذكره أي اهتمام آخر. فإذا ما وصلنا إلى هذا الإختبار يكون قد وصلنا إلى نفاوة القلب.
- (٢) لا نستطيع أن نتذوق جمال الله وحلاوة العشرة مع أرواح القديسين والملائكة إلا بعد أن نصل إلى نقاوة القلب.
- (٣) لن يكون لصلاة تنافوة أو مفعولية إلا بعد الوصول إلى نفاوة القلب، وتكون علامتها حرارة شديدة متصلة وشعور بالاستجابة في الحال.
- (٤) من علامات نفاوة القلب شدة الرحمة على كل الخليفة دون تمييز بينها على الإطلاق.
- (٥) القلب النقي يستطيع أن يحب الأعداء كالأصدقاء. و يعطف على الحيوانات المؤذية كالمستأنسة وينظر إلى الشرير كالبار.
- (٦) القلب النقي لا يستطيع أن يحكم على أحد ما أنه نجس أو شريف، لأن نظرتة لعميقة لا ترى الشر — لأنه عمل عارض — وإنما ترى نفس الإنسان على حقيقتها التي خلقت عليها كسبه الله وصورته.
- (٧) القلب النقي لا يشمئز من عيوب الآخرين الجسدية أو أمراضهم أو آثامهم وإنما يتحرك عليهم بالشفقة ويحنو عليهم جداً.
- (٨) القلب النقي لا يحزن لخسارة مادية تلحق به أو تجربة أو ضيقة لأنه يرى كل شيء يُعمل بتدبير الله وحسب قصده.
- (٩) القلب النقي يلوم ذاته و يضع الخطأ على نفسه في كل ما يعرض عليه من اضطهاد أو ظلم أو مذمة.

(١٠) طيب محد الناس ومديحهم ، أو التكلم بكلام السفاهة والمزاح ، أو استعمال المكر والخداع أو الحسد والغيرة ؛ كل ذلك يصف سداً منيعاً دون التقدم في نقاوة القلب .

(١١) بمجرد أن يتنقى القلب من الشرور ومن التعنى بالعالم فإنه ينطق في الصلاة و يتنوى بركاتها .

(١٢) نقاوة القلب هي ثمن الملكوت .



الفصل الثالث

إنسحاق الروح

+ «إلى هذا أنظر إلى المسكين، والمنسحق الروح، والمرعد من كلامي.» (إش ٦٦: ٢)

+ «أنا لم أعاند، إلى الوراء لم أرتد، بدلت طهرى للصارخين وحدتى للناهين. وجهي لم أستر عن العار والبصق، والسيد الرب يعينى فلا أخجل.» (إش ٥٠: ٥ - ٧)

+ «ظلم أما هو فندلل.» (إش ٥٣: ٧)

+ «تعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب فتحدوا راحة لهُوسكم.»
(مت ٢٩: ١١)

لو استطعنا ولو إلى حطة أن ندرك حقيقة الله وعلاقته به، لاكتشف لد في الحال حقيقة أنفسنا واقتنعنا بأننا لا شيء أمام مجد عظيم لا يُحَد!

هذا هو حادث فعلاً مع القديسين. فبمجرد تواصلهم واستحافهم ومهاهم لأنفسهم وبسبب انشغالهم على ذواتهم دائماً، ما هو إلا نتيجة لهذا الكشف، بحيث لو حاولوا أن يعتصب هذه صفات ونسبها لأنفسهم فإن أن يتقدم في النعمة ويدرك هذه الحقيقة ويعرف ما هي أنفسنا على وجه التحقيق، لظهرت هذه الصفات معنا كأنها شيء مزيف، بل تعودنا إلى ما يضادها من صفات!!

وإن لدى قاد القديسين والمتقدمين في النعمة إلى صفات التواضع والإنسحاق والتذلل، ليس هو جهار هذه الصفات في ذاتها ولا هو شهوة الحصول عليها والتحلي بها، وإنما الذي اقتادهم إلى التواضع والإنسحاق الحق هو اكتشافهم حقيقة أنفسهم في نور الله.

ليس التواضع هو أن تدعى لنا خطاة ونحن لا نسر بذلك في أعماق نفوسنا، لأن ذلك إنما يبعدنا عن معرفة أنفسنا ويضلنا عن حقيقة التواضع!

لإنسحاق يجب أن يكون نتيجة اقتناعنا أننا أغضبنا الله. فيها كان أمامنا أن ننصر ونتقدم في النعمة نحو الله. بذلك نختار بإرادتنا شهوة العالم ونفرض الحياة الدائمة ودون بسبب حبنا لذواتنا وتفضيلنا لراحتنا الجسدية.

إن الرجل الصيغي الذي للعالم، يحب الأشياء الطبيعية التي فيه. ولكنه لا يستطيع أن يحب الله من ذاته، لا بتوسط النعمة. ولو أنه من حين إلى حين يشعر بحاجة منحة وعطش منهم نحو الله. وما هذا النداء الأخرس إلا نداء الطبيعة الإلهية الساكنة فيه.

وهذه الطبيعة الإلهية يمكن تحديدها وتغريبها وتغيبها على طسعة العالم بواسطة تدخل الروح القدس، على شرط حصول النفس واستحافها تماماً، وذلك إما يكون باختر على الخطايا السالمة في نور محبة الله والإستياق إليه. ولولا الخطيئة التي دحبت على صيغتنا، لكنا

حياً مع الله في نور المحبة الحالصة، ولكن بسبب هذه الخطيئة الساكنة فينا صارت عبادتنا ممزوجة بالحزن، وحبُّنا بالإنسحاق.

فخطايانا وزلاتنا وأفكارنا مكتوفة وعريانة أمام الله. إذن من يستطيع أن يسمع على الله؟ فقد قال بولس الرسول: «لا تصنوا. الله لا يسمع عليه.» (غل ٦: ٧)

إذن، فعلاقتنا مع الله يجب أن تكون على أساس الإلتضاع والإنسحاق الكامل، ومن ثم تكون علاقة حقيقية بواقع الحال.

ومن دواعي الخجل والإنسحاق حداً، أنه بينما نحن نخطئ إلى الله وتعدّي على حقوقه ووصاياه، إذا هو ينظر إلينا في حنوّ ولا يُنقص من حبه لنا!!

وكيف لا ننسحق حيناً نتأمل في محبة الله وعظمته عندما تنازل وانسحق على لصيب! وببدا من؟ أليس بيد البشرية التي أنا وأنت واحد منها؟ إن مجرد تأمنا في الله وكيف صُيب بالجسد وتألّم بأيدي بشرية يُزبدنا اسحقاً على انسحاق!

إن الإنسحاق لا يُدرّك في يوم أو يُدرّس في كتاب؛ فهو حياة عميقة بين النفس والله، تبدو في أولها ثقيفة ومجهدّة إذ تكون جهاداً ضدّ العظمة الذاتية، وإذلالاً لعزة النفس؛ ولكن بعد حين حيناً تتنقّى النفس من العظمة الكاذبة والكرامة الخادعة تبدو لها هذه الحياة المنسحقة لحماً شجياً لزيداً يقرّها إلى الله ويدعوها إلى الإستقرار فيه شيئاً فشيئاً حتى تستريح فيه تماماً!

إن النفس المنسحقة تكون مملوءة سلاماً، كلما تمت في العمة والكمال ازدادت اسحقاً وانسابت في التواضع بلا جهد، فأني انحراف منها نحو الكبرياء أو العظمة أو المجد الباطل تفشعر منه كما يفشعر أذن الموسيقى البارح حيناً تصطدم بشاريطراً في لحن جميل!

والإنسحاق في المفهوم الإنجيلي هو الشحق *συναπτα*، بمعنى «كسر شيء بغرض تحطيم غلوه ليصير منخمساً وضعيفاً»، وهو اصطلاح يعيد، فيما يخص الروح، معنى الإلتضاع ولوداعة وإسكار الدات وإماتة المشيئة، كل ذلك معاً. ولكن مضمون كسر الشيء بغرض تحطيم غلوه ليصير منخفّضاً، حسب نص الاصطلاح، لا يشمل في المعنى الإنجيلي مفهوم الإضرار بالنفس أو امنها الروح الإنسانية المخلوقة على صورة الله، ولكن الكسر ولتحطيم ينصبُّ على أجزاء النفس المتعالية كذباً وادّعاءً، حتى تصل النفس إلى حدودها الأصيلة

الواقعية البسيطة المتضعة، فلا يعود الإنسان يطمح فيما يفوق قامته أو يتطوع إلى ما لا يناسب إيمانه وجهاده كما يقول بولس الرسول: «فأقول بالنعمة المعطاة لي لكل من هو بيسكم أن لا يرتني فوق ما يسغى أن يرتنى، بل يرتنى إلى التغفل، كما قسم الله لكل واحد مقداراً من الإيمان.» (رو ١٢: ٣)

وبذلك يتضح لنا أن معنى إنسحاق الروح يتجه اتجاهًا إيجابياً محضاً ليدخل في مضمون إعادة بناء النفس بناءً واقعياً صحيحاً، لا يشوبه تزيف أو خيلاء أو طموح أو ادّعاء أو افتخار ذاتي، بناءً يطابق خلقتها تماماً، تمهيداً لبلوغ غايتها العليا في المسيح للإتحاد بالطبيعة الإلهية.

وسحق النفس يتم على مستويين: مستوى إرادي سلبي، ومستوى لا إرادي إيجابي، أي أن الإنسان مسئول عن سحق الأجزاء العليا الكاذبة من نفسه من جهة أخلاقه وسلوكه وطموحه الباطل، وهذا هو السحق الإرادي السلبي للنفس. وفي نفس الوقت، فإن الإنسان مُطالب أن يقل كل سحق يأتي إليه من لدن الله بفرض توضع نفسه وإرجاعها إلى صغرها وبساطتها الأولى، وهذا هو السحق اللا إرادي الإيجابي الذي يُعتبر هبة عظمى من الله، لأن الإنسان في عالبيه أحواله عندما يُترك لنفسه لا يعرف أن يوضع ذاته ويسحقها كما يجب، فلولا سحق الله لنا لبهينا حتماً باقسين في الإلتضاع والوداعة.

وسحق النفس بفرض اتضاعها عملية دقيقة وخطرة، وتحتاج إلى صدق وبصيرة، حتى يفهم الإنسان في الحماضه عند المستوى الحقيقي والطبيعي للنفس ولا يتعداه إلى ما دونه لئلا يدخل في ادّعاءٍ آخر هو ادّعاء الصغر، فيتظاهر بأنه حاهل وهو يشعر أنه ليس بجاهل، أو يتظاهر بالبساطة أكثر من حقيقته، أو يتظاهر بالضعف وهو غير ضعيف، فيتقمص الإنسان شخصيات أخرى غير شخصيته ويمارس الرياء بداعي التواضع وهذا هو وجه الخطورة في فضيلة الإنسحاق.

فالإنسان في حياة الإنسحاق إنما يجاهد ليحطم كل طموح وكبرياء، وكل تعالٍ على الغير، وكل اعتداد بالذات وتفوقها، إلى أن يصل إلى حقيقة نفسه البسيطة الضعيفة المسكينة؛ ويفهم عند هذه الحدود ولا يتمادى في إلغاء ما فيه من نعمة أو يُعالي في إنكار نفسه لدرجة التي ينكر فيها عمل الله فيه. وهذا ما قصده القديس بولس الرسول، بمنهى الاختصار والوضوح، في قوله إنه لا ينبغي أن نمتد ببصيرتنا الروحية فوق ما هو لنا أو فوق ما

هو فينا بل ينبغي فقط أن يمتد بصرنا بتعقل واتزان في حدود موهبتنا التي قسمها المسيح لنا! فدو فرضنا أن إنساناً ما أخذته الحماسة الذاتية وطموح الفضيلة وأخذ ينسحق وينكر نفسه إلى ما دون التعقل بأن أظهر نفسه أقل من مستوى موهبته وإيمانه، فهنا نجد أن إنكار الذات تعدى حدوده إلى إنكار الإيمان ونعمة الله، والنتيجة الحتمية هي توقف الاتصال بين الله والإنسان، فيبتدىء الإيمان يضمرب بالفعل وتبتدىء النعمة تنسحب من تدبير الإنسان.

أما إذا فرضنا أن الإنسان سلك سلوكاً واقعياً صحيحاً في انسحاقه واتضاعه حتى بلغ درجته الحقيقية البسيطة، فإن النفس تكون مفتوحة بأقصى طاقاتها الإيمانية على الله، وحينئذ تكون على درجة الاتصال الحقيقي بالله فتتموأكثر في بساطتها واتضاعها لنتيهاً بالتالي لإتصال أكثر ونمواً أكثر وهكذا.

«إلى هذا أنظر، إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعذ من كلامي.» (إش ٦٦: ٢)

وبذلك نرى أن الانسحاق الواقعي الحقيقي يؤدي إلى اتصال حقيقي بالله كما يؤدي إلى ملء النعمة، بعكس الانسحاق المبالغ فيه المزيف، فإنه يؤدي إلى انفصال عن الله وتفرغ النعمة أولاً بأول.

وهذا ما دعا كافة الآباء، وبدون استثناء، لإعتبار انسحاق النفس بقصد الإلتضاع الحقيقي أنه هو أساس جميع الفضائل وبداية كل عمل روحي وغاية كل معرفة، كما يقول القديس أوغسطينوس: «إن اتضاع النفس هو المضمون الكامل للديانة المسيحية». سواء كان هذا الانسحاق إرادياً عن طريق ممارسة ضبط النفس وإخضاعها للحق وقمعها لخوف الله في حدود الإيمان والطهارة، أو كان الانسحاق عن طريق الخضوع الكامل لتأديبات الله مهما كانت صعبة أو مهينة في استسلام كلي لمشيئته عن مسرة بدون تحفظ وبدون تدمير وبدون قيد ولا شرط.

وحسب الظاهر يبدو الكلام عن انسحاق النفس مُراً، ويتضمن جهاداً مضنياً ضد عتو الذات وكبرياء النفس والطموح الكاذب للروح، كما يشرب بصعوبات وتأديبات وهراسات يلزم أن نتقبلها من الله، ولكن الحقيقة العممية عكس ذلك تماماً، فممارسة انسحاق النفس في حدود التعقل وبطريق صحيح شيء لذيذ جداً يصعب علينا وصفه بالكلام لأنه بالكلام لا يمكن تذوق شيء تذوقاً حقيقياً، وهل يمكن وصف حلاوة العسل؟ الكلام ممكن أن يبهج العقل ولكن يستحيل على الروح أن تبهج إلا بالحقيقة المعاشة،

واسحاق النفس حفيضة معاشة، الكلام عنها مرّ علقم وممارستها لذينة أشهى من العسل.

وم نحسبه واجباً علينا ها بالكلام هو أن نصف فقط لبقارىء أين يوجد هذا العسل السماوي وكيف يُقطف وكيف يؤكل سرّاً!!

وادي الإِتضاع في مظهره مظلم وكثيب، ولكن أول ما تطأ قدماك هذا لودي مقدس يحرق لإستقبالك حُرّاس المرصد ليغسوا جراحاتك التي تكون قد مزّقت نفسك وجسدك عند جترائك على لهبوط المفاجيء الخطر من فوق جبال العالم الكاذبة إلى منحدر وادي الإِتضاع لمحف! و يأخذونك لإستراحة قليلة بعدها يُدخلونك المرصد السماوي المقام في أول الوادي الطويل حيث يعطونك منظاراً كاشفاً يمكنك بواسطته أن ترى دقائق الوادي المقدس بأكمله، حيث ترى على جوانبه تغزيات على شكل أفراس الشهد، والسائرون يغتذون بها، والنعمة تمتش العابرين باستمرار لتطمئن على شفاء جروحهم، وهي تعصّبهم بعصائب تمتص الآلام وتحول لجروح إلى بضع مضيئة شبه المصابيح تير.

وحينئذ يأخذك العجب والإبدهاش: كيف يبدو هذا الوادي بدون المظار السماوي كثيباً ومظلماً، وكأن الموت والإندحار في كل ركن من أركانه، مع أنه بالرؤيا المقرّبة يبدو مديناً بشهد العسل وبأيدي رحيمة وأشمية ونور خفي يضيء الداخل قبل أن يصيء الخارج؟؟
وحينئذ تدرك سر الوادي.

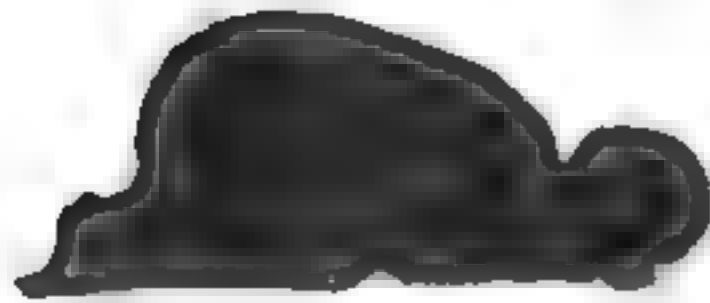
ولكن وأنت مأخوذ بحمال الوادي يدعوك الحُرّاس أن ترفع المطار قليلاً لترى ما بعد الوادي وما ينتظرك هناك في نهاية المطاف، وإذ ترفع المظار ترى جبل التجي من بعيد بوره المائو، والسيد رافع يديه يحتضن الذين يبلغون نهاية الوادي، وبقع الدم على يديه تشع نوراً مبهجاً يضيء لجبل كله، وينعكس نورها سرّاً على الوادي لمظلم، وعندما تسقط على حروح السائرين في الوادي، تضيء هي الأخرى كما يضيء لقمر عندما تسطع عليه شعة الشمس عبر الفضاء المظلم!

وعندها يأخذك الفرح والإطمئنان وتتحرق شوقاً لإقتحام ظلمات هذا لودي مقدس، بعد أن يكشف لك سر الإنسحاق المبهج والجروح المضيئة والمرارة المخفي داخلها أفراس الشهد.

في حقيقة أن موضع هذا الوادي المقدس وادي الإنسحاق والجروح والمرارة هو دخل قلب

الإنسان، وحُرَّاس المرصد الذي في أول الوادي هم الآباء الذين جازوا الإنسحاق ومرارته ووصفوا وعورته وفائدته، والمنظار هو الممارسة العملية الصحيحة لألم الإلتضاع حباً وكرامةً لمصلوب، حسب المواصفات الدقيقة لرؤية الإلتضاع الصحيحة، أما شهد العسل فهو اللذة لنابعة من شركة آلام الرب، وأما الجروح البازفة فهي الكرامة المحروحة، وهي على أنواع: منها ما هو جروح سطحية يصنعها الإنسان في نفسه، ومنها ما هو رصوص وجروح غائرة من صنع الناس، ومنها ما هو كسور مميتة في جدران القلب من صنع التأديبات الإلهية حيث يستفرغ منها كل دماء الذات الترابية التي يصعب سحبها بواسطة الجروح السطحية أو الغائرة.

أما الأشعة الإلهية المنبعثة من جروح الرب والمنعكسة على جروح وكسور الإلتضاع، فهي الشركة الجزئية في مجد المسيح الموعود به عن ثقة ويقين والتي سوف تبغ أشد وهجها وضيائها عند ظهور ربنا كما هو!



أقوال الآباء في انسحاق الروح :

٥٢٢ — الله اتضع من أحدك، أفلا تريد أنت أن تنضع من أجل منفعة ذاتك؟ هو أنى ليحمل ما عسدت من ثياب وهموم ويعطيك ما عنده من راحة وهدوء، وأنت لا تريد أن تتحمل مشقة المسير إليه والصبر حتى تبرأ جراحاتك.

٥٢٣ — الكرامة والكرياء كانا في البدء علة سقوط آدم بواسطة الحية، ولا رالب الحية إلى الآن تستعمل وسيلتها وهي مخنثة في القلوب لتطرح وهلك جنس المسيحيين بعة الكرامة واحترام النفس. بذلك اتخذ لمسيح صورة عبد وعذب الشيطان بالتواضع ليعلمنا طريق البصرة.

٥٢٤ — إذا كان الإنسان حراً ودا نسب شريف في نظر العالم، وقد استحوذ على وفرة العنى، وصار ذا دخل كثير، سرعان ما يفقد شعوره ويعتر نفسه وتندى يده تمتدان بالصفع والضرب ورجلاه تسارعان إلى الرفس والكرز، فيصبح غير محتمل. وهذا هو سلوك عديمي لفظة والتميز. وليس ذلك فقط، بل والديس تقدموا قليلاً في معرفة الصلاة وقوتها إذا لم يتمسكوا بالإتضاع ينتفحون ويسقطون. والحسة عيها نبي أسفطت آدم بعة الكرياء فائنة له: «إبك ستصير كاملاً كالله»، لا زالت توحى بالكرياء في قلوب نبي شر وهمس في قلب الحاهل: «لقد صرت كاملاً، ها قد منكنت زمام المعرفة وصرت غنياً وليست لك حاجة لأحد. طوباك»، ... وهكذا.

٥٢٥ — لذلك إذا فتقدت نعمة الله بنفس إنسان وأعطته قوة من الأعالي على قدر إيمانه، فإنما يكون ذلك جرئياً فقط سئلا يستكر. فلا يظن أحد أن نفسه قد استصاءت كية لأن كمية الشرور التي لا زالت فيه تحجب كمال النعمة.

وفي البدء يكون افتقاد لعملة قليلاً مع أن لها القوة لتغسل وتكمل الإنسان في ساعة، وذلك لكي تختبر عرض وميل الإنسان: هل هو محتفظ بحبه نحو الله تماماً؟ وهل تحلت نفسه عن شهوة الشر؟ وهل أسلم نفسه حقيقة لعمل النعمة؟

فإذا ما استطاعت النفس أن تستحيب لمطالب النعمة وتمتد معها في طريق القداسة والبر، فإن السمعة تتأصل في النفس وتمتد جذورها حتى الأعماق وترتقي بالنفس قليلاً قليلاً في توافق وسهولة حتى تصير كلها في أحضان النعمة السماوية.

٥٢٦ - ولكن إذا لم يتضع الإنسان تماماً فهو يُسَلَّم للشيطان ليُجَرَّب بالنعس الكثيرة، فتصيح كبرياء نفسه وتطهر بألوانها الحقيقية ويبقى عارياً مكشوفاً واثناً تماماً.

أبا مكار يوس الكبير

٥٢٧ - بيت كل الذين يتقدمون لخدمة الله بالصلاة يعلمون أولاً أن يكونوا مثله ودعاء متصعين بالقلب حقاً.

الأب يوحنا ك.

٥٢٨ - صرح العشار بقلب منسحق دليل: «اللهم ارحمني أنا الخاطيء» (لوقا: ١٨: ١٣)، وصرح من لدى الله مبرراً دون القريسي. وهنا تتفاصل الصلاة المسحقة على العمل غير المتضع! فالقريسي «طهر سره بالصوم الدقيق والعشور المنظمة، والعشار قدّم قلباً منكسراً بدون أعمال! إن الرب لا يصت إلى الكلام فحسب بل يلمس لمشاعر التي تصوع الكلام. فلما وجد العشار متضعاً ومسحفاً أحبه ورحمه. لست أقول هذا حتى نخطيء مثله بل لننتضع!

يوحنا ذهبي الفم

٥٢٩ - لتعلم كيف يستميل قلب الله إلى الرحمة بالصلاة المروجة بالتواضع والودعة، لأن الرب «عطانا مفتاح للوصول إلى قلبه: «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم» (متى ٢٩: ١١). داود أيضاً عرف ذلك فقال:

«الذبيحة لله روح مسحو، والقلب المنكسر والمتواضع لا يردله الله» (مزمور ٥١: ١٧). الرب لا يحب شيئاً مثل النفس الوديعه المتضعة.

٥٣٠ - لا تقل إنني خاطيء وليست لي شجاعة أن أفف لأصلي، لأنها شجاعة محبوبة أن تقول ليست لي شجاعة أمام الله! والعكس أيضاً، فالذي يظن أن له شجاعة للوقوف أمام الله بسبب أعماله أو طهارته فإنه يُحرَم من قوتها كالقريسي، لأن كل من يعتبر نفسه مرذولاً وفاقد الجرأة أمام الله فهذا يستمع إليه، كالعشار.

٥٣١ - «ولكن لا ثقة مثل هذه بالمسيح لدى الله. ليس أبنا كُفاهة من أنفسنا أن نفتكر شيئاً كأنه من أنفسنا بل كفايتنا من الله.» (٢ كورنثوس ٤: ٥)

٥٣٢ - الندامة هي نفس أسيفة وتصرع حزين مستمر في صلاة نقدمها لله من أجل لصنع عن الخطايا السالفة، وتوسلات لحفظنا من العثرات المستقبلية.

والرب عرف علّتنا وقدم الدواء: «إسهرُوا وصلوا لكي لا تدخلوا في تجربة» (متى ٢٦: ٤١). وبما

أن الله يعرف أسما لا نؤمن إلا بحرف عن الحق نحو الباطل حتى إلى أن يحين كأس الموت، فهو أمرنا أن نسهر ونجاهد في صلاة مستمرة!

مار إسحق السرياني

٥٣٣ — ليس لأعمال هي التي تصح — بل لضعف النفس وإنما لإسحاق والتواضع، لأن الشهوات لا تغلب إلا بالتواضع!

٥٣٤ — إذا كنت متضع القلب بالحق، فالله يكشف لك عن مجده.

٥٣٥ — بكثرة الصلاة يتضع القلب.

٥٣٦ — قلب الرب دائماً على المصعب ليرغهم، أما وجهه فمعد للكرين يتصعب. لأن الإنسان يصعب بما يُقابل بالعصف والمعونة دائماً. ولكن العنطة وفساوه أغلب تقاس بالشدة وجماء.

٥٣٧ — الرجل الجبان مصاب دائماً بعثتين: محبة جسده، وضعف إيمانه.

كذلك الرجل الشجاع القلب الذي لا يهيب المخاطر، سر سعادته أحد سببين: إما مساواة قلبه، أو عمق إيمانه بالله، وفوق من استجاعه في الحالات، فإن الأولى تصحبها لكبرياء، والثانية لا تصعب ونكار الذات.

٥٣٨ — كتب أحد عديسي: « كل من لا يعتبر نفسه خاطئاً فصلاته لا تصبها الله ».

٥٣٩ — حتى تقع بوجهك على الأرض ساجداً في الصلاة، صعب في نفسك أنك مثل مئة وكبر حتى لروحك التي ترحف على الأرض ومثل حمساء، لا مطر ولا سكن لك. لا تحذب لغيرك من معرفتك بل بعقل طفل تقدم إليه وزيراً أمامه لتستحق عناية الأبوة.

فليس إن الرب يحفظ الأتقياء، لا تظن أن ذلك فيل بخصوص الأتقياء فقط، بل ويستحب هؤلاء لدينهم وهم حكماء في هذا العالم يبحثون عن علمهم ويعصون الطوف عن حكمهم بما يكفي أن يحفظهم نصلاً بإرادتهم. حسنة يستأهنون أن تنصوا الحكمة التي لا تُدرَك بعمل وجهاد. وهكذا قال بطريرك ناوي بوس الرسول: « إن كان أحد يقن أنه حكيم بسببكم في هذا الدهر فليصبر حاشاً لكي يصير حكيماً » (١ كور ١٨: ٣). فعليك إذن أن تتوسل كثيراً لدى الله تمسحك أن تمنع مثل هذا الفيس من الإيمان.

مار إسحق السرياني

٥٤٠ — قد كتب تحت التواضع فاترك التحلي والريبة، فمن يحب الترييس لا يحتمل المحقرة

والإردراء، وأعمال المحبة والتواضع تصعب عليه. خادماً لله لا يزين جسده، واعدهم أن كل من يحب زينة جسده الخارجي فهو مريض في داخله، ولو كانت أعماله جليلة.

مار إسحق السرياني

٥٤١ — كن صديقاً للمحروبين ومكسري القلب وشاركهم في صلواتهم وأعمالهم لتفتح لنفسك ينبوع الرحمة.

٥٤٢ — ليس شيء يقرب قلب الإنسان إلى الله مثل الرحمة. وليس شيء يمنح السلام للقلب مثل الفقر الاختياري.

مار إسحق السرياني

٥٤٣ — التواضع يُكتسب بأعمال التواضع؛ والحب بأعمال الحب.

الأسقف ثيوفان الناسك

٥٤٤ — إذا كنت متسربلاً بالوداعة الكاملة وعدم الغضب، لا يعسر عليك أن تتحرر من عبودية لماديات.

الأب يوحنا الدرجي

٥٤٥ — كل ما تستقم به من أحبك الذي أخطأ إليك، فسيكون كنه وبالاً عليك في وقت صلاتك.

الأب نيلوس السينائي

٥٤٦ — ليس كل هادى متضعضعاً، ولكن كل متضعضع هادى.

مار إسحق السرياني

٥٤٧ — الرجل المتواضع لا يُسر بمرأى الجموع المحتشدة ولا بالصحب والضوضاء ولا بالغنى والتزين وشنعم، بل في كل حال تجدد الفقر والعوز والقلّة والحاجة محبوبة لديه.

مار إسحق السرياني

٥٤٨ — المواهب لا تُمنح من أجل الأعمال في ذاتها، وإنما من أجل التضاضع الذي عُملت به.

مار إسحق السرياني

٥٤٩ — عينا أن تعرف أن لا تضاضع أثناء الصلاة يحطم فحاح الشيطان. أما الكرياء فعلامة على أننا نفرز كل كلام للصلاة كأنه ليس لنا. تقول في نفسك: أنا أعرف هذا، وهذا يستحق جأ إليه، وهذا ليس من أحبي أنا، وهذا رند عن اللزوم، وأنا لست في هذا محطت. يا لكريائنا وعدم تعقُّبنا.

الأب يوحنا ك.

٥٥٠ — إن أردت أن تكون متضعاً حقاً، إشتهِ الإهانة والاضطهاد شهوة الجوعان إلى الطعام، لأنك بالعدل تستحقها وليس تنازلاً منك.

٥٥١ — إن أردت أن تكون متضعاً حقاً، وعتر نفسك دوماً لكن ومستحقاً أن تُداس من الجميع، لأنك دُست وصايا الرب، وامتنعت كلامه بأعمالك.

٥٥٢ — حينما تصلي وتسكب الدموع من أجل شعب الله ورعيته فلا تجعل أفكارك تمدحك، بل قل: «لست أنا المصلي من أجل أولاد الله ولكن، الروح ذاته، الذي يثب فيّ هو الذي يصنع فيّ الشفاعة من أحدهم». لأن الروح في ذلك الوقت هو الذي يربطك برباط الحب الخلو، ويهتم بالعبادة والتقوى الصادقة. والذي يثبت لك ذلك هو أن حلاوة الصلاة وفرح القلب بالحب يستطيعان مفارقتك سريعاً رغم إرادتك.

٥٥٣ — عدم إحساس القلب في الصلاة بحقيقة ألفاظها يشأ من قلة إيمانه وعدم شعوره بخطيته، وذلك يشأ من إحساس حفي بالكبرياء. فمقياس الشعور أثناء الصلاة، يمكن للإنسان أن يدرك قياس اتضاعه. فبمقدور تأثيره وبقوته وحاسته لألفاظ الصلاة، يكون اتضاعه، وبمقدور حموده وبرودة الكلمات في فمه يكون كبرياؤه.

الأب يوحنا ك.

٥٥٤ — اجعلوا الوداعة وبساطة القلب سُلماً تنزلون عليه إلى أن تدركوا أهل أخ لكم في البشرية. وعليكُم بالهدوء والتواضع والصر حتى لا تفرقوا في بحر هيجان العصب. اجعلوا هذه فيكم كما كنتم في المسيح.

المطران فيلارت

٥٥٥ — رجل من وجوه مدينة الإسكندرية رهد في الدنيا، فوجه إلى دير شركة (أي لمعيشة فيه مشتركة)، ولما فحصه رئيس الدير وحده رجلاً مستكراً عاتياً، فقبله، لأنه كان رئيساً حكيماً عالماً بطب النفوس. وقال له: «إن كنت تؤثر أن تحمل نير المسيح فأريدك أن تُحكِمَ لطاعة قلب كافة الفضائل»، فأجاب قائلاً: «كما يطيع الحديد الحداد هكذا أنا قد بذلت نفسي لطاعتك». فأعطاه الرئيس تدريباً لتهديت كبرياء نفسه، بأن يفف عند باب الدير ويركع لكل إنسان داخل أو خارج، ويقول له: «يا أي صر من أحلي لأبي مصروع». فوقف هناك سبع سنين بدع فيها جداً كبيراً من خشوع لنفس، ونهذب بحمال التواضع، حتى أنه بعد مضي لسبع السنين، ولما أراد للرئيس الحكيم أن يرفع عنه الير ويقدمه لرتبة الكهوت لم يُرد ذلك المغبوط، الذي كان يُدعى يسيدوروس، وتضرع كثيراً مستعياً برهبان كثيرين وبحقارتي أنا أن يتركوه ليكمل معيشته تحت نير التواضع.

٥٥٦ — الوداعة والتواضع هما الصخرة الموضوعة على شاطئ بحر العصب، التي عليها تتكسر أمواج ذلك البحر الهائج وهي ثابتة كالطود لا تتحرك.

الوداعة مفتاح باب المعرفة لأن الله «يعلم الودعاء طرقه».

في قلوب لودعاء يجلس الله ليحكم، واسفس السرعة هي محس لإليس وحنوده.

٥٥٧ — روح أسياش يفرح إذا نصر الرديلة متكاثرة، وروح العُجب ولكرياء يفرح إذا رأى الفضيلة وافرة، الأول يلد الجراحات والثاني يلد الموت.

٥٥٨ — وبني ... إذا صُمت استحوذ العُجب عليّ، وإذا نفضت صومي حتى لا يُعرف تديري استولى العُجب عليّ أيضاً. إذا لست ثياباً بهية استحوذ العُجب عليّ، وإذا لبست الحفيرة عمري العُجب أيضاً.

متى تكلمت داخلني العُجب، ومتى صمت انقهرت له أيضاً.

كما طرحت عني هذا المثلث دا الثلاث شُعب، تنق له دائماً شعبة منتصبة!

من لا يضحك على المُعجب بذاته حينها يقف ليرتل: مرة تجده ضاحكاً، ومرة تجده عابساً، ومرة تجده باكياً.

٥٥٩ — المستديء إذا احتمل السب والشتيمة يُعتبر شجاعاً. هكذا لقديس إذا احتمل المديح والإطراء.

٥٦٠ — إذا سمعت أن أخاً لك شتمك وأهانك في غيبتك أو حضورك، فأظهر له حيك.

٥٦١ — ليس من يدم ذاته و يلومها هو المتضع، لأنه من الذي لا يستطيع أن يحتمل نفسه؟ وإنما هو متضع بالحقيقة ذلك الذي يحتمل تعيير ومذمة غيره، ولا يُفص عنه له!

٥٦٢ — روح العُجب يسق حضور أهل العالم، ويأمر رهبان الدير ليعزغن من الحزم بالخروج من سقماتهم. ويجعلهم يلسون وشاح التواضع فوق الكبرياء، فيخفضون الصوت ويطأطئون الرأس وعيهم إلى أيدي الواردين يأخذوا منهم شيئاً. ويدعوهم سادة وأئمة وواهبين الحياة بعد الله! ولكن روح العُجب والكبرياء قد سببا في كثير من الأوقات الهوان بدل الإكرام.

٥٦٣ — حدث في حلوسي في مجمع من الناس أن وافي شطاب العُجب وجس نحاسي، فكرني وثلاث: حدثت من عن أعمالك في البرية، واسهرته مردداً قول داود النبي: «فبرحم المفتكرون عني»

بأفكار ردية». فأنبرى لي عن يساري شيطان الكبرياء قائلاً: ما أحسن ما عممت وما أصوبه، لقد صرت عظيماً إذ فهرت أُمِّي خالية من الحياء. فأجته أنا بقول داود: «ليرجع بالخطي سريعاً جداً القائلون لي حسناً حسناً».

فما استخسرت كيف أن شيطان العُجب هو أُمُّ الكبرياء؟ قيل لي: إن العُجب هو تزكية النفس وبداية ارتفاعها، أما الكبرياء فهي التي تستلم النفس لترفعها إلى السموات لتحدرها إلى الأعماق. لهذا قيل: «الويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً».

٥٦٤ — من شأن العُجب أن يوسوس للنفس لتتشكل بالفضيلة التي ليست هي موحودة فيها.

٥٦٥ — متى شعرنا بالعُجب، علينا أن نقف للصلاة بالروح والخشوع الرهيب على انفراد لكي نفرر هذا الروح الهدّام.

٥٦٦ — من حكمة الله أنه قد يسبق و يعطي السائلين ما يحتاجون إليه قبل أن يسألوه، لذا إذا أخذوه نتيجة لصلاتهم فإنهم يسقطون في الكبرياء والعُجب.

٥٦٧ — إبتداء الكبرياء هو انتهاء العُجب. حينئذ يزدري الإنسان بصاحبه، و يشهر أتعابه ويمدح نفسه في قلبه، وعمقت التوبيخ.

٥٦٨ — إن داء الكبرياء من عاداته أن يستمد غوّه من وراء كثرة الشكر لله، فهو لا يشير عينا أن نجحد نعمة الله علانية من الأول. وقد رأيت كثيرين يشكرون الله بفهمهم أما قلوبهم فمملوءة كبرياء واعتداداً بالنفس، والشاهد لصحة قولي هو الفريسي القائل: «الهم أنا أشكرك أي لست مثل باقي لناس الخاطفين الضالمين الرباة ولا مثل هذا العشار.» (لوقا ١٨: ١١)

٥٦٩ — قيل أن علل النفس اثنا عشرة، إلا أن واحدة منها، وهي التعظم، إذا سقطت النفس فيه، أكمل موضع البقية.

٥٧٠ — الإنسان المترفع يجاوب إجابة شديدة بلسان سليط، والإنسان المتذلل المكسر لا يعرف أن يجاوب.

٥٧١ — الرجل المتعظم القلب يرتاح أن يتراأس على غيره. ليت الله يرحمنا من هذا الداء ومن أدوائه (سقطاته) المرة.

٥٧٢ — عاتب شيخ حكيم أحد الإخوة عتاً روحياً. فجأوبه ذلك الأخ متعامياً: يا أبانا اعفري أنا لست متكبراً! فقال له الشيخ الحكيم: يا ولدي وأي برهان لكرياثك تعطيه لنا أظهر من هذا، مثل

قولك أنا لست متكبراً! إن من تكون هذه حالهم عليهم بالطاعة حداً.

٥٧٣ — نسيان الهفوات التي سقطت فيها يشيء الصلف. وتذكُّرها دواماً يجدد التدلُّس.

٥٧٤ — الشُّبَّح الباطل شيء آخر غير العظمة، ولكن يوحد بينهما رباط متين، فالأول هو البداية والثاني هو نهاية البداية.

٥٧٥ — الشُّبَّح الباطل مصيبة مخمفة، يندس في كل عمل صالح وفي كل فضيلة ليفسدها. كاشعسان ينتظر الدجاجة حتى تضع بيضتها ويأتي ليرفها. فهو ينتظر على المجاهد حتى ينمو قليلاً في الفضيلة فيأتي ويفسدها. ويجمعه شفوفاً بأن يكشف كل مقتناه الروحي.

٥٧٦ — صوم ذي السبع الباطل، بعير آخر؛ وصلاته بلا ثمرة. فهو من أجل المديح يصنع كل شيء.

الأب يوحنا الدرجي

٥٧٧ — إن شيطان الإنتفاخ والسح الباطل له ووجع دقيق، فهو لدقته لا يُضَبِّط سريعاً ولا تُدْرَك بدايته ولا غايته. كل الأوجاع والآلام ظاهرة واضحة تُدْرَك سريعاً، لذلك فقتالها هين وسهل إذا ما توقظت النفس لجهاد قائلها. فأما الإنتفاخ والسح الباطل فقتاله شديد وعسر، لأنه يصارع كل شكل وكل ترتيب ويدخل في كل الأمور: في المشي وفي الكلام وفي الأكل وفي الصمت أيضاً، وفي السهر والصوم وفي الصلاة وحتى في القراءة والترنيل وفي طول الروح والصر. فهو لا يهدأ بل يصوب سهامه لكل من انتصب في الفضيلة عسى يسلبه أجرة جهاده.

فإذا لم يصبه بفجر الملاصق وزينتها، فهو يصيده بحفارنها ورداءتها؛ وإذا لم يسده عن طريق الكرامة، يحاول أن يرشقه باحتماله الهوان والمسكة؛ وإذا لم يُصَبِّه بحس الكلام والمطلق وإقامة الحجة، يحاول أن يطغيه بالصمت والسكون؛ وإن لم يقدر أن يرحيه بكثرة الطعام، يطب منه مدحة الصوم؛ وبالإحتصار فهو ينبري لكل مجاهد في كل عمل وكل ترتيب سواء بالجسد أو بالروح، لِيُسْقِطَهُ و يفسده منه، إن لم يكن بضربة شمال فبضربة يمين!

أم الجهاد ضد هذا الشيطان اللعين الذي هو الشُّبَّح الباطل والإنتفاخ، فيتلخص في أن نحترس من أن نصنع شيئاً نطرب فيه مدحاً من الناس، بل ناظرين إلى الله مشتتين عزمنا واجتهادنا نحوه في كل عمل حتى ترافقنا معونة الله.

٥٧٨ — شيطان العظمة روح خبيث لا يصيب إلا البالغين في القامة الروحية ليهدم برج فضائهم. كل لأوجاع تحارب في البدايات، ما خلا هذا الوجع الرديء، فهو يصيب في النهايات، لذلك فضرره

عظيم وكشورته شديدة. معروف أن شهوة البطن تُضَبِّط بالصوم، والربا بالعفة، وحب المال بالتجرد والمقر، والغضب بالوداعة. وأما شر العظمة فهو إذا ملك على النفس المائسة، يكون كالقائد المستقم عندما يحاصر مدينة شامخة ويطفريها فإنه يهدمها ويدكُ أساساتها! يشهد بذلك الملاك الذي سقط من السماء من علورئاسته بسبب العظمة! الذي لم يُرد أن يسد الخير والقوة التي كانت فيه إلى خالفه بل شاء أن يجمعها لنفسه. وفي ذلك يَكُنْه النبي قائلاً: «كيف سقطت من السماء يا زهرة ست الصبح! كيف قُطعت إلى الأرض يا قاهر الأمم. وأنت قمت في قبك أضعدي السموات أرفع كرسي فوق كواكب الله... أضعدي فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العلي! لكك انحدرت إلى الهاوية، إلى أسافل الجب!» (إش ١٤: ١٢ - ١٥)

ونبي آخريقول: «لماذا تفتخر بالشر أيها القوي... أحست الشر أكثر من الخير... لسانك غاش لذلك يهدمك الله إلى الأبد ويصفيك من مسكك ويستأصلك من أرض الأحياء. ينصر الصديقون فيخشون ويضحكون عليه، هذا هو الذي لم يجعل الله له عواً ولكنه وثق بكثرة عاه، وتقوى على مسكنتنا بباطله.» (مز ٥٢)

إذن، فلنحذر من شيطان العظمة وترفعه المهلك الذي يجلب الموت علينا، قائدين مع القديس بولس الرسول: «لن هذا الكبر في أو حرفية ليكون فضل القوة لله لا منا.» (٢ كو ٤: ٧)

وأيضاً «بدوني لا تصدرون أن تعملوا شيئاً» (يو ١٥: ٥)، و«إذا لم يسن الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون» (مر ١٢: ١)، وأنه «ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل لله الذي يرحم.» (رو ٩: ١٦)

لأنه مهما كان اجتهدنا واشتياقنا، فما دام اللحم والدم فينا فلن نبلغ إلى فضيلة ما إلا برحمة المسيح ومواهبه، كما يقول القديس يعقوب الرسول: «كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار.» (يع ١: ١٧)

وآباءنا لما عسموا ذلك بقيناً قالوا: «ليس من سبيل إلى وضع أساس متين من الفصائل إلا بالإتضاع وانشقاق النفس.»

الأب يوحنا كاسيان

٥٧٩ - مُحِبُّ لمديح يتحيل أساباً للمديح (أي لِيُمْتَدِّحَ بها). والمتواضع هو الذي إذا امتدح لا يستريح قلبه بالمديح.

٥٨٠ - من يقوم الآخرين باستعماله الغضب ليس متواضعاً.

٥٨١ - المضبوط بأمور هذا العالم الزائل والمرتبط ولو بشيء منها، لا يستطيع أن يكون متواضعاً ولا

بقي القلب . لأن المتواضع يكون ميتاً للعالم ، والعالم ميت له ، فلا يستميل قلبه إلى محبة شيء منه .

لذلك إن أردت أن تكون متواضعاً ، فأول كل شيء حل نفسك من أمور العالم ، واتبع الله بالرحاء والإيمان والحب وعوض العالم الذي تركته تأخذ حياة لا تزول .

٥٨٢ — في الوقت الذي تكون فيه ضعيفاً وغير قادر على عمل الخير بسبب مرض أو عارض ، ستعمل الإلتضاع مثل لعشار ، وتقدم بصلاة منكسرة ، تلك التي بها يتبرر الإنسان عند الله بدون عمل .

٥٨٣ — إذا كانت نفسك محتقرة في عينيك ، حينئذ سوف تخضع لك جوقات لشياطين ، وينفتح ينبوع المعرفة داخلك .

٥٨٤ — ما دمت في هذه الحياة ، احتقر ذاتك بذكر خطاياك على لدوم ، وعترف بها قدم لله بالرحوم بانسحاق ، فيتولد لك من هذه دالة القلب قدام الله .

٥٨٥ — يستحيل أن يترك الله قلباً منسحقاً بدون عزاء .

٥٨٦ — الذبيحة لله هي روح منسحق وقلب منكسر . والعريب عنها غريب عن رحمة الله .

٥٨٧ — وإذا وثق قلبك بعملك وفهمك ، فاعلم أن محبي التجارب قريب منك !

٥٨٨ — يسمح الله بالتجارب والعوارض لتأق على الناس حتى القديسين لكي يدوموا في التواضع . فإذا قسّينا قلوبنا تجاه العوارض والتجارب يشدد الله التجارب و يصقّبها . أما إذا قابلنا التجارب بالتضاع وقلب منسحق ، فالله سوف يمزج التجربة بالرحمة .

٥٨٩ — إذا النعمة بطرت فوجدت أن قلب الإنسان ابتداء يتحرك بفكر العظمة أو الإعتداد بالفلس ، تتخنى عنه قليلاً ليُمتحن بصعوبة الوقوف وحده قبالة التجارب .

٥٩٠ — بواسطة التجارب ندوم الإلتضاع ، ومن يدوم بلا أحزان أو تجارب ، باب العظمة والكبرياء مفتوح أمامه .

٥٩١ — لا يرفض الله إنساناً ما و يكرهه إلا إذا وجد عقله قد امتلأ بأفكار العظمة والإفتراء ، فمع حتماً في إحدى مصيبتين : إما الزنى أو التجديف . فمن يتعظم بفضيلته حتماً يقع في زنى نجس ، ومن يتعظم بخودة لعقل والعلم يقع في التجديف على الأمور الإلهية .

٥٩٢ — ليس من فكر بأفكار العظمة هو المتعظم بل من يثبت فيها . لأن مجرد الفكر العابر يكون بغير شهوة و يتبعه بدامة وحزن و يكون بسبب ضعف الطبيعة ، أما الثبوت في العظمة فيكون من وقاحة

المتعظم ومن مديح الناس.

٥٩٣ — إن نعمة الله تقف على الدوام على بُعد وتنظر في الإنسان على الدوام أثناء الصلاة، فإذا تحرك فيه فكر اتضاع فإنها في الحال تدوم معه ومعها ربوات المعونة، وذلك يكون في وقت الصلاة أكثر من بقية الأوقات!

٥٩٤ — إذا عملت فضيلة ولم تحس بندها ومفعليها فلا تتعجب، لأنه إن لم يتصع الإنسان لا يأخذ مكافأة عمله.

٥٩٥ — من الأحزان يتولد الإلتضاع، وبالإلتضاع تُعطى المواهب. فالمواهب لا تُعطى إذن للأعمال ولا للأحزان بل تُعطى بسبب الإلتضاع المتولد منها.

٥٩٦ — قبل السقوط الكبيرياء، وقبل المواهب الإلتضاع.

٥٩٧ — من أحب العظمة لا يعرف الندامة.

٥٩٨ — المتضع لا يكون محسوباً في بطن نفسه، ولا يحب أن ينمرد وحده بفعل شيء من الأمور.

٥٩٩ — إعدم أن فيامك في العفة والفضيلة ليس هو من حرصك ولا من فضيحتك، بل أن النعمة حامية عليك على راحة بدنها لئلا تتحرك فتزل. أذكر هذا دائماً، وإذا تعظم فكرك فقل: «بانا الذي في السموت» ... واسد، واحزن، وانتحب، وتمرغ على الأرض بوجهك، واذكر زلاتك لعنك تنجم من هذا الفكر وتقتني الإلتضاع. ولا تقطع الرجاء قط بل اعلم أنه بمجرد أن يملأ عقلك فكر تضاع، حينئذ تُغفر لك خطاياك بغير عمل! وكم من خطايا عظيمة صعبة استطاع الإلتضاع أن يرفعها!

٦٠٠ — ليس لنا أن نحسب كل إنسان متواضعاً كيفما اتفق. وليس كل من طبعه هادئ ووديع ومسال� يبلغ إلى درجة الإلتضاع، بل المتواضع الحقيقي من يوحد في نفسه شيء مخفي يستوجب الإرتفاع، لكنه لا يتعظم بل يكون في أفكاره كالتراب والرماد.

٦٠١ — كذلك ليس من يدكر لآله وخطاياها لكي يتواضع يسمى متواضعاً — وإن يكن ذلك حساً جداً — إلا أنه يدور فقط من التواضع ويحاول أن يصل إليه. أما المتواضع الحقيقي فلا يحتاج إلى أن يقنع ذاته أو يغضب فكره للشعور بالتواضع أو خلق أسبابه، بل قد صار طبيعياً عنده أن لا يحسب ذاته شيئاً بلا تعب، وكحاطيء مردول في عبي نفسه؛ ومع أنه يكون متداخلاً في أسرار الروح العميقة يبقى في نظر نفسه كمن لا يعرف شيئاً.

إنها قوة سرية وهبة للكمال تُعطى لتكميل الفضائل بلا تعب.

٦٠٢ — إن سأل إنسان: ماذا أصنع لأكون متواضعاً؟ أقول له: ينبغي أن يكون التلميذ كمنعمه والعبد مثل سيده، ومن قال ذلك هو الذي يقدر وحده أن يعطيك. فتشبه بذلك الذي قال: «لثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسد رأسه.» (مت ٨: ٢٠)

٦٠٣ — لا تعتمد على قوتك لنلا تُترك بصعف طبيعتك فتعرف ضعفك من سقطتك، واعلم أن كل أمر يفتخر به الإنسان يسمح الله تعالى بتغييره ليتواضع!

٦٠٤ — إن حقّرت نفسك لكي بكرمك الناس، فالرب يفضحك!

وإن أنت ازدريت بداتك واحتقرت نفسك وأعمالك في قلبك بالحق من أجل الحق، فالله يوحى إلى جميع خليقته لتكرمك.

٦٠٥ — الإعجاب بالبدات يجعل صاحبه لا يفهم أنه سائر في الظلام، فلا يدرك حكمة الروح الحقيقية فيتعظم على الناس وهو أحقر منهم. والرب يخفي عنه إرادته لأنه لم يؤثر أن يسلك في طريق المتواضعين.

٦٠٦ — حقاً، يا رب، إنك لا تكف عن تذليلنا مشى التجارب والأتعاب إلى أن تتضع نفوساً! مار إسحق السرياني

٦٠٧ — فيا أولادي، ما هو الذي أخوّج ربنا يسوع المسيح حتى شدّ وسطه بمديل وشمّر ساعديه وصبّ ماءً في مغسلة وغسل أرجل الذين هم دونه، إلا ليعلمنا الإلتضاع بهذا المثال الذي صنعه. فكل الذين يريدون الرجوع إلى رتبهم الأولى لا يمكنهم ذلك إلا بالإلتضاع.

٦٠٨ — قد قيل عن دبور أنة لما حصل لها من الله تلك الرفعة العظيمة حتى تدير الشعب جميعه لأنها كست قاضية لإسرائيل، لم يرتفع قبها، بل كانت تذكر طقس النساء وتقون أن الرجل رأسها. فلما رأت أن تحارب سيسرا الملك أرسلت لباراق وأعطته السلطة لكي يمضي ويحارب سيسرا، ولكن لقديس باراق لم تضلّه هذه الكرامة ولا سبي تدبير الله، بل قال لها: إن كست تنطيني معي فأنا أنطلق. لأنه كان يعلم أن الله معها. فانظروا، يا أولادي، كيف أن كلاً منها كان يعطي الكرامة للآخر.

٦٠٩ — ربنا يسوع المسيح نفسه قال عن ذاته أنه جاء ليتخيم!

٦١٠ — إعلموا، يا أولادي، أن كثيرين يسعون للإلتضاع، ولكن ليس بحقيقة قلوبهم. فهم يظهرون أنهم يتضعون أمام الناس وفي داخلهم لم يصلوا إلى الإلتضاع الحقيقي. لأن الإلتضاع الحقيقي يكمل

حينما يحمل الله فينا ونراه، كإشعيا الذي لما رآه قال: «الويل لي إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين.» (إش ٦: ٥)

٦١١ — جميع الخطايا مرذولة أمام الرب وبالأكثر كبرياء النفس. يا أحبائي بكنوا نفوسكم وحدكم، واعترفوا بخطاياكم ودرس نفوسكم، لكي يرفعكم الرب.

٦١٢ — يسوع المسيح قال: «مجداً من الناس لست أقبل.» وأكمل القول في موضع آخر أن: «ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حساً.» إذن، فلجاهد نحن حتى إلى الموت ضد روح المجد الساطل. إهرب أنت، يا حبيبي، من مجد الناس ومدحهم، فقد مات كثيرون من جراء ذلك، وتحول جهادهم وتعبهم وصلواتهم وصدقاتهم إلى خزي وعار. فإن كنت متضعضعاً فلا تحرجوا الأعمال العظيمة ذات المخر، بل اهرب منها، واحتر لنفسك مسكة القديسين وانشقاقهم لكي يدركك كلام الله: «طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السموات.» (مت ٥: ٣)

أبا أنطونيوس الكبير

ملخص المبادئ الهامة:

- (١) عمل النعمة في النفوس المبتدئة يكون قليلاً وبقدر محدود، لئلا يسقط الإنسان في الغرور والإعتداد بالذات.
- (٢) الله يسمح لأولاده بالمحن والتجارب لتتقى نفوسهم من الكبرياء، ويجذبهم إلى التواضع والانشقاق. أما من يتضجر منها ولا يحتملها تزداد وتتضاعف عليه.
- (٣) الصلاة المنسحقة لها قوة وفاعلية كبيرة، فتستجاب في الحال كصلاة العشار، وتجلب رحمة الله ومعونة النعمة.
- (٤) المواهب والمكافأة لا تُعطى من أجل الأعمال، بل بسبب الإلتضاع والحب الذي عُملت لأجله.
- (٥) روح الكبرياء يجعلك تعتبر كلام الوعظ والصلاة أنه ليس لك وأنت بريء من الخطايا.
- (٦) إنسحاق النفس يجعلك تشاق إلى احتمال الإهانة والتوبيخ، لا تنازلاً منك، بل كمستحق لها.

- (٧) إنسحاق الروح لا يتفوق التمتع مع الغضب والأخذ بالثأر ومقاومة الشر بالشر.
- (٨) الإجابة الفاسية واستعمال الكلمات اللادعة الشديدة دليل كبرياء النفس.
- (٩) إنسحاق الروح لا يتناسب مع التأني في المجلس وزينة الحسد الخارجية.
- (١٠) البرودة في الصلاة دليل عدم لشعور بالخطايا، وهذا بسبب الكبرياء الخفية.
- (١١) الإفتخار بالتقدم في حياة الفضيلة هو ضد روح الإنسحاق. فالقديسون كلما ازدادوا في الفضيلة ازداد شعورهم بالعجز والنقص وصارت أنفسهم مرذولة لديهم جداً.
- (١٢) ليس من يدم ذاته ويؤلم نفسه هو المسحق، بل الذي يحتمل المذمة من الآخرين ويسمع ملامته ولا يتغير قلبه.
- (١٣) الإعجاب بالنفس هو بداية الكبرياء، وسببه محبة النفس وسماع المديح.
- (١٤) النفس المعجبة بذاتها تتصعق فضائل ليست موجودة فيها.
- (١٥) الصلاة الحزينة المسحقة وتغير النفس بخطاياها هو علاجها الوحيد من العُجب والخيلاء.
- (١٦) حب الرئاسة يعمي قلب المتعظم، وعلاجه عند الله بسقطة مرة.
- (١٧) القلب الحساس للهفوات والحزن عليها والكثير المحاسبة لنفسه، هو قريب من الإلتضاع.
- (١٨) المفتخر بالفضيلة، ولو في قالب الشكر لله، قد لمس شيطان الإعجاب بالذات؛ ومصيره السقوط إن لم يكف عن طلب مديح الناس، ويضع خطاياها أمام عينيه.
- (١٩) المنسحق النفس لا يستريح إلى مديح الناس.
- (٢٠) إذا كَرَّمْتَ نفسك احتقرك الله والناس. وإذا احتقرت نفسك كَرَّمَك الجميع.
- (٢١) إذا حَفَرْتَ نفسك لكي يكرمك الناس فالرب يفضحك.
- (٢٢) المنسحق النفس لا يُقَدِّم على عمل يميّزه عن غيره.

(٢٣) كل أمر يفتخر به الإنسان، يسمع الله تعالى بتغييره ليتواضع هذا الإنسان.

(٢٤) الرب يخفي إرادته عن المتعظم.

(٢٥) الرب لا يكف عن إذلالنا بشقى التجارب والأتعاب إلى أن تتضع نفوسنا.

(٢٦) ليست العظمة أو الكبرياء مجرد الفكر الذي يعرض لنا ثم يزول، بل هي محبتنا للعظمة وميلنا إلى الإرتفاع.

(٢٧) المتواضع الحفيقي من يوحد في نفسه شيء مخفي يستحق ويستوجب الرفعة، ولكنه لا يتعظم بل يكون في أفكاره مثل تراب ورماد.

(٢٨) المتواضع الحفيقي لا يحتاج أن يقنع ذاته أو يعصب فكره لشعور بالتواضع أو خلق أسبابه. بل قد صارت طبيعته متواضعة وحقيقة نفسه منسحقة وبلا تغضب يحسب نفسه دائماً لا شيء.

(٢٩) انسحاق الروح يكون في السوء صعباً وشاقاً، وبعد ذلك ترتاح له النفس جداً ولا ترضى أن تحيد عنه.

(٣٠) الرب غسل أرجل تلاميذه، فإذا عملت أنت؟

يسوع المسيح قال: «مجداً من الناس لست أقبل»، أفتقبل أنت؟

يسوع المسيح قال: «ويل لكم إذا قال فيكم جميع لباس حسناً» (لوقا: ٢٦: ٢٦) ! فهل تريد أن يمدحك الناس؟



الفصل الرابع

الإيمان والمشاركة

- + «ينبغي أن يُصَلَّى كل حين ولا يُملَّ». (لو ١٨: ١)
- + «كل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين نالونه». (مت ٢١: ٢٢)
- + «بدون إيمان لا يمكن إرضاءه، لأنه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موحود وأنه يجازي الذين يطلبونه». (عب ١١: ٦)
- + «لم تفاوموا بعد حتى الدم مجاهدين ضد الخطية». (عب ١٢: ٤)

أهم رباط يربط الله هو الإيمان: «بدون إيمان لا يمكن إرضاءه. لأنه يجب أن اندي يأتى إلى الله يؤمن بأنه موجود وأنه يحازى نفس بطوبه.» (عب ١١: ٦)

والإيمان يُعتبر أعظم موهبة مُبَحَث للبشر، لأن به نحصل على الخلاص من عبودية الخطية والموت: «من آمن واعتمد خُص ومن لم يؤمن يُدَن.» (مر ١٦: ١٦)

والذى يؤمن يستطيع أن يعمل كل شيء؛ ليس في الأشياء المستطاعة لدى البشر فقط س وفي الأشياء غير المستطاعة أيضاً: «... تقولون لهذا اجل اتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن بديكم» (مت ١٧: ٢٠)، لأن «كل شيء مستطاع للمؤمن» (مر ٩: ٢٣). وقد أعطى الرب يسوع، تبارك اسمه، سلطاناً للذين يؤمنون به أن يعمموا أعماله التي عملها و يعمموا أكثر منها: «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها.» (يو ١٤: ١٢)

وما هو الإيمان؟

الإيمان ليس هو شعوراً أو إحساساً أو عاطفة.

وليس هو دعوة مبهمه عمياء نحو أشياء غامضة.

وليس هو رغاء النفس لشعور بوجود الله والأشياء غير المنظورة.

وليس هو احتيالاً على النفس للإقناع بالخلاص والبرير والفداء.

وليس هو فعلاً داخياً مصطنعاً لإراحة النفس من جهة ما هو غير مُدرك بالحواس.

كذلك ليس هو كتأ ومصادمةً للشكوك التي تحوم حول المواضيع التي لا يقبها العقل المادي بسهولة.

وليس الإيمان شيئاً تحصيياً يحتفظ به الإنسان لنفسه، و يتعذر أن يتشارك الجميع في دوائفه. وهو أيضاً ليس رأيك الخاص. وليس هو اقتناعاً عقلياً وليد التحليل والمقياس والمقارنة. كذلك ليس هو ثمرة البراهين العلمية:

(أ) الإيمان هو تصديق العقل للحقائق الإيمانية في قبول ورضى.

و يلزم للعقل في البدء أن يتقبل هذه الحقائق و يسلم ذاته للإيمان بغير مقاومة أو فحص، مقدماً كل قواه التصويرية والفكرية، وأن يتحلى راضياً عن كل قياس ومقارنة.

فإذا أعلل العقل هذا الخضوع وقدم التسليم الكامل لكل حقائق الله والإيمان، ففي هذه الطاعة المحبوبة يتقدم الروح القدس و يكشف للعقل كل ما يتعلق بهذه الحقائق الإيمانية: «الروح القدس ... يعلمكم كل شيء» (يو ١٤: ٢٦)، «حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب» (لو ٢٤: ٤٥). فيفقد العقل في نور المعرفة الروحانية الجديدة حتى يوصيه إلى الحق ذاته أي الله: «ألم أقل لك إن آمنتَ ترين مجد الله.» (يو ١١: ٤٠)

«طوبى لك يا سمعان بن يونا إن لحماً ودماً لم يُعين لك، لكن أبي الذي في السموات.» (مت ١٦: ١٧)

وبعد أن يقبل العقل هذه الحقائق الإيمانية بكل خضوع وتسليم و يستنير بالمعرفة الروحانية؛ يرى أن كل قواه التصويرية والفكرية وكل فحص وقياس ومقارنة، إنما تريد هذه الحقائق وضوحاً وثباتاً. بل ويجد أن هذه الحقائق الإيمانية قد أفاضت على عقله اتساعاً ونمواً وتجديداً.

أما الذي يدعونا أن نخضع ونسلم للحقائق الإيمانية، فهو أنها أمور أوحى بها من الله. ولا أحد غير الله بمستطيع أن يعلنها و يكشفها و يوضحها لنا. فلا المنطق ولا الفلسفة ولا التعليل لطبيعي ولا أي شيء مما تدركه الحواس جميعاً يستطيع أن يجعلنا ندرك هذه الأشياء في ذاتها، لأنها ليست من هذا العالم!!!

(ب) فالإيمان بالله هو قبول معرفته على أساس الحقائق التي أعلنها هو عن ذاته بنفس كلماته واصطلاحاته.

إذ أن الله لما عرف عجز العقل البشري وقصوره المطلق عن إدراك شيء من حقائق الله من تلقاء ذاته، أعلن هو ذاته لنا وكشف عن كل ما يختص بنفسه بالنسبة لنا. حتى إذا ما قبلنا هذه الحقائق، قبلناه هو وآمنا به: «إن أحبني أحد يحفظ كلامي» (يو ١٤: ٢٣). فإذا آمن به وحفظنا وصاياه فحينئذ هو سوف يكمل عجز إيماننا بإظهار ذاته لنا: «الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني والذي يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له داني.» (يو ١٤: ٢١)

(ج) ومعرفتنا بالله ستظل ناقصة إلى أن نعرفه كما هو في ذاته.

أما هذا « فأعلنه الله لنا نحن بروحه لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله »
(١ كور ٢: ١٠)، « أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟ الذي رأيته فقد رأى الآب. فكيف تقول أنت أرنا الآب؟ » (يو ١٤: ٩)

وما سؤال فيلبس هذا إلا هاتف يبحث عن كمال الإيمان، وهذا ما يحور في قلب كل واحد منا! وقد أجاب المسيح تلاميذه: « أنا في الآب والآب فيّ » (يو ١٤: ١٠)، فكيف يكون لنا نحن أن نرى المسيح حتى نعرفه فعرف الآب أيضاً؟

قد أجاب المسيح عن هذا السؤال: « لست أسأل من أجل هؤلاء فقط (أي تلاميذه) بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم ليكون الجميع واحداً كما أنت أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا. » (يو ١٧: ٢٠ و ٢١)

(د) إذن، فالإيمان الحي هو إدراك الله في ذاته وفينا بالروح القدس.

(هـ) والإيمان والثقة بمواعيده هو الإيمان به.

وللإيمان ثلاثة أعداء: الاستناد على المعرفة الطبيعية؛ والخوف؛ والشك:

أولاً: الاستناد على المعرفة الطبيعية: يمنع عمل الإيمان ويستبعد تصديق فاعيته.

فالمعروف في الطبيعة أن الإنسان لا يستطيع أن يسير على الماء أو ينشق الجبال أو ينتهر الرياح والأمواج أو يصمم الموتى. أما الإيمان فلا يقيم للطبيعة وقوانينها وزناً، فهو يستطيع أن يعمل كل هذا وأكثر. لذلك إن تمسك الإنسان بمعرفته الطبيعية وقياساته المطفية تعطل إيمانه: « قال يسوع ارفعوا الحجر. قالت له مرثا يا سيد قد أنت لأن له أربعة أيام. ولها يسوع ألم قل لك إن آمنت ترين مجد الله! » (يو ١١: ٣٩ و ٤٠)

وهكذا المعرفة الطبيعية تشيء خوفاً، والخوف لا يدع مجالاً للإيمان. فواضح أن الحيات ولعقارب مؤذية للغاية، فجرد رؤيتها يثير في النفس الفزع والخوف، إلا أن الإيمان يراها محسوفات مباركة من قبل الرب فلا يجد في منظرها ما يدعو إلى الخوف: « ها أنا أعطيك سبطاً بتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ولا يضركم شيء » (لو ١٠: ١٩). العنم تثب أن السم مميت لكن الإيمان لا يعرف أن الموت في السم: « يحمون حيات وإن شربوا سمًا مميتاً لا يضرهم » (مر ١٦: ١٨). وهكذا يرى أن المعرفة تجذب من عمل الإيمان وتقف

حائلاً دون تكميم عمله .

ثانياً: الخوف: وهو دليل على اتمسك بالنفس والعطف على الذات، فهو مظهر من مظاهر حب الذات، لذلك فهو يقف ضد الإيمان ويضعفه ويحرم الإنسان من ثمرته . لأن الإيمان في ذاته هو خروج عن الذات وبكار للنفس بدافع محبتنا لله والناس، والمؤمن الحقيقي هو الذي سلّم نفسه وجسده لله، وهو لا يخشى شيئاً قط، مُلمياً كل ثقتة على مواعيد الله الصادقة: «من آمن بي ولومات مسيحياً» (يو ١١: ٢٥) . هكذا قدم إبراهيم ابنه: «إذ حسب أن الله قادر على الإقامة من الأموات» (عب ١١: ١٩)؛ كذلك تقدم الفتية الثلاثة إلى أتون النار غير خائفين، واثقين أن الله يحفظهم من لهيبها: «يا نبوخذ نصر لا يزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر، هوذا يوجد إلهنا الذي نعده نستطيع أن ينجيننا من أتون النار المتقدة وأن ينقذنا من يدك أيها الملك.» (دا ٣: ١٦ و ١٧)

ودانيال أيضاً لما ألقوه في جب الأسود وثق بإلهه: «فأصعد دانيال من الجب ولم يوجد به ضرر لأنه آمن بإلهه.» (دا ٦: ٢٣)

فلكي ندرك خطورة الخوف وضرره على حياتنا الروحية، يجب أن نتأمل هذه الآية: «وأما الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والفاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وجميع لكذبة فنصيبهم في البحيرة المتقدة بار وكبريت الذي هو الموت الثاني.» (رؤ ٢١: ٨)

ربما تعجب أن الخائفين وُضعوا في رأس هذه القائمة المشئومة، ولكن سبب ذلك أن الخوف هو الذي يُسقطنا في جميع هذه الخطايا .

ثالثاً: الشك: ربما يتراءى لك أن الشك هو درجة بسيطة من درجات الخوف، إلا أن العكس هو الصحيح . فالخوف مظهر من مظاهر عجز المعرفة . وأما الشك فهو حطية موجهة ضد الله مباشرة؛ فهو عدم تصديق وعود الله ! والشك هو الذي يولد الخوف . لأن الشك هو بتداء ضعف الثقة بالله وأما الخوف فهو الابتعاد التام عن الله؛ فطرس الرسول لما رأى الريح شديدة فذّر بمعرفته أنه لا يستطيع أن يكمل المسير فحاف وابتدأ يغرق . والسر الأساسي في عجز إيمان بطرس هو أنه شك في أمر الرب وهذا ما كشفه له السيد الرب بوضوح: «يا سيد إن كنت أنت هو فمُرني أن آتي إليك على الماء . فقال: تعال . فنزل بطرس من السفينة ومشى على الماء ليأتي إلى يسوع، ولما رأى الريح شديدة خاف، وإذا ابتداء يغرق صرخ قائلاً: يا رب نجني . ففي الحال مد يسوع يده وأمسك به وقال له: يا قبيال الإيمان لماذا شككت؟»

(مت ١٤: ٢٨ — ٣١). لذلك أوضح يعقوب الرسول أن أي شك أو ارتياب يعترى سؤالنا وطلبتنا فإنه يكون سبباً لحرماننا من نوال أي ثمرة لجهادنا:

— «ولكن ليطلب بإيمان، غير مرتاب البتة؛ لأن المرتاب يشبه موجاً من البحر تخطئه الريح وتدفعه، فلا يظن ذلك الإنسان أنه ينال شيئاً من عند الرب.» (يع ١: ٦ و ٧)
 — «لأنني الحق أقول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون، فهذا قال يكون له. لذلك أقول لكم كل ما تطبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم.» (مر ١١: ٢٣ و ٢٤)

والمثابرة على الصلاة والعبادة هي إحدى علامات فاعلية الإيمان. فإذا كان الإيمان هو دعامة الحياة الروحية، فالمثابرة هي الحجارة التي يُشاد بها البناء جميعاً.
 ولكي ندرك قيمة روح المثابرة في الصلاة علينا أن نلقي نظرة إلى روح اليأس.

فاليأس هو حماقة الكبرياء وغلظة الرقبة. وليس أدل على ذلك من أن الإنسان اليأس يفضل شقاء الجحيم الأبدي وهو يتبع مشورة نفسه وكبرياءه وعناده، على أن يخضع لله ويتقبل من يديه خلوه هذه الحياة ومُرَّها ليعال منه إكليل الحياة الأبدية.

وهكذا تظهر روح المثابرة كعلامة اتضاع وتسليم. والإنسان المثابر على الصلاة والعبادة لا يشعر في نفسه أنه كفؤ لشيء أو أن نفسه تكون محسوبة عنده، فهو يثابر في خضوع وطاعة لأنه لا يستطيع أن يتوقف عن المثابرة والخضوع. فعلى ماذا يعتمد ونفسه ضعيفة غير محسوبة في عينيه؟ «فقال يسوع للإثني عشر أعلحكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا؟ فأجابه سمعان بطرس: يا رب إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك!» (يو ٦: ٦٧ و ٦٨)

روح المثابرة منشأه اقتناع داخلي بأن الحياة طريق واحد فقط يؤدي إلى المدكوت، فالمثابرة على السير هي الطريقة الوحيدة إلى الوصول، وهي الطريقة الوحيدة أيضاً للتغلب على الصعاب.

أما التوقف في الطريق لأية علة كانت فإنه دليل على الوقوع في فخ لشيطان: «فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو ١٢: ٣٥)، أي طالما أنتم تسكرون فالنور معكم وهو يقودكم، فإذا توفقتم فإن الظلام — أي العدو — يدرككم في الحال.

أما الرجوع عن هذا الطريق فهو دليل خيبة النفس وفشلها ووقوعها في كبريائها المميتة

وارتضائها بالهلاك: « ليس أحد يضع يده على المحراث و ينظر إلى الوراء يصلح للملكوت الله. » (لوقا: ٩: ٦٢)

والمعجيب أن استراحة السائرين في طريق العبادة والصلاة هي في مضاعفة السير والجهد!!!

وكلمة « الإيمان » πίστις تُستخدم أرثوذكسياً في معنيين محددين:

الأول: موضوعي محض، ويخص حقيقة الإيمان ومنطوقه كما يشرحه الإنجيل، وتسجده قوانين الكنيسة حرفياً، وتشرحه منطقياً في تعبيرات واصطلاحات ثابتة ومستقرة، بحكم المجامع ورأي أئمة اللاهوتيين.

وفي هذا المعنى الموضوعي للإيمان لا يمكن أن تلتحم الحقيقة الإلهية مع العقل والمنطق إلا بتدخل النعمة.

الثاني: شخصي محض، ويخص قدرة القلب على الإنفعال المباشر لله شخصياً، إنما بمقتضى الحقائق الإيمانية.

وفي هذا المعنى الشخصي للإيمان يخضع الإنسان بكل قلبه، أي بكل كيانه، لله وبالتالي لكل وصاياه عن حب وطاعة وليس عن طريق العقل والمنطق، على أن يدخل العقل والمنطق كخادم للحب والطاعة وليس كمحرك أو متسلط: « الإيمان العامل بالحب. » (غل ٥: ٦)

ومن هذين التعريفين للإيمان يتبين:

أن الإيمان الموضوعي يحتاج إلى فكر وعقل ومنطق ودراسة واقتناع حتى يبلغ الإنسان درجة التشبع التي لا يمكن أن تبلغ درجة التصديق إلا بالنعمة.

أما الإيمان الشخصي فهو يحتاج إلى حب وطاعة ودانة شخصية كأساس حتمي حتى يبلغ بها الإنسان إلى صلة بالله عميقة، قوامها الأمانة والثقة المطلقة في الله نفسه في كل الأمور والأحوال والظروف، يكون من نتيجتها الاعتماد الكلي عليه والاستسلام المطلق لمشيئته مهما اصطدم هذا الإيمان أو هذه الأمانة بالواقع أو المنطق أو العقل.

لذلك فالكنيسة الأرثوذكسية تتمسك بأن الإيمان بكل معنييه الموضوعي والشخصي هو

« هبة » وسعمة ، لأن الموضوع فيه يختص بالتجسد والقيامة ، وهذان عملان فائقان على لطبيعة . كما أن متطلباته الشخصية تنتزم بأعمال تفوق القوانين الطبيعية ، فالذي يؤمن بالله حملاً يتحم عليه أن لا يشي شيئاً ولا يخاف شيئاً ، وهذان عملان فائقان أيضاً على القوانين الطبيعية : « بدوني لا تقدر أن تفعلوا شيئاً . » (يوحنا ١٥ : ٥)

على أن الذي يجعل الإيمان فضيلة أيضاً ، فوق أنه هبة ، هو احتياجه الأساسي إلى إرادة الإنسان . فالإنسان لا يمكن أن يقبل الإيمان إلا إذا أراد أن يؤمن ! ولكن ليس المطلوب في الإيمان مجرد إرادة بل إرادة مدعنة ، إرادة موافقة منذ اللحظة الأولى حتى يمكن أن يفتح العقل لحقائق تفوق المعقول . فالإرادة المدعنة الموافقة تجعل العقل يفتح لقبول شيء جديد عليه ، والعقل المفتوح المستعد يصبح وعاءً يصلح لإنسكاب النعمة مع الحق الإلهي جنباً إلى جنب ، حينئذ يصبح غير المعقول معقولاً والفائق للطبيعة مقبولاً للطبيعة !!

لذلك يقول القديس أوغسطينوس : [إن الإيمان تفكير يلزمه الإدعان .]

وهذه الإرادة المدعنة الموافقة هي العنصر الأساسي الذي يجعل الإيمان عملاً نُجازى عليه . وهكذا فالإيمان هو — بأن واحد — هبة وفضيلة . أي أنه عملُ نعمة وعملُ بشريٍّ معاً . فالإنسان بإرادته يستجيب لإيحاء النعمة وإلحاحها ، والنعمة من فضيها تستجيب لنشاط الإنسان ومادرتة !! وهذا المعنى يتصالح في ذهنا مبدأ الإيمان والعمل عند كلٍّ من بولس الرسول ويعقوب الرسول .

ومن هذا يتضح لنا أن إرادة الإنسان حرة أن تستجيب فتؤمن ، وحررة أن لا تستجيب ولا تؤمن . لذلك يقول بولس الرسول أن « الإيمان ليس للجميع . » (٢ تس ٣ : ٢)

ومن هنا أصبح إرادة الإنسان شيئاً جوهرياً في الإيمان ، وهي بحد ذاتها عمل ، فالإيمان يتبرر الإنسان ! لذلك نجد المسيح يشدد أحياناً على توفر عنصر الإرادة بمفرده كمدخل للإيمان حتى يُحتسب أهلاً لاستجابة الله ، كما في حادثة الخلع بسؤاله له : « أتريد أن تسراً ؟ ... كما أننا نجد المسيح في مواضع أخرى يشدد على عنصر الإيمان في الإرادة ، وذلك نحوه في صراخ الأعمى وراءه وفي الأعميين الذين تبعاه طبيباً لشفاء ، حيث عنصر الإرادة متوفر جداً ؛ ولكن نجد المسيح بالرغم من ذلك يستفسر عن عنصر الإيمان في هذه الإرادة : « أتؤمن أني أقدر أن أفعل هذا ؟ » (مت ٩ : ٢٨)

وفي هذين المثلين نجد أن الإرادة أدت إلى الإيمان، والإيمان حقق المعجزة. لذلك نستطيع أن نقول إن الإيمان هو إرادة التصديق يلتزم بها في الحال فعل النعمة فتوثق المعجزة، وأقوى معجزات الإيمان هي التسليم المطلق لله الذي من خلاله يدخل الإنسان بالفعل في شركة الحياة الأبدية معه.

هذه بخصوص الإيمان بالله في صورته العامة، ولكن إذا أدخلنا عنصر الفداء والإيمان بالمعادي شخصياً، نجد أن الإيمان يتجه في الحال اتجاهها جديداً نحو المحبة، لأن الإيمان بالفداء يعني إيماناً بالمحبة الأبوية المتجهة من الله نحونا مجاناً وبإصرار وبتضحية باهظة. هذه المحبة انفعالية حينما تستمر في القلب بإحساس واقعي، تجعل الإيمان بالله يتحرك حركة انفعالية وجدانية جارفة تتغلغل في صميم حياة الإنسان فتبعث فيها نبضات التكريس والبذل وتقديم النفس كلها لله. فالفداء الذي أكمله الله لنا بدم ابنه، أصبح بمثابة هيب قاسٍ قاهر لبرودة الإنسان، يرفع درجة حرارة الإيمان إلى أقصى ذروتها حتى يكاد الإنسان يشتهي أن يذبح حباً لله.

فبعد أن كان الإيمان يمثل مجرد تصالح بين إرادة الله وإرادة الإنسان، يصبح في مجال الفداء قادراً بالحب الدموي أن يوحد بين الإرادتين!!

أما أثر ذلك بالنسبة لوصايا الله ونواميسه الأخلاقية، فبعد أن كانت الوصايا والنواميس في ظل متطلبات الإيمان (بدون الفداء) تمثل، باستمرار، التعارض بين إرادة الله وإرادة الإنسان، أصبحت هذه الوصايا والنواميس في مجال «الإيمان العامل بالمحبة» — أي في مجال لفداء — هي بعينها «روح وحياة»، إذ لم تعد مكتوبة بالحرف كصكٍّ ضد الإنسان، بل صارت مكتوبة بالروح القدس على صفحات القلب المحب كميحة قوة للحياة والتجديد. وهكذا تصبح الوصية التي كانت للموت، هي نفسها قوة حياة داخلية للإنسان الذي آمن بالمسيح!! وبعد أن كان تنفيذ الوصية حسب حروفها المكتوب أمراً عسيراً بل ومستحيلًا كقول بطرس الرسول: «لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله» (أع ١٥: ١٠)، أصبح بالنعمة أمراً ممكناً بل ومحبوياً جداً وسهلاً للغاية بسبب الإيمان الفعال بسر محبة المسيح!!

إسمع ما يقوله في ذلك القديس مكار يوس الكبير:

٦١٣ — إن من صميم الدين المسيحي أن يذوق الإنسان نعمة الله، هذه المدافعة هي من عمل الروح القدس كتنفُّص منه، ولكن في نفس الوقت هي من جرّى تأثير ثقة الإيمان لتامة الفاعلة في القلب.

لأن كل الذين هم بنو النور وخدام العهد الجديد بالروح القدس لا يتعلمون شيئاً من البشر لأن تعبيهم يكون من الله، لأن النعمة ذاتها تكتب في قلوبهم نواميس الروح، فبذلك لا يحب أن يتكبروا على الكتب فقط، لأن نعمة الله تكتب سُور ونواميس الروح والأسرار السماوية على صحيفة القلب أيضاً، ويتوسط القلب ويملك على حركات الجسد ويسمو عليها، وإذا امتلكت النعمة مراعى القلب في أيديها أصبحت مطلقة في تدبيرها لجميع الأعضاء والأفكار.

(العظة ١٥)

وهكذا نرى أن الإيمان، بدخول عنصر الفداء فيه، تحول إلى محبة متبادلة مع الله. فالإنسان لم يعد مُطالباً بالإيمان بالله من طرف واحد، كيثقل بحمله تحت نير وصدا صعبة خشية العقاب والموت، بل صار مُنعماً عليه بالإيمان بالمسيح بموهبة المحبة المتبادلة مع الله التي فيها يصير محسوباً لله الآب مجاناً: «الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وستم لي من عند الله خرجت.» (يو ١٦: ٢٧)

وبسبب محبة الله المنسكبة في قلوبنا بالروح القدس أصبح للإيمان قدرات جديدة فائقة للطبيعة ومدهشة، لأن الإنسان لم يعد هو الإنسان القديم بل صار شيئاً آخر متحداً بقوة إلهية في كل كيانه.

إسمع ما يقوله القديس مكار يوس الكبير:

٦١٤ — لذلك إن كان أحد يحب الله فالله أيضاً يصب محبته فيه، فإذا أوثمن الإنسان على محبة الله يريد الله من الإيمان فيصير إنساناً آخر، حتى أن كل ما تقدمه (تكرسه) لله من أعصايت حط هو شيئاً مثله من خاصته، وبذلك تستطيع أن تنم أعمالك بنقاوة ويكمل حبك له وتصي إليه.

(العظة ١٥)

أما بخصوص قيمة الإيمان في اللاهوت النسكي أي في الحياة الروحية عموماً بما فيها الصلاة؛ فإننا في تنمُّدنا على القديسين لم نجد في الحقيقة من وقى هذه لعلاقة حقها مثل القديس مار إسحق اسقف نينوى، ولكن بسبب استفاضة هذا القديس العظيم في موضوع الإيمان الذي يسميه الأمانة، ولغزارة مادته، اضطررنا أيها القارئ العزيز أن نحصن لك جميع مبادئه التي وردت ضمن أقواله، ووضعناها في كلمات مختصرة. لأنها تصيب اهتمامك وتزيد من إيمانك:

مختصر مبادئ القديس مار إسحق في موضوع الإيمان والمثابرة:

٦١٥ — تحقيق الإيمان بالله ليس هو في صحة الاعتراف، وإن كان هذا يُعتبر أساس الأمانة بالله.

من إيم يتحقق الإيمان بالله و يظهر من عمل كقوة داخل النفس عند تداعل الإنسان في لسيرة الروحانية بما يتفق مع وصايا المسيح التي هي نور النفس وضياؤها.

٦١٦ — الأمانة في الله هي أجنحة الصلاة.

٦١٧ — الإهمال والكسل يحيان الإنسان من معونة الله وبالتالي يرعرعان أمانة الإنسان بالله.

٦١٨ — كل شيء مستطاع للإيمان، إذا كان نظر الإنسان يتثبت في الله وليس في الأمور.

٦١٩ — إن كنت تشق سياسة الله وتديره وتؤمن أنه يصطد جميع أمورك فلا تستعمل لتحايل البشري.

٦٢٠ — سُكْر الأمانة بالله، وإحساس الإنسان بقوة الله الفائقة، يشفي ضعف حواس الإنسان، ويعطي شجاعة للنفس تطأ بها حاجز المراثيات لترى ما بعده.

٦٢١ — الأمانة بالله تشجع العقل.

٦٢٢ — من انتحارب بصبي المعونة، ومن المعونة الإلهية نفتي الأمانة بالله.

٦٢٣ — الأمانة بالله تتبع البساطة.

٦٢٤ — الرجوع عن طريق الأمانة، بعد سلوكها وتدوئ أسرارها، حطرت لأنه يُفقد الإنسان قوة الأمانة ويُعديمه المعرفة.

٦٢٥ — الأمانة بالله تفتح السبل أمام الإنسان لتدوئه مؤررة الله ومعونته في التحارب؛ وتهب الإنسان حراءة أن بطأ المصاعب مفتعياً وراء المعونة الإلهية خفية؛ وشيئاً فشيئاً يفتتح للإنسان أنه ليس كفوئاً أن يدبر نفسه بالمعرفة.

٦٢٦ — في الصلاة عندما يبلغ الإنسان درجة الأمانة بالله لا يعود يصبي بطبات لأنه يطر العناية الإلهية بعين الإيمان وهي تطل عليه، فلا يعود الإنسان يهتم بتدبير نفسه. ويحسن الإنسان بمعاونة الله بصورة لا يمكن أن يصدقها الناس.

٦٢٧ — الأمانة بالله هي فكر واحد بسيط لا يتغير ولا يضعف، بعيد عن كل تصنع أو حيلة أو مكر أو تفتيش أو فحص أو شك.

٦٢٨ — لذلك فالأمانة بالله هي ضد سُئ المعرفة البشرية، وهي أحياناً كثيرة تسطّرها وتسخر منها. لأن المعرفة البشرية خارجاً عن المحص والتفتيش والرؤية والشك لا تعمل، تحمّظ حدود الطبيعة وتلتزم بقوانينها في سائر طرفها وتحتس من أديتها وتحشها. أما الأمانة بالله، فهي فوق الطمع تحمل أشكائها ومسدكها، وبسطة تستعمل كل شيء، تسلك ضد لطبيعة وفوق حدودها، تسير على الماء ولباروتها حية والأفعوان وتسحق لأسد وانس، وبشرت سُقاً ممتاً لا يضرها شيء.

٦٢٩ — فالأمانة بالله تزعزع أبواب المعرفة وتنقض طرقها القديمة.

٦٣٠ — المعرفة البشرية تظهر دائماً فقيرة محتاجة، تعتمد على الحيلة لتحفظ مفتها.

أما الأمانة فكأنورها لا تنضب، ولذي يتبعها يسد نفسه حتى ولو لم يكن يملك شيئاً، فهو الإيمان يصلي فيس كل شيء. فالذي به الأمانة لا يهتم بشيء لأنه يتكل على الله، ولا يعرف التحايل لأنه لا يقتني، وهو لا يقتني لأنه لا يخاف.

المعرفة البشرية تمدح الخوف والإحتراس، وتقف عاطلة أمام العوارض الصعبة التي تفوق المعرفة. ولأمانة بالله تقول إنه: «لما خاف بدأ يعرف»! والله يقول: «لا تخف مهم لئلا أكسرك قدامهم»!

٦٣١ — لمعرفة البشرية تمدح السير بالحدرو والفحص والقياس قبل البدء بالعمل لئلا يضل العمل.

ولأمانة تقول: «كل شيء مستطاع لدى الله»، و«أستطيع كل شيء في المسيح الذي يصوني».

٦٣٢ — يا ليعني الأمانة ويا لفيص قوتها، ما أكثر عزاءها وما أحلى السير معها وما أسهل نيرها!

٦٣٣ — الذي استحق مدافعة الإيمان ثم عاد ورجع إلى طريق الخيل والمعرفة البشرية يشبه من قايض جوهرة بفلس نحاس.

٦٣٤ — نحن لا نزدري بالمعرفة، ولكن بدون الإيمان يظهر لنا نقصها.

والمعرفة غير مردولة، ولكن الإيمان أعلى منها وأشرف.

والمعرفة جُعِلت للإنسان لكي يتدرج بواسطتها ليدخل الإيمان.

٦٣٥ — ليس قول الإيمان يعني أن يؤمن الإنسان بالثالوث الأقدس وطبيعته وخواصه وتبدير

لتحسد الإلهي، بل أعنى بالإيمان النور الذي من النعمة يشرق في النفس، وشهادة لصمير يتقوى لقلب ويثق بدون انقسام وبقتناع الرجاء الخالي من كل الطنون والأوهام. وإيمان هذا الوصف لا يمكن احصاء عليه من التقليد أو سماع الأذن. بل هو قوة الباركلية التي وهبت لتحل على الإنسان في كل وقت وزمان، الذي يشعر كل حراء انفسه بالإيمان كممثل البار، حتى أن الإنسان يجسر على الأشياء الخطرة بثقة مطلقة في الله.

٦٣٦ — الأمانة هي أن يثق الإنسان بتدبير الله وبصفته سيداً على الكل، و يؤمن أنه لا يمكن أن تحصل أذية له بدون سماح منه.

٦٣٧ — لأمانة تحصل قلب الإنسان يثق بالله بشجاعة فائقة حتى أن الوحوش تصير في عيسيه كالغنم.

٦٣٨ — إن أردت أن تجد طريق الحياة الأبدية، تمسك بالأمانة بالله.

٦٣٩ — إسأل الله لكي يعود عليك بالأمانة به، لأنه إن أهلك لهذا الإيمان تحس في الحال بقوته وبنعمة في قلبك، فلا يعود شيء يمنعك عن الدالة والقرب منه.

وأنا أدلك على لطريق: صرّ كل وقت وبلا ملل ولا كسل واطلبها بدموع وحرارة وتضرّع وهتمام كثير، إلى أن تحظى بها فلا تعود تشقى بعد ذلك!

وحيثما تلقى همّك كنه على الله وتبدّل عايتك بنفسك بعنايته بك و يرى الله أنك قد استأمنته على أمورك كلها وغصبت نفسك للإتكال عليه وحده، فإنه يعود عليك في الحال بقوة ما كنت تعرفها! تجعلك تحس بعنايته بدون شك أو ارتياب في الظروف الصعبة والخطرة؛ وتمنح حواسك كفاية وقتاعة وشجاعة فلا يعود يضعف لها فكرك؛ وتصح نظرة النفس للأمور والأشياء مرتفعة عن الخوس ولا تحشى محاذبتها؛ وتهب نفسك معرفة جديدة تؤهلك للسيرة الروحانية التي بطفولة الضمير وبساطة القلب. ولكن تظل عادات المعرفة القديمة تظل برأسها بين الحين والحين إلى أن يستأصلها الإنسان باقتناع وشجاعة.

٦٤٠ — إن كنت وقعاً في شكة المعرفة النفسية يحيلها الكثيرة ومقيّداً بدهائها ومكرها، فيكون أسهل عليك أن تمسك من فيود الحديد من أن تمسك منها! وتكون دائماً لست بعيداً من فحاح ومصايد الطغيان على الدوام؛

ولا يمكن أن تحصل على دالة مع الله ولا ثقة في القلب؛

ولا تمضي أيامك بدون حزن أو ألم.

وهذا أردت أن تخرج من هذه الشكة، مرّتها بالبساطة والتجنيء إلى العجز والضعف إلى أن تأتي

فداه الله وتصيح بلا هم . ولا تسمح لأفكار الخوف أن تُثبّت بك، حتى ولو اوجدت حيث كل لأحزان
وإصواعك وأحذرك لا أحذر، فلا تُفقد رمام الإيمان بالله والثقة به، ولا تخضع لتهديد أو تخويف
ولا تحسب للمستقبل حساباً.

فإن كنت قد التفتت به ووثقت فيه أنه كثرة تحفظك ويدرك حياث، مص وراءه وسع
مسوره ولا يرجع بهم شيء فقد، عند ذلك يحضر عمل الله معك وكيف يكون خلاصه دغدغته من
حائفيه وعنايته محيطة بهم ولولم يبصروه.

٦٤١ — إذا رفض الإنسان كل معاضدة بشرية منظورة وكل آمال شرية ولصق نفسه بالإيمان
بأنه بقلب نقي غير منقسم، فإنه من ساعته تلازمه النعمة وتظهر فيه قوتها بمعونات مختلفة. فأولاً تعس
النعمة عن نفسها في الأمور الظاهرة وفي الأشياء الجسدية لكي هذه تتحقق النفس منها وتحس في داخلها
بمعونتها. وعندما يتأكد الإنسان من عملها في الظاهرات يبدأ يحس بعملها في الخفيات وكيف تعد له
حاجة نفسه بدون تعب وبدون عناية منه!

ثم تبدأ ترفع عنه عوارض كثيرة تزيلها من طريقه وتبطل مشورات خطرة كانت محدقة به وهو لم
يكن يعلم ولا كان يحسب لها حساباً؛ فيظرب عينيه كيف كان هلاكه قريباً ومؤكداً لولا عملها
واحتراسها الشديد؛ وتكشف له هواجس أفكاره التي يسوقها عليه العدو ليرعبه وتفضح ضلالها وتصيء
بصيرته.

٦٤٢ — وإن وُجد الإنسان ناقصاً تدخله النعمة في التجارب بيدها ويحس هو بذلك.

٦٤٣ — فإذا بدأ الإهمال يدخل على نفسك ويسرق كنزك تبدأ تحس أنك راجع إلى الوراء والظلام
بدأ يحيط بك وإيمانك يصعب أمام عيبك، وتبدأ تشرب وتطمح في الأشياء الطاهرة وثقتك تنقص، وتبدأ
تقع بقرينك وتمتلىء ملامة بالفم وبالقلب صد كل إنسان وعلى كل أمر وعلى كل شيء تلاقيه حتى
وعلى الرب نفسه! وتبدأ تخاف من مؤديات الجسد، وأمراضه تصبح مستثقلة عليك والتي من أجلها
يتسلط عليك صغر النفس.

٦٤٤ — فإذا استجبت لتأديب النعمة وتقدمت في العمل تبدأ تعود لك دلائل وعلامات الأمانة
فتحس بتشجيع الرجاء في كل أمر وتبدأ صلاتك تنجح، وتصير أفكارك مادة للمفعة لك على الدوام
ويعود لك إحساسك بعجزك فتحفظ من العظمة وترحم رلل قرينك، وحينئذ تتحقق أن كل العوارض
والتأديبات التي صارت عليك كانت كلها بحق وعدل فتبتدىء تشكر عليها بكل رضى واعتراف!

٦٤٥ — اتمسك بالأمانة لا بد أن يسبقه تعب واجتهاد في طاعة الله وعرق في تكميل وصاياه.
فالأمانة بالله يلزم أن يزكيا عمل باستمرار.

والإعتماد على الله لا يصح ولا يحور، إلا إذا كان يزكيه من الداخل شهادة الضمير، وشهادة الضمير تتولد من تكميل الوصايا.

٦٤٦ — فرق بين الأمانة بالله بكلام الفم، وبين الأمانة بالقوة المتحركة من الداخل.

٦٤٧ — الإنسان الجبان يدل على أنه مريض مريض: الأول منه الإيمان، والثاني محبة الحسد.

٦٤٨ — حسارة القلب والإستهانة بالأهواء تتولد من أحد أمرين: إما قساوة القلب، وإما من كثرة لأمانة بالله. فإما الحسارة المتولدة من قساوة القلب فيتبعها دائماً إعجاب بالذات، وأما الحسارة المتولدة من كثرة الأمانة بالله فيتبعها انضاع القلب.

٦٤٩ — لأمانة بالله وارجاء والثقة والشجاعة العملية هي ثمرة لشهادة الضمير ورضاء النية وثقتها بالله، كما أنها تتولد من الدلة مع الله. وذلك كنه أساسه التدبير الروحي الجيد وخدمة الفضائل.

٦٥٠ — لا يستطيع أحد احتمال الصبغات والصر عليها بدون تدمير، إلا إذا كانت له أمانة في مواعيد الله التي يعتبرها أثمن من جسده وأشرف من صحته وراحته.

والإنسان يتموى أولاً بالإيمان وحينئذ يستطيع أن يباشر الأحرار التي تعرض له.

٦٥١ — إذا كنت تريد أن تعيش بمعزل عن العور، ويكون عندك كل ما تحتاجه، وتهتم بجسدك لكي يكون صحيحاً، وتتسلح لكي لا يلتمس الخوف من الأصدقاء، ثم تهمل أنك سائر نحو انسياع، فاعلم أنك مريض العقل وعادم الذوق لمحبة الله تعالى.

أقوال الآباء في الإيمان والمثابرة:

٦٥٢ — الإيمان هو جناح الصلاة، وبدونه تعود الصلاة إلى حضن الإنسان ثابته.

الإيمان هو وقفة النفس ثابتة لا تزعزحها عنه أية بلية أو محنة.

ذو الإيمان الحق ليس هو الذي يفكر أن كل شيء ممكن لدى الله، بل الذي يرى وجوب قبول كل شيء من الله!

الإيمان يمهد لطريق سوا ما لم يكن ستطره أو نرجوه، واللص قد ثبت ذلك على لصيب.

الإيمان أبوه لعمل وأمه الحب الصادق، والأول يسيه والثاني يجمعه لا شئ فيه!

الأب يوحنا الدرجي

٦٥٣ — أهم شيء في الصلاة يجب أن نحاهد من أجله هو أن يكون لنا فيها إيمان حي واضح بالله.

تصوره واقعاً أمامنا وفيما، سأله كل ما يريد باسم يسوع المسيح وقوة لروح القدس، سأله بساطة بلا أدنى أثر للشك فيصير لنا تتميم لآية: «كل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تبالونه». وفي لحظة تخطى بأمور عجيبة وكبيرة لعدية بإشارة لصيب وما تفعله من عرائث مذهشة.

الأب يوحنا ك.

٦٥٤ — قد تؤكد تماماً أن صلاته لن تستجاب! ومن هو هذا البئس؟ هو الذي يصلي ولا يؤمن

أنه سيحصل على جواب.

الأب يوحنا كاسيان

٦٥٥ — إذا كان سؤالك حسب مشيئة الله ومرصاته فلا تكف عن السؤال حتى تناله. الرب نفسه

لكي يسمت نظراً إلى هد ول مثل لرجل الذي تحصل على الخنزير في نصف الليل من صديقه بدجاجة (لوقا: ١١: ٥).

باسيليوس الكبير

٦٥٦ — سأل الرب عمثارة وثقة عن كل شيء يعود لخلاصك ولتقدمت في الصلاح والعبادة وأنت لست تخيب من بواله . وفي نفس الوقت اعمل ما يجب وانذل كل قوتك سائلاً الرب أن يكون معيناً لك . أما إذا استسلم الإنسان في أثناء لجأته إلى شهوات نفسه وعاد إلى ثقته فانه لست يساعده أو يستمع إليه ، لأنه بخطيته ينفر الله ويصدّه عن نفسه .

٦٥٧ — الرب يريدنا أن نتوسل إليه ، و يشاء أن يعصه ، و يرغب في أن يُعلب من حديثنا .

غريغور يوس الكبير

٦٥٨ — إن صلوات الدير يتقدمون بإيمان ، هي دائماً مسموعة . وذلك إما لأمانة خادم الله الذي يتقدم بالشفاعة لدى الله أو لأمانة المتقدم بالسؤال والطلبة لدى خادم الله . لأن في كتنا حالتين يكون السؤال بأمانة في اسم الله . فالذين تقدموا إلى الله بشفاعته الرسل بالوا الشفاء ، والذين استعملوا عصائب ومناديل الرسل ووثقوا مؤمنين نالوا الشفاء أيضاً .

٦٥٩ — وحتى إذا لم تأخذ طلبت كما تود وترغب ، حصلت على المفعة . لأن عدم بوالك ما تشتهي يفيد غالباً أنك نلت أحسن مما اشتيت .

الأب يوحنا الدمشقي

٦٦٠ — الله يعرف الساعة بالصبط التي إذا ما أعطانا فيها الشيء يكون حينئذ دا نفع لنا . لطف بصيح ويحتج و يفضب ليأخذ السكين ! وعبة الأنوبن تأتي إعطاءه إياها . هكذا الرب يعاملنا مثل هذا ، فهو يعطينا أحسن مما نطلب .

٦٦١ — إذا أخذنا ما نطلبه أو لم تأخذه يجب أن نتي في الصلاة . ليتنا نشكر ليس فقط حينما نأخذ ولكن حينما لا نأخذ أيضاً . لأننا لا نعرف ما هو الصالح لنا بل الله . لذا فيجب أن نعتبر الأخذ وعدم الأخذ نعمة متعادلة ونشكر الله من أجل هذه وتلك .

يوحنا ذهبي الفم

٦٦٢ — حينما ندوم طويلاً في الصلاة لا تقل إني لم أستفد شيئاً . لأنك ها قد استفدت بالفعل لإتصال والثبوت في شركة غير منقطعة معه !

الأب يوحنا الدرجي

٦٦٣ — الأمانة هي مفتاح كنوز الله . وهي تسكن الصدوب البسيطة الرحومة التي تصدق وتؤمن « كل شيء مستطاع لدى المؤمن » .

الإيمان هو فم الروح ، كلما انفتح سخاء انسكت فيه الينايع لإلهية . آه ... ! ليت هذا الفم

تكون من هؤلاء المنوحين، فلا تحسه سحر أسكت وعدم الإيمان فتجس عما كثرة أنعام الله. كمن فعرت
عنه وأحصت أمانته في قدرة الله الالهائية، انفتح قلب الله لك بالجلود والسحاء.

٦٦٤ - لا نمط ونسقط في يأس حينما تتعري داحنك بريح الشر وهيجان الحقد، وقمة لصبر،
وحي أفكار الخديف وأن فكر سر بر آخر. ونكس حارب مدبها باستمرار، واحتمل سبجاءه، وإد
نكس فست الرب يسوع المسيح غالب الهويته وكسر شوكة الموت، واتصع بنفسك كثيراً جداً في ذلك
الوقت، معترف شجاعة بكل خطاياك وذنوبك مستحضر بشركة مع الأنوار. وألرب حينما ينظر إلى
تصديعت وجهه قد عدت. ودع شفيعت السريعة المعونة العذراء كتيبة طهره وأيده الإله وثلاه
أن تشفي جراحات نفسك وتحارب الأعداء وتصدهم عنك.

٦٦٥ - يسكر شفيعا سريعة أم إلهها الكنية الطهارة مريم العذراء. إد نعسا ثناء الصلاة
على ظلم الشيطان وأتعبه.

إلهنا فرسه منك على الدوام. تطمئن إليها بعين الإيمان، ودعها لنجاهد معك ضد أعدائك، وهي في
الحظوظ والتوحيث من صيغة نفسك كحسب إيمان فنك ووثوق بها، وتطميء عن نار غضب العدو
فيرتد عنك.

وسيكس لك عدو ووثوق في الروح القدس ودوام حضوره في كل مكان وأنه كائن غير مركب. به
نصير السموات في عاه القرب منا بكل ملائكتها وقديسها. فما عيب إلا أن ندعو الرب فيستجيب
ويستسمع بالعذراء وأني قديس من عمق القلب بأيمان قوي واضح وحسن يشرى خلاصاً في حال.

عحية هي قوة سفاعه أم رب على المعونة. تفيض على القلب مسحة من نسمة شفي وعطر نسيم محي
و يسوع مدد هدى! فقط ثن في قدرها على استفاعه السريعة المفضولة عند بها يسوع المسيح!

ليسب سفاعه أمرا هيبا، بدا وعدو يعمل جهداً ليحررها من هذه المعونة السريعة، ويجهد
باعتراض أمانتها ونصرتها إليها. وأني بقية القديسين، وبقيم من نفسه مساراً من الصلوة أمام أعين قلوبنا
ويبعثر إيماننا ويشككنا حتى لا نكسب معونتهم ضده.

فعبس أن نسجع ونفتحه هذه الخواصر المظلمة ونهتف بهم بأكثر سده وأمانة فيفتضح العدو ويرتد
سريعاً، د نهمون لمعدتنا «يرسل لك عوا من قدسه ومن صهيون يعصذك.» (مر ٢٠: ٢٠)

٦٦٦ - «يعطيت الرب حسب فنك»، ليتك تفلي نفسك مؤمن حار مهيب لأنه حسب يكون
القلب تكون العطية! وإد صيبت بيمان مخلص من كل فنك وليس عماءة، فاعطية لي سناها من
فيل رب سيكون كبريت وكمفد حرارة وعبرة فنك. وعمدار برودة القلب في الصلاة نصير الصلاة

بلا ثمرة، بل تصير مكرهة في عيني الرب جداً لأن الله روح و ينبغي أن نكون عبادته بالروح والحق .

لذلك سواء كنت تدعو الرب يسوع، تبارك اسمه، أو تستشفع بأقمة العذراء أو بالملائكة أو بأحد القديسين، ادعهم من قلب ملتهب بالإيمان والحب نحوهم . وإذا كنت تصلي من أجل أحد لأحياء أو الأموات فصلهم من كل قلبك ذاكرًا أسماءهم بحرارة صادقة . وسواء كنت تطلب نعمة الروح القدس لك أو لأحد آخر لكي تُعشق أنت أو غيرك من بليّة أو حطية أو شهوة أو عادة ردية، فصل بحرارة وليكن طيبك معزم ووثوق ولجاجة وثبات . فبهب لك الرب سؤال قلبك : « تظنون ما تريدون فيكون لكم . » (يو: ١٥: ٧)

أرايت كم هو مهم أن نرغب ونشتاق إلى ما نسأله ونطلبه من الله؟

٦٦٧ — آمس وثق أن الرب في كل حين هو الكل لك . ففي أثناء الصلاة هو قوة واستجابة لكل كلمة بالروح القدس، وحينما تحدث الناس عن العبادة فهو ينشوعك الحي الذي ينسج منه كلامك الحار الدفاق . نعم هو في كل حين كل شيء لك !

كُن خالياً من الهمّ في حضرة سيدك . لقد أغلق عليك معه وسد المنافذ عليك من كل جانب ودخل فيك وتحلل أجزائك وأعضائك كلها وعرف كل أفكارك وكل احتياجاتك . إذن، فقد أصبح لك كل شيء، وأنت إذا عشت واثقاً فيه بالإيمان والحب فسوف تحيا بلا همّ : « لا تهتموا بشيء بل في كل شيء بالصلاة والسعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله » (١: ٦) . أليس هو الذي يستطيع أن يخلق الشيء؟ إذن فهو يستطيع أن يعيره كما فعل في عجائب مصر، فالعادر على كل شيء يستطيع أن يعمل كل شيء .

٦٦٨ — رفع بصر قلبك الداخلي إلى الله . واستوثق من رؤيته ملياً ثم اسأل منه ما تشاء باسم يسوع المسيح فسيعطي لك، وفي لحظة يتم طلبك . لأنه في دقائق رفعة إيمانك الصادق به، يصير اتحادك معه . وحينئذ ما تطلبه يكون لك حسب مشيئته، سواء كان من أجل خلاصك أنت أو لقريبك، لأنك في هذه اللحظة تكون شريك الألوهية باتحادك الروحي مع الله : « أنا قلت إنكم آلهة » (مز ٨٢: ٦) . في ذلك الوقت لا يكون بينك وبين الله شيء، لا مسافة زمنية ولا مكانية . وحالما تطلق بكلماتك يكون سماعها فاستجابتها وتحميمها ! « لأنه قال فكان . هو أمر فصار » (مز ٣٣: ٩) . ألم يكن هذا هو الحال بالضبط في تحويل الأسرار المقدسة !

٦٦٩ — مريم العذراء هي واحد مع ابنها يسوع المسيح باللحم والدم، أعطته جسداً من جسدها هو غاية في الطهارة وغاية في القداسة . أرضعته من لبها وحملته على ذراعيها؛ ألبسته من صنع يديها واهتمت بكل شئون طموسته؛ فبنته ودلّته بكل ملاطفة . يا رب من يقدر أن يصف عظمة العذراء حاملة الله الكلمة؟

كل لسان هو في حيرة كيف يمدحك بما يليق! حتى وعقل الملائكة هو في دهش مما نلت من النعمة والتطويب يا والدة الإله!

يجب أن ندعوها بقلب بسيط غير منقسم. واعلم أن موضوع خلاصك هو قريب من قلبها جداً. ادعها كل حين وهي تلي الدعاء.

٦٧٠ - كلمات الإنجيل والصلوات المختصة بالخدمات الكنسية والأسرار، أقرأها بإيمان وتوقير ومحبة الله، بهدوء روح ولكن بحرارة داخلية فهي قادرة أن تمسح وتشد وتشفى جسدك أيضاً: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو: ٦٣)، هذه الأمور قد تعلمتها بالاختبار، فيجب أن يكون لنا إيمان حي أن الله كائن معنا لأن هذه هي ترحمة اسمه «عمانوئيل»، وهو يتطلع إلى صوتنا عندما تكون حارة مخلص، وعد أول ندائنا هو يستجيب ويكون مستعداً لنجدتنا في الحال.

إذن فصلاة الإيمان هي ضرورية لنا طالما نحن نحيا في وسط هذا العالم محاطين بالأعداء الطاهرين والخفيين.

٦٧١ - هل كان يظن الغربيون أنهم يصنّون بمראה؟ كلا بلا شك، فقد صارت صلاة الرياء هذه عادة - بل طبيعة، إن أمكن هذا التعبير - وكانوا يظنون أنهم يخدمون الله بصواتهم. فهل المراءون في المسيحية في هذه الأيام يظنون أنهم يصنّون أو يحيون حياة الرياء؟ كلا بلا شك، فهم يصنّون بانتظام يومياً وربما يطيلون الصلوات أحياناً. ولكن للأسف هي صلاة العادة، مخرجها ومنتهىها عند اشتمتين. هي فقط تتميم مراسيم وقوانين محدودة للصلاة و يظنون أنهم يقدمون خدمة لله. هؤلاء يحبون على أنفسهم الولايات واللعنات التي صبها السيد المسيح على الكتبة والفريسيين المرائين! لأنهم لعلّهم يطيلون الصلوات.

٦٧٢ - ما هي علامة المسيحي؟ هي حبه وإيمانه بالمسيح، تجده دائماً يفظ اسمه الخلو ويدعوه لمحبته في كل عمل. يتجه إليه بعينه وأفكاره وقلبه كل حين. كذلك فإن السيد المسيح له المجد تجده يعزّيه كل حين و يترعى له: «الذي عده وصاياي ومحفظها هو الذي يحبني، والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه وأظهر له ذاتي.» (يو: ١٤: ٢١)

أما الإنسان البعيد عن المسيح فهو قلما يتجه بأفكاره نحو المسيح.

وحتى إذا صُنّي يكون بلا حرارة الحب وبدون فاعلية الإيمان القلبي وإنما يكون بدافع الحاجة. وهو في التجائنه إليه كمن يلتجئ إلى شخص بعيد عنه غير معروف لديه لا توجد بينهما صلة، ليس له فيه سرور ولا يجذبه إليه أي ميل نحوه.

أما هؤلاء المغبوطون الذين لا يدعون المسيح يفارق عقلهم أو قلبهم فإنهم يعيشون في المسيح، و يصير لهم هواءهم وطعامهم وشرابهم وإقامتهم وكل شيء!

وبسبب الخلاوة التي يتدوقونها في اسمه وبسبب لمساته الحفية البديزة التي لمس بها قلوبهم، تخدمهم ويتصقون به أكثر فأكثر، وفي التصاقهم به يجدون سعادة لا تُنقُص بها ولا يدركها العالم.

بؤساء هؤلاء الذين لم يجدوا المسيح بعد! هم يعيشون بلا تذوق حرية وعظمة الإيمان. يهتمون ويضطربون لأجل أشياء كثيرة عالمية، كيف يتمتعون ذواتهم بالأكل والشرب واللباس الفاخر ويتذذون بشهوات العالم الكثيرة. تخدمهم يفكرون كيف يقطعون لوقت بعد أن عرّ عليهم كيف يستخدمونه لمجد الله، مع أن الوقت هو الذي يفتش عليهم و يطلبهم وإذا لا يجدهم مكثرين يهملهم ويسرع في طريقه: يوم يتلو يوماً وليل بعد ليل وشهر تنوآحروسة تجر أخرى! وأخيراً تدق الساعة خطيرة المحيفة وإذا برسوس لموت يذرا أن انتهى العمر، قد أصعبت كل وقتك!!! يسرون تتقدمهم خطاياهم وتعدياتهم وجحودهم — «خطايا بعض الناس واضحة تتقدم إلى القضاء وأما البعض فتتبعهم» (إتي ٥: ٢٤). وهؤلاء من الذين تتقدمهم خطاياهم!

٦٧٣ — إن خدمتنا الكهوتية هي تكرار لذات الصلوات وهي وإن كثرت تتدىء بذات البداءة لواحدة: «يا أنا الذي في السموات»، لأن ليس بتنوع الصلوات يتشدد الروح ولكن بتكرارها وتشينها داخل قلوبنا وتحللها داخل نشاطنا وتهكيرنا ومشيتنا حتى تصبح جزءاً من حياتنا.

٦٧٤ — حينما تصلي إلى الله من كل قلبك فأنت في الواقع تحدث الله ليس كأنه خارج عنك بل هو في داخلك وفي عمق قلبك: «يثبت قبي وأنا فيه.» (يو ٦: ٥٦)

٦٧٥ — حينما تنطق باسم ربنا يسوع المسيح بإيمان وقوة، يصير مفزعا للشياطين لأن اسمه لقدس قوة في ذاته وكسيف ماص ذي حدين، فإذا سألت شيئاً من الآب السماوي، في إيمان باسم ابنه يسوع المسيح، فإنه من أجل حبه لانه ومسرته به فإنه يعطيك دون أن ينظر إلى استحقاقاتك أو إلى خطاياك بشرط أن يكون لك معه حب وثبوت!

٦٧٦ — «ه أنت قد برئت فلا تخطيء أيضاً لئلا يكون لك أشر» (يو ٥: ١٤). يلزم أن يكون لنا عزم ثابت وإيمان كامل أن لا نعود إلى الخطية إذا مرّ الله علينا بشماتنا أو أعطانا سؤالنا. لأن من شروط استجابة الصلاة نية القلب لعدم الرجوع إلى الخطية.

٦٧٧ — حينما تصي من أجل شيء أو تستشع بالعذراء أو أحد القديسين من أجل إنسان، عليك أن تبصر في نوع كلماتك التي توصلح بها طلبتك وتحدد الموضوع أو الشيء الذي تسأله من الرب. وصدق

أن عندك عهداً أكيداً من الله لمحك كل دقائق صلاتك بذات الكلمات التي شرحت ورسمت بها طلبتك. وعلى سبيل المثال: حينما تسأل صحة لفسك أو لإنسان آخر، التفت إلى كلمة «صحة» ذاتها وما تفيده فعلاً وثق أنك نلت ما تتصوره في ذهنك بالفعل برحمة الله وقدرته على كل شيء. لأن ذات الكلمات والأسماء نصير عند الله فعلاً وأعمالاً! «اسألو تعصوا» (مت ٧.٧)، «كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم» (مر ١١.٢٤)، «من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون، فها قال يكون له.» (مر ١١: ٢٣)

٦٧٨ — لا تجزع من تصورات العدو التي يثيرها وقت الصلاة ليرزع إيمانك فيعديك قوة الصلاة، بل اثبت في إيمانك راسحاً من كل فسك — واعلم أنه ليس باستحقاقك تنال سؤالك بل بإيمانك — واعلم أن كل كلمة من كلمات الصلاة فيها كنوز الروح القدس مستورة داخلها لتي هي الحق والور الأبدي والبار محرقة للخطايا والسلام الدائم وكل عبطة وسعادة.

٦٧٩ — كل شيء تطلبه هو يقياً أقل إلى ما لا نهاية إذا قيس بمعطي وواهب ذلك الشيء والحافظ لكياه. فكأن العاطي الواهب هو أعظم من كل شيء وهو أيضاً بسيط ليس فيه تعقيد أو تركيب حتى أن عمداً المحدود يستطيع أن يدركه وبكلمة واحدة يستدل عليه، هكذا ثق أن كلمة واحدة منك وطلبية قصيرة بإيمان به من أحل تتميم أمر ما يمكن بإشارة من الله أن تأخذ في الحال فعلاً وكياناً لتصير أمراً مفصلاً وقضية منسية: «لأنه قال فكان. هو أمر فصار.» (مز ٣٣: ٩)

أذكر العجائب التي صنعها موسى واذكر كيف صار رجل الله «إلهاً» لمرعون. وكيف كان في حال حروح الكلمة من فة أو حركة يده أو تلويع عصاته في الهواء كان كل شيء يأخذ كيانه في الحال أو يتغير ليعود كما كان!

إيه يا الله العظيم الأملدي يا ذا المجد الأسنى، إله العجائب، إله الرحمة، الكريم الجؤاد والمحب للإنسان. ليُدِّم مجدك دائماً من دَوْرٍ قَدَوْرٍ وإلى أبد الدهور.

٦٨٠ — حينما تسأل البركات والعم من الله، فآمن أن الله هو كل شيء لك. فحينما تسأل صحة فهو صحتك وعافيتك؛ وحينما تسأل إيماناً فهو إيمانك ورجاؤك؛ وإذا سألت سلاماً وسروراً فهو سلامك وسرورك؛ وإذا سألت معونة صد عدو منظور أو غير منظور فهو كل قوتك ومعونتك؛ وإذا سألت أية نعمة أخرى فهو بذاته سيكون هذه النعمة لك طالما يرى أن فيها ربحاً لك: «الله الكل في الكل.» (١ كو ١٥: ٢٨)

٦٨١ — بينما كلمات الله في أفواه بعض الناس هي حروف مجردة، فهي في أفواه الآخرين روح وحياة: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو ٦: ٦٣) — ليتنا نشعر بالحياة في كلمات الله

ونثق بهذا الوعد.

٦٨٢ — كما أن لجسد تنفس باهواء هكذا النفس تنفس بمراحم الله ! وكما أن الأب يعطي ابنه عظاماً جسدية لائفة ورافعة له هكذا أبونا السماوي « يهب خيرات للذين يسألونه » (مت ١١: ٧) ؛ وكما أن أساس يستفون من ماء انهر محاباً، هكذا الله هو سبغ لا ينضب للماء الحي، وماء عليك إلا أن تمتد وعاءك وتتعرف لنفسك على قدر ما تريد عصراً وسلاماً، ولكن احذر من الشك فهو يجعدك تعود ويناؤك فارغ.

٦٨٣ — إدا لم يكن لك إيمان ثابت غير مخزى في رحمة الله وقدرته فلا تتسرع في طلب أي نعمة في صلاتك شلاً يلطمك العدو بالشك وعدم التصديق بمواعيد الله فتضعف صلاتك وتخرج من لدن الله محزياً يائساً مغموماً. لا تكن غحولاً غير مكثرت في صلاتك، بل اجلس أولاً وفرر وميز حالتك الروحانية ؛ وقش إيمانك، حسب قول الرب، واحسب النفقة لئلا تسخر بك الشياطين عندما يرون عجزك وحسبك ونقص إفررك. « فائس هذا الإنسان ابتداءً يسي ولم يقدر أن يكمل. » (لوقا ١٤: ٣٠)

لذلك فلي لبدء في الصلاة إحسب درجة إيمانك، فإذا وجدت إيمانك متوفراً حياً ثابتاً « فستقدم بثقة إلى عرش سعمة لكي نال رحمة وتجد نعمة وعواً في حينه. » (عب ٤: ١٦)

٦٨٤ — الذين لمسوا ثوب المخلص شُموا ؛ وإلى الآن الذين يستعملون ماء أمصلي عليه فإنهم يتعافون. وبدا ؟ لأن المصلي الذي انغمس في هذا الماء مع صلاة الإيمان يصير كمثل السيد نفسه معطي الحياة. فكما كانت الحياة تسكن في ثوب المخلص هكذا أيضاً تكون في المصلي لأن به وهبت لنا الحياة. فحالما يمس الماء باسم المسيح تسكن فيه الحياة فيصير ماءً حياً شافياً.

٦٨٥ — لكي تسأل الملك أو أي رئيس آحر يلزم أن تصل إليه وتتكبد أتعاباً كثيرة. هكذا حين تريد أن تصل إلى الملك السماوي أو الأم التول أو أحد أفراد جند السماء أو أحد رجال الله القديسين المستعصين يلزمك أن تصل إليه متحرراً من كل ما لا يليق سواء كان من جهة خطايا أو شهوات أو شكوك، ونظهر لنفسك حيداً لتليق بمقابلة هذه الأرواح الطاهرة. كما يجب أن يكون لك حب صادق لمن تريد أن تقابله، وغيرة وإقدام وشجاعة وثقة به وإيمان فيه.

٦٨٦ — بخصوص استجابة الرب لسؤالك وضمتك، ثن وآمن أنه كما هو سهل هيئ لذيك أن تخرج الكميات من فمك، هكذا هو هيئ وسهل على الرب حداث وأسهل بدرجة لا تُقارن أن يستجيب ويتمم كل كلمة لك. لأنه كما خرحت الكلمة منك هكذا يصدر الفعل منه. ومع الرب لا توجد كلمة بدون فعل :

— « اطلبوا الرب ما دم يوجد أدعوه وهو قريب. ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليتث إلى الرب فيرحمه ويرى. لهذا لأنه يُكثر العصران. لأنه كما يزل المطر والثلج من السماء ولا يرجعان إلى

هناك بل يرويان الأرض ويجعلها تند وتثبت وتعطي زرعاً للزارع وخبراً للآكل، هكذا تكون كلمتي
التي تخرج من فمي، لا ترحع إليّ فارعة بل تعمل ما سُررتُ به وتنجح فيما أُرسلتُ له. » (إش ٥٥: ٦ —
(١١)

واذكر وأنت قائم لتصي أن الله موجود وفريد منك وفي استطاعته كل شيء، ومطلع على كل فكر
وكل فعل، وأنه هو الحكمة كلها والقدرة كلها والنعمة كلها.

٦٨٧ — أقول لك به ما من مرة وقعت فيها أصلي بإيمان، إلا وكان الرب يسمع لي ويستجيب كل
كلمات صلاتي.

٦٨٨ — يحدث أثناء الصلاة أحياناً أن تأتي بعض لحظات طمة خفية، وذلك منشؤه عدم تصديق
القلب وضعف إيمانه. ولكن لا تدع قلبك يحبك ويحسرك من ثمرة الصلاة في هذه اللحظات الخطرة.
ذكر في هذا الوقت أنه إذا كان النور الإلهي قد انقطع وانحجب عنك لحظة، فهو في ذاته موجود ودائم لا
ينقطع قط بل هو باق على الدوام بكل بهائه وعظمته. وفي اللحظة التي يحجب فيها عنك هو مشرق على
ألف غيرك ويملاً كنيسة بل ويملاً حتى العالم المادي.

الأب يوحنا ك.

٦٨٩ — « كل ما تطلبونه حينما تصلون، وآمنوا أن تالوه فيكون لكم. » (مر ١١: ٢٤)
هكذا عيبك أن تصي رافضاً كل شك، وتصلي باستمرار للرب الذي أمر أن تصي كل حين ولا غل
أونيأس (يو ١٨: ١)، متتمدين للصلاة بالصبر. لأنها في بداية اختبارها تكون صعبة للعمل الذي تعود
أن لا يستقر على حال.

٦٩٠ — الصلاة في دأها كحديث مع الله تُعتبر أعظم نعمة، أما السؤال والطبقة فشيء ثانوي يتغير
من يوم إلى يوم. لذلك فإن الرب الرحوم لا يستجيب سريعاً لطلباتنا حتى لا يترك الإنسان الصلاة
ويتلهى بالنعم الصغيرة فيحسر بركة الوقوف أمام الله والحديث معه.

الأسقف إغناطيوس ب.

٦٩١ — كثيراً ما سأل الله أشياء هي في الواقع مُضرة ومؤذية لنا وتتعارض مع مشيئته المقدسة.
ومحن في ذلك شبه الأولاد الذين يتكروهن الاستحمام ويرعبون عنه، فيسألون أمهاتهم أن يعفّينهم منه
في حين أنه ضرورة لازمة لهم. وهكذا نحن حينما نصف لسأل الله أن يعفينا من لصليب فينجيب من
مرض أو محنة أو أحد الأتعاب التي يسمح أن تحملها، غير عالمين أنه خير لنا جداً أن نجوز هذه الأتعاب
ونبقى مع الرب من أن ندوم في الراحة والتناح والسعادة الظاهرية بعيداً عنه.

والمرضى يسبح في طلب قطعة ثلع أو شيء من الطعام الممنوع تعاطيه عاقباً عن الدواء وعن صورته،

ما الطبيب فيمنعه ولا يسمح له بما يضره. ونحن جميعاً أمام الله كأطفال وكمرضى لا نعرف ما هو خير لنا، وعالمياً ما نساى أشياء فيها ضرر لفوسا. والله كأب رحوم لا يرضى أن يعطينا عقرباً بدل لسمكة (لوقا: ١١: ١١)، لذلك وجب أن يكون سؤالنا من أجل الخيرات الزمنية هكذا:

— «يا رب، إذا كانت طلتي هي وفق مسرتك ومشيتك المقدسة وفيها خير ي امسحي إياها. ولكن إذا لم تكن كذلك فلتنصر مشيتك أنت».

و يسوع المسيح كأس مطيع لأبيه أعطانا مثلاً من هذا القبيل، حينما صلى ثلاث مرات بـداد الكلام طالباً من أبيه قبل آلامه الإحتبارية. «يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت.» (متى: ٢٦: ٣٩)

الأسقف تيخون ز.

٦٩٢ — يا سيد الرب دم كثرة الكلام في صلوات الوثني، لكونها لم تكن إلا أسئلة عديدة من أجل خيرات والأمور الزمنية الفانية بعبارات ممتفة برُخرف الكلام، كأنما هذا لبيان والأسلوب اللفظي لأحاذ يكون له تأثير على الله كما هو على آداسا البشرية! ولكن بإدانة الرب لهذه الكثرة في الكلام باطلاً لم يردص الاصوات الطويلة كما يدّعي الخارجون على الإيمان المستقيم، لأن الرب نفسه قدّس لصلوات لطويلة وناشرها بنفسه: «وفي تلك الأيام نخرج إلى الحبس ليصلي. وقضى الليل كله في الصلاة لله.» (لوقا: ١٢: ٦٢)

٦٩٣ — أسرع وراء المحلّص واصرخ مثل الأعمى ابن طيما. أصرح وراءه بالصلاة مثل المرأة كنعانية ولا تحزن من طون عدم التفاته إليك، فأنت تستطيع ببجاعتك وصراخك أن تجذبه إليك وتحس فيه عليك (متى: ٢٢: ١٥). كن مثل الكنعانية ولا تملّ بل تتواضع وسعة صدر حتمل البلايا والمخبرات التي يسمح بها عليك فإنه يختبر اتضاعك. وبحسب إيمانك وتواضعك وبجاعتك في الصلاة هو يعزيك ويشي إبتنتك الوحيدة المعدة، أي نفسك، من فعل الشهوات الردية ولأفكار الشريرة المتسطة عليك، ويقن مشاعرك من لشهوة للخطية إلى الشهوة لبقداسة وحياة الرب.

الأسقف إغناطيوس ب.

٦٩٤ — الحصول على النعمة يعتمد كثيراً على اللجاجة في الصلاة.

الأسقف إيلاري

٦٩٥ — يشترط لرب أن يعطينا نعمة المثابرة واللجاجة، ولكن في ذات الوقت يشاء أن نكون نحن لسبب فسأله دائماً منه. من إنه يود أن نلزمه لرحمتنا والتحن علينا، كما في مثل لصديق الذي ذهب لصديقه في نصف ليل، وفي مثل المرأة الكنعانية، وفي مثل القاضي الظالم. بدون هذه النعمة، أي اللجاجة، لا نستطيع أن نحصل على أي نعمة أخرى.

غريغوريوس الكبير

٦٩٦ — ثابر على الصلاة، لا تقل قد طلبت دفعة واثنين وثلاثة ولم يستمع لي الرب، جاهد ولا تفارق الصلاة حتى تجد مسألتك.

٦٩٧ — ثابر على الصلاة لكي يرضى عنك سيدك، وتعطيه أنت فرصة وسبباً ليُظهر رحمته عليك ويفرح خطاياك. أنظر لا تسمع جوده بتعافيك. فإن كنت في أسفل الخطية فهو القادر أن يقيمك، لذلك لا تبطل الصلاة. وإذا لم تكن لك دالة، فبالصلاة تصير لك الدالة عنده، لأنه يحب خلاصك من خطاياك وأتعباك أكثر مما تحب أنت! فاحرص على المثابرة في الصلاة ولا تقل قط إني تعبت، لأن المثابرة في الصلاة تسمع التعب ذاته! واعلم أنه لا يمكن أن تُكَلِّ وأنت نائم. إنما يُكَلِّ لدي يسهر ويتعب ويثابر على الصلاة.

يوحنا ذهبي الفم

٦٩٨ — تأمل صبر القديسين: إبراهيم أبونا دعاه الله وهو صبي ونقته من أرض الكلدانيين إلى فلسطين، ووعدته قائلاً: لي أعطيت هذه الأرض ولزرك من بعدك. ثم تأنى الله على إبراهيم جداً حتى شاخ وكنت قوته وما عاد له قدرة على إجاب الأولاد ولا سارة امرأته أيضاً، ولكن ما تزعزع إيمانه وثقته بالله. فلا ينبغي أن نمل في صلاتنا حتى ولو طالبت بنا السون، وحتى لو كانت طلبتنا مستحيلة في أعين الناس جميعاً، لأن غير المستطاع عند الناس مستطاع لدى الله!

٦٩٩ — لعدت تفور قد سألت مراراً كثيرة ولم آخذ شيئاً. أقول لك حقاً سألت، لكن ربما سألت شيئاً حقيراً؟ أو سألت بغير إيمان؟ أو بأفكار محلة وأنت مرتاب؟ أو الذي سألته غير نافع لك؟ أو ربما لم تدم طويلاً في سؤالك منه تأخذ لتهاونك؟ لأن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص!

٧٠٠ — لعدت تقول: هل الله محتاج إلى صلاتي؟ ألا يعرف هو ما أحتاج إليه؟ فإذا كان هو عارفاً ما أحتاجه فما الضرورة إلى سؤالي ولجأتي؟ أقول لك: الله يعرف ما نحتاج إليه وهو يعطينا جميع الخيرات الحسدية بدون سؤال وها هو يشرق شمس على الأشرار والأبرار. أما الإيمان والرفق والفضيلة والملوك فإنه من أجل صلاحه ومحنته للبشر يتمهل حتى لا يباها الإنسان إلا بالطلبة والسؤال والمشقة والأحزان المتنوعة يصبر كثير. لأنه يود أن نحب الخير ونسعى إليه ونطلبه باشتياق ونهتف حتى نكون بحر السب في العطية، وحتى إذا ما حصلنا عليها متمسك بها ومحافظ عليها نظير التعب والجهد الكثير الذي بذلناه للحصول عليها.

٧٠١ — فلا يصعب عليك، يا ابني، إذا لم تنل مسألتك، فإنه لو عزم ربنا الصالح أنك لا تتلف السعة إذا أعطاك إياها لمحت إياها سريعاً وبدون جهاد، لأنه ما يُسرُّنا تعبنا وشقائنا. وها الذي أخذ الوزن من سيده ولم يستطع أن يتأجرها ويربح عليها، نال شر الجزاء وطرحوه في الظلمة. فحري

بأن لا نطلب نعمه، إلا إذا عرفنا كيف نتحررها ونستخدمها لمجد اسمه القدوس.

باسيليوس الكبير

٧٠٢ — إن كنت حابياً من فضيلة المثابرة فلا تسيطر أن تحصل على عرء حقيقي في صلاتك، فإن المثابرة تساوي العمل.

٧٠٣ — كن صديقاً لك صلاة أو صوماً أو سهرًا بدون مثابرة، لا يأتي بشيء، ويكون في هبة تعبك فيه كما لو أنك قد ابتدأت به فقط!

٧٠٤ — إذا تحقق الإنسان أن كل ما يسأل ويطلب في الصلاة يُسمع ويُستجاب له حسب مشيئة الله، يكون هذا هو الإيمان والرجاء والثقة بالله.

٧٠٥ — الإيمان ولشقة ليسا من نصيب الذين فسدت صمائرهم بالبعد عن الحق، وإنما من نصيب الذين ساروا في وصايا الرب يسوع وتداخلوا معه في سيرة الفضيلة وستمارت نفوسهم بالحق.

٧٠٦ — وقول «الإيمان»، لا أفصد به الأمانة العامة التي هي أساس العقيدة، وإنما أفصد القوة العقلية التي تنير الفكر وتسد القلب بنية ثابتة وتعطي النفس ثقة كبيرة واتكالا على الله. فلا يعود الإنسان يحمل همّة نفسه، بل يبقى على الرب اهتمامه في كل شيء وبالأخص أثناء الصلاة والطلب فلا يرى نفسه كفواً لشيء، فيحفظ من العظمة والكبرياء، وتهون عليه أخطاءه أساس، ويرى انضيقاً ولأتعاب التي تحمل عليه أنها بالعدل قد أصابته.

٧٠٧ — يا للتشجيع الذي لا يُنطق به: «اسألوا تُعظوا — أطبوا تحذوا — إقرعوا يُفتح لكم — إسهروا وصلوا — صموا لتلا تحذوا في تحفة — كل من يسأل يأخذ وكل من يطلب يجد وكل من يصرع يُفتح له — يسفي أن يُصلّي كل حين ولا يُمل». هكذا يجذب الرب يسوع إلى السؤال والطلب ويشجعنا على طلب النعم والمواهب وهو يدبر ويعطي حسب ما يوافق ويبدو لنا. سيدنا يعلم أنه طالما نحن مربوطون بهد العالم نحن قابضون للسقوط والميل إلى الشر، وإلى أن ندوق الموت ونعبر إليه، فليست له فضيلة ثابتة فيه. احتمال السقوط موضوع أمام أعيننا على الدوام، لذلك حرصنا على الصلاة ممدومة والمثابرة على السؤال والطلب.

ولئن كان ضميرنا صالحاً جداً ويشاء أن يدوم على الصلاح، إلا أننا ندخل التجارب بدون ردتنا، وكثيراً ما نحيط بنا التجارب دون أن ندرك علة لذلك. وهذا نولس لرسول إذ يرى التجربة قد دخلت إلى عمق نفسه بصرح إلى الرب ثلاث مرات لكي يرفعها عنه، وخيراً يعلم أنها سياسة التقدير قد وُضعت عنه لتلا يسقط في تجربة أخطر وهي الكبرياء والتعظم من كثرة الاستعلانات والرؤى التي كُشفت له. وعوض تجربة الجسد البسيطة حلت عليه قوة المسيح.

٧٠٨ — أحياءاً يطلب من الله ولا تأخذ. وبالعدل يكون ذلك لأننا لا نضب بصبر ومدومة في الصلاة وبلا حرارة أو ثقة، ولا نطق قوله الصريح: «الصارخين إليه ليلاً ونهاراً» بل نستظر أنه هو من ذاته يعطينا. أما هو فيستصر لقدم له سباً ووسنه يعطينا بها ما شتق أن يمنحه لنا. فهذا تركنا تنضيق، ويتأني علينا حتى نقرع بابه ونشابر في السؤال بلجاجة.

وأما عن فكثيرة أمامنا وسائل السعة والأحد، ولكن نترحسنا هممنا لسوء. ونسلم أنفسنا للممل والضجر والفتور.

يا ابي، إن طرق الصلاة مفتوحة أمامك: حرّ على وجهك ليلاً ونهاراً، وتصرع إلى الله بصب حزبي. والرب رحوم وصالح لا يتأخر عن اعراء والمساعدة إذا كانت مسألتك ليست بعدة أو حارجه عن الطريق الموصل إليه.

في كل أيام حياتك أنت تأخذ منه ما يصيبك منك. فتعود تسأل نحر فيعطيك. ويضاً يسرق منك فتأخذ من جديد. وتصادف نعمة ما، فتظن أن هذه نهاية سيرتك وخذ قصداً، ثم تصب بعد قليل فما تجدها، إفهم هذا واعلم أن هذا هو ترتيب الطريق فلا تنضجر.

٧٠٩ — الله سيد كل أحد لا يرداد رحمة عند سؤالنا وطبنا، فرحمته ليس لها فرار، وبها بطنت وسؤالنا وحزن صميرنا يستضيء معرفته وتندرب على الحديث معه فستمع من ذلك كثير.

٧١٠ — بوجود رجاء واتكال على الله يحدث من أمانة القلب وهذ حس. ولكن بوجود رجاء من نوع آخر ناشيء عن التهاون والإستهتار والجهل واللقاء، هذا هو الرجاء الكاذب. وعلامة الرجاء الصادق هو عدم الإهتمام بشيء مما في هذا العالم، بل أن يوقف داته للرب، عروحل، بالصلاة ليلاً ونهاراً، ويجعل كل همّه تحصيل الفضيلة. وأما علامة الرجاء الكاذب فهو فشل الإنسان وكسله في الصلاة والسعي وراء الفضيلة. وإذا ما ضاقت به الحال أو ضعطته التجارب من ثمرة جهله وتوانيه أو أحزنه إنسان بسبب سوء عمله أو تصرفه، يقول: قد اتكلت على الرب وهو سيرفع عني الهمّ ويجود عليّ بالراحة. فيسمع قول الرب: أيها الجاهل إلى الآن ما ذكرت الله بل باتكالك عليه وأنت متواني ومتكاسل تسه. واسم الله بسبب إهمالك وتوانيك يُحدّف عليه بين الناس.

من هو هذه الصفة فلا يحدس نفسه ويقول: «إني متكل على الله»، ولا فهو سيؤدّب لا محاله. لا تصل أيها الجاهل، فإن الاعتصام بالله والإيمان به يجب أن يتقدمه تعب كثير وعرق لصلاة الذي لا يجب.

الأمانة بالله تحتاج إلى شهادة الضمير وشهادة الضمير تتولد من التعب في الفضيلة والسهر في الصلاة.

يا ابني لا تمسك الرياح في كفك أعني الأمانة بلا عمل وجهاد.

مار إسحق السرياني

٧١١ — يا أولادى أب لا أمل من الطبعة من الرب عنكم لكي تعرفوا عظم مقدار النعمة الموهوبة لكم وكيف أن الرب برحمته يسه قلبها لظننها وسؤالها. فلا تملأوا ولا تتكاسلوا يا أولادى عن الصراح للرب نهاراً وليلاً حتى ينعم عليكم بمعونة من العلاء.

٧١٢ — كل من يسكن بالتواهي والكنس في روحياته فإن آخرته تدركه قبل أن يصل إلى المسيح. هكذا جرى لحرفيا الملك عندما أدركه فناء أيامه وهو غير اهتمام. فلما رجع عما كان عليه وطلب من الرب، ستحق زيادة سنين أحرومى بالأكثر. فلما تمت تلك السنين فارتقت نفسه جسده وهو في عية الكمال من خدمة الله.

أبا أنطونيوس الكبير

٧١٣ — يا الرب يطيل أيامه علينا ويمتحن إيمان مشيئتنا ومحتسا له متحاضاً. فيحب عيب أن نزيد جهادنا ومشائرتنا وثباتنا في طلب النعم والمواهب، مؤمنين ووثقين ثقة كاملة بأن الله أمين في وعده وهو يعصى نعمته للذين يداومون على الطلب بإيمان إلى المسهى صابرين بغير تفنيل.

أبا مكار يوس الكبير

ملخص المبادئ الهامة:

(١) إذا كان إيماننا يتغير كل يوم حسب ما يقابلنا من ظروف محزنة أو مفرحة فنحن لم نؤمن بعد. لأن الإيمان الصحيح يكون أساساً لضبط السلوك فلا الأحزان تزعزعه ولا الأفراح تشدده.

(٢) الإيمان ليس هو أن تقرر أن الله يستطيع كل شيء بل أن تقرر قبول كل شيء من يديه.

(٣) أي شئ في الصلاة أو شعور باحتمال عدم إجابتها سوف يحرمك من ثمرتها واستجابتها.

(٤) قبل أن تتقدم بالسؤال، ابحث أولاً شهادة ضميرك هل أنت سائر حسب مشيئة الله؟ وهل سؤالك يرضي الله؟ إذا وثقت من نفسك، فثق بالله ولا تكف عن السؤال حتى تنال طلبتك.

(٥) لا تكف قط عن سؤال كس ما يعود إلى خلاص نفسك وتقدمك في الفضيلة، فلن تخيب من نواله. لأن هذه هي مشيئة الله، فقد أقسم أنه لا سر يموت الخاطيء بل بأن يعود ويحيا.

(٦) الإستمرار في الخطيئة يحرمنا من استجابة سؤالنا. لأن الخطية تقف حائلاً بيننا وبين الله.

(٧) لا تكف عن سؤالك حتى تأخذ الإجابة إما «لا» وإما «نعم». وكثيراً ما كانت استجابة الصلاة «لا».

(٨) إياك والتوقف عن الصلاة حينما لا تُجاب طلبك فتظهر كطفل متمرد، فأنت لا تعرف ما هو الصالح لك.

(٩) على قدر ثقتك وأمانتك في رحمة الله تأخذ منه.

(١٠) التوسل إلى العذراء والقديسين يعين ضعفك ويزيد إيمانك. وهم مستعدون أن يحاربوا عنك وقت جهادك إذا طلبتهم بثقة وإيمان وحب.

(١١) إذا أردت أن تعرف هل قُبلت صلاتك أم لا، فاسأل قلبك لأنه «يعطيك الرب حسب قلبك». (مز ٢٠)

(١٢) الرغبة والإشتياق إلى نواب العطية يزيد من إيماننا جداً. فلا تطلب شيئاً لا تشاق إليه أو تشك في منفعته لك.

(١٣) إذا ألميت أمرك على الله واتكلت عليه من كل قلبك، فلا تعد تفكر وتحمل همّاً، ولكن داوم على الصلاة والطلب فقط.

(١٤) قس أن تسأل تأكد من وجودك في حضرة الله وأنه واقف يسمع ما ستقول، ليس أمامك أو فوقك ولكن في داخلك متحداً بك، وكل ما تقوله حينئذ سيكون حسب

مشيئته .

(١٥) أعلم أن سؤالك يهم الله كما يهمك وهو ينتظر طلبك ليعطيك .

(١٦) اسم الله هو «عمانوئيل» الذي تفسيره «الله معنا» . ألا يكفي هذا أن يعطيا الثقة أنه معنا يسمع صلاتنا ويستجيب لسؤالنا؟ وإلا فما معنى «الله معنا»؟

(١٧) لا تكن مرثياً فتصلي فقط عند الحاجة . أظهر أمانتك لله بدوام الصلاة وخصوصاً في أوقات بهجتك وسرورك .

(١٨) لا تملّ من تكرار الصلاة ، لأن تكرارها يقدسنا . فليس بتسوع الصلاة يتشدد الروح بل بتكرارها ، ليس باطلاً ، ولكن بالحق في القلب والفكر حتى تصبح مبدأنا في الحياة .

(١٩) حينما يعطي الله عطاياه ، لا ينظر إلى استحقاقات الناس ، وإلا لما أعطى إنساناً قط ... هو ينظر إلى إيمانك وحبك : «ليكن لك حسب إيمانك» — «إن خطاياها الكثيرة مغفورة لها لأنها أحبت كثيراً» .

(٢٠) من الشروط التي تتعلق استجابة الصلاة عليها ، نية القلب على عدم الرجوع إلى الخطية .

(٢١) قبل أن تتقدم بسؤالك حدّد ما تريد بالضبط . ولا تطلب عشرات الطلبات ؛ ولا تُخرج الطلبات جزافاً وتبحث عليها في فكرك بحثاً . فلن تُعطى إلا ما تشاق إليه وتحتاجه فعلاً لخلاصك .

(٢٢) إذا لم يكن لك إيمان ثابت في الله وفي استجابته لك ، فلا تتسرع في طلب أي نعمة لئلا تسقط في اليأس من عدم الإستجابة .

(٢٣) الإيمان يجعل في إشارة الصليب قوة الحياة والشفاء . والماء الذي يصلي عليه الكاهن ويرشمه بالصدّيب يكون للمؤمنين مثل ثوب المخلص الذي شفى المرأة نازفة الدم ، وكالمناديل والعصائب التي كانت تؤثّق من على جسم بولس فتشفي المرضى والمعذبين بالأرواح الشريرة (أع ١٩: ١١ و ١٢) .

(٢٤) في اللحظة التي يضعف فيها إيمانك وتشتك أن الله سامع لك، إرفع فكرك واذكر أنه في هذه اللحظة بالذات هو فاتح كوزه و يعطي الوفاً وربوات غيرك. فاثبت في الصلاة بثقة وانتظر حتى تأخذ أنت أيضاً نصيبك.

(٢٥) لرب يتأني عبياً أحياناً حتى يدوم على الصلاة وتتعلم الحديث معه.

(٢٦) الرب يستحيب لصلاتنا أحياناً بالسي : فس حبه لنا لا يعطينا ما نسأله لأنه يكون فيه ضرر لنا ويحرمنا من عطايا ونعم قادمة.

(٢٧) أحياناً يقسو علينا الله و يتأني جداً حتى يمتحن إيماننا فتزكي أمامه بسبب صبرنا.

(٢٨) الخيرات الزمسية يعطيها الله للجميع بسعة، حتى وللذين لا يسألونها. أما الخيرات الروحية كإخلاص من الخطايا واكتساب الفضائل ونوال النعم والموهب الروحية والدحور إلى المدكوت، فلا يعطيها الله إلا للذين يؤمنون بها و يشتاقون إليها و يثابرون على طلبها ويختمون في سبيلها المشقات والتجارب والإمتحانات التي يضعها الله عليهم، في شجاعة وصبر.



الفصل الخامس

الاجتهاد والنقص



أنموذة سلام لسماء
رُسمت في القرن
لثاني عشر ميلادي
ومحمودة الآن بدر
ساعت كثرين -
سواء.

+ «إن مصارعنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء مع السلاطين
مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أحناد السر الروحية في
السماءويات ... فاثبتوا ... مصليين بكل صلاة وطلبة كل وقت في
الروح وساهرين.» (أف ٦: ١٢ - ١٨)

إن بركات حياة التأمل لا تظهر في حياة الإنسان كنور الرق الذي يهاجيء أصدارنا وهي شاخصة إليه، وإنما تأخذ محراها في حياة الإنسان بهدوء غير ملحوظ، كتشروق الشمس التي يسبق نورها في الفجر ضعيفاً خافتاً، يشق حجاب الظلمة بهدوء ولكن بقوة. فبها يصعب عليك أن تحدد بدايته، تجده يستمر ويزداد ويتعمق حتى يبدد جميع الظلمة المحيطة، وحينئذ تظهر الشمس.

لكي نصل إلى حياة الصلاة المثمرة يلزمنا أن لا نستظر البركات تهبط علينا فجأة، بل نحر نأخذ طريقاً إليها بخطوات بطيئة ولكن ثابتة. يلزمنا جهاد منظم طويل، و يرمنا صبر وتغضب.

يكفينا أن نتقدم، مهما كان هذا التقدم بطيئاً ومهما كانت حلقة الظلام التي تحيط بنا وبإيماننا!! وإن مجرد تقدمنا في حياة الصلاة والعشرة مع الله هو دليل أكيد أننا واصلون، وأن النور لا بد أن يظهر وإن احتجب عنا طويلاً. وحينئذ يظهر ثمر تعب جهادنا وشدة إيماننا وصبرنا.

أما تعصبنا في جهادنا وعرفنا ودموعنا ومغالبتنا مع شكوكنا، وسيرنا بالرغم من الظلمة التي تحيط بكل شيء فيها؛ فهو وإن ظهر بمظهر الضعف في أعيننا، إلا أنه في عيني الله غالي القيمة: «طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو ٢٠: ٢٩)، «لأن الله ليس بظالم حتى ينسى عمركم وتعب المحبة التي أظهرتموها نحو اسمه.» (عب ٦: ١٠)

يظن بعض الناس أن طريق حياة العبادة والتأمل والحيوة مخوف بالورود والرياحين. كلا، فالطريق صحراء ففر، لا جمال له فنتسبه في ذاته! ويكفي أن المسيح وصفه بأن بابه ضيق ومسلكه شاق وكرب. حتى أنك بعد أن تسير فيه تأخذك الرعدة ويدخلك الشك وتقول أحفأ أنا سائر إلى الله؟ ولكن أين هو؟ هذه بداية امتحان الطريق الذي تجوزه نفسك بعيداً عن كل معونة من أي إنسان، وخلواً من أية مسرة روحية أو علامة، أو حتى كلمة وعد أو تشجيع. بل حتى المطلق ذاته يقف ضدك، فيختبر إيمانك خلواً من العيان.

ومن أجل جفاف هذه البداية، وبسبب هذا الإمتحان ومنظر الطريق وصعوبته، رجع الكثيرون إلى الوراء ولم يستطيعوا العبور، وعلى شفاههم حيرة نثنائيل: «أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟» (يو: ١٦: ٤٦) ... ولكن طوبى للذين ساروا وراء الإيمان، لأنه «إن آمنيت ترين مجد الله.» (يو: ١١: ٤٠)

وحتى الإيمان لن يدوم معك بتسدة على طول الطريق، فسوف يحور منك بين الحين والحين، لأنك في الطريق ستطلب مسرّاتك الأولى، وتعود بقلبك إلى مصر وتشتهي البصل ولكرات وتنبري نفسك لك وتوبحك: لماذا أخرجتني إلى البرية لتميتني؟ مسكينة هي نفسي ونفسي، بل هي غليظة الرقبة جداً لأنها ستطلب لحماً في البرية! تطلب علامة ولا تجد، تطلب آية في الطريق فلا يُعطى لها.

كثيرون تحيروا جداً فوقفوا يسألون أين نحن؟ وما هو عملنا في هذا الطريق؟ وما هي رسالتنا من وراء ذلك؟ ولكن هذه هي أسئلة الشك وهتاف التفهقر، وهكذا عاد كثيرون من مستصف الطريق لأنهم أرادوا أن يحيا بالعيان، وطلبوا لأنفسهم معجزة وآية فبرهنوا على خدوهم من الإيمان؛ وإذا لم يُجابوا إلى طلبهم انتكصوا على أعقابهم، وألقوا بأنفسهم في محيط العالم الصاخب، وانهمكوا بكل قواهم في أعماله الكثيرة، وشغلوا ذواتهم إلى درجة جنونية، لا لأن الأعمال في نظرهم خيرة، ولكن لهربوا من الحفيظة التي اصطدموا بها، لأن الرعدة أخذتهم عندما جابهوا السير بالإيمان وحده لا بالعيان.

لولا موسى على إسرائيل لما ارتحل يوماً واحداً في البرية! أربعين سنة سار موسى على رجاء الوصول إلى أرض الموعد، وعلى الإيمان وحده جاهد هذا الجهاد لطويل. ومن وراء هذا الإيمان الجبار استطاع أن يغصب شعباً عنيداً للسير وراءه أربعين سنة في برية فاحشة.

إنه تعوزنا قيادة موسى لأنفسنا لكي نسير بالإيمان؛ ونغصب ذواتنا على المسير ولو أننا لا نرى شيئاً؛ ونرتحل في طريق الله ونجاهد معها طال بنا الجهاد، لأننا واثقون أن في نهاية الطريق قد أعدت لنا أورشليم السماوية كعروس مهيأة لعريسها. أما في الطريق فتكفينا وعوده لصادقة، وتعزياته الخفية، وصوته الآتي من الأبدية.

لكلام في هذا الفصل يدور حول الإرادة.

والحديث عن الإرادة، في اللاهوت السكي، من أدق وأخطر الأمور. ففي كلمة واحدة يمكن أن يعكس مهب الإنسان من الجهد منسروع المذوي إلى جهد مضوب خاطيء يؤدي به إلى عالم التيه والمرض.

ومنذ السدية نبرر أمام الفريء معنى الجهاد والتغضب المذوي لسوى لدى يهودى المسيح والحياة الأبدية وهو: أن تتجه إرادة الجهد نحو لتسليم لمطوى لله، ويتجه تغضب الإرادة إلى إخضاع النفس لتدير النعمة مهما كانت الظروف، بإمدان لا يكل، حتى لا يتقى للنفس مشيئة خاصة ولا سهوة خاصة إلا أن تكون فقط مطبعة دنا لصوت الله ووصاياه.

وهنا ينبغي أن نحترس من انحراف الداب أثناء حرارة العدة حين تبدأ علامات النجاح وما يتبعها من فرح وسرور، لأن الذات تميل في هذه اللحظات أن تستزيد من النجاح وتستزيد من السرور فتتحا إلى الجهد الذى لتستحدث به مزيداً من النجاح والفرح، وهنا النقطة حرجة التي عندها يتحول الجهاد والتغضب من سيره المذوي السوى إلى جهاد داني مضوب؛ إذ يد أن كان الجهد جهاد خضوع لله وتغضب إردى لصاعة لمطبعة يصبح جهاد اعتماد على الذات وتغضب حساب هو القدر لشخصية!!

وليكفى في علم الفارىء أن نجاح والفرح الروحى هما نعد داهما عمل الله وليساه من عمل الإنسان فقط! والله يستزيدهم عندما يساء، وبالقدر لدى يشاء، سبب من الإنسان أو بدون سبب على السواء!

د، فالإحهاد والتغضب لا ينبغي أن يكون هما حافظ على الإطلاق سوى محبة الله في شخص يسوع المسيح من كل القلب. ويكون التعبير عن هذ الحب ليس إلا بفشر الذب على طاعه لوصية مهما كان الثمن باهظ، والرام الإرادة والنية لتسليم بتدير لله مهما كانت النتائج غير ميسرة للنفس.

كذلك لا ينبغي أن يكون لإحهاد والتغضب مشجعات حسية من غرور النفس أو مديح الناس، كما لا ينبغي أن يتأثرا بتعير الناس أو انتقادهم.

ما هدف لدى بلرم أن يضعه أمامنا بالنسبة للجهاد والتغضب، فهو الخضوع لكامل لله والتسليم المطلق لمسرة مشيئته.

ولتكن هذه الكلمات علامات ميرة على طريق الإجتهاد والتغضب:

أولاً: إحترس من توتر الإرادة لأنه عيب أن يلقى في دوامة جهاد ذاتي، فحينئذ تشط الإرادة وتحمس، أربطها في الحال بصاعة المسيح حتى لا تعمل شيئاً من ذلك.

ثانياً: أرفض كل حساس مسئوليتك عن النجاح والفشل، وحوله في حجب إلى حساس مسئولية متابعة العمل بأمانة فقط.

ثالثاً: لا تتطع في ضرورة الحصول على معونة خارجية من لغوات غير لمصورة، لأن المسيح لم يجعلك في نقص من شيء وقد تكفل لك بكل لوازم المسير. إذن، فاكشف قوة المسيح التي معك وحاهد عن أساسها. فإذا أتت معوزات وتغريات من فوق فافرح بها واسبح، ولكن لا تجعلها أساس جهادك لأنها لا تعطى مسيرك و يتوقف.

رابعاً: الإحهاد والتغضب اللذان تعيشهما ليسا من أجل حصول شيء لذاتك أو لتقوية إرادتك وعزيمتك أو لمواجهة عدوك، بل هما في الحقيقة لتتخلي عن ذاتك، وتسلم إرادتك، ولا تعتمد على عزيمتك، وتحتفي خلف المسيح من مواجهة عدوك.

خامساً: بقدر ما ستعتمد على إرادتك؛ بقدر ما سيضعف إحساسك بمعونة الله. وبقدر ما تفنصر في جهادك على تسليم إرادتك في هدوء الخضوع وعباد الماثرة والتغضب لفصول كل تدبير الله؛ بقدر ما تحس بفن عمل الله وعمايته وتديره لحياتك.

سادساً: لا توقف جهادك وتغضبك في طاعة وصايا الله مهما كان فشلك ومهمي كانت تجربتك، لأن خيف نفسك المهزومة ينف المسيح وفي يديه إكيب جهاد. فأنت غير مسئول عن النجاح بل مسئول عن الجهاد.

سابعاً: الإجهاد الذي مجاهده والتغضب الذي ممارسه إذا مرساهم بصحة؛ فهي قطعاً لا يمداننا إلى البر ولا يفراننا إلى الله، ولكنهما يبعداننا فقط عن دوتنا وبفصلان عن حياة الخطيئة والعصيان.

أم البر، والله يمدح محاباً؛ وأما القرب من الله، فالمسيح هو الذي يصططع به من ذاته. والحميم الذي لا ينبغي أن تغيب عن ذهن القاريء أن الإنسان الذي يعتمد على ذاته وإرادته في جهاده لا يكتشف أن جهاده ذاتي ولا يحس أن اعتماده لا يستند على الله،

فيمضي في مسيره متعلقا بنفسه متخطياً يفوم من حفرة ليسقط في أخرى ، يلعن نفسه و يلوم مشيئته و يستجمع إرادته لمريد من المسير والتخبط والحزن والكآبة النفسية ، وهو لا يزال يعتقد أنه يستند على الله وأنه يثق به وحده .

و الحقيقة عكس ذلك تماماً ، فالمسير في حياه تسليم الإرادة لله لا يكون فيه لوم للإرادة مطلقاً كأنها هي المسئولة عن السقوط والتعثر! والسقوط و العثرات لا تسأ عن ضعف الإرادة بل تنشأ عن قوتها وتدخلها ! وهذا يتضح من كون الصبر والحلاص والبركة لا تنشأ عن قوة الإرادة ، بل عن اختفائها وراء النعمة . فعندما تختفي الإرادة وراء النعمة يتقوى الإنسان و يغيب و يتصر و يتحفظ و ينحج و ينمو ، وعندما تستيقظ الإرادة وتفتح المواقف وتثور وتتشدد والسقوط والعثرات لا عكس تخاشيها . إذن فالسقوط يكشف عن تصدُر الإرادة ونشاطها وتعالياها على النعمة ، فإن كما يلوم إرادتنا ونلعن مشيئتنا ونحزن ونكتئب عندما نعر وخطيء فهذا يعني أننا نفرد ونعترف أننا نسير بإرادتنا ولسنا خاضعين لله . ثم عندما نحاول بعد لسقوط أن نستجمع الإرادة ونفوها ، فكأنما نحن نهيء أنفسنا لسقوط آخر أشد ونؤمن في جعل الإرادة مسئولة عن المسيرة الروحانية !

أما إذا كنا نريد أن نتحاشى العثرات والخطايا والسقطات ، فعلينا لا أن نلوم إرادتنا ونستحثها على نشاط والقوة ، بل علينا أن نفرط في إرادتنا ونياأس منها نهائياً ونبدأ في احوال إخضاعها وتسليمها لله بكل عزم تسليم نهائياً ، وهذا يتم بتغيب صوت الله عن صوب الذات وإلزام الإرادة بتكميل وصية الله مهما كانت الحسارة أو الإهانة ، ثم إلزامها بالخضوع لإحتمال التعب والمشقة والوقوف والسهر لطاعة كل تعليمات الآباء وتدريبهم ، حتى تخضع الإرادة وينكسر سطواها لسطاها الروح القدس وتبدأ تختفي وراء النعمة ، وحينئذ ينجح الإنسان .

لما كل عطف على الذات فهو محاولة شيطانية لإحياء إرادتها ومشيتها الخاصة .

أما كل العثرات التي نعانيها أثناء مسيرنا فهي لا تكشف ، لا عن معنى و حد وهو عدم تسليم إرادتنا لله تسليم مطلقاً ؛ و بالتالي تفصح عدم ثقتنا فيه !!

إذن ، فمن شأن تعثرنا في الطريق أنه يبيننا لإعادة النظر في أحكام تسليمنا لإرادتنا و زيادة ثقتنا بالله ، مع ضرورة ححد الإرادة الذاتية التي تجرنا إلى تكميل شهوت ، مع موصلة

التوبة في هدوء وصبر وتجلّد.

علماً بأن لأحزان المفرطة التي يستسلم لها الإنسان عند سقوطه في خطيئة أو عشرة، ما هي إلا علامة على الكبرياء وتوهم الذات والطمون بالإرادة فوق ما تستحق، مما يجعل الإنسان يستكثر على نفسه السقوط، ويستعظم إرادته على العثرة، ويظل يتمس العزاء والراحة في تشحيات كاذبة من الناس أو من أب الاعتراف لكي يصمد بها كبرياء نفسه لمجروحة!

أما الموقف الصحيح إزاء سقوط الإنسان في أي خطية فهو الاعتراف باخطيئة، والإستجاء في الحال إلى التوبة، ومواصلة الجهاد بتغصّب لمتابعة تسليم الإرادة وممارسة إخضاع النفس لله.



أقوال الآباء في الإجهاد والتغضب :

٧١٤ — يقول الناس : إذا كنت لا تشعر بميل إلى الصلاة، فالأحسن أن لا تصلي . هذا احتيال وسفسة جسدانية . لأنك إذا كنت ستصلي فقط حينما يكون لك ميل للصلاة، فأنت لن تصلي قط، لأن ميل الجسد الطبيعي هو ضد الصلاة : «فإني عالم أنه ليس ساكن فيّ، أي في جسدي، شيء صالح» (رو٧: ١٨)، ومعروف أن : «الجسد يشتهي ضد الروح» ! و «ملكوت الله كل واحد يعتصب نفسه إليه» (لو١٦: ١٦) . فأنت لن تستطيع أن تعمل لخلاص نفسك إذا لم تغضب ذاتك .

الأب يوحنا ك .

٧١٥ — وهل أنت تعمل فقط لجبر الجسد حينما تكون لك رغبة في العمل ذاته ؟ أليس تجهد حتى ولو لم تكن لك رغبة في العمل ؟ إفهم أن أمر غضب النفس على العمل هو أمر هام جداً في الأمور الدنيوية والروحية نصاً : للصلاة، لمراعاة الإيجل والكتب الروحية النافعة، وحضور الخدمات الإلهية في الكنيسة، سعي، للوعظ، لخدمة الكلمة . لا تُطع الجسد الكسول العاش لأنه مملوء خطية : «فإني عالم أنه ليس ساكن فيّ، أي في جسدي، شيء صالح» (رو٧: ١٨) . والجسد يشتهي أن يرتاح على الدوام غير مكسرت بالهلاك الأبدى الذي يكون عوض راحته القليلة لرنة : «ملكوت الله يُغضب والغاصبون يختطفونه .» (مت ١١: ١٢)

٧١٦ — لا ننسح راحة الجسد، ولكن صلّ . وصلّ بخدّ واهتمام، حتى ولو كنت طويلاً الهارتك وتعب . لا تكن مهملاً في الصلاة المقدسة، بل انتصب وقُلّ صلاتك من قسك حتى هابتها، لأنها واجب عديك حوائه : «لا أضع على سريري فراشي ولا أعطي لعبي يوماً ولا لأجفاني نعاساً ولا راحة لصدغي إلى أن أجد موضعاً للرب .» (مز ١٣٢)

أما إذا سمحت لنفسك أن تصلي بدون اعتناء وليس من كل قلبك، فأنت لن تجد راحة في صلاتك أو بعد صلاتك . فإن أردت أن تستريح حقاً فاعمل خطاياك بالدموع أمام الله : «أعوّم كل لينة سريري و بدموعي أبلّ فراشي .» (مز ٦)

إذن، فاحترس أن لا تعتمد بجسدك أمام الله، وتزدري بالصلاة من أجل راحة الجسد .

٧١٧ — إذا كنت قد رتبت لنفسك قاعدة أن تقرأ عدداً من الصلوات، قصيرة كانت أو طويلة، فتتم فرائعها باعتناء حتى آخر كلمة. إقرأ بكل انتباه وتيقُّظ، ولا تعمل عمل الله بقصد منقسم فيكون بصفه أمام الله وبصفه الآخر يطوف في العالم. الرب إله عيورولر يسكت على خداعك ومخائلتك وإشفاقك على ذاتك، وتقول أنك تصلي وأنت لا تصلي!

فإن تماديت في عشك، فهو يسلمك ليد الشيطان. وهذا لا يعطيك راحة قط لا في جسدك ولا في نفسك، ويعددك بلا شفقة لأنك رفضت الراحة الحقيقية والسلام الداخلي وأعرضت عن خلاص نفسك وحرزت قلبك عنه.

واعلم أن كل صلاة تقدمها بلا إخلاص نية، تفصل قلبك عن الله وتجعله ضدك؛ وكل صلاة تقدمها باهتمام واشتياق، ترفع قلبك نحو الله فتجعلك قريباً منه على الدوام. لأنه ليس شيء يستطيع أن يجعل قلبك قريباً من الله مثل العرق والدموع!

إنه لمؤلم جداً أن نجعل صلاتنا تكون سبباً في نفور الله منا وحمو غضبه علينا بعدم اكتراثنا وفتورنا، مع أنه يشفق علينا وعلى جهادنا السابق ويرغب على الدوام أن لا نخيب من التصافنا به بكل قلوبنا وأن نكون من أخصائه.

٧١٨ — لكي تتحرر من عبودية الشهوات والخطايا وسلطة الشياطين، ضع ملكوت السموات وأورشليم السمائية هدفاً لك؛ ولا تجعل هذا الهدف يغيب عن عينيك مجتهداً أن تحصل عليه مهما كُنَّك، مستعيناً باسم الرب يسوع. واعلم أن هذا الهدف يحتاج إلى ثلاث وسائل يجب أن تكون ظاهرة في تدبيرك وهي: الإيمان والرجاء والمحبة. والمحبة تكون أعظمها.

هذه الثلاثة إذا تمسكت بها، فإنك سوف تستخف بكل الصعاب والعقبات مهما اشتدت وتكاثرت.

أما إذا لم تكن لك قوة كافية لكي تحتفظ بهذه الكنوز الثلاثة، فعنك أن تحر عند قدمي الله، وتسال بدجاجة وشدة، وتقرع بابه بكل اجتهاد. وسواء كنت جالساً أو ماشياً أو منشغلاً أو على الأكل أو في النوم، فصلّ حتى يعطي لك إيماناً وحباً: «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي، اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» (يو ١٦: ٢٤). قل الآن: أنا سأبتدىء أن أفعل هذا من الآن فصاعداً.

٧١٩ — أحياناً تفتقد النفس حركة روحانية حادة تتذوق فيها الله بجمرة وتشتعل بحب الأشياء الإلهية، ثم تعود تفتقدتها فتجدها قد بردت وجفت منك لأن التشويش الحادث من خلطة الناس قد أصابك في موضع ما، أو لأنك تكون قد فضت بعض الأعمال الجسدية وقدمتها على خدمتك الروحية. إلا أنه على أي حال فالدموع وقرع الرأس على الأرض أثناء الصلاة واسحاق النفس تسرع مرة أخرى

فتسترجع انسياب نيار الحرارة الروحية الحلو الدافئ في القلب . وفي شغف الفرح الروحي الممدوح ،
يطير القلب وراء الله هائماً : « عطشت نفسي إلى الله الحي القوي . متى أجيء وأنظر إلى وجه الله ؟ »
(مز ٤٢)

كل من تدور حلاوة هذه الحمر ثم فقدتها وخُرم منها ، يعرف جيداً أي عذاب وصل إليه ومقدار
خسارته التي خسرها بسبب انحلاله .

مار إسحق السرياني

٧٢٠ — الصلاة التي تكون لأداء الواجب فقط خوفاً من الناس تولد البفاق والرياء ، ونجعل
الإنسان عاجزاً عن أي خدمة تحتاج إلى تأمل روحي وتجعله كسلاناً متباطئاً في كل شيء حتى في تسميم
واجباته الجسدية . لذلك وجب على الذين يمارسون مثل هذه العبادة أن يصححوا صلواتهم ويجعلوها بفرح
وهمة ونشاط من كل القلب . فلا نصلي للرب فقط حينما نكون مجترين على ذلك بحكم طمس العبادة أو
الفوائن المرتبة ، بل يجب أن نكون « غير متكاسلين في الإجهاد حارزين في الروح عابدين الرب . فرحين
في الرجاء . صابرين في الضيق . مواظبين على الصلاة » (رو ١٢ : ١١) : « وكل واحد كما يوي بقلبه
ليس عن حزن أو اضطرار لأن المعطي المسرور يحبه الله . » (٢ كو ٩ : ٧)

٧٢١ — النفس كائن روحي نشيط ، لا تقدر أن تبقى عاطلة ، فإما أن تشغل في الخير أو تشغل في
الشر ، وحينئذ ينموفها إما قبح أو زوان .

وبما أن كل خير مصدره الله ، ووسيلة هذا الخير للحصول عليه هي الصلاة ، فالذين ينشطون في
الصلاة ويقدمونها بحرارة وإخلاص هم الذين يأخذون نعمة من لدن الله لعمل الخير . أما الذين لم يعرفوا
الصلاة بعد أو يقدموها في تراج وكسل ، فهم لا زالوا محرومين من هذه العطايا الروحية وذلك بمحض
إرادتهم . فكما يموثق الأفكار الصالحة والأعمال الحيرة في قلوب الذين يجاهدون ويعصبون ذواتهم على
الصلاة بحرارة وبشاط ، هكذا أيضاً يموث الشوك والروان في قلوب المتكاسلين ويخفق كل حير أو صلاح
يهبط على قلوبهم سواء من كلمة وعط أو قراءة في الكتاب أو اشتراك في جسد الرب أو بقية الأسرار
المقدسة .

لذلك أصبح واجباً علينا أن نلتفت إلى حقل قلوبنا لئلا ينموفه زرع الكسل والتواني والإهمال وما
يتبعه من التذذ بالماكل والترفة والشح والحسد والبغضة وبقية هذه الأمور المردولة . نعم يلزم أن ننظف
ذواتنا كل يوم ونحرق هذه الأشواك وهذا الزوان بحرارة صلواتنا وتهداتنا ؛ ونروي زرعنا الصالح بالعرق
والدموع كالطر المبكر والمتأخر .

وعليتنا أن لا نقف كسالى حتى ولا ساعة واحدة ، لأن في ساعات عفلتنا وتوانينا يأتي العدو

خلصة وبغيرة حادة يرمي بذار الزوان: « وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زواناً في وسط الخنطة ومضى. » (مت ١٣: ٢٥)

وعلينا أن نذكر أيضاً أنه يستحيل علينا أن نقوم بالأعمال الصالحة دون جهاد. لأنه منذ أن سقطنا في الخطية بإرادتنا وهواناً، صار منكوب السموات ليس سهلاً، إنما يُغصب بالتعب والغاصبون يختطفونه بشدة (كما ورد في مت ١١: ١٢).

ولماذا صار لطريق إلى المنكوت والحياة هكذا ضيقاً وكرباً وتعباً؟ ألم يكن بسبب اضطهاد العالم وجوره على المختارين؟ « في العالم سيكون لكم ضيق » (يو ١٦: ٣٣)، « أنا خترتكم من العالم لذلك يبغيكم العالم. » (يو ١٥: ١٩)

وأيضاً بسبب ظلم الشيطان الذي لا يكف عن قتالهم والشكاية ضدهم، لا أنهم يعدونه باجتهادهم وصرهم إلى الموت: « قد طرح المشتكي على إحتوتنا الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا هراً وليلاً، وهم غسوه بدم الخروف وبكلمة شهادتهم ولم يحبوا حياتهم حتى الموت. » (رؤ ١٢: ١١)

وأيضاً بسبب الجسد الذي يشتهي ضد الروح: « ولكي أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي. وبني أنا الإنسان الشقي من يقذني من حسد هذا الموت! » (رو ٧: ٢٣ و ٢٤)

هذه الثلاثة تجعل الطريق ضيقاً وكرباً والمسير فيه بالجهد والتعب.

٧٢٢ — يقول الفلاسفة إن الإنسان حُر بطبعه. ولا يصح أن يُرغم أو يُعصب على شيء حتى يكون عمله مشمراً. لكن هذا قو حاطيء وانحراف إلى الفساد، فإن لم نعصب أنفسنا، فأبي خير يتسنى لبشرتنا أن تأتيه إلا الكبرياء والحسد والعصب والميل الجارف نحو لشهوات والخطايا؟

ولا سيما الأطفال والصبيان، فإذا كمالوا نعصم ونجبرهم على التعميم والصلاة ماذا يكون مهم إلا البطالة والتشرد والتفنن في معرفة الشر!

٧٢٣ — يدرما كثيراً أن نعصب دواتنا دواماً للحق والمضيعة. وحيما نصلي يجب أن نعصب دواتنا كل لحظة سننطق كل كلمة بصحو وشدة من شعور القلب. وعندما نهمل في الصلاة تصبح بلا شك ضرباً من الرياء والغش وتخلو من روح العبادة والتقوى.

واعلم أنه إذا استمالتنا كلمات الصلاة واستحوذت على انتباهنا، فحينئذ سوف تستميل قلب الله. وإن لم تسترِع انتباهنا نحن، فكيف تسترعي انتباه الله؟ لأن الله يعطينا حسب إيماننا وعيرتنا وحبنا وشعور قلبنا الداخلي (مز ٢٠: ٢٤)، فكلما كان القلب صادقاً في شعوره كلما صارت الصلاة

مستحقة القول والاستجابة.

٧٢٤ — إن من يتمو صلواته بتسرّع وهو مغلوب من كسله وبعباس جسده، دون أن يتفهم معاني الكلمات في فيه وبتحسس روحها بمساعره ووجدانه، لا يخدم الله لئلا يرضى نفسه ويُسكب ضميره.

هذه ليست صلاة لكنها صرّ من الكذب ومخيلة الله: «الله روح والذين يسجدون له فالروح والحق ينبغي أن يسجدوا.» (يو ٤: ٢٤)

فهما كان حسدك صعباً متكاسلاً، ومهما كانت تبارك العباس شديدة وقد سرب في جسدك كله وأخذت ترحى أعضائه عضواً بعد الآخر، فإنها وقت الشهادة، فمقص عبادة الكس وبيع يوم الغفلة، وجاهد نفسك حتى تعبها، ولا تنس نفسك عليها. ومن أحل حيك الله رفض ذنوبك وجحدها وتمتدّم للصلاة بقب شجاع ونفس حارة.

٧٢٥ — لماذا صارت الصلاة المستمرة لازمة؟ أليس لكي يهدي هذه الصلوات لطويلة احارة بلهب قلوبنا الباردة التي تقشّت من طول البطالة؟

ليس باهين على القلب الذي يمشي بأناطيل العالم صويلاً، أن تسري فيه بسرعة حرارة الإيمان وحب الله مجرد الوقوف في الصلاة! بل يلزمه اجتهاد وتغصّب ورياء، لقد قيل إن ملكوت السموات يُعصّب. وملكوت سموات لا يأتي سريعاً في القلب إذا كان غير مشتاق إليه، بل كثيراً ما ينفية عنا بميلنا للكسل ونفر منه بإرادتنا.

واسرّب نفسه عثماً ألا تكون صلواتنا قصيرة بإعطائنا مثل الأرمية لمخعة، التي لم تفر عن الدهاب لخاصي كل يوم وترعجه طلبها (نو ١٨: ٢ - ٦)؛ وهكذا الله يصيّق علينا ويسمح بتجربتنا وظلمنا حتى نتحول من اعمام إبيه ونسائه. «تعالوا إلّٰي يا جميع ملتعين والشميلي الأحوال وأنا أريحكم.» (مت ٢٨: ١١)

الأب يوحنا ك.

٧٢٦ — للإنسان الذي يرعب أن يأتي إلى الرب ويوجد مستحقاً للحياة الأبدية، عليه أن يدوم باستمرار على الصلاة، ويعصّب ذاته على الإنصاع، واضعاً في نفسه أنه أقل وأحقّ من جميعاً. وكل ما يعصّب نفسه لأحبه ويعصمه وهو متألم بقلب باهر غير راض، سوف يأتي عليه يوم يعمل به برصه وقبول، وبذلك يدرب الإنسان نفسه على حياة الصلاح والاهتمام بالرب. وحينما يرى الرب بية الإنسان واجتهاده، وكيف يعصّب ذاته لذكوره وعادته، وكيف يرغم قلبه، سوء رضى أو لم يرض، على عمل خير والتوصع والوداعة والصدقة، وكيف يذل كل ما في وسعه، فإن الرب يحسن عليه ويُظهره

رحمته، وتغصّبه من أعدائه ومن سلطان الخطية، ويملاؤه من الروح القدس؛ وحسب ما يتمم وصايا الرب دون تعصّب وإجهاد، لأنّ الرب الساكن فيه هو يكون العامل فيه، وبذلك يثمر ثمار الروح بظاهرة.

٧٢٧ — يجب على الإنسان أن يغصّب ذاته على كل ما هو صالح، ولو كان رعباً عن ميول قلبه، متروكاً لرحمة من الله بإيمان غير مرتاب. فيغصّب نفسه على الصدقة عندما يكون فقيراً في العطاء؛ ويعصّب نفسه على السوء على الشفقة وعلى افتناء قلب رجوع عندما يرى نفسه قد جنحت، والتسلّط؛ ويعصّب نفسه على أن يكون حقيراً مردوداً في أعين الناس، فعندما يُحتقر ويُردّل يحتمل بصبر، وعندما يُرذرى به فلا يغضب؛ ويعصّب نفسه على الصلاة عندما يجد نفسه فارغة من ثمارها، فعندما يرى الله جهاده ومعصّته يعطيه الصلاة الروحانية الحقيقية التي بلا تعصّب (روح التأمل)، ويمحبه نفساً محسنة وديعة رحيمة. «أحشاء رأفات ولطفاً وتواضعاً ووداعة وطول أناة.» (كو ٣: ١٢)

٧٢٨ — وإذا غصّب الإنسان نفسه على الصلاة فقط طامعاً لثمارها وموهبها، ولم يغصّب نفسه على الفضائل الأخرى كالوداعة والتواضع والرحمة، ولم يجهد نفسه للإشتراك في حمل مشقات بقية الوصايا للتقدّم فيها بمقدار ما تسمح به أسيّة وتمتد إليه الإرادة، يُعطي نعمة الصلاة فعلاً مع جزء من الانتعاش وفرح الروح حسب سؤاله، إلا أن سيره وسلوكه يطلان كما كانا، فيبقى بلا وداعة لأنه لم يطلبها أو يفتش عنها أو يجاهد ويعد نفسه لصلواتها؛ كذلك يبقى بلا ثمار التواضع الحميمة لأنه لم يطلبها ولم يغصّب نفسه عليها؛ ولم يشترك في تعاب الآخرين لأنه فقد روح الرحمة؛ وفي القيام بأعماله لا تجد عنده إيماناً أو ثقةً برب، لأنه لم يعرف نفسه ولم يكتشف أنه عديم الإيمان والثقة.

٧٢٩ — حينما يغصّب الإنسان نفسه هكذا على كل الفضائل، ويلجأ في طلب وسؤال كل ما هو صانع لخلاص نفسه، ويثبت سؤره بأعماله وجهاداته، فإن الرب يعطيه روحه ليعمل بها، ويكمل كل صلاح. وبدون عناء وتعصّب بعمل الفضائل التي كان يتممها فلا بكل جهد وتعصّب. وتحل عليه حكمة الروحانية ومعرفة الحق وتصير كطبيعة له، لأن الله يكون ساكناً فيه.

هكذا وجب على الإنسان أن يهيء قلبه لعمل الله بكل قوته وقدرته، ويقدم فحراً فيه ليحل الله في دحمته. وما لم تُعدّ الإنسان نفسه ويزيها بالفضائل، يُحرم من ثمار النعمة وعمدها حتى وإن حبّ عليه، لأنه يصعد بها سريعاً ويسقط بسببها، لكونه لم يسلّم نفسه إلى وصايا الرب بعزم القلب. إذ أن سُكنى الروح وراحته يكون في المتواضع الوديع المتمم لكل الوصايا.

ليس بالأمر الهين أن تفتني فلاناً نقياً! إذ أن ذلك يحتاج إلى جهاد كثير ومشقة عظيمة، بالصلاة والصلية، حتى يؤهل الإنسان إلى بقاوة القلب ويُستأصل منه الشر تماماً. وهكذا بقية الفضائل.

أبا مكاريوس الكبير

٧٣٠ — تعنّب كيف تصنّي واعصب داتك على الصلاة. في الهدّة سيكون الأمر لديك شافاً، ولكن بعدئذ كبر عصب نفسك صر سبلاً لديك أن تصلّي. كل شيء في بدايته يحتاج إلى أن يعصب الإنسان نفسه عليه.

الأب يوحنا ك.

نصيب النعمة الإلهية في الإجتهد البشري:

٧٣١ — «الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص»:

لأن إرادة الله أن لا تكون النعمة وحدها هي العائمة في الهواء بل تكون مشرّكة مع صفات الأعمال لصاحده. لاحظ مثلاً كيف كان سلوك السيد مع بلاميده وضع عنهم وصايا تسمى بسموه، لم يترك عمل النعمة. فعمل المحنة كان عنه هو، ثم الوصية التي كان عنهم أن يتمموا تتم المحنة فهي عدم الإهتمام بسوء، وفتح أبواب الناس أمام وجوههم كان من عمل النعمة. يجب، ولكن عدم حسن سوء أكثر من الخلق كان من عمل إكرامهم لدواهم، ومخبرهم بسلام وسوء الناس كان من عمل النعمة، ثم السؤال عن الخلق وعدم الدخول في فحص من هو مستحق، فكان من الأوامر التي عليهم أن يتمموا.

وعند من يرفضون سببهم كان مبروراً به، واستجابهم بقطر وودعه من أمام وجوههم دون لتعرض لهم أو إهانتهم كان من الواجبات التي عليهم.

كان عنهم أن يختصوا بطرد والإهانة ولا بأسوا السنة، وحلّاصهم ومعونتهم السريعة في حينه كان على من أرسلهم.

يوحنا ذهبي الفم

٧٣٢ — بعد حنّ النعمة تصير النفس بلا هم أو اضطراب، إلا أن الله لا يترك طلب من النفس أن تظهر إرادته ومسيرتها نحو الإصلاح حتى بعد سوعها حد الكمال لتكون تدفق دم مع الروح: «وجدت قلبه حسب قلبي».

٧٣٣ — الإيمان بأن الإنسان نعمة، ويكون أهلاً لدخول الملكوت، إلا أنه من ناحية أخرى عليه أن يحافظ على روح النعمة ويكون موافقاً له في كل أعماله، فلا يأتي عملاً رداً أو يهمل عملاً من أعمال الله. فإذا داوم على ذلك ولم يخرج الروح داحنه بعمل ما يوفقه، يُمكن عملياً من الدخول إلى ملكوت السموات.

وكما يشعر الإنسان ويدرك دنس أعمال الشر إن كان من جهة شهوة ردية أو غضب أو حسد أو غيرة أو فكر شرير، فكذلك يجب أن يشعر ويدرك قوة نعمة الله التي نحن على الإنسان بعمل القضاة،

وهذا يتشبه ويحتط بالطبيعة الإلهية الصالحة و بأعمال القداسة التي من فعل النعمة.

وعندما تُختبر إرادة الإنسان تدريجياً على مدى الزمان باختبارات متنوعة، فإن كانت على الدوام حسب درجة لعممة المعطاة وموضوع رضى ومسرة الروح القدس، تزداد لعممة فاعلية في الإنسان حتى تشمل الإنسان بأكملته، ونصعده حسب قياس القداسة والطهارة التي تليق بقامته الروحية، ونجعله لانهاً ملكوت الله، الذي له السُبُح والمجد إلى الأبد آمين.

٧٣٤ — لقد جعل الله كل مقاومة الشيطان في حدود استطاعة إرادة الإنسان وحرية، ولكن لم يُعْطَ الإنسان قوة كاملة يستطيع أن يسيطر بها على كل انفعالاته النفسية وشهوته، لذلك قال: «إن لم يسر الرب اسيرت فباطلاً يتعب الباطلون وإن لم يحفظ الرب المدينة فباطلاً يسهر الحارسون.» (مر ١٢: ١٢٧)

٧٣٥ — إنها تشبه الكتابة على صفحة الكتاب. تكتب ثم إذا ترى أنك لا تعي ما تكتبه تماماً فتمحوه وتكتب ثانياً، أما الكتاب فعليه أن يقل أي نوع من الكتابة، هكذا تسليم الإرادة لله. والله يغيّرنا إلى ما هو حس في عييه، ولكي يربنا رحمته المتسعة فتح بانه لكل الساعين إليه من كل خلق ومن كل أمة.

لما أرسل الرب تلاميذه أعطاهم قوة الشفاء، فشمو بعضاً من الناس وبعضاً لم يستطيعوا أن يشفواهم مع أنهم كانوا يتمنون أن يشفوا الجميع، ولكن الله لم يسمع لهم بكل ما أرادوا.

كذلك بولس الرسول لما دلّوه في زبيل من سور مدينة دمشق ليهرب من وجه الحارث ملك الدمشقيين، كان ممكناً — لو شاءت النعمة التي معه — أن تجعل الحائط يشق ويجوز، وهو رحل الروح القدس. كل هذه الأمور حدثت بعناية الله حتى يظهروا في بعض الأمور أقوياء أصحاب قوات ومعجزات، وفي بعض الأمور ضعفاء بلا قوة، حتى يكون هناك محال لعمل الإيمان في الناس، وحتى تُختبر وتُسْتَعْلَ حرية الإرادة: هل كان هناك من سيعثرو ويضعف ويعتاط بسبب جزئهم الأضعف؟

أما إذا أمكن لرسول أن يصعوا كل ما أرادوا، لصار الناس — وحرية إرادتهم — في خدمة الرب بالقوة الإجبارية، ولغطت القوة الإعجازية قوة الإيمان، وانساق الناس إلى المسيحية بسبب المعجزات وليس بسبب الإيمان. ولكن المسيحية هي هي حجر عثرة وصخرة شك!! (رو ٩: ٣٣)، ولكن الذي يؤمن به لا يحزى.

٧٣٦ — أحياناً يقوى عينا جانب الشر (بسماع من الله)، وتثب علينا الأفكار بشدة، وفي أخرى تكون ثقة الإنسان وعمره أكثر من قائد متصبر يستمد العون والحياة من الله ويقاوم الشر بقوة. وهكذا يسمح الله أن نكون في ناحية معلولين وفي أخرى غالبين، حياً ضعفاء وحيماً بتقدم إلى الله بغيرة

وحرارة منهية. والشيطان يعلم ذلك ولا يتجاسر أن يقترب من الإنسان في هذه الأوقات لأنه يعلم أنه لا يقوى عليه. ولماذا؟ لأن الإرادة تكون حاضرة عنده مشددة بالنعمة، وقد تكاثرت عنده بسبب ذلك قوة الإيمان والحب.

يحرث الفلاح الأرض ثم ينتظر الندى ولا مطار من فوق، فإذا لم يأت الماء من فوق يصير الكرم بلا ثمرة ويصحح الكرم بلا مكسب من فلاحته هكذا أيضاً في الروحانيات يجب أن يعمل ويجاهد كل إنسان برادة وعزيمة، لأن الله يطالب كل إنسان بكثته واجتهاده وعمل يديه، ولكن إذا لم تدركه نعمة الله من فوق، ويشرف عليه سبحانه جوده وتحننه، يبقى بلا ثمرة من جهاده.

٧٣٧ - يحترث الفلاح ويجهد ويصع بداره في الأرض ثم يقف مستطراً المطر من فوق. فإذا لم تظهر السحب وتهب الرياح والعواصف، يصير جهاد الفلاح وعمه بلا فائدة، وتبقى البذور عارية لطيور السماء لتلتقطها، هكذا الإنسان المتكل على عمله، الذي لا ينظر إلى فوق بل يكتفي بعمل يديه، فهما كان جهاده وصلاته وتقشعه وتبعده عن الماديات ومحبته للإحوة الغرباء، فإنه لا يأخذ ثمار جهاده ورحمة إذا لم يشرق عليه غنى الله وعمل النعمة وهب عليه الروح القدس ويتساقط عليه ندى رحمة الله.

٧٣٨ - مكتوب أن الكرم عندما يرى غصناً حاملاً ثمراً فإنه يبقيه ليأثى بشمر أكثر، وعندما يرى آخر غير مشمر فإنه يقطعه ويلقيه في النار (يو ١٥: ٢). هذا هو نصيب الإنسان، كفرع في الكرمة يقدم صلواته وأسهاره وصوامه ومحبته وغريته عن العالم لا كأنها صادرة منه، بل من الله أصل كل الخيرات والمصائب. وليمل هكذا: لولا أن الرب أعانني ما كنت صليت أو سهرت أو صُمت أو خرجت من العالم. ولا يفتخر في نفسه بجهاده بل ينسب كل شيء إلى أصله. لذا حينما يرى الله غرض الإنسان وأنه لا يود أن ينسب شيئاً إلى ذاته بل ينسب كل عمل حرية وإرادته إلى الله، فإنه يسمح أشياء فوق إرادته وفوق استطاعته: فرحاً في الروح وسلاماً في القلب.

٧٣٩ - لو كان السجّاح ممكناً بدون مجهود لما كانت المسيحية صخرة شت وحجر عثرة للدين لا يجاهدون، ولأمكن أن يجعل من الإنسان مخلوقاً عاجزاً غير قادر أن يميل إلى الخير أو إلى الشر. لأن الساموس والوصية قد أعطيت للإنسان الذي له حرية الإرادة أن يميل إلى الخير أو إلى الشر، وله سلطة أن يقيم حرباً على ما يخالف إرادته.

الوصية والساموس لم يوصعا للخليفة العاحرة المفتقرة إلى الحرية. فالشمس والقمر والسماء والأرض لا تدعى للسير في غير ما حُدّد لها، لأنها من طبيعة محكومة بالعور، ولهذا لا تقع تحت عقاب أو ثواب. إنما العقاب والثواب قد وُضعا لمن يستطيع أن يميل بحرية إرادته إلى الخير فيمتجد، أو إلى الشر فيعاقب. لذلك لجعل سكوت ثواباً وجهم عقاباً للطبيعة القابلة للتبديل القادرة أن تهرب من الشر وتمرق من الخير.

وإن قلت أن الإنسان ليست له طبيعة متغيرة، يكون من يعمل الصلاح غير مستحق بعد للمديح أو الثواب مهما كان عمله جيداً.

٧٤٠ — الرب يعمل مع الإنسان في أرض النفس. أما الأشواك التي يندرها الشرير فهي تنمو، ولكن حينما تكثر النعمة تذوبها وتلفحها شمس البر.

٧٤١ — «إن كنتُ أتكلم بالسهة الناس والملائكة ... وإن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم؛ وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال، وإن أطعمتُ كل مُوالي وإن سلَّمتُ جسدي حتى أحترق، ولكن ليس لي محبة، فلا أُنفع شيئاً.» (١ كو ١٣: ١ - ٣)

هذه المواهب تُقدَّم فقط كمشوقات ودواعي للدخول في الإيمان. والذين يكتفون بها لا تفهم شيئاً كنصر الآية. كثيرون من الإخوة وصلوا إلى ذلك القياس فأخذوا مواهب شفاء واستعلاء وسوء، ولكونهم لم يصلوا إلى الحب الكامل أي الله الذي هو رباط الكمال (١ كو ١٤: ٣) باغتهم الحرب، وإذا لم يحترسوا سقطوا!! ولكن إذا وصل أحد إلى الحب الكامل فهو يكون موثوق الرباط بالله وأسير النعمة.

فكل اجتهاد وكل بلوغ لم يكمل ولم يُكْتَلْ بعد برباط الحب، يبقى معرضاً للحوار والحرب والسقوط والروال. وإذا لم يأخذ صاحبه الحذر البالغ فإن الشيطان يباعته ويصرعه.

أبا مكاريوس الكبير

٧٤٢ — الملل عدو الصلاة: إذا وقمت يصارعك لتجلس؛ وإذا جلست يصارعك لتتكى؛ وإذا اتكأت يصارعك لتنام. أما ثمرة الملل المرة فهو التنقل من مكان إلى مكان، وعصيان أوامر الرؤساء والآباء.

٧٤٣ — إذا قُذِّمت المائدة يهرب الضجر، وإذا حانت الصلاة يحلُّ على الجسم. وإذا وقف الإنسان في الصلاة أغرقه في النوم أو أطلق عليه التثاؤب في غير وقته، ويأمر بك بالإستناد على الحائط. وإذا ما انتهت الصلاة تنفتح العيون ويعود النشاط وتسرع الرجلان.

الأب يوحنا الدرجي

٧٤٤ — إسهر بغير ضجر، لأن الله يحب سهرأ بفرح؛ وكل ما يكون بفرح فله ثمرة، أما العمل الذي بالضجر ما يكون له أجر بل دينونة.

يوحنا ذهبي الفم

٧٤٥ — تسقط في الأحزان كل نفس ذليلة قليلة الثقة بالله، مثل السوس الذي لا يصيب إلا الخشب، كذلك الأحزان لا تقوى إلا على المسترخين من الناس.

٧٤٦ — قال ربا يسوع المسيح: «إن الأجير مستحق أجرته»؛ والرسول يأمرنا أن نتعب ونعمل بأبدينا. فيجب أن لا نفكر أن عبادة الله صارت لنا حجة في الكسل وسبباً لنهرب من التعب، بل علينا أن نجاهد لنقول مع الرسول أنه تأتعب كثيرة مرات عديدة وأصوام وأسهار وجوع وعطش. هذا بافع لنا كثيراً ليس لكي نجمع الجسد ونستعبده فقط بل أيضاً لنعطي المحتاجين. وكما قال الرسول: «من لا يريد أن يعمل لا يأكل»، وقال أيضاً: «أنا لم آكل خبزاً يوماً بل تتعب الليل والنهار»، مع أنه كان له السلطان أن يعيش من تقدمات الناس.

والرب نفسه قرن الخث بالكسل إذ قال: «العبد الخبيث الكسلان».

وسليمان الحكيم وضع التلمة أرفع مكاناً من الكسلان، إذ قال: «إمض إلى التلمة أيها الكسلان وانظر كيف تتعب وتعمل».

والله سيطلب كل واحد منا يوم الدينونة بعمله وجهاده بمقدار القوة التي أعطاها له، فمن أعطي كثيراً سيطلب بجهد أكثر، وهذا ظاهر من مطالبة العبد الشرير الكسلان الذي أعطي وزنة فكسل عنها وطمرها وذهب ونام.

باسيليوس الكبير

٧٤٧ — روح الحزن المفسد يُظلم النفس ويحرمها من رؤية الله ويمنعها من كل صلاح. هذا الروح الشرير إذا ملك على النفس واستحوذ على الإرادة، لا يجعلها تصلّي بصرح روحاني، ولا يدعها تثابر على قراءة الكتب باجتهاد لئلا تعثر على مفتاح الورد فتخرج من فخ الظلمة الخيم عليها.

و بصير الإنسان متكاسلاً في كل عمل مبغضاً للعبادة والصلاة، مسلوب الإرادة من رجاء خلاص، وهم كل ما فيه من اشتياق نحو الحياة الأبدية حتى أنه يقيد بقيود اليأس من رحمة الله.

لذلك وجب أن نسهر ونجاهد ضد روح الحزن المفسد لأنه كما تأكل العثة الثوب فيتهراً، وتأكل الدودة العود الأخضر فييبس؛ هكذا هذا الروح المفسد يضعف النفس ويجعلها جافة لا تقبل كلمة نصيحة أو مشورة من إنسان أو تحبب بكلمة هادئة ودبغة، بل يملأها مرارة وضجراً وحسداً، ويشير على النفس أن تعز من الناس لزعمها أنهم سبب قلقها وأتعبها. وهو لا يترك النفس البائسة لتعرف أن سبب شقاوتها وبلوتها ليس هو من الخارج بل من الداخل، لأنه واضح أن الإنسان لا يتوجع من آخر إلا بسبب مرض النفس المحتفي في أعماقها، لذلك قال السيد: «نظف أولاً داخل الكأس».

٧٤٨ — أما روح الضجر فهو زميل روح الحزن المفسد وهو متولد منه، و يأتي على الإنسان بكسل وتراج وبعضة للمكان الجالس فيه، وحتى للأشخاص الذين يسكن معهم ولكل عمل كان، وحتى لقراءة الكتاب المقدس، و يلح عليه هذا الروح بترك موضعه والإنصراف، ويشير عليه أنه إن لم ينتقل

من موضعه فباطلاً يكون معه . وليس من علاج لذلك إلا بتعوّد الكفّ عن كلام البطالة والمزاح ، والمثابرة على الصلاة والعمل . لهذا كان الآباء القديسون المجربون في البرية لا يسمحون للرهبان أصلاً أن يتركوا عنهم العمل وشغل اليدين صيفاً وشتاءً ، وخاصة الشباب لأنهم جربوا أن موضة العمل تطرد عنهم الكسل وروح الضجر .

ولم يعملوا كفاهم فقط بل كانوا يستفضلون من أعمالهم و يعطون الغرباء و محتاجين و يتعاهدون الذين في السجون ؛ وكانوا يعتقدون أن عطيتهم للآخرين تعتبر ذبيحة مقدسة ترضي الله . فمن يعمل يقاتله شيطان واحد والكسلان تقاتله شياطين كثيرة .

وقد قال لي مرة أنبا موسى الأسود الرجل المجرب ، حال جلوسي معه في البرية ، حينما أحترته أني مرة تأذيت جداً من شيطان الضحروم أفلت منه حتى ذهبت إلى أنبا بولس ، فأجابني أنبا موسى قائلاً : ثن أنت لم تفلت منه ولكنك أسلمت نفسك إليه أكثر وأطعته ! واعلم أنه من الآن سيقا تلک قتالاً أشد وأثقل إن لم تحرص ، فلا تَطْعِه بمبارحة مكانك وقاتله بالصبر والصلاة وعمل اليدين مع طلب معونة الله .

الأب يوحنا كاسيان

٧٤٩ — قبل كل شيء أعلم أنه لن يُتَوَجَّح أحد إذا لم يجاهد قانونياً ، كما قال بولس الرسول . وكل واحد لا يجاهد حسب ناموس السيرة التي اختارها لنفسه فإنه لن يُتَوَجَّح . فينبغي لمن تقدم إلى الطريق الروحاني أن يغضب نفسه في كل تدبير يقدمه إلى الله ، إن كان صوماً أو صلاة أو بقية الفضائل .

واعلم أيها التلميذ المتعلم للحق أنك لا تستطيع أن تثبت في الأمور الإلهية إذا لم تغضب نفسك عليها كل وقت .

٧٥٠ — بقدر ما يشقى الإنسان ويجاهد و يغضب نفسه من أجل الله ، بقدر ما تُرسل إليه معونة إلهية وتُحيط به وتُسَهِّل عليه جهاده وتُصلح الطريق قدامه .

٧٥١ — إذا كنت تسأل : إلى أي حد أعصب ذاتي ، أقول لك إلى حد الموت اغضب نفسك من أجل الله .

اغضب نفسك في صلاة الليل وزدها مزاميراً ، ولو مزموراً واحداً وسجوداً قليلاً زائداً عن العادة ، فإن نفسك تنتعش وتدنو منك معونة الله وتُوَهِّل لحفظ الملائكة .

اغضب نفسك في عمل المطانيات لأنه محرّك للحزن في الصلاة .

اغضب نفسك في هذيد المزامير (أي التفكير فيها بعد تلاوتها) .

إذا حان وقت الصلاة فاعصب نفسك وقم لتشارك في الخنعة والى عنك ثقل الجسد الذي يدعوك
للتخلف عن العبادة.

اغصب نفسك على الصلاة قبل مواعيدها لتخف عليك.

صل بطول روح وتأني في لرامير بصر وتجدد يدون ضجر، ولا تتلوها كمصعوط.

اغصب نفسك في الليل أن تقوم وسجد فدام الصيب ولو أن النوم يكون ثقيلاً عنك و جسد
يؤخرك. هذا هو الوقت المقبول وهذه هي ساعة المعونة.

٧٥٢ - إحدراً أن تُبطئ شيئاً من خدمة الأوقات (أي السبع صلوات التي بالإحياة). إتعيب
جسدك بالصلاة حتى تؤهل لحفظ الملائكة وحتى يتقدس سر برك من عرق الصلاة، و غير تعب في
الصلاة لا تنم.

ولا تصدق يا أخي أنه من دون الأعمال والجهاد يعتق الإنسان من الخطايا أو تُعطي له المواهب.
واعلم أن الملائكة سوف تشهد في تلك الساعة بمدار تعبك وصيغتك وشمالك لأجل بُعْثت للحطية
وجحودك لها.

٧٥٣ - صدقي يا أخي أن المل والصجر وثل الأعصاء والكذروتعب الفكر ونية أسباب
الحزن التي يسوقها عدو خير عني البسك، تُحسب لهم عملاً إلهياً. ولو بيني الإنسان مصعوطاً بها فيصير
ويحتمل ولا يخضع لها، تُحسب له ذبيحة نفية وعملاً إلهياً ما خلا فكر العظمة والكبرياء.

٧٥٤ - صل أن لا تدخل لتحارب النفسية. فأما نجارب الجسد فهيء نفسك لها بكل قوتك
وشجاعتك. لأنك لا تستطيع أن تقترب من الله وتستحق رحمته إلا بها. سيدنا أوصانا أن نصلي طالين
عدم مدحون في نحارب، وهو قال: «أدخلوا من الباب الضيق». في الأولى خطر الانفصال عنه لأنها
نحارب الشهوات نفسية والتحلية وقت الضيق النفساني؛ أما الثانية فهي لضيقات التي توصينا إياه
التي بأتعاب الجسد.

٧٥٥ - محبو الراحة لا يحل فيهم روح الله بل الشيطان.

أم إن كنت نائم في سهرت من الوقوف و يوسوس الشيطان إليك أنه ما بقست فيك قوة و يوحى
إليك بالنوم، فقل له أنا أجلس وأكمل سهري ولست أنام.

٧٥٦ - إنه أليق لنا أن نموت في الجهاد من أن نحيا في السقوط.

٧٥٧ - هذا العالم هو ميدان الجهاد، وقد وضع علينا الرب أن لا يفرغ جهادنا حتى لهاية. والذي

يصبر إلى المنتهى فهو يخلص. حينئذ يظهر من تجلّد وصبر ومن أدبر وولّى. لهذا يحب ألا يقطع الإنسان رجه لأنه ربما في آخر لحظة يبار الظفر على عنقه و يرتفع اسمه كأحد الشجعان! فلا تنهون بالصلاة ولا تملّ من طلب المعونة.

٧٥٨ — وإذا هبط علينا روح الإهمال و بردت حرارتنا بحسب بيننا وبين أنفسنا وجمع أفكارنا وبعز بدقة ما هو سبب الإهمال ومن أين بدأ وما هو الذي تُسبّط من الصلاة و لعبادة؟

وإن كان لأمر يستحق التقوم فوّمه، وإذا كان يستحق لقطع أقطعه. وإن لم تكن كمواً لذلك ولم يوحد مرشد لتستشره من جهة أمورك، إرجع إلى أول الطريقة لي بدأت بها وبدأ سيرتك كمستدىء، وأنت في وقت يسير تمتد حرارة وترتفع إلى الدرجة التي سقطت منها، وتنظر نفسك لدرجات التي عبرت عليها في صعودك الأول.

شاب سأل شيخاً مجرباً: ماذا أصنع للجسد عندما يلزم به المرض والكسل و يرتخي منه لعزم وتبرد لإرادة من شهوة الصلاح والعبادة؟

أجابه الشيخ: بما يحدث هذا الأمر من حرج وراء الله تعالى وبصفه الآخرباي في لعالم، وقلبه قد انقسم على نفسه، فتارة ينظر إلى الأمام وتارة ينظر إلى الخلف، ولم يطرح عنه شهوة العالم بآتمام. لذلك أمر سيدنا أن الذي يتبعه يجب أن ينكر نفسه أولاً: أي يحدد شهواته وملذاته الجسدية و يكون مستعداً كمن قد دُعي للصعود على الصليب وقد وضع في قلبه أنه قبل الموت. أما الذي يؤثر أن يُحيي نفسه في هذا العالم فهو يهلكها. أما من كان بصفه حياً وبصفه الآخريتها فهو لا يصح لمكوت الله.

٧٥٩ — الذين يمدأوب جهادهم بعزيمة متراخية فإن الشيطان يعوى عليهم، والله لا يعضدهم لأنه يقول: «ملعون من يصنع عمل الرب بتراخ».

٧٦٠ — القديس باسيليوس يقول: من تكاسل عن الأمور الصغيرة لا تثق به في الأمور لكيرة. ولا يثقل عليك أن تموت من أجل الأمور التي تحيا بسببها.

٧٦١ — إن مصائل لا تكثب من كلام الكتب بل من تجربة طوية. قد يكون إنسان ساذج بعض عملاً بالتحفة أفصل ممن كان عالماً في سيرة الروح بواسطة سطور الكتب والتسليم عن الآخرين فقط بلا تجربة واختبار.

٧٦٢ — إن جميع فضائل التي يفتشها بالتعب إن كنا بهاون في عمها تضعف قليلاً قليلاً.
مار إسحق السرياني

٧٦٣ — سُئل الأب صاروفيم الذي من صروف قديس روسيا في لقرن التاسع عشر: ماذا يعور هذا

الجيل ليوتى ثمار القداسة التي كانت غزيرة في الأجيال السالفة؟
أجاب: يعوزهم شيء واحد، التصميم بحزم قاطع!

ملخص المبادئ الهامة:

- (١) في بدء حياة العبادة تكون الصلاة أمراً ثقيلاً على الجسد والعقل، وإن تُركا لذاتيهما لما تقدمنا للصلاة قط. لذلك وجب أن نغصب ذواتنا حتى تصبح الصلاة جزءاً هاماً من حياتنا لا نستطيع أن نهمله أو نستغني عنه.
- (٢) الجسد يعمل ضد الروح و يشتهي خلاف ما تشهيه. إذن، فلا تُعِرْ التفاتك عندما يلح عليك بطلب الراحة، لأن من أطاع جسده هلكت نفسه.
- (٣) مهما كان الجسد متعباً من عمل النهار فالصلاة لا تزيد تعباً، بل على العكس فإن الصلاة سوف تعش روحك وجسدك أيضاً، أليست الصلاة تشفي المريض؟ إذن فهي تُزيل التعب أيضاً.
- (٤) متى قمت لتصلّي فلا تختصر في الصلاة التي قررتها لنفسك، لأن هذا يحرمك من لذة الصلاة كتقدمة حرّيتك. فإذا أتاكَ هذا الفكر فاعمل بالعكس وزِدْ صلاتك قليلاً عن المعتاد وأنت ستشعر بنصرة عجيبة وتحس أن العدو هو الذي كان يشير عليك بالاختصار.
- (٥) إذا وقفت لتصلّي فاجمع نفسك وفكرك وقلبك وقدم ذبيحة حبك من كل قوتك وقدرتك! ولا تجعل فكرك وقلبك في شيء آخر لأن في هذا خداعاً لله. وهذا يبغضه جداً لأنه يقول: «يا ابي أعطني قلبك.» (أم ٢٣: ٢٦)
- (٦) الصلاة التي يقدمها بفتور وعدم اجتهاد ولا نغصب ذواتنا وفكرنا فيها، تكون ضدنا وتترك فاصلاً بيننا وبين الله.
- (٧) صلّ بلجاجة وشدة من أجل الصلاة ذاتها حتى تكون حارة ومقبولة حسب مشيئة الله، عالماً أن صلاتك إما تُحسب لك أو تُحسب عليك.
- (٨) لا تفضل الحديث مع الناس أو العمل الجسدي، مهما كان، على الصلاة، لأنك بذلك

تكون قد فضّلت الناس والتراب على الله: «وقال لبطرس اذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مت ١٦: ٢٣)؛ «ينبغي أن يُطاع الله أكثر من الناس» (أع ٥: ٢٩)؛ «وقالوا لا يُرضي أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد.» (أع ٦: ٢)

(٩) الصلاة إذا كانت بسبب الظهور أو المجاملة أو الخوف من الناس أو الرؤساء، فهي كصلاة المريسي تُنشئ لعنة. فيجب أن تكون صلاتنا بحب واشتياق وخوف الله.

(١٠) الكسل هو الشوك الذي يخنق حنطة الجهاد. وهو يحرمنا من أتعابنا السالفة. والكسل فرصة للشيطان يرمي فيها بذوره السامة: الحسد، الغيرة، البغضة، الدينونة.

(١١) أعداء الصلاة ثلاثة: مشاغل العالم، شهوات الجسد، حسد الشيطان. إلا أن الصلاة كفء لتغلبهم جميعاً إذا كانت بغيرة واجتهاد.

(١٢) اغضب نفسك في كل كلمة من كلمات الصلاة لكي تكون بصحو وشدة من عمق القلب. فإذا فرحت بصلاتك فاعلم أن الله فرح بها. وإذا وثقت باستجابتها فقد استجيبت لأنه حسب إيمانك يكون لك، والله يعطيك حسب قلبك.

(١٣) لا تخضع لشعور النوم، أو التثاؤب، أو الاستناد على الحائط، أو الاستناد على رجل دون أخرى أثناء الصلاة. لتكن لك رهبة من الديان الذي أنت واقف أمامه؛ واغضب نفسك واعتدل في صلاتك وتعلّل لما تقوله ولما تسمعه.

(١٤) القلب الذي تقسّى بأباطيل العالم وشهوات الجسد طويلاً يلزمه جهاد طويل كذلك.

(١٥) الله يفرح بدجاجتنا في الصلاة، لذلك أعطانا مثل صديق نصف الليل، والأرملة المنيعة. فلا تملّ من الصلاة وجاهد إلى أن تبلع ما تريد.

(١٦) كل ما تغضب نفسك عليه في البداية سوف يكون سهلاً هيناً عليك في النهاية. وكلما تعبنا في الجهاد أكثر كلما تحن الرب عليك أكثر: «لأن الله ليس بظالم حتى ينسى عممكم وتعب المحبة التي أظهرتموها نحو اسمه.» (عب ٦: ١٠)

(١٧) لا تعتمد على جهادك وحده كأنه يوصلك إلى ثمار الحياة الروحية، لأن نعمة الله إذا لم تحلّ على الإنسان وتبارك جهاده يظل عقيماً بلا ثمرة كتقدمة قايين! فالجهاد يؤهلنا

فقط للملكوت، والنعمة تقودنا إلى هناك؛ والجهاد لا يخلصنا من الخطية قط بل يجلب علينا رحمة الله.

(١٨) الموهب التي يمنحها الله لنا تكون بمثابة وسائل لتقوية إيمان الآخرين، فإذا اكتفينا بها فإنها لن تصعب شيئاً بل ربما كانت سبب سقوطنا في الكبرياء وابتعادنا عن الله.

(١٩) الملل ندى نعترينا أثناء الصلاة هو من عمل الشيطان، فإذا ضاعفنا الصلاة هرب في الحال. أما إذا استسلمنا له أنشأ ضجراً وحزناً مفسداً للنفس. وهذا يحرمنا من لذة العبادة ومن الرجاء بالله حتى ومن الثقة في الناس.

(٢٠) حياة الصلاة تزدهر وتقوى بالإجهاد في الصوم والسهر وفي الخدمة وعمل اليدين، والله يطالبنا باجتهاد على قدر ما أعطانا من قوة.

(٢١) لا وسيلة لرفع الملل والضجر والحزن المفسد، إلا بالإنقطاع عن الكلام البطال والمزاح، ومضاعفة الصلاة، والإنهماك في العمل الموكول إلينا، وعدم التنقل من مكان إلى مكان.

(٢٢) لكل سيرة قانون جهاد خاص مرتب عليها، فالذي يتخلف عن قوانين جهاد السيرة التي اختارها لنفسه سواء كان خادماً أو كاهناً أو راهباً لا يُكَلَّل.

(٢٣) الصلوات السبع التي بكتاب الأجيبة سنّها الآباء الثلاثة والثمانية عشر المجتمعون بنيقية على جميع المسيحيين عموماً.

(٢٤) إحتمل الملل والضجر والأفكار الشريرة التي يسوقها عدو الخير عليك خصوصاً وقت الصلاة. وطالما كنت لا تخضع لها ولا تميل إلى المشاركة فيها بل تتألم وتشهد وتُظهر عدم رضاك عنها، تُحسب لك كعمل أفضل من الصلاة ذاتها لأن الآباء وضعوها في درجة الإستشهاد.

(٢٥) التجارب التي أمرنا الرب أن نطلب عدم الدخول فيها هي التجارب النفسية التي تؤول بنا إلى الفشل وتُبعدنا عن الخلاص؛ أما تجارب الجسد فعلياً أن نستعد لقبولها بالشكر لأنها توصلنا إلى الله.

(٢٦) لا تقل إني جاهدت ومللت، فرما في آخر لحظة تهزم عدوك وتأخذ إكليلك وتعبر من

أرض الشقاء إلى الراحة الأبدية. وربما يكون ذلك بكلمة تقولها في موضعها أو بفكر منسحق تقدمه أو بشكر على ضيقة تحل عليك. أذكر اللص الذي دخل المدكوت مع مخلصا بسبب فكرة إيمانية ملأت نفسه في آخر ساعة من ساعات حياته.

(٢٧) إذا شعرت بفتور حياتك الروحية وضعفت صلاتك، فأسرع وعالج نفسك: اجلس في هدوء مع نفسك وابحث سبب هذا الفتور فقد يكون من كثرة الخلطة بالناس والكلام، أو ربما من حبك للمزاح والضحك لأن ذلك عدو الحياة الروحية، أو ربما الحسد والغيرة أو الدينونة للآخرين أو الغضب أو شهوة دنسة متعلقة بقلبك. ابحث، وإذا عرفت داءك فلا تتوان عن تقويمه وقطعه مُركّزاً كل عبادتك وصلاتك من أجله.

(٢٨) إذا تعرقت حياتك الروحية لأي سبب كان، فابدأ حياتك من جديد كأول يوم عرفت فيه الله، وابدأ جهادك بشدة وأنت تصل سريعاً إلى درجتك الأولى.



الفصل السادس

ضبط الفكر

+ «مستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح.» (٢ كو ١٠: ٥)

+ «تكلم يا رب لأن عبدك سامع.» (١ صم ٣: ١٠)

+ «أين هي قلوبكم؟»

— «هي عند الرب!»

(القداس الإلهي)

من يعلم الله على الإنسان سعة الخيال وامتداده حتى إلى ما فوق حدود العالم المادي .
فالمكر الشري يستطيع أن يحيط بكل ما على الأرض ويمتد ليتصور ما في السماء .

وقد وهب الله هذا الخيال الحي لتصور به حدود الماضي لحيا فيها ، وبستر في
بركاتها ، ونحناط لأخطائها . وبذلك نستطيع أن نستمد من حياة المسيح ولأنبياء والقديسين
صوراً حية نطبعها على حياتنا : « أنظروا إلى نهاية سيرهم » (عب ١٣ : ٧) ... « تعلموا
مني . » (مت ١١ : ٢٩)

وهكذا نربط الماضي بالصورة الحية المطبوعة في ذاكرتنا نحاصرنا الذي نعيش فيه ، ثم
نمتد بهذا الخيال المتسع لتصور مستقبلاً أفضل .

وخيار هو ارتباط الذي يربط حقائق الماضي بوقائع الحاضر بأمان المستقبل .

إلا أن سعة الخيال تختلف درجتها بين الناس ، فهم من وهب خيالا جبارا غير محدود
يتصور الأشياء على حقيقتها دون أن يراها ! فلا يكاد يمنع بصره على بعض الأمور لعادية التي
لا تكاد تسترعي نظر الآخرين حتى يرى فيها جمالا وروعة مخفية و يستخرج منها معاني غنية
في الدقة والإحكام .

والناس منهم من يتصور الحوادث كمجرد صور بسيطة تعرض على الذهب عرصا صامتة
سريعا ، فلا تكاد الخواص تنتبه إليها إلا يسيرا وتعبر دون أن تترك أثر واضحا في النفس .

ومن الناس من يتصور الحوادث تصورا حسيا عميقا ، فتشترك الخواص جميعا في جو
لقصته حتى أن الشخص يشعر كأنه يعيش فيها . وأصحاب هذا النوع من الخيال شديدو
التأثر بسير السنين ، يستطيعون في سهولة ويسر أن يهلوا صوراً من حياة السابقين
و يطبعوها على حياتهم فتصير حقائق الحاضر .

وخيار ككل المواهب الطبيعية التي منحها الله للإنسان ، عرضة للانحرف ، فبدلاً من
أن يكون سبباً لارتقاء الإنسان ونموه في طريق الفضيلة ، تجده ينحرف بالإنسان حياناً

فينساب في أفكار الشر والشهوة و ينتغل بتوافه الأمور واختلاف قصص الحوادث خيالية لم تحدث، ويركن بالإنسان إلى أحلام اليقظة الكاذبة.

فإذا لم يتدارك الإنسان هذا الانحراف و يضبط فكره و يتحكم في حياته، يصح وبالأعلى عليه وخصوصاً في أوقات الصلاة.

فعلينا أن نبحث كيف ينشأ هذا الخيال :

يسس الخيال سينا فائماً بداته، حراً في سيره كما يتراءى لنا، وإند هو محضنة لعدة قوى : فالطموح، والعجز، والشهوة المكبوتة، والغيرة المرة، والغضب، والخوف، كل هذه عوامل مهمة تدفع بالخيال فيطوئ بعيداً عن عالم الحقيقة والواقع ليكمل لنفسه ما عجزت أن تحققه.

لذلك، فعلاج سياب الفكر في أحلام اليقظة واشغاله عن عالم الحقائق يكون بتحسين الموضوع التي يشرح فيها الفكر كثيراً، وهذا أمر سهل يستطيع أن يقوم لشخص به لنفسه. ولكن لضمان لوصول إلى نتيجة حاسمة يُستحسن أن يقوم بتحليل هذه لأفكار الأب الروحي، وعلى سبيل المثال :

إذا كان الفكر كثير الإنشغال مثلاً في الأمور الجنسية كان هذا كشفاً واضحاً لما تعابهه لنفس من لكبت الحسي، وحينئذ يجب الإنتداء في الحان بتدريب لشخص على وسائل التسامي جسسي سواء بالإنشغال في أعمال يدوية أو الرياضة الجسدية أو أي هوية من لهوايات الفنية كال موسيقى أو التصوير أو الألحان.

وإذا كان الفكر دائباً على تأليف مواقف الانتصار والعظمة والوقوف موقف الرئيس الأمر المظاع أو المديس الذي يصنع المعجرات والآيات، كان ذلك دليلاً على كبرياء كمن في النفس وعدم الرضى بالواقع وإهمال في أداء الواجب المفروض.

وإذا كان انشغال الخيال في التلذذ برؤية الخسائر تحمل بالآخرين أو في الإنتقام من بعض لأشخاص، كان ذلك دليلاً على أن الغضب والغيرة يملكان على النفس.

وهكذا نرى أن تتبّع الفكر، فيما يجول فيه، له أهمية عظمى في الكشف عن عدة الأصلية التي طوحت بالخيال هكذا بعيداً عن الواقع، سي إذا كان الفكر كثير لتردد في موضوع واحد.

ومن العبث أن نحاول ضبط الفكر بالقوة، إذ أن ذلك من المحال. فالعمل لا بد أن يشغل والفكر لا بد أن يمتد طالما في الإنسان نسمة حياة سواء كان في اليقظة أو النوم. وإنما العلاج يكون بمعرفة سبب شرود الفكر في الساطل ثم العمل على قضاء علل الكبت.

كذلك لا بد أن هبىء مجالاً خيراً للفكر لئلا يمتد فيه لشع من غريزة حب التأمل والخيال، بأن تتدرب على التأمل واسترجاع حوادث الكتاب المقدس وقصص الآباء، كتدريب يومي منظم.

ولكن بالرغم مما يُقال وما يُعمَل من أجل ضبط الفكر وخصوصاً أثناء الصلاة، فالحقيقة أنه لا يوجد أمام الإنسان لبلوغ الهدوء الداخلي بما فيه من السكينة الفكرية إلا طريق واحد: وهو الحب. الحب المنشق من الأمانة في الله! لأن الطرف الإرادية في ضبط الفكر قد تنجح في السيطرة جزئياً على الأفكار والتصورات، ولكن يستحيل أن تنجح في ربط الفكر بالله!

أما المحبة فعندما تتفجر في القلب نحو الله فهي تحاصر ليس العمل فقط بل وجميع الخواص الأخرى، فيصير الإنسان كله فماً يتكلم وأذناً تسمع ولا تعود أى قوة قادرة أن تفصل الإنسان عن وقفة الحب المتكلم والمستمع لله.

ومحبة الله عندما تشتعل في القلب لا تضبط فكر الإنسان وخواصه بمفردها، بل إن الإنسان كله يدخل في هدوء وسكينة هي الفردوس بعينه. وهذا يرجع لمقدار الأمان والإطمئنان اللاهائي الذي يحسه الإنسان أثناء وجوده في حضرة الله الكلي القادرة والقوة، فلا يعود للماضي بمآسيه وصوره المحزنة أى وجود في أفق الفكر المصلّي، ولا يعود إهتمام بالحاضر ومطالبه، ولا يعود قلق على المستقبل بمفاجآته، لأن نفس الإنسان تكون مرتاحة في الله الذي تثق فيه ثقة لا تُحدُّ كالطفل على صدر أمّه.

ولعل من أعظم أسرار المحبة نحو الله بل وقوى مفاعيلها على النفس لبشرية هو استطاعتها إقناع النفس على تسليم إرادتها وحياتها وآمالها وضعفها في يدي حبسها مرة واحدة وبسهولة، فيقف الإنسان يصلّي، ليس فقط بعقل صاح وفكر منضبط، بل وبشعور التسليم والإطمئنان والهدوء حتى وفي أعنف الظروف وأخطرها فلماً واصطرباً، وإن مظهر لشهيد وهو يتقدم إلى السيف بكل هدوء وسكينة رافعاً يديه وعينيّه نحو السماء مصلياً، هو صورة حية

ناطقة تشهد لقدرة المحبة على غلبة كل شيء!

وهذا، فإن استعداد المحب للبذل وإنكار ذاته هو أقوى درع يحمي الإنسان من كل المفاجآت والتهديدات والمقلقات التي تعتبر أسد العوامل الستة لفكر أثناء الصلاة وخدمة.



أقوال الآباء في ضبط الفكر:

١٦٤ - فوق كل شيء يجب أن نهتم لضبط فكركم في الله بكل وسيلة ممكنة، فتحمل لعقل رقيباً صاحباً على الأفكار حتى يخذلها الجسد للإهتمام فيما يختص به ... فلا يدع النفس تخضع لهذا الخدب ولا تتسارل للإستراش في هذه الإهتمامات الباطنة . وكما أن الجسد مركز لرؤيا فيه هو العين ، كذلك النفس فإن مركز الرؤيا فيها هو العقل .

باسيليوس الكبير

٧٦٥ - ليس حصيه أعصم من هدا . أن يصلي بلا خشوع ووقار وحواف الله !

سمعان (المتكلم بالالهيات)

١٦٦ - من يصلي بدهش حاصر وفكر مجموع يذل فحر الشياطين ؛ ولدي يصلي تشتت العن و عدم اكتراث يسخرون منه و يستهزئون به .

٧٦٧ - ستناب الوفا والخشوع في الصلاة مهما قاومنا العدو . لا تترك خشوعك مهما توقع عيبك الأعداء حتى ورد حشرأوا أن يصفعوك فلا تُرح وقارك لأنه كبر حيرات مموء بركة . من مَنك خشوع وافتنايه سالحى ستمين إليه رب ليطلع عليه و يمحطه كما هو مكتوب : « إلى هذا أنظر: إلى المسكين والمسحوق الروح والمرتع من كلامي » (إش ٦٦: ٢) . مغبوط هو الذي يسهر بكل شيء في سيرة قتنا خوف الله والخشوع أمامه .

مار أفرايم السرياني

٧٦٨ - كيف تبلغ إلى ضبط الفكر وشدة الإنتباه أثناء الصلاة؟

إسمع دانت بلا شك أن الله أمام عيبك . إذا وقف إنسان أمام رئيسه أفلا ينتمت إليه بعينه وسمعه وفكره و بكل مساعره ؟ فكيف سحري من يشف أمام الله ليصلي إليه ! خصوصاً وأن الله هو كاشف ما في النفس وما في العقل !

٧٦٩ - هل ممكن أن نحصل على ضبط الفكر في كل شيء وفي كل وقت ؟ وكيف نكون لوصول

إلى ذلك ؟

هذا أوضحه دودو ثلاً: «عياى إلى الرب في كل حين»: «أرى الرب أمامي كل حين لأنه عن يميني فلا أترزعزع!» (مز ١٦: ٨)

وما كيف الوصول إلى ذلك فكما أوضحت سابقاً: لا يجب أن نعطي لنفس فرصة أو وقت تقف فيه عاصلة من ذكر الله وأعمامه وعطاياه ومن دوام الإعتراف به والشكر له على كل شيء!

باسيليوس الكبير

٧٧٠ — كما يستحيل على الإنسان أن يطارد عصموراً طلباً في الهواء لأن ذلك ليس من طبيعة الإنسان؛ كذلك يستحيل بمجهودنا الشرى أن نهرم أفكارنا الحسدية وطياشها في الشر، أو نجرع من العقل في لشون أمام الله... بلرب أن نستخدم الصلاة وطلب المعونة بلا انقطاع!

فإذا حاولت بمجهودك فقط أن نهرم أفكارك فأنت لا رلت تجرى وراء العصمور عشاً.

حزقيوس الأورشليمي

٧٧١ — ضبط الفكر لارم لنا جداً طالما نحن نحيا هنا على الأرض في بيت اصصوص (أى الشياطين)، وليفطة لارمة حفظ الفكر. وليس مفروضاً علينا أن نعمل حتى نبلغ إلى أون الثمار فقط بل نحاهد باليفطة حتى إلى حطة الموت. لأن الفلاح لا يطمئن على زرعه إلى أن يثمر فقط، لأنه ربما لبرد يضربه في آخر لحظة؛ بل يطمئن حينما يدخل قمحه إلى مخزنه.

٧٧٢ — حينما يكون عصك مشتتا توافقه في هذه الأوقات كثرة القراءة نفهم، ولكن ليست كل الكتب تنفع لتركيز العقل.

نمدر لإمكن أكرم قراءة أكثر من الصلاة لأنها سوف توصلك إلى الصلاة لفعة التي بلا طيشة فكر.

٧٧٣ — دوام ليفطة (مع الخلوة) والقراءة (مع الحفظ) وكثرة السجود (مع اصوم) هذه بسرعة تعطى لستشيط سركات الحياة لروحية. لهذا يجب أن لا نفص من التحفط حتى ينشئ فحر التوبة الحقيقية في قلوبنا ونضبط التواضع، فيجد قلبنا راحته في الله!

مارإسحق السرياني

٧٧٤ — روح الصلاة هو الإنتباه وضبط الفكر في معاني الكلمات. وكما أن جسد بدون عقل لا قيمه له؛ هكذا الصلاة بدون فكر مجموع إليها تكون بلا قيمة. ولصلاة دون انتباه هي تمتمة كلام باطلة، ومن يصلي هكذا يصير معدوداً بين الذين اتحدوا اسم الإله صلاً (أم ٣٠: ٩).

٧٧٥ — بطو كلمات صلاة بلا تسرع، ولا ندع عصك يطوف في كل مكان بل نفس عليه

واربطه في معاني كلمات الصلاة.

هـ ... ضيِّقة هي الطريق وكرمة للعناية للعقل الذي اعتاد الجولان في كل فكر محلولاً وسائباً في كل مكان! ولكن سدوء التدفُّق في كلام الصلاة وفي معناه فإنه حتماً سبيل إلى الإنتباه، فإذا ما داق بركته يشاق دائماً أن يتقدم في الصلاة التي بلا طياشة.

الأسقف إغناطيوس ب.

٧٧٦ - إجهد أن تعمل عملك أثناء الصلاة أصمّاً، فتدبر أن تصي كما يجب عليك.

٧٧٧ - كل جهاد نحاهده الشيطان بشدة ضدياً، هو صد الصلاة الروحية ذات الفكر لمجتمع فيها، فهي تكون غير محتملة على الأرواح الشريرة وتؤذيهم بشدة لأنها تقدمها كثيراً إلى الله.

نيلوس السينائي

٧٧٨ - إذا أردت حملاً أن تغلب أفكارك وتلبسها الحري: فف صامتاً وهديء فبك وبدأ صلاة قصيرة مثل صلاة «يا ربّي يسوع»، إلصق بها كل حواسك. وكلما زرع عملك رُدّه، في أيام قبيلة ترى قيمة هذا العمل.

حزقيوس الأورشليمي

٧٧٩ - حين تستصبت بتقدم دبيحة الصلاة، حالاً تندفع الأفكار ويجمع بعضها بعضاً من قريب ومن بعيد حتى والتي مضي عليها سنون طويلة، ثم تبدأ بهجومها على العقل وتثقل عليه حتى تحرم الإنسان من تقدمه ذبحة صلاته علفية، وعلى الأقل ترد بنفسها فيما كما عازمين أن تقدمه من حررة ودموع!

وكما وقف ابنهم يقدم ذبيحته ووف غروب الشمس فتوافدت عليه طيور السماء وحولت أن تنفض على ذبائحه ووقف هو يزجرها ويطاردها باحتداد حتى لا تحطف ذبيحته الي قدمها؛ هكذا نحن أيضاً عندما نقدم دبيحة صلاتنا فوق مدبح قلوبنا علينا أن نقف بحذر وانتباه ونحرسها حتى النهاية من الطيور السحرة التي هي الأفكار الشريرة لكي لا تقترب إليها وتحطف ما تحمست عقولنا أن تقدمه من أفكار نيرة لله.

غريغوريوس الكبير

٧٨٠ - لعلى الجرع المتقلب يستطيع أن ينحوك إلى قلب راسخ لا ترعرعه الأهواء، إذا ما أنقش الصلاة بيقظة ودوام التفكير في الله!

إلا أنه لا يستقيم هذا الأمر مع احتفاظنا بهمومنا العالمية، لذلك يجب ألا نحمل همّاً قط لأي أمر يتعلق بهذه الحياة الزائلة.

من تعود أن يصلي فقط حينما يتقدم إلى الصلاة في ميعادها، فهذا لن يصلي أبداً حتى وهو منحني على ركبتيه! لأنه يكون مشتتاً في الأعمال والهموم التي يشتغل بها. إذ أنه في وقت الصلاة يهمل لعقل حائراً حائراً، وبينما هو يطالب بالصلاة يوجد متأثراً بحالته السافة للصلاة. فيما أن يتقوى و يغيب و يرتفع في الصلاة ثم يرتد سريعاً، أو يبقى منشغلاً بكل حواسه في الأمور السافة التي كان مشغولاً بها. وهكذا كل ما نريده من عقلاً أثناء الصلاة يجب أن ندرّب أنفسنا عليه قبل الصلاة.

الأب يوحنا كاسيان

٧٨١ — وبما أن الحروف لا تُنقش في الهواء بل تحتاج إلى سطح تثبت عليه؛ هكذا حضور الذهن وضبط الفكر لا يمكن حصول العقل عليهما من لا شيء بل بالتدريب على صلاة قصيرة كصلاة «يا ربّي يسوع». وحينئذ نحصل على دوام حضور الذهن في حضرة الله، وفي ذات الوقت نحصل على فضيلة الصلاة لله بلا انقطاع. وكل منهما فضيلة قائمة بذاتها، فإذا داومنا عليهما فإنها تثبتان فينا غير منفصلتين.

٧٨٢ — ضبط الفكر هو سكوت القلب عن الإهتمام بأي شيء ما عدا الله! في هذا السكوت تدعو يسوع المسيح ابن الله من القلب بدون انقطاع مع كل نسمة من أنفاسك. معترفاً له بخطاياك واثقاً من غفرانها. والنفس التي تداوم على الدعاء بذلك الاسم العظيم سرعان ما تصل إلى صاحب الاسم ذاته، وحينئذ من فرط سرورها وسعادتها تحاول أن تخفي هذه الحقيقة المفرحة عن العدو لئلا يحسدها فيفوها لإسقاطها في خطية ما فيحطّم فخر سعيها ونشاطها.

٧٨٣ — والعقل ضعيف في ذاته ولا يستطيع بمجهوده وحده أن يقهر تغريير الأعداء، لأن العدو داهية محتمل. فهو يذّعي الكسرة و يتصنع الإنقلاب أمامك لكي تثق بنفسك فتقع في ضلالة أشر! ولكن على أي حال فإن العدو — خزاه الله — لا يحتمل الوقوف لحظة واحدة أمام الدعاء باسم يسوع أو يجرو أن يقترب من الإنسان طالما هذا الاسم في فمه.

حزقيوس الأورشليمي

٧٨٤ — الصلاة التي بدون تشّث (طياشة) هي الصلاة التي تهبّء للنفس دوام الفكر في الله مع استمرار تذكره.

٧٨٥ — يجب ألا نسمح لمكرنا في الصلاة أن يشعل في أي شيء خلاف كلام الصلاة. ولا نسمح لأي شيء أن يزحزح عقلاً أو يبعده عن الوقوف أمام الله.

مار إسحق السرياني

٧٨٦ — دوام الجهاد مع الفكر وكلما شرد منك هنا وهناك رُدّه واجمعه، والله لا يتطّلب من الذين لا زالوا تحت لطاعة أن يقدموا صلاة حالية من كل شرود أو تشّثت. فلا تيأس حينما ينخطف منك الفكر

و يشرد بعيداً بل اثنت هادئاً واستدّعه بإلحاح و بلا انقطاع ليعود إلى ذاته ... أما انتباه العقل التام الذي لا ينقطع قط عن تمجيد الله فهو يليق بالملائكة فقط .

الأب يوحنا الدرجي

٧٨٧ — حينما تتلو صلواتك و بالأخص إذا كان لك فانور صلاة تع كتاب (أجبية) . فلا تُسرع من كلمة إلى أخرى دون أن تشعر بحقيقة معناها وتودعها قلبك ، ولكن حاول على الدوم لتتحسس بقلبك حقيقة معاني الكلمات التي تخرج من فمك . إعلم أن قلبك سيقاوم هذا بشدة و يضغط عليك بالكس والتراخي و يغمرك بإحساس بليد لما تتلوه . وأحياناً يسوق إليك لشك عدم تصديق موعيد الله المكتوبة . وأحياناً يضيق عليك فيفصل عملك عن ما يتلوه فك و يجمعه يطيش في أمور أرضية واهتمامات باطلة ، وأحياناً بتذكار محزنات وقعت عليك من المريب ثم شعور كرهية نحوه ، ثم يوحى إليك بطرق للانتقام ، وأحياناً يستحصر في ذهك صور مسرات وملاهي العالم . فاضح لداتك ولا تخدع واضط فكر قلبك كما في قبضة يدك ، وقم قدّمه لله بشجاعة كدبيحة مفضولة مردّداً أمر لرب : « يا اني أعطي قلبك » (أم ٢٣: ٢٦) ، وحينئذ ترى أن صلاتك قدّمك لله وربطتك بالسما ، فتمتلىء بالروح وبأثمار الروح التي هي الفرح والسلام والوداعة وطول الأناة .

هل تريد أن تُهي قانون صلاتك عاجلاً لكي تعطي جسدك راحة ؟ صلّ بحرارة فتنام في أعظم حالة من راحة النفس وسلامة الضمير بل وهدوء وصحة .

لا تتسرع وتتلو صلاتك كيفما اتفق ، ف نصف ساعة صلاة حارة تعطيك لليل كله نوماً هادئاً جميلاً .

هل تتسرع لكي تلحق بمواعيد عملك أو خدمتك ؟

استيقظ مبكراً قليلاً ولا تنمادى في نومك . واعطِ قُسطاً للصلاة طويلاً قبل عملك فتحصل على نشاط وسلام في عملك جميعه .

هل يلحُ عليك قلبك لتترك الصلاة من أجل أمر عالمي باطل ؟ أقمه وسُد عليه ، ولا تجعل كنزك في الأرضيات ، واصرف اهتمامك كله فيما سيدوم و يبقى لك في السما .

علم قلبك كيف يرتبط بالله و يفكُ من العالم ، خصوصاً في أوقات صلاتك ، حتى يترك الإستعارة بالماس والأشياء و يلتفت إلى الله ، فلا تلس الحزى في يوم مرضك أو ساعة بيتك أو في يوم مماتك ، مثل ذلك العبي الغبي الذي ملأ نفسه وقلبه من أباطيل العالم وعاش ومات فقيراً في حبه ورجائه وإيمانه بالله !

إذا لم تصلِّ كما قلتُ لك فأنت لن تنجح لا في حياتك الأرضية ولا في معرفتك الروحية .

٧٨٨ — أثناء تلاوة صلاتك ينفذ العدو لبعض على كلماتك حتى تخرج محرفة أو معطوبة. إنتهبه وقل هذا: «قوة المخلص في كل كلمة وفي كل صوت»، وانطق كلامك بشجاعة وبتؤدة.

٧٨٩ — إبتاه القلب وقدرته على تفهّم معاني كلمات الصلاة و تأمل فيها بحمد تدرّجاً عند الذين يعتادون الصلاة لسريّة بلا حرارة. حتى أنهم ينطق عليهم قول مختص: «مصري لا يصرون وسامعين لا يفهمون.» (لو: ٨: ١٠)

٧٩٠ — ألا يمكن أن يصلي بسرعة دون أن يسيء إلى الصلاة أو يفقد بركتها؟ يمكن الصلاة بسرعة ولكن هؤلاء الذين تعلموا أن يصلّوا داخياً قلب نبي. لأنه أثناء الصلاة يلزم أن تكون مشتافاً بإحلاص لك قوله وأن تكون شاعراً بمعاني الكلام ومتأثراً بالسؤال والظلمة. وهذا يتأتى طبيعياً للقلب النقي المتفرغ للصلاة بالحق، وهذا هو السبب في أن القلب النقي كهو حتى للصلاة بسرعة، ومع ذلك تكون مرضية عند الله أيضاً. فالسرعة في هذه الحالة لا تسيء إلى حقيقة الصلاة أو تنقص من لأثر المطلوب منها. إلا أن هؤلاء الذين لم يصنّوا بعد إلى القدرة على الصلاة بإحلاص يلزم أن يصلّوا بتؤدة، يتسمعون من صدى كل كلمة عساهما تحمل رسالة جديدة لحياهم؛ يفعلون عند كل معنى جديد و يتدربون على الوقفات القصيرة حتى يتلق في القلب رجّع الصدى لكل كلمة.

٧٩١ — ليتك تقنع حذاً أن كل كلمة وبالأخص التي تلفظها في الصلاة هي ذات قيمة حميفة، متذكراً على الدوام أن واضح لكلمة هو الله الكلمة! لذلك لم يُكتب كلام الله جزافاً بل كل كلمة فيها قوة روحية داخها: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة!!!» (يو: ٦: ٦٣). لذا شدّد الله على المتكلمين بالباطل «كل كلمة بطلاة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساً يوم الدين.» (مت: ١٢: ٣٦)

٧٩٢ — حينما نقف للصلي يجب أن نُخضع فلنا لإرادتنا ونقدمه إلى الله بكل يقظة وحفظ، فلا يمين منا إلى البرودة ولشروء في الأفكار الباطلة، أو يعود إلى مسراته الأرضية. فما الفائدة من صلاتنا؟ هل نريد أن نسمع صوت غضب الله: «هذا الشعب يكرمي بشفتيه فما فيه فمتعد عني» (مت: ١٥: ٨)؟ ليتنا لا نفهم في الكنيسة بأرواح خائفة بل يجب أن نُشغل أرواحنا في خدمة الله.

لأن الشعب يفتر وتسرّد روحه عندما يرى الإكليروس يصلي بفتور وعدم عيرة كأنه يقدم شيئاً من وحي لعادة.

والله طالب قلوبنا، أي مركز حرارتنا وعيرتنا بل مركز كل حيويتنا، فمن لا يصلي من فيه لم يصل لبته، بل تكون صلاته حركات جسدية وكلاماً فقط. والجسد بدون عقل ليس هو أكثر من تراب! الأب يوحنا ك.

٧٩٣ — إن تنباه العقل وسط الفكر يهتان للصلاة بلا انقطاع ، والصلاة بلا انقطاع تشدد الإنتباه وتساعد في تكوين أقصى جمع للفكر.

حزقيوس الأورشليمي

٧٩٤ — إذا وصفا بمصلاة بررت لنا أفكار كثيرة ، أشعها فكر التجديف الذي لا يستطيع الإنسان في كثير من لأوفد أن يسوح به ، فذلك شاح هذا الفكر مع أناس كثيرين . فإذا استكمدا الصلاة ذهب الفكر المارد إلى حاله .

ومعروف أن هذا الفكر يحارب من يحاربه ، حتى أن هذا الشقي يفترى على الطبيعة الإلهية ، ويتكلم فينا بكلام أشد فباحة وفتراء لكي نهمل صلاتنا ونياأس من أنفسنا ونمتنع عن التقدم للأسرار المقدسة ، ومن شدة ضغط هذه الأفكار تذوب أجسام الناس من الغم ويشككهم في عبادتهم .

فمن يؤذيه هذا الروح الشرير ويشاء أن يتحلص منه ، فليضع في نفسه أول كل شيء أن نفسه ليست هي علة هذه الأفكار وأنه ليس هو المتكلم بكلام هذه التجاديف والأفكار الخبيثة بل هي من صنع الشيطان مباشرة .

ذلك النجس الوهم الذي تقدم للرب يسوع المسيح تبارك اسمه وقال له بوقاحة وجه : « أعطيت بمالك العالم إذا خررت وسجدت لي » !

وقد علمنا السيد الرب كيف نرد عليه قائلين : « اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » . ليرجع تجديفك على رأسك و يرتد سخطك على هامتك . « ليسهر الرب يا شيطان . » (يه ١ : ٩)

ونقول إن الذين يتصب الشيطان لمحاربتهم بأفكار التجاديف لا يكون من ترفعهم وتعظمهم بل من الشيطان . ويبيق بهم أن يردروا به ولا يلتفتوا إلى محاربتهم لئلا يشتد عليهم و يورد عليهم أفكار افتراء وتجاديف أكثر فأكثر .

وقد حدثني راهب قديس متمكن من الفضيلة جداً أنه ظل يعاني من حرب الشيطان بأفكار التجاديف عشرين سنة ، حتى أن هذا الراهب المجاهد أداب جسده بكثرة الأصوام والسهر ولكن لم ينتفع شيئاً البتة ، فذهب وكتب هذه الأفكار في ورقة من شدة خجله وقدمها لرجل قديس وجثا أمامه طريحاً على وجهه . ولما فرأها ذلك الشيخ ابتسم وأقام الأخ وقال له : ضع يا ولدي يدك على عني ، فصنع الراهب كما قال له الشيخ ، ثم قال الشيخ : هذه الخطية يا ابني على عني وما فعلته فيك هذه العشرين سنة ، فلا تعد تعطيها بالاً ولا فكراً ولا همّاً . وقد قابلت هذا الأخ وقصص علي حربه بنفسه وقال لي : إني ما خرجت من قلاية هذا الشيخ إلا وأنا أشعر أني ارتحت من هذا الفكر والداء الذي ظل يصارعني

وأصارعهُ عشرين سنة. ورأيتهُ شاكرًا لله كثيرًا.

٧٩٥ — عدم الحس و سرودة النفس أثناء الصلاة هو بسبب زول الخوف من النفس ومن كثرة لتوني و لكس ، و يؤوب الإنسان إلى سيئ خطيئة وموت هتته من جهة صلاة ، و يندد الخسوع .

ومن يتأصل في سرودة النفس و ملادة الحس تحده في كلامه يقاوم نفسه : فكأعمى يعته غيره ، ويحطب اساس في المحافظة على الجروح ، وفي أثناء كلامه لا يكف عن حث جرحه بأطفره . يتكلم عن لصوم وإمساك البطن ويحاهد في أكل كل ما يقال له . يقرأ في الحكمة و بديونة الرهيبة ولا يكف عن الصبح . يحث اساس على جتات الكرياء و يتكر هو تعليمه ! يتكلم عن صوم السهر وفي الحال يعوص هو في يوم عميق . يمدح الصلاة وهرت منها كهارت من لوط ! يطوب الطاعة وهو أول اعاصير . إذ شع دم ، و بعد قليل يموت لما أكل . يعلم فصل الهدوء و يعتاد أثناء تعليمه ! إذا فاق في نفسه يتحشر ويكلم يرداد تشث بدائه . يدم داته في حضرة الناس لكي يكتسب بدمته شرفاً لدته ، بهي هو في وسط العالم بعته محنة الهدوء والصمت و يطوب الذين أثروا الوحدة و لإعتزال وما يقص أنه بكلامه يدين نفسه و يُخزي ذاته .

هؤلاء هم الذين ماتت نفوسهم وعقولهم قبل أن تموت أجسادهم !

هؤلاء إذ وهو في الصلاة صارت نفوسهم كحجر لا يؤثر فيها سيف الكنة ذو الحدين !

٧٩٦ — الفكر اليقظ الشجاع هو صديق رجل الهدوء و الصمت ، يقف عند فيه الصمت غير بعاس ، وما أن يمتل ما يمترب إليه وما أن يطرده في هته وسجاعة . ومن دق لصمت يعرف قيمة يقظة الفكر .

و صامت السيمط لفكر لا يحتاج إلى أقوال كثيرة لأن أعماله تسيه ، ... وهو ادى يصح أن يكون عن نفسه إنه نائم وقلبه متيقظ .

١٩٧ — لدين تعمو كيف يصلون بعمل صاحبة ، هؤلاء نكمون ربا وفوقاً محصرتهم كمن يكلم سبت في أدبه ؛ و لدين يصلون بمساهم كمن يتوسلون إلى الملك خراجاً ، من وسط ألوف لشعب ولرعية .

١٩٨ — من يريد أن يرصد عمله و يصط افكاره ، يكون كالرفيق يسهر ليعرف من هم الشرف وكيف يدحدون وكيف يسرفون عما فيد اثثرومي بأنون . يلزم للرفيق الهدوء والسهر والسجاعة وعدم لضجرو دوم الصلاة ، وألا يستريح حتى يضبط السارق .

١٩٩ — امرأة بصيء العمل وتحمعه ليس جمعاً بسيراً ، لأنها أقول الروح القدس ، فهي تقوم الدين

يتلونها خصوصاً متى كانوا يتلونها بفهم وعمل.

٨٠٠ — ضنّ لسانيك بعد حروحت من ببت صلاتك، فإنه من عدته أن يحدد عليك أتعاباً كثيرة بأكثر سرعة.

٨٠١ — لا تكثر أقوالك في الصلاة لكي لا يتشتت عنك: وها كلمة واحدة من العشار جعلته ينرب مسرراً إلى بيته: وكلمة واحدة بإيمان من اللص أدخلته المردوس، لأن كثرة الكلام في الصلاة تدد الفكر. فإذا صادوك فكر أو قول يحدث إلى الخشوع فذم فيه، لأنه يكون من إرشاد روح العمة.

٨٠٢ — جاهد أن تحفظ همّة عقلك في ألفاظ صلاتك. ومتى شرد منك عقلك بسبب ظهورتك الروحية فاحذبه إلى الصلاة واطلب من ضابط الكل أن يضطه معك إليه.

٨٠٣ — ابتداء الصلاة: هواجس كثيرة وعراك مع الفكر وطرود الأفكار الغريبة، وتوسّط التقديم في الصلاة: تمير أفهم المعاني التي نقولها، ونتمام الصلاة: احتطاف العقل إلى ربنا والإبتهاج الكامل بالله، وهذا من نصيب المقيمين في الرقعة الرهبانية.

٨٠٤ — صلاة الراهب مرآته، فمهما كان العمل الذي بيديه إداً في وقت الصلاة و يشتغل به عنها فهد تهرأ به الشياطين، لأن غرض الشيطان لا أن يسرفاً دفعة واحدة بل مرة بعد مرة.

٨٠٥ — كل عمل يُطالب وقت الصلاة بالقوة التي أخذها من الله، فيجب أن نتيقظ لأنفسنا بكل قوتنا.

٨٠٦ — إغتصاب الماء من فم العطشان صعب؛ وأصعب منه مع النفس الممتدة خشوعاً من وقوفها في الصلاة. لأن الصلاة محبوبة عندها ومفضلة على كل عمل آخر.

٨٠٧ — كما أنه يكون مرفوضاً عند الملك الأرضي من يكون واقفاً بحضرته ويحوّل وجهه عنه ليتحدث مع أعدائه، هكذا رسا يرفض من يكون واقفاً في صلاته وهو مهمل بأفكار حيثة.

الأب يوحنا الدرجي

٨٠٨ — من يدور عمله ثناء الصلاة ولا يلتفت إلى أقوال الصلاة لا يأخذ مسأله بل ويحلّ عليه غضب الله. بعدد قوتك اصبط فكرك واحبداً لتلا تصير صلاتك خطية.

فإذا كنت في الإبتداء لا تقدر أن تصلي بعير تشتت عقل، فاعصب نفسك حسب طاقتك وابدل كل قوتك في أن تجمع عقلك في الصلاة، فإذا رأى الرب أنك لا تتوانى أو تنهاون أو تزدري بالصلاة من أجل ضعفك يعطيك كيف ينبغي أن تقف أمامه.

٨٠٩ - سُئل القديس باسيليوس الكبير كيف يستطيع الإنسان وقت الصلاة أن لا تشتت أفكاره؟

أجاب:

إذا تيقن أن الله دائماً في كل مكان وأنه أمام عسيه . وكما لو كان وفه فدام ملك رصي ولا يستجريء أن يميل بظره إلى أحد غيره و بكلمه في حضرته ، بل يبقى باطراً إن جهته مصتاً له عيه يقوله له هكذا أمام الله لأنه فاحص الصوب ، فواجب أن لا يميل لإنسان بفكر قلبه عيه إلى شيء آخر .
باسيليوس الكبير

٨١٠ - لا يُستطاع ضبط الفكر في الصلاة بدون الإحتراس لكثير في الكلام والأعمال وحفظ الحواس على الدوام .

٨١١ - لا نطلب من الله أن تكون صلاتك بلا تشتت فتتوقف عن الصلاة حتى تنقضي أفكارك . بل داوم على الصلاة ومن كثرة المداومة ولتعب في الصلاة تنقضي أفكارك وتبعد عنت الأفكار .

٨١٢ - إذا صممت أن لا تصلي حتى تستعد عك الأفكار من تصلي أبدأ ، لأن الأفكار تضعف وتتلاشى من كثرة الصلاة دها . ومن يطلب الكمال من قبل العمل والتعب لن يبال شيئاً .

٨١٣ - وإذا كنت تريد أن يهدأ أفكارك وقت الصلاة ، وتجد فرصة للصلاة السمية . بتعد عن المديبات وشهوتها والإهتمام بأمور العالم والطموح في نواها . فكما هدأت فيك حركة لعالم ورهدت فيها ، وتجدت الصلاة فيك مكاناً .

٨١٤ - ليس نداء من أحل تحرك الأفكار فيها ، بل على العكس نعال نعمة إذا احتسبها ولم يوقفها وفومها بكن إردتها ، وإذا تلذذنا بالأفكار الردية وأعطيهاها وقت وقولاً في فكرنا نداء من أجلها .

٨١٥ - إعمل ما أقوه لك : كن وقت تبتدي ، الشياطين أن تحرك في قلبك فكراً شهوانياً أو عصياً ومجداً عالب ، لا توفقهم لا باعكر ولا بالعمل ولا تدع الأفكار تدخل قلبك ليتدد بها ، بل اطردها وذكر السعادة المعتة لك باحتمالك وصرك . وانهر هذه النذة الصاره وفصل قلبك وفكرك من هذه لأفكار لشيطانية . وعصب نفسك للهروب من لذه الخطية ، منتفلاً بشهوتك لحب الله ، طالباً منه لعون ولصورة . فهي نصر الله إرادتك أنه حتى ولا بفكرك تريد أن تتدد بالخطية من أجل محبتك وحقوك به ، يشرى الملائك الحارس لك فيطرد عك الشياطين المقاتلة فيسروك كالعار فدام الريح العاصفة . وعوص لأفكار شريرة لكثيرة الي تصك نفسك بملأك أفكاراً روحانية ، ويهيج قلبك كن حين التأمل في الله وفي طبيعه ثلاث لأقدس وفي حب المسيح وفي ترتيب الملائكة وذكر لهردوس وأرواح

الصديقين الذين انتقلوا.

٨١٦ — الله لا يطلب من الإنسان أن لا تجور في نفسه أفكار قط، إذا ما صُنِّي، بل يطلب منه أن لا يلتفت إليها أو يتلذذ بها. وأنت، أيها الأخ، لا تطمع أن لا تشتت فكرك قط ولكن اقله من فكر شر إلى فكر خير. وإذا اشغل فكرك في أمور الله، هذا أعلى درجة من الصلاة، ولكن لا يدوم الفكر في التأمل بالله إلا من كثرة المداومة في الصلاة.

٨١٧ — الله لا يتخفى عما سبب أفكارنا الرديئة وتشتتاً في الصلاة إلا إذا دوماً المكر فيها. لأن الحركة الفكرية التي ليست بإرادية نحن لا نحاسب عليها، حتى وإن مال إليها الفكر بعضاً من الوقت ورجع وحرر وندم على تفریطه وغفلته لا يُعاقب عليها. أما إذا قلها العقل ودوم عليها ولم يتحرر عنها، يُحاسب ويُدان من أجلها.

٨١٨ — طوبى لمن كان حاضر الذهن عندما يصلي أو يخدم!

طوبى لمن درّب دمه على هديذ في الكتب وتأمل في أقوالها بفهم!

٨١٩ — ألا تفهم أيها الإنسان الشقي أمام من أنت واقف تصلي؟ ألعنك لم تسمع عن غيره رب الجسد وكم هو شديد في غضبه على الذين يتقدمون إليه برحاوة وإهمال، وبجراءة وهم مملوءون إثماً وخطية، إنه لا يرجع عن سخطه ولو سأله كثيراً!!

٨٢٠ — عقل كثير تشتت في أشر لا يحلو من السيان، والحكمة لا تفتح دبرها لمثل هذا!

٨٢١ — لا يُستطع قهر العنل النفسية إلا بجهد الفصيلة؛ وأم طياشة (تشتت) العقل فليس أحد يتغلب عليها إلا بمحبة المعرفة الروحانية.

٨٢٢ — من لم يُخضع جسده لا يصوى على إخصاع فكره. فإن أردت أن تصك زمام أفكارك فاصلب جسدك.

٨٢٣ — من لم يستطع أن يُخضع نفسه وفكره لإرادته لا يستطيع أن يُخضع داته لله.

٨٢٤ — الإنسان الذي يلوم نفسه و يضع أخطاء الآخرين على نفسه، و يغضب داته و يؤم عثراته وزلاته يؤهل لحرية الفكر في الله و ينعق من تشتت الفكر.

٨٢٥ — الفكر الذي يتولد من الطنون والأخبار والحكايات وسير الآخرين أن فلاناً طيب و فلاناً شريراً، وقال فلان و يقول فلان، وبحس سماع أخبار الناس و يتلهف على الأخبار من بعيد؛ لا يُعق

من العيرة والحسد والإضطراب وتكدر ضمير ولا يؤهل قط لطهارة الضمير أو ضبط الأفكار.

مار إسحق السرياني

٨٢٦ — اجعلوا هذا الجسد دى أنتم لاسو به مجمرة تحرقون فيها جميع أفكاركم وطوبكم الردية، وتقدمون دواتكم للرب ليرفع قلوبكم إليه، وسنطة العمل لئلي تظنون منه أن يُبعم عبيكم بإتيان بده العدوية غير المادية لتحرق ما في المحمرة وتطهرها. وحيتد تنظرون إسانكم الجديد وهو حرج من الماء من ينبوع الإلهي.

أبا أنطونيوس الكبير

٨٢٧ — على الإنسان أن يداوم الجهاد والحرب مع أفكاره، لأن الرب يطلب منك أن تعصب نفسك لكي لا ترتضي بالأفكار الشريرة ولا توافقها. أما استئصال الخطية فلا يتم إلا بالقوة الإلهية.

٨٢٨ — أساس الصلاة الصحيح هو أن تصط أفكارنا، لأنه يقتضي أن يكون حرص الإنسان كله على أفكاره وقت الصلاة، لقطع كل الفنون والوساوس الخبيثة، ولا يتسع هوى أفكاره بل بردها وعيز بين الأفكار الطبيعية والأفكار الشريرة.

٨٢٩ — هكذا في أيام سرئيل لما كانت عقولهم وأفكارهم مائنة إلى لعصيان على الله احنى وإن لرجوع إلى الأصنام، ألزم هارون أن يقول لهم أن يأتوا بأوعينهم وحبثهم الذهب؛ فيها طرحوها في النار صارت صنماً، فكان لأارصورت بينهم وأفكارهم!! (خر ٣٢: ٢٤). وكان ذلك امرٌ عجيباً لأهم لما طلبوا بأفكارهم الصميمة صنماً صيثر اسار الأواني الي ألبيت فيها صنماً، وبعد ذلك لم يقصروا في عبادة الأوثان جهراً!!

أما لفتية الثلاثة فلما كانت أفكارهم متعلقة بالبر صارت لهم النار مكاناً لعبادة ولتسييح وحول ابن الله في وسطهم!

٨٣٠ — حيث يكون لك هداك يكون القلب أيضاً. والشیطان يريد أن يربط قلوبنا بالأرض؛ أما الرب فيود أن نرفض أفكار الأرض والتعلق بها جميعاً حتى نستطيع أن نطلب خيرات السماء ولو كان ذلك ضد ميلنا الطبيعي. وقد أمرنا أن نصير فقراء وسيع كل ما لنا، حتى إذا رجعت قلوبنا إلى سهوة لأرصيات لا يكون لها شيء. إذن فعلينا أن نمحص قلوبنا ونصط أفكارنا عالمين أنه ليس لنا على لأرض شيء وكنزنا الحقيقي إنما هو في السماء.

٨٣١ — فعليك، إذن، بالصلاة. وافحص قلبك وضميرك، وشته أن تكون صلاتك نفية. واحذر أن يعترضها ما يحل بها بل جعلها نفية، واربطها بالله كما يربط الملاح عمده في فلاحته ولتجر عمده

في تجارته ، ولا يتشتت عقلك إذا ما جئت للصلاة.

أبا مكار يوس الكبير

ملخص المبادئ الهامة:

- (١) العقل مسئول عن شرود الفكر، فيجب تدريبه لكي يكون رقيباً على الأفكار.
- (٢) الصلاة بعقل مشتت في الأمور الجسدية تُعتبر خطية.
- (٣) الصلاة بعقل مشتت تكون فرحاً للشياطين.
- (٤) تشتت الفكر أثناء الصلاة هو من حيل العدو ليحرماً من قوة الصلاة.
- (٥) وقوفنا في الصلاة هو وجود في حضرة الله، فشروود الفكر يُعتبر زدرأً بهيبة الله والخروج من لدنه.
- (٦) كثرة الحديث مع الله يدرّبنا على ضبط الفكر في الله.
- (٧) المداومة على الصلاة تُعتبر أهم وسيلة لضبط الفكر.
- (٨) علينا بالجهاد في الصلاة حتى بعد أن نكون قد بلغنا حد ضبط الفكر.
- (٩) كثرة القراءة في الكتب الروحية تساعد على ضبط الفكر أثناء الصلاة.
- (١٠) علامة الوصول إلى درجة الصلاة النقية هو أن يشعر الإنسان بهرح وغبطة أثناء الصلاة، وأن يُسرَّ عند حلول ميعادها.
- (١١) قوة الصلاة في معاني كلماتها. إجعل عقلك يلزم معاني الكلمات التي تتلوها.
- (١٢) إهتمام الفكر بمعاني الكلمات في الصلاة ودوام التصاقه بها، هو بدء الدخول في درجات الصلاة العليا.
- (١٣) إن فضيلة حضور الذهن في حضرة الله على الدوام يمكن التدريب عليها باستعمال صلاة قصيرة تناسب الحالة، ومحاسبة العقل على شروده.
- (١٤) الصلاة النقية التي بدون شرود الفكر لا يمكن الحصول عليها بسرعة، فهي تحتاج إلى

صبر وجهاد فلا تملّ ولا تيأس .

(١٥) لا تستعجل في صلاتك من أجل ميعاد أو عمل أو حديث ، بل اجعل لصلاتك كرامة أكثر من كل عمل . وحاول أن تُخلي نفسك تماماً من كل اهتمام إذ وقفت للصلاة .

(١٦) السرعة في الصلاة مدعاة لبرودة القلب وتشتت الفكر . إعلم أن كل كلمة من كلمات الصلاة هي روح وحياة .

(١٧) إحذر أن يمع عليك إبذار المسيح : « هذا الشعب يكرمي بتفتيه أما فيه فببتعد عني بعيداً » (مت ١٥ : ٨) ، وخصوصاً أثناء وقوفنا بالكنيسة .

(١٨) أفكار الشكوك والتجاذيف التي تعرض لنا هي ليست منا ولكن هي من عمل إبليس لكي يسبل أفكارنا ويضغطنا بالحزن على أنفسنا ، فلا تهتم بها ولا تحزن من أجلها .

(١٩) التدقيق في الحديث مع الناس وعدم الضحك وحفظ اللسان من العثرات والأمانة في تأدية الواجبات الدينية خير معين للصلاة النقية .

(٢٠) الخنوة والصمت عاملان ضروريان للتدريب على الصلاة الحارة .

(٢١) لا تكثر الكلام في الصلاة ، ولا تخرج الكلمات جزافاً ، لأن ذلك يُنهي الصلاة بسرعة ويحرم الإنسان من لذة استماع صوت الله .

(٢٢) محرد عبور الأفكار علينا لا يُعتبر خطية ، ولكن الخطية هي أن ندوم في هذه الأفكار ونتلذذ بها .

(٢٣) الإقتصاد في الأناقة والتدريب على التجرد وعدم الإقتناء ينفع جداً لربط القلب والفكر بالله ، لأنه حيث يكون الكنز هناك يكون القلب أيضاً .

(٢٤) لرصى بالواقع وعدم الطموح مدعاة لهدوء النفس والتسليم لله .



الفصل التاسع

الضممت المقدس

+ « حيد للرجل أن عمل الير في صاه، يخلص وحده ويسكب. »
(مراي ٢٧: ٣ و ٢٨)

+ « سكون النفس هو أحد أسرار الحياة الآتية. »
(مراي سحر سر دلي)

إذا ألفينا نظرةً فاحصةً متسعةً على حياتنا، لأدركنا مقدار الحذب الذي نعانيه رغماً عنا لمسايرة الناس في تمسكهم بأمور هذا العالم الزائلة.

عجيب حقاً أن نرى خطأ الناس واضحاً في سلوكهم هذا، ولا نكفُّ نحن عن مسايرة هذا الخطأ بعينه، بل بتمادي في الرج بأنفسنا في وسط موكب البشرية الصاخب كأننا مسَّنا نوع من جنون الحياة، ولا نحاول أن نستخلص أنفسنا من وسط هذا التيار الجارف، بل على السقيض نحاول أن نسرّع في طريقنا وندعو الآخرين أيضاً ليشاركونا في ذلك السير المبهم نحو المصير المجهول.

ولعبدك أيها الفارّء هو من أقصده بالذات، و يستوي عندي أكنث راهباً أو كاهناً أو خادماً أو مخدوماً، لأنني لا أتكلّم عن الإنسان حسب الظاهر، بل أخاطب نفسك عاريةً عن كل هذه المظاهر الرائلة: ما هو مقدار الثمر الروحي الذي أتيت به كغصن في الكرمة؟

لا تفلّ إني قد بشرت باسمك وخدمت إنجيلك وشفيت مرضاك، لئلا تسمع بقية القول: **إذهبوا عني ... لأنكم استوفيتم أحركم كرامةً ومالاً وشهرةً وصيتاً حسناً!**

ولا تفلّ إني واطببتُ على كنيسةك وأقمت لك الذبائح كل يوم وقدمت لك البخور كل مساء وكل صباح، لئلا تسمع تعنيف القول: **«لماذا لي كثرة ذبائحكم؟ البخور هو مكرهة لي» (إش ١: ١١ و ١٣)!! «لأنه ليعتّ تطيلون صلواتكم» (مت ٢٣: ١٤)!!**

هذه كلها ليست ثماراً ... إنها أوراق خضراء وجميلة لازمة لنا إلى حين، ولكنها ستجف يوماً وتتركنا في خريف الحياة عراةً.

نفسك أيها الحبيب هي العصن، والثمرة التي يفتش عليها الكرام هي مقدار نمو نفسك في السعمة وترفيتك في مدارك الحياة الروحية. فانظر جيداً وفتش عن ثمارك، لئلا يكون تعب الكرمة فيك باطلاً، واستخدامك للعصارة لم يأتِ ثمر، فتكون نهايتك للنقطع والحريق.

إن أردت أن تعرف ثمارك فادخل مخدعتك واغلق بابك واجلس صامتاً مصلياً وافحص

أعماق نفسك ، وحينئذ سوف تدرك مقدار عريك وخزيك وأنت لست غنياً كما كنت تتوهم بل أنت الفقير الشقي العريان !!

سوف ترى غصص حياتك التي هي نفسك فارغة من كل ثمر الروح ، وأما أعمالك وخدماتك التي ملأت الجوها صباحاً فسوف تطهر أمامك كحرفة مدسمة .

حينما تخلو إلى الله تماماً ، حينما تجلس في حصرتة صامتاً صمتاً مقدساً ، ترى صورتك في مرآة الله ! وتكتشف فح منظرِكَ وأنت لست تشبهه في شيء .

ومن فرط حنان الله عليك ، لا يريك كل حزيك وعريك مرة واحدة ، لئلا تُبتلع نفسك من فرط الحزن . وإنما يكشف لك الرب قليلاً قليلاً صفحات من قضايا زناك وكبرياتك وعصبيتك وتمردك وسرفتك ونميتك وحسدك وغيرتك ؛ ويريك أنها لا زالت قائمة ضدك إنما تحت الحفظ مختومة بدم يسوع المسيح في انتظار توبة صادقة وعهد مقدس .

إن اكتشف الإنسان لخطاياها نعمة كبرى لأنه الطريق الوحيد الموصل إلى الشفاء منها .

في الصمت سوف ترى عيوبك وخطاياك واضحة تتقدمك لبقضاء .

في الصمت أيضاً ستجد فرصة للتوسل والبكاء لتغسل بدموعك قدر أعمالك . فإنك لا تخرج من لدن الله إلا وقد أعطيت كل مرة زوفاً جديدة تغسل بها نفسك حتى تبيض جداً أكثر من الثلج .

ولكن لا تحسبن أن الابتعاد عن الناس فقط خلوة ، أو الدخول إلى المجدع المغلق هو الصمت ... كلا ، فالخلوة تكون في القلب أولاً والصمت يبدأ من العقل قبل الصم . الإنسان لذي دخل إلى الخلوة قد أفرغ قلبه من كل شيء : من الفرح ومن الحزن ، من الأمل ومن اليأس ، من الحب ومن البغضة ، قد أهمل كل اهتمام وكل تفكير وسلم كل شيء كمن استعد لدخول القبر .

ليس في الخلوة والصمت بصيب لستاط الجسد ، فهي مجال للنفس المحبوسة لتتطلق منفردة وتباشر نشاطها .

في بدء التمرين على الخلوة سيتململ الجسد و يثور العقل لأنها سيشعران بظلمة القبر ، حيث تكون لنفس أيضاً لا تزال تعاني آلاماً وضيقاً في التحرر من سجن الجسد وظلمة

حواسه . وهكذا ربما يواجه المحتلي بعض الضيق في بدء الخلوة، ولكن هذه هي النقطة الحرجة التي تحتاج إلى صبر وإيمان . وليس عسيراً على النفس اجتيازها، إذ أنها تشعر أن النور قريب وأن وراء ظلمة القبر مجد القيامة .

والخلوة ليست فترة نفضيها في هدوء بعيداً عن الناس ثم تنقضي، فعود إلى سابق عهدها بشرثرة الكلام والنفاس والمحادلات والضحك والتحدث في السياسة وقراءة الجرائد وديونة الآخرين . إن الخروج من الخلوة هو بمثابة القيامة من القبر تحتاج فيها النفس إلى هدوء واحتباس وصمت والبعد عن الناس بقدر الإمكان « لا تلمسيني » (يو ٢٠: ١٧)، ولكن لا تحتاج إلى كسرياء وترفع أو الإردراء بالآخرين : « جِسُونِي واطُورُوا ... وأكل قدامهم !! » (لو ٢٤: ٣٩ و ٤٣)

احفظ فكرك وحواسك ومشاعر قلبك نقية بقدر الإمكان وأنت بين الناس، حتى إذا دخلت إلى خلوتك سهل عليك الإنطلاق والوجود في حضرة الله بلا خزي .

في بدء تدريبك في الخلوة لا تحاول أن تُجهد حواسك للشعور بالقداسة أو محاولة رؤية شيء عن الله، لأنك بهذا سوف تُجهد عقلك وجسدك بلا طائل، فالله لا يُرى بالجسد ولا يُدرك بالحواس .

العمل الوحيد الذي تقوم به أثناء خلوتك هو أن لا تعمل شيئاً ... إنتظر الله بهدوء ولا تسعى وراءه لا بالخيال ولا بالبحث عنه في الخليفة المنظورة لأن كل هذه المحاولات سوف تعطل انطلاق النفس والوجود في حضرة الله .

وإن كان هناك ثمة عمل يمكن أن يقوم به الإنسان فهو أن يتأمل في نفسه بانسحاق واتضاع كثير، بحزن وتألم على الخطايا التي سببت وجود هذه الحجب الكثيفة التي فصلت النفس عن الله . هذه المشاعر المتواضعة ربما تصلح لتمهيد الطريق لانطلاق النفس .

حينما تتدرب على الخلوة ستجد فيها فرصاً نادرة للوجود في حضرة الله وكشف النفس أمام خالقها لإصلاح كل عيب أو خطأ فيها، وإعدادها لحلوله المقدس العجيب، وبذلك يثبت العصف في الكرمة ويؤهل الحمل الثمار التي لشجرة الحياة: « محبة — فرح — سلام — طول أناة — لطف — صلاح — إيمان — وداعة — تعفف . » (غل ٥: ٢٢ و ٢٣)

أقوال الآباء في الصمت المقدس :

٨٣٢ — من كل شيء يجب أن نلاحظ بكل اعتناء مبادئ الإيمان التي ترشدنا في الصلاة الصلوة : ندخل مجدداً ونعبر دليلاً ونصلي . ولكن كيف نتم هذا الأمر عملياً ؟ أليس ذلك عبر أفكار العدم والإهتمامات الباطنة وندخل في عبادة ملتبسة بالرب ! وما معنى الأتوب المتعلقة في الصلاة ؟ أليس هو الهدوء والصمت الكامل المقدس واشتغال المعلمة المتخشعة أمام فاحص الصوب !

وما معنى الصلاة لله في الحفاء ؟ أليس هو كتمان أمر سؤك وطبقت بحيث لا تكشفها إلا لله وحده !

لذلك يجب أن نصلي في صمت كامل لا لكي نتحاشى فقط التشويش على الإحوة الملائمين له وعدم إزعاجهم بتمتماتنا ؛ بل ولكي نخفي أمر صلاتنا وسؤالنا عن أعدائنا بل وأقرب المقربين ؛ لئلا نحسب أننا نتم الأمر : « حفظ أتوب هت عن المصطبعة في حصص . » (مي ٧ : ٥)

الأب إسحق في حديثه مع كاسيان

٨٣٣ — الصمت هو كفى العفص عن الهمة بالعالم ، سريان ما هو أسهل ، معرفة سرية بالأمور العلوية ، ترك أفكار الحصوص على ما هو أعنى منها . الصمت هو النشاط الحق ، وليسير الخشيت بحوائثه ، والصعود إليه بالتأمل .

والصمت هو العلامة لدانة على صحة النفس ؛ والتأمل هو ثمرة هذه الصحة التي بها يصير الإنسان شريكاً لطبيعة الله الفائقة غير الملموسة .

الصمت هو تطهير القلب وإعداد له للدخول في مظنة النور الإلهي غير المنصوف به الذي يفوق كل شعور وإحساس وتصوير .

٨٣٤ — والدة الإله يتحدث عبقلياً بالله بدوام الصلاة والتأمل ، وفتحت طريقاً نحو لسماء جديداً سميت به فوق كل لمدىء ولضوء الذي هو الصمت العفني أو الصمت لصبي .
« وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام مفكرة به في قلبها . » (لوقا : ١٩)
« وكانت أمه تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها . » (لوقا : ٥١)

رأت عظمة الله في نعمة الألوهية وتلامست معها عن قرب دون أن يكون لخيال أو التصور أو الشعور دخل في تخفيفها للإطلاع على أسرارها العجيب ... كانت صامته وطلت كدك وتحدثت كل ضعف البشرية فاستأهلت بذلك أن يتجدد منها إله العالم.

غريغوريوس بالاماس

٨٣٥ — بداية لصمت العرلة عن كل ضوضاء مرعجة نفس ... وبهاية الصمت قلة الإكتراث بأي ضوضاء وعدم التأثير بها . فيحرج الإنسان ويدخل وكله دعة وحب دون كلمة يلفظها .

٨٣٦ — الرجل الصامت يحتفظ في نفسه بالهامات مساوية .

٨٣٧ — مع الرجل الصامت نفث الفوات السمانية لتشارك معه في التسبيح والعبادة من وتتوق أن ترافقه على الدوام .

٨٣٨ — شعرة صغيرة ترعع العين ، واهتمام صغير يفسد الصمت ، لأن الصمت عدو الأفكار والاهتمامات حتى التي تظهر أنها للخير .

لاحظت أثناء تسحين المرامير أن أحد الإحوة يقف بأسحاو ونحشع كبير أكثر من باقي الإحوة ، وبالاحص عند بدء الصلاة ، و يظهر كأنه يخاطب أحداً ما . فسأته أن يشرح لي معنى هذه العادة ، ولما عرف أنه لا فائدة من إخفاء الأمر قال لي : يا أي يوحنا عدي عادة أن أستجمع أفكاري وأستحضرها عند بدء الصلاة مادياً لها : « هيا تعالي لعبد ، هنيئاً إلي لبخر أمام المسيح ؛ لها » .

٨٣٩ — الصمت بمعرفة هو صلاة . لصمت يحفظ حرارة القلب ويدبر الأفكار ويرصد الأعداء . يعم الدموع . يذكر بالموت . الصمت هو معرفة ومهيئاً الأفكار الروحية .

٨٤٠ — لدي قد عرف مرارة سقطات اللسان يحذر من الكلام . أما كثير الكلام فلم يعرف نفسه بعد كما ينبغي .

الذي أحب السكون فقد فترب من الله ، وكلما اقترب إليه كلما استار منه فراد صممه .

أفضل للإنسان أن يسقط من مكان عالٍ على الأرض ولا يسقط من لسانه !!

٨٤١ — إعلق باب المجدع على الجسد ، وباب الفم على اللسان ، وباب القلب عن الشهوات والأفكار الكثيرة .

٨٤٢ — أذن الساكت تسمع من الله العجايب !

٨٤٣ — صاحب السكوت هو الذي يقر من جميع الناس بغير بغضة.

الأب يوحنا الدرجي

٨٤٤ — بالصمت نحيا ليس ونستير نور مجد الله فنرتفع من أمامها كل اهتمامات هذا العالم الزائلة. فتتحد بالله بغير إدراك.

إفهم أنت الآن أيها الضمير أيها تختار. إحص واطرأي الطريق تتبعه بيدوم معك إلى الأبد. أما إذا احترت لنفسك طريق الحياة والنور فتمسك به بكل حذر في كل حين وفي كل مكان. إن تعبر إلى هناك.

الروح أشاري حفيماً أن حدود هذا الطريق هو الصمت. آه، من يعطي يميني سلطاناً لاكشف هذا السر بالأحرف المكتوبة للذين يتعذبون من أجل حب يسوع!

٨٤٥ — في خدمتي وصلاتي ما أعرف جهداً أو تعباً لأنني لا أتحرك بهوي. بل أنا أنصب فقط وأستمع إلى الروح القدس في، فأشتعل حرارةً وحباً... وهذا هو ما قيل أن الروح القدس يصلي فينا بأنات عجيبة لا يُنطق بها!

٨٤٦ — إن كان لسانك منعوداً على كثرة الكلام فقلبك مطوى من حركات لروح النيرة. أما إذا كان فك ساكناً بهدوء فقلبك يشتعل دواماً من حرارة الروح.

إن كنت تتكلم بلسانك وقبت لا يتحرك بالصلاة، فكلامك هو حسارة.

سكّنت لسانك ليتكلم قلبك... وسكّنت قلبك ليتكلم الله!

الشيخ الروحاني

٨٤٧ — فالضرورة تدجىء الدين يهتمون بخلاص أنفسهم و يتشوقون لمحبة ربا ولتكميل وصاياه المقدسة، أن يتدربوا على السكوت كل واحد حسب قدرته.

٨٤٨ — ما وجدت غبطة في انفضائل مثل أن يهدأ الإنسان و يكف عن جميع الأعمال و يصمت عن كل حديث. أما كمال هذا العمل فهو غنى عن معرفة الكثيرين.

٨٤٩ — إذا انقطع الإنسان عن كثرة الحديث مع الناس، فهو يرجع إلى ذاته و يفهم تدير سيرته حسناً أمام الله.

٨٥٠ — السكوت يبرد حرارة الآلام الوحشية من القلب ويميت الشهوات الباطلة ويجدد العمل.

- ٨٥١ — صلاة واحدة يصليها الإنسان وحده، خير من مائة صلاة يصنعها مع الناس.
- ٨٥٢ — كل تدبير له تمهيد بتدبير يسقه، فالصلاة لا بد أن يسبقها حلوة، و الخنوة رفض العالم.
- ٨٥٣ — كل إنسان لم يأخذ تجربة في السكون ربما طويلاً لا ترحون نعيم منه شيئاً عن الأمور المختصة بالملكوت ولو كان حكيماً ومعلماً وله كثرة أعمال.
- ٨٥٤ — قبل كل شيء يحس بكيف أنفسنا أن نبدأ وتسكب وحينئذ من السكون تولد لنا رغبة تدفعنا إليه.
- ٨٥٥ — كل من هو كثير الكلام حتى ولو كان عالماً بأمر كثيرة، إعدم أنه فارغ من داخل.
- ٨٥٦ — إن كنت محملاً للحق، كن محملاً للصمت. فالصمت يجعلك تير كالشمس و يثبثك من عدم المعرفة.
- ٨٥٧ — اليوم الذي لا تجلس فيه ساعة مع نفسك وتفكر في أي شيء أخطأت و بأي أمر سقطت وتقوم ذاتك لا تحسبه من عدد أيام حياتك.
- ٨٥٨ — أحب السكون يا أخي، لأن فيه حياة لنفسك. بالسكون ترى ذاتك، و خارجاً عن السكون ما ترى إلا ما هو خارج عنك. وما دمت تنظر غيرك فس ترى نفسك.
- هذه حواسك الخارجية حتى يمكنك أن تهدي الداخلية.
- ٨٥٩ — السكوت يكتسب الحكمة ويجمع ملكات الفكر للمعرفة.
- ٨٦٠ — الأفضل لك أن تكون قليل الكلام مع كثرة عييم ومخثك ودو معرفة بتجربة الأشياء بداخلك، من أن تفيض أنهار تعاليم مع عقل مرتبك و حواس مضطربة.
- ٨٦١ — المروءة حكمة الروح وحكمة العقل أن الأولى تفودك إلى الصمت و الثانية تدفعك إلى التبجح والملاعبة. والصمت الحكيم يقودك إلى الإقضاع، أما التبجح واعناد فيفقدك إلى لصف والكبرياء.
- ٨٦٢ — إذا كان لسانك يغسك فصدقي أنك لن تقدر أن تتحرر من لطمه التي تحيط بك.
- ٨٦٣ — الإنسان الذي يطق لسانه على الناس بالحيد والردية لا يؤهل لعملة الله.
- ٨٦٤ — إذا أردت أن تعرف رجل الله : استدل عليه من دوام سكوته.

٨٦٥ — أطلب إليكم أن تتركوا إرادتكم الحسية وتلزموا الهدوء.

٨٦٦ — إذا انمرد العقل عن الناس وصار في هدوء الوحدة فإن الله يقويه و يثبتته ليملكه أن يسأل و يبحث في ماهية الله . وحينئذ يؤهل إلى نظر عظمة الله وقوته ولاهوته وبهائه في خلأه.

٨٦٧ — قال ربنا يسوع المسيح : « أدحوا من الباب الضيق » ؛ فما هو ذلك الباب الضيق إلا حفظ اللسان من الخطأ ! إذن لجاهد و بضع حافظاً قوياً على أفواه حتى لا ينطق بطق شرير.

يا أولادي هربوا من النجاسة ولا رمو السكوت . لأن الساكت مقامه عند الله في زمرة الملائكة .
أبا أنطونيوس الكبير

٨٦٨ — كثيراً ما تكلمتُ وندمتُ وعن السكوت قط ما ندمتُ.

أبا أرسانيوس

٨٦٩ — يا ليت يكون للكلام منفعة كمقدار منفعة السكوت !

٨٧٠ — أما أنا فإذا نظرت لفسى لا أحد فيها شيئاً واحداً حسناً ما خلا أمراً واحداً أعتقد أنه ليس ردياً ، وإن كان الناس يسمونه هواناً ، وهو أني آثرتُ أن أموت في كل وقت عن العالم وأعيش للمسيح في حياة مكتومة ؛ وأكون تاجراً مخاطر ، قد اشتريت بجميع ما عندي الجوهرة الكريمة . بعت الأشياء الزائلة واشتريت الأشياء السماوية الثابتة .

٨٧١ — برل يا أخي عن الكراسي و اتركها لمحبيها وكن مثلي فقد آثرتُ أن أكون صبيّاً وتلميذاً في سائر عمري .

٨٧٢ — حينما غصبتُ على الكلام وجدتُ أن لا أتكلم إلا عن الصمت حتى أقود الناس إلى الصمت بالصمت و لكلام ! هذا هو رأيي في السكوت وهذه هي فلسفتي في الكلام .

٨٧٣ — إن عندي لكم كلاماً أفضل من السكوت فاسمعوه :—

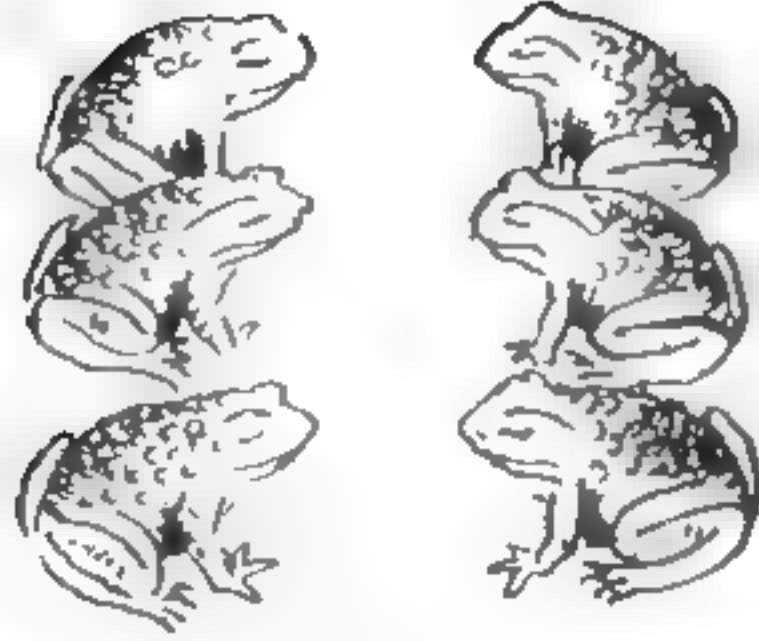
لماذا تحبون الباطل و تبتغون الكذب ؟

لماذا تثقل قلوبكم ؟

لماذا تسوهمون أن هذا العالم شيء عظيم وهو عار تدريه الريح و دخان يظهر قليلاً ثم يضمحل ، و منام كاذب وظلٌ يحول ؟

لماذا لا تسعون نحو إيني حقيقي و اسعادة الدائمة والحير الذي لا تنزعزع ؟

غريغور يوس ثيولوجوس



الفصل الثامن

صَلُّوا كُلَّ حِينٍ

«يَنْبَغِي أَنْ يُصَلَّى كُلَّ حِينٍ وَلَا يُعْمَلْ.» (لوقا ١٨: ١)

الحياة في أعماق معناها تتنحصر في فعلين دائمين بسيطين غاية البساطة، أولهما المحبة، وهذه مصدرها الله؛ وثانيهما العبادة، وهي تختص بالحيقة: «الله محبة» (١ يوحنا ٤: ١٦)، «أما أنا فصلاة.» (مز ١٠٩: ٤)

وهذان الفعلان دائمان بلا انقطاع؛ فلا الله يكف عن حُبِّه للخيمة، ولا الخيمة تكف عن عبادة الله: «لأنه إن سكنت هؤلاء فالحجارة تصرخ.» (لوقا ١٩: ٤٠)

وكل أفعال هذه الحياة وأعمالها العديدة سوف تفنى وتتلاشى وذلك بعد أن تُدان عليها أو تُثاب: ولن يبق منها جميعاً إلا هذان الفعلان العجيبان، وهما محبة الله لنا، وعبادتنا له! هذان لا ينهيان، حتى بعد انتهاء هذه الحياة، بل إنهما يدومان إلى الأبد في الحياة الأخرى؛ فأنه لا يكف عن حبنا، ولا نحن نكف عن عبادته، لأن الله يرى مسرته في حبه لنا: «لذاتي مع بني آدم» (أم ٨: ٣١). أما نحن فنرى سعادتنا كلها في عبادته.

هذه العبادة إلهام إلهي وضعه الله في طبيعة الإنسان ليحيا سعيداً بعبادته لمصدر السعادة الحقة. وقد لمسنا ذلك فعلاً واختبرناه مراراً عديدة، وعممنا يميناً أن في الصلاة والعبادة سعادة أبدية. فهل من طريق يوصلنا إلى حياة كلها عبادة وصلاة مستديمة لا تنقطع؟ فنجعل الله مركزاً لتفكيرنا والمحور الذي تدور حوله كل أعمالنا وتصرفاتنا، نحيا في حضرة الله من الصباح إلى المساء ومن المساء إلى الصباح!

يقيناً إن هذا العمل ليس بالليل، وهو يحتاج من جانبنا إلى عزم ومثابرة وتدقيق شديد، ولكن لا ننسى أننا في ذلك إنما نتمم منتهى إرادة الله وقصده، ولا نشك أننا سنلاقي في تكميم مشيئة الله معونة وحباً وإرشاداً.

ونلخص ما تنطوي عليه دقائق هذا التدريب كما يأتي:—

أولاً: هدف حياة الصلاة الدائمة:

— دوام الوجود في حضرة الله.

— إشراك الله في جميع أعمالنا وأفكارنا ومعرفة إرادته.

- الوصول إلى حياة سعيدة بالقرب من الله مصدر السعادة، والتمتع بحبه.
- معرفة سامية من نحو الله في ذاته.
- إهمال لذيذ للحياة الأرضية بلا ندم.

ثانياً: إرشادات عملية للوصول إلى حالة الصلاة الدائمة:

- تنبيه الشعور بوجود الله أمامنا وأنه يرى و يسمع كل ما نعمله ونفعله.
- محاولة التحدث إليه من حين لآخر بجمل قصيرة تعبر عن حالتنا.
- إشراك الله في أعمالنا بطيه للحضور معنا أثناء العمل وتقديم تقريرنا إليه بعد انتهائه. فإن كان بالنجاح نشكره، وإن كان بالفشل نعتذر له ونبحث في أسباب فشلنا، فرما تكون بسبب ابتعادنا عنه أو نسيان طلب معونته.
- محاولة تسمع صوت الله من خلال أعمالنا. فكثيراً ما يتكلم هو إلينا من الداخل، ولكننا بتشاغلنا عنه نفقد توجيهاته الحكيمة.
- في وسط الأوقات الحرجة وعند ورود أخبار مزعجة وفي مهاجمة الناس أو الرؤساء لنا، نطلبه في الحال لاستشارته فهو أعز وأحكم صديق في أوقات الشدة.
- عندما يبتدىء القلب أن يضطرب وتهتاج مشاعرنا، نلتفت إليه محاولين تسكين هذه المشاعر المفسدة حتى لا تجرد مجالها في القلب، لأن الغيرة والغضب والدينونة ولأخذ بالتأرور الشر بالشر، تُفقدنا في الحال نعمة الوجود في حضرته، لأن الله لا يساكنه شر.
- محاولة عدم نسيان الله كلما أمكن، وذلك بالرجوع إليه حالاً عندما نضبط الفكر شاردأ بعيداً عنه.
- عدم الإقدام على عمل أو إجابة إلا بعد ورود الدافع من الله. أما كيفية تمييز هذا الدافع فإنه ينكشف قليلاً قليلاً بقدر أمانة سيرنا أمامه واستقامة أعراضنا في الحياة معه.

ثالثاً: مبادئ أساسية لحياة الصلاة الدائمة:

- ألك إيمان بالله؟ إذن ضعه أساساً لكل تصرفاتك، وقابل به كل ما يعترضك في الحياة من فرح أو حزن. لا تدع إيمانك يتغير كل يوم حسب الظروف. لا تجعل لنجاح يُزيد إيمانك بالله كما لا تجعل الفشل أو الخسارة أو المرض يذهب بإيمانك ويُضعفه.

— هل قبلت أن تحيا مع الله؟ إذن ضع كل ثقتك فيه مرة واحدة، ولا تحاول أن ترجع أو تتقهقر قط. كن أميناً له حتى الموت.

— سلم الله كل أمورك الجسدية والروحية، فإن فيه الكفاية أن يدبر كل أمورك. واعلم أن الحياة مع الله تحتمل كل شيء، تحتمل المرض والجوع والإهانة، فلا تستغرب هذه الأمور إذا أتت عليك، لكن اصبر وأنت ترى كيف تتحول هذه كلها في صفك لخيرك.

— ركز حبك في الله ولا تجعل العوارض التي تقابلك تسبب نقصاً في حبك له، بل بالحري استعذب كل ألم من أجله. فالحب الحقيقي يحوّل الألم إلى لذة.

— حوّل اليوم إلى العالم المادي لأنه هو مصدر شقائنا وأحزاننا، فالآلام هذه الحياة تجعلنا بالحري نزدري بالعالم ونحتقره ونزداد قرباً من الله وتعلقاً بالحياة الأبدية.

— علامة حبك لله والتصاقك به هو استعدادك دائماً أن تتخلى عن كل ما يتعارض مع وصاياه وقداسته.

— كن مدققاً، وراقب شهواتك، وحاسب نفسك، واطلب على الدوام نوراً من الله تكشف به سقطاتك وعثراتك.

— إياك وأن يكون هدف أعمالك أو أقوالك أو صلاتك لإرضاء الناس، فإن ذلك يبعدك بعيداً عن الله.

— في كل احتياجاتك اتجه لله رأساً بعزم وثقة.

— كن شجاعاً ولا تهّب الأخطار، لأنه في اللحظة المناسبة سوف يمد يده وينقذك، لأنه مستحيل أن يخدعنا الله أو يتخلى عنا.

— ما أسعد الذين حُسيبوا أهلاً أن يتألموا من أجل اسمه. وأسعد من هؤلاء هم الذين يشاقون أن يتألموا من أجل اسمه!

لمحة تاريخية عن الصلاة الدائمة:

الصلاة الدائمة منهج يسكي قائم بذاته، له خواصه المؤثرة تأثيراً مباشراً على قوى النفس الباطنية وعلى مراكز معينة من المخ للوصول إلى حالة سكون داخلي يهيئ الإنسان لدخول في حالة يقظة روحية دائمة وإحساس بالله مستمر مع سيطرة كاملة على الأفكار والشهوات.

ولذلك فهو يُعتبر من أهم وأسمى الأعمال الروحية، التي يمكن إذا نجح فيها الإنسان أن يصل بواسطتها إلى نتائج واضحة صحيحة غاية في الروعة الروحانية.

وهذا المنهج النسكي الخاص والفريد من نوعه أول ما نسمع عنه، نسمعه في تعاليم ثلاثة من أكبر القديسين الأوائل في مصر وهم: القديس مكار يوس الكبير، والقديس إسحق تلميذ أبنا أنطونيوس، والقديس ثيودور الأب يوحنا الخادم رئيس ذياكونية نترية. وهؤلاء عاشوا جميعاً منذ بداية القرن الرابع حتى نهايته، وتسجلت أقوالهم على يدي كاسيان السائح الفرنسي قبل نهاية القرن الرابع. وقد أوردناها في مسهل أقوال الآباء في هذا الفصل.

ومن أقوال هؤلاء الآباء نستخلص، بغاية الوضوح، أن هذا المنهج النسكي الفريد من نوعه كان من أهم التقليدات النسكية التي تسلموها هم بدورهم من آبائهم الذين سبقوهم. فيقول القديس إسحق تلميذ أبنا أنطونيوس في حديثه لكاسيان: [ولأن هذه الطريقة قد نُسّمت لنا على يد بعض الآباء القلائل الذين تبقوا لنا من العصور السالفة لذلك نحن لا نفرط في تسميتها إلا للقلائل الذين يُثبتون أنهم حاذقون.]

أما من حيث مفاعيل هذا المنهج النسكي في قوى النفس والعقل فكانت معروفة لدى الآباء منذ البدء، إذ يقول عنها القديس إسحق المذكور: [إن هذه الطريقة تواجه وتحيط بكافة الحواس والمشاعر المفروسة في الطبيعة البشرية، ويمكن أن تُستخدم بكفاءة ناجحة إزاء كل حاجة وكل إثارة.]

ويعود نفس القديس ليذكر تأثيرها على العقل: [هذه الطريقة إذا داوم عليها العقل فإنه يتقوى و يغلب كافة الأفكار المتزاحمة عليه و يطرحها عنه.]

ومنذ ذلك الحين، أي منذ القرن الرابع، امتدت الصلاة الدائمة في مصر لتحتل مكانة هامة جداً في اللاهوت النسكي عند كافة الكنائس الشرقية، فنجد التركيز عليها يستمر واضحاً في تعاليم نيلس السينائي وابنه ثيودوسيوس في سيناء (٤١٠ - ٤٣٠ م)، ثم في تعاليم القديس يوحنا الدرجي حتى بداية القرن السابع (٥٧٠ - ٦٤٠ م)، ومن بعده حزقيوس الأورشليمي، ثم يأخذ هذا التركيز في الزيادة التي تبلغ أقصاها في تعاليم القديس إسحق السرياني أسقف نينوى عند نهاية القرن السابع (٧٠٠ م).

وظلت هذه التعاليم آخذة طبعها المنفرد الآبائي دون أن يجمعها منهج موحد حتى جاء سمعان اللاهوتي (١٠٢٢ م)، ومن بعده غريغور يوس السينائي، فجعلها منهاجاً تصوفياً ذا طابع بيزنطي خاص، ونقلها غريغور يوس السينائي إلى جبل آثوس في اليونان في نهاية القرن

الثالث عشر. ومن بعده جاء كاليستوس تلميذه الذي صار بطريك القسطنطينية الذي جعل من منهج الصلاة الدائمة منهجاً تصوفياً أرثوذكسياً أساسياً في الطقس البيزنطي عامة، بعد أن جمع كافة أقوال الآباء في هذا الموضوع ووثقها وفسرها.

وبمجيء «نيل» الذي من سورسكا بروسيا إلى جبل آثوس في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، انفتح أمام منهج الصلاة الدائمة باب عريض في روسيا، إذ عن طريق «نيل» الذي من سورسكا نتقل كل التراث الشرقي القديم بكل غناه إلى الآباء الروس الدير تباروا في تطبيقه بكل أمانة وإخلاص وشغف حتى بلغ شأواً كبيراً في محيط الأجيال المتلاحقة، وهذا سوف يتبينه القارئ بكل وضوح في قصة السائح الروسي التي نقدمها في نهاية هذا الفصل كعينة عملية لهذه الصلاة الدائمة.

غير أن منهج الصلاة الدائمة، بانتقاله من موطنه الأصلي في مصر، فقد كثيراً جداً من بساطته الأولى التي كانت تجعل المصلي يعيش في عمق مفاعيله الروحية دون أن يتبه إليها، ويجني ثماره دون أن تسترعي طموحه وأطماعه الروحية.

فقد انتقل هذا المنهج من وضعه النسكي كممارسة اتضاعية في حد ذاتها، إلى وضع تصوفي ذي برامج وشروط وقواعد فنية وميكانيكية ودرجات وأهداف ونتائج، يضعها المصلي في ذهنه قبل أن يُقدِّم على ممارستها، مما أدخل على منهج الصلاة الدائمة شيئاً كثيراً من التعقيد والإفتعالية. ولكن على كل حال، لا يزال للصلاة الدائمة عشاقها وروادها الهوة، وهي لا تزال تدرُّ على محبيها مفاعيل نعمة وبركة غزيرة الفوائد. والكاتب يعترف ببركات هذه الصلاة عليه شخصياً.

شرح نظرية السكون الداخلي (الهيروخيا) الملازم للصلاة الدائمة:

تعتمد الصلاة الدائمة على نهضة وتمارين أعضاء خاصة في الجسم ومراكز خاصة في المح دات صلة بمراكز باطنية للنفس حتى يبلغ الإنسان إلى حالة يمكنه فيها مداومة الصلاة بذهن متيقظ وحواس مستبهة وسكون داخلي، معطياً بذلك الفرصة لنفسه لمواجهة عمل النعمة ومتابعتها عن كשב شديد.

ولأن هذا المنهج النسكي يعتمد على الجسد وعلى النفس لبلوغ حالة روحانية، فهو يسمى: «سيكوسوماتيك» أي نفساني جسدي.

ونحن لو تتبعنا تاريخ طريقة السيكوسوماتيك في المنهج النسكي في العهد القديم، نجد أصولها الأولى واضحة في وصية الرب لبني اسرائيل أن يجعلوا علامة حسية ظاهرة على اليد ربما بخيط قرمزي أو خلافة (٥). كما يجعلون عصا على الجبهة على هيئة لفافة تثبت بين الحاجبين، مكتوب فيها قصة خروجهم من أرض مصر حتى تكون تذكارة أبدياً لا ينسى لصنيع الرب معهم من جيل إلى جيل: «فيكون علامة على يدك وعصا بين عينيك لأنه بيد قوية أخرجنا الرب من مصر.» (خر ١٣: ١٦)

وهنا يتضح أن قصد الله من العلامة التي على اليد هو أن يصبح تذكارة يد الرب على الخلاص والنعمة حاضراً في كل لحظة عندما يقوم الإنسان بأي عمل. أما العصا التي بين العينين فلها ينتبه العقل لوجود ملاك الله المحلّص باستمرار سواء في المشي أو الجلوس، عند الراحة أو عند النوم، كما كان عمود السحاب والنار يرافق ويتقدم بني اسرائيل!

ثم مرة أخرى بأكثر وضوح يكرر الله نفس الطريقة وذلك بالنسبة للإيمان بالله وحفظ وصاياه: «ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك، وقصّها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك وحين تمشي في الطريق وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة على يدك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك» (تث ٦: ٦ - ٩). وهنا يزيد الله على طريقة الحفظ الدائم عضوين آخرين بالإضافة إلى اليد والعينين. وهما استخدام لهج القلب: «لتكن هذه الكلمات على قلبك»، واستخدام التردد المستمر بالفهم: «تكلم بها حين تجلس، وحين تمشي، وحين تنام، وحين تقوم». وبذلك فإننا نواجه عمق المنهج «النفساني الجسدي» النسكي في العهد القديم، حيث اليد والعينان والفم والقلب التي هي أبرز أعضاء الجسم تُعطى تنشيطاً خاصاً لتصبح آلات بر تخدم حقيقة الخلاص والإيمان بالله وحفظ وصاياه.

وفي نفس الوقت نجد أن كل عضو من هذه الأعضاء الجسدية له عمل ذو صلة مباشرة قوية وفعالة مع مركز عصبي خاص في المخ. وهكذا يدخل أيضاً العقل والتفكير جنباً إلى جنب مع الجسد في تذكارة هذه الوصايا وحفظها.

أما القلب فيمتاز فوق كافة أعضاء الجسد الأخرى بكونه ذا صلة إضافية عميقة مباشرة

(٥) لا يزال المسيحيون في الشرق وخاصة في مصر يتوارثون هذه الوصية بصنع علامة صليب على اليد بواسطة بوشة.

مع النفس، فهو يُعتبر القاعدة الجسدية للوجدان والأحاسيس النفسانية وذلك عن طريق ارتباطه بالغدة الصنوبرية التي في مؤخرة الدماغ التي تُعتبر المركز العصبي لبصيرة الفائقة والأحاسيس الوجدانية. فالإنسان عندما يفعل عاطفياً يتركز كل إحساسه ووجدانه في عمق قلبه.

إذن، فالوصية الإلهية بهذه الكيفية تكون قد شملت المفهوم الدقيق الكامل للمنهج النفساني الجسدي السكي، كنوع من العبادة المخلصة الأمية والتقرب الدائم لله.

وعلى نفس النمط يبرر مذهب الصلاة الدائمة في العهد الجديد لمناداة الله والرب يسوع وتذكارات الخلاص والرحمة باستمرار. هكذا بدأت الصلاة الدائمة بتكرار اسم الرب يسوع باستمرار: «يا ربّي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطيء»، مع استخدام الفم والعقل والقلب وكافة الحواس حتى والجسد أيضاً وذلك كنوع من العبادة المخلصة والتقرب الدائم بكل الكيان الداخلي للإنسان. وبالحبرة تحقق أن مداومة الصلاة مدداً طويلة بنفس هذه الخدمات وهدوء وبدون تعبير تكسب الإنسان نوعاً من الهدوء أو السكينة الداخلية أو السكون الداخلي، الذي سماه الآباء «هيريخيا»، لأنه هدوء وسكينة يصحبها يقظة روحية وانتباه عقلي.

وهذه في الواقع حفيضة لا ينبغي أن تغيب عن البال، لأن انشغال الإنسان بالصلاة بهذه الكيفية الدائمة هو ببساطة متناهية تحرر من الدنيا، وفي نفس الوقت إشغال الجسد بكل أعضائه مع العقل والنفس أيضاً في التوسل والصلاة. وهذا حتماً يوصل الإنسان إلى حالة هدوء وسكينة التي هي أصلاً من طبيعة النفس والتي كان يشوش عليها العالم والجسد والنفس بعواطفها المربوطة بالجسد، حيث الهدوء والسكينة أو الصمت الداخلي لا يعني الكف عن العمل والجهاد، بل يعني التخلص من القلق والارتباك والإنقسام، وانطلاق النفس تعمل مع القلب والعقل والجسد عملاً واحداً في ألفة منقطعة النظير.

وعندما تحقق الآباء المتأخرون من هذه النتيجة الباهرة أي الحصول على السكينة الداخلية (هيريخيا) بواسطة صلاة «يا ربّي يسوع» المستمرة، ابتدأوا يعتبرون هذه الطريقة منهجاً للوصول إلى السكينة الداخلية، مع أنها أصلاً صلاة تعبديّة للتقرب الدائم إلى الله في بساطة وانسحاق و ينبغي أن تظل كذلك في مفهومها العام.

وباكشاف أن صلاة «يا ربّي يسوع» الدائمة طريق يوصل إلى السكينة، احتسبت

كدرجة هامة من درجات النمو في الصلاة لبلوغ حالة التأمل ، باعتبار أن التأمل يحتاج حتماً إلى سكون داخلي و يقظة فنية وتخلص كامل من شوشرة العالم والجسد والعواطف .

وإن كنا نقبل هذا الاستخدام لهذه الصلاة المباركة لسوغ حالة التأمل ، إلا أننا في الواقع نجزع من فكرة الإصطباع والإفتعال . فحز لا يؤمن فط ولا نجير بأي صورة من الصور أنه يمكننا بوسائلنا الخاصة الوصول إلى الله أو حتى الإقتراب منه . فإن كل مجهود الإنسان لا يمكن أن يحركه خطوة واحدة فوق داته ، فالله هو الذي يجذبنا إليه ، والله وحده هو الذي يتحنن و يأتي إلينا . أما نحن فأخر كل مجهوداتنا لا يزيد عن أن يجعلنا في حالة استعداد فقط لجذب الله أو حضوره .

والحقيقة أن صلاة المداومة باسم الرب يسوع المسيح هي بنفسها تدخنا في حالة الهدوء والسكينة الداخلية ، ثم هي بنفسها ترفعنا إلى حالة التأمل كنعمة .

أما مفهوم الهدوء والانتباه واليقظة وانجماع الفكر التي تصاحب هذه الصلاة والتي تُعتبر أهم وأقوى نتائجها بالنسبة لحياة الصلاة والتأمل ، فهي ليست نوعاً من كبت الأفكار الإرادي ولا هي عملية تركيز الأفكار الإضطرابي ، ولكن هي عملية أكبر من ذلك بكثير . فصلاة «يا ربّي يسوع» عملية روحانية نفسية عظيمة ، يتم فيها توحيد كيان الإنسان لداخلي بجمع شمل كل قوى النفس العقلية والعاطفية والحسية ، حيث يصبح الجسم والعقل والقلب وحدة واحدة تتحرك بتعاون وألفة كحركة واحدة وكنبضة واحدة ، تفودها جميعاً عين واحدة تُحدّق في الله في لحظة الحاضر دون أن يصيبها إعياء ، في حب مفرط وتقوى .

وفي هذه اللحظات يتحقق لنا بالفعل والتأكيد وبرهان الإحساس الواقعي ، أن مراكز العقل وكافة الحواس والمشاعر العاطفية أصبحت كلها متركزة في بؤرة واحدة داخل قلب الإنسان ، ونقصد القلب الحي النابض في صدر الإنسان .

وعندما تحقق الآباء المتأخرون من هذه الحقيقة ابتدأوا ينتبهون إلى قيمة التركيز نحو القرب ، فجعلوه تدريباً يبتدىء به المصلّي حيث يداوم بكل صبر على إنزال عقله وإدخاله داخل القلب وجمع عواطفه وتركيزها داخل القلب وربط الإحساسات الجسدية بالقلب ، وذلك أثناء تلاوة صلاة «يا ربّي يسوع» بانتباه . وهذا العمل وإن كان بالفعل يتم حقاً ويسجح ، ولكن لم يكن قصد الآباء الأوائل أن يجعلوا النتائج الطبيعية التي تتم بالصلاة من تلقاء نفسها غايات محتمة توضع كفروض نحققها بالإرادة ، لأن عملية توحيد القوى الداخلية

لنفس حتى ولو لمكن تتميمها بالإرادة والتدريب فلا تمكّن رفعها إلى الله وربطها به، لا بالنعمة.

أي أن بلوغ سحر في الوصول إلى تركيز كافة الأفكار والأحاسيس والوحدان داخل القلب بالتدريب، حتى ولو وصلت إلى السكينة نفسها، فهذا ليس كل شيء، إذ لا يزال يكون أمام النفس هوة هائلة تفصلها عن الله لا يجتزمها إلا حسد المسيح السري والإيمان والحب.

أي أن الصلاة الدائمة باستخدامها كافة الوسائل السيكوسوماتيك، تظل في أشد الحاجة ومنذ أول لحظة إلى الإيمان الراسخ مع الحب الملهب حتى يبلغ الإنسان إلى السكينة الإلهية التي تنطلق فيها النفس فوق دأها لتحقق في الله بعين واحدة طاهرة بسيطة في عبادة حقيقية وتقوى.

وهكذا نرى أنه إذا تلاقت السكينة الداخلية المتخصصة من صلاة «يا ربّي يسوع» مع الإيمان والحب، لا يعود أمام النفس ما يحجزها عن الإنطلاق في التأمل الخالي من كل العوائق.

لذلك أصبحت صلاة «يا ربّي يسوع» بآناً ذهبياً حيوياً للتأمل.

أقوال الآباء في الصلاة الدائمة:

مختصر الفصل العاشر والحادي عشر والثالث عشر
من حديث الأب إسحق تلميذ أبا أنطونيوس الكبير مع كاسيان:

٨٧٤ — سنعرض عليك هذه الطريقة للوغ ذلك التدبير الروحاني الذي تهواه كل نفس تسعى لتذكّر الله على الدوام مع ضبط العقل.

أول كل شيء إنسَ نفسك واترك أفكارك وهيا تقدم معي بحو الله عارياً من كل هتومات لجسد، وثق أن الطريق الذي ستسير فيه قد حازه آباؤنا الشيوخ الذين تمكنوا من معرفة أسرار الروح.

عليك بهذه الصلاة: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني.» (مز ٦٩)

أما هذه الآية فبه تشعب حزافاً بل بعد خبرة، لأنها تتوافق مع كل ظروف الحياة الشريفة. فهي تحمل تضرعاً إلى الله معاس كل الأخطار والضيقات، وتحمل أيضاً اعترافاً مسحقاً بالعجز واهتماماً متيقظاً ومحافة دائمة. وهي تشير إلى إحساس الفرد بضعفه مع ثقة في الإستجابة وتأكيد بأن المعونة حاضرة سريعة. وهي تشير خفياً إلى قرب الله ما وأنه كل حين حاصر معاً يستمع إلينا.

إن هذه الصلاة القصيرة حرب شعواء ضد عدونا. فعندما يصرخ بها المسكين حينما تحوط به الأعداء يأتي القدير سريعاً ليسدد مشورهم ويصرق شملهم. إن هذه الصلاة هي بمثابة اثني عشر جيشاً من الملائكة بمركبات وفرسان من نار!

في تلاوتها ثقة وسلام وأدوية شفاء من الهموم والأحزان والضيقات، وليس في حزن والضيق فحسب بل وأيضاً حينما يصيب الإنسان نجاحاً روحياً أو ينال نعمة من هبات لروح القدس، فعندما يتلوها تدكره أن لا يظن في نفسه شيئاً، لأن الأعداء لا يزالون يجولون حولنا ولا زالت الخطية رابضة بالباب ولا خلاص إلا بالرب ولا دوام للسلام إلا بمعونته.

هي صلاة بافعة بكثير، فكما تعبرنا وادي الضيق والدموع تصعدنا إلى قم الفرح والسلام. كم هي تلائم طبيعتنا البشرية المتفصصة بين الحزن والفرح والصيق والسلام.

إذا ما كُيفْتُ بشهوة بطي وجاء العدو يعرض عليّ موائد الملذات والشهوات ودكّرني وأنا في الففر
بطعام العالم حينئذ أسرع وأقول: «يا الله التفت إلى معونتي . يا رب أسرع وأعني» . إذا طُلبت نفسي
الطعام في غير ميعاده وعزّيتي شهوة بطي لا كل قل أن يحل أوان الأكل أصرخ وأقول: «يا الله التفت
إلى معونتي . يا رب أسرع وأعني» .

إذا ما ابتدأ الخواريد في أعضائي ليعوقني عن الاستمرار في وِثون صيامي ... و يثور حسدي محتجاً
ويحف جوفي و يلتصق لساني بخنكي ويهدد طبيعتي بالإمساك المحيف ... فكيف أسير في طريقي مشتماً
وجهي نحو لصلب لأصل إلى وفاء بذوري أقول: «يا الله التفت إلى معونتي . يا رب أسرع وأعني» .

حينما تُقدم إلى المائدة وتعاف نفسي نوعاً من الطعام وأتكره أن أسد حسدي باليسير مما قدّم لي ،
عليّ أن أدعو: «يا الله التفت إلى معونتي . يا رب أسرع وأعني» .

حينما أرغب في تموم القلب والفكر بالمراعاة والمراير و يتدّى الصداع يعص عني سهري
و يستدرجني لطلب النعاس في غير ميعاده . وتثقل رأسي و ينتصق عقلي بالصفحة التي أمامي وأجد
نفسي وقد غُمِرْتُ في بحر عميق من التراخي تحور عليّ لوجهه ، لجة تنادي بجة ؛ و يتهدم تيار النوم
ليجرّني و يلقيني في ذلك العمق فأحرم من صلاتي ومراميري ، في ذلك الحين أصرخ هاتفاً : أما يهملك يا
رب أني أغرق ؟ «يا الله التفت إلى معونتي . يا رب أسرع وأعني» .

حينما يطير النوم من عيني وأقضي الليالي تباعاً وأنا مُسَهَّد قد دثّ في الهزال من الأرق وقد أحكم
عليّ الشيطان شباكه ليليني في حوم الإنزعاج والفق أتهد وأقول : ألا تُعطي يا رب أحياءك نوماً ؟
«يا الله التفت إلى معونتي . يا رب أسرع وأعني» .

عندما أكون في جهادي ضد الخطية وقد الهب جسدي بشهوة البذة وقد سرى في أعضائي حساس
خفي يوجع لزني الرديء ؛ وقد وقف الشيطان مقابلي يجذبني جذب اليائس المتوقّع ؛ فكيف لا تحرق هذه
أثار لثائرة زهور العفة فيّ أصرخ : «يا الله التفت إلى معونتي . يا رب أسرع وأعني» .

وعندما يتحنن القدير فيرفع هذه الضغطة عني و بطنيء طيب لشهوة مني أناديه لكي تدوم راحتي فيه
و يبقى سلامي فيّ طويلاً : «يا الله التفت إلى معونتي . يا رب أسرع وأعني» .

حينما تسرى فيّ لدعة الغيرة المرة وتخيّم على عقلي سحابة من الحسد والبغضة ، وأحد نفسي وقد
دعمني العدو من علو سلامي وأخرجني من هدوني المحب لي الذي تميت لوعشت فيه أبداً ، أصرخ
بأنات عميقة : «يا الله التفت إلى معونتي . يا رب أسرع وأعني» .

إذا ما تأمرت عني نفسي ومجّدت ذاتها وطلبت المديح وسعت وراء الثناء والإعجاب ، وجذت

وراء لكرامة واشهرة، واستبدت بنفسي الآمال والطمون؛ أرجع في الحال أستغيث: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني.»

وردا ما أشرق عني نعمة لتواضع والبساطة وبامانات كثيرة أخضعت روعي لتحرر من نفخة لكبرياء، فلكي لا يسوء عني الكبرياء بشفه مرة أخرى عندما تزهو نفسي بنجاحها والعدو واقف يراقبني ليحطمي بلا شفقة، أدعو: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني.»

عندما أكون مدد لنفس بأفكار طائشة وقد استبدت بي جيوش الطنون والأوهام وقد تاه فبي ولم أعد أجد في نفسي سلاماً؛ أحاول أن أجمع نفسي للصلاة فتتراكم علي أثقال الهموم كالجمال، وتترأى أمام ناظري صور سخيفة من ذلك الماضي البعيد الأثيم! تتزاحم في مخيأتي كأنما يريد لشيطان أن يعرضها كلها في لحظة، وتنسري لي آثامي وهي تسخرمي كأنها أشباح وطلال تطبق علي فأشعر بأنفاسي وقد انحصرت داخلي، ونفسي قد جفت حتى عر عني أن أذكر حسنة واحدة من حسات الحياة، حينئذ أخرج من ذلك الجو الحاق صارخاً: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني.»

وإذا ما شعرت بفاعلية الروح القدس، وقد أدركت خفياً غوامض من حكمة الله وابتدأ قلبي يتدرج في الحكمة والفطنة والمعرفة وأدركت المرحمة التي لا يُعثر عنها باللفظ، ونحل عقلي من رباط الماديات فأخذ يطوف حراً طليقاً في أجواء النعمة العليا، وقد غمرت نفسي مشاعر سرية وأهلت فجأة أن أستدعي للدخول في ذلك نور العجيب وأدرك بالرويا استعلانات لهدير، فكيف أدوم هناك طويلاً ولكي أشرب حتى أرتوي، ألح بأشنياق: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني.»

إذا دامني رعب الليل فارتجفت، وأفرعتني خيالات الشياطين حتى يطفوني بخوفهم لأنسى له خلاصي أقول: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني.» حينئذ يغيثني الله برنات الملائكة وأجد في نفسي شجاعة وغيرة حتى أستطيع أن أجد الجرأة والشجاعة أن أفتح جيوش أعدائي ولا أرجع حتى أفنيهم وأتقوى بالرب جداً على هؤلاء الذين منذ لحظة كنت أفزع وأرتعد منهم فرقاً، فكيف تدوم شجاعتي لي وتزداد أهتم قائلاً: «يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني.»

إذن، علينا أن نصلي هذه الصلاة بلا انقطاع سواء في شدة سوانا لكما يزول الكرب عنا أو في بهجة نصرتنا حتى تدوم علينا بالأكثر ونحفظ من سقطة الكبرياء، حاضرين ذكر هذه الصلاة لقصيرة لا يسقط من فكرنا مهما كان العمل الذي في أيدينا أو المهمة الملفاة علينا. نعم، فلجعلها نشودة الحياة وصلاة الطريق! كلما نذكرها ترفعا وكما نتمسك بها تحملنا على أجسدتها القوية لتطير بنا إلى حضن الصلاة الحارة.

ليت لنوم يأتيك وهي على شفئك فتطبع في قلبك كآخر طلبة لك في يومك، حتى إذا غاب لعقل

في سحب النوم الكثيفة ظل القلب يرددّها ترديداً. فإذا ما عاد العقل من رحلته وأيقظ حواسك، تكون لك أول طلعة في يومك! وحينئذ تدعوك واحسد لا زال في نشوته للركوع أمام الله وتقديم باكورة فوته! جعلها لك رفيق الطريق، إجعلها على عتبة فمك، و رصها على صفحات قلبك.

ومن دوام ترديد هذه الصلاة يكتسب بعض قوة وتركيزاً مع مسكنة لروح ويشعر أن ليس فيه قوة أو كفاية أن يدافع عن نفسه، ويسأل بحاجة معونة الله وسرعة إجابته، وحينئذ يتأكد أنه مُحاط بمعونة الله فيتمسك به أكثر فأكثر ويردد اتكلاً عليه. وهكذا تزداد أيضاً معونة الله له.

الأب إسحق نلميد أبا أنطونيوس في حديثه مع كاسيان

٨٧٥ — ما هي غاية أعمال لست التي إذا وصل إليها الإنسان يدرك أنه وصل إلى قمة الطريق؟ ... هي إذا استحق الإنسان أن يكون أهلاً للصلاة بلا انقطاع.

إذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة فإنه يكون قد بلغ نهاية طريق السك والفضائل وصار مسكناً للروح القدس. وإذا حل الروح القدس في إنسان، فإنه في الحال لا يستطيع أن يتوقف عن الصلاة باستمرار دون انقطاع وبلا ملل، لأن الروح سيصلي فيه على الدوام سواء كان آكلًا أو شاربًا أو مستريحاً أو مشغولاً، وحتى إذا كان غارقاً في النوم فإن عيب راحة للصلاة يسعث من نفسه في كل لحظة.

مار إسحق السرياني

٨٧٦ — الصلاة بلا انقطاع هي استمرار وجود الإنسان في حضرة الله بوقار، وهي إلهاب سري داخلي على الدوام مع بصفة دائمة في إلقاء الحشب (كلمات الصلاة) في ذلك لأتون المستعركي لا يُطفأ.

٨٧٧ — إني أذكر سؤالاً عرض في أقوال القديس باسيليوس الكبير في كيف أن الرس كانو صنيعة لا انقطاع؟ فكان الجواب هكذا: في كل أعينهم كانوا يتفكرون في الله، وعاشوا في تسيم دائم له فكانت هذه الحياة الروحية هي صلاتهم الدائمة!

١١١ — والمطلوب ليس فقط أن يتم تردد أصوات القصرة، لأن ذلك ستوقف عنه حتماً حبناً، ولكن المصنوع نصاً هو شعورنا بوحود الله معنا دائماً حتى نداء تأديتنا لأعمال البسيطة أيضاً، ولكن عيب الصلاة «لبي يسوع». اسمرقيا وهي من دأها توسع دائرة اختصاصها ونسج بك إلى هذا الشعور الدائم بوجود الله.

٨٧٩ — صل بلا انقطاع، واحبب في صلاتك وأنك حتماً تصل إلى الشعور بحضرة الله. وحينئذ تجد

أن تردّد اسم الله في الصلاة يكمل في القلب من تلقاء ذاته بدون جهد.

والسر في كيف نداوم على الصلاة بلا انقطاع في البدء، هو في مقدار حبنا ليسوع حياً شديداً صادقاً أميناً.

٨٨٠ — أنظر في نفسك هل تحب يسوع؟ هل أنت مشغول به حقاً؟ هل قد ملأ فكرك بآياته وكلماته ووعوده لك؟

هكذا النفس التي تعمقت بحبها يسوع تثبت فيه على الدوام بلا انفصال وتتحدث معه سرّاً في حديث قلبي منتهب. أليس كل من التصق بالرب قد صار معه روحاً واحداً (١ كور ١٧)؟
الأسقف ثيوفان الناسك

٨٨١ — في كل شيء يحب أن نشكر الله ونسبم ذواتنا لإرادته، وعلينا أيضاً أن نقدم له كل أفكارنا وحديثنا وأعمالنا ومحاولين أن نستخدم كل شيء لمسرته الصالحة.

الأب صاروفيم (ص)

٨٨٢ — يسوع لمسيح صلي من أحلنا قائلاً: «ليكون فيهم الحب الذي أحببته به وأكون أنا فيهم» (يو ١٧: ٢٦). وأيضاً: «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا.» (يو ١٧: ٢١)

حينما يمس حب الله الكامل قلوبنا بفاعلية هذه الصلاة التي قدمها يسوع لأجسادنا والتي لا بد أنها قد استجبت في الحال، حينئذ يصح الله ذاته هو كل حبنا واشتياقنا ورجائنا وجهدنا وكل فكرنا وكل كلمة ننطق بها وكل نسمة حياتنا.

وحينئذ أيضاً نصير في رابطة سرية مع الآب بالابن بذلك الحب الخالص الذي يطل على قلوبنا وعقولنا.

إن هذا الحب وهذا الرباط وهذه الوحدة هي هدف حياتنا الذي يسعى إليه وهو سبقٌ تذوقه عربون الحياة السماوية.

وحينما ندرك هذا الحب فينا سوف نصير حياتنا صلاة واحدة مستمرة.

الأب إسحق تلميذ أبا أنطونيوس في حديثه مع كاسيان

٨٨٣ — إنها بالحقيقة نعمة عظيمة أنما تعلمنا بالاختار كيف ننادي بلا انقطاع اسم الرب يسوع لتتقية قلوبنا وأفكارنا.

بترديد « صلاة الرب يسوع »، نحن نقاوم كل أفكار الشر ونقترب إليه بعقولنا وقلوبنا، فحين لا نردد اسم الله باطلاً!

٨٨٤ — إذا داومت على « صلاة يارب يسوع » مع فكر متضع وتذكّار الموت وملازمة الدت وأجزت أيامك سائراً في ذلك لطريق لضيء، فسوف يشرق عسك وجه الله بالفرح ولهجة وتدحل في التأمل الروحي المقدس الذي للقديسين وتستتير بمعرفة أسرار حكمة المسيح.

٨٨٥ — مغبوط بالحق من اتصل عمله بالله بدوام ترديد هذه الصلاة. لأنه كما تمر شعة الشمس على الأرض فتبدد ظلمة الليل وتعطي بهراً؛ كذلك اسم رب يسوع فإنه بدوام إشراقه على العسل تنبذ أفكار الشر وتنبع أفكار نيرة للخير.

حزقيوس الأورشليمي

٨٨٦ — على الإنسان أن يردد على الدوام صلاة « يارب يسوع المسيح ابن الله، رحمني أنا الخاطيء » سواء أثناء عمله أو سيره أو أكله أو راحته حتى يتغلغل اسم ربنا يسوع المسيح في أعماق القلب ويحطم كبرياء الحية القديمة الرابضة في الداخل لإنعاش الروح. لذلك داوم بلا انقطاع على ترديد اسم الرب يسوع حتى يحتضن قلبك فيصير الإثنان واحداً.

٨٨٧ — لا تفصل قلبك عن الله. داوم معه حارساً فسك من كل فكر يبعدك عنه بدوام ذكر الرب يسوع المسيح حتى يتأصل اسم الرب في قلبك ولا يفكر في شيء آخر سوى تمجيد المسيح.

يوحنا ذهبي الفم

٨٨٨ — بداية طريق محبة الله من كل القلب ومن كل الفكر وبكل القدرة هو مناداة اسم الخلاص الذي لربنا يسوع المسيح بإيمان، وليكن فينا أثناء الصلاة سلام وحب لكل الناس حتى ندوم في الصلاة أكثر فأكثر لأن « الله محبة والذي يشبث في المحبة يشبث في الله والله فيه » (١ يوحنا: ١٦). فبدوم الحب والسلام تدوم لنا الصلاة وفي دوام الصلاة دوام لثبوت الحب والسلام، فتنمو الصلاة مع الحب ليسيراً معاً نحو الكمال.

كالستوس بطريرك القسطنطينية

٨٨٩ — كل من يشابر على صلاة يسوع بلا ملل و توقار لائق، مردداً الكلمات بضمه بما بصوت مسموع أو هامساً بشفتيه، و يغلق على عقله ليشغل مفكراً في معنى كلمات لصلاة: « يارب يسوع المسيح ابن الله، رحمني أنا الخاطيء » رافضاً كل فكر آخر يعرض على ذهنه سواء لشر كان أو لخير فإنه لن يطول به الوقت كثيراً إلا و يُعطي من الرب الرحوم تذوق الصلاة الروحانية في لعقل والقلب.

الأسقف إغناطيوس ب.

٨٩٠ — اجلس، وفي هدوء وصمت احْرِ رأسك واغلق عينيك، وتصور نفسك باظراً إلى قلبك، وانقل أفكارك من عقبتك إلى قلبك وفل مع كل نسمة تخرج منك: «يا ربّي يسوع المسيح ابن الله إرحمني»، قُبها بتحريك شفّيتك بساطة، أو قُبها فقط في عقبتك محاولاً أن تدع كل الأفكار لأخرى جانباً، وكن هادئاً صبوراً وكرر هذه الطلبة في أحيان كثيرة.

سمعان اللاهوتي

٨٩١ — إذا لم تنجح بعد عدة محاولات لتصل إلى دوام البهح القلبّي هذه الصلاة، وعمل ما سأقوله لك ومعونة الله ستصل إلى مرادك: إن منكة النطق تقع في الفكر، فلكي تشغل الفكر بالصلاة فقط إسمح لهذه الملكة أن تتردد على الدوام بصوت مسموع «يا ربّي يسوع المسيح ابن الله إرحمني أن الحاطي»، وغصب نفسك أن تمونها دائماً. فإذا نجحت إلى رمس، حينئذ سيفتح قلبك بصلاة المستمرة.

من أقوال الآباء

٨٩٢ — صلاة «يا ربّي يسوع» لا يمكن تميمها مرة واحدة أو في اختبارات قبيّة، فلكي يؤدبها بالعقل والقلب بانتباه و يقظة دون فكر آخر، فهي تحتاج إلى مران وصبر.

في لبدء تكون محهود وتعصّب ونهاجها أفكار أخرى كثيرة، ولكن عامل المداومة والصبر بجهاد لا بد أن يأتي بنتيجة، حتى تؤدّي من تلقاء ذاتها دون جهد أو تعب.

وللاحظ أن الأفكار ستهاجمنا بشدة في البدء، ولكن بصبرنا أيضاً سوف تُعطي مكاناً وترحل.

ويلازم هـ لإختيار الشيق حرارة خاصة مبهجة عندما مسح العقل في الإتصال بالقلب ليعملا معاً مشتركين في الصلاة كجهة واحدة متحدة ضد كل الأفكار لمصادة.

وهذه لحررة تنمو قليلاً قليلاً على قدر تمسك العقل والقلب بالصلاة ضد أي فكر آخر، إلى أن تملأ لقلب تماماً، حينئذ يرتبط العقل مع القلب بحركة الصلاة بلا تشوّت أو فتور ماديّ باسم الرب يسوع.

ومن هذه الحرارة يتولد حب شديد للرب ودموع حلوة تُذرف بدافع الحب لیسوع. هذه هي الصلاة بلا انقطاع.

كالستوس بطريرك القسطنطينية

٨٩٣ — صلاة يسوع تنقسم إلى نوعين: صوتية وعقلية.

والذين اختبروا هـ لتدريب سهل عليهم أن يحوزوا من الصلاة لصوتية إلى الصلاة العقلية بسهولة كل حين من تلقاء ذواتهم حينئذ تتوفر هذه الشروط:

(١) يجب أن يلازمها الإلتباه.

(٢) حبس العقل في معنى كلمات الصلاة فقط.

(٣) الهدوء الكامل وأقصى ما يمكن من عدم التسرع.

(٤) إنسحاق وشعور بالخطية.

و يكون العقل منشغلاً في فكر واحد: مغفرة يسوع للخطاة.

وهذا النشاط الروحي ولو أنه يظهر نظرياً أنه عمل جاف، ولكن بالتمرين قد أثبت أنه أقوى تدريب روحي يفوق إنتاجه عن جميع أوجه النشاط الروحي الأخرى.

٨٩٤ — في الأول إسمع لنفسك أن تقول مائة مرة صلاة «يا رب يسوع المسيح ابن الله إرحمني أنا الخطيئة» بانتباه وبلا تسرع، كما قلنا سابقاً. وبعد ذلك إذا رأيت أنك تستطيع أن تقول أكثر فأضيف مائة أخرى، وهكذا بمضي الزمن يزداد عدد المرات إلى أن تصل إلى درجة الإستمرار.

ولكي تقول صلاة يسوع مائة مرة بانتباه وبلا تسرع، فإليك تحتاج إلى ٣٠ دقيقة أي ما يقرب من نصف ساعة، ولكن بعض السالك يحتاجون إلى وقت أطول. والمهم أن لا تسرع بل تكون بهدوء المرة بعد المرة، واجعل وقعة قصيرة بين الواحدة والأخرى؛ وهكذا ركز عقلك في الصلاة؛ واعلم أن الوقفات القصيرة بين كل مرة وأخرى مهمة للغاية إذ أنها تربط العقل بالصلاة وتمسه من التشتيت.

ليكن نفسك باعتناء وانسجام وبتؤدة، وعندما تفرغ من تدريبك حاول أن تشغل نفسك بقراءة مقدسة أو ترتيل إلى أن يحين وقت النوم، وعندما تذهب للفراش كرر هذه الصلاة وانعس وهي على شفئك، كذلك عند استيقاظك تكون أولى كلمات ينطق بها فك.

الأسقف إغناطيوس ب.

٨٩٥ — الآباء المتمرنون على الصلاة العقلية يعتبرون تهتة الجسد وتكييف وضعه أثناء الصلاة معيذاً، وأحياناً يكون لازماً إلا أنه بعيد كل البعد عن جوهر الموضوع.

فكل ما يرشد به الآباء هو في الواقع توجيهات ووسائل للوصول بها إلى جوهر الموضوع، أي الإتصال القلبي والعقلي بالله في الصلاة.

وهذه الإرشادات ربما تكون نافعة لكثيرين:

(١) قف كيما تشاء ولكن اثبت على الوضع الأخير بانتباه و يقظة في القلب، مع نشاط في جميع عضلات الجسد.

(٢) لا تسمح بأي مؤثر خارجي أن يشتت انتباهك، فلا تهتم بالأصوات الخارجية أو بحديث

الناس.

(٣) نُستحسن أن يكون لمكان معبراً وقليل الضوء جداً حتى نخذ الحواس راحها وتتحصن من كل المؤثرات الخارجية على الأفرس. ولكن إذا أمكنك أن تتخلص من هذه المؤثرات وتثبت في وسطها فابق في مكانك.

(٤) اجلس على كرسي صغير بدون مسد أو ظهر حتى لا يكون هناك مخد للتراخي والنعاس.

(٥) جتمس هذا الوضع واحتمل الألم الذي تعابه أكتافك ورقبتك وطهرتك حتى تستطيع أن تبقى مسها بنشاط. ولكن إذا أمكنك عمل هذا بطريقة أخرى أو إذا أمكنك شد عضلاتك بتأثير داخلي عليها فليكن، إعمل ما يوافقك، فقط لا تُرخ عضلات جسدك.

(٦) بتأثير داخلي يسحب عقلك إلى أسفل نحو قلبك، وحوّل أن تصلي من هناك من داخل قلبك بهذه الصلاة: «يا ربّي يسوع المسيح ابن الله إرحمني أنا الخاطيء».

ممكّنك أن تختصر من كلمات الصلاة أو تغير كلماتها أو تستعوض عنها بالأخرى أو حتى تفقد أمام الرب عصبياً بدون كلام. لأن القوة ليست في نطق الكلام ولكن بوضع العقل في قلب أمام الرب بعيداً عن كل المؤثرات والأفكار.

ولكن صلاة يسوع وُجدت بالاحتيار أنها ذات فائدة، وكذلك الوضع جسدي المشار إليه كأحسن ما يكون للخروج بنتيجة واضحة من الصلاة.

ولكن بمجرد النجاح في هذا التدريب والوصول إلى الصلاة المستمرة بلا انقطاع، فإن كل هذه وسائل والأوضاع تصبح بلا قيمة ولا داعي لها المرة كما تُرفع السقالة حينما يتم البناء.

٨٩٦ — ليس شيء مُربك في هذا، فحين نبحث وراء التدريب من حيث أوضاعه الظاهرية، ولكن فصدنا هو الوصول إلى حالة الوقوف باسمه أمام الله في الصلاة والتعبد على كل الأفكار والتأثيرات التي تشتت عقلنا في الصلاة.

أما الذين عتمدوا فقط على مظاهر الوقوف في الصلاة أو تكرار الكلام باطلاً، فهؤلاء لن يستطيعوا الوصول إلى جوهر الموضوع الذي هو اتحاد العسل بالقلب في صلاة متنه. إذاً هذا لا يأتي من استعدادنا نحن فقط بل وأيضاً من عمل العمة.

الأسقف ثيوفان الناسك

٨٩٧ — نحن نعرف على وجه التحقيق أن القلب هو عضو الفكر الأساسي، فالسيد يسوع المسيح

يقول: «من القلب تخرج الأفكار».

غريغوريوس

٨٩٨ — العقل مكانه في الرأس، والدين يشتغلون بعقوبهم هم بحمدتهم بما يعيشون في هذا الرأس، ولكن العقل لا يكشف ولا يهدأ من التفكير في أمور كثيرة أكثرها غير نافع وهو لا يشبث على حال إطلاقاً. لذلك إذ أردنا أن نشبث في فكر واحد فقط مع الله، فيحس بنا أن نعد هذا الرأس وسرر إلى القلب حيث مسع لفكر حقيقي ونحيا بنوينا لا بعقولنا؛ وبدوم هالك في يقظة القلب وحرارته حيث يبقى العقل خاضعاً لإرادة القلب في الصلاة.

٨٩٩ — تسأل ما معنى أن نكون بعقلنا في داخل القلب؟

أتعرف أين يوجد القلب؟ طبعاً تعرف. أتم تشعر يوماً بالفرح والسرور؟ أين كان هذا الفرح منك؟ هذا هو مكان القلب!

قف باستباه وركز مشاعرك وفكرك ولا تشرد أو تعطي بذلك للمؤثرات الخارجية عنه، وأنت تكون بذلك قد وضعت عقلك في قلبك.

هي حالة انتباه مطلق مع تركيز المشاعر والفكر.

الأسقف ثيوفان الناسك

٩٠٠ — أتريد أن تمتلي لصلاة الدائمة؟ إحتد في الصلاة، وحيها يرى لرب غيرتك وهمتك وسعيك في الصلاة يعطيك إياها.

أبا مكاريوس الكبير

٩٠١ — «صلاة يسوع» حينما تؤدى بإيمان في ساطة قلب، تكون دائماً خلاصاً للنفس. ولكن إذا دخلت في ممارستها أعراض أخرى لرب لذاني فإنها تكون مؤذية وضارة.

٩٠٢ — أثناء هذه الصلاة لا يرجع بعض الناس عن خطاياهم وعادهم لأثيمة التي يشتكي من أحدها ضمير الإنسان ويسأل، فيكون نتيجة ذلك أن يشبث في النفس قتال داخلي عميق فيطرده كل سلام الإنسان الداخلي ويرتبك ويقع الذهن في حيرة وانقسام.

٩٠٣ — إنه مفيد جداً أن يكشف الإنسان أفكاره مع دوم الإطلاع على الكتب لمهذبة والنافعة، أما في الأحوال الخاصة فيحسن استشارة أحد الآباء الروحيين.

الأسقف ثيوفان الناسك

٩٠٤ — الذين يدفعون إلى التشوق الرائد في اختبار الصلاة بدون تروٍّ وتؤدة ما يستعيدون شيئاً.

يوحنا كارباتيسكي

٩٠٥ — جناب الأم الموقرة الراهبة ت ...

قد كنتُ عن صلاة يسوع ... وأقول أيضاً تأديتها - مستمر دون انقطاع لا يتأني هكذا سريعاً، لأنه يلزم التدريب شعوراً بحب وافر بالله، فإن أن يكمل هذا الحب وهذا الفرح في داخل القلب يظل التدريب على الصلاة ناقصاً.

ولكن أول وأهم كل شيء، أن تعتري داتك كغير مستحقة لتتقسط هذا الاسم لكرم الذي هو في أفواه لشاروويم والساووفيم وطعمات الملائكة في السماء وعلى الأرض. بل حدي لنفسك لأحرار وسعي وراء المشقات، لأن هذا هو كرك الذي يعبك على التدريب في صلاة يسوع.

ألا تذكرين ما أذرتك به قديماً أن كل مسيحي ابتدأ يمارس هذه الصلاة بحذو وعزم يعاني تعانٍ ومضايقات كثيرة من عدو خير، لأنه لا يحتمل هذا الاسم القدوس؟

٩٠٦ — إن هذا الطريق لا يُلقن بالتعليم أو بالكتب وإنما بالعرف والدم. جاهدوا حتى الدم فتالو عطية الروح!

أنظر في الكتاب المقدس كله ترى أن اسم الرب ذو قوة وافتدار عظيم، وقد صار به الخلاص لكل من استحاً إليه: «(اسم الرب برج حصص يركض إليه الصديق ويتمتع)» (م ١٨: ١٠). اسم الرب رعب للشياطين: «(أنا أقرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها، فخرج في تلك الساعة.)» (ع ١٦: ١٨)

وإذا رجعت إلى قوائم الكنيسة الأرثوذكسية ترى أنه معيّن على جميع أولادها الأميين، سواء كانوا رهباناً أو عواميين، أن يكون قانون صلاتهم عبارة عن ترديد صلاة يسوع بدل الصلوات الأخرى ولزامية.

٩٠٧ — إذا أردت أن يكون لك سلام، خذ اسم يسوع المسيح في قلبك وفي فمك.

أناتوليوس

٩٠٨ — ماذا نعمل وراء لثوس التي تحضت وراء الطقوس والشكيات؛ وقبل أن تصل إلى حياة الصلاة الروحية، بردت وجمدت وستترب وراء النظام المألوف لصلوات الموضوعة؟

في صلاة يسوع والتدريب عليها كهيئة أن تعيد إليهم حرارة العبادة وتخرجهم من حياة جمود إلى حياة التقدم والخلاص.

الأسقف ثيوفان الناسك

٩٠٩ — يُها الأح ليس حساً لك أن تحصل على مواهب الصلاة القلبية قبل الأوان. حتى التبتدئ بفرحة الصلاة ومذاقة حلاوة النعمة السابق لأوانه هو ليس من صالحك أيضاً. لأنك إذا حصلت على هذه قبل أن تعرف كيف تحافظ عليها وتسميها وتسترها، فإنك حتماً سوف تستخدم هذه المواهب للتفاخر والبر الذاتي.

٩١٠ — يقول الكتاب: «لا يأتي ملكوت الله بمراقبة» (لوقا ١٧: ٢٠). لذين عدلوا أنفسهم بالحصول على المواهب وتشاغلوا بمثل هذه الأفكار، خضعوا للكبرياء وسقطوا. أما نحن فدعنا نرتب قلوبنا في أعمال الندامة ولتوبة وفي حياة ترضي الله. ودع مواهب الله تأتي من ذاتها، إذا سُرَّ الله واختار هيكلنا لتقديسه.

ولكن كل طلب ما لمواهب الله العليا مع ترقبها، ترفضه مبادئ الكيسة. لأن هذا ليس دليلاً من على حب الله بل بالعكس هو دليل على مرض النفس. وكيف نطلب لأنفسنا مواهب الله لعيا في حين أن بوس الرسول مع القديسين كانوا يفتخرون بالشدائد ويعتبرون أن الإشتراك في آلام المسيح أعظم موهبة من الله؟

٩١١ — وكما أن التفكير الخاطيء يقود إلى خديعة النفس والوهم الباطل، هكذا أيضاً في عمل القسب، فإن شهوة رؤية الماظر والسعي وراءها قبل أن يتطهر العقل من الشهوات الألمية وقبل تجديده وخديعته يمين الروح القدس، يكون عملاً مملوءاً كبرياء، ويكون أكر دليل على عدم لياقة مثل هذا القلب لحلول النعمة فيه.

٩١٢ — والعقل عندما يسمى وراء هذه الماظر والمشاعر الروحية، يقع في ضلالة. إذ أنه عندما يعجز عن نبوع قصده فإنه يصططع لنفسه منطراً من عنده حسب ما يشتهي فيغش ذاته.

الأسقف إغناطيوس ب.

٩١٣ — يحب علينا لا أن نصلي فقط بلا انقطاع باسم يسوع المسيح، ولكن نحن مدزّمون أن نظهرها (هذه الصلوة) ونعلمها للآخرين، لكل إنسان على وجه العموم، إذ أنها لائقة وبافعة للجميع: لرجل الدين ولرجل العالم، للخدام والمخدوم، للعالم والأمي، للرجل والمرأة، للشيوخ والطفل. نوحى إليهم جميعاً بأهمية هذه الصلاة وندرهم على الصلاة بها بغير انقطاع.

غريغوريوس الكبير

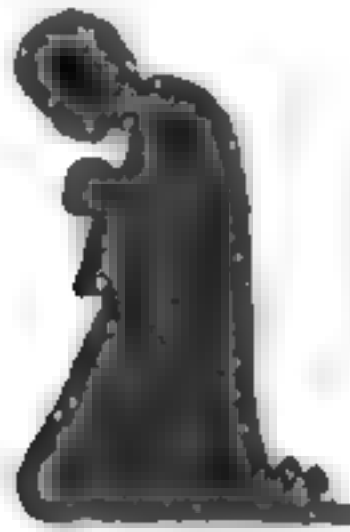
٩١٤ — ليس حسناً أن يحتفظ الإنسان بأسرار النعم السماوية طالما هي في متناول عمل الآخرين. فكل ما يكتسبه الإنسان في تأملاته مع الله وكل ما يكتشفه من إحساناته الفائقة، عليه أن يحدث بها السائرين معه في ذات الطريق، أو على الأقل يدنو منها لمنفعة الآخرين مع كل دقائق

الإختبارات من أجل المحبة.

كاليستوس بطريرك القسطنطينية

٩١٥ — إذا كنت عابثاً أو طلياً أو موظفاً أو ضابطاً أو واحداً أو عاملاً، وذكرك أول وأهم ما يجب أن تتعممه في الحياة تترك في معرفتك الخلاص بالمسيح، وإيمتك بالثابوت لأقدس، وصلاتك كل يوم مع الله، وموظفتك على الخدمات الكنسية، وترددك اسم يسوع المسيح في قلبك لأنه قوة لله للخلاص.

الأب يوحنا ك.



إختبار للصلاة الدائمة

صلاة يسوع

« ليس لي فضة ولا ذهب ولكن الذي لي
فإياه أعطيك: باسم يسوع المسيح
الناصرى قُمْ وامشِ. » (أع ٣: ٦)

تقديم:

لم أجد أبدع من قصة السائح الروسي لكي أقدمها إليك أيها القارىء العزيز. إذ فيها
يقص هذا السائح قصته المشوقة عن اختباره لصلاة يسوع إختباراً عمدياً محصاً.

و يظهر في هذه القصة حال الحياة الأرثوذكسية الحقيقية وسمو الحياة المسيحية لعممية.
وسنقتصر على تقديم الباب الأول من هذه القصة إذ فيه الكفاية من حيث موضوع الصلاة.

أما هذا السائح الروسي فهو أحد الذين اشتعلت قلوبهم ببارحة يسوع المسيح، فلم يعد
يطيق الوجود بين الناس، فذهب هائماً على وجهه يحجوب بقاع المناطق الشمالية في روسيا
وسبيريا لا يحمل من هم هذه الحياة الزائلة شيئاً قط.

وقد دوّن هذا القديس السائح كيف ابتدأ بتدريب صلاة يسوع على يد أحد الرهبان
حتى وصل إلى اختبار الصلاة بلا انقطاع.

وقد اكتشفت هذه المخطوطة ضمن حيازة أحد رهبان جبل أئوس في دير القديس
ميخائيل في قازان عام ١٨٨٤ م:

إنني بنعمة الله مسيحي، ولكن بأعمالي أرى نفسي أكرر الخطاة. وإذا أُسْمِي بالسائح الذي لا منزل له، أجد من مكان لآخر لا أحمل إلا سلة على ظهري بها من الخبز اليابس ما قل أو كثر، والتوراة في جراب على صدري.

ذهبتُ إلى الكنيسة في الأحد الرابع والعشرين بعد العصرة لأصلي، فسمعتُ من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي هذه الآية: «صلُّوا بلا انقطاع»، ففدت هذه الكلمات عن كل ما عداها إلى الأعماق، وفكرتُ: كيف يمكن أن أصلي بلا انقطاع بينما أنشغل بمهام كثيرة لأقوم بأود حياتي؟ رجعتُ إلى الكتاب المقدس فقرأت هذه الكلمات بعيني، وفهمتُ منها أنه يجب أن نصلي على الدوام في كل الأوقات وفي كل مكان! ... فكرتُ كثيراً ولكن لم أصل إلى نتيجة. سألتُ ماذا ينبغي أن أفعل؟ وأيسر أحد من يفسر هذا الأمر؟ سوف أذهب إلى الكنائس ولأفصحتُ أشهر الوعد والمرشدين فرمما أسمع منهم ما يلقي ضوءاً على فكري ...

مضيتُ وسمعتُ عظات كثيرة مدهشة عن الصلاة. وفهمتُ ما هي الصلاة وإلى أي حد يحتاج إليها وما هي ثمارها؟ ولكني لم أحد من يتكلم عن كيف ننجح في ممارسة الصلاة. وسمعتُ عظة عن الصلاة القلبية وعدم انقطاعها، ولكن لم يشر إلى كيفية ممارستها؛ لذلك لم أستاذ كثيراً من سماع العظات، فعولتُ على خطة أخرى بأن أتجه إلى بعض المختبرين فأناقشهم في هذا الأمر الذي ملكت على عقلي وتفكيري!

سألتُ كثيراً سائلاً في كل مكان عن ذلك الأمر. وقيل لي عن إنسان في إحدى القرى يسعى إلى خلاص النفوس، ويخصص اجتماعاً في منزله ويقضي كل وقته في الصلاة وقراءة الكتب المقدسة، فحريت إليه أكثر مني مائلاً ووجدته وأخبرته بما سمعته عنه، وطببتُ منه أن يجبرني عما يقصده الرسول بقوله: «صلُّوا بلا انقطاع»، وكيف يمكن ذلك؟ فسكتُ، ثم قال: «الصلاة الداخلية غير المقطعة هي رفع دائم للنفس البشرية أمام الله، ولكي تنجح في هذا الأمر يجب أن تصلي كثيراً لتختبر العذوبة التي يعمننا الله بها كيف نصلي بلا انقطاع ... صلُّ كثيراً وصلِّ بحرارة، فالصلاة نفسها هي التي ستعين لك كيف تصلي بلا انقطاع ... لكن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت!». ثم قدَّم لي راداً ونقوداً لأجل سياحتي وصرفني. ولكن اعتراني شعور باليأس إذ أنه لم يفسر لي كما أريد ... عدتُ إلى القراءة والتأمل مفكراً في كل ما قاله لي ذلك الأب، ولكن لم أصل إلى الحقيقة، ولست أعلم لماذا بدأت لا أنام الليل ...

مشيتُ ما يقرب من ١٢٥ ميلاً حتى وصلتُ ديراً سمعتُ أحبارَه، فعلمتُ أن هناك أباً محباً طيب القلب، فقصدتُ إليه فقابلني في صداقة عميقة. رجوته أن يرشدني روحياً إلى الطريقة التي بها أحص نفسي، فلهش وأجاب: «سِر حسب أوامر الله واثُل صلواتك فتخلص». فأجبتُ: «ولكني سمعتُ أنه ينبغي أن أصلي بلا انقطاع وهذا هو ما لست أعرفه أو أقدر عليه، فأرجوك أن تفسر لي هذا الأمر».

فأجاب: «بأن عده كتاباً للقديس ديمتري عن التعليم الروحي للإنسان الداحي؛ فقرأت فيه أن كسدت بولس الرسول بخصوص الصلاة بلا انقطاع يجب أن تفهم مباشرة إلى لصلاه بوصفه إلى الفهم وهذا الفهم يوصد إلى به. فيعيش الإنسان بذلك في حياة الصلاة بلا انقطاع!»

ولكن سألت عن الطريق أي بها يتجه الدهر إلى الله دواماً و بدون أن يشغل بعيداً. فأجابني الأب. «إن هذا الأمر صعب حتى على الذين وهبوا من الله تلك العطية».

فلم أستعد شيئاً. ورددت اضطراباً وفضيت الليل عده ثم عاودت السير في الطريق العام مدة خمسة أيام مواظباً على قراءة الكتاب المقدس لأريح نفسي.

أخيراً فالتفت أحد رجال الدين عند اقتراب المساء وسألته، فأخبرني أنه من دير يبعد عن المكان نحو ستة أميال، وسألني أن أذهب معه وأخبرني أنهم يضيقون الجحاح ويهثون لهم قسطاً من الراحة. فأجبت بأن راحتي النفسية لا تستدعي راحة الجسد، ولست أجري وراء الأكل لأن عندي الكثير من الخبز الجاف في لسة. فهذا من اضطرابي وأخبرني بوجود أب كبير محتر في الدير يستطيع أن يهديني الطريق الصالح على ضوء كلمة الله وكتابات القديسين. قلت: «حسناً يا أي، إني سمعت في قراءات الكنيسة من لرسائل الأمر بأن نصلي بلا انقطاع. ولكني لم أفهم كيف يمكن ذلك وسط مشغوليات العالم.»

فأجابني. «إن هذا الأمر صريح، فيسفي أن نصلي بلا انقطاع في كل مكان وفي كل زمان وليس فقط وسط المشغوليات العالمية. بل وحتى أثناء النوم أيضاً حسب قول الكتاب: «أنا نائمة وقبلي مستيقظ».

فذهبت كثيراً واضطربت ورددت غيرتي لأفهم. واستطرد الأب في الحديث: — «إني أشكر الله يا بني العرير على تلك الغيرة التي عرسها الله في قلبك نحو لصلاة مستمرة، وثق أنها دعوة من الله لك، فهتديء روعت لتتأكد من إرادة قلبك أنها تتفق مع كلمة الله الذي وهبك أن تفهم لسور السماوي الذي يشع في الصلاة غير المقطعة. إن هذا الورد لا يأتي بحكمة هذا العالم ولا يأتي من الرغبة الخارجية في المعرفة. ولكن يأتي للمساكين بالروح الذين يريدون أن يجتبروا كل شيء عملياً في بساطة قلب.

«أما عدم فهمك لكيفية الصلاة المستمرة فليس فيه أي غرابة! لأنه بالرغم من أنه قد كُتب كثيراً عن الصلاة وكثرت الإرشادات التي قيلت في هذا الصدد، إلا أنه في أكثر الأحوال تُبنى هذه الكتابات على الحكمة الطبيعية. ولعالية تعط دائماً عن صفات الصلاة دون التكلم عن طبيعتها وطريقة ممارستها.

«واسعص يتكلم عن قوتها وهبائها، والبعض الآخر يتكلم عن الوسائل التي تمهد لها دون شرح ما يتعلق بها ذاتها.

«ولكن من هي الصلاة المستمرة، وكيف يتعلم المرء أن يصلي؟ مثل هذا السؤال لا تجد له جواباً عند وعاط الوقت الحاضر، لأنه سؤال يحتاج إلى دراية وفهم روحي ولا يحتاج إلى تعليم المدارس، كما أن الفشل في هذا المهم وعدم الحررة يجعهم يستخدمون حكمة العالم غير المجدة في شرح الأمور الإلهية. فالكثير من الناس يفكر فكرياً خاصاً بأن الأعمال الصالحة هي التي تجعلنا نصلي، ولكن الأمر على العكس فالصلاة هي ثم لفضائل ولأعمال الصالحة. ومن يقول بغير ذلك فإنه يهضم حق الصلاة وقيماتها، كما يخالف قول الرسول بولس بن تيموثاوس: «فأطلب أولاً كل شيء أن تفاء طلبات وصوات وانتهاكات وتشكرات...» (١: ٢). فالصلاة هي أولاً كل شيء. وعلى المسيحي أن يقوم بالخدمات والأعمال الصالحة ولكن قبل الكل يجب أن يصلي. لأنه بدون الصلاة لا يتم عمل صالح. ولن يجد الطريق إلى الرب بدون الصلاة.

«كذلك ليس يفهم الحق ولن يستطيع أن يصلب أهواء جسده وشهوته بغير صلاة. ولن يستضيء قلبه نور المسيح أو يتحد بإرادة الله ما لم يشرع في اختار حياة الصلاة الدائمة... وأقول «الدائمة» لأنها هي كمال الصلاة. نعم أولاً أن نطلب قوة الصلاة، حينئذ ستمارس بسهولة جميع الفضائل».

ووصينا إلى الدير أثناء هذا الحديث، فسألته أن يتمصل ويحبرني عن كيفية الصلاة بلا انقطاع، فقبل سؤالى بطف وأدخلني إلى صومعته وأعطاني لأقرأ في مجلد لأقوال الآباء. واستطرد قائلاً:-

«إن الصلاة غير المنقطعة هي مناداة اسم الرب يسوع بالشفاه وبالفكر وبالقلب مع تكوين صورة عقلية لحضوره الدائم الثابت، وطلب رحمته خلال كل مشغولية وفي كل وقت وفي كل مكان حتى أثناء النوم.

«وتعبر هذه العاطفة بتريد هذه الكلمات: يا رب يسوع المسيح ابن الله رحمني أنا خاطيء... من يعود نفسه على ذلك يختار أعظم الوسائل التي ترزع الرغبة في أن تدوم الصلاة، وسوف تستمر هذه الطلبة دافعةً لنفسها في أعماق قلبه.

«والآن اسمع ما يقوله سمعان اللاهوتي عن الصلاة بلا انقطاع:-

[إجسس، وفي هدوء وصمت إحي رأسك، واعنق عبيك، وتصور نفسك باطراً إلى دحل فبستك ونهل أفكارك من عفتك إلى قلبك وفن مع كل نسمة تخرج منك: يا سيدي يسوع المسيح ابن الله رحمني أنا خاطيء. ففها تتحررك شفتيك بساطة أو ففها فقط في عفتك محاولاً أن تدع كل لأفكار الأخرى جانباً، وكل هادئاً صوراً وكرر هذه الطلبة في أحيان كثيرة.]»

وإد فسرني الأب هذه الكلمات شرعاً بمرأ الليل كله، ثم مصيت في الصباح إلى لسدة المجاورة بعد أن باركتي وأحبرني بأن أعود إليه ليرى مدى تقدمي، ولأعترف له بكل شيء في صراحة، لأن لتحوّل الداعي لا يكمل بدون إرشاد روحي. ولما دخلت الكيسة طلبتُ معونة الله. ثم شرعت في

البحث عن عمل ومسكن في البدة، لأنه لا يُسمع لرور الدير بالبقاء أكثر من ثلاثة أيام. ولأجل عناية الله في استأجرتي أحد الملاحين لأعطني بحديثه طول الصيف، وأعطاني كوخاً منفرداً لأعيش فيه، فليتمجد اسم الله! ... لقد وحدثت مكباً هادئاً وعملاً مفرداً فيه بدأت أتعلم الصلاة الداخلية، لكي تعبت جداً في بحر الأسوع، وشعرت بنكاس واعتراي نوم وعشيتني سحابة من الأفكار الأخرى.

فضيت حزيباً إلى أبي وأحسرتة سوء حالي، فحياتي في شوق وول. «يا ابي، إنها هجمة عالم الظلمة عليك، ولكن عدو الخير لا يستطيع أن يعمل إلا ما يسمح به الله في حدود احتمالاتنا، فليس أسوأ من أن نشعر أننا نصلي، فإن هذا الشعور يحوّل بكافة الطرق أن يحولك عن الصلاة ... إنه يبدو لي أنك في احتياج لأن يُخبر انضاعتك، لأنه على قدر ازدياد عاطفتك لتخبر الصلاة من أعماق القلب على قدر احتمال سقوطك في الطمع الروحي.»

ثم شرع يصرأ لي من أقوال الآباء ما يلي: [د. لم تنجح بعد عدة محاولات لتصل إلى اختصار الحقيقة التي تعلمتها، فاعمل ما سأقوله لك وبمعونة الله ستصل إلى مرادك: إن منكة الطوق تقع في الفكر، فاسمح لهذه الملكة أن تردد على الدوام هذه الكلمات بعينها أي: «يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطيء»، واجبر نفسك على أن تقولها دائماً. فإذا نجحت إلى رمس، حينئذ سيفتح قلبك للصلاة الدائمة]. واستطرد لأب قائلاً: «إن هذا هو تعليم الآباء، فأطع إرشادي من الآن فصاعداً، وكرر صلاة يسوع ثلاثة آلاف مرة في اليوم أثناء قيامك وجلوسك ورقادك ومشيّك، وعمدك وراحتك. ففها يهدوء وبدون إسراع، ولا تحاول أن تُفصّر أو تريد في العدد والله سيساعدك، وبتك الطريقة تصل إلى صلاة القلب غير المنقطعة.»

فقببت هذا الأمر سرور ومضيت إلى منزلي أبعده بمنه الأمانة والدقة، فوحدت الأمر صعباً في اليومين الأولين، ولكن بعد ذلك سهّل عني بدرجة أي كلما توقفت أشعر بما يدفعني على الإستمرار ... فذهبت إلى أبي فأمر بالمزيد وأصاف قائلاً: «كر هادئاً وجرب بأمانة حتى يعيش الله في تدريبك.»



وهناك في كوشي الموحش رددت هذه الصلاة أسوعاً آخر دون أن أنضايق، وتعلمت كيف أركز ذهني وكيف لا يتشتت عقلي إلى الأفكار الأخرى. وشعرت فعلاً بأنني قد توقفت عن الصلاة أكون كمن فقد شيئاً ... ولما قابلت مرشدي أخبرته عن فرحي ورتياحي لما اعتاده قلبي وفكري ولساني، فمجّد الله قائلاً: «إنها نتيجة طبيعية للمجهود المتواصل والروح البقطة، فالعجبة يدفعها قصورها الداني وتستمر في السير، إلا أنها تحتاج إلى زيت ليسهل حركتها كما يحسن دفعها من حين لآخر. فتأمل مراحم الله الذي أعطانا كيف ندرب طبيعتنا البشرية!

«ولأن أترك لك مطلق الحرية بصلي كلما تريد، فقط حاول أن تكرر أوقات بفظتك للصلاة، وأن تسمح نفسك بالتضاع لإرادة الرب طالما أنه المعونة. وأنا متأكد أنه لن يسالك بل سيقودك إلى الطريق المستقيم!»

وهكذا قضيت الصيف كله في سلام مع الله وصلاة مسمرة يسوع المسيح، كما كنت أحلم في ليبي بأني أصلي. وإذا فاست بساباً في يومي، أشعر كما لو كان عريراً عالياً لدي أو أقرب الأقربين إلي ... ولكنني لم أشغل نفسي بالناس كثيراً. وهدأت كل أفكارني ولم أفكر في شيء إلا في الصلاة. وإذا ذهبت إلى كنيسة الدير تندو لي الخدمة الطويلة كأنها قصيرة غير مممة ... وترعى لي كوحى الحفير كأنه قصر عظيم، ولم أعرف كيف أعتر عن شكرى لله الذي أرسل لي أنا الحاطىء انتائه الهداية والإرشاد، إذ قد عمرتني سعادة الصلاة حتى أتي كنت أقطع ما يفرب من الأربعين ميلاً يومياً بدون تعب. وإذا هاجني السردي بأسم يسوع المسيح فأشعر بالدفع. وحين مرضت بالروماتزم كنت أصلي باسم يسوع فأنسى كل آلامى. وإذا أهانني أحد كان علي فقط أن أفكر في صلاة يسوع فيتلاشى الغضب. وأصبحت إساباً في نصف وعيه، لم أعد أهتم بشيء مما في معيشة هذا العالم المضطربة، بل كل ما أريد هو أن أصلي وأصلي بلا انقطاع وأن أفرح بالرب دائماً.

لقد سبحت في نماع كثيرة مختلفة بينما صلاة يسوع ترافقني، وفكرت في تحويل غايقي إلى السياحة في سهول سيبيريا الفسيحة حيث سهل علي الإحتلاء وحيث أقصد معبد القديس «إينوسنت».

وبعد وقت ليس بطويل شعرت كما لو أن كلمات الصلاة تخرج من شفتي لتدخل إلى قبي في توافق عجيب. أعني أن كل كلمة تُقال تكون كما لو كان ينطق بها القلب مع دقاته. وحينئذ أبطلت تحريث شفتي لأن قبي ينطق؛ وتميت لو أرى سيدي يسوع المسيح فأطرح نفسي عند قدميه وأطوقها وأقبلها شاكراً بالدموع لأنه وهني محنته أن أعيش باسمه في سلام أنا المخلوق خاطيء غير المستحق.

(إنتهى)



الفصل التاسع

الدموع

+ «قد غسّلتُ رجلَيَّ بالدموع ... من أجل ذلك أقول لك قد عُفِرَت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً.» (لوقا: ٤٤ و ٤٧)

من الصعب أن نتحدث عن الدموع! أليست هي علامة قصور الكلام؟ فحينما يعجز
اللسان عن التعبير متحيراً يتحدث القلب فتسقط لعيون بكلام الدموع!

من يستطيع أن يفسر هذه اللغة؟ إنها المشاعر كلها مُذابة في نقطة! هي لسان يتكلم
بجميع اللغات! إنها لغة النفس المفعمة بأصدى المشاعر.

هي عزاء المظلوم، ووطن الغريب، وأبو اليتيم، وراحة المتعبين. هي تكفير الذنوب،
وعلامة الندامة، وعهد التوبة.

هي غسل القلب، وتطهير الأعضاء، وشفاء النفس المريضة.

هي لغة الروح، وصلاة الصامت، واحتفار العالم، ولحنين إلى السماء، وانتظار الموت.

وإن كانت الدموع سخرية عند ذوي القلوب المقفلة برباط المشاعر الحديدية، إلا أنها
إذا اصطدمت بالقلوب الرحيمة أذابتها ذوباناً!

ولكن ما لنا وقلوب الشر، ألا يكفي الدموع فخراً أنها تدخل إلى حضرة العدير لتتحدث
أمامه؟ «قد سمعتُ صلاتك. قد رأيتُ دموعك.» (٢ مل ٢٠: ٥)

وهي وإن كانت تتساقط على الأرض كشيء حقير إلا أنها تُجمع في زِقِّ الله: «إجعل
دموعي في زِقِّ عندك.» (مز ٥٦: ٨)

وإن كانت لا تحرك قلوب القساة فهي تزلزل أعتاب السماء! «وبينما أنا أتكلم وأصلي
وأعترف بخطيتي... وأطرح تضرعي أمام الرب إلهي، وأنا متكلم بعد بالصلاة، إذا بالرجل
جسراييل... مُطاراً... وقال: يا دانيال إني خرجتُ الآن لأُعلمك... في ابتداء تضرعاتك
خرج الأمر وأنا جئتُ لأُخبرك.» (دا ١٠: ٢٠ - ٢٣)

وهي وإن كانت لا تقوى أن تغيّر صلابة الرؤساء إلا أنها تستطيع أن تغيب تحن الله!
«حوّلي عني عينيك فإنها قد غلبتاني.» (نش ٦: ٥)

إيه أيتها الدموع! كم أنت حقيرة في أعين الفلاسفة وعلماء النفس حتى جعلوك علامة الضعف والخلال الشخصية! ولكن ألا يكفي الدموع فخراً أن السيد الرب طوّب العيون التي تتحلّى بها! «طوباكم أيها الباكون.» (لوقا: ٢١)

يحدثنا القديس يوحنا الدرجي عن اختباره للدموع فيقول: «إنها أمّ و بنت الصلاة!» وهذا حق، فالدموع تسوقنا إلى مخادع الصلاة، وهناك نُوثَم على ينابيع الدموع الحية لنذرف منها ما شاء لنا البكاء! «يا ليت رأسي ماء وعينيّ ينبوع دموع فأبكي هاراً وليلاً...» (إبراهيم: ١)

الدموع أمّ الصلاة:

حينما نقف لنترأى أمام الله في بدء حياتنا الروحية تصطدم نفوسنا المحمّلة بالشُرور والآثام بلهب قداسة الله «إلهنا نار» (عب ١٢: ٢٩)؛ فلا تلبث خطايانا ونجاستنا إلا أن تذوب كما تذوب جبال الثلج أمام حرارة الشمس المحرقة، وهكذا تنفتح لعيون لأول مرة لتسكب فيضاً من دموع التوبة. وما دموع التوبة إلا جليد الخطايا الذي تراكمت كُتله على القلب، فلما أشرقت عليه شمس البر أذابته فحوّله إلى ماء للتطهير والشفاء! وهكذا يغسل بدموعنا أعضائنا التي تدنست من فعل الشهوة والخطية، وحينئذ نستطيع أن نتقدم إلى الصلاة: «رافعين أيادي طاهرة» (١ تي ٢: ٨)، «مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير، ومفتسلة أجسادنا بما في نقي.» (عب ١٠: ٢٢)

ولكن دموع التوبة ليست مقصورة على فترة معينة من حياتنا، فهي ينبوعنا الدائم الذي نجد فيه شفاءً لنفوسنا التي أمرضتها الخطية، وهو الذي نخرج منه إلى الصلاة كل حين لنقف أمام الله بلا لوم! «كل ليلة أعوم سريري، بدموعي أبلّ فراشي.» (مز ٦: ٦)

الدموع بنت الصلاة:

سعيد ذلك الإنسان الذي تفتقده النعمة أثناء تضرعه في الصلاة الباكية الحزينة. فبينما تكون دموع الألم والدم منحدرة من عينيه بمرارة وقد «تعكرت عيناه» من السكاء، إذ بنور المسيح ينسكب في قلبه الداخلي وتشمله فرحة سرية عجيبة، فتمتزج دموعه بابتسامة حلوة فتنهمر دموع الفرح كأنها فيض من الينابيع العليا.

هذه الدموع السعيدة هي إحدى هبات الصلاة المنسحقة، وكل من تذوّق لذة الدموع

المتولدة من الصلاة لا يكف عن أن يطلبها بلجاجة كل حين . يشهد على ذلك لقديس أرسانيوس العجيب الذي لم يكف لحظة عن البكاء حتى ذبت جفونه وتساقطت رموشه ، لأن الدموع كانت تسبحة الصائمة الدائمة ؛ حتى فارق هذه الحياة وجمونه مبللة بالدموع !! « صارت لي دموعي خبزاً نهاراً وليلاً ... ومزجتُ شرابي بدموع . » (مز ٤٢ : ٣ : ١٠٢ : ٩)

كلنا يبكي و يستطيع أن يذرف الدموع ، ولكن القليل من يستطيع أن يوجه هذه الدموع لتدخل زق الله : « إجعل دموعي في زق عندك . » (مز ٥٦ : ٨)

أما الدموع التي تنسكب بعيداً عن زق الله فهي محسوبة عليك لا لك ! تُعرضك لصغر النفس والحزن المفسد وتتركك فارغاً من تعزية الروح .

فحينما تهتاج نفسك وتلهب مشاعرك وتستجيب عيناك لذرف الدموع ، إفحص ذتك واختبر شعورك لئلا يكون الدافع لها أمراً جسدياً نافهاً لا يرضي الله ، فلا تصيب دموعك فوهة زق الله وتسقط بعيداً عنه في تربة العالم لتنبت لك شوكة بدل حنطة .

إفحص دموعك لئلا يكون الدافع لها محبة جسدية زائلة أو حنيناً إلى وطن أرضي أو لاستدراار عطف الآخرين أو للشكوى من ضيق أو مرض أو جوع أو فقر أو اضطهاد ، فتُحسب عليك كأنها احتجاج على تدبير الله وإرادته .

إن الذين تمرنوا على حياة الصلاة يعرفون كيف يحولون مثل هذه الدموع لتدخل أمام الله ، ينقلون مشاعرهم من التأثير بحب الآخرين إلى حب الله ، ومن الحنين لوطن أرضي زئ إلى الحنين نحو السماء حيث الوطن الأبدي مع الله ؛ وبدل أن يستدروا عطف الناس بالدموع ، يتقدمون مباشرة إلى الله ليسكبوا أمامه الدموع كأب حنون رحيم ؛ وبدل الشكوى يقدمون دموع الرضى والشكر .

وأنت أيها الحبيب إذا أوثمنت على دموع التعزية في الصلاة فاحترس من هذه الأمور الثلاثة :—

(١) لا تلهيك الدموع عن واهبها ، فتصير كالطفل الذي يفرح بالحلوى أكثر من فرحه بأبيه الذي أعطاها له .

(٢) لا تظن أن هذه الدموع هي لإستحقاقك أو لكثرة تقواك وإلا فإنها تغادرك ولا تعود إليك .

(٣) إن الدموع لا تميزك عن الآخرين ، بل هي لتشجيعك للنمو في محبة الله والخضوع لوصاياه والسلوك بالتواضع تجاه أولاده . فالأب الحكيم يعطف على الولد الضعيف أكثر من إخوته ليزداد في الطاعة والمحبة له ولإخوته .

المكانة الصحيحة للدموع في اللاهوت النسكي عند الآباء الأوائل :

قد يُقال في تسرع أن الدموع موهبة ، ولكن هذا التسرع في الحكم يحرمنا من أنواع كثيرة من الدموع ليست موهبة ، وهي في نفس الوقت ذات قيمة وذات عمل قد يكون إيجابياً مفيداً وقد يكون سلبياً هداماً خطراً .

ومن الآباء الأوائل جداً الذين يعطوننا تعليماً مبسطاً عن الدموع هو القديس إسحق الذي من نتريا (القرن الرابع) ، وقد كان تلميذاً لأنبا أنطونيوس ولكنه رحل إلى نتريا وأقام فيها بعد وفاة معلمه . وتعليم الأب إسحق وإن كان في غاية البساطة إلا أنه قوي ورسين ومتكامل ومملوء صحة ، وقد ترجمناه بكامله وها نحن نورده قبل أن نخوض في شرحه :

٩١٦ - الأب إسحق : ولكن من ذا الذي يستطيع مهما أوتي من كفاءة أن يعطي تقريراً مفصلاً عن أنواع الأسباب والدوافع التي تدفع العسل للصلاة البهية وتشعله إشعاعاً بجرارته ؟ غير أننا على أية حال سنعطى لها بعض النماذج البهية ... ولكن ثمة أمر آخر هو كيف تسري هذه الدوافع والأسباب وتسطق من أعماق نفس لتدفع العسل للصلاة الحارة الملتهبة بهذه لقوة ؟ هذا أيضاً ليس أمراً سهلاً صعباً ! لأنه غالباً ما تبعث هذه الدوافع الصحيحة القيمة كمجرد مسرة مفرطة وبقطة مفاجئة ، دون أن يستطيع الإنسان أن يتعرف على شرحها أو حتى التعبير عنها ، إذ فجأة يجرها من الأعماق كرجح المطر من شدة الفرح الذي يصعب ضبطه ، حتى أنه من فرط فرحة القلب وقوة بهليته قد تتسبب جوار الإنسان من على بُعد وبوضوح .

وبكن غالباً ما يتمسك العسل الحكيم هذه الدوافع في صمت كامل و يستقبلها سرية كبيرة وهدوء ، غير أنه من فرط لتعجب بسبب لإستنارة الداخلية المفاجئة تتحمد الكلمات ويحسق الصوت في النفس المتأثرة فلا يملك الإنسان إلا أن يسكب اشتياقاته أمام الله في أبي لا يُطق به . وعندما تمتلئ النفس بهذه الدوافع لا يمكنها التعبير عنها إلا بفيضان من الدموع .

جرمانوس : إن نفسي الضعيفة لا تجهل هذه الأحاسيس حقاً ، لأنه عندما تنهمر دموعي عند تذكري خطاياي أنتعش في الحال بزيارة الله في فرح لا يوصف مثل الذي ذكرته أنت ، حتى أنه من فرط هذا السرور أفتع أنه يتحتم عليّ أن لا أياس من غمران هذه الخطايا . وأقول في نفسي إنه لا يوجد حقاً ما هو أسوأ من هذا . ولكن كيف نستعيد هذه الدوافع بإرادتنا ؟

لأنه حينها أشتاق أن أرفع نفسي وأدفعها بكل قوتي لكي تبلى هذا المستوى من الإقناع الداخلي وهذه الحالة من الدموع واضحة أمام عيني كل خطاياي وعشوائي، لا أستطيع أن أحصل على هذه الدموع الغزيرة وأجد عيني حافة جامدة كالصوان لا يفلت منها حتى ولا دموع واحدة. وهكذا بقدر ما أغبط نفسي على سكبها الدموع عندما تميل منها فيضاً بقدر ما أوج كيف أني لا أملك أن أستعيد هذه الدموع وأستزيدها عندما أشاء!

الأب إسحق: ليس كل دموع للدموع منشأ إحساس واحد أو فضيلة واحدة، فذرف الدموع من جراء نحس الشعور بالخطايا الذي يكسر القلب نوع، وهو الذي نقرأ عنه: «لقد تعبْتُ في تنهدي، أعومُ سريري وأغسل فراشي بدموعي كل مساء.» (مز: ٦: ٧)

ونوع آخر، هو الذي يكون من جراء التأمل في الصالحات وترقب المجد الآتي، وهذا تكون يابيعه أغزر وأوفر لسكب دموع بلا حصر في مسرة وشوة تتفجر من الأعماق دون ضابط ولا رابط فتكون النفس في أقوى عطشها نحو الله الحي تنف: «متى أجيء وأترأى أمام الله، لقد صارت دموعي هي حزبي وشرابي نهاراً وليلاً!» (مر ٤: ٢ و ٣)، حيث لا يكف الإنسان عن الصياح والوح كل يوم: «ويلى... فقد طالت عُربتي علي.» (مز: ١٢٠: ٥ و ٦)

ونوع ثالث، هو الذي يكون من خوف جهنم وتذكُّر رغبة الديونة المزمعة دون أن يكون للإحساس بالخطايا دخل في هذه الرغبة التي من هولها يصرخ النبي بقلب محطَّم متضرعاً: «لا تدخل في المحاكمة مع عبدك فإنه يستحيل أن يتزكَّى في حضرتك إنسان حي!» (مز: ١٤٣: ٢)

و يوجد أيضاً نوع رابع من الدموع، يكون لا من جراء اكتشاف الإنسان لنفسه مباشرة بل عندما يصطدم بالنفوس الأخرى و يكتشف مساوتها أو مرارة خطيتها، كالذي حدث للمسيح عندما نظر إلى اورشليم من بُعد وبكى عليها، أو عندما أحس إرميا النبي بهمس الشعور فتأوه قائلاً: «يا ليت رأسي ماء وعيني ينوع دموع فأبكي ليلي ونهاري على قتل بنت شعبي» (ر: ١: ١)، أو كالذي حدث لداود النبي (عندما بكى بسبب أعدائه الذين يتمنون له الخسارة والبوار): «شهدتُ وصرتُ كعصفور مفرد على السطح، اليوم كنه عيرني أعدائي الحقون عليّ حلموا ضدي، فأكلت التراب كما يؤكل الحبر ومزحت كأسني بالدموع.» (مز: ١٠٢: ٧ - ٩)

ونوع خامس آخر من الدموع، يتكلم عليه عنوان المزمور المائة والثاني بقوله: «صلاة للمسكين عندما كان في الضيقة وسكب صلاته أمام الله». و واضح أن هذا النوع يخص الأبرار الذين يكونون لا من جراء توبة ولكن من ضغطة هذه الحياة وفلاقلها وخسارتها عندما تحيط بالنفس وتصيَّق عليها.

وفضلاً عن هذه الأنواع كلها يوجد نوع آخر يختلف عنها، طلاقاً، تلك التي يحاول الإنسان أن

يعتصرها من عييه الجامدتين عندما يكون قلبه متقسماً، ومع أننا لا نعتقد أن مثل هذه الدموع تكون بلا ثمرة هائياً، بسبب العرض الطيب الذي يدفع الإنسان لمحاولة درف هذه الدموع، ولو أنه يكون بسبب إحساس — غير ناضج — بالخطايا السالفة أو الحاضرة، إلا أننا نعتقد أنه لا يصح للناضجين في المحبة لعمَّالين بالمصيبة أن يعصوا أنفسهم و يدفعوها لدرف الدموع، كما لا ينبغي أبداً أن يجاهد الإنسان ليُنزِم الإنسان الخارجي بالبكاء!!! وحتى لو نجح الإنسان في ذلك بطريق الجهد فإنه لن يسع إلى غرارة فيض الدموع التي تنهمر تلقائياً، بل وعلى الفيض فإن هذه المحاولات والمجاهدات حتماً تطرح النفس على الأرض وتدخلها في صغر النفس وتحرمها من التحليق في أجواء السماء العليا التي يكون العقل مخلقاً فيها أثناء الصلاة، وبذلك تنحصر النفس على ذاتها وترتد، وتحل من رباط الصلاة. وتذهب تمرض من يوم إلى يوم بسبب محاولة تعصُّبها على درف الدموع التي إن نزلت فسوف تنزل عقيمة!

ولكي تدركوا صفات الصلاة الحقيقية لن أورد لكم في ذلك رأيي الخاص، وإنما رأي المغبوط أنطونيوس، الذي عرفناه أحياناً مدعماً على الصلاة مستديماً فيها (طول الليل) إلى الدرجة التي يبلغ فيها حالة انخفاف العقل حتى إذا ما أشرفت الشمس كما سمعه في حرارة روحه يقول لها: «لماذا خرجت لتعوقيني وتحولي بيبي وبين السور الحقيقي؟» وإليكم قوله عن غاية أو كمال الصلاة، وفي هذا القول تسمعون قولاً سماوياً بالحق وليس بشرياً: «لا تُحسب الصلاة صلاة حقيقية — أو كامدة حقاً — إن كان الراهب يستشعر نفسه فيها أو يتعقل كلماته».

الأب إسحق تلميذ أنبا أنطونيوس

في حوار مع كاسيان

(الحوار: ٩: فصل ٢٨ — ٣١)

ونستطيع الآن أن نلخص أهم مبادئ الأب إسحق كالآتي: —

أولاً: تُعتبر الدموع تعبيراً ملازماً للدوافع الصحيحة للصلاة التي تنبثق من أعماق النفس وتظهر فجأة فتغمر النفس وتملأها بسرور مفرط يصعب ضبطه كما يصعب التعبير عنه أمام الله إلا بالدموع الغزيرة التلقائية.

ثانياً: ولأنه توجد دوافع كثيرة صحيحة للصلاة، فبالضرورة أصبح يوجد أنواع كثيرة للدموع لأن كل دافع صحيح للصلاة يلازمه إحساس معين له ما يناسبه من الدموع!

ثالثاً: توجد خمسة أنواع رئيسية من الدوافع الصحيحة للصلاة، وبالتالي أصبح يوجد خمسة أنواع صحيحة من الدموع المشمرة:

(١) دموع الشعور بنخس الخطايا، وهي دموع تكسر القلب باعثة للحزن.

(٢) دموع التأمّر في صلاح الله والأعجاد المزمعة المعدّة لنا، وهذا النوع من الدموع ينابيعه غزيرة ووافرة ومبهجة للقلب و باعثة للرجاء.

(٣) دموع الرعدة من جهنم والدينونة التي لا يكون لها أي صلة بدموع نخس الخطايا.

(٤) دموع على الأحريس، وهي شديدة الكآبة (على أن تكون خالية من أي دينونة أو نقمة).

(٥) دموع الضيفة التي يعانها مساكين الله من جراء تعسف العالم والظالمين.

رابعاً: هذه الخمسة أنواع من الدموع يربطها جميعاً صفتان أساسيتان: الأولى: أن دوافعها صحيحة فالتالي هي أيضاً صحيحة. والثانية: لا يمارس الإنسان أثناءها أي نوع من التغصّب أو المجاهدة أو الإصطناع لكي يذرف هذه الدموع أو لكي يستديمها أو يستزيدها بأي حال من الأحوال، فهي دموع تلقائية تتع بالضرورة دوافعها وأسبابها الصحيحة ولا تنفصل عن هذه الدوافع أو تتقدم عليها.

خامساً: يوجد نوع واحد من الدموع ليس تلقائياً يحاول الإنسان ويجاهد أن يذرف فيه الدموع، وهذا النوع ولو أنه لا يُعتبر صحيحاً من الوجهة النسكية الصحيحة، إلا أنه يمكن التجاوز عن ذلك باعتبار أن الذي يمارس هذا النوع من الدموع هم الأشخاص المبتدئون غير الساضجين في محبة، إذ أن تغصّبهم لسكب الدموع يكون بدافع طاهر هو إذلال النفس وتوبيخها، وهم يجبرون أنفسهم على ذلك نظراً لأن إحساسهم بالخطيئة لا يكون قد بلغ حدوده الناضجة التي فيها تنسكب الدموع من تلقاء ذاتها.

سادساً: وأخيراً يبرز القديس نوعاً خطيراً من الدموع يعتبره هداماً لنفس وهو كفيل أن يحبها من ربط الصلاة الحقيقية بسبب كونه أنه لا يتبع أي دافع صحيح من الدوافع الخمسة السابقة، بل يحاول الإنسان السائر في الفضيلة أن يذرف الدموع رغبة في ذرف الدموع كأها هبة يريد أن يتصيداها أو كأها ضرورة في حد ذاتها، وهذا كفيل أن يوقع الإنسان في صغر النفس و يسوفه إلى المرض. وهذا النوع من الدموع يعتبره القديس مفسداً وعقيماً.

ومن هذه المبادئ الأساسية عن الدموع ينكشف لنا أمر بالغ الأهمية كفيل بأن يزحزح المفهوم النسكي الحديث عن الدموع، الجاري الآن على السنة وأفلام العلماء والكتّاب

والمفسرين المحدثين المشتغلين بالآباء والسكيات، والمأخوذ عن أوغريس (١) دون حذر. وإذا لم نجد هنا مكاناً لبحث هذا الموضوع بالتفصيل يكفي أن نوضح أن أوغريس يقول بضرورة سكب الدموع في الصلاة، ويحتم و يقطع هذه الضرورة بحيث يعتبر أن الصلاة لا تُعتبر مثمرة إلا إذا رُويت وغُيِلت بالدموع وامتزجت معها وذابت فيها، ويمشي أوغريس، ومعه من أخذ بما أخذه، في هذا الاتجاه إلى آخره ليُجعل من الدموع شرطاً أساسياً للصلاة، ويحض على استعمال الدموع. في حين أن الحقيقة النسكية للدموع — الواضحة بأجلى بيان في شرح القديس إسحق تلميذ أنبا أنطونيوس — تتركز في أن الدموع تتبع في أصولها أسباباً ودوافع نسكية أخرى صحيحة تلتزم بها وتسير خلفها تلقائياً ودون افتعال، ويستحيل أن تتجاوزها أو تنفصل عنها وإلا انحرفت لتتبع دوافع أخرى مُضِلَّة وكاذبة تكون في حقيقتها من صُنع كبرياء النفس.

فالإنسان الذي يعيش في نخس الضمير من جراء خطاياها وعثراته يصلي فيذرف الدمع مدراراً ولا يستطيع أن يمنع نفسه. ولكن يستحيل على الإنسان أن يذرف الدمع ليعيش في نخس الخطية أو يذرف الدمع ليصلي أو يذرف الدمع لتصير صلاته نقية!!

نخس الضمير هو الدافع الصحيح للصلاة النادمة، وهذا الدافع الصحيح يلزمه إحساس حزين جارف لا يمكن أن يعبر عنه الإنسان إلا بفيض من الدموع لا يعرف لها الإنسان كَيْلاً ولا حداً. هنا نتجاوز الحقيقة قليلاً فنقول: إن الدموع نعمة أو عطية أو هبة، ولكن إن شئنا التدقيق والأصالة في التعريف يلزمنا أن نقول إن الإحساس بنخس القلب بسبب الخطيئة هو النعمة وهو الموهبة وهو السر. أما الدموع فهي علامة النعمة وشهادة بوجودها وفعاليتها. فهل يمكن أن نجعل الدموع بحد ذاتها عملاً إرادياً؟ أو نجعلها تتقدم في الصلاة على دوافعها؟

إن خطأ أوغريس في جميع أقواله وتعاليمه هو أنه جعل المواهب مناهج، وصنع من أعمال النعمة وثمارها تدريبات إرادية خططها بالمسطق العقلي الأفلاطوني وألبسها ثوباً من الإتضاع المنمَّق بالألفاظ، وحشر كلمة «النعمة» في أماكنها المفروضة جاعلاً من النعمة إحدى مكونات منهاجه العقلاني.

(١) لقد حرمت الكنيسة الشرقية كل تعاليم أوغريس، وذلك في مجمع سنة ٥٥٣م. لتلوئها بالاوريجانية.

ولكن لكي نخطط بقيمة الدموع ومكانها الصحيح من اللاهوت النسكي يلزمنا أن نعرض لقديس آخر برع في الإختبار النسكي هو مار إسحق أسقف نينوى.

وهذا القديس ولو أنه يعرض اختبارات بطريقتة منهجية تشبه إلى حد ما طريقة أوغريس إلا أن الفارق بين الإثنين هائل. فاختبارات القديس مار إسحق في حد ذاتها لا تتبع أي تخطيط عقلي وليس فيها أي اصطناع وهي من وحي النعمة وبفياذتها، وتطابق في أصالتها وقوتها وصحتها اختبارات الآباء الأوائل الذين أخذ عنهم بكل تدقيق وأقرّ هو بذلك في مواضع عديدة من كتاباته، لذلك فالذي يعيننا في تعاليم مار إسحق ليس المنهج المصنوع الذي يضم اختبارات الحية ولكن اختبارات الحية في ذاتها.

ونحاول هنا باختصار تقديم ملخص كامل لتعليم مار إسحق عن الدموع مستخدمين نفس ألفاظه وتعابيرها. على أننا سنكتفي بهذا الملخص دون أن نورد أقوال القديس مرة أخرى:

أولاً: وضع الدموع في الحياة النسكية بصفة عامة:

إن الدموع في وضعها النسكي الكلي قد وُضعت حداً فاصلاً بين الحياة حسب الجسد والحياة حسب الروح (الجسدانيات والروحانيات)، أي بين مرض الخطية (التألم) وبين صحة النفس (الطهارة). فإذا لم يؤهّل الإنسان لنعمتها يكون هذا دليلاً على أنه لا يزال يعيش ويعمل من أجل الإنسان البراني، كما يُعتبر دليلاً قاطعاً أنه لم يبلغ بعد إلى الإحساس بالعمل الحق الذي للإنسان الجواني. فإذا بدأ الإنسان يترك جسدانية العالم ويعبر حدوده ليدخل في حدود الطبيعة الروحانية التي للإنسان الجواني فإنه في الحال يُعطى هذه النعمة، أي نعمة الدموع. فإذا لازم الإنسان هذه المنزلة التي للتدبير الداخلي وسار في السيرة الروحانية المكتومة، تظل تلازمه هذه الدموع حتى يصل إلى كمال محبة الله.

على أنه بمقدار ما يتقدم في السيرة، على قدر ما يتوفر حظه من هذه الدموع، حتى أنه يشربها في كأسه وفي غذائه بسبب استمرارها على الدوام. حيث يُعتبر هذا علامة أكيدة أن العقل انصرف من هذا العالم وبدأ يحس بالعالم الروحاني.

فإذا عاد الإنسان واقترب بفكره من العالم، تبدأ تجف دموعه ويخسر دوامها، فإذا انصبّ عقل الإنسان وراء العالم بالكلية فإنه يُعَدَم هذه الدموع بالكلية، ويُعتبر هذا دليلاً أن

الإنسان عاد فاندفن في قبر أسقام الخطية. (٢)

ثانياً: تشكّل الدموع بشكل المراحل النسكية:

يقسم القديس مار إسحق الدموع إلى نوعين رئيسيين: —

النوع الأول: دموع من أجل تذكّر الخطايا وهفوات القلب، وهي دموع مؤلمة يحس الإنسان بألمها في دماغه عند نروها، و يكون من نتيجة ذلك أن الجسد يتأثر بها فيكف عن أهوائه وتذبل شهواته، وكأنها تحرق الخطايا وتجفف ميوعة الجسد. وهذه هي دموع المبتدئين، فإذا لم يفقدها الإنسان بتوانيه وإهماله أو طموحه وكبريائه فإنها تظل معه تهديه إلى أن تبلغه رتبة المتقدمين أي الرتبة التي يقبل فيها الإنسان الرحمة. (٣)

النوع الثاني: دموع تفيض من جراء دخول العقل في أفهام روحانية ينعم بها الله على الإنسان فجأة فتهمر دموعه من غير تكلف ولا تغضب ولا إكراه، وهي دموع مبهجة تجعل الجسد يزهر زهوراً روحانية بعد أن تذبل خطايا، وكأنها تدسم الجسم وتجعله في نضارة حتى أن منظر الإنسان يتغير بسبب فرح القلب. وهذه الدموع هي الحد الفاصل بين رتبة الجسدانيين ورتبة الروحانيين، أو هي الحد الفاصل بين الأعمال النسكية التي يكملها الإنسان بالجسد والأعمال الروحانية التي تكمل بالفكر أي التأمل. لذلك تُعتبر هذه الدموع البهجة علامة على إثمار النفس الداخلية. (٤)

ثالثاً: القيمة النسكية للدموع في حد ذاتها ومما تنشأ:

(١) البكاء بحد ذاته عازل يعزل النفس عن أسقام الخطية (٥)، و بالتالي حينما يذرف الدمع يكون في وضع يعزله عن أي ميل نحو الخطية، لأن أسقام الخطية وميوها لا يمكن أن تضغط إنساناً يبكي.

(٢) إذا سألت ممّ ينشأ البكاء وكيف يدوم؟ أقول لك إن المموء جراحات كيف يسكت؟ أو كيف يصبر دون أن يبكي؟ فهل نكون مملوئين من أسقام الخطية ولا نبكي؟ وهل الذي له ميت ملق أمامه يحتاج إلى من يعلمه كيف ينتحب أو بأي فكر يذرف العبرات؟

(٢) مار إسحق — الجزء الثالث: الباب الرابع. (٣) نفس المرجع. (٤) نفس المرجع. (٥) نفس المرجع.

نفسك ميتة بالذنوب وملقاة بين يديك وهي أفضل لك من كل العالم، وتقول لي كيف أبكي وتظن أنك فقير من البكاء؟ (٦)

(٣) إهدأ إلى نفسك واصمت وتعلم السكوت واصبر على ضيقته وأنت تحس بالملامة وتوبخ الضمير وحينئذ يأتيك البكاء ويلازمك. (٧)

(٤) نحن محتاجون أولاً وقبل كل شيء أن نجعل الله أمامنا وفي فكرنا باستمرار، وحينئذ هو يمنحنا هذا الأمر أي الدموع. (٨)

(٥) فإذا ظفرنا منه هذه النعمة، أي بالدموع، التي هي أفضل من كل النعم فحينئذ هي توصلنا إلى الطهارة، وهذا هو سر قول الرب: «طوبى للساكنين الآن لأنهم يتعززون»؛ لأن البكاء يأتي بالإنسان إلى الطهارة، فإذا استحق الإنسان أن يجوز مرحلة أسقام الخطية وأوجاعها بتوسط الدموع ويأتي إلى مرحلة الطهارة، فإنه حتماً يصادف هذا العزاء الذي يقول الرب عنه. وهكذا نفهم أي ثمرة أثمرت الدموع!! (٩)

(٦) فإذا كانت الدموع تقدر أن تقل عقل الإنسان الوَّاح من الإحساس بالخطيئة وتصوراتها، فإذا يمكن أن تفعل في الذين أصبحت الدموع تلازمهم ليلاً ونهاراً؟ ومن الذي يعرف مقدار المعونة التي يحصل عليها هؤلاء الملازمون للبكاء إلا إذا لازم هو البكاء؟ كل القديسين بتوسط البكاء انفتح أمامهم باب العزاء، فدخلوا في الاستعلان وساروا في آثار الله. (١٠)

(٧) الدموع تتولد أيضاً من الهذيد الحقيقي الذي يكون بغير طياشة. فعندما يقع فهم جديد في الذهن فيتأثر به القلب، تنهمر الدموع. (١١)

(٨) على قدر ما يغتذي الإنسان بالروح من الداخل على قدر ما تكون زيادة الدموع. (١٢)

(٦) مار إسحق — الجزء الثالث: الباب الرابع. (٧) نفس المرجع. (٨) نفس المرجع. (٩) نفس المرجع.

(١٠) نفس المرجع. (١١) مرجع — الجزء الثاني: المعر سابع. (١٢) مار إسحق — جزء ثالث: باب حادي عشر.

رابعاً: الدموع ليست حتمية في الحياة النسكية:

(١) بالنسبة لبداية الطريق:

لقمع حركات الخطيئة بقول إنه إذا كان الإنسان ليس كفوفاً لمدوومة البكاء بسبب ضعف طبيعة الجسد (إما بسبب مرض أو بسبب عارض وظيفي في العين أو بسبب نقص أو عيب تركيبي في الجسد)، فهناك ما يساوي الدموع ويحل محلها خصوصاً بالنسبة للآلام العارضة من الخطيئة، وهو تفريغ القلب من محبة العالم ومدوومة الصلاة. فالإنسان الذي قلبه خال من العالم ومهم بتكميل صلواته وله قراءة مستضيئة في الكتب الروحية لتساعده على بلوغ الأفهام الروحانية لا يمكن أن تغطي عليه أفكار الخطيئة وأسفامها. (١٣)

(٢) بالنسبة لنهاية الطريق:

في الوقت الذي تكون فيه قد بلغت إلى الإتصاع وأنت عمال في السكون، وتكون نفسك قد فربت أن تخرج من الظلام، تكون لك هذه العلامة: وهي أن قلبك يلتهب ويسخن كالنار ليلاً ونهاراً حتى يصير العالم كله أمام عينيك مثل الكناسة أو الرماد، ولا تعود تشتهي الغذاء ولا يندُّ لك الطعام وذلك بسبب شدة العزاء من الأفكار الجديدة التي تملأ قلبك. وحينئذ يُعطى لك ينبوع دموع يفيض كالنهر بدون عنف أو تغصّب، ويختلط بكل أعمالك إن كان صلاة أو هذياً أو خدمة أو أكلاً أو شرباً، وبالجملة فالدموع تكون ممزوجة بكافة أعمالك.

فإذا رأيت هذه في نفسك فثق وتشجع واعلم أنك قد قطعت البحر، وزد من أعمالك واحترس لتتكاثر النعمة يوماً بعد يوم. فإذا لم تكن حتى الآن قد بلغت هذه العلامة فاعلم أنك ما كملت طريقك بعد.

فإن كُفَّت الدموع بعد ذلك وتوقفت، فهذا يكون علامة على أنه إما ستحدث لك تغيرات جديدة أفضل، وإما أنك رجعت إلى خلف بسبب تعظمك أو نهاونك.

أما التغير إلى حالة أفضل فتكون علامته أن الحرارة تزداد، وحينئذ تتوقف الدموع ويتخلف النوح، لأنه متى استؤمّنت النفس على حرارة الروح يزول منها انسحاق النوح، وتُعطى المسرة والبهاء. (١٤)

(١٤) مار إسحق — الجزء الثالث: الباب شت.

(١٣) مار إسحق — الجزء الثالث: الباب الرابع.

إذا دخلت النفس مرحلة السلام الداخلي أي سلامة الأفكار، حينئذ يُنتزع منك تواتر الدموع ولا تأتي بعد ذلك إلا بمقدار وقياس، وهذا هو الحق الذي تعلمته من فم لا يكذب وأعمال وجهادات ليست قليلة وتعليم آباء حاذقين ورؤساء لبينة مجاهدين. (١٥)

خامساً: ماذا تعني الدموع؟

(١) الدموع دليل أن النفس البشرية قد حظت بالرحمة الإلهية، كما تفيد أن النفس قُبلت لدى الله عن طريق التوبة، كما تشير أن النفس بدأت تدخل مرحلة النقاوة. (١٦)

(٢) إن إحساس الإنسان سريعاً بخطاياها هو موهبة من الله تقع في الضمير. فإذا اقتنى الإنسان الدموع بسببها، خصوصاً أثناء الصلاة، فكأنه يقدم قرباناً عظيماً للملك السماوي فيقتني أمامه وجهاً مرفوعاً ويغفر له خطاياها. (١٧)

(٣) توجد دموع تأتي جزئياً للعمالين بالروح مع الله، لعزائهم؛ وتوجد دموع لا تكف نهاراً وليلاً حيث عينا الإنسان تكونان شبه ينبوع ماء، وتدوم هذه الحالة مدة سنتين أو أكثر، وهذا يشير إلى أن الإنسان يجوز مرحلة العبور السري التي من بعدها يدخل في السلام الكلي وأمان الأفكار، حيث تُنتزع منه الدموع الدائمة، ويتعزى بالله، ويحس بالتغير الداخلي الذي هو شبه العتيد أن يقلبه الجميع في تجديد القيامة العامة، ويكون إحساسه بهذا التغير إحساساً متوارياً كالرمز.

(١٥) مار إسحق — الجزء الثالث: الباب الحادي عشر.

(١٦) مار إسحق — الجزء الثاني: الميمر التاسع.

(١٧) مار إسحق — الجزء الثاني: ميمر عن كيف يُغتنى غيار الحركات الحمية.

أقوال الآباء في الدموع:

٩١٧ — ما هي لعلامات الصادقة غير المشكوك فيها التي تدل على أن لأعمال ابتدأت تُخرج ثمارها الخفية داخل النفس؟

هي أن يصحح الإنسان مستحماً لموهبة الدموع، تفيض من عينيه بغرارة وبلا تعصّب. فالدموع هي احد الفاصل بين حالة السلوك بالحسد والسلوك بالروح، أى حالة التلذذ بشهوات لعالم وحالة الطهارة والعفة.

وطالما أن الإنسان لم يبل هذه العطية فجهاد خدمته لا زال في الإنسان الخارجي، وهو إلى حد ما لم يتذوق بعد فاعلية عمل الروح في الإنسان الخفي.

وحينما يتمدم الإنسان في الطريق الروحي بعيداً عن ماديّات هذا العالم ومسراته الزائلة ليتخطى حدود هذه الطبيعة المبطورة، فحينئذ يدخل في حيز عمل النعمة حيث تفوده موهبة الدموع في الحاح إلى كمال حب الله. فبدأ ما وصل إلى هذا الميأاء السعيد تصير له الدموع عزيزة حتى أنها تختلط بطعامه وشرابه على الدوام بكثرة.

هذه هي علامة صادقة أن العقل تعرّى من هذا العالم.

ولكن على قدر ما يقترب مرة أخرى من هذا العالم على قدر ما تشح دموعه في الحال، حتى إذا ما ستفر فكره في الأمور العالمية، تجف دموعه وتنتهي. وهذه علامة أنه قد صار في يد العالم وشهوته.

٩١٨ — الدموع لدئمة أثناء الصلاة علامة على الرحمة الإلهية لي وهبت للنفس كنتيجة لصول توبتها. بهذه الدموع تؤهل النفس للدخول في نور صفاء الأبدية.

٩١٩ — توجد دموع تحرق وتلهب وأخرى تبهج وترهر، فالتى تنحدر من لقلب بكسار من أحل الخطايا فيها تبيس وتحرق تنعمات الجسد! وبحس الإنسان بألم عند انحدارها من عينيه ... ولكن هذه الدموع المحرقة تفتح لباب للدخول في الرتبة الثانية للدخول في أرض المسرة التي فيها يقبل الإنسان لرحمة حيث لدموع حلوة الرقيقة التي تزين وتبهج الجسد والنفس التي سع من دها بلا انقطاع دون تعصّب.

٩٢٠ — طوبى للباكين من أجل الحق، لأنه من خلال دموعهم يرون باستمرار وجه الله.

مار إسحق السرياني

٩٢١ — الدموع أثناء الصلاة هي علامة الحياة الطيبة، هي موهبة كبيرة. سألوا هذه النعمة من الله، أسكبوا أمامه الدموع لتصير صلاتكم كالبخور قدامه.

٩٢٢ — مجاري المياه لوقت الحريق؛ ومجاري الدموع في زمن التجربة.

الماء يحمي هيب النار؛ والدموع تطفىء شهوة الشر!

مار أفرايم السرياني

٩٢٣ — حينما تفيض منك الدموع أثناء الصلاة لا تستكبر في ذلك كأنما قد صرت أعلى من الآخرين، ولكن اعلم أن الصلاة هي التي وهبتك هذه الدموع لتمهد لك طريق الإعتراف باشتياق، وتُحن قلب القدير عليك! ولكن حذار أن تجعل الدموع شهوتك لأنها قد وُضعت لتكون ضد الشهوات فلا تشتتها في ذاتها لتلا تُغضب معطيها!!!

٩٢٤ — كثيرون قد نسوا الغرض الذي من أجله قدموا دموعهم، فتكبروا واحرفوا عن طريق الحق الذي ابتدأوا به وعاشوا في كبرياتهم.

نيلوس السيناى

٩٢٥ — قد جمع الآباء القديسون كل نشاط الراهب في كلمة «حياة البكاء».

حينما يسكن الروح القدس في إنسان، فإنه يشفع فيه بأنات لا يُنطق بها (رو٨: ٢٦). وما معنى «أنات» إلا تنهدات البكاء من أحلنا!!! كم بالحري يجب أن يبكي نحن على أنفسنا ف نصير أهلاً لحلول ذلك الزائر العظيم! يجب أن يصير البكاء لازمة من لوازم صلاتنا ورفيقاً دائماً مدى الحياة حتى نهاية الطريق.

٩٢٦ — كل من يُقرن الصلاة بالدموع فقد جنى أول ثمارها واستحق قبول ثقيّة ثمارها. أما من عديم البكاء في الصلاة فقد عدم ثمارها أيضاً.

الأسقف إغناطيوس (ب)

٩٢٧ — إن العيون التي أفاضت دموع الرحمة والشفقة قد استأهنت أن تشرق عليها شمس البر لتضيء لها الحياة.

الأب صاروفيم (ص)

٩٢٨ — من الدموع ما يُعْضِرُ عَصراً حينما تكون العيون جافة والقلب قاسياً، ولكن بالرغم من ذلك فمثل هذه الدموع لن تسقط بلا ثمرة، فهي وإن كانت شحيحة إلا أنها تدل على بية القلب للإغتسال من دنس الماضي وزلل الحاضر.

ولكن من المؤكد أن الدموع لا تُدْرَفُ متغصّب أو تعب عند الدين أدركوا محبة الحق والسير بالطهارة.

لا تغصّب نفسك على الدموع فهي لا تأتي بالعنف لئلا تسوقك إلى صغر النفس من كثرة المحاولات الفاشلة.

إرفع عفتك في لصلاة واتركه يسيط بحرية الإرادة ليحلّق في السماء، وترقّع عن الدموع العواقر التي بالتغصّب.

الأب يوحنا كاسيان

٩٢٩ — إجتهد لسير في الطريق الصيق لتدخل مدينة السلام أورشليم المهيّأة كمروس لعريسها!

ولكن الطريق إليها تعوزه دموع تُدْرَفُ ليلاً ونهاراً.

— «كل ليلة أَعُوْمُ سريري، بدموعي أبل فراشي!!» (مز: ٦: ٦)

— «صارت لي دموعي خبزاً نهاراً وليلاً!!» (مز: ٤٢: ٣)

— «قد أكتُ الرماذ مثل الخبز ومزجتُ شرابي بدموعي!!» (مز: ١٠٢: ٩)

— يا رب «لا تسكت عن دموعي لأني غريب عندك!» (مز: ٣٩: ١٢)

— يا رب «إجعل دموعي في زقّ عندك، أما هي في سيفرك؟» (مز: ٥٦: ٨)

٩٣٠ — إن الدموع التي تُدْرَفُ من شدة البلية في وقت الحزن مع التهاب الأحشاء والتطلع لمعرفة الحق تكون غداء للنفس لشعائها، كما اغتدت مريم منذ القديم عندما مكثت حتى بليت أقدام السيد بالدموع فغفر لها خطاياها الكثيرة لأنها أظهرت حباً كثيراً!

إيه أيتها الآلَاءِ الثمينة المنحدرة من العيون الباكية! لقد حثّيت قلب السيد حتى فاض بالرحمة عيني، وكما كان للنفس البادئة الحزينة لطفة نحو العريس الطاهر كذلك تأجج قلب العريس بالحُب المفرز نحو عروسه المتطهرة!!!

يا للشركة العجيبة التي ربطت العريس بعروسه!

أبا مكاريوس الكبير

٩٣١ — إن كانت المعمودية قد طهرتنا من الخطية المتوارثة فينا من آدم، فالدموع هي تجديد لقوة

تطهير المعمودية لغسل الخطايا التي عملناها في أنفسنا.

المعمودية التي أخذناها أطفالاً قد دنسناها كلنا!

والعين الباكية هي جرن دائم للمعمودية التوبة والتجديد.

لولم يهبنا الله نعمة الدموع لتعذر خلاص الكثيرين.

٩٣٢ — من فتنى الدموع الباعة من العن النفسية الداخلية فقد ضغط الوح وأحكم استعمالاته!

أما من تعود البكاء بالعين الطاهرة فقط فعليه أن لا يبدأ حتى يعبر إلى معرفة أصول الدموع ومافيه!

٩٣٣ — الكنز المستور يصعب سرقته؛ أما الظاهر فهو عرضة للسلب والهب. هكذا الدموع، فالبكاء في الخفاء يبقى ويدوم؛ أما الظاهر فعرضة للضياع.

٩٣٤ — كل من يعصب نفسه على الدموع بغير معرفة و بغير همّة وعمل وتوبة وندامة فهو يقدم تقدمة جسدية فحسب.

يا حبيبي تذكر نومة القبر حينما تأوي إلى فراشك!
تذكر الدود الذي سيولم ولحمة على جسدك حينما تتقدم إلى طعامك!
فتم قليلاً، وكلّ قليلاً، واغصب على كل حال طبيعتك.
وابك بمشيتك بدل أن تبكي بغير مشيتك.

٩٣٥ — رأيت عيوباً بالوجع تبكي وتذرف الدمع بالتعب. ورأيت عيوناً تهرم من بلا كيل، فطوبت الأولى وغبطت الثانية.

٩٣٦ — الجدل في الأمور اللاهوتية لا يلائم الناجين لأنه يطل الدموع ويحل الوح!!! لأنه يليق بالجالسين على كراسي التعليم حلوس المعلمين. أما السوح فهو يلائم الجالسين على التراب الالاسين المسوح؟

٩٣٧ — ليس من بكى على ما شاء قد وصل إلى البكاء؛ وإنما الباكي حقاً هو من بكى بمشيئة الله!

٩٣٨ — الذي افتنى الدموع قد بعض حياته وهجر جسده كما يهجر الإنسان عدواً له وصار يشفق إلى البكاء كاشتياق العطشان إلى الماء البارد.

٩٣٩ — لا تصدق يا أخي دموعك قبل أن تبلغ حد الطهارة الكاملة.

٩٤٠ — ليس للمسجونين سرور في سجنهم ، وليس للراهب الحقيقي عيد على الأرض ، لأن عيده في دموعه وسروره في بكائه !

٩٤١ — من لبس اسوح السعيد كمسطقة على حمويه فقد كتب لنفسه الفرحة الدائمة مع الفديسين في الحياة الأبدية .

٩٤٢ — قد رأيت كثيرين من الفقراء والمساكين الخالين من المضائل ، يغتصبوا ملكوت السموات بكثرة بكائهم وصيامهم أمام الله !

٩٤٣ — من افتخر بدموعه وبكائه وازدري بالآخرين لعدم بكائهم ، يشبه إنساناً التمس من الملك سلاحاً ليقتل به عدوه فقتل به نفسه !

٩٤٤ — يا أحبائي ، الله لا يُسرُّ بكمائنا ووجع قلسا ، بل هو يريد أن نفرح معه دائماً ولا نُحدِث نزع فرحنا منا .

فهو لم يخلق آدم باكياً ، ولا جعل البكاء من طبيعتنا بعد القيامة ، وإنما طوَّب الباكين الآن لأن البكاء يغسل جرح الخطية ويخففه !

٩٤٥ — الدموع للجاهل توقعه في الصلف والكبرياء ، لهذا لا تُعطى للجهال .

٩٤٦ — تضحك الشياطين حينما ترى إنساناً متكبراً يسكي ، لأن البكاء يُريده تكبراً على تكبره !

٩٤٧ — إن النفس وقت خروجها من العالم لا تحب ما يعزها و يشجعها إلا ما قدمته من التوبة والدموع !

أما هؤلاء السعداء الذين استعدوا هذه الساعة و بكوا من أجلها بعير فتور لا تجدهم يرفعون صوتهم أو يشتغلون بالألحان قط ... وأنت إذا ظنت أنك تستدعي التَّوْح باللحن فقد أبعدت النوح عنك .

٩٤٨ — رأيتُ دموعاً كاذبة يسوقها الشيطان للذين تركوا دياراتهم وآثروا السكنى في العالم حتى يوهمهم أنه ليس من ضرر في إقامتهم بين الناس !

الأب يوحنا الدرجي



الفصل العاشر

الصوم

- + «متى صمتم فلا تكونوا عابسين.» (مت ١٦: ٦)
- + «لا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذي في الخفاء.» (مت ١٨: ٦)
- + «إعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية.» (يو ٦: ٢٧)
- + «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله.» (يو ٤: ٣٤)
- + «ويل لكم أيها الشباغي لأنكم ستجوعون!» (لو ٦: ٢٥)

الصوم هو تدريب عملي للتقدم في الحياة الروحية، وهو إحدى الوسائل لمستحبة والعلامات الظاهرة للدخول مع الله في عهد متجددة.

هو ليس فترة محدودة تنتهي و يأتى غيرها وهكذا، وبما هي فترات متصلة اتصالاً وثيقاً كـر منها يقدمنا درجة في حياتنا الروحية، وفي مجموعها تنشئ لنا حياة نسكية فيها تستشفي نفوسنا من عيوب وأمراض وأخطاء كثيرة على طول الزمن.

وإن كنا ندعوي للصوم في هذا الكتاب فلا ندعوا إليه كما فهمناه من أفوه العامة أو من صفحات الجرائد التي صورتها في أفكارنا تصويراً خاطئاً معيباً من الناحية الروحية الحقيقية.

فليس هو حرماناً ولا كبتاً ولا جوعاً وعطشاً؛ ولا هو جهاد ضد النفس أو تعذيب للجسد، ولا شيء آخر من هذه المعاني السلبية المخيفة.

والذين يمارسون الصيام على أساس هذه المعاني المعيبة لا يجنون من الصوم ثمرته الروحية بل يعذبون ذواتهم بلا طائل، وحينما ينهي بهم الصوم أو ينتهون هم منه — بفارغ الصبر — يرتدّون ارتداداً شديداً نحو الأخذ بأسباب الانحلال والترف والنهم حتى تختل أجسادهم من فرط انغماسهم في المآكل والمشرب. لأن هذا هو ما يحمله معنى لعيد عندهم!!

إذن ممارسة الصوم على أساس هذه الأوصاف السلبية التي تحمل معنى الحرمان والكبت والجهاد تؤول بنا إلى حياة مختلة جسدياً ونفسانياً، وتصور لنا الصوم كعبء فاس وفريضة كسسية ثقيلة نود لو نتخلف عنها أو حتى نُعتق من بعضها! أليس هذا هو صوت الأكثرية في هذا الجيل؟

إننا لم نفهم الصيام بعد من ناحيته الروحية السامية ولم ممارسه كما يجب بأوضاعه الكنسية السليمة. ولكن يوم ندرك حقيقة الصيام سوف ندرك أن لعب ليس هو في الصيامات وكثرتها وإنما العيب فينا. فعندما نخترق قوة الصيام ونتأثحه بالفسانية حينئذ سوف نتمنى من كل قلوبنا لو امتدت بنا الصيامات إلى كل الأيام.

معاني روحية للصوم:

- ليس الصوم حرماناً من بعض الأطعمة، وإنما هو زهد اختياري عنها.
- هو ليس إذلالاً للجسد، وإنما هو إنعاش للروح.
- هو ليس تقييداً أو سَجْماً للحواس، وإنما انطلاق بها بغير معطل نحو التأمل في الله.
- هو ليس كبتاً لشهوة الطعام، بل هو تخلية إرادية عن هذه الشهوة للإعلاء بها نحو حب الله.
- والصيام لا يحمل معنى الحصر والضييق، بل يهدف إلى السرور والإتساع في القلب.
- هو طقس كنسي عام كما هو اختبار فردي شيق.
- هو ليس حملاً ثقيلاً نلفيه عن كاهلنا يوم العيد، بل سرُّ نجاحه يكون في استمرار آثاره يوم العيد وبعده العيد.
- هو ليس ضرورة أو فرضاً موضوعاً علينا، وإنما هو احتياج لازم ولا غنى لنا عنه قط.
- وليس هو أمراً متعلماً بالجسد بقدر ما هو متعلق بالروح والملكوت.
- كذلك هو ليس موضوعاً للتكفير عن الذنوب والخطايا بقدر ما هو إعداد للنفس للإتصال بخالقها والوجود في حضرة.

ممارسته:

لا يوجد صيام بدون فترة انقطاع، فجميع الصيامات لا بد أن تُمارَس بالإنقطاع أولاً عن الأكل مدة محدودة ثم تناول أطعمة خاصة بالصيامات. هذه الفترة هي المحور الذي يركز عليه الصيام سواء في معناه أو تدريبه أو في نتائجه، فصيام بدون فترة انقطاع لا يصح قطعاً اعتباره صياماً بمعناه الروحي المقصود، وإنما يمكن أن يُقال إنه امتناع عن بعض الأطعمة فحسب.

وقد رتب الآباء الرسل والبطاركة الأولون بإرشاد الروح القدس فترات محدودة لأيام الصيام إهتموا فيها أشد اهتمام بمسألة مدة الصوم الإنقطاعي في كل منها.

ونظراً لأهمية الصيام الإنقطاعي من الناحية الروحية التأملية في الصلاة، سعرض

عليك هنا عرضاً شاملاً دقيفاً لأنواع الصيامات كافةً وفانون كل منها من حيث فترة الصوم الإنقطاعي كما رتبته الآباء الرسل في الدسقولية، وكما حدده الآباء البطارقة في فوائين مجامعهم الأولى المأخوذ بها في عرف كنيسةنا:—

(١) الصيامات المفروضة على الجميع ذات العقوبة الصارمة عند الإستهانة بها:
هي ثلاثة أنواع من حيث مدة الصوم الإنقطاعي:
النوع الأول:

نص: [وهي صيام الأربعين المقدسة التي صامها السيد المسيح ويُصام فيها إلى آخر النهار ولا يؤكل فيها حيوان ولا ما هو من الحيوان.]

النوع الثاني:

نص: [صوم يومي الأربعاء والجمعة من كل أسبوع «إلا إذا اتفق وقوعها في الخميس أو في عيدي الميلاد والغطاس». وهذا يُصامان إلى الساعة التاسعة من ليلها «أي الساعة الثالثة بعد الظهر.»]

النوع الثالث:

نص: [في أسبوع المصححة «أسبوع الآلام» وهو الأسبوع الذي يلي الأربعين المقدسة، وفيه يُصام على الخبز والملح والماء فقط إلى ما بعد الغروب. أما يوماً جمعة الصلبوت والسبت فصوموهما معاً دون أن تذوقوا فيها شيئاً إلى وقت صباح الديك ليلة الأحد. وإذا لم يقدر إنسان أن يصوم اليومين معاً فليصم يوم السبت كله.]

العقوبة:

نص: [أما أسقف أو قس أو شماس أو إبيوديا كن أو أناغوستس أو مرتل لا يصوم صوم الأربعين المقدسة وصوم يومي الأربعاء والجمعة فليُقطع. أما إذا كان عامياً «من الشعب» فليُقرَّر.]

الإستثناء:

نص: [إذا كان أحد مصاباً بمرض جسدي فيُسمح له بأكل السمك.]

(الدسقولية: الأبواب الثامن عشر والحادي والثلاثون والثامن والثلاثون: والمجموع الصفوي: الباب الخامس عشر)

(٢) أصوام مستقرة في البيعة:

وهي على ثلاثة أنواع، فمنها ما يجري حكمه كحكم الأربعين المقدسة: أي صومها الإنقطاعي حتى الغروب. ومنها ما يجري حكمه كحكم صوم يومي الأربعاء والجمعة: أي صومها الإنقطاعي إلى الساعة التاسعة من النهار (أي الساعة الثالثة بعد الظهر). ومنها ما ليس له حكم خاص:—

النوع الأول:

نص: [الأصوام المستقرة في البيعة والتي تنطبق عليها شروط صيام الأربعين المقدسة:—

(أ) الأسبوع السابق للأربعين المقدسة «أي الأسبوع الأول من الصوم الكبير».

(ب) صوم أهل نينوى، وهو ثلاثة أيام.

(ج) برامون الميلاد، أي اليوم الذي يسبق عيد الميلاد.

(د) برامون الغطاس، أي اليوم الذي يسبق عيد الغطاس.

فهذه الأيام تُصام إلى آخر النهار «أي الغروب».

النوع الثاني:

نص: [أصوام مستقرة في البيعة وتنطبق عليها شروط صيام يومي الأربعاء والجمعة،

وهي:—

(أ) صوم الميلاد.

(ب) صوم الرسل.

وهذه تُصام إلى الساعة التاسعة من النهار «أي الساعة الثالثة بعد الظهر».

النوع الثالث:

نص: [أصوام مستقرة في البيعة وهي أقل حفظاً «من جهة مدة الصوم الإنقطاعي» ،

وهي صوم عيد السيدة العذراء.]

تحذير:

نص: [هذه الأصوام قد صامها البطارقة الأولون المعاصرون للمجامع المسكونية الأولى

المقبولة قوانينها، فيجب حفظها بغير نقص. أما من صام زائداً على المفروض ولمستقرقله

ثوابه، ولا صوم في يومي السبت والأحد إلا عن الزهومات.]

نص: [وكل من تكره ومن غير ضرورة جسدانية يحل الصيامات المسلمة عند العامة ومحفوظة في الكنيسة ويصمم على ذلك، فليكن ملعوناً.] (مجمع غانغرا: قانون رقم ١٩)
(الدسقولية: الباب الحادي والثلاثون؛ واعموم الصفوي: الباب الخامس عشر)

وهنا يرى أن الصيامات غير المفروضة فرضاً والتي استقرت في البيعة لم يوضع عليها عقوبات رادعة كالصيامات المفروضة، ولو أنها أخذت صيغة الفرض على طول الزمن.

(٣) صيامات خاصة:

للأساقفة: «الدسقولية: البابان الثالث والثامن والثلاثون»:

نص: (١) [ومن بعد رسامة الأسقف وإقامته فليصم ثلاثة أسابيع، ولا يذق شيئاً في كل اسبوع منها إلى يوم السبت — هذا إذا لم يكن أيام خمسين.]

(٢) [يصوم بقية سنته ثلاثة أيام ثلاثة أيام، والطعام الذي يستعمله تلك السنة هو خبز وعسل وبقولات الأرض.]

(٣) [بقية أيام حياته يصوم كقدرته وينال من الطعام الضروري بقدر وبخوف الله وشكر، ولا يذق اللحم أو الخمر كليةً، ليس لأنه إذا أكل يتنجس، لكن لئلا يقسو قلبه و يظلم عقله، بل ليكون حقيقاً و يقدر أن يسهر براحة، لأنه ليس له ربح إذا ما نال شيئاً يقوي جسده.]

(٤) [ليكر الأسقف يبال طعامه وشرابه بقدر ما يكفيه حتى لا يتوانى أن يعلم غير المتعممين، ولا يكون كثير الففة ولا تائهاً ولا تكون سيرته التلذذ ولا يأكل شيئاً مختاراً.] (الدسقولية: الباب الثالث)

(٥) [في أيام الأعياد التي تتفق في وسط الأسبوع: إن اتفق يوم عيد في يومي الصوم اللذين هما الأربعاء والجمعة فليصتوا ويتناولوا من السرائر المقدسة ولا يحلوا الصوم إلا الساعة التاسعة.]

للرهبان: (المجموع الصفوي: الباب العاشر: مجمع نيقية وتعاليم باسيليوس.)

نص: (١) [المقام في البرية، ولباس الصوف، وشد الوسط بسير، وترك المأكول اللحمية على الإطلاق وما لا تدعو الضرورة إليه، والإقتصار في الأغذية على ما يقوم بأود الحياة الجسدانية.]

(٢) [صرف العمر جميعه صوماً .]

(٣) [إن كان الرهبان الذين في الدير فلاحين « أي يزرعون ويحصدون غلات

الأرض بأيديهم » فليطعموا إذن مرتين في اليوم : الأولى في السادسة « أي

الساعة ١٢ ظهراً » ، والثانية آخر النهار .

أما إذا لم يكونوا فلاحين فليقنعوا بكرة واحدة إما في الساعة التاسعة « أي

في الساعة الثالثة بعد الظهر » ، وإما في آخر النهار .]

(٤) [من يتناول لحماً بحجة المرض فإن ذلك يكون عشرة له غير أنه ليس خطية ،

وإنما يُعتبر ذلك نقصاً .]

ومن هذا العرض القانوني الكنسي لمسألة الصوم نرى أهمية خاصة موضوعة على فترة

الصوم الإنقطاعي ، وهي تتراوح من مدة بسيطة غير محدودة — كما في صيام عيد العذراء —

إلى أطول مدة مفروضة وهي طي يومين كاملين بدون أكل أو شرب ، وهما يوماً للجمعة

العظيمة (جمعة الصلبوت) مع السبت حتى سحر الأحد .

ونرى أن هذا التدرج قد وُضع بحكمة خاصة لتدريب المؤمنين قليلاً قليلاً لممارسة الصوم

الإنقطاعي .

ثم إن هذه لفوائين لم تأخذ شكلها كفرض إلا بعد أن مارستها الأجيال لأولى واختبرت

أهمية ممارستها على حياة الفرد والجماعة ، فلما رأت ثمرة الصوم واضحة جليلة لعموم المؤمنين ،

لم تتوان عن إدخاله بشكل فرض كنسي وذلك لكي ترقى بحياة المؤمنين الروحية وتضمن

تقدمهم في حياة العبادة .

والآن لم يعد أمامنا إلا أن نبدأ حياتنا الروحية تحت ظل طاعة هذه القوانين المقدسة ،

فلا يتردد أحد أو يخشى صعوبة ، فلم يوضع شيء من قبل الروح القدس جزافاً ، فالمسألة

تحتاج إلى إيمان وثقة برب الكنيسة المدر لكل أحوالها والمستعد أن يرعى كل حروف مقدس

من قطيعه . ولو عمدت أن هذه القوانين يبدأ تطبيقها على المؤمنين الذين بلغوا سن لثانية عشر

فما فوق ، لأخذ منك الخجل كل مأخذ ! فابدأ الآن وعوّض « عن السنين التي أكلها الجراد »

(يوء ٢٥ : ٢) و « تشدد وكن رجلاً » (أنظر ١ صم ٤ : ٩) واعلم أن « الذين في الباس

الفاخر والتنعّم هم في قصور الملوك . » (لو ٧ : ٢٥)

واعلم أنه لا يصح للإنسان أن يفوق الحد الموضوع له في صيامه الإنقطاعي إلا بحلٍّ خاص من الأب الروحي، و يشترط أن يكون الأب الروحي قد اختبر بنفسه هذه الحدود سواء لتي للغروب أو الي بطيَّ الأيام قبل أن يسمح بها لأولاده.

كذلك لا يستحسن أن يقوم الصائم بمجهودات جسدية أو عمالية كثيرة في أيام صيامه كالي يقوم بها في أيام إبطاره إذا كان ذلك في استطاعته، أما إذا كان الأمر خارجاً عن استطاعته فيستطيع أن يحصل على حلٍّ خاص من أب الاعتراف للتفصيل من فترة الصوم الإنقطاعي. أما الصعفاء والمرضى فقد نصت الفواين على أن لا يحرموا من الصيام فيحل صيامهم بأكل السمك وتفيض فترة الصوم الإنقطاعي إلى الحد المستطاع، حتى لا يُحرَموا من هذه البركة الروحية الي تحمل في نتائجها شفاء النفس والجسد جميعاً من الخطية وآثارها وعملها.

تحذير:

عد البدء في لصيامات الإنقطاعية يعتري الإنسان بعض العوارض المزعجة، كالصداع والدوخة والخمول وضيعة نفسية وعدم القدرة على بذل مجهودات روحية أو جسدية. ولكن معروف عند الدين تدربو على الصوم أن هذه الأعراض تزول جميعاً بعد أيام قليلة من بدء الصوم فيتكيف جسد على وضعه الجديد و يصير في غاية من النشاط والتوفد الذهني وحرارة لروح.

كمال التدريب:

الصوم في ذاته ليس هو فضيلة بل ليس شيئاً بالمرة، فهو إذ لم يفترن بالصلاة يصبح عسباً حسدياً محضاً يمودنا إلى الجفاف الروحي وضييق الحلق، كذلك لصلاة إذا لم تقترن بالصوم فإنها تفقد قوتها بل تفقد ثمرتها.

فإذا شهننا الصوم بحمر النار فالصلاة هي اللبان، ولن يجدي نعماً أحدهما بمفرده! أما إذا تآزرا واتحدا فإن عبيق رائحة بخورهما يفوح جلياً.

فالصوم يهده حركات الجسد ويحد كثيراً من توفد الحواس وشهونها و يضع حداً لثرثرة اللسان، وبذلك يكون الصوم قد مهد تمهيداً مهماً لعمل الصلاة وانطلاق الروح من رتبة عبودية الجسد وحواسه لتأمل حقائق الأبدية والحياة الأخرى.

ولا نفصد بالصلاة الوقوف ورفع اليدين وتركيب بعض الكلمات، وإنما نفصد الصلاة ذات التمهيد ودات الأثر البعيد والقريب، وذلك بتحديد فصول للقراءة لفترة الصيام وتجزيئها على الأيام وتعيين أوقات للقراءة التأملية، لا لحفظ ولا لبحث ولكن لاستيعاب مفاصد الإنجيل والخضوع لصوت الوحي حينما يحدثنا من وراء مادة الإنجيل، ثم نستخدم هذه الصراة لمتابعة تأملنا بقية النهار ما بين تحقيق وتطبيق. فتصير حياتنا حسب قول داود لني في المزمور الأول: «في ناموسه يهذ نهاراً وليلاً.» (مز: ١: ٢)

معطل شديد: (المكيفات):

إن أكبر ضربة أصاب بها الشيطان جيلنا الحاضر هي سيطرة المكيفات على الغالبية اعظمى من الناس وأفصد بالمكيفات السجاير والقهوة والشاي.

هذه الثلاثة استطاعت أن تسلب من الكثيرين أغلى ما يمكن أن يكون على الأرض وهو حرية إرادتهم الداخلية!!!

و يكفي لتعلم مقدار الضرر الذي أصاب الكنيسة من جراء هذه المكيفات، حينما تعلم أنه ما من أسير لإحدى هذه المكيفات يستطيع أن يشارك الكنيسة مشاركة روحية فعلية في صياماتها الإنعطاعية، وإن هو حاول ذلك فإنما بإعياء وجهد مرير يبلغ فيه إلى أقصى حالات الجفاف الروحي، وهكذا يفقد التدريب قيمته ولا يعود إلا مغالبة ومصارعة مع الكيف فحسب!

أريت معي كيف استطاعت السجاير والقهوة والشاي أن تفوّض ركناً هاماً بل أهم ركن من أركان الصيام، أي فترة الصوم الإنعطاعي، التي قد تطول إلى الغروب وإلى طي اليومين؟!؟

تري في هذه الأيام أن الكنائس تنهي صلواتها قبل مياعادها المرسوم لها في أيام الصيام والأعياد المشهورة كيوم جمعة الصلبوت!

وليس السر هو الحاجة إلى الطعام ولكن الحاجة إلى الكيف!

أنظر كيف تحكّمت السجاير والقهوة في مياعاد الكنائس!

تدخل الهيكل أيام الصيامات فلا تجد متناولين! إنها هذه المكيفات التي حرمت الشعب

المسكين من جسد الرب ودمه !

وليس الشعب فقط فالكهنة يدخنون والرهبان يدخنون والرؤساء يدخنون ، إنها ضربة أصابت جسم الكنيسة من أحصى القدمين إلى هامة الرأس ، إنه جرح في جسد المسيح ينزف وليس من « يعصر أو يعصب أو يلين بالزيت . » (أنظر: إش ١ : ٦)

إن أردت أن تهذب بمضائل الحياة الروحية فضع حداً لمكيفاتك من أي نوع كانت ، ولتبدأ من هذه اللحظة ، وإله السلام الذي حفظ دانيال من الأسود والفتية من نار الأتون يستطيع لو أردت أن يحميك من سطوة الكيف وباره المحرقة .

أقوال الآباء في الصوم:

٩٤٩ — مائدة الإنسان الذي يداوم الصلاة هي أحلى من كل عطر المسك وأزكى من أريج الزهر؛
ومحب الله يتوق إليها ككنز فائق القيمة!

خذ لنفسك شفاءً لحياتك من على مائدة الصوامين السهارى أولئك العمّالين في الرب، وهض
نفسك من مواتها.

بين هؤلاء يتكلىء الحبيب و يمدسهم، محولاً مرارة ريقهم إلى حلاوة تفوق حد التعبير، ويجعل
السماثيين يعرفونهم و يقوونهم ... إني أعرف أحد الإحوة رأى ذلك ظاهراً بعييه.

٩٥٠ — حينما ينحط الجسد بالأصوام والإماتة تتشدد النفس روحياً في الصلاة.

٩٥١ — الجوع أكبر معين على تهذيب الحواس.

٩٥٢ — في بطن امتلاً بالأطعمة لن يوجد مكان لمعرفة أسرار الله.

٩٥٣ — كل جهاد ضد الخطية وشهواتها يحب أن يتدىء بالصوم، خصوصاً إذا كان الجهاد بسبب
خطية داخلية.

٩٥٤ — إذا امتدأت بالصوم في جهادك الروحي، فقد أظهرت بغضتك للخطية وصرت قريباً من
النصرة.

٩٥٥ — الصوم هو بداءة طريق الله المقدس، وهو صديق ملازم لكل الفضائل.

٩٥٦ — لصوم متعمّد على كل الفضائل، بداية المعركة، ناح للصربية، جباب البتولية، حفظ
العفة، أبو الصلاة، نبع الهدوء، معلم السكوت، بشير الخيرات.

٩٥٧ — بمجرد أن يبدأ الإنسان بالصوم، يتشوق العقل لعشرة الله!

٩٥٨ — إحدرك لئلا تضعف جسدك بالتقادي في الصوم، فيفوى عليك التراخي وتبرد نفسك. رن

حياتك في كفة ميزان المعرفة.

٩٥٩ — في الوقت الذي يكون فيه جسدك شديداً وممتلئاً إحذر أن تعطي داتك حتى ولا قليلاً من الحرية.

٩٦٠ — لقد تعممت بالاحتبار أن أساس كل الخيرات وخلّص النفس من أسر الأعداء والطريق إلى الله هو أمران اثنان: الثبات في مكان واحد فقط، ودوام الصوم.

فالإنسان يجب أن يقنّ ببطه باعتدال ولكن بحزم وتعقل، ويداوم السكّي في مكان واحد بفكر مشغول بلا انقطاع مع الله، وحينئذ يحصل على انتباه العقل ويصل إلى إخضاع حواسه وتسكين شهواته الجسدية المتحركة فيه.

٩٦١ — الشيطان يحاول من الإبتداء أن يوقف من القلب عمل الصلاة. وبعد ذلك يقترح إهمال المواعيد المخصصة للصلاة والموئين المحددة للعبادة، ثم يُخضع الفكر عن ضعف لكي يتذوق قليلاً من الطعام قبل ميعاده مع إهمال أشياء أخرى بسيطة... ولكن كل هذا يسهّل قيام شهواتنا مرة أخرى.

٩٦٢ — إن أول وصية وُضعت على طبيعتنا في البداءة كانت صد تذوق الطعام، ومن هذه النقطة سقط رئيس جنسنا، لذلك فإن أولئك الذين يجاهدون من أجل خوف الله يجب أن يبدأوا البناء من حيث كانت أول ضربة.

مُخصّصنا الصالح حينما أظهر نفسه للعالم عند الأردن ابتداءً من هذه النقطة، فحينما اعتمد، فاده الروح إلى البرية مباشرة فصام أربعين يوماً وأربعين ليلة؛ وكل الذين يريدون أن يتبعوا خطواته يجب أن يضعوا أساس جهادهم على نموذج عمله.

هذا السلاح «الصوم» قد صقله الله فمن ذا الذي يحترىء على احتقاره؟

إن كان معطي الساموس قد صام بنفسه فكيف لا يصوم نحن الذين وُضِع الساموس من أجلنا؟

٩٦٣ — ليس سلاح أقوى من الصوم يعطي شجاعة للقلب في معركة الأرواح الشريرة. إن من يداوم على الصلاة يكون في كل وقت مشتعلًا بالغيرة كالنار.

٩٦٤ — بسلاح الصوم نال جميع القديسين الأتقياء إكليل النصر على أعدائهم! لأنه أثناء الصوم يكون العقل مستعداً أن يحتمل أشد الضربات وأسوأ الحوادث المفاجئة دون أن يهتز.

٩٦٥ — يُقال بخصوص الشهداء إنهم حينما كان يبلغهم خبر اليوم الذي سيالون فيه إكليهم بما

بإعلان روعي أو بواسطة أحد أصدقائهم، كانوا لا يذوقون شيئاً البتة في الليلة السابقة ولا يتناولون طعاماً ما ولكنهم يتصبون من المساء حتى الفجر في الصلاة متيقظين في شكر وحمد، بتراتيل وتماجيح وتسابيح وألحان روحية شجية، مسرورين منتعشين مترقبين هذه اللحظة كما يشاق الناس إلى دخول بيت العرس. يتوقون وهم صائمون إلى ضربة السيف ليُكَلَّلوا بإكبل الشهادة.

٩٦٦ — نحن أيضاً أيها الإحوة يجب أن نكون هكذا على الدوام مستعدين، متوقعين الشهادة الخفية ونوال إكبل الطهارة.

مار إسحق السرياني

٩٦٧ — تأكد تماماً أن العدو يهاجم القلب عن طريق امتلاء البطن.

الأب يوحنا ك.

٩٦٨ — إنه أمر عجيب فبيما نهم بصحتنا ونكثر من اعتنائنا بأنفسنا ومن تناول لطعام شهوي لمزيد للصحة ونختار الشراب الصافي ونتنزه في الهواء الطلق، نجد أنفسنا في النهاية معرضين للأمراض والأوجاع، مع أن القديسين الذين احتقروا أجسادهم وأماتوها بالعمل والصلاة الدائمة كانوا أكثر صحة وسلامة!

وبينا أجسادنا المعتنى بها تصمد وتنش وتنبعث منها رائحة كريهة بعد لوفاة، إذ بأجساد هؤلاء القديسين لمهملة عندهم والمزدرى بها جداً تنق عطرة وتفوح منها روائح زكية حتى بعد لوفاة!

إنه أمر عجيب حقاً، إذ بينما نظهر كأننا ننهي نهدم دون أن ندري، وبينما هم يهدمون، نجدهم بالعقر يبنون! «من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يمجدها.» (مت ١٠: ٣٩)

٩٦٩ — إننا لا نخشى عدواً خارجياً، لأن عدونا هو داخلنا، وكل يوم تقوم الحرب داخلنا بنا وعلينا. فإذا كنا منتصرين فيها كجنود للمسيح تهون علينا كل الأمور الخارجية و يعم السلام، وتخضع كل حواسنا لنا، وحينئذ لا نخشى عدواً من الخارج إذا ما كان الداخل مُخضعاً لنا ومغلوباً لإرادتنا.

وليتنا لا نعتقد أن الصوم الخارجي عن الطعام وحده يكفي لكمال وسلامة القلب ونقاوة الجسد إلا إذا كان يعينه من الداخل صيام النفس، لأن النفس لها أيضاً أنواع خطيرة من الطعام، فإذا ما اعتادت عليها هوت إلى مهاوي الفجر والضلال. فالنيمة وحيئة الغضب والغيرة والحسد والبغضة هذه أطعمة الشقاوة التي تورد النفس إلى الهلاك.

كذلك كل شهوة وطياشة منحرفة للقلب تُعتبر طعاماً للنفس تغذيها كما من لحم فاسد ثم تتركها بعد ذلك بلا نصيب في الخبز السمائي. فإذا كنا نوقف كل قوانا للإمتناع عن كل هذه بصوم مقدس شديد مع مراعاة الصوم الجسدي، حينئذ يصير الحسد مع النفس ذبيحة مقبولة والقلب مكاناً طاهراً للقداسة.

أما إذا كنا نصوم بالنسبة للجسد فحسب ونحن مقيدون بخطايا ورذائل نفسية معينة، فنن يفيدنا توضيعنا للجسد شيئاً طالما أن الجزء المهم فينا متدنس.

علينا إذن حياً يكون إسانا الخارجي صائماً أن نضبط الإنسان الداخلي ومنعه من كل طعام يفسده، فإن هذا الإنسان الداخلي هو الذي يحثنا الرسول أن نقدمه طاهراً أمام الله قبل كل شيء حتى يكون أهلاً لجلول السيد المسيح فيه.

الأب يوحنا كاسيان

٩٧٠ — أعط بطنك طعاماً مشبعاً سريع الهضم، لكيما بالشبع تزيل عنها شهوة الحنجرة، وبسرعة هضمه تهرب من الحرارة المتولدة من دسمه.

الأب يوحنا الدرجي

٩٧١ — إذا أضعفنا الجسد وأهكناه لدرجة انحطاط الروح أيضاً، فإن ذلك يُعتبر عدم إفراز ورعونة حتى ولو كنا نسمى بذلك للحصول على الفضيلة.

الأب صاروفيم ص.

٩٧٢ — وكما أن الإفراط في الأكل ضار كذلك الإفراط في الصوم، لأن الضعف الناتج منه يعيقنا من تأدية الصلوات كما هو مفروض علينا.

الأسقف إغناطيوس ب.

٩٧٣ — إنه أفضل أن نتخلف عن الخدمة « الصلاة » بسبب الضعف الناتج عن الصوم من أن نتخلف بسبب الكسل والوخم الناتج عن الإمتلاء.

مار إسحق السرياني

٩٧٤ — يلزم أن نهب عناية كافية نحو الصوم كوسيلة نصل بها إلى نقاوة القلب وليس كغاية.

الأب يوحنا كاسيان

٩٧٥ — رأيتُ في زماننا هذا عوائد ذميمة قد تأصلت في المسيحيين، إذ رأيتُ الشعب وحتى بعض الكهنة يحملون رباط الصوم الذي فرضه الروح القدس على الكنيسة، أعني صوم الأربعاء والجمعة والأربعين المقدسة والميلاد والرسل والعذراء. يقومون باكراً في الصباح و يستعملون « شرب الدخان »

والقهوة، متخذين في ذلك عبلاً فارغة: واحد يقول إذا لم أشرب القهوة لا أعرف أن أرفع رأسي، وآخر يقول إذا لم أشرب القهوة لا أستطيع أن أفتح عيني، وآخر يقول إن الدخان يطرد البغم من على قلبي (أي من صدري). وآخر يقول إذا لم أشرب الدخان لا أعرف أن أقصي حاجة الطبيعة. يا لها من ارتباطات فارغة ترتبط بها هؤلاء الأشفياء، فحرموا من نعمة الحياة المسيحية المتحررة من كل ارتباطات الخطية والجسد: «لا تملكُن الخطية في جسدكم.» (رو ٦: ١٢)

٩٧٦ — إذا كنتم يا متقدمين في الشعب من رؤساء وأراخنة تفطرون باكراً في الصباح أمام الشبان والأطفال فقد صرتم عثرة لهذا الشعب وعلة برودتهم من حرارة العبادة والصلاة. ألا تستحون من قون الرب: «ويل لك أينما الأرض إذا كان ... رؤساؤك يأكفون في الصباح.» (جا ١٠: ١٦)؟

٩٧٧ — وأنتم يا كهنة الرب واجب عليكم التعليم ورعاية الشعب والتشديد عليهم بالصوم حتى الساعة الثالثة بعد الظهر.

وأنتم يا أولادنا المسيحيين وبالأكثر يا رؤساء الشعب والأراخنة، فليترك كل واحد منكم عادته الرديئة التي تعطل صومه، أي شرب القهوة والدخان في الصباح، وثابروا على الصوم والتجهد ولو كان فيه تعب لكم، فتعب هذا الدهر لا يساوي المجد المزمع أن يوهب لنا.

والإنجيل يقول: «من لا يحمل صليبه و يتبعني فلا يستحقني»، وحمل الصليب يشمل تعب الصوم، لأن الصوم يذلل النفس الحيوانية فتموت وتصلب الشهوات. وبذلك تطهر النفس العقلية وتنبت لها أجنحة روحانية.

٩٧٨ — ثم بعد هذا أتانا الابن الوحيد منحدرًا من السماء إلى الأرض ولبس جسداً وعرقنا الطريق إلى الخلاص، عاملاً ومعلماً. وأول درس عمله وعلمه لإتارة طريق الخلاص الذي يعتقنا من سلطان السقطة التي هوت بآدم رئيس جنسنا، أي كسر الوصية بشهوة الأكل، هو انفراده في البرية وصيامه أربعين يوماً وأربعين ليلة، ثم تقدم إليه العدو ليحاربه فحاربه وغلبه وأظهر لنا السر كيف نغلبه بالصوم، مصرّحاً: «هذا الجنس لا يخرج بشيء إلا بالصلاة والصوم».

٩٧٩ — إذا أفطرننا يا إخواني والكنيسة صائمة نكون قد أفرربا أنفسنا وصرنا عشرة لغيرنا وسبب انحلال للضعفاء. فلا تفطروا قبل أن تفطر الكنيسة، كذلك لا تصوموا بعد أن يتم الصوم وتفطر الكنيسة، إلا أن يكون قانوناً موضوعاً من معلم التوبة أو بمشورة معلم مدبر، لئلا يكون صومكم غير مقبول ويجلب عليكم العظمة والإفتخار ويولّد فيكم الدينونة.

٩٨٠ — لا تصُصم بالخبز والملح وأنت تأكل لحوم الناس بالديونة والمنمة. لا تقل أنا صائم صوماً «نظيفاً» وأنت متسخ بكل الذنوب.

إن أردت أن تصوم صوماً نظيفاً تعال وأنا أريك كيف يكون:

حد لك مرشداً حكيماً، وإذا أمرك بالصوم فاغسل وجهك وادهن رأسك ولا تظهر للناس صائماً فيضيع أجرك من مديحهم. لا تصوم فك من الأطعمة ولسانك يأكل في أعراض الناس! لا تفتخر على غير الصائمين. واضبط لسانك من الكذب والخلفان وذم الناس والإفتراء عليهم في غيابهم أو حضورهم، ولا تضرب الواحد بالآخر وتقف كخصاليع بينهما.

صوم يدك وعينك وأذنتك من كل أمر قبيح يُغضب الله وحينئذ يكون صومك نظيفاً!!

٩٨١ — لا تدقق في صوم وتتهاون في آخر، لأنني رأيت كثيرين يفطرون الأربعاء المقدسة وفي صوم العذراء يصومون صياماً فائقاً عن وضع الكنيسة بأهوية قلوبهم وبدون مشورة معلمي البيعة.

أنبا يوساب الأبح

٩٨٢ — إحذر من خداع البطل إذ تكون مملوءة وتصبح أها جائعة. إحذر من الهم الذي يشير عليك أن تبتلع كل شيء دفعة واحدة، واعلم أن الشبع من الطعام هو أبو الزنا.

٩٨٣ — يفرح اليهودي بسبته، و يسر الراهب النهم البطل بيومي السبت والأحد، يجلس بحسب يوم العيد قبل وقته، ويستعد للأطعمة قبل أوانها.

٩٨٤ — إضحك على الشيطان الذي يحضك على زيادة ساعات الصوم، فإذا حانت ساعة الإفطار أنكر موقفه.

٩٨٥ — إذا قسوا قليلاً على بطوننا تذلت قلوبنا وانغلقت أفواهنا. أما إذا لذناها بالماكل فرحت ومرحت عقولنا وانسابت ألسنتنا.

٩٨٦ — إعرف أن الشيطان في أكثر أوقاتنا يحلس في معدتنا ويجعل الإنسان لا يشبع ولو أكل مصر كلها وشرب نيلها! ثم ينصرف هذا الشيطان الطني ويرسل لنا شيطان الرنا بعد أن يخبره بما جرى قائلاً له أدركه فإن بطه موثق فلن تتعب معه كثيراً... فإذا ما وافانا تبسم وربط باليوم أيدينا وأرجلنا وعمل كل ما شاء فينا.

٩٨٧ — إن كنت عاهدت المسيح أن تسلك الطريق الضيقة فضيق بطنك أولاً، لأن البطن العريض الواسع يستحيل أن يسير في طريق الرب الضيقة، فإذا اتسعت بطنك بعد ضيق فقد خالفت عهودك.

٩٨٨ — إذا جلست على المائدة فضع ذكر الموت أمامك ومن خلفه ضع موقف يوم الديونة الرهيب، وأنت بذلك تقطع الطريق على شيطان الشر.

٩٨٩ — إذا تناولت الكأس لتشرب فاذا ذكر الخل والمرارة اللتين شرهما يسوع من أجلك و بذلك تصط نفسك .

٩٩٠ — الصوم هو عصب الطبيعة وتكليفها بمراد النفس ، و قطع تنبذ الفم وحرمان الجسد من الحرارة .

٩٩١ — فتح شيطان شره البطن فنه وقال : إن ابني البكر هو خادم الرب ، وأخوه هو مساواة القلب ، وثالثهم كثرة النوم والتلذذ بالفراش ، أما باقى فهن الثروة والسكته وحب التزين ، أما آخر أولادي فهو قطع الرجاء .

الأب يوحنا الدرجي

٩٩٢ — عمل السك ضروري ، وهذا طاهر من قول بولس الرسول ، إذ أنه عدّ انسك ثمرة للروح قائلاً : بجوع وعطش ، بصوم كثير إني أقمع جسدي وأجعله لي عبداً .

فالمضيلة لا تُقام إلا بالنسك لأن السك يلجم الشهوات ، والطعام لا ينفع الجاهل ، هكذا قال سليمان الحكيم . ولا تهتموا لأجسادكم بماذا تأكلون ، هكذا قال المسيح . وقد قرن الرسول الضلالة بقلة النسك إذ يقول : « وفي آخر الأيام تكون أزمة صعبة و يكون الناس محين لشهواتهم » . كذلك أظهر الرسول أن لعنة عيسو قد حلت عليه بسبب شهوة بطنه .

وعنى العكس فإن الفضيلة قُرنت دائماً بأعمال السك . فوسى صام أربعين يوماً ثم صعد على الجبل وتكلم مع الرب كما يتكلم الرجل مع صاحبه ، وأخذ من الرب لוחي الوصايا مكتوبة بأصبع الله ! ودانيال صار في الرؤيا بعد ما صام واحداً وعشرين يوماً ؛ والفتية الثلاثة لم تؤدهم نار الأتون المحمي بسبب صومهم وصلاتهم ؛ و يوحنا المعمدان أقام حياته كلها في تفشف وزهد ، وأعس الرب للعالم نوع غذائه ولباسه وهذا كان يخفيه عن الناس ، ليكون لنا منه عظة .

٩٩٣ — ولست أعني بالنسك ترك الطعام الضروري لأن هذا يؤدي إلى الموت ، ولكن أعني ترك المآكل التي تجلب لنا اللذة وتسبب تمرد الجسد .

والقانون الضروري في طعام النسك هو الخبز والماء والخضر .

٩٩٤ — وقد تكون هناك أشياء كثيرة ليس فيها خطية ومع ذلك يجب أن نتنسك عنها إذا كان في ذلك ربح لنا وللآخرين كما قال الرسول : « إن كان طعام يعثر أخي فس آكل لحماً إلى الأبد لئلا أعثر أخي » (١ كو ٨ : ١٣) ، وأيضاً قال : « حس أن لا تأكل لحماً ولا تشرب خمرأ أو شيئاً يصطدم به أحوك أو يعثر أو يضعف . » (روم ١٤ : ٢١)

٩٩٥ — والمتنسك بالحقيقة هو من يتغرب من كل الآلام (أخطاء الشهوة) الجسدانية حتى الطبيعية. والنسك هو رأس الحياة الروحية وهو يطلع شهوة اللذة. أما اللذة فهي خدعة لشرير والصارة التي يصيد بها أتباعه و يسوقهم مكبلين بقيودها إلى الموت.

٩٩٦ — أما فصائل النسك فهي مخفية لا تظهر للناس، ومع ذلك فهي تُعرف من معاملة النسك الجسدية. وفي هذا ربح ليس بهيل لكل الذين يطرؤوه حتى أثناء أكله، كما يقول الرسول: «حتى إذا أكلتم أو شربتم أو عملتم أي عمل آخريكون الكل لمجد الله».

٩٩٧ — ولكن لا نعدُّ مع أعداء الله الذين يحرفون بنيانهم السبئية ويحرمون بعض الأطعمة التي خلقها الله ليأكلها الإنسان بالشكر، يجب علينا أن ندق من كل طعام يُقدَّم لنا، كل نوع في رمنه دفعة واحدة (خاص للرهبان) حتى نُظهر للجميع أن كل شيء طاهر للأطهار، وأن كل ما خلقه الله هو حس وأن ليس شيء نجساً في ذاته إذا تناولناه بالشكر، لأن كل شيء يتطهر بكلمة الله.

ولكن مع هذا لنحفظ صورة النسك ونهرب من امتلاء البطن، لأن السك ترتعب منه الشياطين كما قال مخلصنا: «إن هذا نجس لا يخرج شيء إلا بالصلاة والصوم».

باسيليوس الكبير

٩٩٨ — لقد جرب آباؤنا الصوم كل يوم فوجدوا أنه نافع وموافق لصاوة النفس، وهو عن امتلاء البطن من أي طعام كان حتى ومن الخبز البسيط، أو من الماء أيضاً.

الأب يوحنا كاسيان

٩٩٩ — إن كنا لا نستطيع أن نصوم إلى العشاء فلنشارك الصغفاء ونصوم إلى التاسعة أو إلى نصف النهار على الأقل، وبما لا نأكل من باكرو هذا لا يحتاج إلى قوة جسد.

مار إسحق السرياني

١٠٠٠ — وهكذا ظل القديس أنطونيوس زهاء عشرين عاماً يدرّب نفسه في الوحدة، لا يخرج قطعاً ويذكر أن يره أحد. بعد هذا لما كثُر الذين أرادوا برعة حارة أن يقدوا نسكه، وبدؤوا يفتحون بابه خرج إليهم متعمقاً في الأسرار ممتلئاً من الروح القدس. ولأول مرة رُئي خارج الحصن، وعندئذ تعجبوا من منظره عندما رأوه، لأنه كانت له نفس هيئة جسمه لساعة فلم يكن بديناً كرجل بغير تمرين، ولا نحيفاً هزيل الجسم بسبب الصوم والصراع مع الشياطين، بل كان كما عهدوه قبل اعتزاله.

سيرة أبا أنطونيوس الكبير بقلم أناسيوس الرسولي

الباب الثالث

معونات الصلاة

توجد معوقات للصلاة عند المبتدئين ومعوقات للصلاة عند المتقدمين .

أما فيما يختص بالمبتدئين فلا تخرج عن عدم تعود الصلاة في البداية من تشتت الفكر في الأمور التي لا يزال الإنسان يهتم بها أكثر من الله ، وكذلك عدم الانتظام في الأوقات ، والشكوى من عدم فهم كلام الصلاة سواء كانت المزامير أو حتى الكتاب المقدس ، وهذه كلها يجدها القارئ مشروحة على مدى الأبواب التي في هذا الكتاب وقد اعتنينا بتوضيح كل علة في موضعها .

وسنقتصر في هذا الفصل على توضيح معوقات الصلاة عند الذين نجحوا في ممارستها ، أي السائرين في حياة الصلاة . على أننا نلفت النظر منذ البداية إلى أنه كثيراً ما تُعاق صلواتنا بسبب ضعف الجسد وانحطاط قواه ونشاطه نتيجة المرض كالأنيميا بنوع خصوصي أو الهبوط في الطاقة العصبية نتيجة إرهاق فكري أو ضيق نفسي أو كثرة الصوم فوق الطاقة أو ربما الإمساك الشديد المرمن أو كثرة الأعمال البدوية أو الجسمانية أو الفكرية ؛ فهذه كلها تحتاج إلى بصيرة نافذة من الإنسان أو من المرشد الذي يدبره لكي يكتشفها في الحال و يدبر علاجها لئلا تسوء حالة النفس و يرتك الإنسان معتقداً أن تعوقه في الصلاة يعود إلى إهماله أو توانيه أو برودته أو خطيئته ، فيبتدىء الإنسان في اليأس نظراً لأنه سيكون معرضاً للإخفاق المحتم بسبب مرضه الجسدي أو العصبي أو النفسي ، مع أن حقيقة حاله هي ما قاله المسيح نفسه لتلاميذه الذين انحلوا من التعب والسهر وناموا مع أنه كان ينبغي أن يصلوا : «أما الروح فنشيط وأما الجسد ضعيف .» (مت ٢٦ : ٤١)

وأما العوامل الأساسية التي تختص بتعويق الصلاة عند المتقدمين ، فتنحصر في ثلاثة اختبارات معروفة ومهمة :—

الأول هو: الجفاف الروحي ، والثاني هو: الفتور الروحي ، والثالث هو: ضياع هدف الصلاة من قلب الإنسان . وسوف نعالج الاختبارين الأولين أي الجفاف والفتور معاً تاركين الاختبار الثالث ، أي ضياع الهدف ، بمفرده في نهاية الباب .

أما الفرق بين الجفاف الروحي والفتور الروحي فهو كبير، فالجفاف الروحي اختبار يلزم الإنسان أثناء الصلاة ولا يمنع الإنسان من الإستمرار في الصلاة أو القراءة أو السهر، ولكنه يجعل هذه خالية من أي عزاء أو مسرة أو لذة.

أما الفتور الروحي فيصيب العمل نفسه، فتتوقف الصلاة و يفقد الإنسان القدرة على مواصلة أي عمل روحي، فتصح القراءة عسيرة والسهر غير ممكن و ينصدُّ الإنسان حتى عن مواصلة الجهاد في الخدمات البسيطة العادية.

ففي أثناء الجفاف الروحي يمكننا أن نصلي بسهولة ونتابع المعنى و يكون عقلنا منتبهاً ومشاعراً حاضرة، ونستطيع أن ندرس الكلمة ونعكف على القراءة والكتابة، ولكن نكون في أثناء ذلك كله فاقدين العزاء الداخلي.

أما في الفتور الروحي فإذا وقفنا للصلاة أو جلسنا للقراءة يكون العقل مشتتاً والقلب متفرّباً عنا، فتصبح متابعة الصلاة والنشاط الروحي أمرين فوق أنها عسيران جداً فإنهما يكونان أيضاً بلا أدنى تحصيل.



الفصل الأول

ابجفاف الروحى

«إلهي في النهار أدعوك ولا تستجيب، في الليل أدعوك ولا هدؤلي ...
يبست مثل شقفة قوتي، ولصق لساني بحنكي.» (مز ٢٢: ٢ و ١٥)

حينما تدخل النفس في اختبار الجفاف الروحي لأول مرة تجزع جداً، خصوصاً إذا كانت متوفرة على العبادة بإخلاص وتدقيق، ويبدأ الإنسان يضطرب ويتساءل ويفتش عيوبه لعله يجد السبب.

ولكن الحقيقة أن الجفاف الروحي ليس هو علامة على فقدان أي شيء في علاقتنا الطيبة مع الله، وإنما هو مرحلة هامة لازمة لتهديب النفس وإعدادها لحياة روحية أكثر تقدماً لا تعتمد على مشجعات نفسانية أو مسرات ذاتية.

فهو بمثابة غذاء عسير الهضم نوعاً ما، إلا أنه بليغ الفائدة. فإذا خضعنا لهذا الاختبار وجُزئناه برضى ووعي وصبر ولم تذبل أرواحنا بسبب عدم التعزيزات والمشجعات واكتفينا بالاعتماد على صدق مواعيد الله، فتحس بدخل بواسطته إلى قامة الأبناء الكامنين ونُوْهِلَ للمحبة العالية التي لا تطلب ما لنفسها والتي لا تعتمد على الأخذ بل تكتفي بالعطاء والبذل.

وإذا فحصنا هذا الاختبار الروحي بدقة، نجد أنه يخوف في طبيعته من أي اضطراب ولا يصيب القلب بضيق، والجفاف يعم الروح من جهة المشاعر والعواطف فقط ولكنه لا يمس سلام النفس وهدوءها، غير أنه يكون سلاماً بلا حرارة عاطفية وهدوءاً بلا جاذبية أو مسرة.

لذلك لا يتأثر في الواقع من تجربة الجفاف الروحي إلا ذوو النفوس المدللة الذين يعيشون على التعزيزات والمشجعات والذين التقوى عندهم مرتبطة بالأخذ، ونموهم في نظرهم يعتمد على البراهين الحسية.

وخطر هذه المرحلة هو أن يتشكك الإنسان في الطريق ويعتقد أن علاقته بالله قد انقطعت، فيتوقف عن الصلاة، مع أن حدود هذا الاختبار — أي الجفاف الروحي الذي تسوقه النعمة على الإنسان — يسمح بوجود واستمرار الصلوات، فهو لا يسلب من الإنسان القدرة على الصلاة والمداومة فيها ولكن يسلبه فقط التعزيزات الفرعية التي كان يعتمد عليها في الصلاة.

فإذا أوقف الإنسان الصلاة بحجة الجفاف الروحي وفقدان التعزية فإنه يتقهقر روحياً، ويدخل بدون داعٍ في تجربة سلبية خطيرة وهي التذمر على الله.

إذن، من الخطأ أن يضطرب الإنسان عند عبوره مرحلة الجفاف؛ كذلك من الخطر أن يتوقف الإنسان عن الصلاة بحجة أنه لا يجد مسرة في الصلاة، فالجفاف جزء حي من طبيعة الصلاة قادر لو استوعبناه بنفس راضية واعية أن يرفعنا إلى درجة أعلى في الصلاة وهي الصلاة البقية التي لا تعتمد على العواطف والمشاعر والمشجعات من أي نوع!!

فهما شعر الإنسان بتخلية النعمة طاهرياً فليكتف بعملها السري، وليعتمد على قوة الدفع السابقة التي اقتناها في حياته مع الله، فهي تكفيه لعبور المراحل الأولى من هذا الاختبار حتى تبتدىء تستقر نفسه في الله بدون مشجعات ووسائل.

كذلك فليعتمد السائر في الطريق أثناء هذا الاختبار، على مشورة المرشد وأتباع أوامره بتدقيق لأنها ذات قيمة كبيرة خصوصاً في هذه المرحلة. ولكن لعل أعظم وصية تفيد الإنسان في هذا الاختبار هي قبول الإنسان الجفاف الروحي بداعي الإرضاع واكتفاؤه بأن يكون أقل الناس وأنه ليس أهلاً للتعزيات. وحتى لو اعتبر أن الجفاف الروحي تأديباً، فهذا أمر جيد لنفسه (مع أن الجفاف ليس تأديباً ولكنه تهذيب).

ولن ينفع الإنسان في هذه المرحلة أن يقف ليفحص حاله ويفتش عن الأسباب والدواعي ويحاول أن يضع خططاً للخروج من هذا الاختبار، بمضاعفة السهر أو الصلاة أو الصوم، فإن هذا كله جهد ضائع ويخرج الإنسان خارج خط تدبير النعمة. أما أعظم عمل يمكن أن يعمده، فهو أن يقبل الجفاف ويداوم أثناءه على عمله الروحي برزانة ووعي، مستجيزاً العناء والجهد الزائد لمتابعة مسيره بنفس السرعة كالسائر في دروب الصحراء لا يثنيه فقدان مسرات المدينة عن المسير في جوف الصحراء الفاحشة حتى النهاية.

وأوقع ما في الاختبار الروحي هو أن نقبله في ذاته، لا من أجل شيء ورائه. فالجفاف لروحي تجربة روحية موضوعة لذاتها كلازمة من لوازم الطريق الضيق.

والتجارب الروحية، على وجه العموم، لا نجوزها طمعاً في بلوغ الكمال لأن هذا فيه معنى تأليه الذات، ولكننا نخضع لكل تدبير الله حتى نكمل مشيئته؛ لأن طاعتنا لله هي أساس حياة شركة معه، وهي وحدها التي توصلنا إلى الكمال.

علاقة الجفاف بالإرادة:

يلزمنا أن نفرق بين جوهر النفس الشرية وبين الصفات والإنفعالات الناتجة عن نشاطها. فالنفس في صميمها شيء غير العاطفة الصادرة عنها والمؤثرة فيها.

كذلك أيضاً التصورات والأفكار قد تكشف عن حالة النفس ولكن ليست هي النفس ولا تمثلها، لا يوجد شيء يعلن عن النفس ويمثلها إلا الإرادة الحرة، لذلك فالإنسان لا يُسأل ولا يُدان عن تصوراتهِ ولا عن أفكارهِ أو عواطفهِ وإنما يُسأل و يُدان عن ما تعلنه إرادته.

وفي حالة الجفاف الروحي نجد أنه يختص بتوقف في قدرة ملكات النفس عن استقبال التعزيزات والمشجعات الروحية الفائقة التي كانت تحصل عليها النفس بالنعمة عن طريق التصورات والأفكار والعواطف. أما النفس في حد ذاتها فلم تتوقف إرادتها أثناء الجفاف عن اشتهاً وقبول هذه التعزيزات والمشجعات. لذلك فالجفاف الروحي يظل تجربة خارجة عن الإرادة!

هذه الحقيقة غاية في الأهمية لأنها تحلي الإنسان من مسئولية وهمية، يحاول أن يضعها الضمير على الذات بسبب توقف حالة العزاء والمصرة الداخلية التي ترافق تجربة الجفاف الروحي.

ومن هذا يتبين بوضوح أن علاقة النفس (الإرادة) بالصلاة يمكن أن تظل سليمة بالرغم من وجود حالة الجفاف، لأن الجفاف لا يتعلق بالإرادة أصلاً. أي أنه يمكن أن تستمر الصلاة بكل قوتها ونشاطها بالرغم من وجود حالة الجفاف الروحي.

واستمرار الصلاة بدون الاعتماد على التعزيزات والمشجعات العاطفية التي كانت تتقبلها النفس عن طريق التصورات والعواطف والأفكار، هو القصد الأساسي من تجربة الجفاف الروحي التي تسوقها النعمة على الإنسان أثناء مسيره على الطريق الروحي، حتى يتخلص من الارتباطات التي تربط النفس بالمحسوسات والعواطف البشرية والتصورات العقلية التي تعطل اتصال النفس بالله مباشرة. فالجوهر النفسي لا يمكن أن يستقر في الله استقراراً كاملاً طالما كان النشاط العاطفي أو التصوري أو العقلي يستطيع أن يلعب بالنفس.

وفي اللحظة التي تتحرر فيها الصلاة من هذه الارتباطات فإنها تدخل في درجة الصلاة

السفية. والصلاة النقية إذا بلغها الإنسان، فلا شيء في الوجود يستطيع أن يفصله عن الله لأن جوهر النفس يكون قد تركر في الله بدون مؤثرات خارجية. وتستطيع النفس أن تشحص في الله أثناء الصلاة بدون عائق و بدون تنبيهات نفسية قابلة للخطأ.

وهذا يتبين أن الجفاف الروحي اختبار تدفعه النعمة على النفس لتزيد من قدرتها على الشخص مباشرة في الله، وذلك بسد جميع المنافذ الأخرى الفرعية التي يتشتت منها الإبصار الروحي أي التعزيات والمسرات والمشجعات.

الجفاف فرصة للطياشة الشريرة:

من محاطر مرحلة الجفاف انطلاق الحواس الفكرية والتصورات لتعمل في جو بعيد عن الرقابة الروحية، فيستأسرها العدو و يُسقطها من علوها الأول لإرتياد المناظر والأفكار الشريرة والتصورات الخاطئة التي لم تكن تخطر على بال الإنسان. وذلك لأن توفيق التعزية الروحية التي كانت تغذي بها النعمة ملكات النفس من تصور وتفكير وعاطفة، يعطي فرصة للعدو أن يستعرض شروره على هذه الملكات.

وبذلك صار من المحتمل أثناء مرحلة الجفاف الروحي أن يطيش عقل الإنسان، دون أن ينتبه، في تصورات شريرة لا نهاية لها قد تصل إلى منتهى الإذلال للنفس. هنا يلزم أن ننتبه غاية الانتباه إلى الدور الذي ستهوم به الإرادة. فطالما أن الإرادة لا ترتاح ولا تتوافق بل ولا تحتل هذه الطياشة وتبدي استنكارها وحزنها واحتجاجها لدى الله في الصلاة، فإن الصلاة تظل في حدود طهارتها دون أن تستطيع هذه الطياشة العكسية والتصورات الشريرة أن تخدشها من أي ناحية!!

فالمسئول الأول والأخير عن طهارة الصلاة هو الإرادة فوق كل اعتبار.

وقدرة الإرادة على الإستمرار في رفض هذه التصورات والأفكار الباطنة وعزمها على النضال، مهما طالت التجربة، هو الذي يضع حداً لها في النهاية.

والذي ينبغي أن نثق به وثوقاً تاماً هو أن الله لا يحاسبنا قط عن أي شر يسري في فكرنا أو تصورنا طالما نكون غير موافقين له ولا راضين عنه، على أن نقدم برهان ذلك بواسطة الصلاة على الدوام دون أن نكل. فإذا ثبتت الإرادة في احتجاجها ولم تتنازل النية في الداحل، بمعنى أننا لم نلق السلاح، فكل تعذيب العدو للفكر والضمير يُحسب في النهاية

ذبيحة ظاهرة.

أما لخطر الناشئ من اعتياد الفكر على هذه التصورات الشريرة والطياشة الباطنة بسبب طول زمن التجربة، فلا خوف منه البتة، طالما تظل الإرادة حية قوية تعديها الصلاة، لأنه في لحظة واحدة ستكف الحرب كفاً هائياً حينما يتنازل الله ويضم إليه النفس بعد أن تكون قد تجرّدت من أنانيتها وعاطفيّتها.

فما لئذ يسمح الله للعدو أن يعذب فكر الإنسان وضميره هكذا بهذه الفسوة التي عبّر عنها بعض القديسين بأنها تشبه الجحيم، فالرد على ذلك هو بسبب طبيعتنا التي فسدت بخطيئة وأصبحت مسهوبة للشروع. فلولا أن فكرنا قد سبق واعتاد بحريته على تصور الشر والتفكير فيه ولو مرة واحدة، ما أمكن للعدو أن يرغمه بعد ذلك على تصور الشر والتفكير فيه مجبراً مهزوماً.

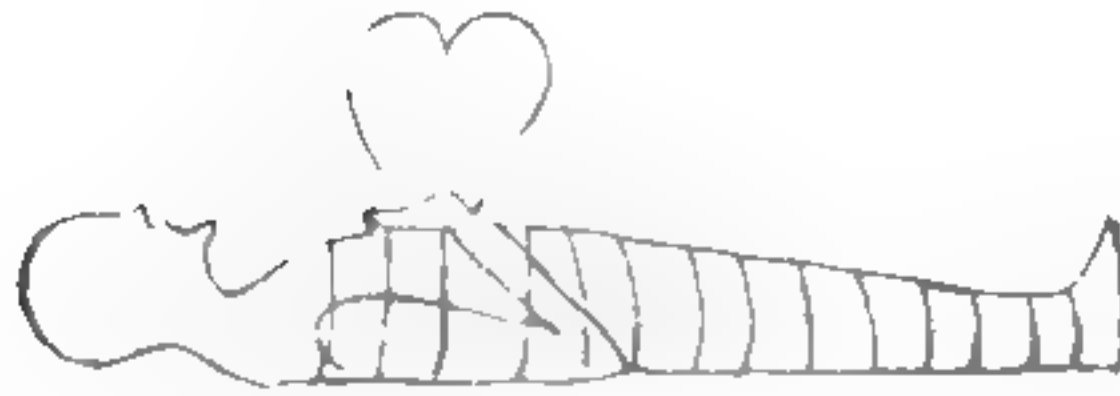
فإنه بعد ذلك عندما يهملنا لحظة لنذوق مرارة سلطان إبليس لا يكون ظالماً، غير أنه في نفس الوقت لا يمكن أن يتخلى عما بل في اللحظة المعينة يتدخل ويحول كل ما أسيء به إلينا إلى عوامل قوة وخلّاص ومجد.

فبعد أن تنصهر عواطفنا وأفكارنا وتصوراتنا في محنة الجفاف الروحي، نُؤَهِّل في النهاية لدرجة النقاوة التي بها نعيش مع الله.



الفصل الثاني

الفتور الروحي



«العدو قد اصطفد نفسي، سحق إلى الأرض حياتي، أحلسي في
الظلمات مثل الموقى منذ الدهر.» (مز ١٤٣: ٣)

في تجربة الحفاف الروحي لا تقف الصلاة ولا يوجد ما يستدعي وقوفها لأن النفس تكون بكامل إرادتها منعطفة نحو الله والصالح ؛ ولا تفقد النفس قدرتها وإرادتها على الإستمرار في الصلاة والجهاد، لأن الحفاف الروحي لا يكون له تأثير إلا من جهة توقف الغراء والمسرة والتشجيعات العاطفية التي كانت تلازم الصلاة وتنتج منها.

أما الفتور الروحي فيصيب الإرادة نفسها، فالضربة هنا موجهة أساساً نحو القيام بالصلاة واستمرارها. فإذا وقف الإنسان في الصلاة لا يجد ما يقوله ولا يجد القدرة على متابعة الصلاة. وإذا جلس يقرأ يكون الكتاب في يده، كما يقول مار إسحق، شبه الرصاص، وربما يظل مفتوحاً أمامه يوماً كاملاً ولا يستطيع أن يستوعب منه سطرًا واحدًا.

العقل يكون مشتتاً فاقد القدرة على التركيز ومتابعة المعنى، والإرادة المهيمنة على كل النشاط منحلة. فالرغبة في الصلاة موجودة ولكن القدرة والإرادة منحلة، وقد تُصاب الرغبة في الصلاة أيضاً في النهاية فيصبح الإنسان غير قادر وغير راغب في الصلاة ولكنه متألم وحزين على هذا الحال ولا حول ولا قوة له على إصلاح شيء.

إذا حاول الإنسان الدخول إلى أعماق نفسه يتوه سريعاً، فلا يبلغ أعماق نفسه!! وكأنه قد تاه عن قاعدة روحه وتغرب عن جوهر حياته!! وإذا حاول الإنسان أن يحتبر إيمانه وقيسه سراً في قلبه، يجد أنه غير حي وغير موجود!!

وإذا قرع باب الرجاء والتمسك بمواعيد الله التي كان يحبها ويعيش عليها، يجد الرجاء قد تجمد ووقف عند نقطة الحاضر الباردة لا يريد أن يتعدها.

و يسهر العدو هذا الظرف المواتي له و يضرب بشدة محاولاً أن يفنع الإنسان بالفشل وضياع كل جهاده وتعبه هباءً، وأن كل منهجه الروحي لم يكن صحيحاً ولا حقيقياً بل كان مجرد أوهام وانفعالات، و يضغط على الفكر لكي ينكر الحياة الروحية كلها دفعة واحدة.

ولكن من وسط هذه الحروب الداخلية الطاحنة للنفس تحس النفس من وراء الستار أن هذا كله غير صحيح، وأن وراء هذه الظلمة يوجد شيء! كما تحس النفس أنها لا تزال مربوطة رغماً عنها بالله الذي تحلى بها، وأنها تعبده أيضاً دون أن تحس وحتى دون أن تريد!! وأنه لا تزال تُقام صلاة داخل القلب في الأعماق بعيداً جداً عن إحساس العقل وتمييزه بل ودون أن يتلقى عنها الضمير أي عزاء أو تأكيد.

وحيثما يحاول العدو أن يضرب ضرباته الأخيرة القاضية لكي تنكر النفس إيمانها أو رجاءها لا يجد العدو أي استجابة عملية، فالنفس تتنازل بالفكر مع العدو إلى أقصى ما يريد وإلى أبعد حدود الخطأ، ولكن أن تعمل فهذا مستحيل، فعند نقطة الانتقال من التصورات والأفكار إلى حيز التنفيذ تنبري الإرادة كالأسد الذي يهب من رقدته فتفزع كل الثعالب المفسدة.

إذن، فوراء الفتور الروحي علاقة بالله غير عاملة ولكن موجودة، وقوية جداً أقوى من كل وساوس الشيطان ولكن نائمة لا تستيقظ إلا عند حدود الخطر!

غير أن هذه العلاقة العظيمة تكون مستورة عن النفس وعبثاً نحاول أن نقنع النفس بوجودها لكي تعتمد عليها أو تطمئن لوجودها. لأنه قد وُضِع على النفس في هذه التجربة أن تقف بمفردها!!

ولكن حزن النفس الشديد والمستمر على حالها الذي صارت إليه بعد النشاط والحرارة والاجتهاد الفائق إلى هذا الحال، كفيلاً أن يكون دليلاً حسيّاً وبرهاناً عميقاً على بقاء النفس في مجال الله وعلى مسيرها دون أن تدري في مسارها الصالح تقودها يد لا تراها وتحملها قوة لا تحسها.

إذن، لا يظن السائر في طريق الله أن حركة الإيمان التي وُلدت يوماً داخل القلب وأشعلته بنور الله كمصباح يتقد بالحب والغيرة ليدفع النفس كلها للمسير، يمكن أن تنسحب من الأعماق وتترك الإنسان مرة واحدة فارغاً بهذا المقدار.

غير أن نور الله وحرارته لا يلزم أن يراها الإنسان أو يحسها دائماً فهما يظلان يعملان في نور الحياة الحاضرة وظلامها، في برودتها وحرارتها، في سرورها وحزنها، دون توقف.

فالطريق الروحي لا يُقاس بأوقات النور والحرارة والسرور وبالنشاط المشرق فقط، فإن

وفات التوقف والظلمة التي تخطط بالنفس والحزن الذي يضغط على القلب والبرودة التي تسب كل حركة لعواصف الروحانية، هذه أيضاً جزء لا يتجزأ من لطريق الروحي لصيف.

وكيفية مواجعتها لهذه الظروف التي تسدو معاكسة ومؤنة ومثيرة، هي التي تقرر استحقاقها بمضي في طريق وتكميد تسعى لمرك حتى تتكامل.

الأسباب:

منه لا يسوف هذه التجربة على النفس جرف، فهناك أسباب تعم دحوى النفس في هذه الحشرات، لكي بعدل ميران تديره لروحيات ويستقيم مسيرها في الطريق لصعد فوق و يتقوى إيمانها بغير المنظور.

أولاً: الفتور الروحي حينما يكون لتهذيب النفس الطموحة:

حين تسعى النفس الطموحة بدمعها فيها تجهد لمصغف سرعة مسيرها أكثر مما تخمن وأكثر مما يوفق بهاءها، وتستدعى تطلب لمزيد من المعرفة أكثر من حثيحتها الفعلي وأكثر من فهم رؤيتها حتمية، وتتوقع نوع من الخبرة الروحانية على اعتبار أن هذا من الإيمان، ونفتحه بمجالات الحرات العالية ونفحص في النور بدون مؤهل كاف من الصغيرة ولا سند من العمل والخبرة فتكون النتيجة أنها تتوقف دفعة واحدة.

وإن كان يبدو حسب المطلق أن هذا التوقف طبعي بسبب استنزاف الطاقة الروحانية المذخرة وعدم موارنة الرصيد الإيماني مع سرعة افتتاح هذه المناطق العالية الخطرة، إلا أن العلة الأساسية هي تدخل رحمة الله وعطفه وإشفاقه على النفس، بسحب قدرتها على الإرتفاع حتى لا ترتفع أكثر من إمكانية انزائها واحتمالها فسقط ونحطه. فلفور هاتمين الحياة للنفس وصمد الحفظ من الكرياء بروحي الذي لو سارت فيه خطوة واحدة بعد ذلك لأصابها ما أصاب البنائين في برج بابل.

هنا الفتور يقع للنفس لأنه يجردها من الطموح هائياً، ويوقف شغافها الرائد بالتقدم الخطأ الساشيء من حذاء لإرادته لتعظيم الذات ويردّها إلى لدرجات الخطيئة التي لمبتدئين، فتجبر النفس عن المصاعد الخطرة وتستع بجرها وغمها وهوان حائها وضياء فحرّمالها، وتعود لتحسن أبعاد ممدّة واتضاع، هما لها ضمان لخلاصها أكثر من احتراح الآيات وصنع المعجزات والتأملات العليا.

وعلاوة هذا السوع التأديبي من الفتور الروحي الذي يكون بسبب اطموح هو الحزن لمفرط والعم الذي يتاب النفس على ما أصابها، فهذا الحزن والغم دليل على صحة العمية التي يكون قد أجراها الله للنفس لتبقى في اتضاعها.

ثانياً: الفتور الروحي حينما يكون لتعديل فهم العلاقات الي تربطنا بالله:

حينما تستغرق النفس في جهادها لروحي وإتقانها للصلوات وديقتها في الممارسات الروحية الأخرى ينشأ فيها شعور يربط بين هذا النشاط والإجتهاد وبين علاقتها بالله، فيها للنفس كأنما اجتهدتها وأمرتها في اصواب هي الي تؤهبها لحب الله واستحقاق البوة عنده، وإذا لا يشاء الله أن تنوء النفس في هذا المسح الخاطيء الذي بعدها هائياً عن استحقاق محبة الله والحياة معه يضطر أن يخرمها من هذا النشاط والإجتهاد اللذين سيصيران سبباً في خرابها.

فبمجرد أن يسحب الله من الإنسان هذه الإمكانيات الي هي النشاط والقدرة على لعمل الروحي الي كان قد وهبها من نفسه للإنسان كعرون لمحبه ورضاه، تفقد النفس بدون قوة ولا قدرة على أي عمل روحي، وحينئذ تصدم بالحقيقة المذهلة، التي تطل رافضة ها وغير مستجيبة حدوثها، وهي أن الله في أبوته ومحبه له غير محتاج لصلواتنا وأعمالنا!!

ويطر الإنسان في البداية متسئلاً بفكرة أن أبوة الله توفقت حتماً بسبب توقف الصلاة؟ وأن الله قد هجر النفس وأهمها بسبب أن أعمالها واجتهادها يظهر أنها لم تكن بالمدر الكافي لتوازن مع محبه؟! ونحاول النفس عبثاً أن تنوء من اطراحها وحزنها لتعاود اجتهدتها ونشاطها ولكن تضيع كل عزائمها مع أذراع لرياح.

وأخيراً، وشيئاً فشيئاً، تبندى النفس تدرك أن عظمة الله لا يسفي أن تقاس بتفاهة الإنسان، وأن أبوته العالية جداً قبلت أن تنسى أناء التراب من فرط حنانها وحلالها وليس ثمناً لأعمال الإنسان واجتهاده، وأن ننوتنا لله حقيقة مصدرها الله وليس نحن، وهي فائمة — بالرغم من عجزنا وحطيتنا — تشهد على جود الله وسخائه.

وبذلك يعود الفتور الروحي لمثل هؤلاء بتعديل جوهر في فهم الله وتقدير العلاقات الروحية التي تربط النفس الشريفة به، وتعدل نظرة الإنسان للإجتهاد والنشاط وكل عمل روحي فيما بعد، لا كأنه ثمن لمحبة الله وأبوته بل استجابة لمحبه واستجابة لأبوته.

وعلاوة هذا النوع من الفتور الروحي هي الأسئلة الحائرة التي يرددها الإنسان كل يوم وعلى مدى هذا الإختبار، هل تركني الله؟ هل خطيئتي هي السبب؟ هل أغضبتُ أبوتي بتواني وكسلي؟ هل رفضني الله لأن صلاتي غير مقبولة عنده؟

فبينا أشخاص الصف الأول الذين يصيبهم الفتور الروحي بسبب طموحهم بجدهم متألمين بسبب توقف الصلاة فقط، إذا بأشخاص الصف الثاني الذين يصيبهم الفتور الروحي بسبب فهمهم الخاطيء لمحبة الله وأبوتهم بجدهم خائفين لا من توقف الصلاة بل من ضياع مركزهم كبين لله وفقدانهم لثقتهم ومحبتهم، وبقدر ما يزداد خوفهم وقلقهم تزداد محبتهم وجفافهم حتى تستعمن هم الحقيقة في انهاية فتوتهم صلات المحبة والبنوة فوق كل اعتبار.

والواقع أن وجود هذا الخوف أثناء الفتور الروحي هو أكبر دليل على وجود صفات الأمانة البوية لله عند النفس، غير أن النفس لا تكون حينئذ واثقة من هذه الحقيقة وتظل خائفة إلى أن تتحقق من أبوة الله لها بالرغم من كل شيء وفوق كل شيء.

ثالثاً: الفتور الروحي حينما يكون لتقوية الإيمان بالله فوق المحسوسات:

يحدث أن يكون الإنسان في غاية السعادة والسلام بسبب عناية الله به عناية شاملة من جهة كافة أعوازه الجسدية ورعايته في الداخل والخارج وحمايته له حماية ملموسة في كل المواقف، فيطمئن الإنسان جداً أنه محفوظ بيد الله وملحوظ بعنايته، وتزداد ثقة الإنسان ويتقوى إيمانه بالله على أساس الدليل المادي الواضح والبرهان الملموس.

فتكون النتيجة أن الله يحبس دفعة واحدة جميع معونات المنظورة و يوقف حمايته الملموسة ويسحب عنايته الظاهرة بالإنسان، فتبتدىء الضيقات ترى على النفس و يصير الإنسان مكشوفاً لأعدائه هدفاً لكل ضارب ومتفوّل ومستهزىء، ليس من الأعداء الظاهريين فقط بل ومن العدو غير المنظور أيضاً مخترع كافة الشرور والمحن ... فتبتدىء تقترن الأتعاب الخارجية بالأتعاب الداخلية حتى ليكاد يُذهل الإنسان من كثرة الضربات وتنوعها، وفي البداية يحسب الإنسان أنها أمور عابرة وأنه سريعاً ستنقشع الغمامة وتعود الحياة إلى سلامها واستقرارها الأول، ولكن إذ بهذه الضيقات تزداد عنفاً وتتسع حلقاتها بدلائل يتضح منها أن الأمر فوق الطاقة وفوق التصور، فيجلس الإنسان في التراب محطماً عاجزاً عن أن يفهم شيئاً من هذا كله!! ماذا حدث؟ ولماذا حدث؟ وما هي النهاية؟

يعود الإنسان إلى نفسه لعله يجد فيها بارقة أمل لمعاودة الحياة الأولى، فلا يجد إلا حطاماً

في حطام ونفساً ممزقة مشدودة بألف تجربة . فليس هو مجرد فتور أو جفاف أو فقدان لعزاء بل فقدان الإحساس الروحي كله (١) ، وضيق وتذمر وحيرة وتجديف ورُعة تغطي لنفس من هول ما أصابها ، تحاول النفس أن تردّ على التجاديف الصادرة في أعماقها فلا تجد قدرة على الرد ، تحاول أن تستنكر شيئاً من الشرور والفواحش التي ينفذها الشيطان على لمكر فلا تمت إلا أن تتأمل فيها وتنساق معها وكأها أسيرة لكل إنم وحطيئة ! حتى تستقر النفس على حافة اليأس ، اليأس من كل شيء .

ولكن ما يُذهل النفس حقاً ليس خسائرها أو فشلها أو توقفها عن الصلاة أو الجهاد أو خوفها من هجران الله بل شعورها بوقوف الله نفسه كعدو لها يُسرُّ بآلامها وحرنها وتمزقها !!

هذه المحنة نراها على أشدها في تجربة أيوب الصديق ، والذي استرعى انتباه أيوب ليس الخسائر المريعة التي أصابته في أملاكه كلها وفي أولاده كبهم وفي جسده كنه وفي هُزء كل الناس منه حتى زوجته ! وإنما في توهمه من شدة الصيقة وظنه أن الله قد وقف منه موقف الإهمال والعداء والشماتة !!

— «أنا أيضاً لا أمانع في ، أتكلم بضيق روحي أشكو بمرارة نفسي : أبحرُنا أم تنين حتى جعلت عليّ حارساً ، إن قلت فراشي يعزيني ومضجعي ينزع كربني تريعي بالأحلام وترهبني بالرؤى ، قد دُبْتُ ... كُفْتُ عي ... ريثا أبلغ ريتي ! لماذا جعلتني عاثوراً لنفسك ؟ حتى أكون على نفسي جَملاً ؟ ... لأن سهام الفديرتي وخمّتها (ي سُمّها) شاربة روحي ، أهوال الله مصطفىة ضدي ... لماذا لا تغفر ذنبي ؟ ... ذلك الذي يسحقني بالعاصفة و يكثر جروحي بلا سبب ، لا يدعي أخذ نفسي ولكن يشعني مرائر ... قد كرهت نفسي حياني ... تُكلم في مرارة نفسي ... فهمني لماذا تخاصمني ؟ ... أحسنُ عندك أن تظلم ؟ ... في شعبان هواناً وناظر مذلتني ... تصطادني كأسد ؟ ثم تعود وتتجبر عني ؟ ... كُفْتُ عي ... أبعد يديك عي ولا تدع هيبتك ترعبني ، لماذا تحب وجهك وتحسبني عدواً لك ؟ إليك أصرخ فما تستجيب أفوم فما تتبه إليّ ، تحولت إلى جافٍ من نحوي !! هاأنذا أذهب شرقاً فليس هو هالك وغرباً فلا أشعربه ، شمالاً فلا أنظره جنوباً فلا أراه .» (١١٧ - ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٤ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ - ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣٠٩ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣ - ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٤٧ - ٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٥ - ٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٦٦ - ٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٠ - ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٥ - ٣٧٦ - ٣٧٧ - ٣٧٨ - ٣٧٩ - ٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٨٨ - ٣٨٩ - ٣٩٠ - ٣٩١ - ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٤ - ٣٩٥ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤٠٤ - ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٧ - ٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤١٣ - ٤١٤ - ٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٧ - ٤١٨ - ٤١٩ - ٤٢٠ - ٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٢٥ - ٤٢٦ - ٤٢٧ - ٤٢٨ - ٤٢٩ - ٤٣٠ - ٤٣١ - ٤٣٢ - ٤٣٣ - ٤٣٤ - ٤٣٥ - ٤٣٦ - ٤٣٧ - ٤٣٨ - ٤٣٩ - ٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٢ - ٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥ - ٤٤٦ - ٤٤٧ - ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٠ - ٤٥١ - ٤٥٢ - ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٥ - ٤٥٦ - ٤٥٧ - ٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٦٠ - ٤٦١ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤ - ٤٦٥ - ٤٦٦ - ٤٦٧ - ٤٦٨ - ٤٦٩ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٣ - ٤٧٤ - ٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٧ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨٠ - ٤٨١ - ٤٨٢ - ٤٨٣ - ٤٨٤ - ٤٨٥ - ٤٨٦ - ٤٨٧ - ٤٨٨ - ٤٨٩ - ٤٩٠ - ٤٩١ - ٤٩٢ - ٤٩٣ - ٤٩٤ - ٤٩٥ - ٤٩٦ - ٤٩٧ - ٤٩٨ - ٤٩٩ - ٥٠٠ - ٥٠١ - ٥٠٢ - ٥٠٣ - ٥٠٤ - ٥٠٥ - ٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٠ - ٥١١ - ٥١٢ - ٥١٣ - ٥١٤ - ٥١٥ - ٥١٦ - ٥١٧ - ٥١٨ - ٥١٩ - ٥٢٠ - ٥٢١ - ٥٢٢ - ٥٢٣ - ٥٢٤ - ٥٢٥ - ٥٢٦ - ٥٢٧ - ٥٢٨ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٣١ - ٥٣٢ - ٥٣٣ - ٥٣٤ - ٥٣٥ - ٥٣٦ - ٥٣٧ - ٥٣٨ - ٥٣٩ - ٥٤٠ - ٥٤١ - ٥٤٢ - ٥٤٣ - ٥٤٤ - ٥٤٥ - ٥٤٦ - ٥٤٧ - ٥٤٨ - ٥٤٩ - ٥٥٠ - ٥٥١ - ٥٥٢ - ٥٥٣ - ٥٥٤ - ٥٥٥ - ٥٥٦ - ٥٥٧ - ٥٥٨ - ٥٥٩ - ٥٦٠ - ٥٦١ - ٥٦٢ - ٥٦٣ - ٥٦٤ - ٥٦٥ - ٥٦٦ - ٥٦٧ - ٥٦٨ - ٥٦٩ - ٥٧٠ - ٥٧١ - ٥٧٢ - ٥٧٣ - ٥٧٤ - ٥٧٥ - ٥٧٦ - ٥٧٧ - ٥٧٨ - ٥٧٩ - ٥٨٠ - ٥٨١ - ٥٨٢ - ٥٨٣ - ٥٨٤ - ٥٨٥ - ٥٨٦ - ٥٨٧ - ٥٨٨ - ٥٨٩ - ٥٩٠ - ٥٩١ - ٥٩٢ - ٥٩٣ - ٥٩٤ - ٥٩٥ - ٥٩٦ - ٥٩٧ - ٥٩٨ - ٥٩٩ - ٦٠٠ - ٦٠١ - ٦٠٢ - ٦٠٣ - ٦٠٤ - ٦٠٥ - ٦٠٦ - ٦٠٧ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦١٠ - ٦١١ - ٦١٢ - ٦١٣ - ٦١٤ - ٦١٥ - ٦١٦ - ٦١٧ - ٦١٨ - ٦١٩ - ٦٢٠ - ٦٢١ - ٦٢٢ - ٦٢٣ - ٦٢٤ - ٦٢٥ - ٦٢٦ - ٦٢٧ - ٦٢٨ - ٦٢٩ - ٦٣٠ - ٦٣١ - ٦٣٢ - ٦٣٣ - ٦٣٤ - ٦٣٥ - ٦٣٦ - ٦٣٧ - ٦٣٨ - ٦٣٩ - ٦٤٠ - ٦٤١ - ٦٤٢ - ٦٤٣ - ٦٤٤ - ٦٤٥ - ٦٤٦ - ٦٤٧ - ٦٤٨ - ٦٤٩ - ٦٥٠ - ٦٥١ - ٦٥٢ - ٦٥٣ - ٦٥٤ - ٦٥٥ - ٦٥٦ - ٦٥٧ - ٦٥٨ - ٦٥٩ - ٦٦٠ - ٦٦١ - ٦٦٢ - ٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٦٥ - ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٦٨ - ٦٦٩ - ٦٧٠ - ٦٧١ - ٦٧٢ - ٦٧٣ - ٦٧٤ - ٦٧٥ - ٦٧٦ - ٦٧٧ - ٦٧٨ - ٦٧٩ - ٦٨٠ - ٦٨١ - ٦٨٢ - ٦٨٣ - ٦٨٤ - ٦٨٥ - ٦٨٦ - ٦٨٧ - ٦٨٨ - ٦٨٩ - ٦٩٠ - ٦٩١ - ٦٩٢ - ٦٩٣ - ٦٩٤ - ٦٩٥ - ٦٩٦ - ٦٩٧ - ٦٩٨ - ٦٩٩ - ٧٠٠ - ٧٠١ - ٧٠٢ - ٧٠٣ - ٧٠٤ - ٧٠٥ - ٧٠٦ - ٧٠٧ - ٧٠٨ - ٧٠٩ - ٧١٠ - ٧١١ - ٧١٢ - ٧١٣ - ٧١٤ - ٧١٥ - ٧١٦ - ٧١٧ - ٧١٨ - ٧١٩ - ٧٢٠ - ٧٢١ - ٧٢٢ - ٧٢٣ - ٧٢٤ - ٧٢٥ - ٧٢٦ - ٧٢٧ - ٧٢٨ - ٧٢٩ - ٧٣٠ - ٧٣١ - ٧٣٢ - ٧٣٣ - ٧٣٤ - ٧٣٥ - ٧٣٦ - ٧٣٧ - ٧٣٨ - ٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٤١ - ٧٤٢ - ٧٤٣ - ٧٤٤ - ٧٤٥ - ٧٤٦ - ٧٤٧ - ٧٤٨ - ٧٤٩ - ٧٥٠ - ٧٥١ - ٧٥٢ - ٧٥٣ - ٧٥٤ - ٧٥٥ - ٧٥٦ - ٧٥٧ - ٧٥٨ - ٧٥٩ - ٧٦٠ - ٧٦١ - ٧٦٢ - ٧٦٣ - ٧٦٤ - ٧٦٥ - ٧٦٦ - ٧٦٧ - ٧٦٨ - ٧٦٩ - ٧٧٠ - ٧٧١ - ٧٧٢ - ٧٧٣ - ٧٧٤ - ٧٧٥ - ٧٧٦ - ٧٧٧ - ٧٧٨ - ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨١ - ٧٨٢ - ٧٨٣ - ٧٨٤ - ٧٨٥ - ٧٨٦ - ٧٨٧ - ٧٨٨ - ٧٨٩ - ٧٩٠ - ٧٩١ - ٧٩٢ - ٧٩٣ - ٧٩٤ - ٧٩٥ - ٧٩٦ - ٧٩٧ - ٧٩٨ - ٧٩٩ - ٨٠٠ - ٨٠١ - ٨٠٢ - ٨٠٣ - ٨٠٤ - ٨٠٥ - ٨٠٦ - ٨٠٧ - ٨٠٨ - ٨٠٩ - ٨١٠ - ٨١١ - ٨١٢ - ٨١٣ - ٨١٤ - ٨١٥ - ٨١٦ - ٨١٧ - ٨١٨ - ٨١٩ - ٨٢٠ - ٨٢١ - ٨٢٢ - ٨٢٣ - ٨٢٤ - ٨٢٥ - ٨٢٦ - ٨٢٧ - ٨٢٨ - ٨٢٩ - ٨٣٠ - ٨٣١ - ٨٣٢ - ٨٣٣ - ٨٣٤ - ٨٣٥ - ٨٣٦ - ٨٣٧ - ٨٣٨ - ٨٣٩ - ٨٤٠ - ٨٤١ - ٨٤٢ - ٨٤٣ - ٨٤٤ - ٨٤٥ - ٨٤٦ - ٨٤٧ - ٨٤٨ - ٨٤٩ - ٨٥٠ - ٨٥١ - ٨٥٢ - ٨٥٣ - ٨٥٤ - ٨٥٥ - ٨٥٦ - ٨٥٧ - ٨٥٨ - ٨٥٩ - ٨٦٠ - ٨٦١ - ٨٦٢ - ٨٦٣ - ٨٦٤ - ٨٦٥ - ٨٦٦ - ٨٦٧ - ٨٦٨ - ٨٦٩ - ٨٧٠ - ٨٧١ - ٨٧٢ - ٨٧٣ - ٨٧٤ - ٨٧٥ - ٨٧٦ - ٨٧٧ - ٨٧٨ - ٨٧٩ - ٨٨٠ - ٨٨١ - ٨٨٢ - ٨٨٣ - ٨٨٤ - ٨٨٥ - ٨٨٦ - ٨٨٧ - ٨٨٨ - ٨٨٩ - ٨٩٠ - ٨٩١ - ٨٩٢ - ٨٩٣ - ٨٩٤ - ٨٩٥ - ٨٩٦ - ٨٩٧ - ٨٩٨ - ٨٩٩ - ٩٠٠ - ٩٠١ - ٩٠٢ - ٩٠٣ - ٩٠٤ - ٩٠٥ - ٩٠٦ - ٩٠٧ - ٩٠٨ - ٩٠٩ - ٩١٠ - ٩١١ - ٩١٢ - ٩١٣ - ٩١٤ - ٩١٥ - ٩١٦ - ٩١٧ - ٩١٨ - ٩١٩ - ٩٢٠ - ٩٢١ - ٩٢٢ - ٩٢٣ - ٩٢٤ - ٩٢٥ - ٩٢٦ - ٩٢٧ - ٩٢٨ - ٩٢٩ - ٩٣٠ - ٩٣١ - ٩٣٢ - ٩٣٣ - ٩٣٤ - ٩٣٥ - ٩٣٦ - ٩٣٧ - ٩٣٨ - ٩٣٩ - ٩٤٠ - ٩٤١ - ٩٤٢ - ٩٤٣ - ٩٤٤ - ٩٤٥ - ٩٤٦ - ٩٤٧ - ٩٤٨ - ٩٤٩ - ٩٥٠ - ٩٥١ - ٩٥٢ - ٩٥٣ - ٩٥٤ - ٩٥٥ - ٩٥٦ - ٩٥٧ - ٩٥٨ - ٩٥٩ - ٩٦٠ - ٩٦١ - ٩٦٢ - ٩٦٣ - ٩٦٤ - ٩٦٥ - ٩٦٦ - ٩٦٧ - ٩٦٨ - ٩٦٩ - ٩٧٠ - ٩٧١ - ٩٧٢ - ٩٧٣ - ٩٧٤ - ٩٧٥ - ٩٧٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨ - ٩٧٩ - ٩٨٠ - ٩٨١ - ٩٨٢ - ٩٨٣ - ٩٨٤ - ٩٨٥ - ٩٨٦ - ٩٨٧ - ٩٨٨ - ٩٨٩ - ٩٩٠ - ٩٩١ - ٩٩٢ - ٩٩٣ - ٩٩٤ - ٩٩٥ - ٩٩٦ - ٩٩٧ - ٩٩٨ - ٩٩٩ - ١٠٠٠ - ١٠٠١ - ١٠٠٢ - ١٠٠٣ - ١٠٠٤ - ١٠٠٥ - ١٠٠٦ - ١٠٠٧ - ١٠٠٨ - ١٠٠٩ - ١٠١٠ - ١٠١١ - ١٠١٢ - ١٠١٣ - ١٠١٤ - ١٠١٥ - ١٠١٦ - ١٠١٧ - ١٠١٨ - ١٠١٩ - ١٠٢٠ - ١٠٢١ - ١٠٢٢ - ١٠٢٣ - ١٠٢٤ - ١٠٢٥ - ١٠٢٦ - ١٠٢٧ - ١٠٢٨ - ١٠٢٩ - ١٠٣٠ - ١٠٣١ - ١٠٣٢ - ١٠٣٣ - ١٠٣٤ - ١٠٣٥ - ١٠٣٦ - ١٠٣٧ - ١٠٣٨ - ١٠٣٩ - ١٠٤٠ - ١٠٤١ - ١٠٤٢ - ١٠٤٣ - ١٠٤٤ - ١٠٤٥ - ١٠٤٦ - ١٠٤٧ - ١٠٤٨ - ١٠٤٩ - ١٠٥٠ - ١٠٥١ - ١٠٥٢ - ١٠٥٣ - ١٠٥٤ - ١٠٥٥ - ١٠٥٦ - ١٠٥٧ - ١٠٥٨ - ١٠٥٩ - ١٠٦٠ - ١٠٦١ - ١٠٦٢ - ١٠٦٣ - ١٠٦٤ - ١٠٦٥ - ١٠٦٦ - ١٠٦٧ - ١٠٦٨ - ١٠٦٩ - ١٠٧٠ - ١٠٧١ - ١٠٧٢ - ١٠٧٣ - ١٠٧٤ - ١٠٧٥ - ١٠٧٦ - ١٠٧٧ - ١٠٧٨ - ١٠٧٩ - ١٠٨٠ - ١٠٨١ - ١٠٨٢ - ١٠٨٣ - ١٠٨٤ - ١٠٨٥ - ١٠٨٦ - ١٠٨٧ - ١٠٨٨ - ١٠٨٩ - ١٠٩٠ - ١٠٩١ - ١٠٩٢ - ١٠٩٣ - ١٠٩٤ - ١٠٩٥ - ١٠٩٦ - ١٠٩٧ - ١٠٩٨ - ١٠٩٩ - ١١٠٠ - ١١٠١ - ١١٠٢ - ١١٠٣ - ١١٠٤ - ١١٠٥ - ١١٠٦ - ١١٠٧ - ١١٠٨ - ١١٠٩ - ١١١٠ - ١١١١ - ١١١٢ - ١١١٣ - ١١١٤ - ١١١٥ - ١١١٦ - ١١١٧ - ١١١٨ - ١١١٩ - ١١٢٠ - ١١٢١ - ١١٢٢ - ١١٢٣ - ١١٢٤ - ١١٢٥ - ١١٢٦ - ١١٢٧ - ١١٢٨ - ١١٢٩ - ١١٣٠ - ١١٣١ - ١١٣٢ - ١١٣٣ - ١١٣٤ - ١١٣٥ - ١١٣٦ - ١١٣٧ - ١١٣٨ - ١١٣٩ - ١١٤٠ - ١١٤١ - ١١٤٢ - ١١٤٣ - ١١٤٤ - ١١٤٥ - ١١٤٦ - ١١٤٧ - ١١٤٨ - ١١٤٩ - ١١٥٠ - ١١٥١ - ١١٥٢ - ١١٥٣ - ١١٥٤ - ١١٥٥ - ١١٥٦ - ١١٥٧ - ١١٥٨ - ١١٥٩ - ١١٦٠ - ١١٦١ - ١١٦٢ - ١١٦٣ - ١١٦٤ - ١١٦٥ - ١١٦٦ - ١١٦٧ - ١١٦٨ - ١١٦٩ - ١١٧٠ - ١١٧١ - ١١٧٢ - ١١٧٣ - ١١٧٤ - ١١٧٥ - ١١٧٦ - ١١٧٧ - ١١٧٨ - ١١٧٩ - ١١٨٠ - ١١٨١ - ١١٨٢ - ١١٨٣ - ١١٨٤ - ١١٨٥ - ١١٨٦ - ١١٨٧ - ١١٨٨ - ١١٨٩ - ١١٩٠ - ١١٩١ - ١١٩٢ - ١١٩٣ - ١١٩٤ - ١١٩٥ - ١١٩٦ - ١١٩٧ - ١١٩٨ - ١١٩٩ - ١٢٠٠ - ١٢٠١ - ١٢٠٢ - ١٢٠٣ - ١٢٠٤ - ١٢٠٥ - ١٢٠٦ - ١٢٠٧ - ١٢٠٨ - ١٢٠٩ - ١٢١٠ - ١٢١١ - ١٢١٢ - ١٢١٣ - ١٢١٤ - ١٢١٥ - ١٢١٦ - ١٢١٧ - ١٢١٨ - ١٢١٩ - ١٢٢٠ - ١٢٢١ - ١٢٢٢ - ١٢٢٣ - ١٢٢٤ - ١٢٢٥ - ١٢٢٦ - ١٢٢٧ - ١٢٢٨ - ١٢٢٩ - ١٢٣٠ - ١٢٣١ - ١٢٣٢ - ١٢٣٣ - ١٢٣٤ - ١٢٣٥ - ١٢٣٦ - ١٢٣٧ - ١٢٣٨ - ١٢٣٩ - ١٢٤٠ - ١٢٤١ - ١٢٤٢ - ١٢٤٣ - ١٢٤٤ - ١٢٤٥ - ١٢٤٦ - ١٢٤٧ - ١٢٤٨ - ١٢٤٩ - ١٢٥٠ - ١٢٥١ - ١٢٥٢ - ١٢٥٣ - ١٢٥٤ - ١٢٥٥ - ١٢٥٦ - ١٢٥٧ - ١٢٥٨ - ١٢٥٩ - ١٢٦٠ - ١٢٦١ - ١٢٦٢ - ١٢٦٣ - ١٢٦٤ - ١٢٦٥ - ١٢٦٦ - ١٢٦٧ - ١٢٦٨ - ١٢٦٩ - ١٢٧٠ - ١٢٧١ - ١٢٧٢ - ١٢٧٣ - ١٢٧٤ - ١٢٧٥ - ١٢٧٦ - ١٢٧٧ - ١٢٧٨ - ١٢٧٩ - ١٢٨٠ - ١٢٨١ - ١٢٨٢ - ١٢٨٣ - ١٢٨٤ - ١٢٨٥ - ١٢٨٦ - ١٢٨٧ - ١٢٨٨ - ١٢٨٩ - ١٢٩٠ - ١٢٩١ - ١٢٩٢ - ١٢٩٣ - ١٢٩٤ - ١٢٩٥ - ١٢٩٦ - ١٢٩٧ - ١٢٩٨ - ١٢٩٩ - ١٣٠٠ - ١٣٠١ - ١٣٠٢ - ١٣٠٣ - ١٣٠٤ - ١٣٠٥ - ١٣٠٦ - ١٣٠٧ - ١٣٠٨ - ١٣٠٩ - ١٣١٠ - ١٣١١ - ١٣١٢ - ١٣١٣ - ١٣١٤ - ١٣١٥ - ١٣١٦ - ١٣١٧ - ١٣١٨ - ١٣١٩ - ١٣٢٠ - ١٣٢١ - ١٣٢٢ - ١٣٢٣ - ١٣٢٤ - ١٣٢٥ - ١٣٢٦ - ١٣٢٧ - ١٣٢٨ - ١٣٢٩ - ١٣٣٠ - ١٣٣١ - ١٣٣٢ - ١٣٣٣ - ١٣٣٤ - ١٣٣٥ - ١٣٣٦ - ١٣٣٧ - ١٣٣٨ - ١٣٣٩ - ١٣٤٠ - ١٣٤١ - ١٣٤٢ - ١٣٤٣ - ١٣٤٤ - ١٣٤٥ - ١٣٤٦ - ١٣٤٧ - ١٣٤٨ - ١٣٤٩ - ١٣٥٠ - ١٣٥١ - ١٣٥٢ - ١٣٥٣ - ١٣٥٤ - ١٣٥٥ - ١٣٥٦ - ١٣٥٧ - ١٣٥٨ - ١٣٥٩ - ١٣٦٠ - ١٣٦١ - ١٣٦٢ - ١٣٦٣ - ١٣٦٤ - ١٣٦٥ - ١٣٦٦ - ١٣٦٧ - ١٣٦٨ - ١٣٦٩ - ١٣٧٠ - ١٣٧١ - ١٣٧٢ - ١٣٧٣ - ١٣٧٤ - ١٣٧٥ - ١٣٧٦ - ١٣٧٧ - ١٣٧٨ - ١٣٧٩ - ١٣٨٠ - ١٣٨١ - ١٣٨٢ - ١٣٨٣ - ١٣٨٤ - ١٣٨٥ - ١٣٨٦ - ١٣٨٧ - ١٣٨٨ - ١٣٨٩ - ١٣٩٠ - ١٣٩١ - ١٣٩٢ - ١٣٩٣ - ١٣٩٤ - ١٣٩٥ - ١٣٩٦ - ١٣٩٧ - ١٣٩٨ - ١٣٩٩ - ١٤٠٠ - ١٤٠١ - ١٤٠٢ - ١٤٠٣ - ١٤٠٤ - ١٤٠٥ - ١٤٠٦ - ١٤٠٧ - ١٤٠٨ - ١٤٠٩ - ١٤١٠ - ١٤١١ - ١٤١٢ - ١٤١٣ - ١٤١٤ - ١٤١٥ - ١٤١٦ - ١٤١٧ - ١٤١٨ - ١٤١٩ - ١٤٢٠ - ١٤٢١ - ١٤٢٢ - ١٤٢٣ - ١٤٢٤ - ١٤٢٥ - ١٤٢٦ - ١٤٢٧ - ١٤٢٨ - ١٤٢٩ - ١٤٣٠ - ١٤٣١ - ١٤٣٢ - ١٤٣٣ - ١٤٣٤ - ١٤٣٥ - ١٤٣٦ - ١٤٣٧ - ١٤٣٨ - ١٤٣٩ - ١٤٤٠ - ١٤٤١ - ١٤٤٢ - ١٤٤٣ - ١٤٤٤ - ١٤٤٥ - ١٤٤٦ - ١٤٤

كان أيوب صادفاً حاداً في وصف متاعره ولكنه كان مخطئاً في شعوره بأن الرب تركه، فالحقيقة أن الرب لم يكن بعيداً عن أيوب، فليست كل الخسارات التي خسرها وكل الضيقات والمحس التي حلت به تصح أبداً أن تكون رهناً على تحية الله عنه أو عن أي إنسان!! كما أنه لا يصح أبداً أن تؤخذ خبرات والمعونات والعناية والحماية التي يتلقاها الإنسان من الله أنها دليل على رضى الله فيعتره سبب ومصنفاً للإيمان ولرجاء!!

إن الإصابات التي أصابت أيوب لم تنجح كلها في جمعته بتخلي عن كماله، ولكن بمجرد أن أحس إحساساً خاطئاً بأن الله نفسه خلى عنه ووافق صده، حتم تورط إيمانه، وهذا في الواقع تسكف عنه تجربة أيوب وعمقها وسرها لرهيب. فله أزد أن يعين للإنسان كنه من خلال تجربة أيوب أن الإيمان به يرم أن يحتمل كل حالات التحني معها بدت بحيلة وخطيرة ومؤلمة، بل ويلزم أن يرتفع الإيمان أيضاً فوق هذه التحليلات جميعاً فيتق الإنسان بوحود الله وبرحمته وعنايته بالرغم من كفة السدائد التي يجوزها.

إن هذا الصنف من خبرات الجحود الروحي هو أفسى أنواع التجارب ومة الاختبارات المظهرة للنفس كالموت داته، تلك التي لا يمكن أن يجوزها الإنسان إلا تحت عناية فائقة من المدير لأن في أثنائها تبلغ النفس إلى شتاء الموت حرناً وكمد كأيوب:

— «يا ليت طمسي تأتي ويعطيني الله رحائي أن يرضى الله بأن يسحني و يطوق يده فيمطمعني!! ما هي فوق حتى أنتظر وما هي هي حتى أضرب نفسي، هل فوق قوة الحجارة؟ هل لحمي نحاس؟ ... المساعدة مطرودة عني!! ... الليل يطول وأشبع فمماً حتى الصبح ... لا أبالي بنفسي رذلت حياتي ... قد كرهت نفسي حياتي ... أضمت الآن وأسلم الروح.» (أي: ٨: ٩ و ١١ - ١٣: ٧ و ٤: ٩ و ٢١: ١٠ و ١٣: ١٩)

ولكن في كل هذا لا يعدم الإنسان المحرب في هذه الساعات من أن ينظر رجاء في رحمة الله. لذلك لا يكف حتى وهو على حافة اليأس من أن يتطلع إلى الله و ينتظر خلاصاً عظيماً وعجيباً، فيقدر ما تشمل عليه التجربة بقدر ما تصفو نفسه وتكشف الرؤيا عن عظمة المدير وشدة حبه وأمانته لنفس البشرية، فتبدو الآلاء السابقة وكأنها فشور تتساقط من عين النفس، وحينئذ تبتدىء النفس تنبي إيمانها بالله لا على أساس خبرات لزمانية ولا على أساس الحماية والرعاية المنظورة ولا على أساس الأدلة للموسة والبراهين المعقولة، بل على أساس الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى!!:

— «لأنه يعرف صريقي، إذا حرجي أخرج كالذهب، بخطواته استمسكت رجلي، حفظت طريقته ولم أجد، من وصية شفاه لم أخرج... لا أنتظر شيئاً، فقط أركب طريق قدميه وهذا يعود إلى خلاصتي... أم أنا فعلمت أن وليي حي والآخر على الأرض يقوم، وبعد أن يُفنى جسدي هذا وبدون جسدي أرى الله — (هنا يظهر كيف استغل إيمان أيوب من الاعتماد على الأمور التي تُرى إلى الأمور التي لا تُرى) — أراه أنا لنفسي وعساي تنظرون وليس آخر... حتى هو به الذي برع حتى والمدير الذي أمر نفسي، أنه ما دامت نسمتي في ونفخة الله في أبي لن تنكس سفتاي إثماً ولا سقط لساني بغش... حتى أسلم الروح لا أعزل كمالي عني.» (اي ١٠: ٢٣ - ١٢: ١٣، ١٥: ١٦، ١٩: ٢٥ - ٢٧: ٢٧، ٢ - ٥)

وهكذا حتماً يركب في النهاية كل نفس أحبب المسيح، ومهم جارت في مرائر التجربة الروحية تغش تدرك نصيبها وتسير وهي ساحصة نحو المسيح بنظرة الجريح الذي يرحف على يديه، تناديه كحسنة مهجورة لا تترجح فقط عن ثقلها في حبسها الذي اشتراها بدمه.

نعم قد نحتق التفتة ولكن لا نصبح، قد ينوقف الإيمان ولكن لا يزول، وتعوض مشاعر الحب فلا توجد ولكنها تنحصر في الأعمى نشش في نهاية التجربة ندوة لا تفهر.

أقوال الآباء في الجفاف والفتور في الصلاة:

أولاً: لما راسحق السرياني:

في ضرورة التجارب الروحية التي يرافقها حتماً الجفاف والفتور في الصلاة:

١٠٠١ — لجليس بنا أيها الأحباء أن نتأمل في أنفسنا في وقت الصلاة إن كان لنا تصور بالقاط الزامير والهديد بالصلاة لأن هذا يحدث من السكون الحقيقي (الداحلي)، ولجديرنا أن لا نصق في الوقت الذي يحدث فيه ظلام للنفس ولا سيما متى لم يكن السبب منا.

واعلم أن ورود ذلك إنما يكون بسياسة من الله تعالى يعلمها الله وحده، في هذه الأوقات نحتق أنفسنا وتصير كأنها غارقة في النحة بلاطم الأمواج، وبصير الإنسان في ظلام منوط بظلام، يذهب صنف ويأتي صنف، إن قرأ في كتاب أو خدم أو مهمل بأسر وصنع، وفي غالب الأمر لا يملك الإنسان قدرة أن يدنو من قراءة أو خدمة أو عمل ما ... حتى أن الإنسان وهو في هذه الحالة لا يعود يؤمن الشئ أنه يمكن أن يتخلص من هذه الحالة، أو أن يعود له سلامه!

هذه الساعات مموءة من كل بأس وحواف، لا يوجد فيها ثقة بالله تعالى أو عراء الإيمان بل يكون هناك كل شك وتقشّم وجزع!

والذين امتحنوا بضعطة هذه لساعة هم وحدهم الذين يستطيعون أن يعرفوا كيف يمكن أن تتحول في النهاية وتتغير!

وإذا طالت هذه الحالة فليعلم الإنسان أنه سيحدث في النهاية تعير هام للحياة.

هذا الضرب من التجارب يُمشح به المؤثرون أن يتصرفوا حساً بسيرة تدبير الصلاة المشافون إلى عزاء الأمانة وبلوع كمال سيرتها، وبذلك تجلب عليهم هذه التجربة وجعاً وحزناً بسبب تقشّم الفكر، إذ يتبعها تجديف قوي حتى أنه يعرض للإنسان الشك في حقائق الإيمان كالقيامة وأشياء أخرى لا يليق وصفها هنا.

وقد تجرنا هذه كلها مراراً عديدة، والذي نعشا على تدوين هذا الجهاد هو تعزية السائرين في

الحياة الروحية، أما الدير لا يرالون في دور الأعمال الجسدية فإنهم لا يفقهون هذه الأمور. وعلى كل حال فإن هذا الجهاد لا يرول في ساعة ولا يذهب بسرعة، وكذا أيضاً النعمة لا تأتي بالكمال دفعة واحدة في نهاية التجربة وسكن في النفس بل فيلاً فيلاً إذ يعبر الإنسان في نهاية التجربة على وقت عراء ثم وقت صيفة ولا يرال الإنسان ملارماً هذا السعي، أن يحل أوان الخروج من لتجربة!

وسيدنا أن لا نتوقع التعرب من هذه الصعوبات بالكما طالما نحن عائشون بها ولا أن نتوقع أيضاً أن نتعرب بالكلية، فإن الله تعالى رأى أن يدبر حياتنا بهذه وتلك وأن يكون الساكن في الطريق الضيق مباشرين دائماً لهذين الأمرين.

مار إسحق (الجزء الثالث: الباب الثلاثون)

١٠٠٢ — إن الفضائل خلف بعضها لبعض، فمحب الفضيلة ليس مستثلاً ولا باهظاً والتثفيف بها يكاد يكون على نظام واحد، لذلك فهي تخف من هذا الوجه.

وكذلك صارت المصاعب من أجل الخير مستحبة كالحير ذاته.

وليس أحد يتمكن من احتمال المضائق والصبر عليها دون أن يؤمن أن الشيء المرحو هو أشرف من الراحة الجسمانية.

ذن كل من أعد نفسه بمصيلة ما فأول ما يتحرك فيه هو محبة المحنة المقابلة لها، وحينئذ يلم به فكر الرهد في وسايا (جمع فسة) العالم. وكل من اقترب من الحزن فإنه يتقوى بالأمانة أي بهيؤه لمباشرة لدخول فيه.

التجربة ليست أن يلاقي الإنسان الصعاب ويرصدها من غير أن يكون قد أدرك في دته عمنها، بل التجربة الحقيقية هي أن يحس الإنسان بمعنيتها ومضرتها إحساساً واقعياً بطول معاناته لها زماناً.

وكثيراً ما تكون لتجربة في لصاهر مؤذية وأما في الحقيقة فتكون ذات منفعة.

الذي له تجربة حقيقية في كل أمر تجده لا يحب ذاته لأنه يكون قد انعتق من لعوارض الجالة التعبد (للناس) فهو لا يخاف مذمة ولا يخشى وقية.

إذا وجدت في طريقك سلاماً دائماً لا يتغير، فخف لأن ذلك معناه أنك سائر بعيداً عن السبل المستقيمة التي وطأتها أقدام القديسين ذات التعب!

بحسب ما تسير في طريق الميكوت وتقترب من بلدة الله تعالى لتكن لك هذه العلامة: وهي أن التجرب تلم بك إلهاماً قوياً، وبقدر ما تتحج على ذلك الحد تتوفر عليك التجارب.

مضى أحسب في نفسك شعير بحسبته لا بية عبيت بقوه، علم أن نفسك على وجه التحقيق قد
فسدت في هذه الأوقات عيهم درجة روحية عالية، فلوأ حفيد، قد يكون ذلك علامة يُصد أن النعمة قد
ازدادت لك أكثر من الرتبة الأولى التي كنت قائماً فيها.

لأن ما حسب فليس مهملة لرحل نفس من صفت بحرب، أنت فقصده، بحرب تلك
لنحرب بحسبته التي يكون لإحدم برده أو لا مو، لأحرر مدهره، كم سعي أن لا تُفهم أنها تحارب
خصم، رحت الحسد، بل قصده بحسب روحية في نفس - نفوس الله عنه بسكوب.

لأنك ست نفس، صعبه، وسبب كفو مصدوم، تحارب العظيمة وتنتسب من الله حل اسمه أن
لا، حبه، وسمع مد هـ، وعنه عنه، وصدق أنه مقدار ما هي غير رهضة عمل لصيقات الصعبة
على هد حد هي نصا غير كفه، عطر عظيم سموهت وسعم، وكم مع عنها وفود الشدائد هائلة
هكذا تنعاق عنها الفوائد الجليلة.

لأن الله من سجد به وتعلم قد رأى بحسب حكمة أن يكون اسمه مقدار المحس، ولا تكون الموهبة
عظيمة إذا كانت التجربة هينة.

وإذا من الصعوبات، صوبت بحرصه ك سددر به عروحن تستطيع أن تدرك نفسك ما فسدته
من النعمة، والعزاء دائماً يكون على قياس الحزن.

فإذا سألت قائلاً: إذن ما الحال؟ أجبتك:

أولاً: أنت سحرية وبعد ذلك سموهت وسعم، ورم بقدر السعد أولاً ويعضها حدوث التجربة،
وسكن لا تمكن أن سحرية دون نفس نفس أولاً في دحبه ريدة (قوة من الله) على مرلها
لأمر، والساهد حقيقه هد تحربه برت، وكذلك نصاً تحارب لرسل لأنهم ما دخلوا إليها إلا بعد أن
قبلوا المعزّي أولاً!

ولأمر مسد السوء كان على هد مقدر أن سعمه تأتي قبل تحربه، إلا أنه يتحرم ولا بد أن يتقدم
لإحسد من ما حبه على لإحسد من سعمه حتى تحذر حرية الإنسان، (أي أن النعمة تُحيي دهم مع أنها
تكون مرفقة للإنسان حتى يوجه تحربه نفسه أولاً)، لأن النعمة لا تقدم إلى أحد التة (تُظهر
نفسه) إلا بعد أن يكون سحرية، والنعمة إذن تقدم في العقل وتبطيء في الحس!!

فحذروا أن تعمل في وهاب محنة أمر من مصددين لا بتشاهان وهم الفرح والخوف!!

أما الشرح فلأن شئ من مسوب على صديق نبي وصفها فهد محيي الكل وجميع القديسين بدين
الحنّة التي لا تصادف إلا السائرين!!

وأما الخوف فهو أن لا تكون تحريراً نسب العظمة!! لأن استجارت بمر بعضه عن بعض، فيها ما يأتي بحثاً لسيره وتربية نفس سموي الصلاح، ومنها ما يحث على تحببه تأدياً لبعضه نفس. وكفاية المحن الواقعة من جهة بعض الأنوية تحرك النفس على التصريح والصلاح لأن بعض النفس وتدريب وتزداد خبرتها.

ومن أمثلة التجارب التي يسوقها به على النفس المنيرة في صربين سرسي وبوهد في صلاح ورفع مقدرة تحككها بالأمر الروحية ونسبها لإثباته عروحي فوق كل شيء تكون به توصف كس (فتور روح)، نفس الحسنة (وقف عن الصلاة)، انقطاع الأمن، ضمه لأفكار، خصه أبدهن (النشيط المستمر)، صحر، نقصان المعاصده الإنسانية، غور لأسياء ضرورية، ومسيره ذلك.

من هذه التجارب نفس الإنسان بعد متوحده في دهرها (إلى تصد بمر أبه)، متصعة (عده لإعتماد على قدرها وبسطها)، وقد مرنا (فندال لإعتماد على مسرب ومسحوت الوافية).

وفي هذه التجارب، ينادى بعرض مع حزن، ومور مع انقلاب، وخرب مع عود، وعرض مع الفرح، وهذه تكون علامة المسير والنجاح في النهاية.

فأما تجارب الوعدة عن حصة أبه تعدى سب توقع نفس ويرفعها بصلاح، فهي تكون بإطلاق تجارب المشيطن وتكون بإحسان فوق حركات أرض، سرعة بعض، الإعداد والذات، تنفذ المسئلة، محبة العبد والكلام، الإلهار سدة، بدون أنشب، صلال، عقل، أفكار خفيف، صدف مسحقة ممسوة صحك، الإرداء بالنس، حيدر كرمه وأخر، محبة حنيفة وبصرف في م. م. هدر بكلام جهه، سقط في الأمور بسوب كاديه، مسير بعود فوق مسيره هذه هي تجارب لنفسانية.

أما استجارت التي تصب حسد وإنسان بعرض به عورص موبه وميرة لأعلال وحكمت مودد وتلازمه، وتصدوه سرور كثيره، ويمع في أيدي سرور عرويه، وسحر في مودد: وخوف من لا سبب وعدم القدرة على الاستناد على العناية الإلهية أو الثقة بالإيمان.

هذه هي تجارب بعظمه النفس التي تله الإنسان حين يسدى بعقد في ديه أنه حكيم وسب ودم ويتشخص بدي عيبه أنه كدث. وإنسان بدي تتحرك فيه هذه لأفكار ويشتبه بدحر في هذه الشرور حسب مقدار قوله لأفكار العظمة.

فإذا ابتدأ الإنسان يرفض هذه الصيغ والأحرار ولا يكون به صبر، رءه ولا نفس حتماً في تصاعف عيه! أما صر لإنسان فربين مصائبه، وأصبر قوة تتولد من سعة حسب، وهذه القوة غسب

يُحصل عليها الإنسان وهو في محته بدون توسط النعمة الإلهية التي يقبلها الإنسان من مواصلة الصلاة ولدموع والطلبة.

ومتى أراد الله أن يُحرر النفس كثيراً (لتصفيها) فإنه يسمح أن تدخل في صعر النفس، وهذا الأمر يُولد في الإنسان صجراً قوياً يدوق به الإحنناق البشري، وهذا هو دوق جهنم. ويأتي عليه روح الحسرة والاختناط (عدم اتزان التفكير) والعصب والإفتراء وعجة الدم (الانتقام)، والغلاب والآراء والأفكار، والتسفل من مكان لمكان... وإن سألت عن عنة هذا كله أجبتك أنه هو توبيك لأنك ما حرصت على التماس شفاء نفسك!!

وطئت هذه كلها واحد الذي به يمكن للإنسان أن يسترد عراء نفسه وهو توضع النفس، لدى بدونه لا يفلت الإنسان من هذه الشرور بل تتجبر عليه.

ولا نحمد عني في قولي الحق لك، لأنك لم تطلب شفاء نفسك. فإن أردت العودة إلى الحق فادهد إلى الله واستعاز كيف يُربل عنك الشرور، لأنه بمقدار اتصاعك بعمه عليك بالصبر في أخرنت، وبحسب احتمالك بحف عيت وفر شذائلك وتخطى بالعزاء، وبقياس العزاء تعظم محبتك لله (هنا يشير مار إسحق إلى عودة النفس لحالة الاتصال المتضع بالله بدون افجار الصلاح).

وأولاد الله متى أراد الله أن يرفعهم في تجاربهم فإنه لا يرفعهم عنهم ولا يُفصصها لهم بل يجود عليهم بالصبر قليلاً تكليلاً بنفوسهم، فيحطون بكل الحيراب بصبرهم على تجاربهم. ونحن نسأل المسيح إلهنا أن يؤنسنا بحوده بالصبر على الشرور بشكر قلب لأجل محته تعالى آمين.

مار إسحق (الجزء الثالث: الباب الحادي والعشرون)

١٠٠٣ - إن الله - نشارك اسمه - إنما يؤدب بمحة لا على جهة الانتقام، حاشا، إنما يطلب أن يشفي صورته.

١٠٠٤ - لا يظن أحد أن الإستمادة في خدمة الصلوات وبداوة لصمير والتسعم بسرور القلب والعراء الذي من الدموع والحديث مع الله تُحسب أموراً روحانية إلهية فقط، بل بالحق وبحسب رأيي أقول أنه حتى فكر التجديف والتجديف والباطل وحركات الراس السجدة التي تحدث للإنسان قهراً، وتأنم الإنسان بسببها ويوجد الإنسان معلوباً قدامها ويصبر ويجتهد وما يخرج من قلايته (الخروج من القلاية كدية عن جهد الإنسان لبجهد وترك اعسك بالله وحده)، حتى وهذه كلها تُحسب له دبيعة نقية وعملاً إلهياً، ما خلا العظمة فقط (ها إشارة إلى تخارب الفتور الروحي بكل وصوح).

١٠٠٥ - بمقدار ما ينهون الإنسان بهذا العالم ويجتهد في خوف الله تدوم له العناية الإلهية. وبحسب عطافرها بحسب لطيفاً داخلي، وتُعطي له علامات تريد من فهمه. وحتى ولو دخل الإنسان في تجربته

فقدان الخيرات العالمية كرهاً من غير إرادته فبمقدار ما يُعَدُّ منها تتبعه رحمة الله و ينتشله جوده.

١٠٠٦ — الذين يقصرون في تثفيف نفوسهم وفي افتناء الحياة الأبدية بمحض إرادتهم وعزمهم فإنه بالأحزان التي من غير إرادتهم تُقَوِّمُ نفوسهم بالفضيلة!

١٠٠٧ — أما إذا احتنى عليك حب المسيح والإشتياق إليه وألقت بك الأحرار وأنحسب بامصالك عنه، فاعلم أن العالم لا يزال حياً فيك أكثر من المسيح!

١٠٠٨ — أما إذا كان المرص ولعور وهلاك الجسم والخوف من لأشياء المؤذية يزعج فكرك ويحركك عن بهجة أملك ورجائك و يصرفك عن الهذيل بالله والثمة فيه، فاعلم أن جسدك حي فيك وليس المسيح.

١٠٠٩ — أما إذا كنت غير معتار لشيء وكل ما تحتاجه عندك، وجسدك صحيح، وليس لك أصداد، وتقول حينئذ أنك تسير نحو المسيح سيراً طاهراً، فاعلم أنك مريض العقل وعادم لذوق أنجاد الله تعالى، وليس قولي هذا لك على سبيل الديبوة لك بل لكي تعلم فقط مقدار ما عدمته من الكمال (القديس مار إسحق يشير هنا إلى أن التجارب الروحية علامة على صحة المسير).

مار إسحق (أقوال متفرقة)

ثانياً: للشيخ الروحاني: في أن تجارب الجفاف والفتور بالنسبة للمحتفين هي من عمل النعمة:

١٠١٠ — فإذا ثبت يا أخي داخل الباب واحتمت الشدة حتى الموت، حينئذ فالروح القدس يعطيك ما تطلبه ربتك ... والملائكة تهديك إلى الميناء.

و يكون متى يحولك تكميل هذه الفصائل: الصوم المرتب، الطعام الحميم، السهر المضىء، القراءة الحارة، انصاع القلب، دموع الوجع، صوات وسجدة دائمة، فاعلم أن ذلك ليس فقط عمل النعمة بل وأيضاً طياشة الأفكار وضعف الأعضاء من التجربة التي تديرها عليك النعمة التي قد تقطع وتطل كل فضائلك!

يا إحوه لا يكون إسان بسبب عدم صبره يجذف في زمان صعوبة تجاربه و يتذمر، بل لي طرح همه على المهتم بحياته و يقول له: «يا رجائي ومتكلي، مثل مشيئتك دبر حياتي، حو هو المر الذي تريده أنت أفضل من الشهد الذي أريده أنا».

لأنه في وقت التجربة يطق شيطان الربا في النفس كلاماً وأفكاراً صعبة، و يذئ شهوتها الفاصدة بشهوة الكلاب...، كثيرة هي حيل هذا الشيطان أكثر من جميع الشياطين الجسة، فهو يثير الأعضاء و يعصر القلب و يحرق النفس بظلمة حالكة و يحرمها من كل عراء و يرددها من الصلاة و يزمير

وكملت له الرؤيا، بعد أن تابعت عليه سعايات ومصائب وضيقات تعينت لتنقيته!! أما هو فتجدد واحتتملها جميعها!!

فما وجده الله عنداً مُبِياً ومضوياً في كل شيء صبره منكاً على مصر وعال عشيرته وكملت له النبوة والرؤى حسب إرادة الله بعد زمن طويل وتدابير متنوعة.

كذلك حال داود أيضاً، إذ عيه الله ليكون منكاً على يد صموئيل النبي، ولكنه بعد أن مُسِّح هرب من شاول الذي طرده ليعتاله. فأين كتب المسحة في هذا الوقت؟ وأين الوعد الذي قصد به أن يتممه فيه؟ لأنه بعد أن مُسِّح، حل به كرب عظيم وصار تائهاً في القمار محروماً حتى من خبز وهدياً مستجذاً إلى الأمم لغريبة بسبب ما أصمره شاول ضده، فهما نرى أن الإنسان الذي مسحه الله ليكون ملكاً أُلِّمَّت به هذه المصائب الشديدة، وأحيراً بعد تعاقب الأزمنة بعد أن مُتَّجِن وتضايق وتحرب وصبر طويلاً مؤمناً بالله مرة واحدة وثقاً من العاية التي وعد بها وثوقاً كاملاً، تمت له مشيئة الله بعد طول ناء وبعد بلايا كثيرة وتمثت داود حقاً كوعده الله! ... وحينئذ ظهرت قوة كلمة الله وتبرهنت صدق المسحة التي مسحه بها الله جهاراً ... وكذلك موسى وإبراهيم وإسحق وغيرهم ...

وقد استخرجنا هذه سرائر من الكتب المقدسة لكي نوضح بلا نزاع أن قوة نعمة الله في الإنسان وموهبة الروح القدس لكي تُحسب النفس أُمِيَّة لصبوها يلزم أن يتبعها جهد عظيم وصبر كثير وطول مدة مع تحرب وبلايا مُتَّجِن بها الإرادة ليظهر صدقها بكل أصناف لشدة الملائمة، فإذا توافقت الإرادة مع الروح القدس ولم تحربه في شيء من الوصايا تُحسب في النهاية أهلاً لأن تُفَكَّ من شدائدتها وتنبأ من أن تنبي بالروح في أسر مع الغنى الروحي والحكمة التي ليست من هذا العالم، وهذه جميعها يشترك فيها المسيحيون الحقيقيون!!

أبا مكاريوس الكبير (العظة التاسعة)

١٠١٢ — إن النفوس التي تحب الله بالحق، وتشهى أن تلبس المسيح بسبب كثرة إيمانها ورجائها لا تحتاج إلى تدكير من الناس فهي لا تكون حالية من محبة الرب بسهولة إلهية، ولو أنها تصبح أحياناً في حالة فراغ (الجفاف الروحي). ولكن بسبب أنها تكون قد تستقرت بكلية في صليب المسيح فإنها تستشعر يوماً فيوماً، بإحساس احتشاش، تقدُّمها الروحاني نحو العريس السماوي.

أبا مكاريوس الكبير (العظة العاشرة)

١٠١٣ — ولكن ما كُتِبَ عن أيوب أن الشيطان طلب أن يحربه ليس هو بدون عية، لأنه بدون إذن مخصوص ما كان يقدر الشيطان أن يفعل شيئاً من ذاته ... فلأن أيوب نال العون الإلهي واستعد بعقله واحتتمى بالنعمة طبعه الشيطان وثلاً للرب: إنما هو يخدمك لكونك تساعده وتعييه، ولكن كُفَّ الآن وسُتَمَّه بـ وهو في وجهك يتشمت! ... هكذا لم يكن بد من أن النعمة التي كانت تتعري بها

النفس تمتنع وتسلم النفس إلى التجارب، فيأتي الشيطان ويحلب عليها شروراً لا نهاية لها نحو اليأس والكفر والأفكار الخبيثة ويعذب النفس لكي ينقلها إلى سلطانه ويضلها عن الرجاء بالله. وأما النفس الحكيمة فإنها تظل في وسط المصائب والتشدائد قائمة ولا تيأس أبداً بل تثبت فيما تعنت به وتتحمل كل ما يحل بها من التجارب التي لا تُحصى فائلاً على الدوام: ولومت فلا أطقه!!

فإن صير الإنسان إلى المستهى فحينئذ يغطي الحجل وجه الشيطان ولا يعود يرد لله جواباً، وهكذا يحرى الشيطان من الذين يحتملون البلايا والتجارب.

وحرب الشيطان لا تبطل أبداً ما دام الإنسان على قيد الحياة...، ولكن المسيحيين إذ حاربهم العدو ففهم المسيح ملحاً يتقدمون منه القوة والسلام من العلاء ولن يبالوا بالحرب... فإن ثارت الحرب من الخارج (أي الجسد) فهم مكتسبون بالروح القدس ومحضون في الداخل (أي في الروح) بقوة الرب... لأن المسيحيين ممهون في الداخل بالطبيعة الإلهية ولا يؤذون، وكل من أدرك هذه الدرجات (في المعرفة) فإنه يلع إلى محبة المسيح الكاملة وملء اللاهوت، وأما من لم يبنغ إلى هذا (اليقين) فلا تبرح الحرب من دخله فتجده تارة يهنا بالصلاة وأخرى في حال شدة وحرب لأن هكذا هي إرادة الرب.

ومن حيث أن النفس تكون كالطفل لذلك يدرها (الرب) بالحرب: بالنور والظلمة والراحة والشدة، ساعة صلاة وهدوء وساعة قلق عظيم.

وثورة الحرب عليك ليس هذا معناه أنه بسبب ذنب فيك، ولكن عليك أن تنفض أعمال العدو.

فإذا رأى الرب عصفك ودفاعك على قدر جهدك ومحبتك له بكل روحك، فحينئذ يبطل الموت من نفسك في ساعة و يأخذك إلى حضنه ويدخلك نوره، وفي لحظة يحطك من الظلمة وتُقل إلى مكوته، لأن الله يطلب من الإنسان الاجتهاد بسبب اتحاد النفس مع الطبيعة الإلهية.

أبا مكاروريوس الكبير (العظة السادسة والعشرون)

رابعاً: لأبا أنطونيوس الكبير:

١٠١٤ — إعلموا يا أولادي الأحباء بالرب أن الروح القدس أزل سرمد ينفوح رائحة زكية لا توصف بلسان، كما قيل، ولا يعرف لذة الروح وحلاوته إلا الذين استحقوا أن يحل فيهم، وهذا معلوم أن كثيرين لم يستحقوه لا شيء إلا لأنه روح التوبة، وهو لا يسكن في نفوس التائين إلا بعد أتعاب كثيرة جداً، فإذا سكن فيها يحل فيها السلام، وهو لا يسكن في نفس متكبرة بل في نفوس المتواضعين الذين أفكارهم كلها تكون قد انحصرت في الكمال، وهؤلاء يرسلون شكراً عظيماً وتمجيحاً متوصلاً للرب ولسانهم لا يكف: «مبارك الرب الذي علمني».

ولكن التجارب لا تأتي بقوة إلا على الذين قبلوا الروح القدس، لأن بمجرد قبولهم الروح تأتي عليهم التجارب من الشيطان، ولكن الروح القدس هو الذي يطلقه عليهم لأن العدو ليس له سلطان أن يغضب أحداً من المؤمنين إلا إذا أعطي ذلك من جهة الروح القدس، والرب يسوع المسيح نفسه لما أخذ ما يختص بنا (الجسد) صار مثلاً لنا لكي نعمنا كل حين أن نعرف الحق، فإنه لما اعتمد حل الروح القدس عليه وفي الحال افتاده الروح القدس إلى البرية ليُجرب من إبليس، ولكن إبليس لم يقو عليه، ولما أكمل كل التجارب مضى عنه إلى حين ورجع يسوع إلى الجليل بقوة الروح (حيث تجربة المسيح الثانية كانت هي التخلية والصليب).

وهكذا كل الذين ينالون الروح القدس يسحهم قوة عظيمة بزيادة ويرفعهم (إلى درجات في الروح أعلى) ويحفظهم من كل الأشياء.

فيا أولادي الأحباء أما كنت أشبه أن تكونوا بقرني لتعرفوا تجربتي الأخيرة التي تشبه تجربة رب يسوع المسيح الأخيرة (أي التخلية الإلهية والآلام والموت والنزول إلى الجحيم). لأن المسيح لما أكمل تدبيره وعرف انتصاليه قال: يا أبتاه إن كان يُستطاع أن تعبر عني هذه الكأس (تجربة التخلية بكل درجاتها) ولكن ليس كإرادتي بل كإرادتك، وكان ذلك بصلوات وطلبات، ليس خوفاً أو خوفاً أو عجزاً، بل مثلاً لنا في كل شيء لتعليمنا كما كانت تجربته الأولى.

فالتجربة التي أنت عليّ أخيراً يا أولادي كادت توصلني إلى الجحيم (تخلية وياس) لأن أعداء الخير أرادوا أن يلهوني بكثرة تحييدهم، لهذا كان تعبى وجهادي وضيقى واضطرابي ... ولكنه لم يتخلّ عني (إلى النهاية) بل عضدني وحلصني من ظلمة الأعداء وردني إلى درجتي الأولى ...

وتجربتي الأخيرة تشبه تجربة يوسف الأخيرة، لأن يوسف الطوباني جُرب أولاً بتجارب كثيرة (بغضة إخوته، إلقاءه في البئر، بيعه كعبد، مراودة امرأة رئيسه). ولكنه لم يضطرب في هذه كلها، ولكن في الآخر لما أُلقي في السجن الذي هو شبه الجحيم (وطال به الزمن) اضطرب لهذه التجربة الأخيرة، (لأنه أحس بتخلية الله وهي أمرٌ من كافة التجارب).

ولكن الله نتحنه لما رأى حسن جهاده أعطاه كرامة جزيلة وصيَّره مشيراً لمرعوى ولم يرجع يوسف يتجرب بعد ذلك أصلاً!

فحقاً يا أولادي المحبوبين أنا لا أخفي عنكم مقدار ما كنت فيه من التجربة ولكن سيدي حلصني منها. وحقاً إن الذي يشترك مع المسيح في الهوان فهو يشترك معه في المجد؛ وكل من يشترك في الأتعاب والشتائم والتعير والهوان يتمجد، والإيمان الصالح يرث أتعاب آباءه كما يرث بركاتهم!!
أبا أنطونيوس الكبير (الرسالة التاسعة عشرة)

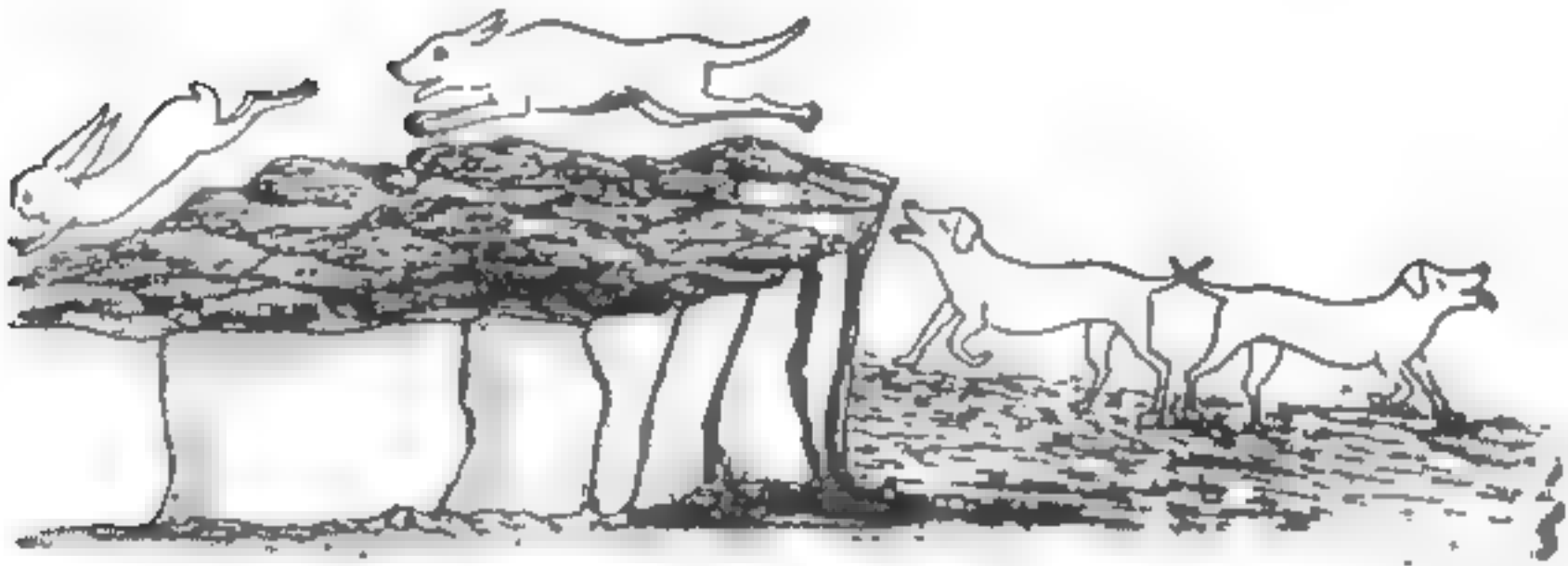
١٠١٥ — وأنا أرىكم عملاً حريشاً معكم من البداية إلى النهاية: وهو أن محب لإسك الله من كل نفسه ومن كل قلبه ومن كل سمه ويعتد له، فبعد ذلك يعطيه الله قوة عظيمه وفرحاً وخبو به جمع أعمال الله ونحفت عبيد كل تعب حسد أنصا وهندد لإلهيب واسهر، وكل من يصر حفيد عبيد وحبوا. ولكن لأحد محبة به يسر نفس عبيد أساء مصادة هذه سراب حتى لا تتعصم لإسك من شت محبة فيرداد نوه، وإثاء ذلك تصيد شعب، فعوض نود يكون نص وضعف، وعوض شرح حر، وعوض أرحمة وهدوء نص، وعوض خلاوة مررة، وكثير من هذه يصيب محب لله!

وسكنه نخهاده ينفوى، وإذا غيب فإن روح الله يكون معدي كل شيء ويعويه فلا يعود جاف من شيء البتة.

أبا أنطونيوس الكبير (الرسالة الثامنة عشرة)

الفصل الثالث

ضياع الهدف



+ «مالك تحدّث بفرائضي وتحمل عهدي على فك؛
وأنت قد أبغصت التأديب وألقيت كلامي خلفك!»
(مز: ١٦: ٥٠ و ١٧)

توقف الصلاة بسبب توقف الدوافع الصحيحة أو بسبب ضياع الهدف الحقيقي :

الصلاة عمل روحي ، وكل عمل روحي تحركه دوافع وتزكّيه أهداف .

لذلك يلزمنا دائماً فحص صحة الأسباب التي تدعونا للصلاة والتأكد من حقيفة الهدف أو الغاية التي نسعى وراءها بالصلاة .

فالدافع الصحيح للصلاة يضمن بقاء الصلاة .

والهدف الحقيقي من الصلاة يجعلها حارة ثم يجدد نشاطها ويزكيها في قلب الإنسان .

فإذا سألتني : « ما هو الدافع الصحيح الذي يدفعك للصلاة ؟ » ، أستطيع أن أقول لك : هو أمر الله ووصيته المتكررة لنا لكي نصلي : « صلّوا ... ينبغي أن يُصلّى كل حين ولا يُملَ ... إسهروا وصلّوا . » (مت ٦ : ٦ و ٩ ؛ لوقا ١٨ : ١ ؛ مت ٢٦ : ٤١)

فوصية الله هي التي تدفعني بقوة للصلاة ؛ وطالما أنا متمسك بالوصية من كل قلبي وبأمانة ومخافة نحو الله ، فأنا سأصلي باستمرار لأن في الوصية قوة دافعة خفية من النعمة .

وإذا سألتني : « ما هي الغاية أو الهدف الذي تصلي من أجله لكي تناله بالصلاة ؟ » أستطيع أن أقول لك إنه رغبتى الشديدة في أن أعيش في حضرة الله باستمرار ، أو هو تقديم نفسي ذبيحة محبة لله ، أو لأنني أشتهي أن أحيأ معه في حياة تسليم كلي واتضاع ، أو لأنني أسعى أن أطرح نفسي أمامه باستمرار لكي أخلص من سلطان الخطيئة برحمته . وطالما أنا واضح هذا الهدف أو ذاك نصب عيني كما تزكّيه النعمة في قلبي ، فإن حرارة الصلاة تدوم وتتجدد كل حين ؛ لأن الهدف الذي أضعه أمامي والذي أشتهيه وأسعى نحوه ، يجعل الصلاة أمراً محبوباً ووسيلة مقدسة لبلوغ قصد الله .

لذلك فالاعتماد على الدوافع وحدها بدون وضوح الغاية في قلب الإنسان ، يجعل الصلاة بدون حرارة ، ولا يجد الإنسان غير كافية على الإنسكاب الحقيقي أثناءها .

كما أن الإكتفاء بهدف معين للصلاة بدون وجود الدوافع الصحيحة لا يكفي لإستمرار

الصلاة، لأن الأهداف تتغير وربما تتوقف على الطريق حيث تكون الدوافع هي المحرك الوحيد للصلاة وربما إلى فترة طويلة. فعندما يتوقف هدي من الصلاة، يكفي أن أؤديها، لأنها أمر إلهي.

ولكن قد تدخل في الصلاة دوافع وأهداف غير صحيحة دون أن ينتبه الإنسان، وذلك بسبب الجهل بالحقائق الروحية، أو بسبب شهوة الذات البشرية للتمجيد والتعظيم بالروحانيات، أو بسبب ميل النفس إلى العالم أكثر من ميلها إلى الله وعطفها على الجسد أكثر من تمسكها بالرجولة الروحية.

فربما يكون الدافع للصلاة نوال خيرات زمنية للتمتع بها، وهنا تصبح الدوافع أرضية غير روحية.

أو يكون الدافع للصلاة هو النجاح في مشاريع وأعمال ومواقف وذلك ليتمجد الإنسان في العالم، وهنا تصبح الدوافع نفسانية عالمية وليست إلهية روحية.

أو قد يكون الدافع للصلاة التخلص من الأعداء وذلك بروح النعمة والحقد والعداوة ورغبة الانتقام، وهنا تصبح الدوافع شريرة شيطانية وليست لمجد الله.

وهذه الدوافع المنحرفة كقيلة أن تلهب الإنسان بالحرارة والغيرة الكاذبة في الصلاة لدرجة الصوم والدموع والإنسحاق، ولكن هذه كلها دوافع كاذبة تغذيها عوامل نفعية ذاتية. فالرغم من استمرار الصلاة وحرارتها، فالصلاة ليست صحيحة أو مستقيمة الرأي حسب مشيئة الله.

لذلك فالدوافع المنحرفة الغاشة لا تُبطل (أي توقف) الصلاة ولكن تجعلها باطلة.

أي أن توقف الدوافع يبطل الصلاة بعد حين، حتى ولو كانت الأهداف صحيحة.

أما دخول دوافع غاشة فإنه لا يُبطل الصلاة، ولكن يجعلها باطلة.

ولكي يكون الطريق واضحاً أمام الإنسان نحاول هنا أن نجمع كل الدوافع الصحيحة، التي ينص عليها الإنجيل أي التي حسب مشيئة الله:

أولاً: نحن نصلي لأن الصلاة وصية وأمر إلهي واجب الطاعة بدون فحص وبدون مناقشة وبدون تسويق.

ثانياً: نحن نصلي لأن الصلاة هي الصلة الوحيدة التي بواسطتها يدخل الإنسان في حضرة الله، وبدونها يستحيل أن يتصل لإنسان بالله. فبدون الصلاة نفقد صلتنا الروحية بالله وتموت نفسنا فينا، موتاً روحياً.

ثالثاً: نحن نصلي لأن الصلاة جعلها الله فرصة لنا لنحتمي فيه، وبذلك نتقي الوقوع في التجارب الشيطانية. فإذا حدث أن وقعنا فيها، نختتمها ونتعجب عليها فتصير تركية لنا بدل ديمونة: «إسهرُوا وصلُّوا لكي لا تدخلوا في تجربة.» (مت ٢٦: ٤١)

رابعاً: نحن نصلي لأن لصلاة جعلها الله الفرصة الوحيدة لسمع فيها طلباتنا ويضربها برحمته إلیّا: «لا تهتمو بشيء من في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعني طلباتكم لدى الله.» (في ٤: ٦)

خامساً: نحن نصلي لأن الصلاة هي الوسيلة السرية لتقديم المساعدة والمعونة الروحية لأي إنسان آحر في ضيقة أو خطر أو مرض أو ضلال: «صنوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشفوا.» (يع ٥: ١٦)

سادساً: نحن نصلي لأن الصلاة هي خدمة الشكر وحمد الله وخدمة لشكر حتمية على لعمد وعلى الإبرس سوء بسواء: «إن كنتُ أنا فأين كرمتي وإن كنتُ سيداً فأين هيبتني؟» (ملا ١: ٦)

سابعاً: نحن نصلي لأن الصلاة عمل مفروض عين تجاه الأعداء الذين ياصبونا العداء والإساءة.

ولكن من هذه الدوافع السبعة الإلهية هناك ملحدت أساسية لا يمكن تجاهلها: فالدافع الأول: كون الصلاة أمراً إلهياً، يتحتم أن يرافقها طاعة لروح الوصية، عنيدة لا تعرف التسويف.

والدافع الثاني: كون الصلاة هي الصلة الوحيدة التي تربطنا بالله، يتحتم أن يرافقها خوف واهتمام فوق كل اهتمام آخر لئلا تنقطع هذه الصلة.

والدافع الثالث: كون الصلاة إتياء للتجارب وفوة للتغلب عليها، يتحتم أن يرافقها سهر دائم ويقظة.

والدافع الرابع: كون الصلاة واسطة لتقديم طلباتنا لله، يتحتم أن يرافقها توسل منسحق حتى يرفعنا في زمن الإفتقاد.

والدافع الخامس: كون الصلاة وسيلة لمساعدة الآخرين، يتحتم أن يرافقها تحنن وبذل.

والدافع السادس: كون الصلاة خدمة إلهية لله، كسيد وأب، يتحتم أن يرافقها وقوف وسجود وخشية وتكريم لائق.

والدافع السابع: كون الصلاة كسراً لحدة العداوة، يتحتم أن يرافقها غفران وصفح وصفاء قلب بنقاوة ضمير.

ولكن هذه المفاعيل السرية الداخلية هي، في حقيقتها، صفات متعددة لقوة واحدة هي قوة النعمة التي تحمل في السب وتوجهه لتكميل وصايا الله. فالإنسان بمجرد أن يفتح قلبه لها بكل نيته واشتياقه، تنسكب فيه بلا كيل.

وعلى العموم نجد في هذه السبعة الاتجاهات التي يقدمها الإنجيل بصفاتها الدوافع الصحيحة للصلاة، أنه يتشدد في كونها رصية وأمرأ ليس لنا أن نقبل واحداً منها ونرفض الآخر؛ بل يتحتم علينا أن نتمسك بجميعها لتكون مصدراً دائماً نستمد منه القوة على الإستمرار في الصلاة.

فإذا كانت هذه الدوافع راسخة في قلب الإنسان وإيمانه، فهي تصبح قوة إلهية لتغلب على كافة العوائق التي تعترض حياة الإنسان وتهدد بتوقف الصلاة.

وعلى سبيل المثال نقول إنه إذا واجهت الإنسان مطالب دنيوية ضرورية أو مواقف خطيرة، فهي كفيلة أن توقف صلاته لأنها تبتلع حياة الإنسان وتشغل باله وفكره وتمتص كل طاقته. وهنا الإنجيل يتدخل بحكمته الروحية ويقول: «لا تهتموا بشيء، بل في كل شيء بالصلاة... لتعلم طلباتكم لدى الله» (ي ٤: ٦)، وبذلك نجح الإنجيل في تحويل العائق الأساسي للصلاة إلى دافع قوي للصلاة!!

ولكن لاحظ هنا أن الصلاة من أجل هذه المطالب — الهامة والضرورية والخطرة — ليست غاية للصلاة بل دافعاً للصلاة. فأنا، طاعةً لأمر الإنجيل ومشورته الروحية الحكيمة، أصلي من أجل هذه المطالب الهامة لا لكي ينفذ لي الله ما أريده ولكن لتعلم

هذه الأمور لدى الله وهو ينفذ منها ما يريد.

أما إذا خرجت الصلاة عن حدود الدوافع المأمورها من الله وهي ها: «لَتُعَلِّمَ طلباتكم لدى الله»، ودخلت في مجال الغاية الشخصية أي أن يصلي الإنسان لكي يحصل على ما يشتهي وما يراه لا ثفا لنفسه؛ فحينئذ تخرج الصلاة عن صفها كعمل إلهي أو وصية وبالتالي تفقد قوتها ومفعولها.

وعلى سبيل امتثال أيضاً نقول: إذا قام ضد الإنسان أعداء ظالمون وساءوا إلى الإنسان وأهانوه، فالمعروف أن الإنسان إذا استسلم إلى عرائزه وأفكاره وعواطفه فإنه حتماً سيضطرب ويفقد هدوءه وسلامه وراحته، وهذه كلها كفيّة أن توقف صلاة الإنسان بل وتطرّحه في خطايا قلبية وفكرية شبيعة. وهذا يتدخل المسيح بحكمته الإلهية قائلاً: «باركوا لأعدائكم، أحسبوا من مبغضيك، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم.» (مت ٥: ٤٤)

وبذلك يحول الإنسان عوائق الصلاة إلى دوافع للصلاة، فبمجرد أن يبدأ الإنسان أن يصلي ويغفر لأعدائه لكي يرحمهم الله ويُحسِن إليهم ويغفر لهم، تتفوى صلاته جداً ويسمو فوق هذه العواطف ويستمر في صلاته بدون عائق.

وهنا يقدم لنا المسيح حدود هذه الصلاة التي من أجل الأعداء قائلاً: «لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات.» (مت ٥: ٤٥)

وهنا ينقلنا المسيح من مستوى الوقوف قبالة الأعداء إلى الوقوف قبالة الله، ويغير مجال انحصار النفس من محيط الأفكار الشريرة والبغضة والحقد والإحساس بالانتقام إلى محيط السلام والهدوء في حضن الله بالرغم من كل الإساءات والمظالم التي تكون قد وقعت علينا أو التي لا يكفُّ الأعداء عن إيذائنا بها!

إذن، فالهدف الذي وضعه المسيح للصلاة من أجل الأعداء ينحصر في نقل الإنسان من جو الأعداء والعداوة الزائل إلى جو حضرة الله وسلامه الأبدي.

فإذا نظرنا نحن بجهالة إلى لصلاة من أجل الأعداء أنها كفيّة أن نصبرنا عليهم وتوقفنا أمامهم كغالبين، فهذا يشكل تجربة خطيرة للنفس مع الله. إذ يجوز أن الله يسمح بأن يستمر ظلمهم لنا وإساءتهم إلينا، فلا يبلغ الإنسان من صلاته هذه الغاية التي وضعها للصلاة

وهي انتصاره على الأعداء!! وحينئذ تنهار نفسه وتبطل صلاته؛ وذلك لأن الصلاة تكون قد خرجت من حدود دوافعها الإلهية الصحيحة والتي هي هنا: «لكي تكونوا أبناء أبيكم»، إلى غاية شخصية يضعها الإنسان من نفسه للصلاة وهي دحر أعدائه وانتصاره عليهم.

وفي هذه الحالة تكون الصلاة قد خرجت عن طبيعتها كعمل إلهي محدود بدوافع إلهية، وهكذا تصبح الصلاة بدون قوة وبدون مفعول، وبالتالي تتعثر، وأخيراً تتوقف.

إذن، ولكي يضمن الإنسان أن تبقى صلاته مستمرة وتبلغ إلى أقصى قوتها ومفعولها، ينبغي أن يلتزم بحدود الدوافع الصحيحة للصلاة ولا يتحول بها إلى غايات يضعها لنفسه.

الغاية الصحيحة:

ولكي يكون الطريق واضحاً أمام الإنسان نحاول هنا أن نوضح الغاية الحقيقية للصلاة التي هي حسب مشيئة الله:

لقد جعل الله هدفاً هائلاً لحياة الإنسان الروحية تتجمع فيه وتنتهي إليه كل الوصايا الإلهية وهو: حياة الشركة مع الله إلى الأبد التي تبدأ منذ اللحظة التي يقبل فيها الإنسان سر الإيمان بالمسيح المادي والمخلص، ويُحْتَم بختم الروح القدس. هذه الشركة تنمو وتتقوى من يوم إلى يوم بواسطة الصلاة التي فيها يُعلن للإنسان ماذا ينبغي أن يعمل حتى تكمل شركته مع الله.

ولكن هذه الغاية النهائية، التي تُحسب هدفاً حقيقياً إلهياً للصلاة بل ولكافة الأعمال الروحية على وجه العموم، قد لا تكشف مرة واحدة لقلب الإنسان الساعي في طريق الخلاص، بل تكتفي النعمة بكشف جزء صغير من هذا الهدف حتى لا يرتبك الإنسان في سعيه وجهاده. فمن عادة النعمة أن تتدرج مع الإنسان السائر في الطريق فتكشف له أهدافاً تتناسب مع قدرته وتناسب جهاده أولاً بأول، فبقدر ما يتقدم في حياته الروحية تظهر له درجات أعلى تناسب تقدمه حتى لا يتعرقل مسيره.

فع أن الهدف النهائي من حياة الصلاة والعبادة واحد وهو حياة الشركة مع الله، أي الاتحاد في حياة أبدية معه، إلا أن النعمة تجزئ هذا الهدف إلى درجات كثيرة.

وأول درجة تكشفها النعمة للإنسان المبتدئ في حياة توبته لتكون هدفاً مناسباً له، هي الإشتياق لحياة التخلص من رباطات الخطيئة وعاداتها وأفكارها وآثارها المترسبة في

الفكر والفكر، حيث نجح السعة كل شهوة الإنسان وكل آماله وتفكيره وجهاده يترك في انصرار خلاصه من عبوديه خطية وسنطايها، وحينئذ لا تفارقه صورة خطاياها وهفواته فتتهبه وتحرك فيه باوجع على ما فات، وتخلص صلاته كرامتة لا تحمد ليل والنهار، ولا يهدأ عن تقديم السوسس والدموع كي يحزن رنظ خطيه: كمن تمده السعة بقدرة على فحص وتفتيش ضميره حتى يستأصل كل جذور الخطية الدفينة وأسبابها.

وفي وقت معين، وحين تستكمل السعة مع الإنسان غسسه وتطهيره من الداخل، تبطل عنه حراره الفحص والتفتيش عن الخطايا تمهيدا لعمه إلى درجة أعلى من الصلاة تتناسب مع حاله الجديد. وفي لحظة الإنسان في هذه المرحلة، وحين أن السعة حلت به سبب بطفاء حراره السكء على اخطايا وعدم قدرته على الاستمرار في تذكر هفواته وتقديم أعمال التوبة المناسبة كالأول؛ ولكن الحقيقة هي أن هدف الصلاة قد انتقل من أمامه، بدون رادته، من درجة الفحص عن الخطايا إلى درجة أعلى تناسب مع نفسه في حالها الجديدة، وحينئذ دون أن يشعر الإنسان يرى هدفًا جديدًا مصورًا في نفسه ودهه قد بدأ يشع حرره جديدة وينتهي الصلاة لتحويل إليه بكل قوتها، هذا الهدف هو شهوة إيكار لدت ولا تصاع ورفض ظهور أو تمجيد الناس، وهذا يكون بمثابة بدء الدرجة الثانية من الهدف الحقيقي للصلاة.

وسمى طريفة ولأسوب، بداخل الإنسان أينما على تحريكات السعة للضمير وعبادتها النفس فإنه يسدى يتنفس من درجه إلى درجه كما يقول الكتاب: «من مجد إلى مجد كم من لرب لروح» (٢ كو ٣: ١٨)، حتى يبلغ هاية كل سعي وكل صلاة الذي هو الحياة الوثيقة المتحدة بالله.

ودرجات السعة هي يتدرج فيها هدف الصلاة مع بداية لتخص من سبطان الخطية حتى هاية حياة السركة الكاملة مع الله، كثيرة ويصعب إحصاءها للأرقام ولتحديدات كم أن تدرجها يختلف من واحد لآخر، فلوأحد يُعطى الصليب عمرته في بدء حياته، ولآخر يُعطى الصليب في آخر حياته، وواحد يُعطى فرح لعشرة مع الله منذ أول خطوة، ولآخر يسحب عنه هذا الفرح كثيرا. وليس في مقدور الإنسان، مهما بلغ من الدالة والقداسة، أن يقدم خطوة على خطوة في هذا السعي المملوء أسراراً.

وكس، على سبيل المثال وليس الحصر، عُرفت درجة السعة التي يتدرج فيها المختارون

كهدف لصلواتهم حتى بلغوا منتهى الغاية كالآتي:

أولاً: الشوق إلى الخلاص من رُبُط الخطايا بدموع وندم: «إغسلني فأبيض أكثر من الثلج.» (مز ٥١: ٧)

ثانياً: الشوق إلى إنكار الذات والإتضاع والإبتعاد عن مواقف الأضواء والكرامة: «أنا فدودة لا إنسان، عارٌّ عند البشر.» (مز ٢٢: ٦)

ثالثاً: الشوق إلى تسليم الحياة كلها لله واستخلي عن كل مشيئة الذات مرة واحدة.

رابعاً: الشوق إلى نفاوة القلب والبساطة الطفولية والإعتماد الفعلي على مشيئة الله فقط.

خامساً: الشوق إلى الدخول في أعماق سر محبة الله الذي يتم الإتحاد بدون سعي أو إرادة.

ولكن النعمة تظل حرة تتنقل بالإنسان كما تريد هي وليس كما يريد الإنسان، فقد ترفعه إلى درجات لا يستحلفها وقد تحفصه إلى درجات لا يتظرها. وكثيراً ما تمسك النعمة بيد الإنسان وتتمشى معه بين هذه الأهداف جميعاً فيحس ذلك الإنسان كأنه يتمشى في الجنة فيمتلئ بهجة وعز و سروراً، ويظن أنه بلغ النهاية، ولكن في لحظة تعود به النعمة إلى درجته التي يعيش فيها، تضبطه حرارتها وتحذه مطالبها حتى يكمل حقوقها.

وقد ركز جميع الآباء على جعل نفاوة القلب كهدف ينبغي أن يكون أمام الإنسان في كل وقت وخاصة وقت الصلاة. فنقرأ عن ضرورة نفاوة القلب كهدف حيوي أساسي لدى الآباء العظام الأوائل واحداً بعد واحد بدون استثناء، وقد أفاض في شرح ضرورة هذا الهدف كل من أتا موسى المعاصر لأنبيا أنطونيوس، وأثا إسحق تلميذ أثا أنطونيوس موضحين أنها استلما هذا التدبير لروحي عن الآباء السابقين.

ولكن في هذه الدرجات جميعها من أولها إلى آخرها تنهب النعمة قلب الإنسان بصورة مبسطة، ولكن كاملة، لهدف الحقيقي من الحياة والصلاة، وهي إحساس حار وشوق شديد لتسليم نفس ذبيحة لله بحالتها كما هي سواء كانت في درجتها الخطيئة الأولى أو في درجتها العليا الأخيرة. هذا الإحساس عام ومشترك في جميع درجات النعمة التي يتدرج فيها الإنسان نحو هدف حياته وصلاته، مما يثبت فعلاً أن الإنسان مدعو لبلوغ الغاية الأخيرة التي هي الإتحاد بالله.

و يُعتبر هذا الإحساس العام المشترك في كافة الدرجات، أي شوق الإنسان في تقديم نفسه ذبيحة محبة الله، برهاناً على أن السعي مقدس والصلاة هي في وضعها الإلهي المناسب.

ووجود هدف للصلاة أمر ذو أهمية قصوى، لأنه بدون هدف حقيقي يصعب أن يكون للصلاة حرارة وقوة، خصوصاً إذا علمنا أن الهدف يتناسب مع درجة الإنسان الروحية، وأن الحرارة المتولدة من شوق النفس نحو بلوغ الهدف الذي تكشفه النعمة لها هو الذي يرفع النفس و يعبرها من درجة إلى درجة.

كذلك، فإن إحساس الإنسان بارتباطه بهدف روحي يشاق إليه و يتقدم فيه قليلاً قليلاً بموازرة النعمة يُنشئ في قلب الإنسان «الفرح الروحي». ومعروف أن الفرح الروحي يشد أزر النفس المبتدئة و يزكي الصلاة في عين الإنسان، فالفرح ينمي النفس، كما يقول القديس أنطونيوس:

[هكذا النفس إذا لم تقبل الفرح السماي لا يمكنها أن تنمو وتصعد إلى العلاء، وأما النفوس التي قبلت الفرح السماي فهي التي تستطيع أن تنمو إلى العلاء.] (١)

فإذا فقد الإنسان هدف الحياة الروحية التي يعيشها أمام الله وتوارى عن عينيه قصد صلاته وغايتها، كان ذلك إشارة خطيرة أن الصلاة مهددة بالإنحصار في حيز ضيق داخل اهتمامات النفس، ومآلها إلى الضمور وعدم التقدم أو النمو، هذا إذا بقيت الدوافع سليمة. ولكن الحاصل فعلاً أن توقف النفس عن التطلع إلى هدف حي حقيقي للصلاة كفيل أن يتسحب بعد مدة، طالت أو قصرت، على كل الحياة الروحية و يتسبب في توقف الدوافع التي تدفع الإنسان في الصلاة.

ومن هذا يتبين أن الدوافع الصحيحة للصلاة مرتبطة في النهاية بالغاية الحية الحقيقية التي تكشفها النعمة للنفس لتكون مصدر حرارة لجهادها في الصلاة، فبمجرد توقف الغاية تؤثر تأثيراً شديداً على الدوافع أيضاً وفي النهاية تبطلها حتماً.

وللتدليس على هذه الحقيقة نقدم هذا المثل الذي ورد في كتابات الآباء: (الأرب والكلاب):

(١) الرسالة الثالثة عشر.

[سُئل القديس هيلاريون (رئيس رهبنة فلسطين) عن تعليل رجوع بعض الإخوة إلى العالم بعد أن يكونوا قد ساروا في الحياة الرهبانية، وكيف يتحاشى الإنسان المحاهد التأثير بهم؟ فقال: «إنه يليق بنا أن نأخذ مثلاً لذلك من كلاب الصيد التي تطلق وراء الأرناب البرية، فإنه يحدث أن أحد الكلاب يحفظ أرنباً بعيداً فينطلق وراءه، وإذا ترى الكلاب الأخرى التي معه أنه يجري فإنها تنطلق تجري معه - دون أن تكون قد رأت الأرنب - فتظل تجري معه ولكن إلى فترة ما، وحينما يصيبها التعب والإحهاد فإنها تتوقف وتعود، بينما الكلب الذي يرى الأرنب يظل يتابعه بمفرده لا يعوقه التعب والجهد عن تكميل مشوره الطويل، فيستमित في تقدمه لا يعطي نفسه راحة ولا يتعطل بسبب الكلاب الأخرى التي تحلّت وراءه، بل يظل يجري حتى يفور بما كان يراه غير عابئ لا بالعثرات التي تصادفه في طريقه سواء كانت حجارة أو أشواكاً ولا بالجروح التي تصيبه. هكذا الإنسان الذي يتبع وراء محبة المسيح ينبغي عليه أن يثبت نظره على الصليب حتى يمور بالذي صُلب عليه، حتى ولورأى الكل قد تحنّو ورجعوا إلى الورا.] (٢)

في هذا المثل تظهر بوضوح قيمة الدوافع وقيمة الأهداف!

فالكلب الأول كان الدافع له على الجري وراء الأرنب البري جوعه وغريزته في الإفتراس وحب الجري والمتابعة، أما هدفه فكان الأرنب الحي وهو يجري أمامه فيُجسّم في مخيلته أكلة لذيدة غاية اللذة. وهنا نجد الهدف يشد أزر الغريزة ويحبذه الجوع، فيكاد ريقه لا يجف بطول الجري من لذة تصوّر لحم الأرنب وهو في فمه. لذلك نجد سرعته ظلت تتزايد بالرغم من الجهد والإعياء والجروح والعثرات.

أما الكلاب الأخرى فنجد أن جربها كان بتأثير الدوافع الغريزية فقط وهي حب الجري والمتابعة، وفي حالتها نجد اختفاء الهدف تماماً، فهي لم تر الأرنب لذلك ظلت مستمرة في جربها وظل تباطؤها يزداد بقدر تعبها وجهدها إلى اللحظة التي تغلب فيها الجهد والتعب على الدافع فأبطله وحينئذ توقفت نهائياً!

في هذا المثل الواقعي نرى كيف أن الهدف يستطيع أن يحفظ الدافع على أقصى درجته وقوته، كما نرى تآزر الهدف مع الدافع لركوب المصاعب والمشقات والتغلب على الصعاب بدرجة هائلة تفوق القدرة العادية في الظروف العادية. فوجود هدف حي مفرح ومناسب وفي نطاق الإمكانيات الموعود بها من الله مع إضافة المعونة المقدّمة من النعمة للإنسان المجتهد كفيّة أن تخلق في الإنسان قدرات إضافية وطاقات جديدة على الدوام تجعله قادراً أن يتغلب

(2) Apoph. Patr. B. II, No. 211.

على كافة الصعاب والعراقيل ، و يستهي بالحسائر والأتعاب بلا حدود .

كم يتيسر لنا أيضاً ما ينتج عن فقدان رؤية الهدف وكف يفت في عضد الإنسان فيحصل الجهد والتعب فوق احتمال النفس ، ويد يوقعها في حالة نؤس ومن تنهي بأن يبلغ الإنسان درجة اليأس و يتوقف ؛ مع أن المدرب البشرية و لطاقة و الإمكانيات و كافة الظروف واحدة ، والذي فرق بين من نجح في جهده ومن فشل هو رؤية هدف من عدم رؤيته .

وقد يحدث أن تفتح حياة الإنسان الروحية أهداف موروثة من صنع الذب البشرية ، و يرتبط بها الإنسان بسب ما تخفيه من شغف ذاتي ومسرة كاذبة ، وتكون مشابة تماماً للأهداف الحقيقية من حيث قدرتها على بعث الحرارة في الصلاة والجهاد .

و يصعب في البداية التمييز بين إنسان يصلي لغاية حقيقية حسب مسرة الله ومن تدبير سعمة ، وبين إنسان يصلي لغاية مزورة حسب مسرة الذات البشرية ومن صنع النفس . ولكن بعد مدة تبدأ المفارقة تطهر ، وبمضي الزمن يزداد الفارق وفي النهاية تبحث عن المجاهد الذي كان يصلي ويحاهد من أجل غايات ذاتية مزورة فلا تجده ، لأن الغاية الغاشة التي تضعها لذات من نفسها لجهاد كفية إما أن تُستفد بسرعة فلا يعود لها طعم ولا قيمة ، وإما تكون سروراً كاذباً غير موجود بالمرّة ؛ وفي كذا الحالتين يد توجه النفس هذه الحقيقة تنزوي وتخرج عن دائرة الجهاد والصلاة .

والأهداف الغاشة للصلاة التي تُستفد بسرعة هي مثل أن يصلي الإنسان وهدفه أن يُمتدح و يُكرّم و يُعظّم في عيون الناس ، فهذه بعد أن يصل إليها الإنسان ويمتليء بلذنها يكتشف أنها كانت به كالعسل المخلوط بالسّم ، ففدوما تنذرها تسّم .

والأهداف السعيدة الكاذبة للصلاة هي مثل أن يصلي الإنسان لبصير فديساً وصانع معجزات ، فهذه يظل الإنسان يجري في الصلاة ويحاهد من أجلها بكل جهاد ، ثم يكتشف في النهاية أنها أهداف غير موجودة ، و فدوما يظن أنه اقترب منها يحد أنها قد ابتعدت عنه !

وعلى العموم فإن الأهداف الغاشة المزورة للصلاة تقع تحت ثلاثة أبواب :

الأول : أن يصلي الإنسان ليتمجد في عين الناس .

الثاني : أن يصلي ليتزكى في عين الله .

الثالث: أن يصلي ليتبرر في عيني نفسه.

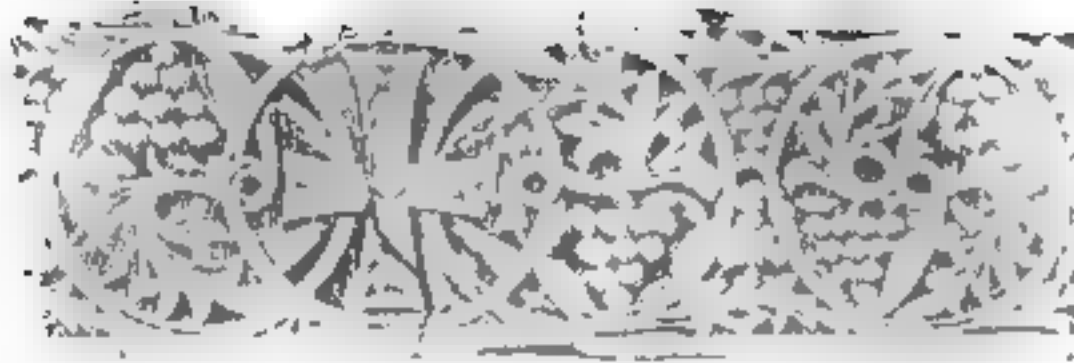
ولكي يؤمن الإنسان طريقه وصلاته، عليه دائماً أن يفحص الهدف الذي يسعى نحوه ويشتت في مصدر الحرارة ولعيرة التي تمتزج بصلاته لئلا يكون قد انحرف وراء أحد الأهداف المريضة المصلية. ومن السهل جداً أن يكتشف الإنسان مقدار انحرافه لو راحع الهدف الذي يسجد نحوه باشتياق قلبه على الأهداف الخفية التي ذكرها والتي هي بحسب مشيئة نعمته.

واحادث أنه بمجرد أن ينحرف الإنسان وراء إحدى هذه الأهداف المضنة تبتدىء الصلاة تفقد تركيزها وتصير بلا معنى ولا قيمة ولا قوة، ولا يتبقى منها إلا شكلها الذي يدور فيه الإنسان غاية جهده حتى يحصل على هدفه الكاذب. وتظل هذه الصلاة المزيفة مرتبطة بهدفها المزيف تستمد منه دوامها وشكلها وحرارتها المصطنعة، وبقدر ربح الإنسان من هدفه الذاتي بقدر ما تدوم صلاته وتتقوى بل وتكون لذينة ومفرحة عند نفسه لأنها تتحول إلى صنعة مريحة، أما أجرها السماوي فيكون دون أجر أية صنعة شريفة أخرى، لأن كل صنعة تثمر بمقدار رأس مالها الذي يدفعه الإنسان من جيبه أو عافيته فيكون الربح حلالاً عليه، أما صنعة الصلاة المزيفة فرأس مالها مسروق من الله وريحها بدل أن يعود إلى الله يسلبه الإنسان لنفسه.

ولكن قد يكون الإنسان الذي فقد هدفه الحقيقي وسار وراء هدف فرعي عاش، غير منتبه إلى الخديعة التي وقع فيها وهذا عليه أن يدرك ذلك من مستوى قوة صلاته ومقدار مثابرتة فيها، لأنه حتماً سيفقد حرارته ومسرتة وتصير صلاته عملاً على نفسه سواء كانت صلواته الخاصة أو الجماعية، إذ يشعر أنها ضياح لنوقت إذ لا يستثمر منها أي فائدة بل على العكس فصلاته الخاصة تزيد تشتتاً وثقلًا ومللاً، وصلاته الجماعية تزيد ديونة لوقوفه والمصير والصلاة، فيحرج منها غارفاً في الخطيئة معتبراً أن ضعف الآخرين وسوء تصرفاتهم هو لسبب، مع أن السر الحقيقي هو أن نفسه فائدة لروح الصلاة وغير مرتبطة بهدف يشدها ويركزها في الله.

وهكذا يتضح لنا أن عدم ارتباط الإنسان بهدف حقيقي حسب مشيئة الله وتدبير لعمه كفيل أن يُفسد الصلاة ويُفقد حرارتها، وفي النهاية يجعلها ثقلًا على النفس لا تحتمله وتتمنى لو تتخلص منه: كالتلميذ الكسول الذي يفقد هدفه من الدراسة والتعليم فتصح

العموم في نظره ثقيبة وفافدة لكل معنى وقيمة ولا تساوي الجهد المفروض أن يبذله من أجل تعلمها .



أقوال الآباء في أهداف الصلاة ودوافعها:

أولاً: حديث أنا موسى (١)، الذي كان بإقليم تريا (شمال إقليم القلاي وشييت) مع كاسيان عن قيمة الهدف في حياة الراهب:

١٠١٦ — كل الممنون وكل العلوم لها هدف، أو حد، ولها غاية أو غرض في ذاتها. وكل طالب يجهد لمن من الممنون يضع عينه على هذه الغاية ويحتمل من أجلها كل أنواع المشقات والمخاطر والخسارات بسرور وهناء.

فالفلاح مثلاً لا يستعني من حرارة الشمس اللافتة ولا من الصقيع والبرد، تارة يعرف أرضه بلا ملل وأخرى يشقها بسكة المحراث مراراً وتكراراً، واضعاً نصب عينيه الهدف الذي يسعى نحوه، وهدفه أن يملك تربة الأرض ويستأصل منها الجذور الضارة والحشائش الغريبة، ويجهد في سبيل ذلك، إذ يعتقد أنه ما من سبيل آخر مماه يبلغ به غايته التي ينشدها سوى ذلك. وهو يشد أن يوفر لنفسه حصداً جيداً ومحصولاً وفيراً ليعيش عليه بلا هم أو لينمي أملاكه.

ثم أنه بينما يكون عمره ميسراً، يجده لا يتورع مرة أخرى عن أن يستنزف كل ما فيه بهمة وحزم، مستودعاً ما عنده من ابدور إلى حفر الأرض غير مُبالٍ بما يحسه من القصر المفاجيء في مخازنه في الحاضر في نظير ما يؤمله من المحصول في المستقبل.

وأيضاً نجد الذين ينعكفون على التجارة لا يحشون الحار في ثفتها ومخاطرها ويستهيون بالأخطار عامة، لأن الأمل الملح يستحثهم إلى الأمام دائماً من أجل الربح.

وبالمثل الذين تتحرق أشواقهم للحياة العسكرية، يجدهم حينما يتطعمون إلى الشرف والقوة ويجعون ذلك غرضاً لهم لا يبالون بالخطر المحدق ولا بالهلاك أثناء حولاتهم، بل و لحروب والخسارات أيضاً لا تستطيع أن تحطم هممتهم، وذلك في سبيل حصولهم في النهاية على الشرف والكرامة.

(١) وهو غير أنا موسى لأسود الذي كان قاطعاً بحوار دير البراموس سرية شييت. ومن حديثه ثاني في الفصل الثاني يتضح أنه كان معاصراً لأب أنطونيوس في باكورة شبابه.

هكذا تماماً في طغمتنا نحن معشر الرهبان إذ لنا هدف أو غاية، ومن أجل الهدف والغاية نمارس كل صوف الجهاد دون الإحساس بالعباء والمشقة بل نؤديها في مسرة حقيقية، مما يجعل حاجتنا إلى الطعام أثناء الصوم ليست شاقة عيباً كأنها محنة أو تجربة، وتُعاب السهر الطويل تصير لنا مسرة، كذلك القراءة والتأمل المستمر في الأسفار الإلهية لا يوهاننا، ولا العمل المتواصل ولا إكثار الذات ولا عوز كل شيء ولا حتى رعب الصحراء يفرغنا.

وهذا بلا شك هو أيضاً ما جعلكم تستهينون محبة الأهل وموطن آبائكم ومسرات الدنيا وتعبرون البلاد كلها حتى تجيئوا إلينا، نحن معشر البسطاء السُّدَّح، الذين نعيش كما ترون هذه الحياة المسكينة الخفيفة في هذا القفر (لكلام موخه إلى كاسيان وزميله جرمانوس).

ثم استدرك القديس كلامه سائلاً: أجيئوني وأحروني ما الهدف وما الغاية التي استحثتكم هكذا لتحتملوا كل هذا بفرح؟

١٠١٧ — ولكن يلزم أن تعرفوا أولاً ماذا يجب أن يكون هدفنا القريب الآن، أو ما هي الحدود التي إذ يلتزم بها على الدوام تبلغ غايتنا النهائية.

أول ما يجب عمله في أي علم أو فن، كما سبق وقلت، هو أن يكون لمتقدم هدف أو خطة معينة في العقل وغرض يستمر في الفكر نحوها، لأنه إن لم يحتفظ الإنسان بهذا أمامه بكل اجتهاد وتصميم فهو لن ينجح في الوصول إلى الغاية أو إلى المكسب الذي يشتهي.

فالفلاح الذي جعل غرضه أن يحيا بلا هم وفي سعة، عندما تنمو محاصيله، فإنه يجعل غايته وهدفه في الحاضر أن يحتفظ بحقله نظيفاً من الحشائش الصارة، وهو لا يمكنه أن يضم الغنى والحياة الهادئة ولا يحلم بذلك إذا لم يتوفر أولاً على العمل والأمل معاً ليحقق ما يتلهف على الحصول عليه.

كذلك ورجل الأعمال أيضاً لا يمكنه أن يهمل في تحصيل السلع التي عن طريقها يزداد غناه، وهو إذا لم يَحْتَرَّ لطريق الموصل إلى الغنى ويلتزم به يكون كمن يشتهي ربحاً ولا من وسيلة إلى ذلك.

والذين يتحرقون لحمل المؤهلات التي تمنحهم الشرف والكرامة في هذا العالم تجدهم يتدبرون أولاً كيف يكرسون أنفسهم لإضطرار الواجب ولما يُشترط — لنيل هذه الأهداف — حتى يكون حصولهم على الكرامات المشتهاة يجري في مجرى الأمل الطبيعي.

هكذا نحن، فغاية طريقنا في الحياة هو ملكوت الله بالحقيقة، ولكن ما هو لهدف الحاضر الذي يلزم أن نطلبه أولاً باجتهاد؟ لأننا إذا لم نكتشفه فإننا سجاهد ونُشقي أنفسنا بدون نتيجة، فالمسافر إذا ضلَّ الطريق فإنه يجمع لعمسه الشقاء كله ولن يحصل على رجاء رحلته الحسن!

ثم يقول كاسيان: فلما وقفا مندهشين عند هذه الملاحظة المثبتة! ... استطرد الشيخ القديس: — إن غاية عمل طعمتنا في الحقيقة هو ملكوت الله أو ملكوت السموات، كما قلت، أما هدوا في الحاضر فهو نقاوة القلب، الذي بدونه لا يمكن لإنسان أن يبلغ الغاية. فإذا تثبتت نظراً على هذا الهدف باستقامة كما تثبتت العين على علامة محددة أمامها، عينا بعد ذلك أن نسير نحو الهدف مباشرة على قدر إمكاننا. فإذا طاشت أفكارنا وضلت بعيداً عن الهدف، عينا أن نعود لنتمتع بنظرنا بدقة ونفحصها على الهدف كمقياس الغاية، فهذا يستطيع أن يرد كل مجهود مرة أخرى نحو هذا الهدف الواحد. وبذلك يظهر في الحال إن كان عقدا قد مال وصل عن الاتجاه المحدد له، وسينكشف الميل مهما كان ضئيلاً!

١٠١٨ — الذين تستدعي مهنتهم أن يحملوا أسلحة الحرب عندما يستعرضون مهارتهم في فهم أمام ملكهم، يتبارون في إطلاق سهامهم أو رماحهم نحو مرمى صغير معين وتكون الجوائز مرسومة أمامهم. ولعمهم أنه ليس من طريق آخر ليضموا الغاية ويحصلوا على الجائزة، تجدهم يلتزمون بخط المرمى لأنهم لن يهاؤا بالجائزة التي يترجونها إلا إذا استطاعوا أن يصيبوا المرمى المصوب أمامهم.

فإذا حدث أن رُفع المرمى من أمامهم، فهما كانت مهارتهم فإن خط الهدف سينحرف كيفما يكون عن لطريق المستقيم، وهم لا يكتشفون أنهم ضلوا عن الاتجاه المعين لأنه ليس أمامهم مرمى محدد حتى يُظهروا فيه حذق نظرهم أو ينكشف لهم عدم حذقها، وهكذا بينما يطلقون سهامهم جزافاً في الهواء لا يستطيعون أن يدركوا كم أخطأوا بل ولا يعرفون إن كانوا قد ضلوا نهائياً إذ ليس هدف يحكم عليهم!

هكذا، فالنهاية التي وضعناها أمامنا هي، كما يقول الرسول، الحياة الأبدية: «فلکم ثمرکم للقداسة، والنهاية حياة أبدية» (رو ٦: ٢٢). أما هدف الحاضر فهو نقاوة القلب التي يدعوها بحق «قداسة»، التي بدونها لا يمكن بلوغ النهاية التي ذكرت. وكأنما الرسول يريد أن يقول بمعنى آخر إنه وإن كان هدفكم في الحاضر هو نقاوة القلب إلا أن النهاية هي الحياة الأبدية.



ثانياً: تعليم للقديس كاسيان نفسه، مما تعلمه عن الشيوخ في مصر عن أن التدرج في الهدف من مخافة الله إلى محبته أمر حيوي في الحياة الروحية:

١٠١٩ — بداية الخلاص وضمان الحصول عليه هو، كما سبق أن قلت، في الحصول على «مخافة الله»، لأنه بواسطة مخافة الله يستطيع السائرون في طريق الكمال (المسيحي) أن يحصلوا على بداية أولى للتحويل الداخلي وللتطهير من الشرور والثبات في طريق الفضيلة.

فإذا وجد قلب الإنسان طريقه فعلاً إلى مخافة الله، فإنه يحدث أن يتبدى الإنسان بأن يزدري بأمور العالم، ويسحر من رباط الأهل، وتدخله رغبة من جهة سلطان العالم (على النفس). وعندما

يستهن الإنسان بفقدان كل شيء في العالم يسكه الإفضاع. أما الإفضاع فتكشف عنه هذه الأمور:

- (١) تبتدىء شهوات الإنسان تتمد وتموت.
 - (٢) لا يستطيع الإنسان أن يُخفي عملاً أو فكرياً ما عن مرشده.
 - (٣) لا يضع في نفسه أن يثق برأيه قط، بل يعود دائماً إلى حكم مرشده و يصغي باشتياق وحرية وعزم لتوجيهاته.
 - (٤) يكون مستعداً في كل شيء بالطاعة ولطف وصبر مستمر.
 - (٥) لا يسيء إلى أحد ولا ينزعج أو يتنمر إذا أساء أحد إليه.
 - (٦) لا يعمل شيئاً ولا يجارف بشيء لم يكن قد أعطي له بأمر عام وبحسب تقيد الشيوخ.
 - (٧) يفتع دائماً بالصيب الأصغر مُعتبراً نفسه «العد البطل» وغير مستحق لأي شيء يُمنح له.
 - (٨) أن لا يكتفي باعتراف شعته أنه أقل الجميع ولكن يكون له ذلك عقيدة وإيماناً قلياً.
 - (٩) يضبط لسانه ولا يتكلم بأكثر مما يُطلب منه.
 - (١٠) أن لا يسهل دفعه للضحك ولا يكون مستعداً لذلك.
- فهذه العلامات يدرك الإنسان افضاع نفسه.

فإذا حصل الإنسان على هذه فإنها ترفعه إلى درجة أعلى وهي «المحبة» التي لا تعرف الخوف، التي بها يسهل على الإنسان بدون جهد أن يكمل هذه الأعمال كلها، ليس بعد بناء عن خوف أو عقوبة، بل بدافع المحبة والمسرة النابعة من الفضيلة.

وباختصار وبكمات قليلة، إسمع الآن كيف يتسق الإنسان إلى مرتفعات الكمال (المسيحي) بدون صعوبة:

- + فبداية الخلاص والحكمة حسب الكتاب المقدس هي «مخافة الله».
- + ومن مخافة الله تنبع المسرة بالحزن والندم المملوء سلاماً.
- + ومن الندم ينبع حب التجرد والزهد.
- + ومن التجرد والزهد ينبع حب الإفضاع.
- + ومن الإفضاع تموت الشهوات.
- + وبالإماتة تُقتل المعائر والخطايا.
- + وباقتلاع المعائر والخطايا ينبت بُزْعم الفضيلة وينمو.
- + وببزوغ عِرق الفضيلة في النفس تحل نقاوة القلب.
- + ونقاوة القلب توصل إلى المحبة الرسولية وهي الكمال.

كاسيان (الكتاب الخامس: الفصل ٣٩ و ٤٣)

ثالثاً: من تعاليم أبا مكاروريوس الكبير:

(أ) وفيه يجمع أبا مكاروريوس بين ضرورة الدوافع وضرورة الأهداف التي نضعها نصب عيوننا، كما بيّن ضرورة تقديم النفس كلها ذبيحة لله حتى يبع الإنسان الاتحاد بروح الله:

١٠٢٠ — لم يُسمع قط أن أي إنسان يستطيع أن «يقني نفسه» و «يقني» «روح المحبة» السماوي، بدون أن يبتعد (يقبضه) عن جميع الأشياء المختصة بهذا العالم، و يبدل نفسه في طلب حب المسيح، وينحلّ عن نفسه من الهموم الهولية والقيود الأرضية، ليكون دائماً مشغولاً بذلك المرام (لهدف) الذي وضعه قدام عينيه، و يدبر أموره بالوصايا كلها؛ على أن يكون همه كله وسعيه وجهده وشغل نفسه للحصول على جوهر عقده نقياً وتزيينه بقواعد كل فضيلة وبالروح السماوي وشركة نقاوة لمسيح وقداسته.

فيجعل إهتمام عقده كله و يُقصر إعتناؤه وتنهمه على طلب نقاوة جوهر النفس العقلي و ينتظر رجاء و «مل كُنِّي مجيء الروح القدس عليه حسبما قال الرب: «بصبركم افتنوا أنفسكم» (لو ٢١: ١٩)؛ «أطبو أولاً ملكوت الله و مرّه وهذه كلها تُزاد لكم.» (مت ٦: ٣٣)

ومن الممكن للإنسان الذي يجتهد هذا الاجتهاد ويحرس نفسه بالصلاة والطاعة، أن ينجو من ظلام العالم (الشياطين)، لأن العقل الذي لا يهمل تفتيش نفسه و يطلب الرب، يستطيع أن يقني نفسه؛ خصوصاً إذا كان بضمير صالح يقيد ذاته للرب متمسكاً بقوله: «مُستأسرين كل فكري إلى طاعة المسيح» (٢ كو ١٠: ٥)، لأن بهذا يُحسب العقل أهلاً أن يكون مع الرب روحاً واحداً، وهذه عطية لمسيح ونعمته للنفس.

وإيه شيء مقبول، إن كانت النفس تُخصّص ذاتها كلها للرب وتتمسك به وحده وتسير في وصاياه بدون نسيان وتُعطي روح المسيح حقه من الإكرام، لأنها بذلك تُحسب أهلاً أن تصير معه روحاً واحداً وتركيباً واحداً كما نصّ على ذلك الرسول قائلًا: «من التصق بالرب صار معه روحاً واحداً.» (١ كو ٦: ١٧)

أما إذا سلّم أحد نفسه لهموم هذا العالم وأمجاده — (ها تريف الأهداف) — و بدأ يطلب كراماته والسيادة على الآخرين و يسعى وراءها؛ أو إذا تهاون الإنسان في أفكاره، فبدأت ترحب بخليطة الأفكار الأرضية وتشويشها، أو بدأ يرتبط بشيء من هذا العالم وتقيّد به، ثم بعد ذلك أراد أن يطلق و يفرّ من ظلمة هذه الشهوات والأهواء الخبيثة، يجد أنه لا يستطيع لأنه يكون قد ارتبط معها.

فسبيبتنا أن نهيب نفساً للمجيء إلى الرب بعزم ثابت وإرادة لا تحل، وأن نتبع المسيح من كل

القلب، حتى يمكننا أن نعرف ونعمل مشيئة ونهتم بجميع وصاياه، ونُجسِّد أنفسنا بحمة العالم، حتى تهتدي أرواحنا إلى المسيح وحده ونحصر فكرنا فيه؛ معتنين أن نفتش عقلنا باعتناء دائماً حتى لا يبتعد العقل أبداً عن حب الرب وطلبه باشتياق، حتى إذا سعينا هكذا بضمير مستقيم مهتمين بأنفسنا كل حين، حينئذ نال موعد روحه القدوس ونُمدى بالنعمة من تسلط الأهواء المُفَسِّدة ونصبح أهلاً للملكوت السمائي، فُحسب مستحقين لنسُقم بالخلود مع المسيح ونمجد لآب والإبن والروح القدس إلى الأبد آمين.

أبا مكاروريوس الكبير (العظة التاسعة)

(ب) وفي موضع آخر يوضح القديس مكاروريوس الكبر أهمية الهدف وشدة فاعليته وسلطانه على النفس:

١٠٢١ — إن النفوس التي تحب الله بالحق و يكون رجاؤها وإيمانها في المسيح أن تشتبي أن تبسه كسبياً، لا تحتاج إلى تذكير الغير (أي لا تحتاج إلى دوافع خارجية عنها) لأنها لا تحو أبداً من شهوة ومحبة إلهية للرب، ولو أنها تدخل أحياناً في حارة فراع (جفاف روحي)، ولكن من حيث أنها تكون مسخرة كلياً في صليب المسيح، فإنها تستشعر يوماً فيوماً بحس إحتراري، تعلمها الروحاني نحو العريس السمائي.

ولأنها تكون محروقة بشهوة سمائية وجائعة لمر الفضائل، فإنه يكون لها شوق عظيم إلى الروح القدس لا يخذل كي يُضيء عليها.

ولو أنها تُحسب بإيمانها أهلاً لقبول الأسرار الإلهية وتصير شريكة في بهجة النعمة السمائية، لكنها مع ذلك لا يكون لها ثقة بجمالها أو اعتماد على ذاتها. بل بقدر ما تُحسب أهلاً للمواهب الروحانية، يزداد بالأكثر اشتياقها إلى الله مصدر امتلائها وحرارتها، ولا تبرح مفتشة ذاتها باجتهاد وبلا ملل، حتى أنها بقدر زديادها في النور الروحاني تزداد جوعاً وظماً إلى النعمة، وبقدر ما تزداد غنى بالروح بقدر ما تزداد شعوراً بالفقر إلى الله، تجدها شهوة روحانية حارة إلى العريس السمائي كما قيل: «من أكلني عاد إليّ، ومن شربني لا يزال ظمآنًا.» (يشوع بن سيراخ ٢٤: ٢١)

(ج) وفي موضع آخر يوضح القديس مكاروريوس أثر انعدام الدوافع والأهداف الصحيحة على النفس:

١٠٢٢ — وأما النفوس الخالية من الهمة (الدوافع الحسنة)، ومن الجراءة (السعي وراء أهداف مقدسة) ولا تطلب شيئاً من هذا النوع، فإنها تستمر في وضعها الجسداني بسبب أنها لم تحصل على رجاء القداسة في قلبها ولم تتسلح بالصبر وطول الأناة، ولا أعني درجة ما من درجات الروح ولكن أعني كافة درجات الكمال (المسيحي)، التي يسبغي أن يرتبط بها القلب بعناية الإحساس والثقة للحصول على

شركة الروح القدس بالكمال لكي يفديها تماماً من أسر الأهواء المفسدة الخبيثة !!

(د) ويكمل القديس مكار يوس شارحاً حالة النفوس التي بعد أن تسير قليلاً أو كثيراً في طريق الإمتلاء الروحي ثم تزل وتخدع وراء الإكتفاء الذاتي فتتوقف عن النمو وتُحرَم من بركات الصلاة:

١٠٢٣ - والنفوس التي بعد أن حُيِّت أهلاً للنعمة الإلهية ثم خدعها عنصر الخبث (الذاتي) وسلَّمت ذاتها للإهمال والتغافل ... متكئة على ما أحرزته من نعمة الروح والتَّعَمُّ بعرائها، فإنها تتشامخ وتغفل عن الحرص بسبب عدم انسحاق القلب وعدم انضاع العقل، فتعطي لنفسها الحرية مع أنها لم تبلغ إلى الدرجة الكاملة أي درجة الحرية من الشهوات!

فالمس التي لا تنتظر الإمتلاء التام من النعمة باجتهاد وإيمان بل تكفي بما تحضله (في منتصف الطريق) وتثو بما تحسه من عزاء النعمة القليل، فإن النجاح الذي تكون قد حصلت عليه يتسبب لها في التشامخ عوض التواصل، وتكون النتيجة أنها تُجرَّد ثانية من تلك الموهبة التي أُسبغت عليها أولاً لكونها رذلت التقدم بسبب غفلتها وتشامخ رأيها الباطل.

أما النفس المُجِنة للمسيح بالحق، ولو أنها تعمل أعمال البر بلا عدد، إلا أنها تظهر بسيرتها أنها لم تفعل شيئاً البتة بسبب المحبة الحارة للرب التي فيها. ولو أنها تُميت الجسد بالصيامات ولسهرلاً أنها لا تزال تتبع الفضائل كأنها لم تتعب من أجلها قط. وحتى ولو تُحسب أهلاً لمواهب الروح أو الوحي الإلهي والأسرار السمائية، فبسبب وَجْدِها العظيم بالرب تظهر، بالرغم من ذلك، كأنها لم تمتلك شيئاً. ولأنها تظل جائعة عطشانة بالإيمان والمحبة، فإنها تبقى دائماً عمولة بروح الصلاة مستمرة حتى تسع إلى كل أسرار النعمة وإلى كافة الفضائل.

لأنه من حيث أنها توجد مجروحة بمحبة الروح السماوي، ملتبئة بشوق زائد إلى العريس السماوي بسبب فعل النعمة الحائلة فيها دائماً، فإنها تظل مشتهية أن تدخل حتى لنقاء في شركة المسيح السرية الفائقة الوصف بتقديس الروح، لأن هذه الشركة تكون مكشوفة أمام مظهر النفس، والنفس تظل ناظرة إلى عريسها السماوي بعين القلب المستقيمة وجهاً لوجه في ذلك النور الروحاني الذي لا يوصف، وهكذا تصير محتلطة به بثقة كامنة، فتصبح مطابقة لموته، منتظرة باستمرار أن تموت من أجل المسيح، مترجّية بثقة الإيمان الكامل أن تنال فداءً كاملاً من الخطيئة وظلام الشهوات بهداية الروح القدس، حتى إذا تطهَّرت بالروح وتقدَّست نمواً وجسداً تُحسب أهلاً أن تصير إباء نقياً مُعَدُّ لِقَول وسُكَي الروح القدس وحلول المسيح الملك الحقيقي.

أبا مكار يوس الكبير (العظة العاشرة)

(هـ) وفي موضع آخر، يوضح القديس مكار يوس خطورة الإكتفاء بدوافع الصلاة فقط دون أن يكون للإنسان أهداف روحانية يشاق إليها و يطلبها و يسعى نحوها :

١٠٢٤ - وإن كان أحد ما إذ يحد نفسه عارياً من الصلاة، فستدنىء يغصب نفسه على الصلاة لكي يحصل على درجة من النعمة في الصلاة، و بكتي بذلك دون أن يسعى في طلب الوداعة والتواضع والمحبة ووصايا الرب الأخرى (لأهداف الروحانية المطلوبة)، ولا يعتني ولا يتعب ولا يجتهد لأجل تسييرها السواسب عليه ؛ ولذي يحدث هو أنه بموجب احتشاره ورضاه تُعظى له أحياناً صلاة لعمة، ولكنها تبقى مفردة على حدها حسب طبعه، إلا أنه يظل كما كان أولاً من حيث سلوكه وسيرته، فيبقى بلا وداعة لأنه لم يطلبها ولم يعد نفسه لها، و يفضل بلا تواضع لأنه لم يسأل عنه ولم يسع في تحصيله، و يكون بلا محبة نحو الناس لكونه لم يسأل ولم يتهد في صلاته من أجل المحبة، و يكون أيضاً بلا إيمان ولا ثقة بالله في تكميل ما عليه من مطالب روحية، ولا يقطن أن هذه تعوره لأنه لم يعرف نفسه.

ولكن لذي يأتي إلى الرب بالصلاة، عليه أيضاً أن يغصب نفسه إلى ما كان صالحاً حتى ولو كان نفسه مخالفاً لذلك، وأن ينتظر الرحمة من الله بإيمان لا يتزعزع و يغصب نفسه إلى المحبة إن كان حالياً بها، و يغصب نفسه إلى الجلم إن كان ناقصاً من نعمة الجلم، و يغصب نفسه إلى الشفقة وإلى امتلاك قلب حنون، و يغصب نفسه إلى تحمّل آلام وأهوان بصر جميل، و إن رذل وقُضِع فلا يتحرك بانغيظ على ذلك ...، و يغصب نفسه على الصلاة إن لم تث فيه الصلاة الروحانية. فإذا رآه الله في هذه المجاهدات معذباً نفسه بالاعتصاب، فإنه يمنحه روح الصلاة الحميمية، و يسعم عليه بالمحبة والوداعة بالحق مع أحشائه ومراحم وجلم صادق، ويملاؤه من ثمار الروح.

وأما إن غصب أحد نفسه على الصلاة فقط، ولا يغصب نفسه على الارتباط بطلب الفضائل الأخرى المتعمد ذكرها ولا يسعى ويجهد فيها ولا يعود نفسه عليها، فهو ليس بقدر أن يحور على فعل الصلاة بنساق ولا عيبُ بدأ. لذلك يلزم أن يربط الإنسان قلبه بالميل إلى الصلاح بقدر طاقته، لأن لعمة الإلهية تحل عليه وقت الصلاة وأثناء التضرعات، لأن الله صالح ومحسن، والذين يسأونه يمنحهم صلواتهم. أم الذي لم يعود نفسه على ذلك ولم يميل بقلبه إلى الصلاح، فإنه وإن مال نعمة، فهو إما يعدمها ثانية و يسقط في الكبرياء، أو لا يتقدم ولا يترقى في النعمة لموهوبة له، لأنه لم يستم نفسه لوصايا الله برضاه.

أبا مكار يوس الكبير (العهدة التاسعة عشر)

□ □ □

رابعاً: من تعاليم أبا أنطونيوس الكبير:

(أ) في أن الهدف الذي نشق من أجله يلزم أن يكون واضحاً قبل العمل وأثناء العمل،

وأن يكون محسوباً لدينا ؛ وعلمنا أن شابر في تزكية الدوافع الأولى التي دفعتنا لسلوك طريق الله :

١٠٢٥ — من طرق قطعة من الحديد، يسقى أولاً فيمُثَل في فكره ما هو عتيد أن يفعله : إما مجلاً أو سكباً أو فأساً وهكذا، فسيبدأ نحن أيضاً أن نفكر في كل شيء يبدأ في العمل به لنلا يكون عملاً باطلاً (بلا هدف) .

+ سيكس خوف الله بن أعينكم دائماً (هدف) ، وادكروا أنه يُميت و يُحيي ، و نفصوا العالم وما فيه .

+ أدكروا ما وعدكم به الله (الدوافع الأولى) فإنه سوف يطاسكم به يوم الدينونة .

(بستان الرهبان)

١٠٢٦ — سُئل القديس : ما هو العمل الجيد ؟ (أي الذي يصلح أن يكون هدفاً لحياتنا ؟) فأجاب : إن الأعمال الجيدة كثيرة، والكتاب يقول إن إبراهيم كان مضيفاً للغرباء وكان الله معه، وإيليا كان يوتر سُكنى البرية والوحدة والله كان معه، وداود كان متضعاً وديعاً وكان الله معه، فالذي يحبه فليكن من هذه إعمه من أجل الله (يلزم أن يكون هدف يحبه القلب) .

(بستان الرهبان)

(ب) إن الدوافع التي تدفع الإنسان للدخول في حياة التوبة والصلاة والنسك ثلاثة ، والله يتكفل بها جميعاً !!

أولاً : تصديق صوت الله القلبي وطاعته بسرعة وبدون توانٍ ، وهؤلاء روح الله يرشدهم إلى الطريق .

ثانياً : تصديق الوصايا المكتوبة التي توضح الديونة للخطاة والمواعيد الصالحة للتائبين ، وهؤلاء نور الوصايا ينير لهم الطريق .

ثالثاً : الإنتباه ، على أثر المصاعب والشدائد التي تصيب الإنسان والتي يجلبها الله عليه قصداً .

(عن الرسالة الأولى)

(ج) ولكن يعود القديس فيوضح أنه تلزمنا معونة من الله وقوة إضافية لنكمل بها الدعوة :

١٠٢٧ — أنا لا أمل من الطبة عكم ، لكي تعرفوا النعمة التي صارت لكم ، لأن الله برحمته ينبّه جميع الناس بأسباب من نعمته .

١٠٢٨ — فلا تملؤا ولا تتكاسلوا، يا أولادي، عن الصراخ للرب نهائياً ولبلاً، لتستعطفوا صلاح الله الأب حتى ينعم عليكم بمعونة من العلاء فتعلموا ما يجب عليكم.

(د) ويحذرننا القديس انه لا يمكن للإنسان أن يضع هدفاً صحيحاً لحياته وصلاته، إلا من خلال الإلتضاع والمسكينة ومعرفة أولاً لضعفه وعدم استحقاقه لشيء من ذاته:

١٠٢٩ — أطلب من الله أن ينير عيني قلوبكم لتعلموا وتنظروا حزيكم، لأن من يعرف خزيه (أولاً) فذاك هو الذي يطلب المجد المختار الحقيقي، لأن من يكون قد عرف (أسباب) موته هو الذي يعرف (أسباب) حياته الأبدية.

(الرسالة السادسة)

١٠٣٠ — لأنني أنا الشقي أعلمكم أيضاً أن ربنا نثء عقلي من نوم الموت بعمته، فصار لي نوح وبكاء مدة ما بقي لي من هذا الزمان اليسير على الأرض، لأنني أفكر ما هو الذي يعطيه للرب عوضاً عن الذي صنعه معنا.

(الرسالة السابعة)

(هـ) الأهداف المزيفة والخاطئة تجعل الصلوات والجهادات بلا أي ثمرة:

١٠٣١ — الذين لا يأتون إليه من كل قلوبهم بل يكونون ذوي قبين، وجميع ما يصنعونه هو في الظاهر حتى ينالوا المجد من الناس، وهؤلاء لا يستمع الله لهم في شيء بل ويغضب عليهم، لأن أعمالهم رياء ويتم عليهم قول المزمور: «الله يبذد مشورة المرائين». ولا يسر الله بطلباتهم بل يقاومها، لأنهم يصنعون أعمالهم بغير أمانة لمراعاة الناس، لذلك لا تفعل فيهم قوة الله، فتضعف قلوبهم إزاء كل ما يبدأون به من عمل ولا يدوقون حلاوة الحقة الإلهية وفرحها في موازنة الأعمال، بل تثقل عليهم أعمالهم وتصير جملاً ثقيلاً على نفوسهم.

(الرسالة العاشرة)

١٠٣٢ — كل الذين ثمارهم ميتة فإنهم لا يكونون نصيباً لله، بل إنه يلومهم بالأكثر كما قال للبي: «عرّف شعبي بخطاياهم ... لأنهم سيطلوني قائلين لماذا صُمتنا ولم تنظر، دُلُّنا أنفسنا ولم تلاحظ؟ ... فقلّ لهم لأنكم في أيام صومكم توجدون صاعين لإرادة قلوبكم الشريرة والذين تحت سلطانكم تقسون عنهم ... وصومكم للخصومة والنزاع ... لستم تصومون لتسميع صوتكم في العلاء، أمثل هذا يكون الصوم الذي اختاره؟» (إش ٥٨). يا أولادي، إن هذه هي الثمار المائتة، وكل الذين يصنعونها لا يسمع لهم الله!

(الرسالة الخامسة عشر)

خامساً: بعض أنواع أهداف الصلاة يوضحها القديس مار إسحق:

(أ) مخافة الله هدف أساسي:

١٠٣٣ - مخافة الله تنقذ محبة الله؛ والذي يعمل بالوصايا لأجل محبة الله، يُعطى له في الأول خوف الله! ... لأن خوف الله يسرع في بدء، بتكميل الوصايا التي تحتاج إلى تكثف وصعوبة، كما أن خوف الله يساعد في مصاتبة الخطيئة التي تقاوم الإنسان عند تكميله الوصايا، والعمل الذي به يصل الإنسان إلى كمال خوف الله هو أن لا يخطئ الإنسان خطية كبيرة أو صغيرة، حتى ولو لم يكن يوحّد أصفر منها خطية، إلا ويسرع بالتوبة عنها. بهذا نكمل مخافة الله.

(الجزء الأول - ميمر ٦)

وفي موضع آخر يشرح مار إسحق حالة ضياع هذا الهدف وتزييفه بآخر:

١٠٣٤ - والذي من قبل يصعد على الجزء الأول (مخافة الله) يحسر على لثني (محبة الله) بسبب شتياق ذاته أو بسبب مله وكسه، فإن عصب الله يهمر عليه، لأنه لم يُبَيّن أولاً أعضاءه الأرضية؛ أي أنه من أن يشي سقم أفكاره بصر على أتعاب الصنب ومحمرته، تحسر أن يحصل على مجد لصيب!

(الجزء الثاني - ميمر ١)

(ب) فضائل القديسين يمكن أن تكون أهدافاً حريّة هامة تنقّي الصلاة من الإنحلال والكسل والطياشة:

١٠٣٥ - واحد يد بالفضائل (أي اشهاؤها في القلب) هو أن يحرك قلبه بحس تدبير قديسين، لأن بهذا تتيمم النفس وتشتي أن تترس بفضائلهم وبأحد شبههم وصبرهم وفرحهم في الصيقات، وتجلّدهم، وعمّة أعصانهم، وازدراءهم بشهوة الجسد، واهتمامهم الدائم بالطهارة؛ ويضع أمام عينيه (كهدف للصلاة) أن يكون غير محسوب بالكلية، لأن من هذه (أي من إنكار الذات) يتولد فيه عدم الغضب، لأن الغضب دليل العظمة الكائنة في داخل النفس.

والإنسان بقدر ما يتصور فضائل القديسين في ذاته (أي يصعها أمامه كهدف) فإنه يسير متمثلاً بتذكّار صبرهم، وهكذا تنقّي الصلاة من الإنحلال والملل وطياشة الأفكار، ... ويتقوّم العقل ويتشجع وينتظر ويترد الكسل ويتمسك بالفضائل كل أوقاته، وبسبب غيرتنا على الفضيلة يقبل الله صلاتنا!

(الجزء الأول - ميمر ١)

(ج) قيمة الدوافع القانونية (حسب الإنجيل والآباء)، والتمسك بها في دفع الصلاة دفعاً صحيحاً موقفاً لبلوغ أهدافها:

١٠٣٦ — قل كل شيء، يعلم هذا جيداً أنه لا يتوخ أحد إذا لم يجاهد حسب زني وشرع تدبير الجهاد، كصول بولس الرسول: «إن كان أحد يجاهد لا يكتل إن لم يجاهد قانونياً». لأنه كما أن لكل شيء ناموساً وترتيباً، هكذا أيضاً في السيرة الروحانية.

وكل إنسان لا يجاهد حسب ترتيب ناموس الجهاد لا يتقدم تدبيره، وبالأخص في هذا الجهاد غير المنظور الذي يفوق العالم في صفاته وتدبيره.

والذي يتحلف عن هذا — (أي الإستهانة بالدوافع التي تدفع الإنسان للصلاة حسب أصول وناموس الجهاد المشروع) — فإن انغلابه يكون متوقعاً دائماً.

والذي يصنع مخافة الله — (كهدف لحياته) — ينبغي لكي يتقدم في هذا الطريق أن يعصب نفسه في كل تدبير قانوني يقدمه إلى الله، سواء كان بالصوم أو بالصلاة أو ببقية الفضائل.

وينبغي أن تعلم، أيها التلميذ، أننا لا نستطيع أن نثبت في الأمور الإلهية كما يلزم إذا لم نعصب أنفسنا كل وقت بالوسائل التي تقربنا إلى الله.

علماً بأنه بقدر ما يشقى الإنسان من أحل الله (أي من أجل هدفه وهو مخافة الله)، فإن العون الإلهي يحيط به ويسهر عليه المسير، ويصلح الطريق قدامه في كل موضع.

... وإذا اقترنت السيرة الحسنة بالصلاة، تكون مثل لهيب النار في قوتها وحركتها! ...

... والذي لم يقتنِ واجبات الصلاة، لا تصدق أن يكون له صلاة! ...

... وضبط العقل في الصلاة بدون الإحتراس السابق في الكلام والأعمال والحواس لا يمكن أن يكون! ...

وبمقدار الكرامة التي يُظهرها الإنسان أثناء الصلاة ...، سواء كان بسط اليدين إلى السماء، أو قياماً متعمقاً، أو سقوطاً على الوجه إلى الأرض؛ وبمقدار تعظيمه لله بالوقار الذي يُظهره أثناء تقديمه للذبيحة التي يقرها في أوقانها القانونية بحريته، فإنه يؤهل للعمة الإلهية، وفعل الروح القدس (وهي يُظهر مار إسحق ضمناً هدف الصلاة الأساسي وهو تقديم النفس ذبيحة أثناء الصلاة).

أما الذين زلّوا بأفكارهم، وظنوا أن الصلاة يكفي أن تكون في القلب فقط ولا يُراد ما شيء آخر، فيصنّون وهم متضجعون على ظهرهم (إذا لم يكونوا مرضى)، أو وهم جالسون باستحقار، ولم يعتنوا أن

سريوا أنفسهم وقت الصلاة بأعمال حسنة وفهم حسب قوة الجسد وترتيب الخواص و توفير ثلاث . ولم يحرقوا على وجوههم كمن تقدم إلى لهب نار، ولم يأخذوا أنفسهم بالفشل لتقديم الكرمه اللاتقة بالرب، هؤلاء ما فطوا إلى مكر العدو وفسوة حيله، لأنهم يعلمون أنفسهم إلى الرور والصلاة، ولا نحسب إلا كماتين، وحركهم إنما هي نفسانية فقط ولا يبلغون إلى الدرجة الروحانية!

ليس لك عمل آخر ضروري لتكمله أعظم من الصلاة!

(الجزء الأول — ميمر ٢)

(د) نقاوة القلب هدف عام للصلاة:

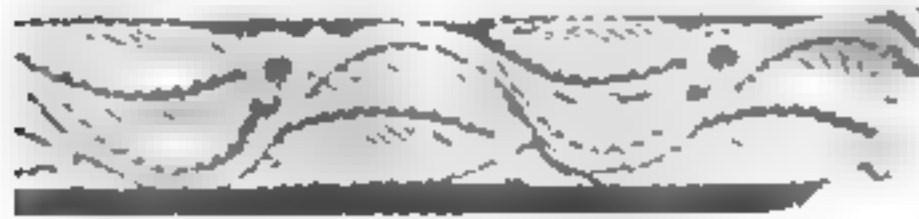
١٠٣٧ — إن كنت بالحق تحب الله فإن اشياك إلى نقاوة قلب ينبغي أن يكون أكثر من كل شيء، وإلى هذا الهدف صوب جميع قصدك وعرضك وسيرتك، واسأل وافرا وتعم ما هي.

(الجزء الأول — ميمر ١)

(هـ) الإتحاد بالله هو غاية السعي كله:

١٠٣٨ — الإتحاد بالمسيح هو غاية مطلوبنا وليس شيء آخر سواه.

مار إسحق السرياني



الباب الرابع

نواحي النشاط الخارجي للصلاة

أهمية الطقوس في روح الصلاة

- + « كان يعلم الشعب في الهيكل . » (لوقا ٢٠: ١)
- + « إصنعوا هذا لذكري . » (لوقا ٢٢: ١٩)
- + « أخذوا سعوف السخل وخرجوا للقاءه . » (يوحنا ١٢: ١٣)
- + « وجثا على ركبتيه وصلي . » (لوقا ٢٢: ٤١)
- + « وخرَّ على وجهه وكان يصلي . » (متى ٢٦: ٣٩)
- + « ورفع عبيده نحو السماء وقال : أيها الآب . » (يوحنا ١٧: ١)
- + « فامتلاً البيت من رائحة الطيب . » (يوحنا ١٢: ٣)
- + « ثم سَبَّحُوا وخرجوا إلى جبل الزيتون . » (مرقس ١٤: ٢٦)

موضوع هذا الباب

قدمنا في الباب الأول موضوع الصلاة ودرجاتها وثمارها ولزومها في الحياة العملية .
وعرضنا في الباب الثاني موضوع لفضائل وأنواع السك وصلة ذلك بحياة الصلاة .
وبحثنا في الباب الثالث معوقات الصلاة وطبيعتها وكيفية التغلب عليها .
وها نحن في هذا الباب الأخير بحث مسألة الكنيسة وتأثيرها على حياة الفرد الروحية ،
كعامل هام في ساء شخصية الفرد وتوجيه مشاعره وحفظ كيان إيمانه وتقديمه في الصلاة .
ونقصد بالكنيسة كل ما يحيط بهذه الكلمة ، سواء من جهة حضور اجتماعاتها أو
الإشتراك في ممارسة طقوسها وأسرارها .

لأنه لا يكفي أن يتدرب الإنسان على حياة الصلاة بالتمرن على درجاتها والسلوك في أنواع
التقشيمات والنسك المختلفة ، إذا ظلت المواقف الخارجية التي يواجهها الفرد كما هي من
حيث تأثيرها السيء . كذلك لن يكون للصلاة قوتها أو ثمارها ، إذا كانت مبادئ العقيدة
عقلية جافة لا تتمشى مع انطلاق النفس المحررة من قيود الفياسات المنطقية وفلسفة العقل
والمعقولات .

الصلاة داخل الكنيسة (١)

الصلاة داخل الكنيسة عموماً ، حسب المفهوم الكنسي ، هي « خدمة إلهية » —
ليتورجيا ، بمعنى أنها عمل جماعي روحي يختص بالله ويُقدّم له كعبادة .
والله أظهر منذ البدء أنه يهيم جداً أن يجتمع معاً ونترأى أمامه لنعرض عليه أمورنا ، كما
يسأل منه طلباتنا ، لأنه مع كونه يعلمها سابقاً إلا أنه يشدد على أن يعلمها منا نحن ، كذلك
يهيم أن نشكره على كافة ما قدمه لنا سابقاً عاماً وخصوصاً .

والصلاة داخل الكنيسة — أي الليتورجيا — نوعان كبيران :

(١) يمكن الرجوع إلى كتاب « نسخة يومية ومرامير سواعي » للمؤلف لقراءة تفصيل أكثر عن هذا الموضوع .

النوع الأول: ليتورجيا الصلوات والطلبات والتشكرات والتسابيح.

والنوع الثاني: ليتورجيا الأسرار ومركزها الإفخارستيا.

والكنيسة الأرثوذكسية بالرغم من اهتمامها الشديد بالنوع الأول أي بليتورجيا الصلوات والتسابيح، التي خصصت لها معظم ساعات النهار والليل على مدى أيام الأسبوع لتغطي كافة احتياجات الإنسان وعلاقته بالله، إلا أنها لا تعتبر هذه الصلوات واسطة رسمية لحلول النعمة للتقديس. إذ أن الكنيسة تعتبر أن حلول النعمة وقبولها هو عمل محدد يختص بالأسرار وحدها، لأنها ترتبت من الله لهذا الغرض.

ولكن ليس معنى هذا أن الكنيسة تقلل من قيمة الصلوات والتسابيح، فالواقع أن هذه الصلوات تأخذ من الكنيسة معظم وقتها وجهدها واهتمامها، لأنها تعتبرها المدخل الرسمي الوحيد لخدمة الأسرار واستحقاق نوال النعمة المنسكبة منها!

وفي التقليد الآبائي يتضح ذلك على وجه العموم، حيث جعلوا خدمة الصلوات والسهر والتسبيح ذات قيمة عالية جداً في تدبير البيعة، واعتبروه أنه هو الركض في الميدان، أما نوال نعمة الله بالأسرار فهو كالجائزة أو المكافأة أو الجمالة.

والنعمة التي نالها بالأسرار تظل كامنة في النفس بدون فعل إلى أن تعمل معها حرية الإرادة بالصلاة والطلبة والدموع، وفقاً لمشيئتها:

فالنعمة تحل في النفس بالأسرار، ولكن تنمو مفاعيلها وثمارها بالصلاة والخدمة. وفي التقليد الكنسي لا يمكن الحصول على حالة نعمة إلا بالأسرار، لذلك يُقال للإنسان المعتمد أنه «نال نعمة» وللإنسان الذي يشترك في الإفخارستيا أنه «نال نعمة»، وتقريباً في كل سر يحصل الإنسان التائب على حالة نعمة. فممارسة الأسرار هي في الحقيقة ممارسة حياة النعمة.

ويمكن أن نحدد العلاقة القائمة بين ليتورجيا الصلاة والتسبيح وليتورجيا الإفخارستيا في النقاط الآتية:

أولاً: الصلاة والتسبيح مدخل رسمي للإفخارستيا، وهذا نراه مطبقاً بصورة واضحة في الإعدادات لبقداس الإلهي منذ اليوم السابق، في قراءات العشية ومزاميرها وقراءات باكر مع تسابيحها. هكذا أيضاً داخل النفس، يتطلب هذا الإعداد نفسه إعداداً لاثقاً لقبول الملك.

ثانياً: الصلاة والتسبيح يؤهلان لقبول نعمة الإفخارستيا والإحساس بها.

ثالثاً: الصلاة والتسبيح ينشطان من نعمة الإفخارستيا، لذلك يستمدان قوتها ويدرمان في القلب بالمواظبة على الشركة.

رابعاً: الأسرار، وباستاتي النعمة، لا تُغني إطلاقاً عن الصلاة، والطلبة، والتسبيح، وعمل الإرادة على الدوام حتى آخريوم في حياة الإنسان.

خامساً: الصلاة والتوبة والتسبيح جهاد في حد ذاته تسنده النعمة، ولكن لا تعصمه من السقوط، تقيمه ولكن لا تحفظه قائماً بدون جهاد.

سادساً: الصلاة والتسبيح يحفظان الإنسان من التفهقر (لتجربة)، ويحفظان أمام عين الإنسان صورة رحمة الله وعنايته وقوته ووجوده كحالة لا تحتاج إلى برهان، أي أن الصلاة والتسبيح يُمكنان بالنعمة مسكاً.

١٠٣٩ - فلا يحد عن أحد نفسه، لأنه إذا لم يكن الإنسان متحداً بالمسيح فهو محروم من حراثة الله، لأنه إذا كان للصلاة ثمين أو ثلاثة قوة أن تجعل المسيح حاضراً في الوسط، فكم تكون الصلاة عندما تصبح بوسطة الأسقف والكنيسة كلها، وترفع في توافيق إلى الله؟ لذلك، فكل من يفصل نفسه عن الكنيسة ولا يجتمع مع الجماعة وفب تقدم الذبيحة فهو يُحسب دنساً، كان مطهره معتدلاً.

إغناطيوس الأنطاكي (٢)

الصلاة والتسبيح كطقس إلهي:

خدمة الليتورجيا بالصلاة ولتسبيح عمل جماعي بطبيعته، وسيظل عملاً جماعياً حتى في الدهر الآتي.

لذلك فتحديد شكله ومضمونه مطلبٌ جوهري، يرفع عن كاهل الفرد صعوبة وخطورة ما يُقال وما يُعمل عند المثل أمام الله و يكون حسب مشيئته. فالكنيسة تسلمت أساس طقوسها منذ البدء من الرب والرسول، وحافظت عليه كتقليد مقدس أضافت إليه بإرشاد الروح القدس في العصور الأولى ما يزيد وضوحه وما يحفظه من الإنحراف.

والطقس ضرورة طبيعية للإنسان، لأن الإنسان دائم التطلع بروحه إلى الله، وهو لا

(2) Ignat. to Ephes., v.

ترتوي روحه إلا إذا عبّر بكل كيانه النفسي والعقلي والجسدي عن حبه وشوقه وإخلاصه . فالطقس تكتمل فيه حاجة الإنسان المُلِحَّة من نحو الله . والإنسان حينما يبدغ فعلاً بالطقس إلى تحقيق شوقه إلى الله بإخلاص الصلاة والتسبيح والحمد يصل إلى ذروة الاستعداد للإتصال بالله ، وحينئذ يتم فيه سر الله ، إذ يتنازل العظيم الأبدي ويسكب من روحه وحبه في قلب الإنسان .

لذلك يلزمنا أن لا نُجيز إطلاقاً تسمية الطقس بطقس ، إلا إذا اكتمل فيه الإحساس الروحي بالله والشوق الصادق إليه والاستعداد الداخلي للإتصال بالله . لأن الطقس لا يُمثل علاقة مبتورة من جهة الإنسان نحو الله ، بل علاقة كاملة متبادلة بين الإنسان والله ، فيها صلاة واستجابة معاً ، فيها مثل الإنسان أمام الله وحضور الله مع الإنسان : — « حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم . » (مت ١٨ : ٢٠)

عطايا الله للمواظبين على ممارسة خدمته بأمانة :

قانون الطقس يبدو في مظهره مجرد وصايا وأوامر وتحديدات . ولكن سر الطقس يتجلى في الأمانة عند التنفيذ والمواظبة بإخلاص حيث ينفتح على الإنسان باب العطايا الإلهية ، فيذوق الإنسان من سخاء الله وغزارة نعمته . وحسب خبرة الآباء الفديسين ، تكون العطايا دائماً من نوع الجهاد :

— فنشاط الجسد في الصلاة والخدمة يجازيه الله بنشاط الروح وحرارة القلب .

— ووقوف الإنسان في الصلاة يعزم ورزاقته يجازيه الله بصلابة الروح واستقامة الفكر .

— ورفع اليدين والعيسين والقلب والنفس يجازيه الله بالإقتراب بنعمته إلى قلب الإنسان .

— والسهر بالليل يجازيه الله بيقظة في الروح واستمارة .

— والصلاة بفهم ووعي قلبي يجازيه الله بنعمة الإفراز والحكمة .

— والسجود متواتراً إلى الأرض يجازيه الله برفع روح الإنسان من الأرضيات .

— والتسبيح والحمد والشكر الدائم يجازيه الله بالفرح وهجة النفس .

— وتمجيد الله وتقديس اسمه متواتراً يجازيه الله بتكريم روح الإنسان في السر والعلن .

— والدموع والبكاء واحزن على الخطايا والصغائر مجازيه الله بعزاء النعمة والفرح الباطني.

أي أن الطقس بقدر ما يصنع علينا من أوامر ووصايا وفرائض ولتزامات، يهيء لنا، في الواقع وفي السر، العطايا الثمينة، البهجة التي توازن أتعابه مائة ضعف. وكما تُقَلِّد علينا بالتزامات تبدو للجهال والكسالى أنها زيادة وثقل، كلما أضمر لنا بفكاكاً من رُطْب الجسد والعالم وأعدنا لنكون روحانيين.

إذن، فالأمانة والمواظبة على ممارسة الطقس فترة طويلة مستمرة، فرصة منقطعة النظر لعطاء النعمة، لا كمواهب تُعطى جُزْأً في يوم وليلة، ولكن كصفات حية للروح تغرسها النعمة في نفس غرساً، قليلاً قليلاً كبناء يمو بالاجتهاد يوماً بعد يوم، على قدر الحب والأمانة وبذل الخدمة.

جوهر الطقس:

هو الطاعة المطلقة لترتيبات الله المعلنة من قِبله في كيفية عبادته.

إن قوة الطقس هي في كونه يوصلنا إلى الله و يوصل الله إلينا.

فهل يمكننا أن نفتتح الوصول إلى الله حسب مشيئتنا أو بأي صلاة؟

وهل الله يصل إلينا بدون ترتيب واستعداد واختبار؟

إن تاريخ العلاقات بين الله والإنسان على مدى العهدين القديم والحديد وأخبار الآباء، تكشف عن طبيعة الله فيما يختص فقط بمعاملته للإنسان وقبوله له أو رفضه إياه، بل إن كافة الأسفار تدور حول محور واحد هو هذه الحقيقة عينها.

فالأسفار تفصّل علينا كيف أحب الله إنساناً أو رفض الله إنساناً، ولماذا كان هذا المقبول أو الرفض، أو تشرح لنا أوامرو وفروضاً ووصايا وصلوات أعطاه الله للذين أحبهم حتى يجمعوها شريعة محتمة لعبادة الله العامة والتقرب إليه.

وقد ثبت أن الإنسان لا يستطيع بمفرده وبدون إلهام أن يقترح وسيلة بها يتقرب إلى الله، وذلك ليس بسبب ترفع الله ولكن بسبب جهلنا لطبيعته، وبالتالي جهلنا لمشيئته لني تفوق فكر الإنسان: « كما غنّت السموات عن الأرض، هكذا غلّت طرق عن طرقكم وأفكارى

عن أفكاركم.» (إش ٥٥: ٩)

لذلك، فقد سبق الله وعرف الإنسان كيف يتقدم إليه، ويدخل في حضرته، وبأي صورة يتكلم، وبأي كلام يتوسل، وبأي أعمال يرضي الله، وذلك بأحكام كثيرة متنوعة تكاد تغطي الكتاب المقدس كله.

والعجيب أيضاً أنه حتى هذه الأحكام لا يمكن وضع واحد منها بجوار الآخر وفحصها بالإستقراء، لإكتشاف دوافع الله وصفاته الداخلية، لذلك يقول الرسول: «ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الإستقصاء» (رو ١١: ٣٣). فأحكام الله لا تحتمل فلسفة الإنسان، ولا تصلح إلا للخاضعين، ولا تظهر قوتها إلا بالطاعة البسيطة المؤمنة.

فن ذا الذي يقول أو يعقل أن الغيرة على مقدسات الله والإسراع بضمير نقي لخدمة ضرورة إلهية، شيء يغضب الله؟

ولكننا نقرأ في تاريخ نقل تابوت الله من أرض فلسطين، أنه بينما الكل في فرح وتهليل سائرين أمام التابوت، وإذ بالبقرات تفزع فيميل التابوت ليسقط، ويمد «عزة» يده ليسند التابوت، فيغضب الله عليه ويُميته في الحال!! والسبب أن «عزة» ليس من اللاويين المخصصين لخدمة التابوت أو لمسه!! مع أن التابوت نفسه كان مسبباً في بيت داجون الوثني وفي قرى الغلف (٢ صم ٦).

ومن ذا الذي يقول أو يعقل أن ابني هرون، وهما لاويان وكاهنان مسموح لهما بخدمة الهيكل، تخرج نار من القدس وتأكلهما وهما واقفان يبخران فيقعان ويموتان في الحال؟ وذلك لأن النار التي وضعها في المجمرتين اللتين في أيديهما لم يأخذاها من على المذبح — كما أمر الرب — بل دخلا بها من الخارج (لا ١٠).

وشاول الملك فارق روح الله وأصابه روح شرير بمجرد أن خالف أوامر الله وقرب ذبائح لله لم يأمر بها! (١ صم ١٥ و ١٦)

وهكذا عخان بن كرمي وجيحزي تلميذ إشع وحنانيا وسفيره، أصابهم ضرر بليغ لأنهم استهانوا بالله وحسبوه لا يسمع ولا يرى!!

وقد يتهياً للفكر البشري العاجز أن الله يُسترضى بمجرد الصلاة أو الصوم الشديد أو

الإنسحاق والتذلل أو بالذبائح والعطايا أو حتى بحرق الجسد ... ولكن يستحيل أبداً على الإنسان أن يفتح الله! لا بد أن يعلن خضوعه أولاً برجوعه عن طريقه التي تغضب الله، ثم لا يتقدم بالصلاة إلا بحسب فروضها وواجباتها. أي لا بد أن يطيع الإنسان أوامر الله طاعة عممية من كل القرب ولا يقدم إلى الله إلا ما يؤمر به، وحينئذ تقبل عبادته وصلواته وتقدماته: «فقال صموئيل: هل مسرة الرب بنحرفات والذبائح كما باستماع صوت الرب؟ هوذا الإستماع أفضل من الذبيحة، والإصغاء أفضل من شحم الكبش، لأن التمرد كخطيئة لعرافة، والعباد كالوثن والترافيم. لأنك رفضت كلام الرب رفضك من الملك.» (١ صم ١٥: ٢٢ و٢٣)

إذن، جوهر العبادة هو في تناسع أوامر الله؛ وجوهر الطقوس هو في طاعة ترتيبه للأمر لتي تختص بعبادته.

أي أن أداء الطقوس في حد ذاتها لا يفيد شيئاً، ولا يوصل إلى شيء؛ أما إذا كان الأداء بدافع الطاعة لله، صارت الطقوس عبادة، وصارت العبادة واسطة للدخول إلى الله.

منظر سمائي يشرح خدمة التسابيح والصلوات داخل الكنيسة:

من يقرأ سفر الرؤيا بإتقان، يطلع على صورة سمائية دقيقة لكافة أنواع الطقوس التي تصحب الصلوات والتسابيح التي تمارسها الكنيسة كل يوم مع سر الإفخارستيا، من ملابس بيضاء، ومجامر وبخور وجرار على المذبح، وتيجان ذهبية ومناورات ومذبح وخروف قائم كأنه مذبح وتارويم ورؤساء ملائكة وملائكة وقوات سمائية وأربعة وعشرين قسيساً وربوات المديين، وتسابيح عامة وخاصة ومردات وأناشيد وتهليل وقيثارت وسجود وأسماء جديدة وأكاليل وتعزية ليست بقليلة.

ومن التعديفات السمائية قولهم لله «من لا يخافك يا رب ويمجد اسمك لأنك وحدك قدوس» (رؤ ١٥: ٤)، ومنها تظهر الضرورة الطبيعية لتمجيد الله بسبب استعلان قداسه!!

فحينما يستعلن مجد الله، لا يمكن أن توجد خليقة تقف أمامه صامتة: «وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحب الأرض وما على البحر، كل ما فيها سمعتها قائلة ليجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين» (رؤ ٥: ١٣). وحينما تهتف كل الخليقة بمجد الله، يرد الأربعة المخلوقات الحية (المسؤلون عن كافة الخلائق) ويقولون: «آمين».

أليست هذه صورة سمائية مبدعة للكنيسة وهي تسبح بكافة طقوسها؟ حينما يرد هذا قبالة ذاك و يقولون: قدوس قدوس قدوس آمين أليلويا!

و حينما سمعت الكنائس قديماً لتحصل على دخائر الشهداء لتبني عليها مدايحها، أليست هذه صورة لتحقيق السماوية التي شرحها ونفك ختمها: « رأيت تحت المذبح نفوس الذين قُتِلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم » (رؤى ٦ : ٩) . فكما أن المذبح السماوي تحمله أرواح الشهداء، هكذا المذبح في الكنيسة تحمله الشهادة عينها، وكأنما دم الشهداء جزء حي في ليتورجيا الصلوات!!

وحتى تعليم الكنيسة بحقيقة مشاركة الملائكة وأرواح القديسين في إقامة الليتورجيا معنا بكافة أنواعها وصلواتها وتسابيحها، ووقوفهم حول المذبح، تظهر بلا لبس في سفر الرؤيا عندما كُشف ليوحنا عن منظر الملائكة الجليل وهم يخدمون أمام العرش جنباً إلى جنب مع كافة أرواح الأبرار المكملين (رؤى ١١ : ١٦) .

إذن، فالكنيسة لا تتبع خرافات مصنعة!

ولا هي وصايا وطقوس وتعاليم الناس!

ولا هي يهودية تحمل نفاية عبادات نافلة!

فسفر الرؤيا يقف شاهداً أبدياً على روحانية الليتورجيا، بكافة أصولها وفروعها، ويختتم بالحق الأبدي على صلواتها وتسابيحها وبخورها وذبيحتها .



الفصل الأول

بيت الله



+ ما أروع هذا المكان. ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء ...
هوذا ملائكة الله صاعدة ونارلة ... وهوذا الرب واقف ...
(تك ٢٨: ١٧ و ١٢ و ١٣)

(هـ) المسيح أحب الهيكل جداً، وكان في اعتباره «بيت أبي» الذي ينبغي له الكرامة لأن فيه تُقدّم العبادة واصلاة لله الآب «ببتي بيت الصلاة يُدعى» (مت ٢١: ١٣)، وقد اجتمع فيه المسيح مراراً كثيرة مع الشعب في مواعيد العبادة الرسمية للمشاركة في العبادة ولتقديم التعليم.

ووصفُ الكنيسة بأنها «بيت الله» مأخوذ من قول الرب نفسه عن الهيكل، وقد ورثنا عن المسيح الشعور ابفيني بسكنى الله في الهيكل الذي هو الكنيسة الآن. لقد ارتاح الله قديماً أن يسكن مع الناس، إما بغير منظر وبكيفية سرية، بل بواقعية فائقة للحواس والعقل. لقد قبل شعب اسرائيل هذه الحقيقة قديماً بيقين يفوق كل منطق وعقل ولا يقبل الجدل ولا مجرد السؤال: ولكننا ورثناها مضاعفة بسبب ظهور المسيح علماً.

وهكذا كان تدبير الله، منذ البدء، أن يبني الوجدان الإنساني بناءً عملياً محكماً على قبول شركة السُكنى الواقعية مع الله، وسهّل الله للإنسان بكافة الطرق قبول الإحساس الفكري والروحي بالتحام الأبدي بالزماني وغير المحدود بالمحدود وإدراك الله كشخص كامل يُدرك ولكن لا يُدرك كماله، يحلّ فعلاً بين الناس ويسكن وسطهم ويقبل دعاءهم ويسمع صلواتهم ويستجيب توسلاتهم، وهذا هو جوهر العبادة وسرها العظيم.

فسُكنى الله في قدس الأقداس هو من حيث طبيعته سر، ويمكن أن نسميه السر الذي ينبعث منه كل سر، هو سر وجود الكنيسة وسر قوتها وهو يشرح إمكانية وجود الأسرار في الكنيسة ويفسر طبيعتها وفعلها!

وتأسيس الشعور اليقيني بسُكنى الله في بيته جعل لبيته رهبة وجلالاً، وأضفى على البيت قداسة ليس بالنسبة للصلوات وحسب بل وحتى أبوابه وأعتابه مقدسة وحتى ترابه صار أيضاً مقدساً، وكل من يدخله يشعر أنه داخل ليتقابل شخصياً مع الله ويتراءى أمام وجهه.

كما أن حوادث ظهور الله بالفعل ودعوته وحديثه لأشخاص آباء كثيرين داخل الهيكل

(هـ) يمكن الرجوع إلى كتاب «نسخة لوميه ومرمير نسوعي» لمرءة ناصب أكثر في هذا الموضوع

مثل موسى و يشوع وصموئيل وداود وزكريا وبولس ، نبّهت الشعور الباطني للإنسان الداخِل إلى بيت الله لإحتمال ظهور الله في أي لحظة إما باطنياً أو علنياً ، ومن هنا صارت الرعدة تأخذ الإنسان عند وقوفه أمام هيكل الله .

وإن كان بعض الناس قد انغلقت قلوبهم دون هذا الإحساس بسبب ضعف إيمانهم ورخاوة حياتهم وفساوة قلوبهم ، إلا أن هذا لم يمنع أن يتحقق الكثيرون من صدق رؤيا إشعياء النبي : « رأيتُ السيد جالساً على كرسي عال ومرتفع ، وأذباله تملأ الهيكل ، والسيرافيم واقفون فوقه ؛ لكل واحد ستة أجنحة ، بإثنين يغطي وجهه و بإثنين يغطي رجله و بإثنين يطير . وهذا نادى ذلك وقال قدوس قدوس قدوس رب الجود مجده ملء كل الأرض ، فاهتزت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلاً البيت دخاناً . » (إش ٦ : ١-٤)

كل هذا هيئاً المكاة السامية لبيت الله بالنسبة لحياة الإنسان وسلوكه داخل الكنيسة . ومن هنا نشأت آداب الصلاة داخل الهيكل وشروط العبادة .

وكل ما اهتمت به الدسقولية (تعاليم الرسل) المعتبرة وثيقة النظام والترتيب الرسولي للعبادة داخل الكنيسة ، هو في الواقع امتداد لهذه الحقيقة السامية : أن الله ساكن في بيته .

— فتقبل أبواب الكنيسة ، في الدحول إليها والإنصراف منها .

— والسجود على عتبة الكنيسة .

— ثم السجود أمام الهيكل وتقبل تراب الأرض .

— ثم تقبيل يد الكاهن ، وطلب بركته .

— ثم تقبيل ستر الهيكل ثم الأيقونات المقدسة ، ثم ذخائر القديسين إن كانت موجودة .

— ثم الوقوف بصمت كامل وورع مطلق .

هذا كله وإن بدا لبعض الناس أنه ممارسات عتيقة وعبادة نافثة ، إلا أنه في الحقيقة ميراث روحي ثمين جداً بالنسبة للموس التي آمنت أن الله يسكن في بيته وأن لبيته ينبغي التقديس كل الأيام .

وداود النبي الذي تشرف أن يكون المسيح من نسله ، والذي شهد له الله بعد الفحص والإمتحان أن قلبه كان حسب قلب الله ، والذي شهد له المسيح أيضاً أنه قال مزاميره

بالروح القدس: «داود قال بالروح»، كان يطرح نفسه على عتبة بيت الله عند دخوله وهو ملك، مرثياً:

- (١) «فرحت بالقائلين لي إلى بيت الرب نذهب.» (مز ١٢٢)
- (٢) «وقفت أرجلنا في ديار أورشليم.» (مز ١٢٢)
- (٣) «أدخلوا أبوابه بالفرح ودياره بالتسابيح» (مز ١٠٠)
- (٤) «افتحوا لي أبواب البر لكي أدخل منها.» (مز ١١٨)
- (٥) «هذا هو باب الرب والصدّيقون يدخلون فيه.» (مز ١١٨)
- (٦) «إخترت أن أطرح على عتبة بيت الله.» (مز ٨٤)
- (٧) «أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك وأسجد أمام هيكلك المقدس.» (مز ٥)
- (٨) «لبيتك ينبغي التقديس يا رب طول الأيام.» (مز ٩٣)

وهذه هي نفس الصلوات التقليدية المسلّمة إلينا لتتلوها عند الدخول في الكنيسة والسجود فيها.

ومن هنا أيضاً نفهم تشديد الدسقولية على ضرورة التبكير والذهاب لبيت الله في أول ساعة من النهار، وفي الغروب آخر النهار لتقديم العبادة اللائقة، فهذا الترتيب يستمد قوته ومعناه من وجود الله في الكنيسة، فالإنسان يبدأ يومه بالسجود في حضرته وينهي يومه بالإعتراف والشكر أمامه.

[لا تتأخر عن الكنيسة بل نكّر إليها قبل كل شيء، وعشية اجتمع هناك أيضاً، واشكر الله على ما أنعم به عليك لأجل قوام حياتك.]

الدسقولية (الباب الثامن)

ومن الملاحظات الهامة التي ينبغي التدقيق فيها، أن الجماعات المسيحية الأولى ظلت مدة تواظب على ذهابها إلى الهيكل لتتم هناك صلواتها الطقسية فيه، حسب أصول العبادة والصلوة الإلهية المتبعة في الهيكل في ساعاتها المحددة. ولكن في نفس الوقت كانت تجتمع سرّاً في بعض البيوت وبالأخص في العلية التي في بيت مرقس الرسول (أع ١: ١٤)، لتقيم صلوات أخرى مسيحية، جنباً إلى جنب مع الصلوات التقليدية الهيكلية، وخصصت يوم الأحد لإقامة صلاة كسر الخبز أي سر الإفخارستيا. وهذا كله يتمشى مع أصول الحياة الطبيعية حسب الطقس اليهودي، لأن صلوات المزامير كانت تُقام في ساعاتها المحددة كل يوم

في الهيكل ، أما طقس كسر الخبز فلم يكن أصلاً مكانه الهيكل إنما كان يُقام في كل بيت .
 عدماً بأن الجماعات المسيحية الأولى كانت تعتبر وجودها في الهيكل يدخل في صميم حقوقها
 باعتبار أن الهيكل كان في عرف المسيح « بيت أبي بيت صلاة » .

والذي يهمنا في الأمر أن الجماعة المسيحية الأولى ارتبطت بخدمة الهيكل اليومية ،
 فدخلت الصلوات والتسبيحات بالمزامير ورفع السخور والقراءة في الأسفار والوعظ والتفسير في
 صميم حياة المسيحيين ، كجزء لا يتجزأ من عبادتهم اليومية قبل أن ينفصلوا نهائياً عن
 الهيكل و يبنوا لأنفسهم كنائس خاصة بهم يتممون فيها صواتهم .



أقوال الآباء عن بيت الله:

١٠٤٠ — حينما مدخل الكنيسة نسي هموم العالم وشهواته ؛ وفي حضرة الله عتلى رهبة وخشوعاً وتقديساً ؛ نحس داخل نفوسنا بصمتنا بالحياة الأخرى ، ونشعر بنوينا لله .

أي قداسة وحب ووقار تليق ببيتك يا رب . إن القديسين أحبوا بيت الله أكثر من كل شيء في هذا العالم .

١٠٤١ — بيت الله هو السماء على الأرض ، لأنه حيث يوجد عرش الله وتقديس أسرار الإلهية واشتراك السمايين مع البشر في تسييع العلي ، فحينئذ تكون هي السماء بل وسواء السماء .

إذن ، فلندخل بيت الله حيث مقدس العلي ، بخوف واحترام كثيرين وقاوة قلب خال من كل عيوب الشهوة والخطية بل ومن كل اهتمام جسدي ، ونقف بإيمان منتبهين لتلقي المعرفة الروحانية بحب وسلام قبي ، فنخرج من لدن الرب مجددين لحيا في القداسة كأبناء الله القدوس غير مرتبطين بشيء مما في هذا العالم .

١٠٤٢ — إن النفوس البسيطة الوديدة المؤمنة حينما تدخل الكنيسة ، تشعر تماماً أنها أهلت للدخول أمام الله ، فتشعر بسعادة غامرة وحرية الأولاد في بيت أبيهم . هؤلاء المؤمنون هم سعداء بالحق لأنهم يذوقون بإيمانهم سعادة الحياة في الدهر الآتي .

إن هذا الشعور المبارك لا يمكن أن نحصل عليه إلا بعد دخولنا بيت الله حيث نجده ونسجد أمامه ونصلي إليه ونعاهده على حياة البر ، ثم نخرج لبدأ جهادنا لتتميم وعدنا .

١٠٤٣ — حينما نضفي إلى الألحان الشجية الصاعدة من أفواه المقدسين من داخل الهيكل نتحاوينا أصوات العابدين من الخارج ، حينئذ تشملنا غبطة وهدوء يسريان إلى أعماق النفس .

وحينما نتابع كلمات قارئ الفصول وهو يتلوها بصوت شجي مؤثر ، تفتح قلوبنا إلى المعرفة وتستتير أذهاننا بكلمات الحياة . إن هذه المشاعر كلها هي عربون لتدوق سعادة الحياة الأبدية .

ليتنا نقدم تسييحنا وقراءتنا في بيت الرب بغيرة حسنة .

١٠٤٤ — يا بيت الرب هو مكان الفرح وعريسا السماوي ينتظربا هناك نويمة أعدّها.

قفوا بهدوء وسكون كما يليق،
نقّوا ضمائرکم من داخل،
هنا شفاء النفس المتعبة،
هنا راحة الجسد المريض،
أطلبوا قوة واملثوا شجاعة،
لبيتك يا رب ينبغي الوقار والحب.

الأب يوحنا ك.

١٠٤٥ — الكنيسة هي سماء على الأرض، والدين يدخلونها ينبغي أن يفهموا حساً كسكون السماء ووفار الملائكة: عيوبهم تكون شاحصة دائماً نحو المدبح. وأرحلهم وفضة باستقامة غير ملل. أيديهم ممتدة إلى جانبهم بغير حركة. أفواههم لا تفتح إلا للتسبيح!

الأسقف إغناطيوس ب.

١٠٤٦ — إن نعمة الله لا تفارق بيت الله قط.

لذلك يجب أن تكون لك الثثة حينما تقف هناك أنك وقف أمام نعمة الله، فلا تشغل قط عن متابعة الصلاة والتسبيح، ولا تفتح فمك بالحديث مع أحد ولا فئت تحرم نفسك من عمل النعمة فيك. فف صامتاً متبهاً مستعداً لفضول عمل النعمة فيك، كذلك لا تشغل بشيء من أمور العالم في صميرك أو فكرك، بل بق علك كن أفكارك وهومك في هذه اللحظة لأن الرب مستعد أن يعمدها لك.

لا تنشغل عن متابعة الصلاة داخل الهيكل وخارجه، ولا تشغل نفسك بشيء خاص حتى وبوكون مقدساً وفعاً كهره أو تلاوة أو خلافة، مما يحرمك من بركة الخدمة والإشتراك في التسبيح...

لا تعمل حركات خاصة كسجود أو ركوع أو خلافة في وسط الكنيسة بل شترك فقط في حركات الشعب في أوقاتها.

تابع صلاة كنيسة إن كان من أجل سلامتها أو رؤسائها وخدامها أو من أجل الرروع والثمار أو المياه واهواء أو الموصى أو الرفدس، فاشرك أنت أيضاً في كل صلاة وضمة قلبك وبفسك في قلوب المصين لتكون الكنيسة كلها قلباً واحداً ونفساً واحدة.

الأسقف بوتي

١٠٤٧ — وما المائدة من حياتك أن نطل معانداً لروح النعمة ومفطعاً للكنيسة وممتنعاً عن تناوب سرارها ولإشترك في جسد مسيح ودمه فتموت عريباً عن الكنيسة والله؟ ألم تسمع من فم المسيح أن

من ليس معي فهو عليّ؟!

ديمتري ر.

١٠٤٨ — ب أحسائي، في وقت المذبح يجب أن نعد أنفسنا بالقدسة ولا نترك صدأ الأوجع
داخلاً لنلا يكون لنا موت عوض حدة، كما قال بولس الرسول أن من لا يفرق بين عشاء الرب (أي
تناول جسده ودمه) وبين المائدة العادية (أي الطعام العادي) فإنه يأخذ دينونة بدل عفرن.

إن كان الملائكة ورؤساء الملائكة مع جميع الرتب السماوية ينفذون برعب وحواف وقت تقديس
الأسرار، فكم بالخرى يجب عيب نحن الترابيين أن نسايرهم في هذا الوقوف.

وإن كان الشياطين المعاندون المتكبرون المردة يصرخون بصرع وحواف شديدين من صلاة داخل
الكنيسة، فكم بالخرى يجب أن نحضن كبرياءنا وننتزع ونهف بحشوع!

١٠٤٩ — إسمع يا أحي خيراً كريماً يؤول لعزائك وفرح نفسك: قال لي أح صادق: بني حين
تقدمت لأخدم الأسرار الإلهية، ولما وضعت الخبز والخمر على المذبح لظاهر وعطيتها وبدأت الخدمة،
نظرت وشاهدت وهذا المسيح نفسه قائماً يكهن معمد عظيم لا يُنطق به، ونهت من الصرخ وتغيرتني،
وهذا نفسي محترقة وجسدي يلهب بفرح ومحة. ومن التعبير الذي أدركني لم أعرف ماذا أصنع، فم
تقدمت لأعانق المظهر العجيب وقع عني نعمة خوف ورعدة، وغرقت في انصاع وحشوع كما في هاوية،
وسيت نوع ستعديس وبعه، وبعيت ساعة طويلة صامتاً في دهشة وتأملات عجيبة بلا تقديس ولا
كلام.

آه بلدة التي اعترتني في تلك الساعة والفرح والحلاوة التي لذلك المظهر، وذلك لمطور الذي يُظهر مجد
عظمته لنذين يطلبون نعمته و يعطي العزاء لمحبيه بنظره.

وما تغير من فدامي واحتني هذا المظهر عن بطري، غدت في انصاعي وحفاري وعرفت ضعفي،
ورجعت فأكملت قنوبي وتناولت الأسرار، ولكن حركتي طبت هادئة، وفيل في إن الجسد والنفس
كلاهما كانا مشتركين في ذلك النعيم، وبالحقيقة لا أعرف تماماً.

لكن عرفت أنه من حين يوضع القربان والخمر على المذبح يتقدس سر رحوي.

لذلك ينبغي لنا أيضاً أن نحفظ كرامة الخدمة لنلا نتغرب عن ميراث المجد.

١٠٥٠ — وفان في هذا الأح أيضاً إن هذه الرؤيا التي استُعيت له ظهرت له حين كان جسد ربا
محمولاً على يديه بمجد لا يُنطق به.

١٠٥١ — وقال أيضاً به عند تقديس الأسرار وفي كل سجود دائماً، كان يرى نور الثالوث القدوس غير المبطوق به، فكان قلبه يمتلئ فرحاً.

الشيخ الروحاني

١٠٥٢ — قد رُتبت الكنيسة لكي تكون مشابهة في كل شيء لما هو في السماء، فجمال الكنيسة من دخل يشبه عظمة عرش الله والفائمين حبه؛ والأنوار الكثيرة تشبه ضياء مجد الله وفديسيه؛ وعطر لبحور يشبه جمال رائحة الحياة الأبدية؛ والبخور الصاعد من مجامر الأربعة والعشرين فسيماً، ولأخادق ونساييح، تشبه هبيل الملائكة وترسيم الأربعة والأربعين ألفاً لترنيم الحروف.

فيلارت (مطران موسكو)

١٠٥٣ — كل الصلوات والقراءات في الكنيسة هي من أقوال الله، فهي تعاليم حية؛ كذلك فيها تمجيد وتسييح دائم وشكر وحمد لله، وفيها حث على محبة الآخرين وحض على التوبة بصلاة العشار «إرحمني». وهكذا كل من يفتح قلبه للصلوة في الكنيسة فإنه يمتلئ معرفة وحياة.

الأب يوحنا ك.

١٠٥٤ — لله موجود في كل مكان، ولكنه يحب الدين يسعون إليه ويأتون لبيته، وبالأخص الذين يتجشمون أتعاباً كثيرة في سبيل ذلك.

وهو في بيته مستعد لكي يسمع صلوات المحتاجين.

حيث أخذت الوعد بميلاد صموئيل النبي وهي فائمة تصلي في الهيكل.

وحيث النسبة بنبت صموئيل التي مكثت نحو ٨٤ سنة لا تفارق الهيكل عادة بأصوم وطمبات ليلاً ونهاراً؛ هذه وفقت في الهيكل تسبح الرب وتسابت عن ميلاد المسيح (لوقا ٢).

كذلك سمعان الشيخ أتى بالروح إلى الهيكل وهناك رأى يسوع مع أمه، فأخذه على ذراعيه وتبارك منه قبل أن يموت (لوقا ٢٥: ٢٥ - ٣٢).

في الكنيسة تُقام دبيحة المصالحة، حيث يجتمع الشعب وحيث يأتي الرب حسب وعده ليحل في وسطهم.

فإذا كنت قد أعضبت الله في شيء، في الكنيسة تتصالح معه، لأن هناك تشفع فيك أرواح القديسين وربما أحد المؤمنين الأحياء أيضاً.

لذلك حينما تقف في الكنيسة لا تسقط أنه يوجد معك من يصلي من أجلك دون أن تدري؛ وإذا

كنت تشعر بصعف صلاتك فتشجع وحدك أحد القديسين ليشفع فيك .

كثير ما ندخل الكنيسة وقومنا باردة من جهة الصلاة وهالك فحاة شعر بحرارة العبادة وقوة الصلاة، وما دبت إلا معونه من القديسين ومن صوت الكهنة ومن أحد المؤمنين المتواضعين .

وكثيراً ما وقفنا حامدين غير مكرثين، وفحة تلمح عيوب أحد المصلين وقد اسكت سكياً في الصلاة أمام الله، فسبب فوب بغيرة مقدسه وتسرى فيا حرارة الصلاة.

الأسقف بوتي

١٠٥٥ - أيها راهب! حين تخرج من فلايتك وتتوجه للكنيسة، فاعلم أنك داهب لمقاسد الله .
حد الوفاق في مشيتك، لا يهر يدك أو يسرع أو تخرى، ولا تنفت في سيرك عيباً وسراً لتصره وتخيئ
ذلك، بل تثبت نظرك في الأرض واعلم من أنت وأمام من ستقف!

١٠٥٦ - وبالأكثر داخل الكنيسة، حافظ على النظام بكل احترام وهدوء معطياً الكرامة لرب البيت، ولا تحاول أن تسبب إلى أحد ولا تنفت بظن لآخرين إليك، وذلك احتراماً لله ومنفعة لنفسك ولعدم الشوشرة على الصلاة والمصلين . كن متحدياً بأداب الراهبان القديسين ولا تتمثل بالدين لسوء شكل الراهبة خلسة، لهم منظر الراهبان وهم ليسوا راهباً، كنهم اضطرب وهوان وسهتر وعدم وقار.

لا تخرج وتدخل أثناء الصلاة، بل اصطص نفسك حتى نهاية الصلاة، ولا تخرج قبل إعطاء التسريح بأي حال، لأن في ذلك امهالاً لكرامة رب البيت ونشهاً يهودا الذي حرج دون إدن فدخله الشيطان .

لا يوحد سبب من الأسباب مهما كان هاماً في بطرك يستدعي خروجك وتركك الصلاة.

لا تعود نفسك الإسهتار بالأمر الصغيرة، لأنها هي التي تحمك تسهتراً بأمر الكنيسة والله، فتصبر مستيعاً مثل عيسو.

لذلك إهتم بكل نظام وترتيب داخل الكنيسة ودفق في كل حركتك بكل هدوء.

الأسقف إغناطيوس ب.

١٠٥٧ - يجب أن تتوجه إلى خدمة الصلاة في الكنيسة قبل كل شيء وقبل كل عمل، كذلك يجب أن لا تغادر الكنيسة قط إلا في نهاية الصلاة.

١٠٥٨ - إني مدهش كيف أن البعض قد بلغ بهم قلة الحياء، حتى أنهم بلا سبب معقون يتركون الخدمة الإلهية في الكنيسة ويخرجون قبل إعطاء الحل بالخروج (التسريح).

وهل إد دعائك رجل غني إلى العشاء، أتبلغ بك الجراء أن تعادر لعشاء وتخرج دون أخذ السماح

من صاحب لعشاء؟ أم أن العرف والنبافة يحتمان عليك البقاء حتى خروج الجميع فتخرج مودّعاً بالبركة؟

مارأفام السرياني

نص:

١٠٥٩ — [ثيما سفف أو قس أو شماس أو أحد من الرمرة كهنوبية لا يتناول عندما يصير تقديم القربان، فسيقول ما هو السبب لذلك؟ فإن كان العذر مفسوضاً فليُصَحَّحْ عنه، وإن لم يقل السبب فيُفَرِّمَ بما أنه صار سبب ضرر للشعب وسوء ظن في الذي قدم القربان].

قوانين الرسل

نص:

١٠٦٠ — [كل المؤمنين الذين يدخلون الكنيسة و يسمعون الكتب ثم لا يقيمون في الصلاة حتى إتمام القربان المقدس، ينبغي أن يُعَرَّرَوا بما أنهم مسببون التشويش في الكنيسة].

قوانين الرسل

١٠٦١ — نعلم من الكتاب الذي وضعه القديس مكاريوس، أن الأح المتدين لا يخرج من قلايته كنيته في وسط الأسبوع، ولا يزور الراهب أحاه في وسط الأسبوع أيضاً، وفي يوم السبت كانوا يخرجون من قلايتهم وقت لعشاء و يأتون إلى المجمع وهم صباء لأنهم طوب السنة صيفا وشتاء كانوا يجتمعون عشية السبت فقط، والذي كان يتهاون ولا يأتي إلى المجمع ليسمع القراءة والوعظ كانوا يقطعون عليه بحكم صعب.

يدخلون إلى المائدة جميعاً و يأكلون، ومن بعد الأكل يهفون للصلاة ليلة لأحد ساهرين بلا نوم من عشية إلى دكر بخدمة المزامير والتسابيح وقراءة الكتب وتفسيرها ومسائل الإخوة وأجوبة الشيوخ الذين كانوا مرتبين للوعظ.

وما كانوا يعطون فُشحةً لا للشيطان ولا لأحد الإخوة المحبين أن يتكلم كلمة واحدة تحلب خسارة لأحد، ولا راهباً يثلب رفيقه، ولا أحري يحرك خصومة على أحد، ولا أحداً يحكى شيئاً من ذكر العالم وأموره أو من سيرته البطالة حتى لا يتأذى أحد من الإخوة الحريصين.

حتى أن الذي يكون في ضيق أو ضجر أثناء وجوده في القلاية، عندما يخرج إلى مجمع الآباء في الكنيسة كان يستمع عطهرهم وتسري فيه حرارة الغيرة مثل النار، منتفعاً من أعمالهم وقوالهم ومشاهدة فضائلهم، فيتزود بمعونة ومنفعة عظيمة في أعماله وجهاده داخل القلاية.

وبالرغم من اسمعة العظيمة التي كانوا يحصلون عليها من اجتماعهم يوم الأحد، إلا أنهم لم يسمحوا

قط للإخوة أن يخرجوا من قلايهم في وسط الأسبوع.

ولأن يا إخواني إن كان أحد يحفظ سكود الأسبوع ويحفظ دحمه سكوبه بصط حواس وضع الأفكار بمقدار ما يستطع، عندما يخرج إلى المجمع في عسية يست إن رأى أنه لا يتقدم في الأمام ولا يساعد حروجه على حفظ سكوبه يست خلال الإخوة، فيسرع في السكود الكلي عليه مدحون والمخروج؛ ولا أحد يلومه إذا هو تخلف عن حضور الصلوات.

مار إسحق السرياني

١٠٦٢ — كان أحد رهبان يهمن حضور الصلوات بالرغم من وجوده في المجمع، وفي ذب منه يسم هو واقف يصلي رأى عمود نور مرتفعاً نحو السماء في المكان الذي يجتمع فيه الإخوة، وحوار العمود النوراني رأى نقطة من نور صغيرة مرة تسمع بصياء ومرة يحو نوره فلا تُرى، وسم هو يتأمل في هذا المنظر متعجباً، ذا بصوت الرب قائلاً: «لماذا نتعجب؟ هوذا عمود نور صلاة الإخوة الذين يجتمعون معاً بصلاة نسية، أما هذه نقطة صغيرة فهي صلاة الذين يعيشون في المجمع ويتحفون عن صوته، ولأن إذا كنت تريد أن تعيش في وسط مجمع فتمم كل فوائده واحتمل عاهه لمقروضة، وعندما تقوى وتستطيع أن تحيا بمفردك بعيداً عن المجمع وتنقطع للصلاة فافعل ذلك...»

بالليديوس

(كاتب سير الرهبان)

١٠٦٣ — حينما تنص صلاة طوبه على مسامع الشعب كصلاة لقداس أو صلاة لركة لأخيرة أو غيره من صلوات وقراءات النفسية، والتسببات يهمن في أدبك أن لا داعي لهذا لتطويل وأن الشعب لا يفهم الكلمات وأنه مضطرب للوقت ولا ضرورة لذلك ويدعوك للتعجبين.

وكما ندك تتغافل عن صوت النعمة وعمل الروح القدس. كم من مره ستخدم الروح القدس كلمات لصوت وقراءات في الكنيسه خلاص أنوف من الشعب! وإن الرهسة الأنطوية (نظام القديس أنبا أنطونيوس) تدس بوجودها لأنه واحده سمعها القديس أنبا أنطونيوس في الكنيسة وقت قراءه الإنجيل، فصدت إلى أعماق نفسه وكانت نواة الرهسة العطية: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب بغير كل ما لك وتعال اتبعني.» (مت ١٩: ٢١)

إذن فاستنوا صوته وقراءاتنا في الكنيسه بكل تأك ووضوح ولا تحتصر شيئاً فقط، وبذلك تُعطى فرصه لروح القدس أن يستخدم الكلمات لإندار قلوب السامعين. عبيك أن تنقي الذر ووبركهه للرب فهو ينميها حسب مسرته.

الأب يوحنا ك.

الفصل الثاني

إشارة الصليب



شكل (٢)



شكل (١)

+ « كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، وأما عندنا نحن المخلصين فهي قوة الله. » (١ كور ١: ١٨)

يعتمد الكثيرون أن الصليب هو علامة محرّده أو إشارة رمزيه لحادثة صلب المسيح .
لذلك لا يحدون بعتفدهم هذا أن يدع لإحترام الصليب أو السجود أمامه ، بل يتمادون في تحرّره الممنون الجاف بنى إنكار لرومية رسمه أو الإشارة به .

الصليب حامل لشخص المسيح:

ولكن الصليب ليس هو مجرد علامة أو إشارة بل هو أعمق من هذا بكثير، فهو يحمل
صفة شخصية ملازمة للمسيح . كما يعرفه الملاك لمريم المجدلية : «إني أعلم أنكما تطسان يسوع
المصلوب.» (مت ٢٨: ٥)

وكما يكرز به بولس الرسول : « نحن نكرر بالمسيح مصلوباً.» (١ كو ١: ٢٣)

إذن، فعملية صلبه لم تكن حادثاً وانتهى ، بل هي حادثة استعدت لها كل الأرونة
لسانقة لها وحملها كل الأجبان اللاحقة ، كتاب حي مفتوح للحلاص ولعبور إلى الملكوت
المعدّ.

ولا زال المصلوب يحمل في يديه ورجليه حروح الصليب حتى هذه الساعة .

«ورأيت فإذا في وسط العرش والحيوانات الأربعة وفي وسط الشيوخ حروف قائم كأنه
مذبوح! ... وبطرب وسمعت صوت ملائكة كثيرين ... عددهم ربوات ربوات وأوف
أوف قائمين بصوت عظيم مستحق هو الخروف المذبوح.» (رؤ ٥: ٦ و ١١ و ١٢)

فإذا، كان المصلوب لا زال دمه يفطر، فالصليب لا زال قائماً يعمل بقوة الدم المسفوك
عليه ! «عاملاً الصلح بدم صليبه.» (كو ١: ٢٠)

و نبد لنا أن نتأمل كيف جلب كلمة الصليب في الآية السابقة محن كلمة المسيح !
فالصليب إذن هو حامل لشخص المسيح ونائب عنه .

هبة الصليب:

والصليب كعلم الدولة الذي يحمل شخصية الملك والجيش والشعب معاً ، وإذا رُفع في

ية بفعلة من الأرض فإنه يمثلهم جميعاً بمثيلاً حياً وواقعياً، بحيث أن أي أمهات أو حتفاريوجه إليه فهو يكون موحها لدولة عموم في شخص رئيسها ونسبها وحشها، و يكون سبباً قانونياً لرد العدوان أو إعلان الحرب.

كذلك حسب إيراد إكرام دولة أو نخبتها، فإنه يرفع عندها ونحى أمامه لرؤوس وتقدم للورود وتعزف له الموسيقى السلام!

فهذا لعلم الصغير به هبة جيش وكرامة ملك و نأس سعب نأجمعه. وهذا كل لعلم الدولة مثل هذه الهيبة والكرامة والنأس التي لا تتوفر في شخص من أشخاص الدولة بمفرده، فالصليب الذي هو علم لمسيحيين الذي جمعهم من شتات لأرض إلى واحد، هو يحمل كرامة المصلوب عليه ووقوته وسلطانه وحبروقته. فإن كان يجب إكرام علم الدولة بإهداء الرؤوس لأنه رمز الدولة، فيجب السجود أمام الصليب وأن يقدم له كل ما يليق تقدمته للمصلوب عليه.

وإذا كنت تخشيتنا لنعلم هي موجهة لشخص الدولة وليس لعمدتش أو ألوانه، كذلك فيكرامنا بمصليب والسجود أمامه ليس هو لدنحسب أو لذهب وإنما للإله المصلوب عليه.

رسالة الصليب:

صلب من السيد المسيح أن تحمل الصليب وسر في أثره: ولكن ماذا يعني المسيح بحمل الصليب؟ إنه يعني:

بذل النفس: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل الله الوحيد...» (يو ٣: ١٦)

أعظم الحب: «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه.» (يو ١٥: ١٣)

تتميم إرادة الله حتى الموت: «إن شئت أن تعبر عني هذه الكأس ولكن لا إرادتي بل إرادتك.» (لو ٢٢: ٤٢)

إحتمال الخزي: «إحتمل الصليب مسهباً بالخزي.» (عب ١٢: ٢)

إحتمال التعيير: «كان النصارى الذين صلبوا معه يعيرونه.» (مت ٢٧: ٤٤)

إحتمال الآلام: «لأنه عرفه وقوة قيامته وشركه الآلهة متشبهاً بموته.» (١٠: ٣)

الإجتهاد إلى آخر نسمة: «فإن قد أكمل ونكس رأسه وأسدبه الروح.» (يو ١٩: ٣٠)

آخر درجة للطاعة: «طاع حتى الموت موت الصليب.» (في ٢: ٨)

قتل روح العداوة: «و يصالح الإثنين في جسد واحد مع الله بالصليب فاتلا العداوة به.» (أف ٢: ١٦)

العمل للصلح حتى الدم: «عاملاً الصبح بدم صليبه.» (كو ١: ٢٠)

التحرر من سلطان الخطية: «إنسانا العتيق قد صُلب معه ليُنظر جسد الخطية كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية.» (رو ٦: ٦)

دفع الدين وتمزيق الحجة: «محا الصك الذي عينا في الفرائض الذي كان ضداً لنا وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه بالصليب.» (كو ٢: ١٤)

شركة موت وحياة مع المسيح: «مع المسيح صُلِبْتُ فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا في.» (غل ٢: ٢٠)

إفتخار: «حاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح.» (غل ٦: ١٤)

إفتضاح الشيطان: «جرّد الرياسات والسلاطين، أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه (في الصليب).» (كو ٢: ١٥)

حسنا نؤمن بهذه المبادئ ونعمل بها، فحينئذ لا يكون حملنا للصليب باطلاً بل بحق ندعى مع القديسين: «لابسي الصليب»، وهذه الكلمة تعني الجهاد في السير في إثر المسيح حاملين لفضائل الصليب.

لمحة تاريخية عن تعلل إشارة الصليب في العادة:

إشارة الصليب تمديد كنسي قديم جداً يستدعى بانتداء الإنجيل حيث يشير إليه منى الرسول بأنها علامة ابن الإنسان (مت ٢٤: ٣٠).

وأول إشارة بعد الإنجيل نجدها سنة ١٥٠ م في قول ليرتليان العلامة الأفرقي:

«[في جميع أسفارنا ونحركنا، عندما ندخل وعندما نخرج، عندما ننس ملابست وعندما نجعلها في

لحمام وعلى المائدة، عندما شعل مصابيحنا وعندما نطفئها لننام، في جلوسنا وفي كل أعمالنا، نرشم أنفسنا بعلامة الصليب. [١]

ثم نسمع عنها في قول ليوليوس الأفريقي (١٦٠ — ٢٤٠ م):
[وحينئذ نرفع أيدينا ونرشم جبهتنا بعلامة الصليب.] [٢]

وفي قول لأوريجانوس (١٨٥ — ٢٥٤ م):

[وبقول أحد الشُّراح المؤمنين بالمسيح أن حرف « I » فيه شبه من الصليب، العلامة التي يصنعها المسيحيون على جبهاتهم سواء قبل الصلاة أو قبل قراءة الأسفار المقدسة.] [٣]

ونجدها في تعاليم أمبروسيوس (٣٣٩ — ٣٩٧ م):

[وعيننا حينما يستيفظ أن شكر المسيح وبدأ تتم أعمالنا اليومية بقوة الصليب.] [٤]

وفي تعليم كيرلس الأورشليمي (٣١٥ — ٣٨٦ م) للموعوظين يقول:

[فلا نخز، إذن، أن نعترف بالمسيح مصلوباً، بل ليت إشارة الصليب تكون ختماً نصسه بشجاعة بأصابعنا على جبهتنا وعلى كل شيء، على الخبز وعلى كأس الشرب، في عيشنا وذهابنا، قبل نومنا وعند يقظتنا، وفي الطريق وفي البيت.] [٥]

وفي قول مسهب للقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ — ٤٠٧ م):

[إن إشارة الصليب التي كانت قبلاً فزعاً لكل الناس، الآن يتعشقها ويتبارى في افتنائها كل واحد، حتى صارت في كل مكان بين الحكام والعامة، بين الرجال والنساء، بين المتزوجين والعذارى، بين المخطوبين وغير المخطوبين، لا يكفُّ الناس عن رسمها في كل موضع كريم ومكرم، يحملونها مغموسة على جباههم كأنها علامة طفر على سارية، يراها كل يوم على المائدة المقدسة، يراها عند رسامة لكهنة، يراها تتألق فوق جسد المسيح وقت تناول السري. وفي كل مكان يُحتفل بها في البيوت، في الأسواق، في الصحاري، في الطرق، على الجبال، في شقوق الأرض (مغاير الرهبان)، على التلال في لبحار، على المراكب، في الحرر، في المجدع، على الملابس، على الأسلحة، في الأروقة (المدارس)، في مجتمعات، على الأواني الذهبية، على الأواني الفضية، على اللؤلؤ، في الرسومات على الحوائط، على أجساد مدين مسهم الشيطان، في الحرب، في السلام، في الليل، في النهار، في رقصات المستهجين، في جماعات المنسكين، وهكذا يتبارى الجميع في اقتناء هذه العطية العجيبة كعمة لا يُنظف بها.] [٦]

(1) De Cor. Mil. C. iii.

(2) Hist. Lib. VI.

(3) In Ezech. cap. 9.

(4) Serm. 43

(5) Catech. XIII, 36.

(6) Chrysost., contra Judaeos.

وفي قول لأوغسطينوس (٣٥٤ — ٤٣٠ م):

« من أجل هذا ورتب عليه بثب قوة الصليب على جهته، حتى أن العلامة التي كانت للحرف
تصير للإفتحار. » (٧)

مواضع استخدام إشارة الصليب في الكنيسة الأولى

أولاً:

١٠٦٤ — نحن نتعارف على أعضاء المسيح بواسطة علامة الصليب التي يحملونها.

أوغسطينوس (٨)

ثانياً:

١٠٦٥ — وحيث أنه ليس كل من يتصور أنه قد أصبح مسيحيًا أن يرسمه من عدوه المصيب على
جبهته بعض من علامات المؤمنين. فخرج الأسقف منهم هزئاً، وحينئذ حدث هرج كد يسوسر على
الطقس.

لكتانتوس (٩)

١٠٦٦ — ومع صلاة رسمه فمات بالصب على جهته وحسنه لا تفريث السب طس لأنك تكون
متسحاً ضدهم.

يوحنا ذهبي الفم (١٠)

١٠٦٧ — بواسطة الصليب يستطيع الإنسان أن يطرد كل خداعات الشياطين.

أثناسيوس الرسولي (١١)

١٠٦٨ — ومن يريد أن يحترق هذا عملياً فليأخذ بطر كلف نفس خداعه من طس والعرافة
لكاذبة وعجائب السحر بمجرد رسم الصليب، فالشياطين تلوذ بالفرار.

أثناسيوس الرسولي (١٢)

١٠٦٩ — ومن طس بعد نفس أنه من بعد خداعها وعرفها الكذبة وسحرها، فإن هي خرات
وأقيمت على ذلك فإنها تضبط بالخزي والفضيحة بواسطة الصليب.

أثناسيوس الرسولي (١٣)

(10) Hom. LV, in st. Mat.

(7) St. John, Hom. LIII

(١١) عند الكلمة: ٤٧.

(8) Sermon, 53, De verb Die.

(١٢) عند الكلمة: ٤٨. (١٣) عند الكلمة: ٥٥.

(9) Lib. de Mort. Persec.

ثالثاً:

١٠٧٠ — نرسم الجسد بإشارة الصليب لكي يتقوى العقل والضمير بالإيمان.

ترتليان (١٤)

رابعاً:

كان القديس كبريانوس يشجع الشهداء ليحتملوا العذاب قائلاً:

١٠٧١ — اجعلوا وجوهكم تنمى بالصليب، وتسقط علامة الله سيمة.

كبريانوس (١٥)

١٠٧٢ — الوجه الذي تفتس بعلامة الله لا يحيى للشيطان، ولكنه يحفظ نفسه لإكبل لرب.

كبريانوس (١٦)

خامساً:

١٠٧٣ — الصليب دواء الغضب.

يوحنا ذهبي الفم (١٧)

١٠٧٤ — الصليب دواء الشهوة النجسة.

أمبروسيوس (١٨)

سادساً:

١٠٧٥ — هذه العلامة المقدسة مد أيام آثامنا حتى اليوم أظنت مفعول السموم وحلت قوة لعاقير وشفّت عضّة الوحوش السامة.

يوحنا ذهبي الفم (١٩)

سابعاً:

١٠٧٦ — تُطهر الأماكس والكائنات والأواني والكوؤوس والطعام والشراب، وكل ما كان نجساً بطبيعته كلحم الخنزير يصير طاهراً.

يوحنا ذهبي الفم (٢٠)

(14) De Res. Cornis., ch. 8.

(15) Epp. 56, 58, ch. 6.

(16) De Laps., ch. 2, tom. 1, 121.

(17) On Matt., 27, 44.

(18) Exhor. ad. virg.

(19) On Matt., Hom. 1.1V

(20) On 1 Timoth. 1V, Hom. 12 & Bede, Tom. III.

المراحل التي مرت فيها طريقة الرسم بالصليب

أولاً:

١٠٧٧ — طريقته لأولى في رسم صليب كرسب إيهام اليد اليمنى على الجهة اليمنى مرة واحدة أو ثلاث مرات.

يوحنا ذهبي الفم (٢١)

١٠٧٨ — ورسم علامة الصليب ثلاث مرات على الكأس.

صوفرونوس (٢٢)

ثانياً:

١٠٧٩ — نرسم الصليب على جهتيه على فناء. نرسمه على جهتيه حتى نعرف عباً بالمسيح وعلى قلبنا حتى نظل نحبه، ونرسمه على ذراعنا حتى يكون عملاً له.

أمبروسوس (٢٣)

ثالثاً:

١٠٨٠ — ثناء رسم صليب بذكر الثالوث لأن الإيمان بحبه باسم الآب والإس والروح القدس.
ترتليان (٢٤)

رابعاً:

وفي بداية القرن السادس ابتدأ يستقر طقس رسم الصليب المعروف لدينا الآن، فليد ترتفع إلى الجهة ثم تنزل إلى القلب إلى الكتف الشمال ومنه إلى الكتف اليمين. ويجعل الإبهام في صليب مع الأصبع التالي له. (٢٥)

خامساً:

وفي القرن السادس أيضاً ظهرت طريقة تقليدية أخرى ظلت متداولة، وهي رسم الصليب على الجهة باسم الآب لأنه رأس الكنيسة، ثم على الصليب باسم الإله باعتباره كنيسة الآب، ثم على القلب باسم الروح القدس باعتباره رباط الحب.

(21) Hom. ad . pop. Antioch, XI.

(22) In Prat. Spirit.

(23) De Isaac et Anna VIII

(21) De Bapt. cap , 6

(25) Gretser. de Cruce bk , IV, c. 2

وفي هذه الطرق كلها إما يُستَخدم الإبهام بمفرده أو ثلاثة أصابع أو الخمسة الأصابع معاً:

فاستخدام خمسة الأصابع تمثل الخمسة الجروح التي جُرح بها السيد على الصليب؛
واستخدام الثلاثة الأصابع تمثل الثالوث الأقدس؛
واستخدام الأصبع الواحد يمثل الله الواحد.

ملاحظة:

الرسم رقم (١) على ص ٥٥٩ سبق أن بيّناه أثناء كلامنا، الذي فيه يصنع الإبهام مع السبابة شكل صليب واليد تكاد تكون مغلقة، وهكذا يرسم الإنسان نفسه بهذا الوضع.

أما الرسم رقم (٢) فهو رسم تقليدي استلمته الكنيسة منذ العصور الأولى. وعندنا صور قديمة للقديس غريغوريوس النريزي برسم يده لحادثة التجلي ولدعوة بطرس الرسول واندريوس أخاه ولدعوة متى الرسول ولدعوة زكا، وصور أخرى محفوظة بمتحف اللوفر بفرنسا، فيها يبين القديس غريغوريوس (القرن الرابع) المسيح رافعاً يده بهذا الوضع تماماً و يسمى وضع البركة. كما توجد صور أقدم من هذه من القرن الثالث فيها أشخاص قديسون وأساقفة يرفعون أياديهم بهذا الوضع للبركة حينما يُراد الرش على الآخرين بالصليب وإعطائهم الحِلَّ أو البركة.

وقد حاول بعض المفسرين تفسير هذا الوضع عن اجتهاد، وليس عن تسليم، فاحترعوا أسباباً متعددة منها أن الأصبعين السبابة والوسطى يشيران إلى الطيبعتين والمشيتين وهذا تعليل خطأ.

ودلينا على ذلك وجود هذا الوضع في أيقونات فبطية صميمة من القرن الرابع من دير باويط بالصعيد، أنظر الأيقونات أرقام ٢ و ٣ و ٤.

ولكن حسب التسليم السري « Disciplina Arcani » المتداول في مصر يُشرح هذا الوضع هكذا:

وصع الإبهام على طرف لسر يحدد رقماً معيناً هو الرقم (١٠)، وهو عدد عُقَل لأصابع في مجموعها من الإبهام والسبابة والوسطى، والعُقلة الأولى من البصر التي يشير إليها الإبهام. هذا الرقم (١٠) هو حرف اليوطا اليوناني (ι) وهو الحرف الرسمي السري في الكنيسة

لدي يعبر عن المسيح (لحرف الأول من اسمه) (٢٦) . ومعنى هذا أن الشخص حينما يصنع هذا الوضع بيده يكون بمثابة من يرفع يده باسم المسيح . أما في حالة لمسيح نفسه فحينما يرفع يده بهذا الوضع فهو يعبر عن Ego Eimi أي «أنا هو» .
هذا فضلاً عن أن الرقم (١٠) هو رقم البركة .

أما الأصبعان لسبابة والوسطى فهما في وضعهما المنحني يكونان حرف في اليوناني (١) وهو أو حرف من كلمة vna ومعناها: الغالب أو المستصر . والملاحظ أن هذا الوضع الذي يُشكّله الأصبعان لا يزال سارياً في أوروبا ، حينما تُرفع اليد ليستكمل الأصبعان لسبابة والوسطى حرف ١ أول حرف من كلمة: victory أي النصر الذي هو نفس معنى الكلمة اليهودية المذكورة سابقاً . وهذا هو أقوى تعبير للبركة ، كما يكون وضع اليد بهذا الشكل معبراً عن أعظم معنى للبركة .

وهذا التقيد السري في كيفية رسم الصليب للبركة لا يزال يستعمله الكاهن لحديد حتى اليوم عند بدء استلام أصول رسم الذبيحة .

(٢٦) نصر ثلثون سنة لاحقاً فصنع لأول مرة من «خشب صندل» صليباً من خشب صندل على صورة (١) هي
نفسه بعد عشرين سنة في رسم الخلاص الذي لربنا يسوع المسيح .

أقوال الآباء عن إشارة الصليب:

١٠٨١ — أعطانا سيد المسيح إلهنا الصليب سلاحاً نافذاً يفقد في النار والهواء والماء والأرض ولا يحجبه شيء أو يعترض قوته عارض. فهو قوة الله التي لا تُقاوم. هرب من صورته الشياطين حين يُرسم به عليها!

لصليب هو قوة المسيح لمخلص والملائكة يخضعون لقوته ويتبعونه حين شاهدوا رسمه يبعثوا ستحياء إليه. ولا تحصل نخبة لمن حمل الصليب إلا لدى صعقت أمدته فيه.

البابا أناسيوس الرسولي

١٠٨٢ — حينما نرسم علامة الصليب بإيمان نكون قد اعترفنا وآمنّا بموت المسيح وقيامته، ويكون عملنا بمثابة نُطقٍ بالإيمان المقدس.

فيلارت (مطران موسكو)

١٠٨٣ — بدلاً من أن نحمل سلاحاً أو شيئاً يحميك، إحمل للصليب وطع صورته على أعضائك وحبك، ورسم به ذاتك لا بتحريك اليد فقط بل ليكن رسمك نذراً ولمكر بوضاً، رسمه في كل مناسبة: في دحوت وحروك، في جنوسك وقيامك، في نومك وفي عملك، إرسمه باسم الآب والابن والروح القدس.

مارأفرآم السرياني

١٠٨٤ — لا تحل يا أحي من علامة الصليب فهو يسوع لشجاعته والبركات وفيه حياة مخلوقين خنقة جديدة في المسيح... إلبسه وافتخر به كتاج.

يوحنا ذهبي الفم

١٠٨٥ — يقول الآباء أن الذي يرسم دانه بعلامة الصليب في عجزه بلا اهتمام أو ترتيب، فإن لشياطين تصرح به. أما الذي في رويته وثبات يرسم دته بالصليب من رأسه إلى بطنه ثم من كتفه الأيسر إلى الأيمن فهذا تحل عليه قوة الصليب وتفرح به الملائكة.

١٠٨٦ — إن الإلهام في تأدية رسم الصليب أمر ربما تُدان عليه. فإن رسم الصليب إعتترف يسوع المسيح مصدوباً، وإيمان بالآلام التي عاناها فوق الصليب. إنه اعتراف ودكرى لعمل الرب، ومكتوب في إرميا ٤٨: ١٠: «ملعون من يعمل عمل الرب برخاوة».

١٠٨٧ — إن في إشارة الصليب كل روح الإيمان المسيحي: فيه اعتراف بالثالوث الأقدس الآب والإبن والروح القدس.

فيه اعتراف بوحداية الله كإله واحد.

فيه اعتراف بتجسد الإبن وحلوله في بطن العذراء.

فيه اعتراف بقوة عممية الهدى التي تمت على الصليب بانتقالنا من اشمال إلى يمين.

إذن، فيليق بنا أن يكون رسمنا للصليب فيه حرارة الإيمان.

١٠٨٨ — إنه مذهش بالحق وغير مدرك كيف أن قوة المسيح تحل في رسم الصليب لإطفاء الحريق وطرد الشياطين وتسكين الآلام وشفاء المرض، ولكنه بالضبط سر غير مدرك كحلول الروح القدس في الخبز والخمر فيصيران لحمًا ودمًا.

وأيضاً إذا كنت قوة يسوع المسيح حائثة في مكان وتستطيع أن تدعو الأشياء غير الموجودة إلى الوجود أي تحققها من العدم حتماً، فبالأولى والأسهل أن تحل هذه القوة لتعبير الأشياء الموجودة من لمرص أو الفساد إلى الحياة والصحة بإشارة الصليب المحيي.

ولكن لتلا يظن الناس أن قوة السماء كائنة في الخشب أو الذهب لمصوغ منه الصليب أو في مجرد لفظ الاسم فقط، صارت قوته وفاعليته متوقفة ومحدودة على الذين يؤمنون فقط.

الآب يوحنا ك.

١٠٨٩ — نحن نكرم الصليب ونطلب قوته المحيية في صلواتنا قبل أن نطلب معونه القديسين أو شفاعتهم، وذلك لأن الصليب هو علامة ابن الإنسان ورسم تحسده وآلامه خلاصته. فعلى الصليب قدم السيد المسيح نفسه ذبيحة لله الآب من أجل خطايانا لكل من يؤمن به. لذلك صارت علامة الصليب هي الإشارة المشتركة بين جميع المؤمنين كرمز للخلاص والمحبة المشتركة.

١٠٩٠ — فبكرم الصليب المقدس الذي أعطينا أن نعلب به العدو النسيم، ونرسم به على حناها وقلوبنا وسائر أعضائنا لطرد به الشيطان.

الصليب علامة لرب وحاميته الذي به صار الخلاص لأدم ودربته من أسر بندس عدوه.

الصليب هو موضوع فخر في هذه الحياة وهو علامة إيماننا، كما قال بولس الرسول: «وَمَا مِنْ جِهَتِي فَحَاشَانِي أَنْ أَفْجُرَ إِلَّا بِصَلِيبِ رَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ الَّذِي بِهِ قَدْ صُلبَ الْعَالَمُ وَأَنَا لِلْعَالَمِ.» (غل ١٤: ٦)

كذلك لا نستحي من الصليب لأنه مكتوب أن «كنمة الصليب عند هالكين جهالة فما عندنا نحن المختصين فهي قوة الله.» (١ كو ١: ١٨)

بالصليب عب فسطنس بنت الدراء أعداءه وارتفع شأنه لما أظهر الرب له علامة لصليب مصيئة في السماء قائلا له: «هذه العلامة تغلب أعدائك»، فعلت، وصار الصليب قوة الملوك وعزاءهم وينصرهم، يضعونه فوق تيجانهم لكي يباركهم ويؤيدهم وينصرهم.

كذلك فالصليب هو قوة المجاهدين وسلاحهم، فقد أوصاهم الرب قائلا: «إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَيُنْكَرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتَّبِعْنِي.» (مت ١٦: ٢٤)

١٠٩١ - إن كانت الحياة الحساسة قد انطلبت سم الحيات في العهد القديم فكم بالحري صليب ربنا يسوع المسيح الذي رفع عليه، لا حياة نحاسية، بل رث المجد، وسكب دمه على الصليب ليصير لنا بالدم الحياة وبالصليب النصر.

كيرلس (الأورشليمي)

١٠٩٢ - إن الشياطين توحه هجماتها المظورة إلى الحساء، فارسموا أنفسكم علامة الصليب بشجاعة ودعوا هؤلاء يسخرون من دواهم. أما أنتم فتحصنوا بعلامة الصليب.

١٠٩٣ - حيث وُجدت إشارة الصليب، ضُفِّت الحرو وتلاشت قوة العرافة.

أبنا أنطونيوس الكبير

١٠٩٤ - قدم نبي أنطونيوس بعض المرضى المعذبين من لأرواح النجسة إلى بعض فلاسفة هراطقة فائلاً لهم: هل تستطيعون تطهيرهم بالحج أو بأي من أوساخ خنازير داعين أصنامكم؟ وإلا كُفُّوا عن مسارعنا، إن عجزتم. وعندئذ ترون قوة صليب المسيح. ولقد هد ودعا المسيح ورثم لمرضى ثلاث مرات بعلامة الصليب، وفي الحال قام الرجال أصحابهم وعفنتهم سيم وهدموا الشكر للرب في نفس اللحظة.

سيرة أبنا أنطونيوس لأثناسيوس الرسول

١٠٩٥ - حينما ترسم ذلك علامة الصليب، أذكر دائماً أنك تستطيع بقوته أن تصب شهواتك وخطاياك على حشبة الخنص «هود حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١: ٢٩)، علماً أن في الصليب

قوة إخماد لشهوة وإبطال سلطان الخطية برحمة المصلوب عليه.

١٠٩٦ - حينما ترفع بطرث بن حشه الصليب لعننه فوق أخيك، تذكر مقدرا الحب الذي حب به الله حتى بذل ابنه حبيبه لكي لا يهلك كل من يؤمن به.

فأيها واحد الصليب وحدث اسمه، لأنه هو علامة الحب الذي عند نوت وفهر هوية وسهان بالخرزي والعار والألم!

فإذ رأيت الكنيسة مرداة بصلبان كثيرة، فهذا علامة امتلائها بالحب لكثير عو جميع أولاده.

١٠٩٧ - حين يباركك الكاهن أو الأسقف وترسمت بالصليب المقدس، إفرح وقل دنت كبركة من السيد المسيح. طوبى لمن قبل رسم الصليب على رأسه بيمين. « فيجعلون اسمي على بني اسرائيل وأنا أباركهم. » (عدد ٦: ٢٧)

١٠٩٨ - إن السيد حين ترسمت من منظر الصليب وحتى من مجرد الإشارة به بأيدي. لأن السيد المسيح به أجد صخر السقوط وكل قوائمه ورأسه على الصليب، وحزدهم من رؤسهم وفصحهم عند: فصارت علامة صليب تدكير لهم بالمضيحة وإشارة إلى العذاب المزمع أن يطرحوا فيه.

الأب يوحنا ك.

١٠٩٩ - إن السباغين إذ رأوا لمسيحيين، سي الرهبان، مخنيين بالسباح ومقدمين، فبههم بأحدهم أولاً بالتحرره ووضع اصعاب لعرفته طربهم بخاوة أن يصب فيهم الأفكار الشريرة، ولكن لا ممرر للحواف من إغراءهم لأن هجومها يرد حائثا في الخوف والصلاة والصوم، ... سي إن كان مرء قد سبق فحفظ نفسه بالإيمان وعلامة الصليب.

١١٠٠ - إذ مدحت سبباغين سكرهم ودعكم ماركين فلا تصعوا إليهم ولا تكن لكم معاملات معهم، بل بالآخرى إرسموا دونكم وبنوكم بعلامة الصليب، وصنوا، تحذوها قد بفسعت، لأن في عناية حسن وغنى حد علامة صليب الرب، لأن الرب قد حزدها بالحق وأسهره جهارا على الصليب (كو ١٥: ٢).

١١٠١ - جاء بعض حكماء اليهوديين وصنوا من القدس أن أنطونيوس أن يشرح لهم سبب الإيمان بالمسيح، ونكهم حاولوا أن يحاوه بصدد الكراهة بالصليب لإلهي قاصدين لإسهره (ب صلب). فوقف أنطونيوس قليلا وأشفق على جهنهم، ثم حطهم بواسطة مترجم قائلا:

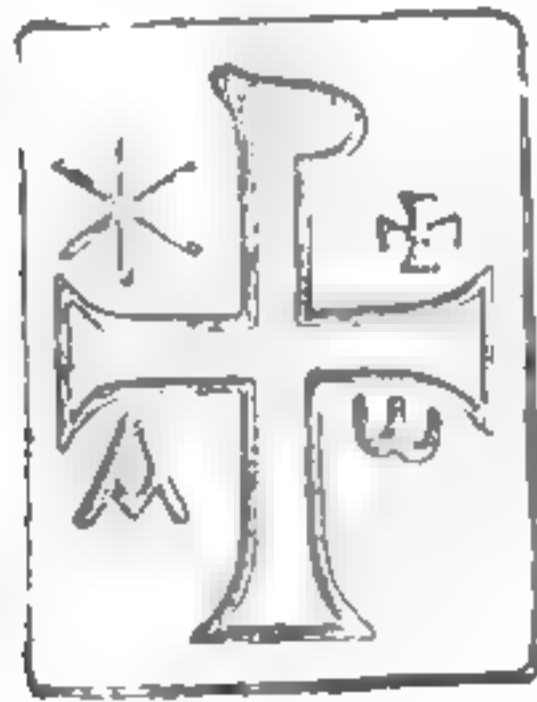
- « إن ما اخترناه هو الإعتراف بالصليب علامة الشجاعة واحتدر الموت، أما أنتم فقد احترمت سهوت الخلاعة. أيها أفصل حين لصيب وقت مؤامرة الأشرار دون مخافة الموت مهم أي في وضع

من أوضاعه، أم الإلتجاء إلى آفة الأحجار؟!
ما الذي وُجد في الصليب حتى يستحق الهُزء؟»

من سيرة أنبا أنطونيوس بقلم أثناسيوس الرسولي

١١٠٢ - نص: [من حيث أن نصيب المحي قد أظهر لنا الخلاص، حب عينا أن يبدى كل
سعي وجهاد في أن سوى الكرمه الواحة لدى وسطه حصا من السمطة مدعة، بذلك نهدم له
السجود بالعقل والقول والحواس.]

من القانون ٧٣ لمجمع القسطنطينية الثاني عند الروم



الفصل الثالث

الآيقونا

- + «رأوا الصبي مع مريم أمّه فحروا وسجدوا له.» (مت ٢: ١١)
- + «هو صورة الله غير المنظور.» (كو ١: ١٥)
- + «هو بهاء مجده وزُسم جوهرة.» (عب ١: ٣)
- + «قد رُسم يسوع المسيح بيسكم مصلوناً.» (عر ١: ٣)
- + «أنا لا أساك. هودا على كفي نقشتك.» (يس ٤٩: ١٥ و ١٦)
- + «أذكروا مرشديكم.» (عب ١٣: ٧)

حينئذ نتأمل في الأنصوب لا تنفد عند حدود الألوان والأحساب ونحن نحن من عدمه، لكن رافع فكرت إلى وراء الألوان والمادة، إلى شخص صاحبها، إمرح مس عرت بمساعره حينئذ تقرأ فيها قصة حياته كلها في نظرة واحدة وتعود محملاً بمواقف جديدة من حياته المثيرة. إن كان هؤلاء القديسون قد أضاءوا لعالم يسيرهم في حياتهم، فلا زال نورهم يصيء بفعل السعة، بل سيظل يصيء إلى الأبد؛ ومن نك الصور، لا قصص حياتهم قد امتدت إلى جيبنا وسوف تعمره إلى ما بعده من الأجيال تنطق بجهادهم الذي قدموه، وتسهد لإكليلهم الذي نالوه، وتهتف بالمجد العتيد أن يتمجدوا به.

ب. صورة القديس هي اسمه وإمضاؤه الذي تركه على الأرض كسهد للمسيح، فإن فسها فأنت نفسه وإن كرمها فأنت تكرمه وتكرم الذي أرسه:

«من يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني».

«من يقبل نبياً باسم نبي فأجر نبي يأخذ».

«من يقبل باراً باسم بار فأجر بار يأخذ» (مت ١٠: ٤٠ و٤١).

أما فولت وتكرمتك لصورة القديس فهو في الواقع يس فولاً وتكريماً لشخص القديس فحسب، وإنما قبول وتكريم لمن قدس وأرسه إلى العالم.

وثمة موضوع آخر هو في غاية الأهمية والدقة، فالأيقونات المقدسة التي تراها قائمة في الكنيسة قد أخرى لها طمس صلاة خاص يسمى صلاة لتكريس، وذلك أثناء القداس الإلهي، بالصلاة عنها وذهابها من يد الأسقف يدهن المرون المقدس الذي هو حمة الروح القدس (ولدى لا ندهن به إلا الخارجون من جرن المعمودية فقط!).

وتعصى الأنفوية وفي تكريس نفخة الروح القدس من فم الأسقف أيضاً ليحن فيها ويعمل بها لشفاء واستجاة الصلاة. بهذا الطمس نكون للصورة صفة الأقداس المقدسة في كنيسته، ويكون لها هيئة تدكرنا بهية المذبح أو هيئة تابوت العهد في العهد القديم، وبذلك يجب اسجود و لتوفير وتقديم البخور والعبادة لشخص الله فيها.

أما الصورة التي لم نُكرّس بمسحة الميرون ونفخة الروح القدس من فم لأسف، فيُكتفى بتكريم شخص القديس فيها فقط ولا يجب لها سجود أو تقديم بخور أو صفة من صفات العبادة التي تُقدّم لله وحده.

فلا تعجب إذن من المؤمنين الذين يتقدمون للأيقونات بوفار عظيم وسجود وسؤال وطلبية، ويلمسون أطرافها بأيديهم، لأنهم يكرمون الله ويلمسون الميرون المقدس الذي رُشّمت به الصورة والذي يحمل آثار الحنوط التي ذهبن بها جسد السيد المسيح له المجد.

أما المعجزات التي تحدثت عن طريق الأيقونات المقدسة فتحدث بسبب ثلاثة عوامل هامة:

الأول إيمان المريض، والثاني شفاعاة القديس، والثالث قوة الميرون المقدس.

والذين يعوزهم الإيمان بقوة عمل الأيقونات في الشفاء والاستجابة، يلزمهم أن يروا أعينهم مقدار الرعب والفرع الذي يداهم الروح الجس و هو على أحد المرضى حينما يواجه بصورة بطل من أبطال الإيمان أو الإستشهاد، كأيقونة مار جرجس أو مار مينا أو القديس مرقور يوس؛ فكأنما تكون هناك معركة واقعة بين القديس صاحب الأيقونة ولسيطان تسمع فيها صراخ وفزع الشيطان من الحربة ومن طعن الرمح؛ بل وترى بعينيك أثر الدماء الذي غالباً ما يكون على ملابس المريض بعلامة صليب وبعدها يقوم المريض معاني في لحظة.

أجساد القديسين:

كثير من الكنائس الأثرية والأديرة تحظى باحتفاظها بعض أجساد القديسين والشهداء. وقد صار لهذه الكنائس كرامة خاصة بسبب وجود هذه الأجساد التي ظلت مصدر بركة وشفاء الكثيرين حتى هذه الساعة.

والفكرة الروحية في استطاعة هذه الأجساد لعمل المعجزات والشفاء واضحة جداً من حادثة قيام الميت الذي لمس عظام إيلشع النبي.

فالمسألة ليست عظماً أو أجساداً ميتة وإنما مسألة نعمة وقوة الروح القدس التي لم تُفارق هذه الأجساد بعد موت أصحابها. لأن تقديس الروح القدس للآباء القديسين كان لأجسادهم وأبصارهم معاً، ولما انفصل الجسد عن النفس بالموت لم ينقص تقديس الروح القدس لا عن النفس ولا عن الجسد، فكل أثر من آثار هذه الأجساد المقدسة لازال يحمل

فعل الروح القدس وقوته وتقديسه .

والموضوع لا يحتاج إلى شرح ، و يكفي أن تفهم أمام أحد هذه الأجساد المقدسة لتشعر بحقيقة هذا الكلام . لأنك سوف تشعر أنك في حضرة قدس ، وسوف تأخذك رهبة خاصة تُنسب أتعابك وهمومك ، وسوف تخذ نفسك مدفعاً لنفسيه وسؤاله المعونة والشفاعة .

بها هبة من هبات الله الكثيرة التي حصل بها كنيسة المحونة أن تحفظ فيها هذه الأجساد المباركة بمعونته حتى هذه الساعة ، لتكون عوناً للكنيسة في ضيقها وضيقات أولادها ، وفي أتعابهم الكثيرة في هذه الحياة .

لمحة تاريخية عن الأيقونات في العبادة:

لقد فرّق الله في وصاياه بين استخدام الأيقونات أي الصور في العبادة الرسمية التي تتبع تدبيره وتحددّها هو بوصاياه ، وبين صنع أيقونات لعبادة أمور خاصة يراها الإنسان ويرهبها من وجهة نظره الخاصة سواء كانت هذه الأمور سمائية أو أرضية . ففي الوقت الذي حرّم فيه تحريماً قاطعاً باتا صنع أي صورة أو تمثال بصفة عامة ، عاد فأوصى موسى بصنع تماثيل شارو و بيم بأجحة متعاقبة لتعطي على غطاء التابوت ليدلّ على الحضرة الإلهية التي تكون بينهما بالفعل بتسبه نور أزرق سماوي جميل (الشاكياء) . ثم عاد وأوصى موسى (خمر ٢٦ : ٣١) لكي يصور الشارو و بيم مرة أخرى على الحجاب الحريري الذي يفصل قدس الأقداس عن القدس (الذي يقابله الأيقونوستات — حامل الأيقونات — في الكنيسة الآن) ، وذلك ليدل على مكان وجود الله في الداخل .

ولكي يكون تمثالا للشارو و بيم وصورتاه على قدر كبير من الإتقان والجمال ، تدخل الله بنفسه ومملاً رجلاً يهودياً فناناً موهوباً من روحه وحكمته وآرره بالفهم والمعرفة مع جماعة أخرى من المساعدين الفنانين الحكماء ، وذلك لكي يكمل هذه التماثيل والصور والنفوش المحتشمة على أحسن وجه : « وقال موسى لني إسرائيل أنظروا . قد دعا الرب بصنّئيل بن أورى بن حور من سبط يهوذا باسمه ومملاًه من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة ، وإلّا اختراع مخترعات ، ليعمل في الذهب والفضة والنحاس ونقش حجارة لترصيع ومحارة الخشب ليعمل في كل صنعة من المخترعات ... وكل عمل النقاش والحائك الخاذق والطرّاز . » (خمر ٣٥ : ٣٠ — ٣٥)

ثم عاد الله وأمر موسى بصنع تمثال من نحاس لحية محرفة أي نارية (صنف الحيات الذي يقطر منطفة وادي العربة حول خليج العفبة وهي حمراء اللون لذلك تبدو متقدة بأسار)، ووضعها على سارية تكون مصدر شفاء لكل من يرفع نظره إليها.

ويعود العهد القديم في أيام سيمان ابنك ليكررا به نفس الترتيبات لصناعة التماثيل والصور، فبحث بضرورة وجود رجل فاضل بموء بالموهبة والحكمة مع فدين حكماء آخرين لتكميل متطلبات الدقة في صناعه الفن الروحي والعبادي الطمسي.

ولكن يمتار عصر سيمان بالتدقق الروحي العزيز في شئون الفن الطمسي، فنجد أن صورة الساروبيم تصح وحدة فيه متكررة تملأ كل حيطان الهيكل المغشاة بالذهب: «وجميع حيطان البيت في مستديرها رسمها بنمر كرويم ونخيل وبراعهم رهور من داخل ومن خارج.» (١ مل ٦: ٢٩)

وجعل تماثيل الساروبيم في قدس الأقداس ضخما، طول التمثال عشر أذرع، و يمول الكتاب أن طول أحجته في مجموعها عشر أذرع: «عشر أذرع من طرف جناحه إلى طرف جناحه. وعشر أذرع الكروب الآخر» (١ مل ٦: ٢٤ و ٢٥)، ثم عاد وصور الكروبيم كصورة على الحجاب الحريري الذي يفصل قدس الأقداس عن القدس.

وزاد سيمان بأن جعل المرحلة تقوم على رؤوس تماثيل اثني عشر ثورا من نحاس. وجعل حافة المرحلة ترنكز على تماثيل شبه ثمرة القثاء ونسبي الحافة من فوق بزهور مسوكة من النحاس على صورة زهرة السوسن. وكانت الأختاب كنها والحجارة ممشوشة على شكل براعم زهور (١ مل ٦: ١٨) وصور نخيل (١ مل ٦: ٢٩).

وجعل وراء الحجاب الذي يفصل قدس الأقداس عن القدس باباً من الخشب نقش على مصراعيه رسم «نقش كرويم ونخيل وبراعهم زهور».

وكذلك عمل لمداخل البيت كله، أي لمبات الخارجي، نفس المشوش والصور.

وجعل على رؤوس تيجان الأعمدة صفوفاً دائرية من التماثيل على شكل الرمان من النحاس لمسبوكة عددها أربع مائة على صفين. أما التاج فكان على صورة زهرة السوسن.

أما المرحلة فأضاف إلى تماثيل الثيران التي تحملها تماثيل أسود. ثم عاد ونقش على

الحساس المصنوع منه المرحضة صور كروبيم وأسود ونخيل وفلائد زهور مستديرة.

وهكذا يستند بعبية توضوح أن التماثيل والصور والنقوش بكافة أنواعها ورموزها ومدلولاتها كانت جزءاً لا يتجزأ من العبادة الطقسية.

كم يستند أن هناك عامدين أساسيين في الفن الطقسي أعطاهم الله نفساً، رعاية وأهمية خاصة: أولاً: المدلول الروحي، ثانياً: الإتقان الفني.

فمن حيث لم يكن الفن الذي نجد أن الله لا يغير لأى إنسان عبر موهوب هبة خاصة أو موازير للإلهام الروحي أن يبحر عن حث أو نفس أو رسم وتصوير المقدسات، لأن الإتقان الفني في المفهوم الروحي الطقسي ليس هو مقدرة شخصية إنما هبة ونعمة وإلهام إلهي، فهو قطعاً ليس اجتهاداً أو تمريناً، لأن المتصور من الإيمان الفني هو أن الإنسان لإحساس إلهي لشعب كجزء من لعبادة وليس الملحة الشخصية، فالمنفعة النفسية لا وجود لها على الإطلاق في العبادة.

كذلك فإن من المتصور أن ليس في غرف الله مجرد ملء فرع أو تأدية طقس، والصورة لا ترسم ملء راوية معينة في لكيسة مقروص أن تملأها ولكنها ترسم ملء روح الشعب وتحريك عواطفه وربطها بالعبادة وبالله!!

أما مدلول الروحي في الفن الطقسي فكان ولا يزال ينقسم إلى ثلاث مراحل أساسية متلاحمة:

فالمرحلة الأولى هي مرحلة الرمز، والرمز في الفن العبدى الطقسي يحمل نفس قوة لوقع، وهذا نجد أنه يمتثل الحبة الحساسية. وللمصنوع رمزى محض، وقد اكتشف هذا الرمز في العهد الجديد، وقد كشفه المسيح نفسه حين قال: «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان»!! (يو ٣: ١٤)، ولكن بالرغم من أن تماشى حبة كان رمز مهم غير مفهوم تماماً في وقته إلا أنه كانت له قوة الشفاء الكامنة!!

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الواقع، والواقع في الفن لعبادي لا ينس إلهاماً ودهشة عن الرمز. وهذا نجد أنه يمتثل الكروبيم الناصط جناحيه على الساكنية حيث يوجد بالفعل نور به وصوته المتكلم. فهذا أمر حتمي وواقع بالفعل، ولكنه حطير ومعلق، ويحتاج إلى من يفهمه، لذلك لم يكن يجرؤ أن يدخل إلى حصرة الله إلا رئيس الكهنة تعبير عن سمو الله لفائق «لا أحد يعرف الآب إلا الابن». (مت ١١: ٢٧)

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التاريخ: والتاريخ في الفن العبادي الطقسي ليس منعزلاً والتذكرة وحسب، بل هو مثل الحفنة الإلهية من جبل إلى جبل، لأن الله هو كمي هو أمس واسم وإن الأبد وذلك من خلال الفن الرمزي والواقعي معاً. وهذا جده حتى اليوم حين يرسم الحية السحاسية المحرقة (السارية) المرفوعة على السارية، أو يسكنها بالسحاس الأحمر الغلّي ويجعلها في طرف عصاه الأسقف، أو حتى يرسم إسحق حاملاً الخطب بجوار المسيح وهو حامل الصليب، فهذا رمز تاريخي ولكن له نفس قوة الواقع، والواقع القديم التاريخي له نفس قوة الواقع والحاضر والمستقبل أيضاً!! وهذا يعني أن نشأ الفن التصويري الرمزي كان واسطة أساسية شفاء الإنسان الذي لدغته الحية حين كان يرفع بطره نحو تمثال الحية. السحاسب المرفوعة على السارية، وعلى نفس النمط تماماً أو كاستمرار هذا الواقع الرمزي التاريخي المصور برفع أعيسا إلى المسيح المرسوم أماماً في الصورة مصوباً كواقع حقيقي في صميم الحاضر فتش من عضه الحية القدماء المميتة التي هي عضه الحية!! وسر الشفاء قدما هو هو سر الشفاء حديسا والواسطة واحدة لأن الرمز والواقع واحد ولا يفصلهما إلا عن الإنسان: وسر الحفنة القديمة وسر الحفنة الحاضرة واحد ولا يفصلهما إلا اكتشاف السر الإلهي بالتجسد.

إذن، فصورة الحية السحاسية وصورة المسيح المصنوب والحفنة الإلهية المكتملة سر الشفاء لا يمكن التمييز أو الفصل بينها، فالرمز والواقع والحفنة وسر الإلهي تتقابل كلها داخل الإنسان وليس داخل الصورة إنما بواسطتها!! والصورة هي الصورة قدما وحدثا!!!

بدء ظهور الأيقونات في العهد الجديد

وتطورها على مدى العصور

أولاً: تأخر ظهور الأيقونات في القرن الأول:

لأسباب جوهرية تأخر ظهور الأيقونات في القرن الأول المسيحي نخصها في السقط الآتية:

(١) تأخر ظهور الكنائس كأمكنة مستقرة وثابتة للعبادة. ومعروف في التعميد الديني المتوارث من العهد القديم أن رسوم وانتصاير أمور رسمية متعلقة فقط بمكان الصلاة سواء في الهيكل الكبير القديم أو في المجامع المحلية.

(٢) إنشغال الكنيسة وتعبئة كل طاقاتها الروحية للتبشير.

(٣) العصور الأولى للمسيحية كانت عصور ضيقة وعدم استقرار خارجي فلم توفر الهدوء والسلام الكافيين للمناخ الفني.

(٤) عدم اسكاب مواهب روحية خاصة للفنون الطقسية بسبب شدة الحاجة إلى تأسيس أمور أخرى أهم.

(٥) عدم توفر الفنانين من اليهود المنتصرين، فلم تكن صناعة النحت والتصوير صناعة يهودية على الإطلاق خصوصاً منذ عصر المكابيين حينما رداد التدقيق جداً بخصوص الوصية الثانية. ويقول العلامة أوريجانوس^(١):

[ولم يكن يوجد من اليهود حينذاك أي صانع تماثيل أو أي مصور على الإطلاق.]

(٦) عدم توفر الفنانين من الوثنيين المنتصرين أو الإقبال على هذا الفن بسبب بغضهم المرعبة للأصنام وكل تصاويرها. وحتى الفلاسفة الوثنيون الذين تصروا من الفيثاغوريين وأتباع زينو كانوا بطبيعتهم يفضون تصوير الآلهة ويزدرون تماثيلها.

(٧) كانت أغلب أماكن العبادة في أماكن نائية ومخفية تحت الأرض وفي الظلام فلم تتوفر الفرصة لأعمال النقش أو التصوير.

(٨) الإعتقاد السائد والشديد بفقر مجيء الرب الثاني كن عاملاً فعالاً في عدم الاهتمام بتأسيس كنائس كبيرة أو قوية أو جميلة.

(٩) ارتفاع درجة الحرارة الروحية عند المؤمنين ولتهاهم بالمشاعر الشفوية وقوة الإيمان وصفاء الرؤية الروحية أغنت الكنيسة الأولى عن كل وسائل التنشيط الروحي بالعوامل الفنية والتصويرية.

(١٠) إقبال الشديد على بيع الممتلكات واختيار حياة الفقر المطلق وعيشة التجرد وبساطة الحياة، أضعت حداً من حاجة الروح المسيحية إلى الفنون التصويرية.

ثانياً: القرن الثاني وما بعده وبداية الأيقونات الرمزية:

تعتبر الرسومات والمنقوشات الموجودة في الأقبية وبعض الكؤوس والفخاريات، والتي

(1) Contr. Celc. IV, 31.

يدل تاريخها بصورة قاطعة أنها من القرن الثاني ، بداية عصر الأيقونات في الكنيسة المسيحية .

وقد اقتصرت على التعبير عن المسيح بصورة حمل يحمل صليبا أو بصورة راج يحمل حروفاً (أيقونة الراعي الصالح) ، أو بصورة سمكة باعتبار أن السمكة يتكون اسمها في اللغة اليونانية من خمسة حروف « ΙΧΘΥΣ » وهي بداية حروف القاب لمسيح « إيسوس خريستوس ثيؤو إيسوس سوتير » وتفسيرها « يسوع المسيح ابن الله المخلص » ؛ أو بصورة كرمة .

كما اقتصرت على التعبير عن الروح القدس بحمامة .

ولكن كان الغنوسيون منقسمين نوعاً ما في تعبيرهم الفني ، فقد رسموا المسيح بالألوان في أيقونات واضحة ، كما يخبرنا عن ذلك القديس إيرينيئوس :

[وقد كانوا يمتسكون أيقونات (صوراً) بعضها مرسوم بالألوان وبعضها مرصع بمواد مختلفة (لموزيك) مؤكدين أن صورة المسيح التي يمسكوها هي أصيلة وأنها رسمت معرفة بيلاطس . وقد توجوه هذه الصور ووضعوها بخوار صور بعض الفلاسفة المشهورين في العالم ، وكانوا يكرموا هذه لصور بطرق مختلفة كما يفعل الأمم (يقصد التبجيل أمامها) .] (٢)

ونحقق القديس إيرينيئوس أن الزمن الذي بدأ ينشط فيه هؤلاء الغنوسيون كان في عهد البابا أنسيتوس (١٥٤-١٦٥ م) .

ولكن كان تمادي الغنوسيين في توفير الأيقونات وتكرمها بالتبجيل أمامها منذ منتصف القرن الثاني سبباً في إثارة المؤمنين وإجماع رأيهم على مهاجمة الصور وتحريمها تحريماً قاطعاً في الكنيسة . وقد قاد هذه الحركة كل لاهوتيي القرنين الثاني والثالث على وجه العموم ، وعلى رأسهم إيرينيئوس وترتيان وأوريجانوس ، وجيروم وأوغسطينوس من بعدهم . وكان بعضهم يقول إنه يكفي ما عاناه الرب من دلة الإلتضاع في عملية التجسد وأخذه شكل العبد ، فلا يليق أن نرسمه بالصورة لأن هذا إمعان في تحقيره . (٣)

ولكن هذه المقاومة المصطنعة للتعبير عن الإحساس الروحي بالصورة لم تتمكن من أن تمنع تدفق الإلهام في الكنيسة ، فكانت الأيقونات تُرسم وتُلَوَّن وتوضع في الكنائس رغم كل هذه التحذيرات .

(2) Adv. Haer. I, 25, 6

(3) Asterius of Amasea (Hom. in Div)

وحتى هؤلاء اللاهوتيون لم تسكوا أنفسهم عن التعبير عن نفس هذه المساعرة. فترتليان عدو الأيقونات هو أول من حمس بإسارة الصليب ورسمها على كل أعضاء الإنسان وفي كل مكان وزمان. (٤)

وهو نفسه يعود فيحبد رسم الرموز في تعتر عن أمته المسيح فيقول:
[وسعداً بالحدث عن أمثال المسيح، فمثل أحرف لحدس لدى وجهه صالحة وحمد على مكيه
معرفه حيداً من وقع النفوس في ترويه بوصح على كؤس (كأس الإفحاريسنيا) فهذه تعبر عن اراعي
الصالح.] (٥)

وكذلك يخبر كسيمندس الإسكندري عن مثل الراعي الصالح ونفسه، كرمز عن المسيح، على أشياء كثيرة. (٦)

كما يخبرنا يوسابوس الذي كان هو الآخر مهابضاً للأيقونات، في بداية الأمر، كيف أن الأيقونات أصبحت تسبب انتابوكة. فيخبرنا كيف أمر قسطنطين الملك أن يصنعوا له تمثالاً للصليب وكيف وضعه بجوار تمثاله سنة ٣١٢ م. (٧)

كما يخبرنا أيضاً كيف صنع قسطنطين الملك صورة للراعي الصالح وصورة أخرى منقوشة ومرصعة بالأحجار الكريمة تمثل الآلاء المقدسة ووضعها في غرفته الخاصة بقصره. (٨)

كما يخبرنا بولنسوس الذي من بولا نفسه عن كيف صنع موراييت (بالأحجار المرصعة) داخل الكنيسة التي بناها في بولا. وهذا المنظر يمثل المسيح كحمل والروح القدس كحمامة، كما رسم لإثني عشر رسولا بصورة اتى عشره حمامة منه حول الصليب. (٩)

كما رسم أيضاً في كنيسة فودي صورة تمثل الديوبه، والمسيح واقف بفص الخراف عن الجداء. (١٠)

ثالثاً: المرحلة الواقعية والتاريخية وبداخلها معاً:

وبعد ذلك انتقلت الأيقونات من مرحلة الرموز إلى مرحلة الواقعية والتاريخية (الفرق

(٤) De Pudic. 7. 10

(٥) Epist. Paulini, XXXII, ch. 10.

(٦) Ibid. ch. 17.

(١) برجع كتاب « نصيب القديس » لأب مي « السكين ».

(٢) القري ١١: ٣ و ٥٩.

(٣) يوسابيوس: تاريخ الكنيسة ٩: ٩.

(٤) حياة قسطنطين ٣: ٤٩.

الرابع)، وعلى سبيل المثال وُجد في مقصورة «برسكيلا» في روما أيقونة لعدراء حاملة طفلاً، ويظهر في الصورة إنسان يشير إلى نجم.

وهنا نجد إتحاماً بين التصوير التاريخي والواقعي، فالعدراء حاملة الطفل يسوع تصوير واقعي، وإنسان المستير إلى السجود تعبير تاريخي عن النبي الذي قال: «يرز كوكب من يعقوب...» (عد ٢٤: ١٧) متنبئاً عن ميلاد المسيح. (١١)

وفي نفس العصر تقريباً، عصر التحول من الرمز إلى الواقع (أو ثل الثرد الخامس)، عثر على أيقونات تمثل المسيح يبارك طفلاً، وأيقونة أخرى له يقيم لعازر وفي يده قضيب يرفعه يمثل سلطانه كملك على الأحياء والأموات. (١٢)

وفي نفس العصر نجد صورة تمثل الرب حاملاً كتاباً مفتوحاً في يده (بصفته كلمة الله)، وعن كل من يمينه ويساره رجل حامل درجا مطويّاً يُظن أنها يمثلان العهدين القديم والجديد. وهذه الصورة شائعة حتى الآن ومحبوبة، وفيها يظهر أيضاً لإتحام بين التصوير الواقعي والتصوير التاريخي. (١٣)

وهذا العصر أيضاً (القرن الرابع والخامس) يشهد تحولاً آخر في الأيقونات يتجه نحو الأشخاص لإبراز شخصياتهم التاريخية وحسب.

وينخرنا القديس أوغسطينوس، غرضاً، عن اعتقاده في سبب الخطأ الذي وقع فيه بعض لمزورين الدين روروا رسائل من المسيح للقديس بولس الرسول وللقديس بطرس الرسول وذلك: [لأنهم تأثروا بمشاهدتهم المستمرة للأيقونات المرسومة عليها لرب مع بطرس الرسول]. (١٤)

كذلك يحسبنا أوغسطينوس نفسه عن صورة شائعة في الكنائس تمثل إبراهيم وهو يقدم إسحق:

(11) Marriot s, Vestiar. christ p. 234

(12) Anngi Roma subterra, II, 33, 37 etc.

(13) Ibid II, 91.

(14) De consensu Evang. I. X, n. 16.

[هدى سطر حسن وسين حفا الرسوم في كافة لأرجاء وندى يسحق أن سرته به كن لسان.](^{١٥})

رابعاً: دخول الأيقونات في مرحلة التعبير الروحي الفائق (الإلهام):

ونخبرنا أيضاً القديس غريغور يوس النيسي عن صورة شاهدها بنفسه:

[بعد ما هدت بنسى صورة لام سيح ولم نستع أن نحول عن الصورة دون أن نذرف دموع بفررة لأن المصوّر الفنان قد أبرز القصة أمام العين بدرجة رائعة.](^{١٦})

كذلك يخبرنا غريغور يوس النيسي أيضاً عن عدة مظاهر مؤثرة صورت تحت حبه واستشهد القديس ثيودوروس في كافة مراحليها، وذلك على حنط الكنيسة لي نيب لتحمل ذكراه. (^{١٧})

وبوليسوس الأسقف ندي من نولا كتب أسعاراً سنة ٤٠٢ م. يصف فيها كيف رسم عدة مظاهر في كنيسته في نولا تمثل حوادث العهد القديم، وحدث ليشرح و يوضح التاريخ لقديم للمتصرين الجدد. (^{١٨})

وقد ضعب أيقونة سوينوس نفسه واقفا مع القديس مارس ووضعت في مكان للعمودية في كنيسته أي في نيمبوليك، وذلك أثناء حياته، وقد كتب هو بنفسه شعراً خاصاً وطب من سببسيوس صديقه ندى فترج رسم الصورة أن يكتبه على الصورة، وأسعر ندره عن مديح للقديس مارس ندى اعتره كمودج ومثال للتوبة الحقيقية. (^{١٩})

وسنعم لكثير عن الأيقونات في القرن الخامس من نستير يوس أسقف أناسيا، وهو أحد الأناء الكسادوكيين الندى كن أصلاً محامياً، في إحدى عضاته المسهورة في التاريخ أني ألقاها في يناير سنة ٤٠٠ م في مديح الشهيدة إيفوميا القديسة يصف، بدقة، الأيقونة الخاصة بها و يعرضها و يمارها بأعمال فنية أخرى لكار الفنان في ذلك العصر مثل إيوفراور ونيمومحوس. وقد استعان مجمع بيفية الثاني سنة ٧٨٧ م بنص مقالته مرتين كرهان ثمين على ضرورة توقير الأيقونات المقدسة.

(15) C. Faust. XXII, 73

(16) De Dei Fil. et sp. orat.

(17) Encom. Theod

(18) Poem. XXVII DE St. Fel.

(19) Epist. XXXII, ch. 2, 3

ويحسبنا هذا الأب الجليل عن تحوّل جذري كبير في فن رسم الأيقونات عند بداية القرن الخامس، وهو المحاولة لفنية الجادة في استخدام الأيقونة في الكنيسة لتعريف بالإنجيل وذلك عن طريق تصوير حوادث الإنجيل ومواضيعه ومعجزاته بدقة وإبداع في ملصق للنظر، سواء التي أكرمها المسيح أو ارسل أو التلاميذ، ولكنه يعود في عظمته و يعف بدعة فنية جديدة ظهرت في أيامه توضح شدة ولع جيل القرن الخامس بالإنجيل أولاً وبالفن ثانياً، وهي رسم معجزات لإنجيل ومواضيعه على ملابسهم الخاصة. (٢٠)

وكذلك نعلم من لأدب والساعر المسيحي الروماني المشهور برودنتيوس أوريليوس (٣٤٨ — ٤١٠ م)، لدى انصبّ في أواخر أيامه على العبادة المسيحية ودراسة الكتابات لمسيحية وتأليف الأشعار المتمة عن الشهداء والحياة النسكية والتسايع ليومية المحبوة، نعلم منه عن إحدى الأيقونات المشهورة التي عُرضت في روما للقديس والمعلم لمدرسي كاسيانون. (٢١)

كما يصف أيقونة كانت مرسومة على قبر الشهيد هيبوليتس المشهور (١٧٠ — ٢٣٦ م)، يظهر فيها القديس وهويعاني آلام الإستسهاد والتعذيب بصورة فنية رائعة. (٢٢)

ونعرف، عرضاً، من محاجة هيراكليداس أسقف نيسا (٤٤٠ م)، في مصالين ضد ميشيسين عن قدم توفير الأيقونات المقدسة في الكنيسة، خصوصاً في المقالة الثانية تحت عنوان «شهادة عن قدم توفير الأيقونات المقدسة» كتبها سنة ٤٣٠ م. (٢٣)

خامساً: ظهور أيقونات القديسين:

ويحسبوا لقرن الخامس أخذت الأيقونات التي تمثل الآباء البطارقة العظم والقديسين المشهورين تحت مكانة أيضاً داخل الكنيسة جنباً إلى جنب مع لأيقونات المقدسة التي تصور المسيح ولتلاميذ، وذلك بالرسم العادي على اللوحات أو بالموزاييك والمرصعات ثخينة. وفي رسالة للقديس نيس المشهور بالسينائي موجهة إلى أوجمسيودوروس، نجد القديس نيس يحض على اقتناء الأيقونات في الكنائس بحماس وتقوى شديدين:

(20) De Div. et Lag. u.s.

(21) De Cornis Hymn. IX. 9

(22) Ibid. X. 126

(23) Photus Bibl., cod. 1

[ملاً أهيكل مقدس وكن حوائبه بالأيقونات التي تصور كل حوادث العهد القديم والعهد الجديد، واستخدم في ذلك أمهر الفنانين المصورين حتى يعرف الإخوة المؤمنون دينهم لا يعرفون أعراسهم وإكساباً على قصص رحلهم مقدسين الأسماء الذين خدموا الله وأمهاتهم. عندما تأمنون في هذه الأيقونات فيثذكرونها باستمرار.](^{٢٤})

وفي الإسكندوبيليا المشهورة معروفة باسم «السويدس»، يقصص كتب يدعى ماحوس (٤٩٦م) وثلاً: إنه رأى في كنيسة القسطنطينية الكبيرة أيقونة بالموريتك (المرصعات) كانت قد وُضعت في الكنيسة في عهد جناديوس (٤٥٨م)، وفيها يظهر البطريرك جناديوس وأكاكبوس حقه مع الرب يسوع في الوسط. وانتشرت هذه الصورة بعد ذلك في الكنائس الصغرى. (^{٢٥})

كما يخبرنا المؤرخ المدرسي إيقاجر يوس (٥٣٦ — ٦٠٠م) — الذي عاش في سوريا وأكمل تاريخ يوسابيوس القيصري في سنة كتب مشهورة — عن صورة عظيمة مصورة في سقف كنيسة بامية تصف إحدى المعجرات التي حدثت في أمامه والتي يقول إنه رآها بنفسه. (^{٢٦})

وعر يغور يوس الأسقف الذي كان أسقفاً على مدينة تور، وهو مؤرخ صرخة لمشهور (٥٤٠ — ٥٩٤م) ولحقه لإيقاجر يوس المؤرخ، يخبرنا عن أيقونة رآها في هيكل كنيسة رافينا المشهورة تمثل الرسل وبعض القديسين. (^{٢٧})

ويسجل التاريخ مظهراً مدعاً ومؤثراً للغاية يصف فيه القديس أوغستينوس (توفي سنة ٦٠٤م)، رسول إنجلترا وأول أساقفة كتربري، في أول مقابلة له مع الملك «بتيبرت» ملك «كينت» في عام ٥٩٧م:

[فدوموا على الملك وهم حاملون صلياً نصياً مرفوعاً كالعلم مع أيقونة كبيرة لرب المختص مرسومه على لوحة.](^{٢٨})

كما يخبرنا المؤرخ «بيده» عن أول أيقونات رسمية دُحبت في كنيسة إنجلترا وكيف:

[سُحِصرت سنة ٦٤٨م من روما هذه الأيقونات المقدسة، وأن إحداها كانت للسيدة العذراء

(24) Epist. IV, 61.

(25) Suidas in Acac. I, 76.

(26) Hist. Eccl. IV, 26.

(27) Vitae P. P. XII, ch. 2

(28) Bede, Hist. Eccl. I, 25

مرم وأخرى للرسول القديسين مع أيقونات تمثل حوادث الإنجيل ورؤيا نوحيا للإنجيلي، ووُضعت في الكنيسة حتى أن كل من كان يدخل الكنيسة حتى ولو كان أمياً و ينتهب في أي راحة يستطيع أن يمسك مع وجه رب احبيب يسوع و ينام فيه و يستحضر في ذهنه نعمه التجسد لدى أكمه رب. (٢٩)

ثم عدت مجترة في زمن هذا المؤرخ سنة ٦٨٥ م و سحضر صور أخرى من روما تمثل قديسين كثيرين وموصيغ إنجيلية وأيقونات من نوع جديد تمثل لعلاقة بين العهد الجديد ولعهد القديم: مثلاً أيقونة تمثل الرب حاملاً الصليب وبجواره يسحق حاملاً حطب المحرقة! وأخرى تمثل المسيح معقفاً على الصليب وبجواره الحية المحاسية معقفة على السارية. وهذه الأيقونات كانت قد شاعت في روما في ذاك العصر.

وفي عصر سانس، كانت الأيقونات قد دحيت مرحلة الشيعون بن لعامة، إذ يجربا ثيودوريت (٣٩٣ — ٤٥٨ م) أن صوراً للقديس سمعان العمودي (٣٩٠ — ٤٥٩ م) شاع انتشارها بين الناس في كل الأرجاء حتى روما، وكانوا يعلقونها في البيوت والمخار العامة لبركة، وكانت تحت مكانة عظيمة في قلوب الناس. (٣٠)

والمؤرخ المشهور ثيودور الملقب «لكتور» الذي عاش في مستهل القرن السادس في قسطنطينية يكشف لنا طرفاً من قصة صورة القديس لوقا الإنجيلي التي رسمها للعدراء القديسة مريم فيقول: «إن الميصرة إيدوحيا أرسلت إلى بُبحاريا سنة ٤٥٦ م صورة العدراء مريم أم الرب التي رسمها القديس لوقا». (٣١)

سادساً: دخول الأيقونات في عصر المعجزات:

كما يحقق لنا هذا مؤرخ ثيودور، كفنان، عن الملامح الحقيقية التي كانت للرب يسوع والتي كان هو متحفاً منها، فيقول إن الأيقونات التي تحمل صورة الرب يسوع وهو شعر مجعد قصير، هي الصورة الأصح له. (٣٢)

كما يخبرنا المؤرخ إيقاجر بوس (٥٣٦ — ٦٠٠ م) أنه بينما كان الملك خسرو الفارسي يُحاصر مدينة إديسا (ارها) سنة ٥٤٤ م، واقرب من السور بمنجانيقاته لهدم السور رمى عليها أهل المدينة النار ورادوا النار هيباً واشتعالاً بطريقة معجزية وذلك حينما ألقوا عليها

(29) Hagiochr. sect. 1.

(30) Hist. Belig. C. XXVI.

(31) Excerpta, i prop. init.

(32) Ibid. I : 554

يضاً بعضاً من الماء الذي مرروه على أيقونة للمسيح التي قيل عنها إنها «صورة الإله التي لم ترسمها يد إنسان»، وهي التي أرسلها المحلّص إلى «أبجر» ملك إديسا في ذلك الزمان.

وقد قيل عن هذه الصورة أيضاً فيما بعد، حواري سنة ٥٩٠ م، أن لجيش لروماني في رحفه على الفرس أخذ معه في المقدمة هذه «الصورة الإلهية» فأعطى لعسكر شجاعة فائقة مكنتهم من هزيمة الفرس. (٣٣)

وهنا نستدعي بدخل في عصر المعجزات التي تتم بتوسط الأيقونات، ويحبرنا لمؤرخ إيفاحريوس وغريغور يوس الذي من تور عن ولد يهودي في القسطنطينية تنصّر واشترى في جسد والده، ولما عرف أبوه اليهودي بذلك — وكان متعصباً — أخذه وألقاه في لفرن حياً. ولكن لولد وُجد في لفرن في اليوم الثاني كما هو حياً لم تمسه النار، وأحبر لولد قائلاً: إن السيدة العذراء متدثرة بثوب أحمر أرجواني وهي حاملة طفلها، كالمرسومة في الأيقونة التي في لكيسة لي تناول فيها، حاءت نحوه وعطته بردائها الأحمر فلم تمسه النار. (٣٤)

ومن لحوادث استاريخية المسهورة الذائعة في كل فرنسا والتي يروها پول واريفريدي في تاريخه (٣٥)، قصة سفاء المريض بعينيهما اللدين شُفيا لما دُهنّا بالزيت المخصص لقنديل الموصوع أمام أيقونة القديس مارتن بمدينة راقا، والتي تسجلت في كتاب معجزات القديس مارتن. (٣٦)

ومنذ ذلك الحين بدأ يتولد الإيمان في الكيسة بإمكانية توسط الأيقونات في شفاء الأمراض وصنع المعجزات باعتبارها للقديس نفسه.

وحادثة أخرى يروها غريغور يوس الذي من تور مؤرخ الفرنجة المشهور (٥٤٠ — ٥٩٤ م.) عن صورة للمسيح نبع منها الدم عندما طعنها أحد اليهود. (٣٧)

وقد تكررت حوادث خروج الدم من الأيقونات، وسمع عن ذلك كثيراً في لشرق. فيخبرنا لوبديوس أسقف بياوليس في قبرص سنة ٥٩٠ م عن حوادث خروج الدم من الأيقونات مرات متعددة كثيرة. (٣٨)

(33) Theophyl. Simoc. Histor., II, 3, 70, ed. Bekker. (34) Mirac. I, 10

(35) Hist. of Lombard, II, 13. (36) Greg. of Tour : Mirac. St. Mart. I, 15

(37) Mirac. I, 22. (38) Apol. in Act. IV Conc. Nic., II, Labb VII : 240.

ونخبرنا المؤرخون أيضاً و يمتلئ عنهم بعد ذلك بكثير البابا غريغور يوس الثاني سنة ٧٢٦م عن أيقونة قدسية في القسطنطينية كانت تسمى «المخلص»، كان يحدث بواسطتها معجزات لا حصر لها.

ولكن بسبب ديوع هذه الأخبار عن المعجزات التي تتم بواسطة الأيقونات بدأ العامة ينتحون ناحية تقديس الأيقونات لدرجة عبادة الصنمية، مما حدا ببعض الأساقفة أنفسهم أن يرفعوا لأيقونات ويحطموها مثل الأسقف سير يوس أسقف مرسيليا، وكان معاصراً لغريغور يوس أسقف تور؛ ولكن البابا غريغور يوس الكبير استهجن هذا التصرف بقوله:

[قد سمع بن سماعنا نخطيكم لبعض الأيقونات ورفعها من الكنيسة عندما رأيتم بعض المصلين يتحنون إلى عبادة لصورها. وفي الحفصة وإن كما مدح غيرتكم لئلا التي تصنع بالأيدي تصير معودة، إلا أننا نعلم أنه ما كان يجب عليكم فقط تحطيم هذه الأيقونات لأن التصوير مفيد على أي حال في الكنيسة حتى يتمكن المؤمنون أن يهراؤا بواسطة الأيقونات ما يعجرون عن فرائده في الكتب.] (رسالة ٧: ١١١)

[إن تقديس لصورة نفسها لدرجة عبادتها شيء، وشيء آخر أن يتعلم الإنسان من الصورة ما يسعى أن يهدسه ويعبده!! ... فإذا وجد إنسان يرسم أيقونة فلا تسمعته بأي حال من الأحوال، ولكن إن هو بدأ يعبد الأيقونة فامتنعه على كل حال.] (رسالة ٩: ٩)

وفي هاتين الرسالتين يركز غريغور يوس الكبير على منفعة الأيقونة للتعليم، ولكن في رسالة أخرى يبرز ناحية جديدة هامة تستدعي توفير الأيقونة:

[نحن لا نسجد أمام أيقونة لمخلص بالضغط كما نسجد للآهوت، ولكن نحن في الواقع عندما نطرق الصورة نستحضر بن لدهش فمن يسعى أن يعبد، مولوداً أو متناً أو جالساً على عرشه. فالأيقونة ك لكتانة تستحضر بن دهشاً بن الله بسهولة. وبذلك فهي إما تبهجنا بن كذب بضيامة متلاً أو تعزى نفوسنا إن كانت للآلام.] (الرسالة ٧: ٥٤)

وهكذا يقف البابا غريغور يوس الكبير موقفاً رريئاً معتدلاً بشأن الأيقونات.

أما في الطغفس السيزبطي فنجد، بحكم العاطفة الشرفية، أن ميلاً أكثر نحو توفير لأيقونات والدفاع عن كرامتها قد بدأ مبكراً منذ أيام لوندريوس أسقف نيبوليس في قبرص (سنة ٥٩٠م):

[أنا عندما أعبد وأسجد لصورة ابن الله لا أعبد مادة الخشب أو الألوان — حشا — ولكي إدا التي

بالصورة الى ليس فيها حياة التي تمثل فقط شخص المسيح^{٣٩} تنق عن طريقها بالمسيح الحي وأعدده من خلالها. [٣٩]

و يستدئ هذا الأسقف في منه ربة توفير الأيقونة لدى لمسيحين تتوفر اليهود لكتاب التوراة. ولكنه حينها يعود إلى المعجرات التي تستحدث بتوسط الأيقونة وإى قوة وفعية صورة الصليب، يقرر أن توفير الأيقونة وصورة الصليب كثر عمنا وأثرا في النفس من توفير كتاب التوراة عند اليهود.



أما في الطقس القبطي — الذي لم يسر إليه بعد ولدى برجيء الحديث في تفاصيله التاريخية إلى موضع آخر — والأيقونة المصنوعة ذات مدلول روحي فأن، فالصورة في المفهوم التقليدي القبطي تحمل سر القيامة في أجل معانيه.

وب حصار شديد نقول إن تاريخ تصوير الأشخاص لدى الأقباط يمتد ليعتحم بطقس فرعونى سحيق في القدم. فقد حرص الكهنة المدامى على رسم صورة ديفية للشخص العظيم المتوفى سواء كان ملكا أو كاهنا أعظم أو أميراً، هذه الصورة تكون بالألوان الراهية الطبيعية لمعبرة عن الملامح الرئيسية للشخص وخاصة وجهه حيث ترسم فوق غطاء التابوت، وذلك لكي تتعرف روح الشخص على جسد صاحبها في يوم القيامة العتيد.

والواقع أن الوجدان القبطي لا يزال يحمل أثرا عميقا من هذا الإنطباع التقليدي القديم لمعنى الصورة ومدلولها ولكن في نور الحفصة المسيحية، فالآن قد تمت بالفعل القيامة الأولى للأرواح بقيامة يسوع المسيح من الأموات: «لقد أقامنا معه وأجلسنا معه في السمويات» (أف ٢: ٦). إذن، فالصورة التي نرسمها لا نضعها في القبور على التوايت بل نضعها أمام عيوسا لأنها لم تعد تنتظر القيامة بل هي تعبّر عن القيامة. فالأشخاص نرسمهم باعتبارهم أحياء الآن كأرواح مباركة.

ولكي نوضح ذلك أكثر نقول إنه من التقاليد الفنية والروحية المتورثة منذ القدم أن روح الإنسان لها صورة شكله تماماً. وهذه الحفيفة نجدها واضحة كل الوضوح في الصورة المرسومة في كنيسة السريان بدير السريان بوادي النظرون في الخورس الأول في نصف القنة

(39) Ibid., VII : 237.

البحري^(٤٠)، وهي صورة تمثل ساحة العذراء، فإذا دفع الناظر في الرسم يجد السيد المسيح حاضراً في وقت بياحها ليستلم روحها وهو بالفعل يحمل روحها على يديه، ونجد أن شكل الروح هو شكل العذراء نفسها تمام إحد بصورة مصغرة ومضبوطة.

نخرج من هذا بأن الفن النبطي في التصوير التشبدي الكسبي يعتمد على مبدأ لاهوتي هو أن الصورة لا تمثل في الواقع الشخص الميت بل الشخص الحي أي روحه، أي أن الأيقونة لمبططة هي أيقونة روحانية تعبر عن حالة قيامة حقيقية تمت بالفعل للشخص المصور بصفته قديساً وثقت الكنيسة من خلاصه وقيامته!!

وهذا المبدأ اللاهوتي في النظرة إلى الأيقونة عند الأقباط ولد فيهم بحساسا خاصاً مرهفاً بأن الأيقونة ما هي إلا تعبير عن روح القديس، الروح التي لا ترى ولا تحس. لذلك عندما يقف الشخص النبطي أمام الأيقونة لبصلي ويطلب، نجده يغمض عينيه، وإذا أريد أن يقبل الصورة أو يتبارك بها تحده في خسية واستحياء بمد أطراف أصابعه ويمس الجزء الأسفل من الصورة ثم يقبل أصابعه ولا يقبل الصورة نفسها مباشرة؛ وهو بهذا التصرف يعبر دون أن يشعر عن البعد الروحي الذي يفصل الروح القائمة عن الإنسان الذي ما زال على الأرض بالجسد، فهو كمن يأخذ البركة من على بُعد، بركة الروح وليس بركة الصورة المادية أو خشبة الأيقونة!

(10) Evel. White : Monast. of Wadi Natroon, III, Plate, LXII.

أنظر اللوحة رقم (٦) في الملحق الخاص بالأيقونات في هذا الكتاب.

أقوال الآباء عن الأيقونات:

١١٠٣ — فرأى الله عبده موسى أن بعض تابوت من الخشب بصفحة بذهب و يصنع فيه لوحى شهادة و يمسكه بدهنى المخبون على من وعصا هرون ابى فرحت. و يصنع بتابوت عطاء و بتس عليه كاريوس من ذهب شبه شخص بأحذية ممرودة فائس على أرجلهم و وجههم حواليت الخارجى. وكان موسى وجميع الشعب يخرون و يسجدون أمام التابوت، وكان الرب يكرم موسى من بين الكاروبين.

أما قول الله لا تتحدوا مثلات مصنوعة من ذهب أو فضة أو حجارة أو حشب ولا تسجدوا لها ولا تعبدوها فإنما كان لمنعهم من عبادة آلهة أخرى غيره.

وأما التابوت فكان كشخص الله:

كان عند دخول الله بيت بقول موسى: «فما رب فسدد أعدائك وهرت معصوك من أمامك، وهد حوائك كذا يقول يرجع - رب بنى ربوت أئوف اسرائيل.» (عد ١٠: ٣٥ و ٣٦)

«وسمعه سموع على وجهه بن ذرعى أمام تابوت الرب إلى المساء هو وسموع اسرائيل.» (س ٦: ١)

— «فأصعد داود تابوت الرب بالهتاف وبصوت البوق.» (٢ صم ٦: ١٥)

لأن الله لم يكن له شبه ومثال، وقد عسى لإله واحد طبيعة وصدر إلهنا أصبح له شبه ومثال «هو صورة الله غير المنظور.» (كو ١: ١٥)

«هو بهاء محده ورسمه جوهره» (عب ١: ٣) يسمو المسيح لدى رسمه أهل علاقته أمام أعينهم مصنوع كمن يقول ومن يرسو: «ألم أدين أمام عيونكم قد رسم سموع نسيح بيسكم مصنوع.» (غل ١: ٣)

من أجل هذا أمر معلمو الكنيسة برسم صورة المسيح مصلوباً.

وفان القديس بطرس السدمسي عن ترتيب الصلوات: فلتكن أيقونة الصلوات مرتفعة خارج
مخورس الأول لأن المسيح بألم خارج المدينة، وينس الكهنة براس سوداء و بأحدون المجمر بأيديهم
و يرفعون البخور أمام أيقونة الصليبات.

كذلك أمر معموا الكنيسة بعمل صورة القديس بطرس القوي المديح وأيقونة اعلامة لروح
الشارة بغيره المسيح، لأن المسيح أمر أن يعمل هذا التذكار «إصنعوا هذا لذكري.» (يو ٢٢: ١٩)

من أجل هذا رتب الكنيسة كل الصور الثلاثة تذكرا لمسيح، وأيضاً صور للاثكة والقديسين،
تذكاراتهم كم من قرب المسيح تذكرا مرأه التي ذهب رجليه بالطين بعد عن «الحق أقول بكم
حيثما يكرز بهذا الإنجيل في كل العالم ينحصر أنصابتهم فعبته هذه تذكاراتها.» (مت ٢٦: ١٣)

١١٠٤ — تقولون كيف نسجد للألوان وكيف نقنع أفكارنا؟

يا أولادي أسألكم أن توسعوا عقوبكم وتفهموا معنى قول، لأن كل كلام أو صوت لابد منه من
جواب، لأنه لم يفعل شيء في الكنيسة عت. والأواني التي للمخدمة والمدايح والصور لابد من تكريرها،
ليس من يد كاهن بل من يد رئيس الكهنة، ومسحها بدهن الميرون، والميرون هو مثل روح القدس.
وهو ليس الكنيسة تأمر أن السماس يحل له أن يمسك الكأس ويدون المؤمنين منه، وأما الميرون والقانون
لا يجيز للسماس أن يحمله أو يقرب إليه لأنه ليس له سلطان أن يعطي روح القدس لغيره. ويشهد
بذلك سفر أعمال الرسل حيث قال أنه لما عمد فلبس السماس أهل السامرة لم يستطع أن يعمدهم
بعمودية الروح القدس بل تعمودية يوحنا فقط، ولما علم الرسل أرسلوا هم بطرس ويوحنا فوضعا أيديهم
عليه وحينئذ قبلوا الروح القدس.

فالآن قد تحقق أن بوضع يد رئيس الكهنة يحل الروح القدس و قدس. و قدروا إلى طقس كنيسة
كيف رتب بحكمة دقيقة بإرساد روح الله. و مديح والأواني والصور يجب ألا يسجد أمامها بل ولا تقبل
أيضاً قبل أن يمسحها رئيس الكهنة بدهن الميرون.

و يأمر قانون الكنيسة أن نحضر بصورة فوق المديح أثناء صلاة القداس، و يصلي عليها الصلاة
لمدونة في كتاب التكريس ثم يمسحها بدهن الميرون، و إذا فرغ من توزيع القربان يفتح في وجه كل
صورة قائلاً: «إقبلوا الروح» ثلاث مرات.

وربما تسأل وتقول كيف يحل الروح القدس في صورة! أقول لك إن لم تصدق أن لروح يحل بدهن
الميرون وبضحة الأسقف فقد صار كل الإيمان باطلاً، والروح يدن لم يحل على المديح ولا القربان ولا
الكنيسة، وسجودنا أمام الهيكل يكون باطلاً أيضاً.

وبكن حاشية، إسمع ما يقول الإنجيل القديس: «من حلف بالمديح فقد حلف به وبكن ما عليه

ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالسالكين فيه» (مت ٢٣: ٢٠ و ٢١). فعرّفوني من هو السالك فيه
إلا الروح القدس!

ورب سمون: ومن هو بدي أسعد له؟ هل أسعد الروح به الحزن في الصورة أم أسعد بشهيد أو
القديس صاحب الصورة؟

أقول: ربما أسعد هو روح الله، وأما صاحب الصورة فيسعى له السحس والسلام والإكرام،
وسؤاله الصلاة والشفاعة قدام الرب.

أنبا يوساب الأبح

١١٠٥ — به ترتب حسن جداً عند المسيحيين، وأمر بسرّه كثير أن تحتفظ بأيقونة لمختص
ونصلي إليه أمامها. إنه نوع من التعطش الروحي ونداء النفس.

والسيد نفسه يتوق بحمد الطبيعي لنا أن ننصّر في داخلنا، وهذا يقول الرسول: «يا أولادي لدي
أتمنّخ بكم أيضاً إلى أن يتصور المسيح فيكم...» (غل ٤: ١٩)

وكيف تُصور لمسيح في قبي إن لم أراه أولاً بمعنى؟ لذلك نحن نفتي صور المختص وأمرنا والملائكة
والقديس، وما ذلك إلا لمرط حسنا لهم ويود ألا نمارى صورهم أدهاساً أو فلوبيا.

ولسب وجودنا في الحسد، فحاجة الخواص دائماً مبيحة إلى شيء جسدي ممسوس يقطع عنها فتته
إلى داخل القلب، لذلك تحتفظ هذه الأيقونات أمام عيوبنا وفي بيوتنا وكنائسنا.

وثمة أمر آخر ذي شأن كثير، إذا نحن لم نلجأ إلى صورة منقطة لسان موهوب، أفليس يتحتم على
حيالنا أن نتصور صورة من الحيال للمسيح أو القديس؟ إن الكنيسة قد وفرت علينا هذا الجهد والعناء
وسكنت في أولادها روحاً تأملياً مقدساً أوحى إليهم بتصوير الأيقونات التي تراها، والتي كثير من رسم
بأيدي قديسين بل ورسل أيضاً.

أما كيف يستجيب لنا الله من الأيقونة فهذا ليس بالأمر الحديدي في علاقاته مع بني البشر.
فالرب في العهد القديم كان مسحيباً و يتكلم مع موسى وهارون أمام تابوت العهد: «وأنا أجتمع بك
هناك وتكلم معك من على عطاء من بين الكاروتين الندين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك
به!» (خر ٢٥: ٢٢)

وكثيراً ما صنع الرب معجزات وآيات بواسطة الأيقونات.

١١٠٦ — حينما تتأمل في لأيقونة وترى فيها السيد الرب شاخصاً إليك بعينه، فهذا صورة ما هو

حدث بالفعل . فهو الآن وكلّ شأنٍ ساخص إليك بعينه الفاحصين المنهيين أكثر من الشمس .
وليس مجرد سطر ، بل به يفحص أعمق أفكارك وقلبك ، و يتطعم إلى انسحاق نفسك وحرث وتهدك .
فالصورة لم تخرج عن كونها صورة ، ولكنّها عثرتك عما لم يكن من السهل أن يدركه مجرد ذممت
السيطر رخيال . ويطعم ذكرى صاحبها في عقل إلى الأبد . « أن لا نساك هودا على كفى نشتك . »
(وش ١٦: ٤٩)

يد وصف أدم الأيقونة فتصور نفسك أنك واقف أمام الله الحي وتكلم لأنه هو « سامع الصلاة وإليه
يأتي كل بشر . » (مز ٦٥: ٢)

١١٠٧ — حين نصف وبصلي أمام الأيقونة المقدسة فإن أدب رب الخلود نكون مصغية إليها لأنه
فرب يس ، أقرب من الأنفوس دنها ، وكثيرا ما يُستعمل أكثر وصوح من الصورة المرسومة أمام أعيننا .

والأنفوس وحي يساء الرب قرب ومتواضع سماع الصلاة ويطر إليها . كذلك أيضاً القديسون
هم حوّل « وهم » كلّ عدم مسخفاً لهم ، تأنّهم في براري وحنان ومعاير وشقوق لأرض ، هؤلاء
كلهم مسهود هم . بل إنهم ... ذلك نحن أيضاً إذ لنا سحابة من الشهود مقدار هذه محيطتها بنا لصرح
كلّ ثمن والخطية الخفيفة ما سهوة ولتُحاصر بالصر في الجهد الموصوع أدم » (عب ١١ و ١٢) . هم
يسطرون ، يساء كم يطر إليهم و يسمعونا ولو أننا لا نسمعهم . ذاتاً للحميم ، وإنما يصغي إلى أفوهم
خفية وتعاليمهم انيرة وسيرهم مقدسة هذه التي تعمل في بواسطة الروح القدس الذي ير نصا لهم ،
لذي يقودنا لشترك في موكب نصرتهم : « أدكروا مرشدكم الذين كمنوكم بكلمة الله أنظروا إلى حياة
سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم . » (عب ١٣: ٧)

١١٠٨ — في أيقونة أثرية وُجد المختص مرسوماً وفي إحدى يديه لكرة الأرضية وليد لأخرى ممدودة
ببركة . إن هذا الرمز مأخوذ من الخفيفة . فالرب يتطعم من السماء و يرافف هؤلاء الذين يجهدون على
لأرض من أحده ، و يعينهم في حروبهم ضد أعدائهم ، و يباركهم بسلام ، ويهيم إكليل حياة بعد أن
يكملوا جهدهم .

ذلكت نسو أنها المؤمنون بيسوع « باظرين إلى رئيس الإيمان وممكنه يسوع » (عب ١٢: ٢) فهو
يركم و يرافف جهادكم ، وفي المحطة الأخيرة يُستعمل لكم محمد و بهاء عظيم ، كما تراءى لأول شهدائه
بسطفوس أنقويه على ساعة جهاد الأخيرة . وكما تراءى لساول في الطريق معب له دمه وأصاء حوته
بنوره العجيب وكلمه بلغته . (أع ٢٦)

١١٠٩ — كل راهب في دير عليه كواجب يومي أن يسجد أمام دحائر القديسين (أي أحيادهم)
ثلاث سجادات ، و يقبّلهم و يقبّل الأيقونة المقدسة بوقار عظيم وصلاة منسحقة ، طالباً من القديسين أن

يساعده في تأدية عمله واجباته الرهبانية.

١١١٠ — حين سافر يعقوب بن قديس نوح بفر الله لدى أرسل لنا به، صورته حية ال صفة الذي خلق به كل الموجودات حسب فكره الأزلي.

فصار له حتى أن رسمه آدم عيوب متذكر من على دواء أن محد صار إلى حتى صر. «شركاء الطبيعة الإلهية.» (٢بط ١: ٤)

كذلك نوح بفر قوة الله التي حب في قديسيه وأغاسيم على حفظ لإيمان وتكميل السعي وجهاد.

١١١١ — ليس حساً أيها لأحباء أن نمنى صورة المسيح وقديسين في بيوتنا سر به وحميل مساكننا دون أن نحفظ واجبات الخشوع والإيمان والحب اللائق بها.

فصور في السيوت أو سكنايس ليس هي فصفاً فيه تعرض أو لريية وإنما هي لتكميل حية الصلاة والمساخر المنطوية، والإنحاء إليها وقت السدة والصيفه. فهي ليس صور مجردة، وإنما هي جود معدة لحفظ والإرشاد. هؤلاء القديسون هم شهادة يسوع الحقة، و يقدّمون عينة حية من الإيمان لنحوي وحيه السك والعباده، ويقفون كشاهد قوي ضد روح هذا العالم المسهر، يوبخون كل سيرة محنة وكل تراخ في جهاد الصلاة أو الصوم.

١١١٢ — هؤلاء القديسون إنما يصيرون بورك بآرب الذي سكنته على رؤوسهم، هم تفتسوا بعميتك بعد أن حاهدو وعسوا خطية. والآن هم تتمجدون عمدت، ويروا المجد الأعظم الذي لك. يتعمون في عدم فسادك لدى أسركهم فيه، إذ جعلهم واحد معك في قدسك وبورك وبهاتك. امجدتك يا رب يا من أعطيت مثل هذا المجد والنور والرفعة لبني جنسنا.

هذه هي صور لرسن تلاميذك الأظهار صورتك احيه، الدين وصوا، ليذك كسراء عنا يشمعون في مذلتنا أمامك.

هذه هي صور سطرحة لدين دعوا حرافك المقدسة، يا رئيس لرعدة الأعظم، وجاروا عالمنا محمداً بخيرك وحكمتك وقوتك.

هؤلاء هم لشهداء لدين حاروا معركة العذاب واشتركوا في آلام صديك وعسو ثيابهم وبيصوه بالدم.

هذه هي صور قديسيك الذين غسلوا ذواتهم بدموعهم، وطهرو أجسادهم بأصومهم، فأنو مواهبك لعظمى، واستؤمنو على أسرار المعرفة وشفاء المرضى. نفوا في جهادهم بشدة قوتك، ودسو الخطية

بأقدامهم، وكسروا فخاخ العدو نعمت... ها تحسك وضياء وجهك يستعان من وجوههم ضياء عجيب.

الأب يوحنا ك.

١١١٣ — قام بعض القوم مدعين أنه من خطأ أن نُشهر جراح الرب يسوع عند في صور وأن نعمل للقديسين صوراً.

يا لتتصيل! إنها فكرة شيطانية تعمل لكي تُخفي عن أعين الناس حقيقة آلام المحنّس وصده، وأن ينكر جهاد الفضيلة وتكريم تلاميذ الرب.

لقد عُيى الشيطان فلول المتحررين وجعلهم يمتحرون بمهازل العالم وفصائحه و يصورون ويدكرونها، أما الرب وأعماله فيود لو أمكن أن يُخفيها عن أعين الناس.

١١١٤ — إذا حاولنا أن نعمل صورة ما لله غير لمطور، فمن يكون قد أخطأنا حقاً، لأنه يستحيل أن نخطئ الله غير المدرّث غير المعوى بصورة ما، أو نرسم شيئاً لم ليس له شبه أو حسد مطور.

ولو أننا تماثلنا لندس وسجدنا لأشخاصها بنصد العبادة كأهنة فمن يكون كافر يس. ولكن حاش لنا أن نعمل هذا أو ذاك.

أما إذا كنا قد صورنا الرب الذي أظهر لنا صورته جهاً إذ تجسد وظهر على الأرض كبشر من بني البشر، أحداً شكلاً ومنظراً محدوداً، فمن لم يضل ولم يعد شيئاً سوى الرب يسوع المسيح.

كل من يشاء أن يرى كيف كان منظره، وارسول يقول براه الآن كما في مرآة ولكن أي مرآة نرى وفي رؤية؟ أليست هي رؤيتنا له في شبه صورته المرسومة في الأيقونة؟

إن رؤيتنا له الآن في الأيقونة كرويتنا لسكبه الذي كان به وإيماناً في مرآة معتمدة! لأن عينا لن نستطيع أن يكف عن محاولته لتصويره بصورة ما.

يخزيك الرب يا شيطان وتخزي عصمتك لأنك تحسدا حتى على صورته التي وضعها أمام أعيننا لحيا في حصرت. فأنت لا تريد أن تتأمل في آلامه المحيية، أو نعيش بالرب منه مسح عظمته ونحته واتضاعه.

أنت تعص القديسين وتغمد عليهم لأنهم انضعوا وأحدوا المحد والكرمة من الله، فلا تطلق أن تصور صورهم أو تحسدا عند ذكرهم كما أوصى الرب متشبهين بأيديهم باطرين في نهاية سيرهم!

نحن مستزدي باحتجاجاتك لأنك شرير ومبغض لجنسنا.

يسمعوا يا سمع المسيح يا محاري الله : كل من يُعَلِّمكم بعز ما تعلم به لكيسة الوحدة الوحيدة الجامعة لأرتودكسية جي استنبت تعاليمها من الرسل ، فلا تسمعوا به ولا تصنوا منوره لإنسان ، إنه ضلالة شيطان . وردا عنكم ملاك أو سلطان بعز ما علمكم فسثوا آدابكم ولا تسمعوا به .

١١١٥ - إن السوفر والإكرام سىء وانعاده شىء حر . فانه وحده هو المستحق لعدة من كل من في السماء من فوق ومن في الأرض من تحت .

فمحس بسجد وبعد الله ، وبوفر قدسيه وبكرمهم إكراما لروح القدس الذى ملاهم : « من نفسك يقبني » (مت ١٠ : ٤٠) لأنه « ليس نبي بلا كرامة . » (مت ١٣ : ٥٧)

١١١٦ - في البدء لم يُعرف سوى الله الآب غير المنظور وغير محوى ، فبه يكن ممكناً أن يصور بصورة قط . ولكن لأن أحد حسد وصار منظوراً إلى السر غُلب له صورة حسب حقيقة مقبره .

وغير لا بعد الصورة لمادة وبعد الله المرمور له بالصورة يدى أحد حسد من أحياء ، وتدار وصار على هيئة بشر ليخلصنا .

الم تكن صحرة نبي أخرج الله نبي سراسل في تربيته هي المسيح (١ كو ١٠ : ٤) ؟ لم يكن المسيح بنفسه د . حبه وده وعظمه « حسنى وإسرود وب الروح ليس له حبه وعظمه كما ترون بي . » (لو ٢٤ : ٣٩)

إن فستقدم بإيمان غير مرتدى بتقدس كل ما يخص الله ، معطى الكرامة لمن له الكرامة متعددين بروح النعمة ، ولا نختقر شيئاً فيه أو عليه اسم الله .

١١١٧ - د . كتب لا تعد المسيح وهو مصور أمامك ، فإب لا تعد الله ، لأن المسيح ذاته هو صورة الله غير المنظور ورسم جوهرة الأزلي .

إبراهيم وموسى وإشعيا وكل الأنبياء رأوا صورة الله ولكن ليس جوهرة .

لغلبة المشتعلة ناسر كتب رمز ورسماً للعداء مرء والدة الإله ، وحي أرد موسى الاقترب منها باده الله لكي يجمع بعنه لأن الأرض التي كان واقفا عليها صارت مقدسه بجنون الله . فكم وكم تكون مقدسة صورته مع أمه العذراء ؟!

١١١٨ - إن الصور قصة مقروءة وتذكاردائم .

لماذا أمر الرب نعمل بابوت مصفح بالذهب ، وحسه يكون غير فاس لتنف ، وبوضع د حبه علامات حاصه كفسط الذهب المملوء بالنس وعصاه هرون التي زهرت وثمرت ، وبوحي العهد

المكتوبين بأصبع الله؟

ألم يكن هذا الترتيب لحفظ تذكّار عمل الله مع بني إسرائيل؟ من يقول إن التابوت بما فيه لم يكن صورة مبشرة ومعلّية لقصة علاقات الله مع شعبه؟

ألم يحل الله على غطاء التابوت بين الكاروش، وكلّم موسى و يشوع ورؤساء كهنة؟

ألم يمع يسوع أمام تابوت ساجداً على وجهه من الصباح إلى المساء؟

ألم يضرب الرب «غرة» لأنه نجراً ولمس التابوت لمساً، وأماته أمام التابوت لإستهاته بعداسة تابوت الله الذي لم يكن يحل لمسه إلا للكهنة وبني لاوي؟

ألم يرقص أمامه دود مستحاً بآلات الفرج وقال: إني رقصت أمام الرب؟ (٢ صم ٦: ٥ و ٢١)

ووصح في هذا كده أن الشعب لم يكن يعبد الحشب الجيد أو الذهب المصقّى اللامع أو المصنوع من الحجر. وواضح أيضاً أن قوة الرب كانت حالة على التابوت بعد ذهابه بربيب المسحة.

١١١٩ — أمر الرب أن يؤخذ اثنا عشر حجراً من قاع نهر الأردن بعد أن انصفت مياهه وعبر بنو إسرائيل، لشمام كشهد ومدكر للأجيال القادمة بعمل الله مع شعبه قائلاً: «تكون هذه علامة في وسطكم، إذ سأل عدوكم قائلين ما لكم وهذه الحجارة؟ تقولون إن مياه الأردن انصفت أمام تابوت عهد الرب فتكون الحجارة تذكّاراً.» (يش ٤: ٦ و ٧)

كيف، إذن، لا يرسم آلام المسيح حتى إذا سألتني أبي ما هذا، أقول له إن الله أخذ جسداً كما لم وتألّم وصلب، ليس لكي يعبر بنو إسرائيل الأردن ولكن لكي تعبر البشرية جميعها من الموت إلى الحياة؟

١١٢٠ — إن من يرفض أن يعطي لصورة الله أو أحد قديسيه ما تستحق من كرامة، فإنه مؤيد بمكر شيطاني. لأن لصورة هي تذكّار وإعلان عن أمر إلهي، وتسيخ صامت له.

١١٢١ — إنه مستحيل أن يكمل فرحنا وهليليا الروحي بدون ذكر الرسل وقديسين وأعمالهم، لأنهم هم تعمودنا على تعبه. وفي أثناء حياتهم كان الروح القدس هو العامل فيهم، وعندما انتقلوا بأرواحهم بقي عمل النعمة وثره في أجسادهم: فعظام إيلشع أقامت الميبت ودلت ليس بطبيعتها المائنة وإنما بعمل النعمة الكائن فيها.

١١٢٢ — إن ظلّ الرسل وعصائبهم وماديلهم كانت تشي المرصى ونُخرج لأرواح الشريرة، فكيف لا تكون صورهم مقدسة ومجددة معاً؟!

١١٢٣ — إذا كانت صورة المذنب تُحترَم كالملك، وعند ظهورها يقف الجميع إجلالاً وإكراماً، ومن يسهرى بها يُعافى شدة، فكيف لا تكون صورة المسيح مستوحاة السجود والوفاء، وصور القديسين مستحقة الاحترام والكرامة!

كان لشياطين يرتعون من القديسين و يهرون من أمامهم، بل ومن ظنهم إذا خيّم عليهم: أفلا تكون صورهم كظلمهم؟

إلى الآن ترتعب الشياطين من صور القديسين، وتفزع منها صارخة وتخرج من المصابين بخزي وفضيحة. كما تفزع أيضاً من صورة الصليب ومن الريت المقدس والماء المصلّى عليه.

١١٢٤ — إعدمو يا أحمائي أبا حينا بسجد للصليب فنحن نسجد لمصلوب وليس للخشب، وإلا كنا ملزمين أن نسجد لكل شجرة في الطريق.

إن الصليب والأيقونات ليست آلهة يعبدها وإنما هي تدعونا لعبادة الإله الحي وحده.

الذي يكرّم والدة الإله فهو يكرّم الله. والذي يكرّم القديس فقد كرمّ القداسة. مكتوب أن جميع الأجيال ستطوّب العدراء، وأن المسكونة كلها ستذكر المرأة التي دهست قدمي لمسيح بالطيب.

١١٢٥ — نحن لا نجرؤ أن نلمس الحديد المحمّي بالنار؛ ليس خوفاً من الحديد بل خوفاً من النار. كذلك نمجد الله في صورته، وكرم أشخاص القديسين في صورهم؛ ليس من أجل لورق والألوان، ولكن لأجل هيبة اللاهوت والقداسة.

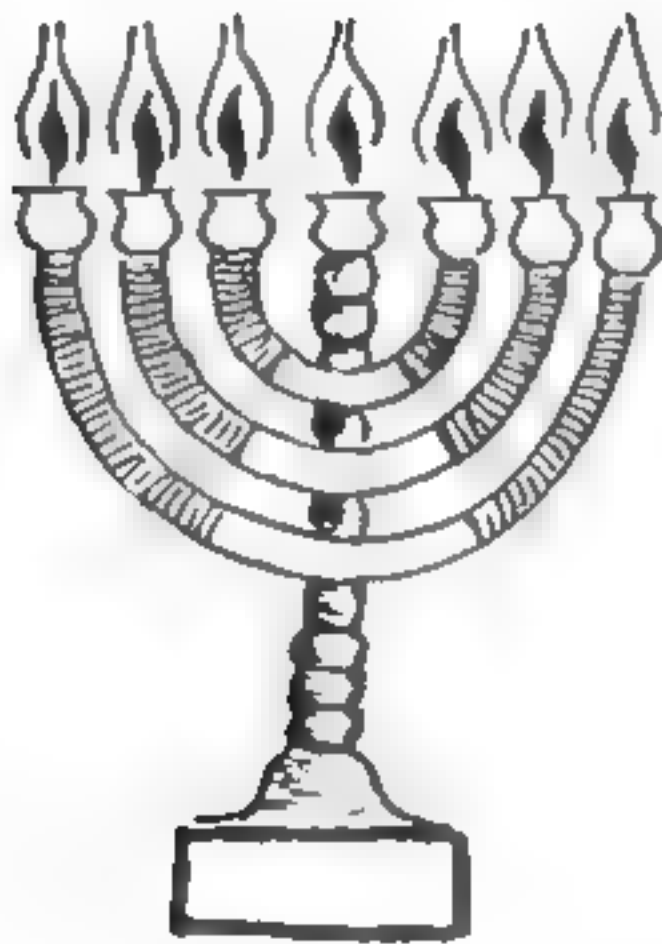
من سمع أن إنساناً عند الموت أو سجد للآلام؟ نحن لا نسجد للمظهر المحدود الذي تبرزه الصورة وإنما نعبد من تألم ومات.

١١٢٦ — حينما ندخل الكنيسة متعبين من أفكار كثيرة وهموم الحياة المتعددة، ونقف نتأمل في الأيقونات المقدسة، تمتلئ نفوسنا هدوءاً وسلاماً، وتعترينا شوة الغيرة لحياة القداسة والسير في أثر هؤلاء المحاهدين الذين تكلموا بالمجد، ثم سجد أمام الله باتضاع وانسحاق طالين أن تشبههم، وحينئذ نسمع من الداخل صوت التشجيع.

يوحنا الدمشقي

الفصل الرابع

الشموع



+ « رأيتُ سبع منابر من ذهب وفي وسط السبع المنابر شبه ابن إنسان... المنابر السبع التي رأيتها هي السبع الكنائس. » (رؤيا: ١٢ و ١٣ و ٢٠)

+ « يشبه ملكوت السموات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن لاستقبال العريس. » (متى: ٢٥: ١)
+ « لتكن أحفاؤكم ممسطين وسُرُجكم موقدة. » (لوقا: ١٢: ٣٥)

+ « كان هو (يوحنا) السراج الموقد المبر وأنتم أردتم أن تتهجوا بنوره ساعة. » (يوحنا: ٣٥)

تعبر الشمعة تعبيراً تصويرياً دقيماً عن وفقة العابد أمام الله! فهي تظهر هادئة ساكنة وفيها يظل يشتعل اشتعالاً سار مدهية تحرق جسمها البارد الصلب فتديبه إداًبة، وتسكبه من فوهها دموعاً، تنحدر متلاحفة تاركة خلفها هالة من نور يسعد بها كل من تأمل فيها أو سار على هداها.

والشمعة كالعابد ليس لها فخر في دأها فهي معتمدة لا نور لها باردة لا حرارة فيها وتظل كذلك إلى أن يلهب قلبها بتسعة من نار، حينئذ تلتهب وتضيء فتبدد حُجب الظلام المحيطة وتبعث الحرارة والدفع إلى من حولها!

فطبيعتها بدون عمل النار تافهة مهمة كطبيعة الإنسان بدون عمل النعمة، حتى إذا اشتعلت بالنار صارت من طبيعة النار وأثارت لا بطبيعتها الأولى وإنما بطبيعة النار المتحدة بها.

إن شمعة موقدة في بيت الله هي دعوة للعبادة الهادئة الحارة المسيرة.

لمحة تاريخية كسبية عن إيقاد الشموع في البيعة الطاهرة:

أول ذكر لاستخدام الشموع في الكنيسة استخداماً طقسياً بعد ما جاء في سفر الأعمال (٢٠: ٧ و٨) إنحدر إليسا من مخطوطات القرن الثالث، وذلك ضمن وصف طقوس إقامة الصلوات في ذكرى الشهداء تكريماً ونحيةً لأرواحهم التي أضاءت في العالم ساعة ثم انصفت «لتضيء كالجلد في ملكوت الله».

ولقد أسرف المؤمنون أحياناً في إحراق الشموع في كنائس المقابر التي للشهداء مما أدى إلى إصدار قانون خاص رقم ٣٤ في مجمع إلبيريس Illiberis سنة ٣٠٥ م، بمنع إحراق الشموع أثناء النهار في المقابر حتى لا يتضايق المؤمنون من كثرة النار. وقد مال بعض لشرح لتفسير هذا القانون على أنه إمعان في إخفاء اجتماعات المسيحيين عن أعين الوثنيين.

وعندما قام أحد العلماء الأسبان و يسمى «فيحيلانتيوس»، الذي من برشلونة، بانتقاد

عادة إحراق الشموع المكرم أرواح الشهداء، انبرى له القديس حيروم وكتب رسالة ضد فيجيلانتيوس، يخذل إحراق الشموع في الصلوات والتذكارات التي للشهداء منسباً إحراق الشموع بإهراق قارورة الطيب على جسد المسيح. (١)

أما استخدام الشموع في طقس الصلوات داخل الكنيسة وخصوصاً في الأعياد، وقرأ عنه في كتابات قديس باولينوس الذي من نولا، والذي ترجع إلى سنة ٤٠٧ م. وقد وصف كيف كان يقدم الشموع بنفسه:

«... فمدح كان هذا مصباح شموع كثيرة، وكانت تحرق بحور ممروحة بسمع و سرس، وكتب تضاء بالليل والنهار فكان الليل كأنه نهار والنهار يصير بهياً كالسواء.» (٢)

وفي إحدى كتابات القديس إيفايوس قصة يظهر فيها كيف كانت الكنائس تتميز بالشموع المضيئة في أيامه (القرن الرابع):

«... كان سراج واحد من مصابيح النهار فيها سراج عن هذا المكان أحرقوه أنها كنيسة.» (رسالة إلى يوحنا هيروس)

وفي القرن السابع بسمع في إيطاليا عن حمل الشموع في مسيرة الأسقف عند دخوله الهيكل ببدء الصلاة وأمامه سبعة شمامسة حاملين شموعاً مضيئة (٣)، وعند لحظة دخول الهيكل سفسم الشمامسة أربعة إلى الخمس وثلاثة إلى اليسار ليعبر الأسقف في الوسط ويدخل الهيكل، وعند خروج الشماس لقراءة الإنجيل يسفهم شمامسان حاملان سمعتين مضيئتين كرامة للإنجيل. (٤)

وفي تاريخ بابوت روما يقرأ عن الترتيبات الفصحية التي رتبها لينا روسيموس سنة ٤١٧ م عن كيفية صلاة تكريس الشموع ليوم سبب النور وشموع الفصح (٥). وفي أخبار غريغور بوس الكبير سنة ٦٠٥ م وجدت رسالة فيها يرتب كيفية لصلاة على الشموع (٦)، وضرورة إضاءة حرن المعمودية ليلة الفصح بشموع تضاء من فناديل الكنيسة وليس من خارجها. (٧)

وفي خطب هديران الأول سنة ٧٧٢ م يُقَاد أنه كان محظوراً على الكهنة لبس ملابسهم لخدمة ليلة الفصح قبل أن تضاء الشموع المخصصة لهذا المساء والمكرسة بصلوات مخصوصة.

(1) Contra vig., ch. 8. (2) Poem. XIV, Nat. 3. (3) Ordo. Rom., 1. 5.

(4) Ibid., 1, 11 (5) Biblioth. pp VII, 1358 (6) Epist XI, 28, al 33 (7) Epist XII

كما نسمع عن ضرورة طقس إيقاد الشموع ليلة الفصح في الطقس الأسباني في مجمع توليدو — في مؤرخات إسيدور الأشبيلي سنة ٦٣٣ م — بترتيب بديع يدخل في صميم معاني الفصح، إذ يبدأ الأسقف الصلاة باحتفال إيقاد الشموع ثم يدخل الكنيسة مع خورس من المستنحين قائمين: «أيها السور الحقيقي». و يشرح الأسقف إسيدور الأشبيلي القيمة السرية لمعنى تقديس الشموع وإبارتها بالنسبة لمضمون القيامة والور الذي انبعث منها على العالم.

وفي إحدى المخطوطات التي تسرد أخبار رحالة إنجليزي زار روما سنة ٦٩٨ م، يذكر أن شمعة الفصح الكبيرة كان يُحفر عليها عدد السنين التي مضت منذ الفصح الأول، و يذكر أنه رأى الشمعة مكتوباً عليها: «قد مضى ٦٦٨ عاماً على قيامة المسيح».^(٩)

أما في طقس المعمودية فقرأ أيضاً عن تقديس الماء بشمعة الفصح، إذ تُستحضر شمعة الفصح الكبيرة وتغمس من أسفلها في الماء علامة على حضور الروح القدس.^(١٠)

كما يُعطى لكل معتمد بعد عماده شمعة مضاءة من شمعة الفصح تعبيراً عن الإستنارة التي حصل عليها بالعماد.

وبانتهاء المعمودية وحمل الشموع المضاءة يبدأ قداس الفصح مباشرة، وإلى مدة سبعة أيام بعد الفصح يواظب المعمدون على الحضور إلى الكنيسة للإشتراك في الإفخارستيا بملابسهم البيضاء، و يدخلون الكنيسة وفي أيديهم الشموع المضاءة.^(١١)

وطفس هذه الشموع المضاءة في المعمودية ومعناه الروحي قديم جداً، تبدأ أخباره عندنا منذ القرن الرابع في عظات القديس كيرلس الأورشليمي سنة ٣٥٠ م، وفي أقوال للعلامة زينو الذي من فيروبا سنة ٣٦٠ م، وفي رسالة للقديس أمبروسيوس سنة ٣٧٤ م لعذراء انحرفت فيقول لها فيها:

[هل نسيت يوم القيامة المقدس الذي فيه قدّمت نفسك إلى مذبح الله؟ هل نسيت هذا لإحتفال المهيب في الكنيسة بين الأنوار الكثيرة المتلألئة في أيدي المعمدين الجدد وكنيت واحدة بين المحنّات لمكوت الله وكعروس للملك؟]^(١٢)

(٨) المؤرخ: Bede

(9) Pseudo — Alcuin de Div. off. (10) Alcuin Ep. ad car. magn (11) De Laps. virg V. 19

ونقرأ لغريغور يوس النرينزي سنة ٣٨٥م:

[... ب ملاسنا البيضاء وحنلنا للشموع المضاءة في احتفالنا الذي عبدا له د لأمس عامة وحصه بكافة الرتب الكبيرة والصغيرة وقد أصابنا الليل بأنوار الشموع العريضة ...] (١٢)

أما عن علاقة الشمعة المضيئة بالإنجيل فنفراً عنها مبكراً جداً في أقوال القديس جيروم سنة ٣٧٨م كأمر مستقر في الشرق منذ القدم:

[في جميع كنائس الشرق عندما يُقرأ الإنجيل تضاء الشموع حتى ولو كان نور الشمس على الكنيسة، فالضاءة ليست لتبديد الظلمة وإنما لإعلان الفرح، ولكي يكون لنور المنظور، علاناً وشهادة عن نور الإنجيل غير المنظور.] (١٣)

ولكن أول إشارة عن طمس النور الذي يسبق الإنجيل في الغرب نراها من ساقيل الأشبيلي سنة ٦٣٦م، ومن أسبانيا انتقل الطقس إلى روما.

أما بخصوص طمس إيقاد الشموع في مراسيم الجنازات فهو قديم في الشرق أيضاً، ونهراً عنه في تاريخ يوسابيوس عن «حياة قسطنطين الملك»: [وأضاءوا شموعاً في شمعدانات من الذهب ووضعوها حول جثمانه.]

وغريغور يوس النيسي يصف مشهد جنازة أخته القديسة ماكرينا سنة ٣٧٠م:

[واصطف أمام النعش عدد غفير من الشمامسة ومساعدى لشمامسة في صلب، ملازميه من المنزل في نظام والكل يحمل شموعاً مضاءة.] (١٤)

والقديس جيروم يصف مشهد جنازة القديسة يولانية سنة ٣٨٦م بوصف مؤثر للغاية:

[وحملت جثتها بيد الأساقفة أنفسهم ووضعوها في النعش وأبوا إلا أن يحملوا النعش على أكتافهم في حين كان باقي الرتب يحملون الشموع أمام النعش.] (١٥)

ويوحنا ذهبي الفم يقول في مسيرة الشموع أمام الراحلين الأتقياء:

[قل لي لماذا سير بالشموع أمام هؤلاء، أليس لأننا نستودعهم كأبطال؟] (١٦)

ويفص علينا المؤرخون الكنسيون في الشرق والغرب على السواء فصصاً وفعية لا حصر لها تفيد أن الشموع والقناديل التي كانت تضاء أمام أجساد الشهداء والقديسين،

(12) Ins. Pascha XIV, 2. (13) Cont. Vigilant ch. III. (14) De Vit. S. Macr. (15) Ad Fustoch Ep. CVIII, ch. 29. (16) Epist. Heb., Hom. 4.

و بالأخص عندما تُكتشف لأول مرة وتُعمل لها كنائس خاصة، كانت لمعجزات التي تُجرى بواسطة الزيت المتبقي منها شيئاً يفوق الحصر.

ومن الأخبار الطريفة قصة ذلك الأعرج الذي دهس رجله بزييت فنديل في كنيسة للقديس اسطهانسوس الشهيد فسُي في الحال، فأصاء شمعة وترك عكازه هدية للقديس، فصار مزاراً خاصاً في الكنيسة. (١٧)

أما بخصوص طقس إيقاد الشموع أمام الأيقونات، فكان بطبيعة الحال البديل الوحيد لتكريم سيرة هؤلاء لشهداء والقديسين الذين لا نعرف مقر أجسادهم الطاهرة.

وعندنا قصة محففة لعر يغور يوس الذي من تور من القرن السادس تصف حالة شفاء تمت بواسطة زيت لفنديل المضاء أمام أيقونة القديس مارتن في كنيسة براقيا. (١٨)

كما يذكر أنه كان للقديس مارتن مذبح مكرّس لذكراه وأمامه شبّاك صغير معنق فيه قنديل مضاء باستمرار. (١٩)

وفي أخبار المُرّج يوحنا موسخوس سنة ٦٣٠ م نقرأ عنه أنه كان إذا ما دخل أي كنيسة يوقد شمعة أمام أيقونة العذراء (فصل ١٥٥).

وفي رسالة لبطريرك جرمانوس الذي كان على القسطنطينية سنة ٧١٥ م يقول لأحد الأساقفة:

[يسفي أن لا يعثر أحد في هذه الشموع المضاءة والبخور الزكي الذي يُعطى أمام الأيقونات، لأن هذه السطّوس إنما جُعِلت لتكرّمهم... فالنور المنظور يعرّ عن عطية النور الإلهي الذي كان فيهم، وحرور النور الزكي أمامهم يرمز إلى إلهامهم ومعرفتهم الطاهرة والكاملة ومتلائهم من الروح القدس.] (٢٠)

كما نقرأ في تاريخ الكنيسة باستمرار فصصاً لا حصر لها عن استخدام إيقاد لشموع وتقديم البخور أمام الأيقونات كاعتراف بالسكر على معروف أكمله أحد القديسين مع أحد الناس.

وفي تاريخ البابوات قصة عن البابا سرجيوس الأول سنة ٦٨٧ م، وكان من أصل

17) Evodius Miracles, I, 4 (18) De Meraci St Martin, I, 15 (19) De Gest Longal, II, 13

20) Epist. ad Thomam, in Labbe, conc., VII., 313

سرياني من أنطاكية، فقد رتب يوم ٢ فبراير عيداً للقديس سمعان الشيخ سُمي بعيد «هسابنتا». وكانت تُقدَّم فيه الشموع بكثرة حتى سُمي بعد ذلك بعيد الشموع. وهو العيد الموافق لتطهير العذراء حسب التاموس (لو: ٢٢: ٢٢ — ٢٤).

وقد عثرنا على صلاة طمسية قديمة العهد لتبريك مقدمي الشموع والأنوار، وهي من ترتيب كنيسة تور بفرسا من القرن السابع تقو: [أيها الرب الأبدي النور الحقيقي صانع النور وواهبه، أسكب نورك الحقيقي الدائم في قلوب المؤمنين بك. واسمع بأن كل من يزين هيكل مجدك المهدس سور (شمعة أو قنديل) أن يخرج مطهراً من كل الشرور حتى يصح قادراً أن يتراءى أمامك بعد ذلك ومعه ثمار أفضل بالأعمال الصالحة في هيكل مجدك السماي في مسكنك الأعلى.] (٢١)

والمشتغلون بالحفريات والآثار يخبروننا عن مجموعات هائلة من القناديل الفخارية والزجاجية والبرونزية التي وُجدت، وعليها كتابات تفيد أنها من استخدام الكنائس وأزمانها تبتدىء من القرن الرابع فصاعداً. وقد اختصت الحفريات المصرية بالعدد الهائل منها الذي تزدحم به متاحف أوروبا. وقد وُجدت على أشكال ورموز لتعبّر عن أمور روحية، فمنها ما هو على شكل كأس الإفخارستيا إشارة إلى النور المبعث من جسد المسيح ودمه، ومنها ما هو على شكل نخلة أو غصن نخلة إشارة إلى الآية الطقسية المستخدمة: «الصدّيق كالنخلة يزهر»، ومنها ما هو على شكل نجمة إشارة إلى النور الذي أضاء في العالم بالميلاد. ومنها ما هو على شكل سفينة نوح إشارة إلى الكنيسة كمصدر خلاص.

أما الكتابات التي وُجدت عليها فعدة منها:

- (١) مصباح قنديل مصري مكتوب عليه: «القديس بولي إيقاكتو» مع نجمة تتوسط الرسم، وقد وُجد في كنيسة فقط بالصعيد.
- (٢) مصباح قنديل مصري مكتوب عليه: «الأبّا القديس سرحيوس».
- (٣) مصباح قنديل مصري مكتوب عليه: «الأُمّا القديسة كرسطينا».
- (٤) مصباح قنديل مصري مكتوب عليه: «القديس سيرياكوس».

وهذه المصابيح موجودة حالياً بالمتحف البريطاني ، كتالوج الفخار (١ : ص ٥٢) .

وفي متحف ليدين يوجد مصباح قنديل مصري محفور عليه باليونانية كلمة معناها «نور الأنوار» . ومصباح قنديل مصري آخر مكتوب عليه باليونانية كلمة معناها «معرفة اللاهوت نعمة الله» .

وفي Bib Imper p 107 مصباح قنديل مصري وُجد في مجموعة الأب جربو وعليه حفر على شكل ضفدعة وأمامها صليب وكلمات يونانية ترجمها : «أنا هو القيامة» ، حيث الضفدعة ترمز إلى القيامة بسبب كونها لما تموت يظهر مكانها ضفدعة حية أخرى (حيث أن البيضة التي تُفقس منها الضفدعة لا يمكن أن يلاحظها أحد) .

وفي متحف اللوفر بفرنسا عينات كثيرة من المصابيح التي كانت تُستخدم كقناديل في الكنائس ، وقد جُمعت من الجزائر وتونس وعليها رسومات على شكل الفتية الثلاثة وهم في أتون النار ومعهم الملاك الرابع سه ابن الله ، وأخرى عليها رسومات هيئة المجوس والنجم يتقدمهم .

ومن هذا العرض المختصر لأنواع الكتابات المحفورة على المصابيح والقناديل يتبين لنا مكانة النور في العبادة والرموز السرية العميقة التي تشير إليها .

والمعروف في الطقوس الكنسي القديم أنه أثناء إيقاد الشموع أو القناديل كانت تُقال صلوات خاصة في كل مناسبة مثل : «لأنك أنت يا رب سوف تضيء شمعتي أيها السيد الرب إلهي ، اجعل هكذا ظلمتي نوراً» .

«الرب نوري وخلصني من أخاف» .



أقوال الآباء عن الشموع :

١١٢٧ — توفد الشمعة وتضعها أمام الأيقونة المقدسة وتعتقد في قرارة نفسك أنك قدمت خدمة لله . ولكن ما معنى هذه الخدمة ؟ وكيف يكون في هذا العمل مسرة لله أو للقديس ؟

إبه هو أنت ، يا عزيزي ، لأنك قدمت برهاناً على غيرتك الروحية المتقدمة وإيمانك العميق !
فيلارت (مطران موسكو)

١١٢٨ — الشموع الموقدة على المذبح هي علامة نور الثالوث الأقدس . لأن الله لا يسكن إلا في النور ، ولا يقترب إليه الظلام ، لأنه نار آكلة تحرق كل ما هو خطية أو شر .

الشمعة الموقدة أمام أيقونة المسيح تعلن أن المسيح نور العالم : ينير لكل إنسان آت إليه (يو : ١ : ٩) .

والشمعة الموقدة أمام أيقونة العذراء تعلن أن هذه هي أم النور .

والشمعة الموقدة أمام أيقونة القديس تعلن أن هذا هو السراح المزين لمسير الموضوع على لمسار في أعلى البيت ليضيء لكل من فيه .

نوقد الشموع كعلامة رمزية لاشتعالنا بغيرة قداسهم وحبهم ، وتقديم آية مدموسة من آيات التكريم والوفاء والتسبيح الصامت والشكر على ما يقدمونه نحونا من شفاعاة أمام مسر المسيح .

١١٢٩ — إبه حسن أن نوقد الشموع أمام الأيقونات ، ولكن يجب أن يكون ذلك مفترفاً بغيرة القلب واشتعاله بالقداسة كالشمعة التي تلتهب لتضيء .

وما المنفعة أن نقدم الشموع الكثيرة أمام الأيقونات وليست فيها محبة عممية نحواً لله ، أو نكون مبغضين لأحد الناس ، أو طماعين وعجبين للمال ؟

١١٣٠ — لا تحتفر أو تستصغر إيفاد شمعة أمام الأيقونة أثناء الصلاة ، واذكر أنك تقدمها لرب العظمة الساكن في النور غير المقترَب إليه . وهذه الشمعة ذاتها ما هي إلا هبة من هباته فمن يديه تأخذ وتعطيه !

تقدم السمعة هومة دبيعة شكر، كناية عن تقديم النفس كديحة حية مقدسة طاهرة أمامه ؛ كما قيل عن يوحنا السابق أنه كان كمصباح ينير أمامه .

١١٣١ - تقدم الشموع أمام الأيقونات بوسلا أن تكون حياً مبره، متشبهين بالعداري الحكيمات دواب المصباح المضيئة، ومممن وصيه الرب أن يكون شراً موفده بتحرق على الصلاة والسهر.

حي أشعل السمعة بالدر، أرجو أن يحى الله فيها مشتعلاً بـ العيرة المقدسة ولحب لظاهر لتحرق الشهوات والخطايا في داخله .

حي أثب سمعه في موضعها فتعل تستعل ونصيء . أود من كل نفس أن أدوم هكذا ميرا لمن هم حولي ومعى .

هذا هو شعوري حي أدم السمعة، وأثنا أني حتماً سأبذل نعمة ومعونة من هؤلاء القديسين لمكتبين بالمجد . لم يدكر الكتب قانون تبادل العطية . «الكيل الذي به تكيون يكل لكم و يفص !» (مت ٢: ٧)

١١٣٢ - بي إنسان ضعيف وجسدي مملوء خطية ولا أستطيع أن أدم كل حين فب مضطرباً بالعيرة وبار المقدسة . فـ بالأف حذا أدم مقدمة جسدية ترمز لاشتياقي نفسي لد حي الحياة القداسة والفضيلة حتى ينظر الرب من السماء إلى هذه السمعة الموقدة ويحبي أير مثنها «بورث يا رب نعاين السور» ، فهو لحي وحده وأنا المسكن الناس العريان . هو الساكن في نور الأعظم وأ الحاس في ظلمة الخطية .

كل ما أملك هو اشتياقي للفضيلة وغيرتي من نحو القداسة .

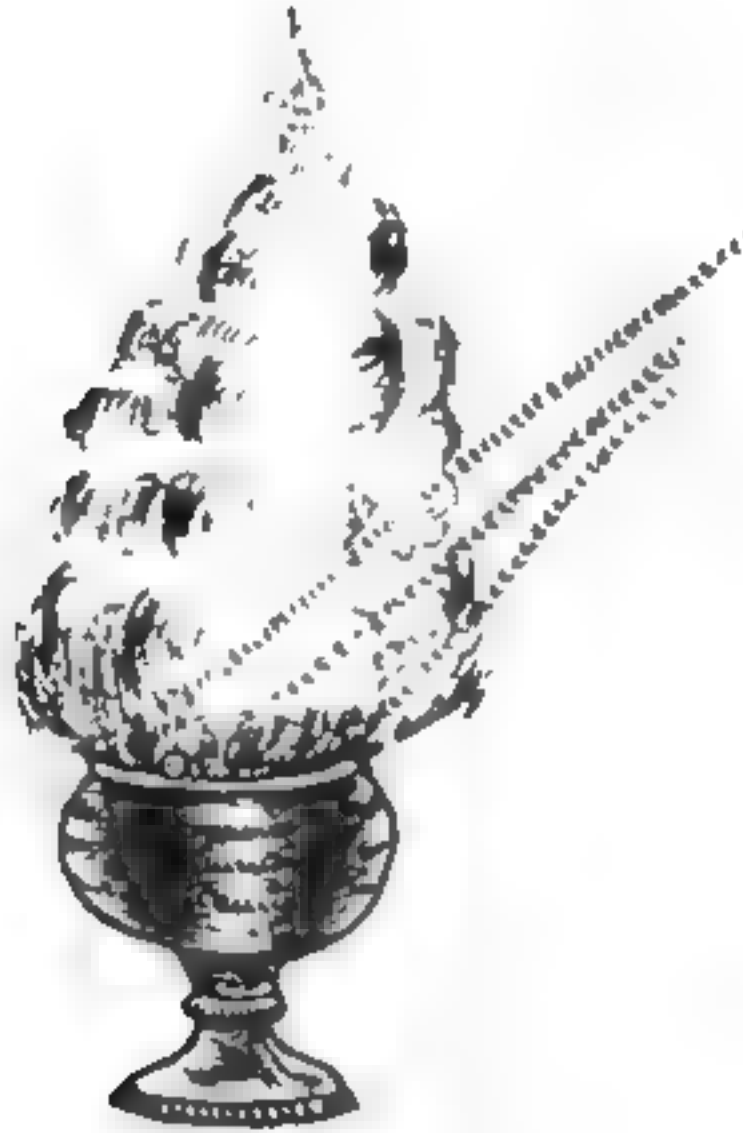
الأب يوحنا ك .

١١٣٣ - لب فسا بصبرم بار وحياتنا تضيء كور أمام الرب لإله كسمعة موقدة أمام أيقوته المقدسة .

الأب صاروفيم ص .

الفصل الخامس

البخور



+ «فصعد دخان البخور مع صلوات القديسين.»

(رؤ ٤: ٨)

+ «لترفع صلاتي كالبخور قدامك.» (مز ١٤١: ٢)

+ «فتنسم الرب رائحة الرضى.» (تك ٨: ٢١)

+ «لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها إسمي عظيم بين الأمم وفي كل مكان يُعْرَب لإسمي بحور ونقدمه طاهرة. لأن اسمي عظيم بين الأمم قال رب الجنود.»

(مل ١: ١١)

+ «ما دام الملك في مجلسه أفاح نارديني رائحته.»

(ش ١: ١٢)

للبخور قيمة عممية في الصلاة. لذلك أمر الرب موسى أن يُقدّم في العادة اليومية بخوراً طيباً يحرقه على مذبح من ذهب في مجمرة من ذهب:

« تصنع مذبحاً لإيقاد البخور... تغشيه بذهب نقي سطحه وحيطانه حواليه وقرونيه. وتصنع له إكديلاً من ذهب حواليه... يوقد عليه هرون بخوراً عطراً كل صباح... وفي العتية يوقده بخوراً دائماً أمام الرب في أجيالكم. » (خر ٣٠: ١ - ١٠)

« وقال الرب لموسى خذ لك أعطاراً مميعة وأظفاراً وفتة عطرة ولبناناً نقياً، تكون أجزاءً متساوية، فتصنعها بخوراً عطراً صنعة العطار مملحاً نقياً مقدساً. وتسحق منه ناعماً وتجعل منه قدام الشهادة في حيمة الاجتماع حيث أجمع بك. » (خر ٣٠: ٣٤ - ٣٦)

وأمر الرب أن لا يُقدّم بخور إلى أحد سواه فجعله قدساً له: « قدس أقداس يكون عندكم والبخور الذي تصنعه على مقاديره لا تصنعوا لأنفسكم. يكون عندك مقدساً للرب. كل من صاع مثله ليشمه يُقطع من شعبه. » (خر ٣٠: ٣٦ - ٣٨)

لذلك صارت رائحة الخور دائماً مقترنة بالشعور بوجود الله، توحى إلى الإنسان بحوله. فبمجرد أن تفوح رائحة البخور تبهج النفس وتهلّل الحواس الداخلية إيماناً للشعور بالوجود في حضرة الله.

وكأنما رائحة البخور الزكية هي رائحة الرب كما يقول سفر نسيده الأنشاد: « ما دام الملك في مجلسه أفاح نارديني رائحته! » (نش ١: ١٢)

لذلك حينما يستنشق الإنسان رائحة البخور، تمتد النفس في تأملها بحواسها الداخلية نحو الله لتتعمق برائحة صفاء الأبدية.

هكذا الله بتحننه لم يحرم الإنسان من استخدام حواسه الظاهرة في الإمتداد بها لسبق تذوق أنعام الخلود.

كم من نفس متعبة دخلت الكنيسة، فسّرت فيها موجة من الهدوء حينما غشيتها سحابة

البخور المقدس المتصاعد من المذبة في يد الكاهن!

كم من نفس مرتبكة بهوم هذه الحياة، أحست برفعة خاصة حينما تابعت حلقات
البخور وهي ترتفع صاعدة نحو السماء!

وإن كانت العين الساذجة لا ترى في البخور إلا مجرد دخان طيب الرائحة تحتفي حلقاته
في الهواء، إلا أن عين النفس المكشوفة التي وُهبَت روح التأمل تراه صاعداً حتى السماء
محملاً بصلوات القديسين ترفعه أيدي جواهر الملائكة المقدسين بهليل وتسبيح:
— «وجاء ملاك آخر ووقف عند المذبح ومعه مبخرة من ذهب وأعطى بخوراً كثيراً
لكي يقدمه مع صلوات القديسين جميعهم على مذبح الذهب الذي أمام العرش فصعد دخان
البخور مع صلوات القديسين من يد الملاك أمام الله.» (رؤ ٨: ٣ و ٤)

لمحة تاريخية عن البخور في العبادة:

كان لترتيب الله لإستخدام البخور في العهد القديم مكانة أولى وعظمى في العبادة
الطقسية، وكعمل روحي صميمي يشرح و يعبر عن روح الصلاة والإنسكاب وتقديم أفخر
ما لدى الإنسان لله بسرور وشكر ورضى. وتقدمة البخور لا ترمز في حد ذاتها إلا إلى الصلاة
الشاكرة الراضية.

وبتحول العبادة من العهد القديم إلى العهد الجديد لم يتحول مفهوم تقديم البخور في
الصلاة كصلاة، بل بقي كما هو يعبر عن العلاقة الأساسية التي تربط الإنسان بالله.

أما الذي دعا بعض علماء الطقوس ونقادها إلى الشك في استخدام البخور في الكنيسة في
القرون الأربعة الأولى، معتمدين في شكهم على عدم ورود أي تفاصيل في كتابات الآباء
عن هذا الطقس أو أي ذكر واضح للبخور واستخدامه في العبادة، فهذا الشك لا ينبغي على
أساس لأسباب:

أولاً: لأن من الأمور المعروفة لدارسي التقليد الكنسي أنه كان ممنوعاً بل ومحرمًا تحريماً
فاطعاً كتابة أية تفاصيل عن كافة الأسرار الكنسية حتى لا يطلع عليها الوثنيون ويتخذوها
مجالاً للطعن والتشكيك، حتى أن الموعوظين المتقدمين للمعمودية لم يكن يجوز أن يُلقنوا أي
شيء عن سر العماد حتى إلى ما قبل عمادهم ليلة واحدة!! وظل هذا التقليد سارياً حتى
القرن الرابع، لذلك كان من الطبيعي أن تخلو كتابات الآباء من ذكر البخور بالتفصيل.

ثانياً: كر لتفصيلات عن الأسرار وشرحها وممارستها كانت تدخل ضمن التقليد الشفهي لسري في الكنيسة، وكان لا يجوز تسليمها إلا للمؤمنين فقط، وكانت تُقَنّ بالفهم والممارسة تنفيهاً فردياً وليس جماعياً. وكان يوحد عهد على المؤمن أن لا يوح هذه الأسرار. لذلك ظل طقس البخور سارياً ومستمراً دون أن يكون للشعب أو لعمانيين على وجه العموم أي معرفة خاصة بتفصيلاته لأنها كانت لا تُسلّم إلا للكهنة فقط باعتباره أنه يدخل في سر الكهنوت.

ثالثاً: بخصوص ذكر استخدام البخور في العبادة داخل الكنيسة عثرنا على بعض شهادات أبائية واضحة من الفرون الثلاثة الأولى تثبت أن البخور كان مستخدماً في كنيسة، وما نحن نقدمها للقارئ:

(١) عند تولي القديس ديمتريوس الأول الكرام البطريرك الإسكندري الثاني عشر (١٩١ - ٢٢٤م) الخلافة المرفسية، وكان ذلك في سنة ١٩١م، تضرع الشعب لكونه متزوجاً، فأوحى إليه الملك أن يُثبت للشعب بتوليته، فأخذ المجرمة (الشورية) وهي متفردة ناراً وفلها مع بخورها في كُثم وكُثم زوجته، وطافا البيعة كلها أمام المؤمنين دون أن يحترق قماشها، فهذا الشعب ومجد الله وعلم أنه مستحق بالفعل لكرامة البطريركية. وفي هذه الفصة المدونة في المخطوطات القديمة في «تاريخ البطارقة» ما يؤيد استخدام البخور في الطقس الكنسي.

(٢) في الكتاب المعروف باسم «تعاليم الرسل» (من مدونات منتصف القرن الرابع) الذي يحتوي على جزء هام من مدونات القرن الثاني والمنسوب ليهود الإسكندرية المتنصرين (الثيرايبوتا)، تحتوي الترجمة العربية له على تعاليم لرسل مضافاً إليها ترتيب الخدمة الكنسية في ذلك الوقت، ويشرح بكل وضوح وتفصيل استخدام البخور في الكنيسة في أوقاته المعينة، وفيه ينص على أنه كان على الأسقف أن يبخر الهيكل بنفسه أما الكاهن فيبخر البيعة. فهذا الطقس أصيغ على المخطوطات في القرن الرابع فهذا مجرد ظن لا يؤيده أي برهان. ومعروف أن التقليد الكنسي استلمه الرهبان في مصر منذ بدايته ولم يتزعزع عن حدوده. وكان من المستحيل إدخال طقس كامل برُمته كطقس رفع بخور باكر وعشية داخل الكنيسة بعد مرور ثلاثة أو أربعة فرون من تداول التقليد بدون قرار مجمع أو تدخل سلطان إلهي واضح، فهذا يُعتبر أمراً مُحالاً.

(٣) مما لا شك فيه أن الكنائس لم تكن في مجموعها في درجة واحدة من النضوج الطقسي وترتيباته، فالكنائس التعليلية القديمة، التي كانت نواتها كثرة من اليهود المتنصرين مثل مصر، بدأ استعمال الطقسي فيها فورياً باصباحاً منذ أول يوم. أما الكنائس التي كانت نواتها كثرة من الوثنيين والفلاسفة مثل شمال أفريقيا، فظل اطفاس فيها بدائياً ضعيفاً حتى نهاية القرن الرابع، أي زمن التحام الكنائس جميعها بواسطة فواتير الجامع.

(٤) لذلك نجد أن غالبية الرجال الكنسيين الذين لم يهتموا بالبخور وانتقدوا استعماله كانوا من الوثنيين والفلاسفة المتنصرين مثل أثيناغوراس وترتيان وكليمنس الإسكندري وأربوبيوس ولكتانتوس وأوغسطينوس، ولكن هذا لا يفيد على الإطلاق أن كنائسهم لم يكن فيها رفع بخور.

(٥) ولكن حتى ومن بين هؤلاء الفلاسفة المنكرين لأهمية البخور في العبادة، هناك من يجده يميل إلى تحليل قيمة البخور تحليلاً فلسفياً كشيء ذي أهمية. مثل ترتليان (سنة ١٩٨م) الذي يقول: [ولكن إذا كانت رائحة المكان غير مناسبة فأنا أضطر أن أحرق شيئاً من اللبان العربي ولكن ليس بالكيفية والهيئة التي يُقدّم بها للأوثان.] (١)

كذلك يقول هذا العلامة الفيلسوف مفارناً بين العبادة المسيحية والوثنية: [فإن كنا حفاً لا نشترى البخور، وإن كانت بلاد العرب تستكي بسبب هذا، فالسائيون (جنوب بلاد العرب) يشهدون بأن معظم تجارتهم الهامة (بخور من نوع آخر غير اللبان العربي المستخدم للأوثان) يستنزفها المسيحيون في دفر موتاهم أكثر مما يستخدمها الوثنيون في التبخير للآلهة.]

والملاحظ أن هؤلاء الفلاسفة الذين من أصل وثني يحاولون جميعاً بأقصى جهدهم أن يتساموا فوق الطقوس الكنسي ليحولوه إلى روحيات مجردة، وهذا لسبب لا يخفى عن الباحث وهو عقدة الطقوس الوثني الذي كانوا رازحين تحب اضطاراراته، فنسمع مثلاً في لغة كليمنس الإسكندري سنة ١٩٢م ما يفيد أنه يحاول إلغاء المفهوم الطقسي بأكمله عند قوله: [إن المذبح المقدس الحقيقي هو النفس البارة والبحور الحقيقي هو الصلاة المقدسة.] (٢)

(1) De Cor. Mil., 10.

(2) Strom. lib. VII, C VI, ch. 32.

[فإذا قال لبعض إن الكاهن الأعظم، الرب، يُقدم لله بخوراً طيباً ورائحة لذيذة فينهم لا يثوهمون أن هذا يعني أن الرب يقدم الذبيحة والرائحة اللذيذة كمخور، بل لينهم يعممون أن الرب يقدم على المذبح (السماوي) هبة المحبة المقبولة ورائحة الروح العطرة.] (٣)

فهل يُفهم من ذلك أن كنيسة شمال أفريقيا التي كان يخدم فيها ترتليان لم يكن فيها مذبح أو هيكل أو صلاة بخور طقسية؟

(٦) وهناك شهادة صريحة لطقس رفع البخور في كتابات ديونيسيوس الأريوباغي التي يقطع العباء بأنها من مدونات ما قبل سنة ٥٠٠ م إن لم يكن قبل ذلك بكثير، تقول: [أما الأسقف فعندما ينهي من الصلاة المقدسة على المذبح الإلهي يبدأ التبخير عليه ثم يدور دورة كاملة حول المكان المقدس كله.] (٤)

فهل يصف القديس ديونيسيوس بهذه الكلمات طفلاً حديثاً في الكنيسة إحتراعه في أيامه أم طقساً مستقراً في الكنيسة منذ القدم؟

(٧) وهناك أيضاً شهادة من أفوال هيبوليتس الأسقف العالم اللاهوتي والمشرع الكسي المشهور (١٧٠ - ٢٣٦ م) يقول فيها عند وصفه للأيام الأخيرة في محبة الكنيسة: [والكنائس أيضاً ستوح وتولول ببكاء كثير لأنه لا يكون ذبيحة قربان ولا بخور يُقدّم ولا خدمة مقبولة أمام الله بل تصبح الهياكل كناطور الكروم، ولا يكون جسد ولا دم وتتوقف الخدمة العامة و يبطل التسبيح بالأبصلمودية ولا تسمع قراءة أسفار، بل يكون ظلام للناس ونوح على نوح وويلات فوق ويلات.] (٥)

(٨) كما توجد شهادة مماثلة من أفوال القديس باسيليوس الكبير سنة ٣٧٠ م يصف فيها حالة الحرب والدمار الذي حل بالكنائس أيام الإضطهاد فيقول: [هدموا بيوت الصلاة بأيديهم البجسة وحطموا المذابح وتوقف تقديم القربان والبخور عليها ولم يوجد مكان للذبيحة، والحزن المرعب خيم على الجميع كسحابة.] (٦)

(٩) وشهادة أيضاً من أفوال القديس أمبروسيوس توضح هذا الطقس يقول فيها عندما

(3) Paedag II, 8, 87 (4) Hierarch Eccl (III sect 2, sect 3 ch 8) (5) A N F, Vol 5, p 251 (6) In Gordium Mart. Hom. XIX

يصف ظهور الملاك لذكر يا الكاهن وقت تقديم البخور: [فليته يقف بجوارنا أيضاً ملاك يؤازرنا وقت حرق البخور على المذبح.]^(٧)

(١٠) وسهادة أيضاً من أقوال أفرم السرباني (٣٠٦ - ٤٣٧٣) الملقب بالكسي المشهور: [أتوسل إليكم أن لا تدفوا جسدي بالأطياب، فالروائح الطيبة تليق ببيت الله، أحرقوا بخوركم في بيت الرب كرامة له ومديحاً!]^(٨)

(١١) وفي ختام هذه الشهادات نقدم شهادة يوحنا الرسول، حسب الرؤيا التي رآها في حوالي نهاية القرن الأول، ووصف فيها كيفية تقديم السحور بطريقة جديدة وليس كالطريقة اليهودية القديمة. وهذه إشارة واضحة إلى الطريقة التي كانت مستخدمة في رفع البخور في الكنيسة في نهاية العصر الرسولي: « وقف عند المذبح ومعه مبخرة من ذهب وأعطى بخوراً كثيراً لكي يقدمه مع صلوات القديسين جميعهم. » (رؤ ٨: ٣)

(7) Exp. Evang. St. Luke., I, 28.

(8) Test. St. Ephr. Vit. Sanct. Feb., I.

أقوال الآباء عن البخور:

١١٣٤ — إن السحور لدى برفعه على المذبح المقدس ويطوف به على الشعب والأيمون المقدسة وأجساد القديسين يحمل معنى سامياً.

(١) فـ سحور هو المذبح يشير إلى عمل الروح القدس في مقدس لأمكنة وحوادث نعمة الرب في هيكل قدسه ؛ وهو إشارة إلى اسطهير الذي تم بواسطة ديبحته المقدسة التي قدمها عن حسن السر ؛ كذلك هو سببه لحب الرب : « وكان لما خرج الكهنة من القدس أن السحاب ملأ بيت الرب . ولم يستطع كهنة أن ينفوا للخدمة بسبب السحاب لأن مجد الرب ملأ بيت الرب . حينئذ تكلم سليمان : قال الرب إنه يسكن في الضباب . » (امل ٨ : ١٠ — ١٢)

(٢) وحينما نبخر أمام أيقونة القديسين فنحن نعبر عن أشياء كثيرة ، منها :
— كيف صارت صلاتهم مقبولة أمام الرب كرائحة البخور العطر.

— وعن شركة صلاتنا معاً كاتحاد بين الكنيسة المجاهدة و الكنيسة المستقرة في السماء . « فصعد دخان البخور مع صلوات القديسين . » (رؤ ٨ : ٤)

— وهو علامة توشح أن يدكرونا ويرفعوا صلواتنا أمام الخالق على العرش في السماء .

— وهو تكريم للروح القدس الذي عمل فيهم و قدسهم .

(٣) و سحور حول الشعب هو لتعديسهم ورفع غضب الله عنهم بسبب خطية :

— « فكم الرب موسى قائلاً إطلعاً من وسط هذه الجماعة فإني أفيهم في الحطة ، فخرأ على وجهيها . ثم قال موسى لهرون حد المحمرة واجعل فيها ناراً من على المذبح وضع بخوراً وذهب بها مسرعاً إلى جماعة وكفر عنهم لأن سخط قد خرج من قبل الرب فقد ابتدأ الوباء... فوضع السحور وكفر عن الشعب ووقف بين الموتى والأحياء فامتنع الوباء . » (عدد ١٦ : ٤٤ — ٤٨)

وحينما يضع الكاهن يده على رؤوس الشعب بالبخور فإنه يمسحهم بركة الكنيسة ليكفوا عن خطاياهم و يثبتوا في الكنيسة كأولاد في حضن أمهم .

(٤) إعطاء السحور للكهنة هو لأخذ بركة صلواتهم لترفع مع صلوات الشعب كأعضاء في جسد واحد.

الأب يوحنا ك.

١١٣٥ — حينما يسبحر الكاهن أمام رئيس الكهنة فهل هو يحرسه أم له كإنسان؟ بولس الرسول يقول أنتم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم.

ورئيس كهنة يسس سحوراً عادياً، وإنما هو مفصل جداً إذ أنه ليس فيه روح الله فقط بل و يعطي الروح القدس للآخرين. وقد أعطى سوطاً أعلى ليحل و يربط، و يكون ذلك باقدا في الأرض وفي السماء و يغفر الخطايا فتغفر، ويمسكها على أصحابها فتتمسك.

لذلك فالسحور إنما يُقدم لروح الله والسلطان الإلهي الذي يحمله عند الله.

أنبا يوساب الأبح

١١٣٦ — حينما نطوف بالبحور حول المدبح ونقدمه للأيقونات وأجساد القديسين والشعب، فإنما نحن نجمع صلوات الجميع كصوت واحد نحمده السحور المقدس، وترفعه لملائكة مسوطة بالخدمة مع صلوات وتشفعات العذراء الطاهرة مريم.

وهكذا تتقوى صلواتنا بصلوات وتشفعات القديسين.

١١٣٧ — حينما نشم رائحة السحور اركية تجتمع حواسنا وتأخذ النفس بشوة روحية بتشم رائحة المضيئة والتقوى وحلاوة نيب الله. فشهد على خطايانا المرة، وتذكر قول بولس الرسول: — «شكراً لله الذي يهودنا في موكب نصرته في المسيح كل حين و يُظهرنا رائحة معرفته في كل مكان لأننا رائحة المسيح الزكية لله.» (٢ كو ٢: ١٤ و ١٥)

الأب يوحنا ك.

١١٣٨ — قد جعلت داني كنيسة للمسيح، وفرئت به داحتها بحوراً وطيباً بأتعاب جسدي.
مار أفرام السرياني

الفصل السادس

التسبيح بالمرامير



+ «سبع مرات في النهار سُبِّحْتُكَ.» (مز ١١٩: ١٦٤)
+ «في نصف الليل نهضت لأسكرِكَ على أحكام
عدلك.» (مز ١١٩: ٦٢)
+ «إن كان أحد يجاهد لا يُكَلَّلُ إن لم يجاهد قانونياً.»
(٢٢: ٥)

(٥) الله يُخَدم بالتسبيح والحمد والشكر، وسر المسيح الأعظم الذي هو سر الكنيسة ومركز وجودها وعمدها هو: «سر الشكر»، أي الإفخارستيا الذي ينتهي بصلاة الكاهن: «فمنا امتلاً فرحاً ولساننا تهليلاً بتناولنا من أسرارك غير المائتة يا رب». (١)

الصفة الغالبة للصلاة في الترتيب الكنسي هي تسميتها بالتسبحة، فكل الصلوات تفریباً تُقدّم داخل الكنيسة بالترتيل واللحن حتى وإن كانت في مناسبات حزينة كأُسبوع الآلام، وبالحقيقة يليق بالله أن يُخدّم بالتسبيح مهما كانت ظروف الإنسان: «أنت القدوس الجالس بين تسبيحات إسرائيل». (مز ٢٢: ٣)

ومن الأمور الثابتة في الأسفار المقدسة أن معظم حالات حلول الروح القدس للمتكم بكلام الوحي المقدس، كان على صورة أشعار موزونة، فالعلاقة بين التسبيح وبين حلول الروح القدس هي علاقة وثيقة في حياة خدمة الله.

فالمزامير، التي هي منبع الصلوات والتضرعات، قدمها داود بنغم موزون على آلات الموسيقى! والصلوات التي رتبها الكنيسة منذ العصر الرسولي لتتلى في أوقات النهار والليل هي مزامير في جملها، وهي لا تخلو أيضاً من التضرعات الحزينة، وبالرغم من ذلك اعتبرتها الكنيسة تسابيح. فأنت تقرأ في كتاب الأجيية (أي صلوات السواعي) وفي بداية أي ساعة، مكتوباً هكذا: «تسبحة الساعة السادسة أو التاسعة من النهار»، فالصلاة دُعيت تسبحة مع أنها هنا تذكّر لصب الرب وموته على الصليب! والأصل في ذلك أن داود النبي الذي أخذت عنه الكنيسة صلواتها كانت صلواته عبارة عن تسبيح ونشيد: «سبع مرات في النهار سبّحتك...» (مز ١١٩: ١٦٤)

وفي الحقيقة، حينما يُضغَم القلب بحركة الروح تفك عقدة اللسان فينطق الإنسان بنغمات تعبّر عن أعماق نفسه أشد مما تعبّر عنها الكلمات!

(٥) هذا الموضوع مكتوب أكثر تفصيلاً في كتاب «التسبحة "نومه ومرمير" السوعي» للمؤلف، ويمكن الرجوع إليه.

(١) حولاجي لمقدس: من أوشية سرية للكاهن بعد تناول.

والواقع أن التسبيح هو الذي يعطي الصلاة الصفة الرسمية كخدمة تُقدّم لله ، لذلك فكلمة « الليتورجيا » من العسير انطباقها على مجرد الصلاة الصامتة التي لا يرافقها حمد وتسبيح .

وهذه الحقيقة ترداد وضوحاً ، إذا علمنا أن كلمة « تسبيح » لا تعني حالة السرور فقط ، بل تشمل لسكر والحمد لله حتى ولو كان الإنسان في أشد حالات الحزن واليأس ، بل إن التسبيح والشكر في مثل هذه الحالات يرفع الصلاة إلى مستوى الطاعة والخضوع ، فتصير تمجيذاً لله واعترافاً بحكمة تدبيره وتأخذ مضمون الخدمة الأمانة أو أمانة الخدمة .

أليس بهذا الوصف تماماً إطلاق بولس وسيلاني ظلام السجن وآلام المقطرة وتمزيقات الجسد ينشذان للرب أنشودة جديدة ؟ : « ونحو نصف الليل كان بولس وسيلانيان ويسبّحان الله والمسجونون يسمعونهما . » (أع ١٦ : ٢٥)

وللفديس أثاسيوس تعليم واضح بخصوص الألحان والترنم بالمزامير ندخسه كالآتي باختصار :

١١٣٩ — ولا نفوتنا أن نوضح السبب الذي يوجب ترتيل المزامير بالسعم والنحن لا بالتلاوة المجردة ... لأنه من المناسب تسبيح الله بالأسدر لسعريّة ، لأن صباغها الحرة تؤكد كيف يسفي للناس أن يعترفوا بحبه لله بكل فواهم ، كما أن الترتيل بالمزامير ينصّي أثراً على المرم نفسه .

والترنيم بالمزامير تتطلب من الإنسان أن يترك في معناها و ينحصر فيها بكل كانه ، وهكذا يروى عنه كل تشئت كانسجام الأصوات نفسها .

والرب نفسه أوصى بترنيم المزامير وتلحجها كي يكون النغم معبراً عن التوافق الروحي الداخلي مثلما تعبر الكلمات عن أفكارنا تماماً ... وهكذا بواسطة الترتيل ندخل إلى إحساس أنفسنا ، فبحس بظلمة الحر عندما نرل : « ماذا أنت حريّة يا نفسي ولماذا تصايقيني » ، وحينئذ تستير رواحنا من الداخل ، وعندما نرم : « لولا قليل لرب قدمائي » بحس بخطر الفشل ، وعندما نرم : « الرب عوبي فلن أخاف ماذا يستطيع أن يعمه في الإنسان » بحس بالرجاء و يتدد الخوف .

فلا شك يحطىء الدين لا يهراون الأسفار بهذه الطريقة مترعين بها بشيد مقدس وفهم ... حيث يصدر السعم طبيعياً من توافق النفس وتحادها بالروح ، هؤلاء يرمون باللسان و بالفكر معا ولا يتصعون وحدهم ، بل والذين يسمعونهم أيضاً .

وكذلك كل من نرم بمؤم روحه مصححاً بالتدريج بشارها ، حتى تصح بالهبة وهي متجدده

حسب طبعها الحقيقه غير حائفه من أي شيء إذ تكون قد تحررت بسلام من كل لهواجس الزائنه، وتكون قد تدربت على تأمل ورحاء الأمور الصالحه ... فالروح المستقره تسي آلامها و يرتيل الكلمات المقدسه تتطلع بفرح إلى المسيح وحده. (٢)

ترتيب طقس صلاة السواعي وتحديد لها في الكنيسة القبطية:

كانت الكنيسة في الشرق والغرب على وجه العموم حتى زمان فسططيوس الملك تتمتع بوحدة الإيمان والعصيدة، وكانت الكنائس — كما يقول المؤرخ الأرثوذكسي — تؤلف وحدة متناسقة يسبحون الله بهمس التسابيح الواحدة إما بلغات مختلفة.

ولكن بظهور الحياة النسكية في مصر منذ بداية القرن الثالث، دخلت الصلوات والتسابيح والألحان في الكنيسة مرحلة جديدة، تتسم بثلاثة مظاهر:

— النظام والتدقيق في المواعيد المحددة لها.

— استطالة التسابيح وتحديد كمياتها والسهر طول الليل يوم السبت.

— الروح الجماعية وما يتبعها من تنظيم الخوارج.

والفضل في معرفتنا لمسأ وتاريخ هذا النظام السكي الكنسي والظروف التي عبر عليها في الكنيسة القبطية، هو الأب الناسك الراهب كاسيان الذي سجل كل ما رآه وما سمعه ومارسه في مصر على يدي الآباء النساك العظام واحتفظ به لنا على حقيقته وبصورته الأولى الأصيلة.

فالتسبيح وطريقة الخدمة سواء بالأنثيفونا أو بالمردات أو بطريقة التراكوس، وأعداد المزامير التي تُقال، وخدمة سهر الليل، كل هذه الترتيبات الكنسية استقرت في مصر منذ القرن الأول، ومن مصر وعن طريق الرهبان الأجانب الذين جاءوا وتتمذوا على أيدي الآباء بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون انتشر هذا النظام والترتيب الكسي في فلسطين على يدي الراهب القديس هيلاريون، وفي ما بين النهرين على يدي الراهب القديس باسيليوس، وفي فرنسا وإيطاليا على يدي أثاناسيوس الرسولي أولاً أثناء منفاه الثاني هناك (٣٤٠م) — ثم على يدي كاسيان؛ هؤلاء جميعاً جاءوا وزاروا مصر ونفقوا عنها نظامها وترتيبها المحكم في العبادة والنسك عموماً وفي الصلاة وطرفها وفي التسبيح خصوصاً. وذلك بالإضافة

2) Athanas. to Marcel., on Ps

إلى مئات وألوف الرهبان الذين جاءوا من كافة أنحاء الأرض وعاشوا في مصر وتنسكوا فيها، من اليونان وروما وآسيا الصغرى وأسبانيا وإيرلنده وأرمينيا والحبشة وليبيا وشمال أفريقيا وسوريا وفلسطين وما بين النهرين، وجميعهم كتبوا بأيديهم وأقروا أنهم رأوا في مصر العبادة الصحيحة والنسك والتسبيح الحفيفين، وافتخروا بأنهم نقلوا إلى بلادهم ما رأوه ومارسوه على أيدي شيوخ مصر، بل واعتبروا أن نظام مصر حجة ثابتة يؤخذ بها كعانون، و يتضح هذا من المادة ١٨ من مجمع تور الثاني (٥٦٧م)...

قانون البنين:

ليس على البعيدين عن الله فانوا ... هؤلاء لا يرتطون بشيء من جهة الله، تفودهم ضمائرهم و يقودهم تفكيرهم المنحل إلى الباب الواسع والطريق الرحب الذي يؤدي إلى الهلاك.

وكثيرون فهموا المسيحية فهماً خاطئاً سميماً إذ اعتبروها دعوة إلى الحرية المطلقة غير المفيدة، هؤلاء أيضاً أقبلوا على الدين متحررين من كل شيء حتى من واجباته والتزاماته، فخلت حياتهم من أبسط قواعد العبادة والصلاة، وتمادوا في ذلك وارتدوا عن تراث آبائهم واحتجوا وتمادوا في احتجاجهم حتى صارت عبادتهم فكرة تتغير كل يوم وتُستحدث كل يوم، فصارت شيعهم من الكثرة بمقدار ما يمكن أن تتعدد الأفكار أو تُستحدث.

غير أن هناك نوعاً ثالثاً في صميم مجتمعنا الصغير يكاد يكون قوامه الآباء والأمهات في هذه الأيام، هؤلاء ينكرون عيبا الإشتغال بالدين و ينكرون علينا القيام بواجباته الفردية، إذ لا يرون الدين شيئاً يستحق أن يكون موضوع شغلا ولا يرون في الدين واجبات تستحق أن نمارسها. هؤلاء فهموا العبادة فهماً خاطئاً وأكروا الطريق والحق بل والحياة. هؤلاء لا يروعههم إلا قول إشعياء النبي: «إسمعي أينما السموات واصغي أيتها الأرض لأن الرب يتكلم: رَبَّيْتُ بَنِينَ وَنَشَأْتُهُمْ أَمَا هُمْ فَقَصَوْا عَلَيَّ. الثور يعرف فانيه والحمار مقنّف صاحبه أما ... شعبي لا يفهم! ... تركوا الرب استهانوا بفدوس اسرائيل ارتدوا إلى الوراء ...» (إش ١: ٢ - ٤)

هؤلاء يدعون الله أباً ولكن ينكرون عليه حقوق الأبوة، و يدعون أنفسهم عبيداً له ولكنهم لا يقدمون له هيبة السيد.

هؤلاء يسألهم ملاخي النبي لاثماً: «الإبن يكرم أباه والعبد يكرم سيده فإن كنت أنا أباً فأين كرامتي وإن كنت سيداً فأين هيبتى، قال لكم رب الجنود؟» (ملا ١: ٦)

إذن، فإن اعتبرنا أنفسنا بنيناً فعلياً أن نقدم عبادة البنين وخضوعهم، وإن اعتبرنا أنفسنا عبيداً فعلياً أن نقدم خوف العبيد وأمانتهم. ولكن إذا لم نقدم عبادة البنين ولم نقدم خوف العبيد فلن يكون نصيبنا إلا أن نُطرد من البيت وننحط دون البنين ودون العبيد!!! فعلاقتنا بالله لا بد أن يحدّها واجبات حتى نحظى بحقوق البنين أو بحقوق العبيد.

وإن كان المسيح قد نقلنا من العبودية إلى البنوية فليس ذلك مدعاة إلى إنكار حقوق الله كأب وسيد، بل إن هذا حافز لنا لأن نقدم عبادة أكثر لأن قانون عطية الله هو: «مَنْ أُعْطِيَ كَثِيراً يُطَلِّبُ مِنْهُ كَثِيرٌ وَمَنْ يَدْعُوهُ كَثِيراً يُطَالِبُونَهُ بِأَكْثَرٍ.» (لوقا ١٢: ٤٨)

هبة قانون الصلاة:

ممارستنا لواجبات الصلاة كقانون عبادة ينشئ لنا علاقة مع الله، فهو يحدد موقفنا تجاه الله كأولاد يشكرون و يسبحون و يسألون، وهىء لنا فرصة استجابة الله لنا واستماعه وإصغائه لتسبيحنا وحمدنا.

فقانون الصلاة إذن يشرح علاقة مزدوجة بيننا وبين الله، وهىء لنا سبباً لقبول هبات الله وعطاياه.

منشأ قوانين الصلاة:

إن أول نواة لأول قانون للصلاة، كانت من وضع السيد المسيح إذ أمرنا أن نتلو صلاة خاصة محدودة من كلماته وهى الصلاة الربانية التى فيها ندعو الله أباً.

كذلك سلّم تلاميذه برامج خاصة للصلاة، فكثيراً ما كان يأخذهم إلى أمكنة منفردة و يعلمهم الصلاة والتسبيح: «ثُمَّ سَبَّحُوا وَخَرَجُوا إِلَى جَبَلِ الزَيْتُونِ.» (مر ١٤: ٢٦)

وكثيراً أيضاً ما كان يقضي الليل كله في الصلاة، وبذلك سلّم المسيح الصلاة للكنيسة كعنصر لازم لقيام الحياة الروحية بين أولادها، وابتدأت الكنيسة منذ العصر الرسولي الأول وما تلاه من عصور المجامع المقدسة في وضع أنظمة للصلاة على مثال ما تسلموه من السيد المسيح و بإرشاد الروح القدس حسب حاجة المؤمنين الروحية، ثم فُرِضَتْ عليهم هذه الأنظمة حتى لا تنحرف حياتهم بعيداً عن الله.

درجات:

طوب السيد المسيح أولئك الذين سهرُوا إلى الهزيع الثاني وأولئك الذين سهرُوا إلى الهزيع الثالث من الليل، فسأله بطرس عن هذا الجهاد الممتار وهذا السر الممتد هل هو أمر عام على الجميع أم هو خاص بهم كتلاميذ وفادة للشعب؟ فأجاب السيد بوضوح أن هذا عمل الوكيل الأمين.

إذن، ففانون الصلاة له درجات، ولكل من الأشخاص فانونه في الصلاة على قدر علاقته بالله وعلى قدر قامة بنوته ومقدار نذره ووكالته.

وهناك علاقة هامة بين حالة الشخص ونذره ومقدار ما يصلية من الصلوات، لذلك وجب التنصر جيداً في اختيار درجة الخدمة أو نوع النذر الذي يربطنا بالله لأنه حسب هذا الوضع ستكون درجة صلاتنا. فالمؤمن العادي غير الكاهن، والكاهن غير الأسقف، والراهب في الدير غير الراهب في الوحدة، إذ لكل من هؤلاء جهاد خاص ودرجة خاصة من الصلاة.

لأنه كما أن هناك أنواع مواهب مختلفة وأنواع حدم مختلفة وأنواع قوت مختلفة (١ كو ١٢: ٤ - ٦)، كذلك هناك أنواع درجات وواجبات مختلفة من جهة خدمة العبادة والصلاة.

كل واحد له دعوته التي يُدعى فيها وعليه أن يتمسك بها (١ كو ٧: ٢٠)، ولا يمكن لأحد من هؤلاء أن يُكَلِّل إذا لم يجاهد حسب قانون دعوته.

محبة القانون:

إذا عرفنا أن الصلاة هي الدالة الأولى التي تقربنا إلى الله وتثبت بنوتنا له، لأفلسا على قوانيننا بفرح وسرور لا عن حزن أو اضطرار.

كم مرة أهدمنا في قوانين صلواتنا وذُقنا نوعاً من الحرمان من الدالة التي تربطنا بالله، فاضطربت حياتنا كلها ثم رجعنا نادمين وعكفنا على صلواتنا بدقة فرجع إلينا سلامنا!! ليس هذا كفيلاً بأن يرفع من تقديرنا ونظرتنا لقانون الصلاة ويُشعرنا بأن كيانتنا الروحي متوقف على مقدار ممارستنا لقوانين الصلاة!

أقوال الآباء في التسبيح وصلوات المزامير:

حدود القانون:

١١٤٠ — يجب أن يحفظ باحراس عدد سبعة أوقات الخدمة لكي حددها مجمع يهية في الكنيسة المقدسة.

١١٤١ — حاشا لنا نحن المتوحدين أن نخرج عن الطاعة لحدود قوانين لبيعة المقدسة ورؤسائها وشأنهم. ولأجل هذا نحن نحفظ حدود أوقات الخدمة السبعة حسب ما وصفت عليها الكنيسة كس.

ولكن لا نحدد لأنفسنا عدداً خاصاً من المزامير في كل صلاة قصير نحب عبودية لأعداد مرتبط بها كل أيام حياتنا، بل ينبغي لنا في كل صلاة أن نشب حسب الإمكان وعلى قدر الوقت ومعونة النعمة على كل صلاة.

١١٤٢ — كُنْ متمسكاً في صلاة أوقاتك على الدوام لكي لا تتجمع فتشعل عيبك، وإن اتفق أن فتك وقت من صلاة بسبب عارض لا تضطرب ولكن لا تهمل الصلاة ولا تهوون في تكليفها.

فلو كانت صلاة ناكراً هي التي فاتت وقتها وقد مضت من النهار ساعات أو أكثر أو حتى في وقت العشاء! تدمم وكملمها بلا نفص نجميع واجباتها هذوء بلا تسرع أو اضطراب. فليس لك عمل آخر ضروري لتكمله أعظم من الصلاة.

١١٤٣ — إن كان الراهب يهاون بقانون الصلاة المفروض فلا يسحق أن يخلص في ولاية، وحتى لو أراد أن يثبت فيها لا يمدد، لأن عمل الرهبة هو الصلاة، فلو تخلف أحد عنها فماداً يدعى بعد راهباً؟

١١٤٤ — ليكون لك محبة بلا شبع لتلاوة المزامير، لأنها غذاء الروح.

١١٤٥ — مع كل لفظة في المزمور فيها ذكر السجود أسجد أو احني رأسك بالسجود.

١١٤٦ — اغضب نفسك في صلاة نصف الليل وزدّها مزامير. لأنه بقدر ما تعصب ذاتك في

المزامير تأخذ معونة من عند الله وقوة خفية من الروح القدس .

١١٤٧ — لا تسطر في الوقت وتسوف في الساعات وتتكاسل ، بل اغصب نفسك وقم في نصف الليل حتى ولو كان النوم ثقيلاً عليك و لجسد مُتعباً لأن هذا هو الوقت المقبول وهذه ساعة المعونة .

١١٤٨ — جميع الآباء كانوا يصلّون بالليل حسب المثال الذي أحذوه من ربنا يسوع المسيح الذي كان يقضي الليل كله في الصلاة . لأن الليل ممرور لعمل الصلاة .

١١٤٩ — كل صلاة تقدّمها بالليل هي مكرّمة أكثر من عمل النهار، ومعونة النهار هي بسبب خدمة الليل .

١١٥٠ — الذي يتهاون في الصلاة و يظن أن له باباً آخر للتوبة هو مخدوع من الشياطين .

١١٥١ — ينبغي أن لا يُبطل شيئاً من الصلاة المعروضة ولو كما في أعلى درجات الحياة الروحية .

١١٥٢ — ليس لك عمل ضروري آخر لتكميله أعظم من الصلاة .

نتائج الإهمال:

١١٥٣ — مستوجب كل ملامة الذي يتهاون في قراءة المزامير و يتخلف عنها من أجل العظمة .

١١٥٤ — أما تعلم يا أحي أن حياتنا تنقرص ساعة بساعة و يوماً بعد يوم ، فلو اجتهدنا كل أيامنا لكي نسترد يوماً واحداً من الأيام التي مضت لا نستطيع ! خسارة عظيمة إذن أن نتغافل عن الصلاة ولو يوماً واحداً نجوزه بلا ثمرة دون أن نقدم فيه الصلوات والتضرعات أمام الله .

١١٥٥ — أول ظلمة العقل تبتدىء حينما تشعر أنك ابتدأت تكسل في خدمة أوقات الصلوات . فإذا أهملت أوقاتها وتكاسلت عنها تفارقك المعونة الإلهية التي كانت ترافقك فتميل نفسك إلى الشر شيئاً فشيئاً ، لأن الانتقال من ناحية اليمين معناه الاتجاه نحو الشمال .

١١٥٦ — ولو وصل الإنسان إلى أعلى درجات الروح والإستعلان وتهاون بالمزامير فإنه يضعف و يقع في يد الشيطان ؛ لأن العظمة تبدأ في رمي بذورها ، كأنه قد ارتفع عن رتبة الذين يستعملون المزامير .

ترتيب الصلاة:

١١٥٧ — على قدر الإهتمام بالزني المحترم والوقار والحشمة في الصلاة ، و بسط اليدين إلى السماء والقيام بعفة والسجود بحشوع ، يكون اقتداد النعمة ، لأنه معطّم في عيني الرب الوقار الذي يقدمه

الإنسان أثناء ذبيحة صلاته التي يقدمها في مياعدها بحرية الإرادة.

مار إسحق السرياني

١١٥٨ — مهم جداً، يا إخوتي، أن نقدم وقاراً وحياءً واهتماماً في الصلاة، لأن الله طالب الساجدين له بالروح والحق.

١١٥٩ — كثيرون زلّوا بأفكارهم، لأنهم ظنوا أنه يكفي للصلاة أن تكون في القلب فقط وأن الله لا يريد منا أكثر من هذا. لذلك يصلّون وهم مضطجعون على ظهورهم أو وهم جالسون في عدم اكتراث. لا يقدمون ذبيحة الوقوف الحسن حسب قوة الجسد ولا يخرون ساجدين كما تقتضي كرامة الله. إن هذا من مكر العدو وغشه لكي لا يبلغهم قط إلى الدرجة الروحانية.

ولا يشمل قولي هذا المرضى والضعفاء في أجسادهم، لأن الله رحوم متحن ولا يحاسب الإنسان وهو ضعيف غير قادر، ولكنه يدين على الشيء المستطاع لدينا والمهمّل بإرادتنا.

١١٦٠ — إن شئت أن تقوم في خدمة الليل إعمل بمعونة الله ما أقوله لك: أسجد ثم فيق ولا تسارع إلى خدمتك، بل بعد صلاتك «أبانا الذي» صلّب على قلبك وعلى أعضائك وارشمها بعلامة الصليب المحيي، ثم فف مقدار لحظة صامتاً إلى أن تستريح حواسك وتسكن حركاتك، وبعد ذلك ارفع نظرك الداخلي إلى الرب واطلب منه باتضاع أن يقوّي ضعفت بإرادته، وقبل أن يتحرك لسانك بالمزمور قل: يا ربّي وإلهي مدبر الخليقة كلها، العارف بضعف طبيعتنا ومآلنا وقساوة عدونا، نجّني يا رب من شر حيله، وخلّصني من تشتت الفكر، واجعلني أهلاً لهذه الخدمة المقدسة لئلا أفقد جمال تذوقها، وأوجد أمامك كمتجاسر.

١١٦١ — ينبغي لنا أن نسير في خدمتنا بلا تقيّد أو ضغط، وإذا وجدنا أنه ليس لدينا متسع من الوقت نترك مزمورين أو ثلاثة مما جرت به العادة ولا نجعل التسرع يكدر صلاتنا الأولى.

١١٦٢ — إحذر أن ترتبك في صلاتك. فإذا تشتت فكرك أثناء التلاوة عُد وارجع إلى حلف مزموراً أو أكثر. وكل آية تقابلك وتحلّوك ردّها بتأمل.

١١٦٣ — إذا اشتدت عليك الأفكار ولم تستطع أن تصلي بفكر منجمع أترك الصلاة واسجد قائلاً: أنا لا أريد أن أعد ألفاظاً ولكنني جئت أطلب معونة الله.

١١٦٤ — إذا شئت التمتع بحلاوة قراءة المزامير في خدمتك، والتعمق بمذاقة الروح القدس فيها، دع عنك الكمية، ولا يهملك معرفة عدد المزامير التي صليت بها؛ يكفي أن يكون عقلك فاهماً معاني الصلاة فيتحرك فيك شعور بتمجيد الله. وكلام المزامير قلّه دائماً على نفسك، وليس كأنه من قول غيرك.

١١٦٥ — الله لن يحاكمنا أو يديننا بسبب تركنا لبعض المزامير.

١١٦٦ — إن كنت تتعب من الوقوف في سهرتك من أجل كثرتك و يقول لك العدو كالحية: لم تعد فيك قوة للقيام ثم واشرح و سترج، قل له: أنا أحلس وأصلي ولا أباء، واعبر وقتك جالساً وتالياً مراميرك.

١١٦٧ — لا تتلُ كلام المزامير بشمتيك فقط، بل حاول واعتبر أن يكون أنت ذاتك كلام الصلاة. لأن التلاوة ليس فيها نفع إلا إذا كان الكلام يتجسم بك و يصير عملاً فتصير إنساناً روحانياً.

مار إسحق السرياني

١١٦٨ — حينما تفقد لتتلو صلواتك المفردة في كتاب الصلاة (الأحذية) فلا تسرع من كلمة إلى كلمة دون أن تشعر بما تحمله من الحق، ولكن حاول أن تفهم فصد كل كلمة وتلمسها بقلبك لتحس بحقيقة معناها المستتر.

واعلم أن نفسك سوف تقوم فكرة التأني في الصلاة إما بإعراض عن المعنى وإما بالشك أو بشروء الذهن في أمور تافهة أو قصة قديمة أو عمل مؤجل إلخ إلخ ...

لذلك قف في بدء الصلاة عالماً أنك ستواجه هذه جميعها، وتشدّد منابها محاولاً أن لا تنتفت لشيء منها جميعاً واسأل الله المعونة معطياً إياه قلبك.

١١٦٩ — إذا ابتدأت الصلاة ولاحظت أن قلبك غير مستجيب للصلاة وقد شملته برودة، أوقف الصلاة وحاول أن تدخل الحرارة في قلبك، إما بذكر خطاياك و عترافك عنها، وإما بذكر إحسانات الله عليك بالرغم من جحودك وشروءك الكثير.

الأب يوحنا ك.

١١٧٠ — إحفظ الصلوات الكسبية وصلوات المرامير وأكثر ما يمكن من لصوات المرتبة لمناسبات عن ظهر قلب، فإن ذلك سيجعلك مشبعاً بروح الصلاة وتصيح مسرتك في تلاوتها.

١١٧١ — حاول بكل الوسائل أن تمنع الصلاة الباردة التي يتحركك اللسان فقط.

الصلاة عمل يؤدى بحرية البية الخالصة عن حب، وإذا خرجت عن هذا المعنى فهي ليست صلاة.

يسرّ تبع قانون الصلاة بكل دقة ولكن بكل حرية ووقار، وحينئذ سوف تخرج من قلبك الكلمات بقوة وبتنهيدات حارة، وهذه هي علامة الصلاة الفعالة! حينئذ يكون الروح القدس مشتركاً معنا في الصلاة ليكمل عجزنا، ويحس القلب بذلك، فيلهب جداً ولا يهدأ من لصلاة والتصرع والسجود

بفرح لا يُطبق به .

سئل مرة القديس إبيفانيوس : كيف ترتب ساعات الصلاة ؟ فكان رده : ليس للصلاة ساعة فكل الساعات وكل الدقائق هي للصلاة !

ولما سئل القديس باسيليوس بدات السؤال أحب : افتنوا داحكم روح الصلاة وحينئذ تعرفون معنى الصلاة بلا انقطاع .

الأسقف ثيوفان الناسك

١١٧٢ — عود دانت واعصب نفسك لجمع الفكر في خدمة المزامير ولا أكثر في انبيل ، لأخذ عميت إحساس الروح وفرحه المكور في المزامير ، فإذا تدوقت هذه النعمة فلن تشع من المزامير .

١١٧٣ — إتعب حسدك كثيراً في الصلاة التي بلا فتور ، ولو تستت عميت في المستدأ إلا أنك بعد ذلك تؤفل للصلاة التي بلا تشتت .

١١٧٤ — لا هدا من الصلاة والطلبة حتى نحس حقاً بنوع الرجاء أن قد غفرت لك خطيائك ، واشتمعت بر المسيح في قلبك ، وأحدث فوه حقبة لتكميل الوصايا ، وتشجعت ضد الآلام والأفكار . وهدأت كل حواسك في الصلاة .

١١٧٥ — لا عكر أن يدوم العمل في الصلاة بدون فكر ، ولكن يريد أن يكون فكره في الصلاة نفسها وفي معاني كلماتها .

١١٧٦ — صدقي يا أخي أن المس والضحر والكسل وثقل الأعضاء وطيشة العقل وحمية الأحرار التي تحدث للإنسان وقت الصلاة هي تُحسب كعمل الله ، إذا لم يُعذب هائل يصير عليها و يقاوم صدها فهي تُحسب له دبيعة وعملاً بهياً ، ما حلا العظمة فقط إذا ثنت فيه بسبب إخلاله و هممه .

١١٧٧ — يمكن لصعيف الجسد أن يخدم مزامير قليلة وقت الستار (أي ستار الظمة) و ينام .

١١٧٨ — إذا لم يمكنك بسبب ضعف الجسد أن تفهم في الصلاة تستطيع أن تتممها وأنت جالس (إستثناء في حالة المرض أو الضعف وعدم القدرة) .

١١٧٩ — إذا لم يخدم مزامير كل ساعة كامله في سبع الساعات التي لخدمته مثل الأقوياء ، تستطيع أن تخدم الصلاة ولو مرمور واحد ولا تغير ساعة الصلاة بإهمال (إستثناء في حالة الضعف أو كثرة العمل) .

١١٨٠ — إذا مل صميرك لمزامير والصلوات ، إشعه بالألحان لأن حال النفس حزين يثير في

النفس الندامة على الإهمال وبهها نشوة جديدة للصلاة.

مار إسحق السرياني

١١٨١ — أحياناً نجد بعض الناس يتفنون حفظ أصوات المذنبات و يواظبون على تلاوتها ، ولكن حياتهم من الداخل فارغة خالية من ثمار الروح ، ما السبب في هذا؟

السبب هو أنهم يدومون على الصلاة وهم لا زالوا متمسكين ببعض الخطايا الداخلية ولم يقدموا عليها توبة وعترافاً كاملاً ، فميت في قلوبهم وحرمتهم من حلول المسيح في هيكمل قلوبهم .

لذلك يلزمنا مع تدقيقنا في الصلوات الطمسية المفروضة أن ننفي قلوبنا باستمرار ، وتوب عن خطايانا بالإعتراف والسدمة والدموع بالسجود وانضاع حتى نصير قلوبنا صغواتا مضمومة ودات وعلية في حياتنا .

و يستحسن جداً أن نحصر صميرنا أثناء الصلاة ونبتس عن الخطية الرافضة وعن الحسد والكراهية والعثرات والزلات اليومية ، وبدف في محاسبة أنفسنا على الكلمات الردية التي خرجت من أفواهنا .

١١٨٢ — حينما نقرأ أي صلاة أو مزمور لأول مرة نقرأه بإقبال وسرور و شعور متأثر من المعاني العميقة التي تصادفنا . ولكن بتكرار قراءته يهل هذا الشعور حتى يبعده ويفقد تعزيتنا الأولى وفرحتنا بالتلاوة وتصبح الصلاة آلية باردة .

لذلك وجب مراعاة الآتي :

(١) يستحسن دهنك قبل البدء في الصلاة كأنك ستتلو مزاميرك لأول مرة متذكراً قيمة التعزية التي تمتعت بها من هذه الصلوات في بدء معرفتك لها .

(٢) حاول أن تحرج من كل آية معنى جديداً ، وانما ألهذه لكلمات تحمل بك رسالة جديدة كل يوم لأن « الكلام الذي أكلكم به هو روح وحياة » . « وإن كان أحد يحذف من أقوال كتاب هذه النبوة يحذف الله نصيبه من سفر الحياة . » (رؤ ٢٢ : ١٩)

(٣) إعلم أن عدم ثوبك في الصلاة وكثرة شرود دهنك هو علامة عدم ثبوتك في الحق وفي المسيح ، لأن كل من يشك في المسيح فالمسيح يشك فيه . وعدم الثوب في الحق لا يظهر فقط في شرود الفكر أثناء الصلاة بل وفي علاقتنا بالله ، مرة يزداد إيماننا فريد أن نكون كأحد الشهداء ومرة يصعب إيماننا لدرجة أننا نخفي الحق بالكذب وتنكر المسيح من أجل سبب تافه .

كذلك يظهر عدم الثوب في الحق في معاملتنا للناس ، مرة نحهم ومدحهم ومرة نذمهم ونبعصهم .

لذلك إن أردنا أن نصير إلى الصلاة الحارة القوية فعليا أن نشترك في الحق ونتمسك بالإيمان ونحب الجميع بلا تفریق.

الأب يوحنا ك.

١١٨٣ — ياك أن تصير أن نأدية صوات السواعي القانوية بمحرد بتلاوة سيمفوني بشيء، بر شو أنها لن تصدمت خطوة واحدة مع الله، لا يدورها بتدريبات الوحود مع الله؛ فكل فيمة الصلاة متوقف على مقدار مساعدتها لنا في تقدمنا الروحي وحياتنا مع الله.

الأسقف ثيوفان الناسك

١١٨٤ — كثيرون يعتقدون أنهم بتتميمهم فروض الصلاة المفروضة في السواعي قد أدؤوا لواجب الذي عليهم نحو الله وأنهم بذلك قد أصبحوا مبررين.

وسكن هؤلاء معهم باطل واعتقادهم وهم، فالصلاة مفتاح لحرارة كنوز الروح ومسكن من يحمل هذا المفتاح ويعتني به جداً ولا يدخل إلى كبره ليحصل على ثمار الروح المعذة له.

الصلاة وسيلة لفحص القلب وإصلاح عيوبه وإعداده لحلول المسيح وعمل النعمة.

لصلاة كلمات، وإن لم يصير من هذه الكلمات قوة الروح فباطل تعسا كنه لأن «مكوت لله ليس بكلام بل بقوة.» (١ كو٤: ٢٠)

١١٨٥ — الدقائق القليلة التي ننفقها في الصلاة لها تأثير هام في روح الصلاة ونحب أن لا نغفلها.

فنطلب أن يعطينا الله إستحقاق الوقوف أمامه والشعور بوجوده ونذكر كم أخطأنا في حق الله وكم هو سامحاً فشر بالإن تضاع أمامه وطلب معونة الروح القدس ليعين عجزنا.

ثم إبدأ الصلاة بصوت منخفض وديع لأن الله يحب أن يسمع مثل هذا الصوت: «إلى هذا أنظر إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعذ من كلامي.» (إش ٦٦: ٢)

الأب يوحنا ك.

الصلاة الإرتجالية:

١١٨٦ — ينبغي ألا نقول في كل صلاة ما نقوله في الأخرى ولا نقول صلاة واحدة مكتوبة في سائر الأوقات التي نجتمع فيها، لأن النفس تمل وتقلق من التكرار. فينبغي أن نغير لكلام حسب حاجة نفوسنا في كل ساعة ونقول في كل وقت ما يليق به من الصلاة.

باسيليوس الكبير

١١٨٧ - حصّص وفياً للصلاة التي ترتبها من ذاتك أكثر من المزامير ولكن لا تُبطل المزامير.

مار إسحق السرياني

١١٨٨ - يستحسن أحياناً أثناء الصلاة أن تقول بعض كلمات من عندك لتعثر عن حرارة إيمانك وتنفّس عن حياء المتأجج لله . نعم ليس دائماً نتحدث مع الله بكلمات الآخرين فسقياً أصلاً في إيمانك وأمالها ، بل عيباً أن تظهر ما في صدورك وما يختلج في قلوبنا من مناسع وفؤلف مادة حسنة من صنعنا مخاطب بها الله ؛ مثلاً نشب معتادس على كلمات الآخرين فتسرى البرودة في صلواتنا . كم يكون سرور الله بكلماتنا المتعثرة (التي تكون شبيهة بماغاة الطفل الرضيع لأبيه !) لأنها تكون حينئذ معثرة عن شعور صادق من قلب مؤمن محب شكور ! إنه يستحيل أن نوضح الأمر أكثر من هذا غير أنه ينزم أن نقول إنك حينما تصلي إلى الله بكلماتك فأنت تشعر بقيمة هذا الأمر وترى كم يكون فرح نفسك والإنعاش والسرور اللذان يسودان عليك . فأنت تنفّس بكلمات قليلة متقطعة متعثرة ولكبك مستحترها نوعاً من الغسطة لا تحصل عليها قط من تلاوة محفوظاتك المعتادة التي من وضع الآخرين مهما استطالت ومهما بلغت من التأثير .

١١٨٩ - أشكر الله كل يوم من فلك لأنه أعطاك حياة حسب صورته كشبهه ، حياة ذكية خالصة غير ماثثة . أشكر الله لأنه حددك واعتادك مرة أخرى للحياة الأبدية بعد أن سقطت في الموت ! هو لم يمنحك هذا بسهولة أو باستخدام سلطانه وقدرته على كل شيء لأن هذا لا يكون موافقاً لعدله ، ولكنه قدّم لعدائنا ابنه الوحيد الحبيب الذي تألم وداق مرارة الموت من أجلك .

أشكره من أجل تخليصه إياك من أمراضك ، أنت الذي برعوتك وفتنة بصيرتك رميت نفسك فيها . وأنقذك من الموت مراراً لكي تأخذ فرصة جديدة تصلح فيها أخطاءك إذ هو يعلم أنك لا زلت غير مستعد لمستقبل الحياة الأبدية .

أشكره من أجل ترتب جميع ظروف حياتك من أفراح وأحزان ، لأنها صدرت كلها من لده لصائدتك ، لأنه أبوب انكي الرحمة الذي منه وله كل شيء ، أصل الحياة الذي قسم وأعار الحياة للجميع .

الأب يوحنا ك .

١١٩٠ - أنت تتمم كل خدمات الكنيسة ، هذا حسن . ولكن عيبك أن تدرك أن هذا لا يعدو أن يكون تمهيداً للصلاة ليس إلا . وهذا يشبه شخصاً يتعمد لعة جديدة ، فهو يحفظ بالذاكرة مقطوعات منها ليتدرب على أسبورها وآدائها . هكذا أيضاً لعة الصلاة هي لعة خاصة بتعمدها من الكتب التي تحتوي على عبيات من الصلاة لأشخاص تدربوا على المحادثة بهذه اللغة مع الله . وكما في تعلّم اللغات بعد أن يصل الشخص إلى إتقان اللغة و يستطيع أن يعثر بها بطلاقة ، لا يلزمه أن يستمر في حفظ حمل منها ليست من

تعميره وإنما يضع حسنا كل هذه المتون، وهكذا في تعلُّمنا الصلاة علينا أن نضع أمامنا الهدف الذي نسعى إليه وهو الوصول إلى اعتياد إقامة حديث مرتب يعبر عن شعورنا وحسنا وإيماننا تجاه الله من كلماتنا بدون كتاب، وهذا يحدث حين يفسر بأفكار الصلاة وعواطف ومعاني يستمدّها من كتب الصلوات المرتبة.

الأسقف ثيوفان الناسك

الشرود وتشّتت الذهن:

١١٩١ — لا نستطيع أن نصلي إلا عندما تبقى نفسك من طياشة الأفكار، بل إنك إن لم تداومته في الصلاة وكثرة التعب فيها تبطل الطياشة وتنقطع من القلب.

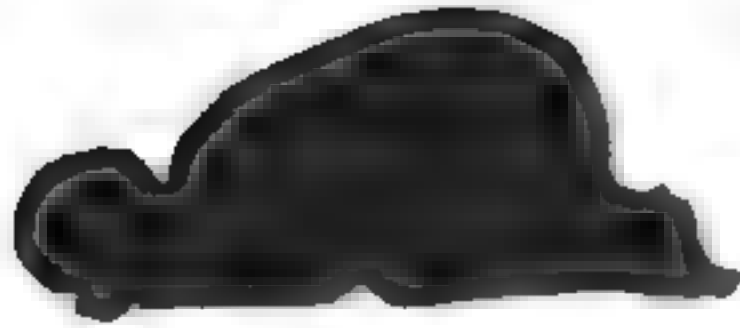
١١٩٢ — إننا لا نُدرك من أجل تحرك الأفكار والصور فسادا بل نجد نعمة إذا لم نوافقها، وفاتنا ضدها.

١١٩٣ — إذا ما تعبت من تشّتت الأفكار أترك المزامير واشغل بالأخاخ.

١١٩٤ — عندما تنقص الحرارة من قلبك اقرأ الكتب لتجمع دهنك من الطياشة وحينئذ يرجع إلى الصلاة لأن بها يُطهّر العقل بالأكثر.

١١٩٥ — وأنت أيها الأخ لا تطمع أن لا يطيس العقل لأن هذا غير مستطاع، بل إطمع أن تكون طياشته في صلاح، واطياشة الصالحة هي أن يتصور الفكر كل مدة الصلاة في الله وفي مجد عظمته التي تأتي من تدكُّر ما فرى في الكتب والأفوان الإلهية المقدسة. وذلك بأن يتصور بفكر أثناء الصلاة صورة من حياة السيد المسيح أو الأنبياء والمديسين حتى يستمر الفكر محصوراً في الله أثناء الصلاة ولو لم توافق الصور معاني الصلاة نفسها. فهذه هي الطياشة الصالحة المقبولة.

مار إسحق السرياني



الفصل السابع

الاستجود

+ «الآب طالِبٌ مثْل هؤلاء الساجدين له ... بالروح

والحق.» (يو: ٤٣ و ٢٤)

+ «لكي تحبوا باسم يسوع كل رُكبة ممن في السماء ومن على

الأرض ومن تحت الأرض.» (في ٢: ١٠)

السجود تعبير صادق عن متاعر الخضوع والإتضاع، لذلك فهو لاثنو جداً بالله، إذ أنه سبحانه صاحب الحق الأول في خضوعنا له واتضاعنا أمامه.

ولكن ليس هذا معناه أن السجود حركة عبادية وحسب كما قد يتطرق إلى أذهان الكثيرين؛ فهو إذا فُذِمَ لله يكون عبادة حقاً ولا يصح أن يُفُذِمَ هذه الصفة لأحد آخر سوى الله.

غير أنه يصح أن يُفُذِمَ للآخرين وإنما في معاني أخرى غير العادة. والإنجيل يحدث عن صور شتى لأنواع السجود:

فسجود الإبن الضال لأبيه، يحمل معنى التوبة والندامة من ابن لأبيه.

وسجود يعقوب لعيسو أخيه سبع مرات إلى الأرض كما يقول الكتاب، كان لاسترصاء وجه أخيه وصرف روح الفضف: وقد نجح يعقوب في ذلك إذ لما رآه أخوه ركض إليه وعانقه (تك ٣٣).

وسجود بني يعقوب ليوسف أخيه وهو رئيس لمصر، كان علامة الولاء الواجبة لرئيس الأرض.

وسجود إبراهيم المبارك من فم الله لني حن الشعب الوثني، كان علامة تضاع شديد ودعة نفس إمتاز بها إبراهيم (تك ٢٣).

وسجود المرأة الشوعبية لإليشع أمام قدميه إلى الأرض، كان إعترافاً بالجميل وتكريماً لروح النبوة التي أقامت ابنها الميت حياً.

هكذا نرى للسجود معاني أخرى غير العادة تنحصر في أشخاص الناس.

فإذا انحرفنا بالسجود أمام بعض الأشخاص مهما كانت صفهم لكي نشركهم في نوع السجود الذي يقدمه لله، كان ذلك سططا مما يل كُفُرا وامهانا لله. فعل ذلك يوحنا الرسول في رؤياه وهم بالسجود للملاك من فرط تأثره فمعه الملاك: «فخررتُ أمام رجله لأسجد

له، فقال لي: أنظر لا تفعل، أنا عبد معك ومع إخوتك الذين عندهم شهادة يسوع. أسجد لله.» (رؤيا ١٩: ١٠)

ونحن لسنا مختارين في سجدنا لله كما يتوهم المتحررون أو المحتجون في هذه الأيام. فالسجود لله أمر حتمي، وليس لمخوف قط إختيار في الإمتناع عن تقديمه: كقول القديس كيرلس رئيس الأساقفة وصاحب القداس الكيرلسي في صلاة الصبح: «الهم يا من تحثو له كل ركبة ما في السموات وما على الأرض وما تحت الأرض، الذي الكل مذلول وخاضع بعنق العبودية تحت خضوع قضيب ملكه».

السجود في الطقس الكنسي:

يقدم الإنسان في العبادة حركات خسوعية أمام الله ليعبّر بها عن خضوعه وحشيته. وهذه الحركات على ثلاثة أنواع:

الأول: وتسمى إحناء الرأس (كما ينادي الشماس: «إحنوا رؤوسكم»، وبال يونانية: «تاس كيفالاس إكيناتي»)، وهي لها مواضع خاصة في العبادة.

الثاني: وتسمى إحناء الركب (كما ينادي الشماس: «فثحن ركبنا»، وبال يونانية: «كلينومين تاجوناتا»)، ولها أيضاً مواضع خاصة في العبادة.

الثالث: وتسمى السجود على الأرض (كما ينادي الشماس: «أسجدوا»، وبال يونانية: «هيبوبيتو»)، وبال فسطية: «أوتست»)، ولها أيضاً مواضع خاصة في العبادة.

أما إحناء الرأس فيتم أثناء الوقوف مع إحناء الظهر قليلاً إلى الأمام.

وإحناء الركب يتم بالركوع وملامسة الركب للأرض مع سبط اليدين نحو السماء.

والسجود يتم بالركوع مع إبطراح الوجه ليلامس الأرض أيضاً عند الجهة.

وهذه الأوضاع العبادية، تقليدية تستمد أصولها من العهد القديم ولو أنها في العهد الجديد أصبحت ذات أهمية أكثر بسبب إزدياد الإحساس بالله لا من جهة الرهبة والخوف كسيد فقط بل ومن جهة كثرة مراحمه وبذله وشدة اتضاعه الذي أسر قلوبنا وجعلنا بدوب ذوباناً عند الوقوف أمامه أو أمام صليبه.

وفي العهد القديم كانت العبادة تتم إما في المجامع المحلية أو في الهيكل الرئيسي في

أورشليم. في المجامع كان لا يجوز السجود إذ كان يُكتفى بإحناء الرأس فقط أو الركوع في اتجاه مكان الهيكل، أما في الهيكل نفسه فكانت العبادة تحتم الركوع والسجود على الأرض بسبب حضور الرب (في قدس الأقداس): «صعدتُ لأسجد في أورشليم» (أع ٢٤: ١١)، «ثم جثا سديمان على ركبتيه تجاه كل جماعة إسرائيل وبسط يديه نحو السماء وقال: أيها الرب...» (٢ أي ٦: ١٣)

«فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا: الرب هو الله الرب هو الله.» (١ مل ١٨: ٣٩)

وقد استلمت الكنيسة هذه الأوضاع العادية التقليدية الهامة من الرسل والتلاميذ أنفسهم، فنجد بطرس الرسول يجثو على ركبتيه في الصلاة: «فأحرج بطرس الجميع خارجاً وجثا على ركبتيه وصلى.» (أع ٩: ٤٠)

ونجد بولس يجثو أيضاً في صلاته: «ولما قال هذا جثا على ركبتيه مع جميعهم وصلى.» (أع ٢٠: ٣٦)

ومن لغة بولس الرسول نفهم أن الركوع يعبر عن عمق صلاة الإبتهاال: «بسبب هذا أحنى ركبتيّ لدى أبي ربنا يسوع المسيح... لكي يعطيكم...» (أف ٣: ١٤ و١٦)

أما عند ذكر العبادة في الهيكل فنسمع بولس الرسول يقول: «صعدتُ لأسجد في أورشليم.»

وهنا نستطيع أن نلمح الفرق بين الركوع والسجود، حيث السجود يفدّم لله كعبادة خالصة بحوف وهيبة ووقار بدون طلب شيء أو انتظار نوال شيء.

والتفريق بين إحناء الرأس وإحناء الركب والسجود الكامل بحده واضحاً جداً أثناء صلاة القداس:

فعند صلاة التحيل يادي الشماس: «إحنوا رؤوسكم للرب»، حيث يبال الشعب لحناً من الأسقف أو الكاهن وهم وافقون أو حالسون بإحناء الرأس فقط.

أما في أيام الصوم عند الإبتهاال والطلبات (كل أيام الصوم في الأربعين المقدسة)، فينادي الكاهن على كل الشعب: «إحنوا رُكَبَكُم»، وابتدىء يقول الطلبات

والتوسلات، وفي كل طلبة ينادي قائلاً: «وأيضاً إحنوا رُكبكم».

أما في وقت حلول الروح القدس على الجسد والدم فيصرخ الشماس: «أسجدوا لله بخوف ورعدة»، حيث يتم السجود أمام الله للجسد ثم للدم.

وهكذا ينبغي أن نفرّق بين نداءات الشماس، لأن كل حركة في العبادة سواء بإحناء الرأس أو إحناء الركب أو السجود تعبر تعبيراً طقسياً ذا معنى عميق فيما يختص بالصلاة ودرجاتها.

والخلط بين الركوع والسجود في العبادة أمر شائع حتى في أقوال بعض الآباء، وقليل من يفرّق بين الوضعين. ولكن لو علمنا المدلول الروحي لكل وضع لسهل علينا دائماً التفريق بين الركوع والسجود.

فالركوع يدل على أننا نتوسل ونبتهل في الصلاة من أجل أنفسنا أو الآخرين، ونطلب من الله رحمةً أو جلاً أو غفراناً منه رأساً أو من فم الأسقف أو الكاهن. ولكن السجود يدل على الخضوع والتوبة سواء لله فيكون برهبة واسحاق وخوف عظيم، أو لمن أخطأنا إليه، عظيماً كان أو غير عظيم، ويكون باتضاع فقط. والسجود في هذه الحالة يسمى: «ميطانياً»، ومعناها البسيط: توبة.

وفي الركوع يقول القديس أمبروسيوس:

[نحن نُحني ركبتنا، لأن الركب المحمية أكثر من جميع حركات الجسد الأخرى تهيب الإنسان السماح من الله وزوال نقمته وقبول نعمته.]^(١)

وفي السجود يقول القديس ديونيسيوس الأريوباغي:

[وكل أصحاب الدرجات الكهوتية أو المرشّحين لها يلتزمون بالتقدّم أولاً نحو المذبح لإلهي ثم السجود لكي يعلنوا خضوعهم وتسليم حياتهم لله الذي منه سينالون تكرر يسهم.]

وفي قول للقديس ديونيسيوس الأريوباغي نجد تفريقاً بين سجود الكاهن وسجود الشماس أثناء الرسامة:

[وبما يركع الأساقفة والكهنة أثناء الرسامة على كلتا الركبتين يركع الشماس أثناء الرسامة على ركبة واحدة.]^(٢)

(1) Hexam. Lib., VI, C. IX, n. 74.

(2) De Eccl. Hier., C. V., ch. II

ولكن من العسير فصل الركوع عن السجود عندما يلتهب قلب الإنسان في الصلاة ويستقل من مجرد التوسل إلى تقديم الكرامة الواجبة. ولكن لا ينبغي أن ننتقل من الركوع إلى السجود دون أن ننتقل روحياً وقلبياً من حالة التوسل والطب إلى حالة لتسليم والخضوع.

ويقول القديس كليمنس الروماني:

[ليتنا نسقط أمام الله متوسلين بالدموع.] (٣)

ويقول هرماس في كتابه: «الراعي»:

[فجثوتُ على ركبتَيَّ وبدأت أصلي لله معترفاً بخطاياي.] (٤)

ويقص القديس هيچيسبوس سنة ١٧٠ م عن القديس يعقوب الرسول البار:

[إنه كان قد اعتاد أن يدخل الهيكل «في أورشليم» وحده و يظل ساقطاً على ركبتيه.] (٥)

ويضيف يوسابيوس عن هيچيسبوس، أن ركبتَيَّ هذا البار صارتا من كثرة الركوع خشنة وصلبة مثل ركب الجمال.

و يصف الشماس يوبتس القديس كير يانوس الأسقف الشهيد عندما كان ذاهباً لمكان الإستشهاد:

[فركع على الأرض وانطرح ساجداً في الصلاة أمام الله.] (٦)

ويقص لنا يوسابيوس عن قسطنطين الملك [إنه كان يذهب إلى مخدعه المخصوص داخل القصر في ساعات معينة من النهار و يغلق على نفسه لياجي الله و يظل ساقطاً على ركبتيه متضرعاً من أجل شئون مملكته.] (٧)

كما يذكر يوسابيوس أيضاً عن قسطنطين أثناء مرضه الأخير: [إنه كان يركع على الأرض و يظل متوسلاً.] (٨)

و يقص علينا القديس غريغور يوس النرينزي عن أخته القديسة:

[إن رُكبتَيَّها تصلبت من كثرة الركوع وأصبحت منحنية.] (٩)

(3) Epist. I ad. cor., C., 48. (4) Vis. I, I, 1. (5) Ecc. Hist., II, C., 23.

(6) Vita opp. praefixa (7) Vita const., IV, C., 22 (8) Ibid., IV, C., 61 (9) Orat., VIII, 13

و يفص القديس أوغسطينوس (في كتابه «مدية الله»)، قصة عن معجزة شفاء تمت أثناء ما كان يصلي مع آخرين، وكيف أن الروح دفع المريض ليشارك الآخرين في الركوع والصلاة:

[وبما كما راكع على الأرض كعادة، وإذا لم يص بطرح أبصا نفوه حصة وبتدىء يصلي، مع أنه لم يكن قادراً على الركوع أو الكلام قبلاً.]

و يقول أيضاً القديس أوغسطينوس عن وضع الصلاة المناسب:

[والذي بصي يسمي أن يقدم من أعضاء جسده ما يناسب التوسل، فعليه أن يركع ثم إما يسط يديه إلى أعلى أو ينطرح على الأرض.]^(١٠)
وهنا يفرق القديس بين الركوع والسجود.

وفي قول لأرنوبيوس، يلّمح على أن تقديم السجود للمسيح كعبادة خالصة أمر طبيعي في حد ذاته:

[ونحن نسجد للمسيح طبيعياً لتعبده بصلاة متحدة.]^(١١)

وفي قول آخر للقديس إبيفانيوس، يشدد أن العبادة بالسجود إلزام:

[الكنيسة تأمرنا أن نرفع الصلوات لله بلا انقطاع بكل مداومة وكل توسل ركع في الأيام المحددة ليل نهار.]^(١٢)

والقديس جيروم يعتبر السجود تقليداً كنسياً:

[إنه تقليد كنسي أن نحني ركبتنا أمام المسيح.]^(١٣)

وأول تفيد وصلنا عن متى ينبغي السجود ومتى لا ينبغي جاءنا على يد القديس إيرينيئوس، و يقول عند سؤاله أنه منحدر بالتسليم من الرسل:

[وبما أنه وجب علينا ولائق أن نذكر على الدوام سقوطنا في الخطيئة وكذلك نعمة المسيح لي بواسطتها قمنا من سقطتنا، لذلك فإن ركوعنا على ركبتنا في اليوم السادس (الجمعة) هو إشارة إلى سقوطنا في الخطايا، أما عدم ركوعنا في يوم الرب (الأحد) فهو إشارة إلى القيامة التي حصنا عنها بنعمة المسيح التي خلّصنا بواسطتها من خطايانا ومن الموت.]

وهذا الكلام قاله القديس إيرينيئوس في حديث له يوم عيد القيامة، إسمه «سؤل

(10) De Cura Pro Mortuis, C. V. (11) Adv. Gent. Lib., IC., 27

(12) De Fide, ch.,24. (13) Comm. in Isai., CXIV, V, 23

وجواب للأرثوذكس. » (١٤)

وفي توسل لطيف نسمع أحد أساقفة فرنسا سنة ٦٠٢ م، وهو الأب لكبير سيزار يوس أسقف ومدير «آريز» المشهور، يحرص الشعب على حركات السجود كطقس ضروري للعبادة:

[يا يوس إنيكم وأندركم يا حوئي الأحياء أنه بمجرد أن تبدأ الصلاة على المذبح بواسطة الكاهن أو عندما ينادى السماس على الصلاة، فعليكم أن تنحوا بأمه ليس بقلوبكم فقط ولكن بجسمكم أيضاً، لأنني لاحظت بمرور الأيام أنه عندما ينادى السماس: «إخوة زكيتكم» ظل علبيتكم وفين كالحيطان، لا تحرككم هذا فإن كان أحدكم ضعيفاً عن أن يحني بركتيه فيحن ظهره أو بالأقل يحني رأسه!!

كدلت أنه عنيكم محترماً عندما ينادى السماس عنيكم، يا غرضائي، لكي تنحوا لأحد البركة (أو الجبل) فعبيكم أن تنحوا بكل أمانه بكل أجسادكم ورؤوسكم أيضاً، لأن البركة وإن كانت تُعطى لكم بواسطة يسا (الكاهن) إلا أنها ليست من إنسان (أي من الله)] (١٥)

(14) Quast., II, 5

(15) Serm. Caes., IXXXV, 1, 5 & sim. IXXXIV, 1, 2

أقوال الآباء في السجود:

١١٩٦ — كرس مره يسجد فيها إلى الأرض نشير إلى كيف أهدرتنا عطية إلى لأرض، وحيث نفوم منتصين نعرف نعمة الله ورحمته التي رفعتنا من الأرض وجعلت لنا نصيباً في السماء.

باسيليوس الكبير

١١٩٧ — أما ترتيب السجود وعدد مراته فالمرتبة في كنسيتنا هو أن المصلي يبدأ لصلاة يسجده واحده أو ثلاث سجود، وفي آخر كل مزموور وتسبحه، وأثناء الصلاة عندما يردد ذكر السجود لله.

أما الأوقات لممروع فيها يسجد إلى الأرض إذ يُكتفى بالإحشاء أو الركوع فقط فهي أيام سبوت والآحاد والخمسين والأعياد السيديّة وبعد تناول القربان.

قوانين الكنيسة

١١٩٨ — أسجد في مبدأ صلاتك واسأل الله باسمه وتدل أن يعطيك الصبر في الصلاة وصبر الفكر.

١١٩٩ — وعلى لأقل يسفنى للراهب أن تكون المطانيات في كل دفعة ثلاثين، وبعده يقف للصليب المكرم، ويأخذ في الركوع. وفوم يريدون على هذا العدد حب فوهم.

١٢٠٠ — إعصب نفسك للسجود أمام الله (صبر المطانيات) لأنه هو محرك روح الصلاة.

١٢٠١ — لا تنص أن يسجد أمام الله هو أمر هتس. لا شيء من الأعمال الصالحة يوارى لمواطن على تكميل خدمة الصلاة بضرب المطانيات.

١٢٠٢ — إذا صايقتنا الأفكار أثناء الصلاة وسعربا بالملل، فسحز على الأرض وكنات الصلاة في أيدينا ونضرع ونحن ساجدون أن يهبنا الله نشاطاً لتكمل خدمة الصلاة.

١٢٠٣ — الفضائل التي تُفتنى بالراحة تكون دائماً في النهاية من نصيب الشيطان.

١٢٠٤ — كلما استار الإنسان في الصلاة كلما شعر بضروره وأهمية ضرب المطانيات ويخو به.

الثبات فيها . كلما يرفع رأسه يسجد من فرط حرارة قلبه للسجود لأنه يحس بمعونة قوية في هذه الأوقات ويزداد فرحه وتنعمه .

١٢٠٥ — أعط نفسك للصلاة وأنت تحصل على لذة المطايات وتداوم فيها بسرور.

١٢٠٦ — رائحة عرق التعب في الصلاة هي أدكى من رائحة البحور والعطور.

مار إسحق السرياني

١٢٠٧ — إذا كان تشتت الفكر يلازم السجود دلّ ذلك على أن العقل لم يتحد بالله بعد . أعرف إنساناً بعد أن أتعب ذاته في الصلاة صار كل مرة يسجد فيها في الصلاة يُستع عفه بالدهش .

١٢٠٨ — محبة دوام السجود أمام الله في الصلاة دلالة على موت النفس عن العالم ودر كها سر الحياة الجديدة .

الشيخ الروحاني

١٢٠٩ — رأيتهم في صلواتهم حينما يستهون من تلاوة كل مزمور لا يستعجلون في السجود كواجب يُراد إنهاؤه كما يعمل لكثير ما الآن، بل رأيتهم على خلاف ذلك، فبعد أن يفرغوا من المزمور يقفون برهة يرفعون فيها صلاة قصيرة، ثم يسحبون في خشوع ويسجدون إلى الأرض بوجوههم بورع كثير وتفوى شديدة، ثم ينتصبون بخفة ونشاط و يعودون إلى وقفهم المتصلة وأفكارهم كلها محصورة في الصلاة .

الأب يوحنا كاسيان

(يتحدث عن رهبان مصر)

١٢١٠ — المداومة على السهر مع ضرب المطايات بين الحين والآخر لا تتأخر كثيراً عن أن تُكسب العابد المجتهد فرحة الصلاة .

مار إسحق السرياني

١٢١١ — من كثرة ضرب المطايات يُجهّد الجسد و يسخن وتنحل معه كثرة الأفكار، و يصل القلب إلى حالة اتضاع، و يكون الإنسان في نشوة روحية عالية .

الأسقف إغناطيوس ب.

شخصيات أهم الآباء الذين وردت أقوالهم في الكتاب

□ □ □

(١) البابا أناسيوس الرسولي (٢٩٦ - ٣٧٣ م)

أسقف الإسكندرية الذائع الصيت في القرن لربيع، وهو البابا العشرون من باباوات الإسكندرية. وهو المعروف بهامي الإيمان، إذ كرّس نفسه للشهادة عن حقيقة لاهوت المسيح في مجمع نيقية وبعده - معرضاً نفسه للنفي والتشريد والإضطهاد والمؤامرات مراراً كثيرة وسنوات عديدة، حتى ثبّت الإيمان واستقرت النفوس بجهاده وعرقه وأتاعبه وآلامه، فكان إناءً مختاراً يستخدمه الروح القدس للشهادة للحق كما استخدم الرسل في القرن الأول، ولذلك استحق لقب «الرسولي» عن جدارة.

وُلِدَ في الصعيد سنة ٢٩٦ م، وكان والده كاهناً بإحدى كنائس الصعيد، ثم إتخذه البابا إسكندر تلميذاً له وأحقّه بمدرسة الإسكندرية اللاهوتية. قضى عدة سنوات في شبابه المبكر متلحذاً للقديس أنطونيوس في ابرية وصبّ ماءً على يديه.

أُلف كتابي «الرسالة إلى الوثنيين» و «تحمّد بكلمة» وهو في سن العشرين تقريباً.

سُمِّى شماساً عام ٣١٩ م، ثم رئيساً للشمامسة، ورافق البابا إسكندر إلى مجمع نيقية عام ٣٢٥ م، حيث قام بدور الرئيسي المقال في دحض بدعة أريوس لمواجهة ضد شخص المسيح ولاهوته الأثلي.

سُمِّى أسقفًا للإسكندرية عام ٣٢٦ م في سن الثلاثين. وبسبب أمانته للحق وثباته على الإيمان المستقيم ودفاعه المجيد عن لاهوت المسيح، لقي

إضطهادات لا تُحصى من الأريوسيين ومن الأباطرة الذين أيدوهم، فقد تعرّض في خلال فترة بطريركيته للنفي خمس مرات، تبلغ في مجملها حوالي عشرين عاماً من جملة ٤٧ عاماً قضاها بطريركاً للإسكندرية. وتعرّض لعداء عدد كبير من الأساقفة الأريوسيين الذين استطاعوا التأثير على الملوك والأباطرة وعلى كثير من الأساقفة في الشرق وفي مصر نفسها حتى وُجّهت إليه إتهامات باطلة تظعن في عفته، وفي ولائه لندولة، وغيرها من الإتهامات، وحاولوا في عدة مجامع أن يشهّروا به وحكموا بتجريده وإبعاده عن كرسيه، ولكن كان الله يُظهر الحق في حينه.

وفي سني نفيه كان القديس أناسيوس يشغل بين تريف في فرنسا وبين روما وغيرها من المدن. وصنع صداقات روحية مع أسقف روما وأسقف تريف وإيلاري أسقف مواتييه وكثير من أساقفة الغرب. وكانت فترة وجوده في أوروبا فرصة مناسبة لتعريف الغرب بالرهينة المصرية، فكتب سيرة القديس أنطونيوس لهذا الغرض، فقيت إعجاباً من كثيرين من الغربيين.

وقد مرت فترات صعبة في جهاد القديس أناسيوس لأجل الإيمان صار يُقال له فيها: «العالم كله ضدك يا أناسيوس»، ولكنه كان بثقة اليقين والإتكال على المسيح الذي يخدمه ويجاهد لأجل حقه، يرد قائلاً: «وأنا أيضاً ضد العالم».

وبعد جهاد أليم مستميت لأجل الحق والإيمان ومحنة المسيح المخْلِص التي ملكت قلبه، لم يحرم الله أناسيوس من أن يرى بنفسه بداية ثمرته في سنوات حياته

أركادبوس بنقل جسده إلى القسطنطينية.

وله «نوجيات للرهبان». وتعيد له كنيستنا في ١٣
شس.

(٣) مار إسحق السرياني

أسقف نيسوى

في أواخر القرن السادس الميلادي

دخل مع أخيه دير القديس متى في نيسوى. ثم توجده
في مغارة. ولما اشتهر علمه وهدامته حبب إليه
نيسوى.

وفي أول يوم من أسقفيته أتاه دائن ومدين يحتكمون
إليه. فطلب المدين من الدائن أن يمهله قليلاً إلى أن يجمع
له المال ويوفي الدين. فأبى الدائن وأصر على تسليمه
للحاكم. فأجابه القديس مار إسحق: «إن الإنجيل
المقدس يأمر بأن الذي يأخذ مالك لا تطالبه، فلا أهل
من أن تصبر عليه». فأجاب الدائن: «دع عبث كلام
الإنجيل»، فقال مار إسحق: «إذا كانوا لا يستمعون
لكلام الإنجيل فاذا أتيت لأعمل؟»

ولما رأى أن تدبير شئون الأسقفية سيُفسد عليه عمل
وحده، ترك الأسقفية وهرب إلى بيرة الأسقيط وأكمل
جميع أيام حياته فيها.

وبلغ حداً عالياً من القداسة. وكان معسماً ومرشداً
للرهبان وميناء خلاص لكل أحد. ووضع أربعة كتب
غاية في الروحانية في تعليم النسك والتوحد، تُرجمت إلى
العربية. وله كتب أخرى بالسريانية لم تُترجم بعد إلى
العربية.

(٤) أبنا إسحق تلميذ أبنا أنطونيوس

(القرن الرابع)

تتلمذ للقديس أنطونيوس فترة من الزمن ثم رحل إلى
نيترياً، واستقر فيها مع رهبان القديس مكار يوس
الإسكندري. ويقول عنه بالليديوس أنه كان يعط
الكتب المقدسة عن ظهر قلب، وكان يمسك بأشعيرين
المميتة دون أن تؤذيه. وقد عاش خمسين سنة في الوحدة
وتتلمذ له ١٥٠ راهباً.

لأخيرة، إذ بدأ الإيمان المستقيم يترسخ في الكنائس،
وبدأت شوكة الأريوسية تكسر من الشرق وترك وراءه
عدداً كبيراً من المجاهدين معه لأجل الإيمان. ثم انطلق
سرع مع القديسين إذ تبيح في عام ٣٧٣ م.

وتعيد له الكيسة في ٧ بشنس الموافق ١٥ مايو من
كل سنة.

وقد ترك كتابات لاهوتية هامة في مواضيع متعددة
وله رسائل كثيرة وعظات أهمها رسائله عن «الروح
لقدس».

(٢) أبنا أرسانيوس الكبير

المشهور بلقب «معلم أولاد الملوك»

(٣٥٤ - ٤٤٥ م)

وُلِدَ في روما من عائلة غنية فاضلة تقية. وترى في
أحصان لكنيسة من صغره. وأتقن العلوم والفتن
سيوننية وسلاطينية. كما أتقن الفضيلة والتقوى ولما
تمثلت الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير على القسطنطينية
سنة ٣٧٨ م، أخذ يبحث في الإمبراطورية الرومانية عن
رجل جمع بين التقوى والعلم والحكمة ليعلم ولديه
أركادبوس وهيبوريوس، فلم يجد البطريرك أفضل من
أرسانيوس فأوفده إلى الملك الذي أكرمه جداً وأعطاه
سطة الكاملة لتربيته. وذات يوم صلى أرسانيوس إلى
الله ليرشده إلى طريق الخلاص فأثابه الصوت: «أرساني
أرساني، إهرب من الناس فتنجو»، فترك أرسانيوس
لبلاط في سن الأربعين إلى حياة النسك التي أحبها،
وسافر إلى الإسكندرية ومنها إلى الأسقيط حيث قابل
عند مكار يوس كبير رهبان رهبية وأعطاه قلاية في
طرف الأسقيط لحبه للعزلة. وتفن الصمت والزهد
وانتصف وانتواصع.

ولما تخرَّب الأسقيط ذهب مع تلاميذه إلى جبل
أطروس وهو جبل المقطم شرقي طرة، فسكن في مغارة في
الجبل عشر سنوات. ولما كثرت زواره سافر إلى
إسكندرية وعاش في كيوبيون (مجمع للرهبان)،
وعند سنة عشرين تلاميذه في حب طره، حيث نسج
سنة ٤٤٥ م. وأمر الملك ثيودوسيوس أن يصعد إلى

وأخذت أمه تبيكي من أجل خلاص نفسه، وفي الليل ظهر لها الأسقف أمبروس في رؤيا وقال لها: «ثقي أن ابن الدمع لن يهلك». فاطمأنت وقببت أوغسطينوس في البيت ثانية.

وعاد إلى قرطاجنة مدرساً للبلاغة، وكتب أول مؤلفاته وبدأ إيمانه بالمناوية يتزعزع. ثم نرح إلى روما ثم إلى ميلانو مدرساً للبلاغة حيث تعرف بالأسقف أمبروس الذي عامله بمنتهى العطف والرحمة. فأحبه أوغسطينوس وبدأ يستمع إلى عظاته، لا لكي يتعظ بها، ولكن لكي يدرس ما فيها من بلاغة؛ ولكنها في النهاية قادت إلى مراجعة مبادئه. فأخذ يدرس مع أمبروس في المعهد القديم ثم رسائل معلمنا بولس.

وفي يوم من الأيام استمع إلى قصة أنبا أنطونيوس وكيف أنه لما سمع الآية (مت ١٩: ٢١) ترك كل شيء وذهب إلى البرية. وحينئذ إلهت روحه فيه وخرج إلى الحديقة يقول لنفسه: «ليته يكون الآن...». وفي صراع نفسي عميق وبكاء ودموع صرخ إلى الله لكي لا يسمح بتأجيل تجديده. فسمع من البيت المجاور صوت طفل يقول: «خذ واقرأ»، فاعتبره صوتاً من السماء. وأخذ الكتاب المقدس وفتح فإذا بالآية: «لنسلك بليافة كما في النهار لا بالبظر والسكر، لا بامضاجع وبقهر، لا باختصام والحتد. بل لبسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات» (رو ١٣: ١٣ و ١٤). ولم يكمل القراءة، إذ ملأ سلام الله قلبه. وكان ذلك في خريف سنة ٣٨٦م، ففرحت أمه جداً لاستجابة الله لصلواتها. وبعد فترة من الاستجمام والدراسة عمده أمبروس هو وابنه أدوديتس في ميلانو. وماتت أمه في إيطاليا، فكث في روما إلى سنة ٣٨٨م، ثم عاد إلى قرطاجنة.

وفضى ثلاث سنين في الصلاة والدراسة، ثم باع كل ممتلكاته ووزعها على الفقراء، وبدأ يبحث عن مكان يصلح لإقامة دير. فذهب إلى «يهو» سنة ٣٩١م. ولكنه ما أن دخل الكنيسة حتى رشحه الشعب بالإجماع، فسأله الأسقف فاليريوس قساً للمدينة.

ولمعرفة الأسقف برغبته في الرهبنة خصص له ديراً

وقد سجل له كاسيان أحاديث قيّمة وهامة عن الصلاة. وقد نتج في أوائل القرن الخامس.

(٥) الأسقف أوغسطينوس الأفريقي

(٣٥٤ - ٤٣٠ م)

وُلِدَ أورليوس أوغسطينوس سنة ٣٥٤م. في تاجست شمال أفريقيا. وكان أبوه «باتريكس» وثنياً متغصناً في لشهوات، وأمّه «مونيكّا» مسيحية مولداً وخلقاً. وكان لعنايتها بتربية ابنها ورغبتها الملحة في تقدمه الروحي، أثر كبير في حياته.

التحق بالمدرسة في البلدة المجاورة «مادورا» حيث بدأ يتأثر بالعادات السيئة التي لزملائه. وقد أعان عائلته أوغسطينوس جازها الغنى «رومانيانوس» لإلحاقه بمدرسة العاصمة «قرطاجنة». فكان عمره ١٦ سنة حينما بدأ يدرس البلاغة.

وهناك تدهورت أخلاقه مع أقران السوء حتى وقع في علاقات غير شرعية مع فتاة أنجب منها ابناً سنة ٣٧٢م سمّاه «أدوديتس»، ومع كل ذلك فستواه الأخلاقي كان أعلى من مستوى طلبة قرطاجنة.

ولما توفي أبوه سنة ٣٧١م استمر صديقهم رومانيانوس في مساعدته مالياً لإكمال تعليمه في قرطاجنة. وكان أوغسطينوس توّافاً لأن يحصل على مركز ممتاز في المجتمع، إلا أن دراسته أضعفته بحاجته الملحة «للحكمة». ومن ذلك الوقت بدأ يبحث عن «الحق»، فأنجبه إلى دراسة الكتاب المقدس، ولكن بساطة أسلوبه ردته عن ذلك. ثم اعتنق المناوية. (١)

ولما أكمل دراسته عاد إلى تاجست مدرساً للحو. وقد اضطرت أمه لاعتناقه بدعة المناوية ورفضت قبوله في بيتها. فعاش مع رومانيانوس.

(١) هي بدعة ذات أصل هدي، إذ أراد صاحب «ماني» أن يجمع بين يسوع وهدى. رادشيه. ونصوم البدعة على مبادئ متعارضة أو على وجود إلهي: إله الخير وإله الشر، وبذلك جاءت تطبيقها العملية مجموعة من تعارضات.

ذاك الوقت ونظم لهذا الغرض أناشيد عذبة ضمت
حقائق الإيمان المستقيم ولقها للفتيان والفتيات وكانت
عده وسنه فعالة في مقاومة اراء المبتدعين في وسط
النمب

وقد اجتذبت شهرة القديس باسيليوس الكبير مار
أفرام لزيارة قيصرية كبادوكية لكي يرى ذلك
الشخص الذي استعلن له في حلم على هيئة عمود من نار
ممتد من الأرض إلى السماء . فانطلق مار أفرام إلى
قيصرية بصحبة مترجم . ولما دخل إلى الكنيسة ، وبعد
أن استمع إلى عظة القديس باسيليوس ، أرسل القديس
باسيليوس شماسه ليأتي إليه بمار أفرام ، إذ ان القديس
باسيليوس عرفه بالروح ، ولما التقيا تعافى وقد قام
القديس باسيليوس برسامته شماساً . وأثناء الرسمة
أعطى الروح القدس لكل منها لسان (لغة) لآخر ،
فصلى القديس باسيليوس بالسريانية ومار أفرام
باليونانية .

وقد شهد القديس باسيليوس أنه تعلم بعض أشياء
مهمة ودقيقة من مار أفرام في فهمه للوحي الإلهي ، وقد
كانت حياته السكية وزهده وتجرده من أهم الأسباب
التي جعلت القديس باسيليوس يثق في آرائه وتفسيره .

وقد زار مار أفرام الراري المصرية وفضى في أديرتها
ثماني سنوات . وتوجد شجرة في دير السريان من المتواتر
أنها كانت عصا مار أفرام السرياني .

وفي عام ٣٧٣م حدثت مجاعة مهيكة شملت ارها
كلها مما جعل مار أفرام يخلي نفسه من مشاعه و يتفرغ
لإغاثة المنكوبين والمرضى فكان يطوف بدور الأغنياء
ويجمع منهم الأموال لأجل إغاثتهم .

وقد أغنى مار أفرام الكنيسة السريانية بأناشيده
وقصائده التي بلغت من أهميتها درجة جعلت الكنيسة
السريانية تستعملها في خدماتها الطقسية قبل انتقاله .
وبلغت قصائده الشعرية بالسريانية إثني عشر ألفاً ،
وفيها تحدث في كل أمور الإيمان المسيحي عن الثلوث
والتجسد والتولية والتوبة والكهوت والرهبنة وما بعد
الموت . و بسبب كثرة مؤلفاته وتقاسيره وقصائده الدينية

في حديقته الأسقفية حيث تجمع بعض الإخوة وعاشوا
عيشة مشتركة . وكان هذا أول دير في أفريقيا الشمالية
(حلاف مصر طبعاً) وأصبح الدير مدرسة لاهوتية
لإعداد رجال الإكليروس .

وفي سنة ٣٩٥م سيم أسقفاً « لهثو » فحارب البدع
لمنتشرة . وكان يعمل ويعلم . وتنيح سنة ٤٣٠م . عن
٧٦ عاماً ، تاركاً مؤلفات تعتبر من الكوز اللاهوتية
والروحانية والتفسيرية اثنينة . أشهرها : « الاعترافات »
و « مدينة الله » .

(٦) الأسقف إغناطيوس برباشايبوف (١٨٠٧ — ١٨٦٧م)

وُلِدَ في سنة ١٨٠٧م في مدينة سان بطرسبرج
بروسيا . وتلقى تعليمه في كلية الهندسة بعن المدينة .
وبعد تخرجه اشتغل مدة من الزمن مهندساً ثم استقال
ودخل الدير وترهب . وقد كتب مؤلفات نسكية
ولاهوتية كثيرة . ومن أشهر مؤلفاته كتابه عن « صلاة
يسوع » الذي تُرجم من اللغة الروسية إلى عدة لغات
أوروبية . وقد سيم أسقفاً على إيبارشية بريانتشانينوف
في روسيا ، وقد افترن اسمه باسم إيبارشيتيه ، فقد كان
أمياً في رعاية شعبه بإخلاص وعجة وتضحية . وتنيح سنة
١٨٦٧م .

(٧) مار أفرام السرياني (٣٠٣ — ٣٧٣م)

وُلِدَ سنة ٣٠٣م بمدينة نصيبين فيما بين النهرين من
أبوين مسيحين سريانيين الجنس ، وتشرب منها حب
التقوى ولإلتصاق بالكنيسة — وقد تتلمذ للقديس
يعقوب أسقف نصيبين وحضر معه مجمع نيقية سنة
٣٢٥م . وبعد سقوط نصيبين في أيدي الفرس عام
٣٣٧م غادرها مار أفرام واستقر بمدينة الرها حيث تتلمذ
عن يد راهب شيخ يُسمى مار بوليان ، ثم عمل مدرساً في
مدرسة الرها اللاهوتية الشهيرة ، وقد تبخر في دراسة
الكتب المقدسة وعلوم الكنيسة وكتب عشرات كتبه
لأسفار من الكتاب المقدس . وفي أثناء اشتغاله بالتعليم
بمدرسة الرها قاوم كثيراً من البدع التي كانت شائعة في

(٩) الشهيد إيرينيوس أسقف ليون

(١١٥ - ٢٠٢ م)

وُلِدَ حوالي سنة ١١٥ م. في سميرنا (أزمير) بآسيا الصغرى. نشأ وترى فيها، وتمتع بامتياز تلمذه على يد القديس بوليکار بوس (أسقف سميرنا) تلميذ القديس يوحنا الرسول. وقد لازه معلمه بوليکار بوس حقبة طويلة من الزمن تشرب فيها روح التعليم الرسولي المسلم لبوليکار بوس من يوحنا الرسول. و يقول إيرينيوس نفسه: «إن ما سمعته من بوليکار بوس هو منقوش على قلبي، وبنعمة الله أستعيد إلى ذهني ما سمعته منه على الدوام». لذلك يُعتبر إيرينيوس مصدراً هاماً من مصادر التقليد الرسولي.

وقد رافق إيرينيوس معلمه بوليکار بوس، في رحلته إلى روما سنة ١٥٤ م. لأجل الاتفاق على تحديد موعد عيد الفصح. ثم ذهب بعد ذلك لبشر في جنوب فرنسا (بلاد الغال). وبعد إستهاده الأسقف بوتيي الشيوخ أسقف ليون، اختير إيرينيوس خلفاً له سنة ١٧٨ م. وجعل يجاهد بغيرة رسولية لأجل نشر الإيمان في بلاد الغال ولأجل المحافظة على وديعة الإيمان من الإنحرافات والبدع التي كانت قد بدأت تنتشر في ذلك الوقت. ومن أجل هذا الغرض ألف إيرينيوس بعض الكتب التي صارت مصدراً هاماً في التعرف على التعليم الرسولي النقي. وقد اجتذب إيرينيوس كثيرين من الوثنيين إلى الإيمان بالمسيح.

ثم ختم حياته كشهيد في اضطهاد الإمبراطور سافيروس سنة ٢٠٢ م.

(١٠) الأسقف إيلاري من بواتيه

(٣٦٨ - ؟ م)

وُلِدَ في بواتيه عاصمة مقاطعة اكريتين ببلاد الغال (فرنسا). ودرس الآداب اللاتينية. وأدت دراسته للكتاب المقدس إلى اعتناق المسيحية سنة ٣٥٠ م.

ولما خلا كرسي بواتيه إختاروه أسقفاً له. فقاد الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ضد الأريوسية في بلاد

سُمِّي «المُلفان» أي «المعلم» و «المفسر» وسُمِّي أيضاً «قيثارة الروح القدس» و «نبي السريان». وقد تُرجمت بعض مؤلفاته إلى اليونانية قبل انتقاله، ثم إلى مختلف اللغات فيما بعد. وهو يُعتبر من أعظم آباء الكنيسة لسيانية.

وفي يوم ٩ يونيو عام ٣٧٣ م تنجح مار أفرام، فشيعة مدينة الرها كلها لأنه كان بمثابة الأب المحب لجميع الشعب. وتعيّد له كنيستنا في يوم ١٥ أيب.

(٨) أبنا أنطونيوس الكبير

أب الرهبان

وُلِدَ سنة ٢٥١ م ببلدة قمن العروس بمحافظة بني سويف، ومات والده وهو حديث السن. فباع أملاكه ووزعها على الفقراء على أثر سماعه فصل الإنجيل القائل: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع كل أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء». (مت ١٩: ٢١). وانعزل في منزل بجوار القرية للتعبد مسترشداً بأحد السوح المتعبدين. ثم توغل بعد ذلك في البرية الشرقية سنة ٢٨٩ م، وبعد أن قضى عشرين سنة في عزلة تامة، رضي أخيراً أن يجلس إلى الزائرين الذين أتوا إليه وتعلموا على يديه، فعلمهم حياة التوحد. وهكذا اجتمع له تلاميذ كثيرون وصار أباً لجميع الرهبان. وكان لسيرته تأثير على كثيرين، كما كانت المعجزات التي أجراها الله على يديه سبباً في تثبيت الإيمان وخلص النفوس، وفي أواخر حياته زار القديس بولا السائح.

وقد كتب البابا أثناسيوس سيرة أبنا أنطونيوس، وكان هذه السيرة تأثير كبير في تغيير حياة أوغسطينوس حتى صار قديساً.

وللقديس أنطونيوس عشرون رسالة وأقوال أخرى متناثرة جاءت في كتاب أقوال الآباء وبستان الرهبان (٢). وتعيّد له كنيستنا في ٢٢ طوبة.

(٢) أنظر كتابي «القديس أنطونيوس ماسك إنجيلي»، و «رسائل القديس أنطونيوس» مع تعليقات روحية عنها، للأب متى السكين.

الرياح الأريوسية. وقد تعرض مع المسيحيين للضيق والإضطهادات التي وقعت عليهم من الإمبراطور دليثس الأريوسي، وظل صامداً مشدداً رعيته ومدافعاً عن الإيمان الأرثوذكسي حتى تنبح سلام سنة ٣٧٩ م.

وللمقدس باسيليوس كتابات كثيرة هامة وعميقة في مختلف المجالات المسيحية. فله في تفسير الكتب المقدس كتاب هكسامبرون وهو شرح وافٍ وتأملات عميقة عن ستة أيام الخليفة، وله أيضاً شروحات لكثير من المزيم وتفسير لجزء من إشعياء، ومن أشهر مؤلفاته اللاهوتية كتابه عن الروح القدس. وله رسائل كثيرة بيعت ٤٠٠ رسالة. هذا بالإضافة إلى مؤلفات كثيرة عقائدية وروحانية وفي القانون الكنسي. وله كتابات نسكية شهيرة؛ هذا بخلاف القداس الإلهي المعروف باسمه.

وتعبد له كنيسة في طوبة.

(١٢) الأسقف باليديوس

كاتب تاريخ الرهبان

(٣٦٤ - ٤٣١ م)

وُلِدَ في غلاطية حوالي سنة ٣٦٤ م. وترهب في سن العشرين. وعاش مع القديس إينوسنت على جبل الزيتون ثلاث سنوات من سنة ٣٨٦ م، وزار مصر المرة الأولى من سنة ٣٨٨ إلى سنة ٣٩٩ م، حيث عاش مع رهبان برية شبيبت لدراسة الحياة النسكية وليتدرب على الفضائل التي اشتهروا بها. ثم عاد إلى بيت لحم ثم إلى اورشليم وسيم أسقفاً لهينو بوليس سنة ٤٠٠ م.

وكان من المدافعين عن المذبيس يوحنا ذهبي الفم. فُتني إلى أسوان سنة ٤٠٦ م ومكث في مصر العليا منفياً ست سنوات إلى سنة ٤١٢ م، وعندما عاد إلى غلاطية كتب تاريخاً عما رآه وسمعه عن رهبان الأسقيط حوالي سنة ٤٢٠ م في كتاب «تاريخ الرهبان»، وأهداه إلى لوزاس أمين الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني.

وقد اشتهر هذا الكتاب باسم «التاريخ اللوزياكي» لباليديوس، وهو يُعطى في هذا الكتاب وصفاً للحركة الرهبانية في مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى في القرن الرابع. ولذلك يُعتبر كتابه هذا أحد

معالم. ولذلك يسمونه «أثناسيوس الغرب»، فُتني إلى مير بيجيا في آسيا الصغرى. وهناك انتهاز فرصة بقبه وعمل على تقرب وجهات النظر بين أساقفة آسيا الصغرى والعام، كما كتب بعض مؤلفاته هناك. وبعد أربع سنوات في المنفى ذهب إلى القسطنطينية ومنها عاد إلى بلاد العال وفي سنة ٣٦٢ م زار إيطاليا. وبعد أن عاد مكث في كرسيه ثلاث سنوات في سلام. وتنبح سنة ٣٦٨ م بعد أن ترك تفاسير وكتباً كثيرة.

(١١) باسيليوس الكبير رئيس الأساقفة

(٣٢٩ - ٣٧٩ م)

وُلِدَ سنة ٣٢٩ م بمدينة قيصريّة من أسرة غنية وعريقة في التقوى والعلم. وبعد أن تلقى مبادئ الفلسفة من والده التحق بمعاهد قيصريّة فلسطين ثم القسطنطينية ثم أثينا. واستمر بالأخيرة من نحو سنة ٣٥١ إلى سنة ٣٥٥ م. وامتاز في كل منها بنبوغه. وقابل في أثينا زميله غريغوريوس الثيولوجوس. وبعد رجوعه إلى وطنه، إنكب على دراسة الفلسفة. وفي سنة ٣٥٧ م جال وسط رهبان وادي النطرون ثم عاد إلى بلاده، وتوحد في كبادوكية للعبادة، ووافاه هناك القديس غريغوريوس للإشتراك معه في التنسك وفي فلاحه قطعة أرض ليقناتا من محصولها.

ويُعتبر القديس باسيليوس مؤسساً لنوع من الشركة الرهبانية في بلاد البُطّس (آسيا الصغرى)، حيث تجتمع حوله عدد كبير من راغبي النسك والتعمّد من كل المنطقة المحيطة وليس من الرجال فقط، بل أيضاً من النساء تكونت جماعات من الراهبات بقيادة القديسة ماكرينا أخت القديس في نفس هذه البقعة.

والنظام الرهباني الذي أسسه هذا القديس يشبه إلى حد كبير نظام الشركة المعروف في صعيد مصر والذي أسسه القديس باخوميوس. وكان رهبان الشركة اباسينية يقومون بالتبشير وتثبيت المؤمنين على إيمان مجمع نيقية إلى جانب الصلاة والدراسة والعمل اليدوي.

وفي سنة ٣٧٠ م سيم رئيس أساقفة على قيصريّة كبادوكية، وكان هذا إنتصاراً كبيراً للأرثوذكسية أمام

«فجأة بدت لي السماء كأنها تنفتح أمامي و يشرق منها شعاع ذو لمعان فائق يعجز أي لسان بشري عن وصفه وأي عقل عن تصوُّره. وهذا اللامعان الفائق كان لمدة قصيرة لا تزيد عن دقيقة ثم رجع منظر السماء إلى صورته المألوفة. وهذا المنظر العجيب جعلني ألتهب بشوق حار ف نحو حياة الإعتكاف. وظللت مدة طويلة بعد تلك الليلة مأخوذاً بحالة من الدهش بسبب هذه الظاهرة المذهبة. وإلى الآن، كلما أذكر تلك الليلة، فإن قلبي يمتلئ فرحاً وسروراً».

وفي سنة ١٧٥٨م ترهب مدير انطونيوس القريب من مدينته، ثم بعد ذلك بسنة انتدب رئيساً لدير آخر، وفي سنة ١٧٦١م رُسم أسقفاً على نوفوجورود وفورنيز. وظل تبيخون في الفترة من سنة ١٧٦١ — سنة ١٧٦٧م يحاهد في توعية كهنة الإبارشية وتعليم رعيته والعناية بها. وقد ألّف لهذا الغرض عدة كتب أشهرها «المسيحية الحقيقية»، ولكنه اضطر في سنة ١٧٦٧م إلى التحلي عن أسقفيته بسبب مرضه وضعف صحته، واعتكف بقية حياته في دير زادونسك حيث كان يقضي وقته في الصلاة والتأمل في الكتب المقدسة إلى أن تبيح سنة ١٧٨٣م.

(١٥) الأسقف ثيوفان الناسك (١٨٩٤م — ؟)

أحد أساقفة روسيا المشهورين في القرن التاسع عشر، وهو الذي قام بترجمة الفيلوكاليا اليوسية إلى سعه الروسية، وله كتابات لاهوتية كثيرة، وقد تبيح عام ١٨٩٤م.

(١٦) الأسقف ثيوفيلس الأنطاكي (١٨٢ — ؟م)

وُلِدَ في بلاد ما بين النهرين من أبوين وثنيين. ونشأ محباً للعلم والدراسة ودرس علوم عصره باليونانية وتفقه في فلسفتها، ولكن عليه لم يسترح بالفلسفة ثم عكف بعد ذلك على دراسة الأسفار المقدسة فاشتغل عنه شوقاً إلى المسيح وتحول وأعلن إيمانه المسيحي، واعتمد.

لمصادر الهامة جداً عن تاريخ الرهبنة الأولى. وهو يجمع في هذا الكتاب بين ما رآه ولاحظه بنفسه في حياة الرهبان الذين عاشهم وبين ما استلمه من آخرين عن حياة الرهبان بقصد منفعة العارء و بنيانه روحياً. وهو لا يحاول أن يدافع عن الرهبنة ولكنه يذكر الحقائق كما رآها وسمعها. وكان يمجت الكبرياء والمحرفة مقتاً شديداً حتى أنه قال في مقدمة كتابه هذا: «أن تشرب خراً بتميز أفضل من أن تشرب ماءً بكبرياء».

وقد تبيح سنة ٤٣١م قبل إعتقاد مجمع أفسس بفترة قصيره.

(١٣) العلامة ترتوليان كاهن قرطاجنة بشمال أفريقيا (١٥٠ — ٢٢٠م)

وُلِدَ سنة ١٥٠م من عائلة وثنية ودرس الفلسفة وقانون كما أُلِّم بالتاريخ والطب. ومارس المحاماة ونبغ فيها، وكان يكتب باليونانية وباللاتينية بسهولة.

وقد إتسع العادات الوثنية، وشرب من كأس الملذات انعمالية إلى سن الرجولة. ولما رأى قوة احتمال المسيحيين للإضطهادات وإقبالهم على الإستشهاد بفرح في روم، آمن واعتمد في سن الأربعين. وهو صاحب القول المأثور: «دماء الشهداء بذار الإيمان».

ولما عاد إلى قرطاجنة وبدأ يدافع عن الإيمان ميم قسماً. واتفق مع زوجته على اعتزال الحياة الزوجية وبدأ في ممارسة السك والتشف. وله مؤلفات عديدة. وتبيح بعد سنة ٢٢٠م.

(١٤) الأسقف نيكخون زادونسكي (١٧٢٤ — ١٧٨٣م)

وُلِدَ عام ١٧٢٤م في قرية كورتسك إحدى قرى إبارشية نوفوجورود في روسيا، وبعد أن أخرج من معهدا الاهوتي عُيِّن مدرساً بنفس المعهد في سن لثلاثين. وفي إحدى ليالي شهر مايو خرج بمفرده يتأمل صصعه و سكر في السعدة الأنسية. و يصف هو ما حدث له في تلك الليلة فيما بعد لتلميذه قائلاً:

ثم كرّس كل جهوده وحياته للتبشير بالمسيح بين الوثنيين وخصوصاً بين المثقفين والفلاسفة منهم . ولما خلا كرسي أسقفية أنطاكية سنة ١٦٩ م أجمع المؤمنون على اختياره أسقفاً لأنطاكية فصار الأسقف السابع على الكرسي الأنطاكي — منذ عصر الرسل ، فازداد في جهاده في نشر الإيمان والدفاع عن التعليم الصحيح في مواجهة البدع المعاصرة .

وكتب تفسيرات لبعض الأسفار المقدسة ، وألف كتباً في تعليم الإيمان عن الثالوث الأقدس وعن معرفة الله . وألف كتاباً لإجتذاب الوثنيين للمسيحية بيّن فيه سمو التعليم المسيحي وطهارة سلوك المسيحيين وعيشهم بالسلام والمحبة وطاعة الله .

ثم تنيح عام ١٨٢ م . وتعيّد له الكنيسة الأنطاكية في ٢٣ يوليو من كل عام .

(١٧) الأب حرقبوس الأورشليمي (؟ - ٤٣٨ م)

وُلِدَ في أورشليم — في النصف الأخير من القرن الرابع — وتعلم في نفس المدينة ، وتلمذ على يدي القديس غريغوريوس النريزي . وبكثرة تأمله في الكتاب المقدس إقتنى معرفة واسعة بالأمور الإلهية ، وشتهر بتفاسيره الدقيقة للكتاب المقدس . وفي سن الرجولة توخّد في الصحراء حيث جمع الفضائل من قديسي البرية كما تجمع النحلة العسل من رحيق الزهور ، وسامه بطريرك أورشليم قساً رغماً عن إرادته . وتنيح حوالي سنة ٤٣٨ م . وله تفاسير لكثير من أسفار المهدين لقديم ولجديد .

(١٨) أبّا سمعان العمودي (٣٨٨ - ٤٥٩ م)

وُلِدَ سنة ٣٨٨ م بقرية الصيص بالقرب من مدينة سيفوبوليس على حدود سوريا الشمالية . وفي عمر ١٦ سنة ترهب في دير « يوزيونا » في قل « عدّا » بمنطقة أنطاكية ، وأهدى ميراثه وماله للدير والأديرة الأخرى . ومكث بالدير عشر سنوات .

ولمبالغته في التقشف ، طرده رهبان دير ، فعاش على عمود مرتفع . ثم عاد فبنى خلال سبعة أعوام ثلاثة أعمدة كان إرتفاع الأخير منها ٢٠ متراً وكانت مساحة قاعدته العليا متراً واحداً مربعاً . وقد عاش فوق عموده الأخير ثلاثين عاماً دون أن يهبط إلى الأرض ، وكان تلاميذه يحملون إليه إحتياجاته ، وفوق هذا العمود كان القديس يساء و بصلي و يقوم بالتشريرة كثيرين عن الوثنية والنصرانية كما كان يشترك في توجيه سياسة الكنيسة . واستشاره ملوك من أوروبا وأساقفة وكان يرسل لهم رسائل بالردود حسب ما يوحى إليه الروح .

تنيح في السبعين من عمره سنة ٤٥٩ م — ودُفن في أنطاكية . وتعيّد له كنيسة في ٣ مسرى .

(١٩) الأب سيرافيم ساروفسكي (١٧٥٩ - ١٨٣٣ م)

وُلِدَ سنة ١٧٥٩ م في مدينة كورسك في روسيا من عائلة تقية تشغل بالتجارة . وقد إعتراه في طفولته مرض خطير ، وكان يرى السيدة العذراء تتحدث معه أثناء مرضه وتعيّده بالشفاء . وكان يحس في نفسه أنه مدعو للحياة الرهبانية . ولما بلغ سن العشرين تحلّى عما ورثه من والده ووزع كل ما يملكه على الفقراء وترك مدينته وهولا يحمل معه إلا كيساً صغيراً وعصاً . وكان كنزه الثمين الوحيد صليباً من نحاس إحتفظ به طوال حياته .

وفي سنة ١٧٧٩ م دخل دير ساروف وعاش فيه كمبتدئ إلى سنة ١٧٨٦ م ، وكان طامعاً لأبيه الروحي طاعة مطلقة . عمل أولاً في فرن الدير ثم نجاراً ، ورغم إنشغاله في الأعمال اليدوية لم يكلّ من الصلاة وتلاوة الكتاب المقدس وكتابات الآباء القديسين ، وكان اسم الرب يسوع لا يفارق شفثيه . كان ميالاً للمصمت ، قليل الكلام ، يتجنب الإختلاط بالناس . وفي أوقات فراغه كان يذهب إلى الغابة المجاورة للدير حيث يقضي وقته في الصلاة . ومع ميله للإعتزال ، فلم يكن عبوساً مقطباً بل بشوشاً يشجع المحزونين إما بكلمة تخرج من فمه أو بابتسامة على شفثيه . وهذه البشاشة والطمأنينة التي كانت تبدو عليه لم تفارقه حتى في وقت مرضه وأوجاعه .

العزلة وعودته إلى الدير، إلا أن السيدة العذراء ظهرت له في رؤيا كي يرجع إلى صومعته، وطلبت منه أن يستعد للسير في جهادات روحية جديدة.

ولما اعتقلت الحكومة رجال العصابة التي هاجته وعزمت على معاقبتهم، رفع سيرايم صوته مطالباً السلطات بالعفو عنهم.

وقد قضى سيرايم ألف ليلة كامنة وهو واقف على صخرة في الغابة رافعاً يديه صوب السماء بشكل صليب مردداً بلا انقطاع: «إرحمني يا رب أنا الخطيء». وفي أثناء النهار كان يعلم من يأتيه من الزائرين ليطلب المشورة. ومنذ سنة ١٨٠٧م انقطع سيرايم عن الكلام ولزم الصمت، وكان يجيب تلاميذه الروحيين الذين تألموا لهذا التصرف أنه يليق بنا أن نتكلم من أجل الله لكن الأكثر لياقة أن نُظهر نفوسنا من أجله. وبقي في حالة الصمت الكامل مدة ثلاث سنوات حتى سنة ١٨١٠م حيث رجع إلى الدير بأمر رئيسه نتيجة لدسائس بعض الرهبان. ومع هذا عاش حياً في غرفة ضيقة داخل الدير، ملازماً للصمت.

وفي سنة ١٨٢٥م ظهرت له رؤيا كان لها تأثير كبير في تغيير طريقة حياته ودوي كبير في حياة الآلاف من الرهبان والعلمانيين في كل روسيا. وفي هذه الرؤيا خاطبته السيدة العذراء طالبةً إليه أن يرحل هائياً من عرته ليخدم لنفوس. وفي هذه الفترة الأخيرة من حياته كان هو الأب الروحي والمرشد للآلوف من الرهبان والراهبات والعلمانيين الذين اتجهوا إليه بطلب إرشاداته. وبدأت تظهر ثمار الحياة الخفية التي لم تكن معروفة حتى ذلك الحين. فكان يقابل زائريه بتواضع وفرح قلب ومحة شديدة. كان يسكب نفسه كلها لكل واحد منهم ويعطيه الكلمة الخاصة التي تناسبه ولا تناسب غيره. وكان كل من يزور سيرايم يشعر بحقيقة وجود ملكوت السموات. وكان الفرح والهدوء والسلام يفيض من قلبه على كل من يقابله فيحصل على العزاء.

وقبل نياحته بسنوات قليلة رآه أحد تلاميذه (نيقولا موتوليف) في حالة تجلي باهرة إذ صار وجهه مضيئاً أكثر من الشمس. وقد كتب تلميذه الحوار الذي جرى بينه

فقد أصيب مرة بمرض مزمن استمر ثلاث سنوات لم يتنمر خلاها قط ولم يستشر طبيباً. وظهرت له في أثناء مرضه السيدة العذراء للمرة الثانية. وكان نتيجة صبرها أن سُقي من علته، وسمعتها تقول وهي تشير إليه: «إن هذا من جماعتنا».

وفي سنة ١٧٨٦م لس بروخور (وهو اسمه الأصلي) الإسكيم الرهباني وأصبح اسمه «سيرايم»، ثم سيم شماساً فكاهناً. واشتهرت هذه الفترة من حياته باشتراكه إشتراكاً روحياً حاراً في الصلوات الكنسية. وحدث مرة أثناء خدمة الجمعة العظيمة أن ظهر له الرب يسوع وعلى وجهه سياء «ابن الإنسان المتألم».

وفي سنة ١٧٩٤م بدأت تظهر في حياته تباشير ظواهر جديدة. فقد حصل سيرايم على إذن بالإعتزال في مكان بعيد عن الدير، فانزوى في كوخ صغير حقير في بطن العانة.

ومنذ ذلك الوقت بدأت صلواته الطويلة الانفرادية وانطلاقه الروحي غير العادي، الذي ظهرت ثماره فيما بعد قرب نهاية حياته. ورغم هذا كان يعود إلى الدير كل يوم أحد للإشتراك في القداس الإلهي والتناول.

وفي وحدته كان يسعى جاهداً ليحيى روحياً حياة المسيح الأرضية. وهكذا تحولت المنطقة المحيطة بكوخه الصغير إلى «مواضع مقدسة». فأصبحت إحدى الزوايا «مدينة الناصرة» يترغم فيها بتحية الملاك للعذراء، وكان يتأمل في إحدى المغائر القريبة منه ويتصور ولادة المخلص فيها، ويلد له تلاوة العظة على الجبل فوق قمة هضبة قريبة. وكان له في أحد جوانب العانة «جبل تابور» و«جشيماني» و«الجلجثة» حيث كان يحمد أن يشترك في آلام المسيح. وفي وحدته خضعت له وحوش الغابة وكانت تأنس إليه وتأكل من يده كأنها حملان.

وفي مكان عزلته هاجته عصابة من قطاع الطرق وضربوه بالعصي وجرحوه جراحات أدت إلى إصابته بعاة مستديعة اضطرت أن يمشي مقوس الظهر معتمداً على العصي كشيخ مسن. وتسببت هذه الحادثة في تركه

وبين القديس سيرافيم عندما رآه في هذا المظر الهبي (راجع صفحة ٢٢٢).

إن القديس سيرافيم كان يؤكد دائماً أن «غاية المسيحية هي إفتاء الروح القدس». وقد عاش هو فعلاً حياة إمتلاء بالروح القدس.

وفي صبيحة الثاني من شهر يناير سنة ١٨٣٣م وُجد سيرافيم في غرفه وقد فارق الحياة جاثياً على ركبتيه أمام أيقونة السيدة العذراء المعروفة باسم «سيدة الحنان»، وبيده شمعة مضاءة أخذ لها يلتهم صفحات الكتاب المقدس.

(٢٠) غريغور يوس الثيولوجوس

(الناطق بالإلهيات) أو النزينزي

(٣٢٨ — ٣٩٠م)

أحد الآباء الكبادوكيين الثلاثة المشهورين وهم:
(١) القديس باسيليوس الكبير (صاحب القداس لبايسي).

(٢) القديس غريغور يوس النيصي شقيق القديس باسيليوس.

(٣) لقديس غريغور يوس الثيولوجوس (صاحب لقداس لغريغوري).

وثلاثتهم عاشوا في عصر واحد وكانوا من إقليم واحد هو كبادوكية بآسيا الصغرى — إثنان منهم كانا شقيقين بالجسد، والثالث وهو الثيولوجوس كان صديقاً حياً بالروح للشقيق الأكبر أي القديس باسيليوس.

وكان للآباء الكبادوكيين الثلاثة أكبر الأثر في تاريخ المسيحية بعد القديس أثناسيوس في محاربة الأريوسية والإنهاء على باقي آثارها وتثبيت الإيمان بلاهوت المسيح والثالث الأقدس.

وبسبب براعة القديس غريغور يوس النزينزي بنوع خاص في الحديث عن الثالث الأقدس باقتدار وإلهام فائق وموهبة نادرة من الروح القدس أطلق عليه اسم

«الثيولوجوس»: أي «الناطق بالإلهيات». فإنه لم يكن يتكلم في الإلهيات — أي اللاهوت — من مجرد معرفته بالكتب أو الحث والدرس العقلي الضيق، وإنما من حياة عشرة عميقة كان يحياها في عبادته لثالث الأقدس.

فكتاباته وعظاته تدلان على أنه يتكلم عن اختار حي لثالث الأقدس، إذ كان يتكلم بمحبة شديدة للآب والإبن والروح القدس فكان الثالث هو موضوع حياته.

وجدير بالذكر أنه لم ينل أحد من الآباء هذا اللقب من بعد يوحنا الرسول (— الملقب باللاهوتي — أي الناطق بالإلهيات) إلا هذا القديس.

وُلد هذا القديس سنة ٣٢٨م بقرية من أعمال نزينزا بإقليم كبادوكية بآسيا الصغرى. وكانت أمه «نونا» مثلاً للتقوى المسيحية في العبادة والسلوك. وقد نذرت ابنها وهولا يزال في بطنها لخدمة الله — وقد كان والد غريغور يوس أسقفاً على مدينة نزينزا وكان اسمه غريغور يوس أيضاً (وقد كان لأمه «نونا» الفضل في تحويل زوجها من البدعة التي كان يتبعها إلى لإيمان المستقيم بتأثير صلواتها وقوتها وذلك قبل سيامته أسقفاً بأربع سنوات).

نشأ غريغور يوس الطفل تحت رعاية أم قديسة ربته على قراءة الكتاب المقدس وحفظ وطاعة وصايا الله. وعرفته منذ سن صغيرة بأنه مكرس للرب كذبيحة مثل إسحق. ولما شب غريغور يوس، سافر مرة إلى قيصرية كبادوكية حيث تعرف بباسيليوس وتصادق معه ثم التحق بعد ذلك بمعاهد قيصرية فلسطين لدراسة الخطابة. ومن قيصرية سافر إلى الإسكندرية حيث كان ديديموس الضرير ناظراً لمدرستها اللاهوتية، ومنها ذهب إلى أثينا بجرأ، وفي الطريق إلى أثينا هبت عاصفة استمرت ٢٢ يوماً كادت تُغرق السفينة ولكن كُتبت النجاة لكل الركاب بواسطة صلاة رفعها غريغور يوس فأمن بحارة السفينة بالمسيح. وفي أثينا التقى بصديقه باسيليوس مرة أخرى وعاشا معاً حياة مشتركة في وحدة

في تشييت الإيمان بالثالوث الأقدس، وتشييت حياة القداسة وأهميتها بقدوته وعحته وطهارته ووداعته وبعطاته المؤثرة. وبسبب مقدرة الفذة في التعبير عن الثالوث الأقدس في عظاته التي ألهاها في القسطنطينية أطلق عليه لقب «ثيولوجوس» أي «الناطق بالإنهيات». وله خمس عطات مشهورة ألهاها في القسطنطينية عن الآب والإبن والروح القدس.

وفي سنة ٣٨١م لما اجتمع مجمع القسطنطينية المسكوني الثاني واشترك فيه غريغور يوس — كان الاتجاه السائد في المجمع أن يثبت غريغور يوس على القسطنطينية ولكن خوفاً من حدوث إنقسام بسبب إعتراض بعض الأساقفة المصريين، أعلن غريغور يوس إصراره على عدم قبول كرسي القسطنطينية، حياً بالسلام والوحدة، ثم ترك المدينة بعد أن ودع الأساقفة والشعب بخطاب مؤثر. واعتزل عاكفاً على الصلاة والتأمل طيلة السنوات الباقية من حياته وانتقل إلى راحة القديسين سنة ٣٩٠م وتعيّد له كيستنا في ٢٤ توت (الموافق ٤ أكتوبر)، والقداس الغريغوري المستعمل في كنيستنا منسوب إليه.

وقد ترك كنزاً ثميناً من الكتابات اللاهوتية غاية في الدقة والعمق الروحي مع مجموعة من الرسائل والعصاات الرائعة.

(٢١) غريغور يوس الكبير

(٥٤٠ — ٦٠٤م)

وُلد في روما سنة ٥٤٠م من عائلة غنية متدينة — وكان والده أحد أعضاء مجلس الشيوخ في روما. نشأ مثلاً للتقوى، نبغ في المطق والبلاغة والنحو، ودرس القانون. وحينما بلغ من العمر ٣٣ عاماً إختاره الإمبراطور «قاضياً للقضاة»، حيث تجلّت مبادؤه الدينية عملياً. ولما توفي والده جورديانوس، باع ممتلكاته الواسعة ووزع ثمنها على الفقراء وعلى الأعمال الخيرية وعلى تأسيس الأديرة، فأسس سبعة أديرة. ثم استقال من عمه وترهب وازداد في التقشف إلى حد كان سيؤذي لولا تدخل أصدقائه ليخففوا من شدته. وكان ذلك ربما من

الروح حتى قيل عنها أنها صارا «عقلاً واحداً في جسدين». ومكث في أثينا عشر سنوات، وفي طريق عودته مرّ على القسطنطينية وتعيّد هناك وكان في سن الثلاثين تقريباً. ثم عاد إلى وطنه نزينزا — وقصد أن يعيش حياة خلوة كراهب يعكف على العبادة ودراسة الكتاب المقدس الذي يحبه ويعشق قراءته كثيراً — ثم دعاه صديقه القديس باسيليوس ليعيش معه في الدير الذي أسسه في بنطس. فذهب إلى هناك حيث قضى ٣ سنوات عاد بعدها إلى نزينزا حيث سامه والده الأسقف قساً سنة ٣٦١م رغماً عنه بسبب إصرار الشعب وإلحاحه في طلب الرسامة الأمر الذي كان يتهرب منه غريغور يوس ويرتعد منه ويتحاشاه منذ سنوات.

وفي سنة ٣٧٢م سامه صديقه القديس باسيليوس رئيس أساقفة قيصريّة كبادوكية أسقفاً على سارنيا، ولكنه لم يدخل الإيبارشية الجديدة لأنها كانت موضع صراع بين باسيليوس والأسقف المجاور، فعاد غريغور يوس إلى خلوته في الجبال، ولكن والده الأسقف طلب مساعدته في نزينزا فعاد إلى هناك. واستمر يعاون والده في الخدمة حتى وفاته في سنة ٣٧٤م، ولحقته والدته «نونا» في نفس السنة إذ انتقلت وهي راكعة تتناول الأسرار المقدسة. وبعد وفاة والده صار هو الوارث الوحيد لكل الممتلكات إذ كان والده غنياً، فوزع كل شيء على الفقراء. وفي سنة ٣٧٥م اختفى متوحداً في سلوكية متعبداً في دير باسم القديسة تكلية، وفي سنة ٣٧٩م ألح عليه المؤمنون في القسطنطينية مع عدد من الأساقفة أن يأتي إلى القسطنطينية ليرعاها في ظروفها الصعبة وسط البدع والهرطقات فميس، بعد أن أحس بالروح القدس في داخله يحمله هذه المسؤولية.

ذهب إلى القسطنطينية بينما كانت البدع المختلفة مثل الأريوسية هي السائدة على شعب المدينة وكان المستقيمون الإيمان قليلين مردولين. فظل يعظ ويعلم بموهبة نادرة وإلهام إلهي، وبجهد طوال سنتين، حتى انتصر الإيمان في عاصمة الإمبراطورية وصارت الكاتدرائية الكبيرة تمتلئ بالسامعين من مختلف البدع الذين تحولوا إلى الإيمان المستقيم. وقد كان له أكبر الأثر

أهم أسباب إعتلال صحته باقي أيام حياته.

السكنون الذين غزوا بريطانيا في نهاية القرن الخامس.

وفي سنة ٥٧٨ م ساءم البابا مديكت الأول - مديكت وأرسله إلى القسطنطينية كمدوب عنه لدى بلاط الإمبراطور، حيث مكث عدة سنوات كتب أثناءها جزءاً من كتابه المشهور في شرح سفر أيوب. ثم عاد إلى روما حيث سُمح له بالرجوع إلى ديريه مع استمراره سكرتيراً للبابا، ثم صار رئيساً للدير وعاود نقشه وعبادته عدة سنوات.

ومن أهم آثار غريغور يوس الروحية هو كتبه المشهور في «الرعاية» وهو مليء بالتوجيهات اللازمة للأسقف في رعايته لشعبه، وهو بطل للأسقف كراع للنفوس قبل كل شيء - ويتكلم في هذا الكتاب كثيراً عن خطورة مسؤولية الراعي - ويدعو أنه نقل كثيراً من أفكار القديس غريغور يوس الثيولوجوس عن الرعاية.

وبعد حياة حافلة بالخدمة والجهاد ولشاط، رحل البابا غريغور يوس سنة ٦٠٤ م ودُفن بروما.

ولما انتقل البابا بلاجيوس الثاني استقر رأي الشعب ومجلس الشيوخ على اختياره للبابوية، فأرسل للإمبراطور يعتذر إلا أن الإمبراطور أصر الإحتيار فهرب غريغور يوس وسكنهم أحضروه إلى روما وسمي أسقفاً لروما سنة ٥٩٠ م.

(٢٢) الأسقف غريغور يوس (بالاماس) أسقف تسالونيك في القرن ١٤

وُلد في القسطنطينية سنة ١٢٩٦ م من أسرة غنية مثقفة ذات صلة وثيقة بالقصر الإمبراطوري، ونبغ في دراسة العلوم والفلسفة في سن مبكر، ولما نبغ من العمر ٢٠ عاماً، ترك العالم وهجر دراسة الفلسفة وترهب هو وشقيقاه في جبل آثوس في دير «بابيكون» ثم في دير «فاتوبيدي» وتلمذ، في حياة النسك، على يد راهب شيخ اسمه نيقوديموس. وأخذ يتدرب على ممارسة الصلاة الدائمة (ترديد اسم يسوع) حتى تقدم في هذا الطريق. وكانت هناك جماعة من الرهبان في جبل آثوس تسمى جماعة «الميزنخيا» أي «الهدوثيون»، يمارسون هذه الصلاة بطريقة خاصة، فسلك طريقهم وأصبح من زعمائها، وتولى الدفاع عن هذه الجماعة ابرهانية ضد من اتهموهم بالهرطقة.

وبعد سيامته استمر راهباً بقله وأحاط نفسه بالإكليروس بدلاً من الخدم العلمانيين وعاش بينهم عيشة الرهنة والنسك.

وكان يُعتبر قائداً روحياً قل أن يكون رئيساً إدارياً لكنيسة الرومانية. وقد اهتم جداً برفع مستوى الرهبان ولكهنة روحياً، ونظم الحياة الرهبانية، وقاوم السيمونية، وحرّم عادة دفع الأساقفة مبالغ من المال كعادة سنوية للبابا - وأصدر قراراً مجتمعياً بذلك سنة ٥٩٥ م.

وقد اشتهر جداً بحسناته الكبيرة وحبه للفقراء، فكان لا يتناول طعامه اليومي إلا إذا تأكد أن كميات من لأكل قد وُزعت على الفقراء. وكان لديه كشف دقيق بأسماء فقراء المدينة ليرسل لهم احتياجاتهم.

وقد ظهرت براعته اللاهوتية من خلال دفاعه وكتابات النسكية واللاهوتية فذاعت شهرته في جبل آثوس وفي أوساط كنيسة القسطنطينية.

ومن أهم الأعمال التي قام بها غريغور يوس إرساله بعثة تشييرية قوامها ٤٠٠ راهب من رهبان ديريه بقيادة لراهب «أوغسطينوس» في سنة ٥٩٦ م لإعادة نشر الإيمان المسيحي في الجزر البريطانية - وفعلاً كان لهذه الإرسالية الفضل في نشر المسيحية من جديد في بريطانيا بعد أن كادت المسيحية القديمة تتلاشى على يد

وأشهرهم من حاسديه بالهرطقة. وكان غريغور يوس بالاماس يتمسك بعدم إقحام الحكمة العالمية في أمور الحياة الروحية واللاهوتية. وهذا أحد الأسباب الهامة في الإضطهادات الكثيرة التي تعرض لها.

لموسكو. وخلف مؤلفات كثيرة، وتنيح سنة ١٨٦٧ م.

(٢٥) الأسقف كيرلس الأورشليمي (٣١٥ - ٣٨٦ م)

وُلد بأورشليم أو إحدى قرأها سنة ٣١٥ م. ويبدو من كتاباته أنه كان غزير العلم واسع الإطلاع. فقد كانت له دراية بعلوم الطبيعة والمنطق والطب وغيرها علاوة على دراسته المتقنة للكتاب المقدس.

سُمي شماساً سنة ٣٣٥ م ثم قسيساً سنة ٣٤٥ م. وبالرغم من حداثة القس كيرلس فقد عهد إليه الأسقف بمهمة تعليم الموعوظين لتأهيلهم للمعمودية، كما منحه امتياز الوعظ في أيام الآحاد والأعياد الذي لم يكن يُمنح عادة إلا لنوابع القسوس أمثال ذهبي الفم وأوغسطينوس.

سُمي أسقفاً للكرسي الأورشليمي سنة ٣٥١ م. وتوالت عليه التجارب فتني ثلاث مرات خلال المدة من (٣٥٧ - ٣٧٩ م). ولما عاد إلى كرسيه رعى شعبه في الثماني سنوات الباقية من حياته، حضر خلالها لجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية سنة ٣٨١ م. وتنيح سنة ٣٨٦ م. وتعيّد له كيستا في ٢٢ برمهاث. وله كتابات هامة في تعليم الموعوظين وفي الأسرار.

(٢٦) البابا كيرلس الإسكندري (٣٧٧ - ٤٤٤ م)

وُلد بالإسكندرية حوالي سنة ٣٧٧ م، وقد اعتنى بتربيته خاله ثيوفيلس المطريرك الثالث والعشرون فأرسله في شبابه المبكر إلى شيوخ البرية ليتشبع على أيديهم، فتني ٥ سنوات في جبل نتريا عاد بعدها إلى الإسكندرية حيث رسمه أنبا ثيوفيلس قسيساً.

وبدأ يشتهر كواعظ ومفسر مفسر للأسفار المقدسة. وفي سنة ٤١٢ م اختير بطريركاً للإسكندرية خلفاً خاله ثيوفيلس، فصار بذلك البابا الرابع والعشرين للكرسي المرقسي الإسكندري.

سُمي رئيس أساقفة لتسالونيكي عام ١٣٤٧ م. وتنيح في عام ١٣٥٩ م بعد أن ترك كتابات روحية ولاهوتية كثيرة. وهو يُعتبر أعظم لاهوتي في الكنيسة البيزنطية في العصور الوسطى.

(٢٣) الأسقف فيلوكسيوس المسحي (؟ - ٥٢٣ م)

من مشاهير القديسين السريان الذين عاشوا وكتبوا في لقرون السادس المسيحي، وكان معاصراً للقديس يعقوب السروجي.

وُلد في قرية «تحل» فيما بين الهرين - وترهب في دير قرتمين حيث درس آداب السريانية واليونانية واسعدوم ادينية. ثم انتقل إلى مدرسة الرها وأتم دراسته لعلوم الفلسفة واللاهوتية وسُمي قساً.

وهاجم النسطورية لكسر شوكة الدعاية القوية التي كانت تبثها المدرسة الفارسية في الرها لعقيدة أصحاب طبيعتين.

وسُمي أسقفاً على منبج (٤٨٥ - ٥١٩ م) وهي مدينة في الشمال الشرقي من حلب على نهر الفرات.

ونُفي إلى فيليبوبوليس في تراقيا، ثم حُبس في بيت في جبجرا أوقدت فيه النيران وشُدت عليه المنافذ فاختنق في حجرته ومات شهيد الإيمان سنة ٥٢٣ م.

(٢٤) فيلارت مطران موسكو (١٧٨٢ - ١٨٦٧ م)

سُمي الأول باسيل ميخائيلوفيتش دردزروف، وُلد بالقرب من موسكو سنة ١٧٨٢ م، وكان والده كاهن لكاثوليكية، والتحق بمدرسة اللاهوت حيث درس للاهوت والفلسفة. ثم عُين مدرساً للغتين العبرية واليونانية بمدرسة اللاهوت ثم أستاذاً للبلاغة.

وأحب حياة السك فترهب سنة ١٨٠٨ م ثم دُعي لتدريس بالمعاهد اللاهوتية الكبرى. ثم سُمي مطراناً

وفي سنة ٤١٩م ألغى الحرم الذي كان قد أصدره لبطريك ثيوفيلس ضد القديس يوحنا فم الذهب ووضع اسمه في عداد الآباء القديسين الذين تُذكر أسماؤهم في صلاة المجمع في كل قداس.

وقد ارتبط اسم البابا كيرلس الإسكندري بالدفاع عن الإيمان المستقيم في مواجهة بدعة نسطور يوس الذي أنكر وحدة شخصية المسيح الكلمة المتجسد وكان يرفض تنقيب العذراء «بوالدة الإله» «ثيوتوكس». وقد رأس القديس كيرلس الكبير مجمع أفسس المسكوني الثالث الذي حُكم فيه على تعليم نسطور يوس وتثبت الإيمان لأرثوذكسي ولذلك لُقّب «بعمود الدين».

وقد دوّن البابا كيرلس عمود الدين قداس مار مرقس الرسول وأضاف إليه بعض الصلوات، ولذلك عُرف فيما بعد باسم القداس الكيرلسي. وقد فسر بقديس كيرلس كثيراً من أسفار العهدين القديم والجديد، إذ كان ذا مقدرة خاصة في التفسير. وتظهر إتجاهاته الروحية واللاهوتية السليمة بنوع خاص في شرحه لإنجيل يوحنا.

وله كتابات هامة عن الثالوث الأقدس والتجسد الإلهي.

وقد تنيح سنة ٤٤٤م وله من العمر حوالي ٦٧ عاماً. وتعيّد له الكنيسة في ٣ أبيب.

(٢٧) أبنا مقاريوس الكبير

أب برية شيهيت (٣)

(٣٠٠ - ٣٩٠م)

وُلد سنة ٣٠٠م في شبشير منوفية وبشاً نشأة مسيحية، فسامه الأسقف شماساً. ولبّاه إلى العزلة إبطق إلى برية شيهيت بقيادة الشيرويم سنة ٣٣٠م، ثم زار أنبا أنطونيوس الذي ألبسه إسكيم الرهبنة.

(٣) أنصر كتاب «الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار» مؤلف.

وفي الأسقيط إلتف حوله كثيرون فأسس لهم ديراً سنة ٣٤٠م (في منطقة دير البراموس حالياً). ثم سيم قساً وبنى ديراً آخر (دير أبومقدس)، ونفاه الإمبراطور فالنس مع رؤساء الأديرة سنة ٣٧٥م إلى أسون. ولم يمكث هناك إلا سنة واحدة ثم عاد إلى ديره وتنيح سنة ٣٩٣م بعد أن تلمذ مجموعة كبيرة من مشاهير الرهبان. وتعيّد له الكنيسة في ٢٧ برمهاث. وله ٥٠ عظة معروفة باسمه، وله أقوال كثيرة في كتاب «أقوال الآباء» وفي بستان الرهبان وبعض رسائل للرهبان.

(٢٨) الأب نيلوس السينائي

(٩ - ٤٣٠م)

وُلد في غلاطية — كان حاكماً لمدينة القسطنطينية ثم استقال سنة ٣٩٠م، وذهب إلى سيناء هو وابنه ثيودولوس حيث ترهب هناك.

ولما هجم البربر على صحراء سيناء قبضوا على المتوحدين والرهبان، فبحا بأعحوبة. أما ابنه ثيودولوس فباعوه. فذهب نيلوس يبحث عن ولده فوجده عند أحد الأساقفة الذي اشتراه. ولما مكث نيلوس وابنه عند الأسقف مدة أختبر فيها تقواهما سامهما كاهنين. ثم عاد إلى سيناء واستأنفا تقشفاتها ثانية إلى أن تنيح بيوس سنة ٤٣٠م. وترك كتابات مختلفة في شتى المواضيع.

(٢٩) أبنا يوحنا الدرجي

(٦٢٥ - ٧٠٥م)

ويسمى بالثُلُمى، أو كليماكوس نسبةً إلى كتابه: «سلم السماء أو درجات الفضائل».

وُلد بفلسطين سنة ٦٢٥م. وترهب في دير بصور سيناء وهو ابن ست عشرة سنة. وبعد وفاة معلمه مرتيروس توحد في قلالية منفردة ومكث ٤٠ سنة يمارس التقشفات. ثم عيَّنه رئيساً لرهبان طور سيناء ومديراً لحياتهم الروحية. وبعد أربع سنوات ترك الرئاسة إلى خلوته ليستعد للموت. وتنيح في سن الثمانين.

ويُعتبر كتابه «سلم السماء» من أهم الكتب في

الأدب الرهباني.

(٣٠) الأب يوحنا الدمشقي (القرن الثامن)

وُلد في سوريا من عائلة مسيحية والتحق بخدمة اخيصة. ثم ترك العالم، ودخل دير مار سابا في فلسطين حيث تنبى بعد عام ٧٥٤م.

وحارب بدعة مقاومة الأيقونات في الفترة بين ٧٢٦ — ٧٢٧م وكتب عن ذلك ثلاث مقالات هامة. وله مؤلفات كثيرة، ويُعتبر من كبار معلمي كنيسة الروم في أنطاكية.

(٣١) الشيخ الروحاني (يوحنا سابا) (القرن السادس)

من نينوى — عاش في القرن السادس الميلادي وترهب في دير دلياثا (على الشاطئ الغربي لنهر الفرات).

من مشاهير الكتّاب السريان الأرثوذكس الذين كتبوا في النسيكيات، وله ٣٠ مقالة و٤٨ رسالة.

(٣٢) البطريرك يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ — ٤٠٧م)

وُلد بأنطاكية سنة ٣٤٧م من عائلة غنية. مات أبوه وهو صغير فربته أمه تربية صالحة. ورُشح لوظيفة قاضٍ، ولزهد في الدنيا توحد في أحد الأديرة وسكن معارة متفرغاً لدراسة الكتاب المقدس. ولما انحرفت صحته اضطر للرجوع إلى أنطاكية فسيم شماساً سنة ٣٨١م. ثم قسيساً سنة ٣٨٦م. ولما ذاع صيته لقوة وعطه وتأثيره سيم أسقفاً على القسطنطينية سنة ٣٩٧م.

ولشجاعته في الحق وبخ الملكة أهدوكسيا على عمالها فسفته ولكن زلزالاً حدث عند خروجه من القسطنطينية فخافت وأرجعته. وبعد مدة نفته ثانية إلى جبال القوز، ومن مشقة الطريق وسوء المعاملة تنبى

سنة ٤٠٧م، بعد أن خلف للكنيسة تراثاً رائعاً من العظات والتفاسير التي شملت معظم العهد الجديد وأجزاء كثيرة من العهد القديم. وهو يُعتبر من أقدرو عاظم الكيسة في التاريخ المسيحي كله.

(٣٣) الأب يوحنا كاسيان (١) (٣٥٠ — ٤٣٥م)

وُلد في المدة بين سنة ٣٥٠ و ٣٦٠م، ويُظن أنه من فلسطين أو شرق أوروبا. كان ناسكاً في دير بيت لحم، ولما ذاع صيت الرهبان الأقطاط في الأسقيط ذهب إليهم. فزار برية شبييت ثم عاد إلى بيت لحم التي لم يمكث فيها طويلاً بل بشوق زائد عاد إلى برية شبييت. وبعد ذلك ذهب إلى القسطنطينية. وانضم إلى المدافعين عن يوحنا ذهبي الفم الذي سام كاسيان كاهناً.

ولما زار كاسيان مرسليليا أسس دير القديس فيكتور (بقطر) وديراً آخر للراهبيات. وقد اعتُبر بذلك أول مؤسس للرهينة الغربية التي حمل أصولها من برية شبييت.

وقد ألف كتباً لاهوتية منها: «المواعظ» و «المعاهد» ضمّنها زبدة ما درسه في الصحراء على أيدي رهبان شبييت، وتنبى سنة ٤٣٥م.

(٣٤) الأب يوحنا كرونستادت (١٨٢٩ — ١٩٠٨م)

كاهن رعية متزوج عاش في روسيا في القرن التاسع عشر. وقد كرّس حياته كلها لخدمة الشعب في بذل وحب وتفاني منقطع النظير، فكان يواسيهم ويرعاهم ويشفي مرضاهم ويعالج مشاكلهم، وفي نفس الوقت كان رجل صلاة وألفة دائمة مع الله. ترك مؤلفات وعظية روحية كلها من خيرات حياته أهمها: «حياتي في المسيح» و «دقائق الحياة الروحية التأملية» و «سلام الله» و «مشاعر تخشعية» و «أحاديث عن الله الخالق

(١) لمعرفة أهمية يوحنا كاسيان في تاريخ الرهينة، أنظر كتاب: «الروحانية» و «مزمير السولعي» للمؤلف — الباب الرابع.

مقالات كثيرة في اللاهوت والتفسير. فاحتاره الطربك
للقيام بحملة قوية ضد الإرساليات الكاثوليكية التي
كانت تحاول بمجهود عظيم ضم الكنيسة القبطية إليها،
فقامت بطبع محاضر مجمع خلقيدونية فأخفقت في تحقيق
غرضها بل أيدت بها صحة دعوى الكنيسة القبطية
وبراءة البابا ديوسقورس.

وأرسل بابا روما رسالة إلى أنبا يوانس بطريرك
الإسكندرية يدعوه فيها للإلتصام إلى الكنيسة
الرومانية، فعهد البطريرك إلى أنبا يوساب بالرد عليها
وتفنيدها.

وله كتاب ثمين في العقائد والتعاليم القبطية اسمه
«سلاح المؤمن»، وله كتب أخرى نسبها إلى أنبا يوانس
البطريرك.

وقد اشتهر بالرحمة على العمراء والتقصيف، فلم يكن
يملك إلا ما يستر جسده. وما تبقى من مال لإبرشية
كان يرسله إلى الأديرة الفقيرة. كما اشتهر بخسن رعايته
سعه.

ولما مرض ذهب إلى ديره بالبرية، حيث أسلم
روحه الطاهرة في ٢٤ يناير سنة ١٨٢٦م بشيخوخة
صاحبة إذ عاش ٩١ سنة، وذكر في السنكسار.

ومدير العالم». وقد تُرجم كتابه «حياتي في المسيح» إلى
عدة لغات. وكان لشعب الروسي يُجلُّه ويقدمه حتى
قبل وفاته. وكانت له مواهب الكشف والنوة والشفاء.

ويُعتبر الأب يوحنا من رجال الصلاة الممدودين في
روسيا، وتسيح في العشرين من شهر ديسمبر سنة
١٩٠٨م، وقد حدثت معجزات كثيرة بعد موته
استقاله. وأعلنت الكنيسة الروسية خارج روسيا
الإعتراف بقداسته في أول نوفمبر سنة ١٩٦٤م تحت اسم
«مديس يوحنا كرونستادت المجايي».

(٣٥) أنبا يوساب الأبح

(١٧٣٥ - ١٨٢٦م)

وُلد يوسف بالسخيلة سنة ١٧٣٥م من عائلة غنية
محنة تقية وتعلم بكتاب القرية. ولجَّه للنسك تهرب
بدير أنبا أنطونيوس في سن الخامسة والعشرين. واشتهر
بالقراءة والبحث والعلم والتقوى، فاستدعاه البابا
يوانس الميومي (١٠٧) إلى العلية الطربكية حرة
الروم وسامه أسقفاً لكرسي جرجا وأخيم رغماً عن إرادته
سنة ١٧٩٦م، وسماه أنبا يوساب.

وقد بذل جهداً كبيراً في رد الشعب إلى أحضان
الكنيسة القبطية بعد أن استمالهم الإرساليات الرومانية
لكاثوليكية، وله مقالات في الرد على الكاثوليك، وله

□ □ □ □ □ □

إختصارات بعض الأسماء

الأب يوحنا ك.
الأسقف إغناطيوس ب.
الأسقف تيخون ز.
صاروفيم ص.
ديمترى ر.

الأب يوحنا من كرونستادت
الأسقف إغناطيوس من يانتشايوف
الأسقف تيخون من زادوست
الأب صاروفيم صاروفسكي
الأب دمترى من رستوف

فهرس أقوال الآباء

(الأرقام المذكورة هي أرقام الأقوال)

البابا أناسيوس الرسولي

٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥
٢٧٦ - ١٠٠٠ - ١٠٦٧ - ١٠٦٨ - ١٠٦٩ - ١٠٨١ - ١٠٩٤
١٠٩٩ - ١١٠٠ - ١١٠١ - ١١٣٩.

أبّا أرسانيوس الكبير

٨٦٨.

مار إسحق السرياني

١٠ - ٢٢ - ٣٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥
٦٦ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤
٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤
٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣
١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٠ - ١١١
١١٢ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩
١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦ - ١٢٧
١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٤
١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢
١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠
١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨
١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦
١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤
١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢
١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠
١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨
١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦
٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤
٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢
٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠
٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨
٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦
٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤
٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٢
٢٦٣ - ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠
٢٧١ - ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٨
٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦
٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٤
٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ - ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢
٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣٠٩ - ٣١٠
٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨
٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٦
٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣ - ٣٣٤
٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢
٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٤٧ - ٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠
٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٥ - ٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٨
٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٦٦
٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٠ - ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤
٣٧٥ - ٣٧٦ - ٣٧٧ - ٣٧٨ - ٣٧٩ - ٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٢
٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٨٨ - ٣٨٩ - ٣٩٠
٣٩١ - ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٤ - ٣٩٥ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨
٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤٠٤ - ٤٠٥ - ٤٠٦
٤٠٧ - ٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤١٣ - ٤١٤
٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٧ - ٤١٨ - ٤١٩ - ٤٢٠ - ٤٢١ - ٤٢٢
٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٢٥ - ٤٢٦ - ٤٢٧ - ٤٢٨ - ٤٢٩ - ٤٣٠
٤٣١ - ٤٣٢ - ٤٣٣ - ٤٣٤ - ٤٣٥ - ٤٣٦ - ٤٣٧ - ٤٣٨
٤٣٩ - ٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٢ - ٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥ - ٤٤٦
٤٤٧ - ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٠ - ٤٥١ - ٤٥٢ - ٤٥٣ - ٤٥٤
٤٥٥ - ٤٥٦ - ٤٥٧ - ٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٦٠ - ٤٦١ - ٤٦٢
٤٦٣ - ٤٦٤ - ٤٦٥ - ٤٦٦ - ٤٦٧ - ٤٦٨ - ٤٦٩ - ٤٧٠
٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٣ - ٤٧٤ - ٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٧ - ٤٧٨
٤٧٩ - ٤٨٠ - ٤٨١ - ٤٨٢ - ٤٨٣ - ٤٨٤ - ٤٨٥ - ٤٨٦
٤٨٧ - ٤٨٨ - ٤٨٩ - ٤٩٠ - ٤٩١ - ٤٩٢ - ٤٩٣ - ٤٩٤
٤٩٥ - ٤٩٦ - ٤٩٧ - ٤٩٨ - ٤٩٩ - ٥٠٠ - ٥٠١ - ٥٠٢
٥٠٣ - ٥٠٤ - ٥٠٥ - ٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٠
٥١١ - ٥١٢ - ٥١٣ - ٥١٤ - ٥١٥ - ٥١٦ - ٥١٧ - ٥١٨
٥١٩ - ٥٢٠ - ٥٢١ - ٥٢٢ - ٥٢٣ - ٥٢٤ - ٥٢٥ - ٥٢٦
٥٢٧ - ٥٢٨ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٣١ - ٥٣٢ - ٥٣٣ - ٥٣٤
٥٣٥ - ٥٣٦ - ٥٣٧ - ٥٣٨ - ٥٣٩ - ٥٤٠ - ٥٤١ - ٥٤٢
٥٤٣ - ٥٤٤ - ٥٤٥ - ٥٤٦ - ٥٤٧ - ٥٤٨ - ٥٤٩ - ٥٥٠
٥٥١ - ٥٥٢ - ٥٥٣ - ٥٥٤ - ٥٥٥ - ٥٥٦ - ٥٥٧ - ٥٥٨
٥٥٩ - ٥٦٠ - ٥٦١ - ٥٦٢ - ٥٦٣ - ٥٦٤ - ٥٦٥ - ٥٦٦
٥٦٧ - ٥٦٨ - ٥٦٩ - ٥٧٠ - ٥٧١ - ٥٧٢ - ٥٧٣ - ٥٧٤
٥٧٥ - ٥٧٦ - ٥٧٧ - ٥٧٨ - ٥٧٩ - ٥٨٠ - ٥٨١ - ٥٨٢
٥٨٣ - ٥٨٤ - ٥٨٥ - ٥٨٦ - ٥٨٧ - ٥٨٨ - ٥٨٩ - ٥٩٠
٥٩١ - ٥٩٢ - ٥٩٣ - ٥٩٤ - ٥٩٥ - ٥٩٦ - ٥٩٧ - ٥٩٨
٥٩٩ - ٦٠٠ - ٦٠١ - ٦٠٢ - ٦٠٣ - ٦٠٤ - ٦٠٥ - ٦٠٦
٦٠٧ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦١٠ - ٦١١ - ٦١٢ - ٦١٣ - ٦١٤
٦١٥ - ٦١٦ - ٦١٧ - ٦١٨ - ٦١٩ - ٦٢٠ - ٦٢١ - ٦٢٢
٦٢٣ - ٦٢٤ - ٦٢٥ - ٦٢٦ - ٦٢٧ - ٦٢٨ - ٦٢٩ - ٦٣٠
٦٣١ - ٦٣٢ - ٦٣٣ - ٦٣٤ - ٦٣٥ - ٦٣٦ - ٦٣٧ - ٦٣٨
٦٣٩ - ٦٤٠ - ٦٤١ - ٦٤٢ - ٦٤٣ - ٦٤٤ - ٦٤٥ - ٦٤٦
٦٤٧ - ٦٤٨ - ٦٤٩ - ٦٥٠ - ٦٥١ - ٦٥٢ - ٦٥٣ - ٦٥٤
٦٥٥ - ٦٥٦ - ٦٥٧ - ٦٥٨ - ٦٥٩ - ٦٦٠ - ٦٦١ - ٦٦٢
٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٦٥ - ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٦٨ - ٦٦٩ - ٦٧٠
٦٧١ - ٦٧٢ - ٦٧٣ - ٦٧٤ - ٦٧٥ - ٦٧٦ - ٦٧٧ - ٦٧٨
٦٧٩ - ٦٨٠ - ٦٨١ - ٦٨٢ - ٦٨٣ - ٦٨٤ - ٦٨٥ - ٦٨٦
٦٨٧ - ٦٨٨ - ٦٨٩ - ٦٩٠ - ٦٩١ - ٦٩٢ - ٦٩٣ - ٦٩٤
٦٩٥ - ٦٩٦ - ٦٩٧ - ٦٩٨ - ٦٩٩ - ٧٠٠ - ٧٠١ - ٧٠٢
٧٠٣ - ٧٠٤ - ٧٠٥ - ٧٠٦ - ٧٠٧ - ٧٠٨ - ٧٠٩ - ٧١٠
٧١١ - ٧١٢ - ٧١٣ - ٧١٤ - ٧١٥ - ٧١٦ - ٧١٧ - ٧١٨
٧١٩ - ٧٢٠ - ٧٢١ - ٧٢٢ - ٧٢٣ - ٧٢٤ - ٧٢٥ - ٧٢٦
٧٢٧ - ٧٢٨ - ٧٢٩ - ٧٣٠ - ٧٣١ - ٧٣٢ - ٧٣٣ - ٧٣٤
٧٣٥ - ٧٣٦ - ٧٣٧ - ٧٣٨ - ٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٤١ - ٧٤٢
٧٤٣ - ٧٤٤ - ٧٤٥ - ٧٤٦ - ٧٤٧ - ٧٤٨ - ٧٤٩ - ٧٥٠
٧٥١ - ٧٥٢ - ٧٥٣ - ٧٥٤ - ٧٥٥ - ٧٥٦ - ٧٥٧ - ٧٥٨
٧٥٩ - ٧٦٠ - ٧٦١ - ٧٦٢ - ٧٦٣ - ٧٦٤ - ٧٦٥ - ٧٦٦
٧٦٧ - ٧٦٨ - ٧٦٩ - ٧٧٠ - ٧٧١ - ٧٧٢ - ٧٧٣ - ٧٧٤
٧٧٥ - ٧٧٦ - ٧٧٧ - ٧٧٨ - ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨١ - ٧٨٢
٧٨٣ - ٧٨٤ - ٧٨٥ - ٧٨٦ - ٧٨٧ - ٧٨٨ - ٧٨٩ - ٧٩٠
٧٩١ - ٧٩٢ - ٧٩٣ - ٧٩٤ - ٧٩٥ - ٧٩٦ - ٧٩٧ - ٧٩٨
٧٩٩ - ٨٠٠ - ٨٠١ - ٨٠٢ - ٨٠٣ - ٨٠٤ - ٨٠٥ - ٨٠٦
٨٠٧ - ٨٠٨ - ٨٠٩ - ٨١٠ - ٨١١ - ٨١٢ - ٨١٣ - ٨١٤
٨١٥ - ٨١٦ - ٨١٧ - ٨١٨ - ٨١٩ - ٨٢٠ - ٨٢١ - ٨٢٢
٨٢٣ - ٨٢٤ - ٨٢٥ - ٨٢٦ - ٨٢٧ - ٨٢٨ - ٨٢٩ - ٨٣٠
٨٣١ - ٨٣٢ - ٨٣٣ - ٨٣٤ - ٨٣٥ - ٨٣٦ - ٨٣٧ - ٨٣٨
٨٣٩ - ٨٤٠ - ٨٤١ - ٨٤٢ - ٨٤٣ - ٨٤٤ - ٨٤٥ - ٨٤٦
٨٤٧ - ٨٤٨ - ٨٤٩ - ٨٥٠ - ٨٥١ - ٨٥٢ - ٨٥٣ - ٨٥٤
٨٥٥ - ٨٥٦ - ٨٥٧ - ٨٥٨ - ٨٥٩ - ٨٦٠ - ٨٦١ - ٨٦٢
٨٦٣ - ٨٦٤ - ٨٦٥ - ٨٦٦ - ٨٦٧ - ٨٦٨ - ٨٦٩ - ٨٧٠
٨٧١ - ٨٧٢ - ٨٧٣ - ٨٧٤ - ٨٧٥ - ٨٧٦ - ٨٧٧ - ٨٧٨
٨٧٩ - ٨٨٠ - ٨٨١ - ٨٨٢ - ٨٨٣ - ٨٨٤ - ٨٨٥ - ٨٨٦
٨٨٧ - ٨٨٨ - ٨٨٩ - ٨٩٠ - ٨٩١ - ٨٩٢ - ٨٩٣ - ٨٩٤
٨٩٥ - ٨٩٦ - ٨٩٧ - ٨٩٨ - ٨٩٩ - ٩٠٠ - ٩٠١ - ٩٠٢
٩٠٣ - ٩٠٤ - ٩٠٥ - ٩٠٦ - ٩٠٧ - ٩٠٨ - ٩٠٩ - ٩١٠
٩١١ - ٩١٢ - ٩١٣ - ٩١٤ - ٩١٥ - ٩١٦ - ٩١٧ - ٩١٨
٩١٩ - ٩٢٠ - ٩٢١ - ٩٢٢ - ٩٢٣ - ٩٢٤ - ٩٢٥ - ٩٢٦
٩٢٧ - ٩٢٨ - ٩٢٩ - ٩٣٠ - ٩٣١ - ٩٣٢ - ٩٣٣ - ٩٣٤
٩٣٥ - ٩٣٦ - ٩٣٧ - ٩٣٨ - ٩٣٩ - ٩٤٠ - ٩٤١ - ٩٤٢
٩٤٣ - ٩٤٤ - ٩٤٥ - ٩٤٦ - ٩٤٧ - ٩٤٨ - ٩٤٩ - ٩٥٠
٩٥١ - ٩٥٢ - ٩٥٣ - ٩٥٤ - ٩٥٥ - ٩٥٦ - ٩٥٧ - ٩٥٨
٩٥٩ - ٩٦٠ - ٩٦١ - ٩٦٢ - ٩٦٣ - ٩٦٤ - ٩٦٥ - ٩٦٦
٩٦٧ - ٩٦٨ - ٩٦٩ - ٩٧٠ - ٩٧١ - ٩٧٢ - ٩٧٣ - ٩٧٤
٩٧٥ - ٩٧٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨ - ٩٧٩ - ٩٨٠ - ٩٨١ - ٩٨٢
٩٨٣ - ٩٨٤ - ٩٨٥ - ٩٨٦ - ٩٨٧ - ٩٨٨ - ٩٨٩ - ٩٩٠
٩٩١ - ٩٩٢ - ٩٩٣ - ٩٩٤ - ٩٩٥ - ٩٩٦ - ٩٩٧ - ٩٩٨
٩٩٩ - ١٠٠٠ - ١٠٠١ - ١٠٠٢ - ١٠٠٣ - ١٠٠٤ - ١٠٠٥
١٠٠٦ - ١٠٠٧ - ١٠٠٨ - ١٠٠٩ - ١٠١٠ - ١٠١١ - ١٠١٢
١٠١٣ - ١٠١٤ - ١٠١٥ - ١٠١٦ - ١٠١٧ - ١٠١٨ - ١٠١٩
١٠٢٠ - ١٠٢١ - ١٠٢٢ - ١٠٢٣ - ١٠٢٤ - ١٠٢٥ - ١٠٢٦
١٠٢٧ - ١٠٢٨ - ١٠٢٩ - ١٠٣٠ - ١٠٣١ - ١٠٣٢ - ١٠٣٣
١٠٣٤ - ١٠٣٥ - ١٠٣٦ - ١٠٣٧ - ١٠٣٨ - ١٠٣٩ - ١٠٤٠
١٠٤١ - ١٠٤٢ - ١٠٤٣ - ١٠٤٤ - ١٠٤٥ - ١٠٤٦ - ١٠٤٧
١٠٤٨ - ١٠٤٩ - ١٠٥٠ - ١٠٥١ - ١٠٥٢ - ١٠٥٣ - ١٠٥٤
١٠٥٥ - ١٠٥٦ - ١٠٥٧ - ١٠٥٨ - ١٠٥٩ - ١٠٦٠ - ١٠٦١
١٠٦٢ - ١٠٦٣ - ١٠٦٤ - ١٠٦٥ - ١٠٦٦ - ١٠٦٧ - ١٠٦٨
١٠٦٩ - ١٠٧٠ - ١٠٧١ - ١٠٧٢ - ١٠٧٣ - ١٠٧٤ - ١٠٧٥
١٠٧٦ - ١٠٧٧ - ١٠٧٨ - ١٠٧٩ - ١٠٨٠ - ١٠٨١ - ١٠٨٢
١٠٨٣ - ١٠٨٤ - ١٠٨٥ - ١٠٨٦ - ١٠٨٧ - ١٠٨٨ - ١٠٨٩
١٠٩٠ - ١٠٩١ - ١٠٩٢ - ١٠٩٣ - ١٠٩٤ - ١٠٩٥ - ١٠٩٦
١٠٩٧ - ١٠٩٨ - ١٠٩٩ - ١١٠٠ - ١١٠١ - ١١٠٢ - ١١٠٣
١١٠٤ - ١١٠٥ - ١١٠٦ - ١١٠٧ - ١١٠٨ - ١١٠٩ - ١١١٠
١١١١ - ١١١٢ - ١١١٣ - ١١١٤ - ١١١٥ - ١١١٦ - ١١١٧
١١١٨ - ١١١٩ - ١١٢٠ - ١١٢١ - ١١٢٢ - ١١٢٣ - ١١٢٤
١١٢٥ - ١١٢٦ - ١١٢٧ - ١١٢٨ - ١١٢٩ - ١١٣٠ - ١١٣١
١١٣٢ - ١١٣٣ - ١١٣٤ - ١١٣٥ - ١١٣٦ - ١١٣٧ - ١١٣٨
١١٣٩ - ١١٤٠ - ١١٤١ - ١١٤٢ - ١١٤٣ - ١١٤٤ - ١١٤٥
١١٤٦ - ١١٤٧ - ١١٤٨ - ١١٤٩ - ١١٥٠ - ١١٥١ - ١١٥٢
١١٥٣ - ١١٥٤ - ١١٥٥ - ١١٥٦ - ١١٥٧ - ١١٥٨ - ١١٥٩
١١٦٠ - ١١٦١ - ١١٦٢ - ١١٦٣ - ١١٦٤ - ١١٦٥ - ١١٦٦
١١٦٧ - ١١٦٨ - ١١٦٩ - ١١٧٠ - ١١٧١ - ١١٧٢ - ١١٧٣
١١٧٤ - ١١٧٥ - ١١٧٦ - ١١٧٧ - ١١٧٨ - ١١٧٩ - ١١٨٠
١١٨١ - ١١٨٢ - ١١٨٣ - ١١٨٤ - ١١٨٥ - ١١٨٦ - ١١٨٧
١١٨٨ - ١١٨٩ - ١١٩٠ - ١١٩١ - ١١٩٢ - ١١٩٣ - ١١٩٤
١١٩٥ - ١١٩٦ - ١١٩٧ - ١١٩٨ - ١١٩٩ - ١٢٠٠ - ١٢٠١
١٢٠٢ - ١٢٠٣ - ١٢٠٤ - ١٢٠٥ - ١٢٠٦ - ١٢٠٧ - ١٢٠٨
١٢٠٩ - ١٢١٠ - ١٢١١ - ١٢١٢ - ١٢١٣ - ١٢١٤ - ١٢١٥
١٢١٦ - ١٢١٧ - ١٢١٨ - ١٢١٩ - ١٢٢٠ - ١٢٢١ - ١٢٢٢
١٢٢٣ - ١٢٢٤ - ١٢٢٥ - ١٢٢٦ - ١٢٢٧ - ١٢٢٨ - ١٢٢٩
١٢٣٠ - ١٢٣١ - ١٢٣٢ - ١٢٣٣ - ١٢٣٤ - ١٢٣٥ - ١٢٣٦
١٢٣٧ - ١٢٣٨ - ١٢٣٩ - ١٢٤٠ - ١٢٤١ - ١٢٤٢ - ١٢٤٣
١٢٤٤ - ١٢٤٥ - ١٢٤٦ - ١٢٤٧ - ١٢٤٨ - ١٢٤٩ - ١٢٥٠
١٢٥١ - ١٢٥٢ - ١٢٥٣ - ١٢٥٤ - ١٢٥٥ - ١٢٥٦ - ١٢٥٧
١٢٥٨ - ١٢٥٩ - ١٢٦٠ - ١٢٦١ - ١٢٦٢ - ١٢٦٣ - ١٢٦٤
١٢٦٥ - ١٢٦٦ - ١٢٦٧ - ١٢٦٨ - ١٢٦٩ - ١٢٧٠ - ١٢٧١
١٢٧٢ - ١٢٧٣ - ١٢٧٤ - ١٢٧٥ - ١٢٧٦ - ١٢٧٧ - ١٢٧٨
١٢٧٩ - ١٢٨٠ - ١٢٨١ - ١٢٨٢ - ١٢٨٣ - ١٢٨٤ - ١٢٨٥
١٢٨٦ - ١٢٨٧ - ١٢٨٨ - ١٢٨٩ - ١٢٩٠ - ١٢٩١ - ١٢٩٢
١٢٩٣ - ١٢٩٤ - ١٢٩٥ - ١٢٩٦ - ١٢٩٧ - ١٢٩٨ - ١٢٩٩
١٣٠٠ - ١٣٠١ - ١٣٠٢ - ١٣٠٣ - ١٣٠٤ - ١٣٠٥ - ١٣٠٦
١٣٠٧ - ١٣٠٨ - ١٣٠٩ - ١٣١٠ - ١٣١١ - ١٣١٢ - ١٣١٣
١٣١٤ - ١٣١٥ - ١٣١٦ - ١٣١٧ - ١٣١٨ - ١٣١٩ - ١٣٢٠
١٣٢١ - ١٣٢٢ - ١٣٢٣ - ١٣٢٤ - ١٣٢٥ - ١٣٢٦ - ١٣٢٧
١٣٢٨ - ١٣٢٩ - ١٣٣٠ - ١٣٣١ - ١٣٣٢ - ١٣٣٣ - ١٣٣٤
١٣٣٥ - ١٣٣٦ - ١٣٣٧ - ١٣٣٨ - ١٣٣٩ - ١٣٤٠ - ١٣٤١
١٣٤٢ - ١٣٤٣ - ١٣٤٤ - ١٣٤٥ - ١٣٤٦ - ١٣٤٧ - ١٣٤٨
١٣٤٩ - ١٣٥٠ - ١٣٥١ - ١٣٥٢ - ١٣٥٣ - ١٣٥٤ - ١٣٥٥
١٣٥٦ - ١٣٥٧ - ١٣٥٨ - ١٣٥٩ - ١٣٦٠ - ١٣٦١ - ١٣٦٢
١٣٦٣ - ١٣٦٤ - ١٣٦٥ - ١٣٦٦ - ١٣٦٧ - ١٣٦٨ - ١٣٦٩
١٣٧٠ - ١٣٧١ - ١٣٧٢ - ١٣٧٣ - ١٣٧٤ - ١٣٧٥ - ١٣٧٦
١٣٧٧ - ١٣٧٨ - ١٣٧٩ - ١٣٨٠ - ١٣٨١ - ١٣٨٢ - ١٣٨٣
١٣٨٤ - ١٣٨٥ - ١٣٨٦ - ١٣٨٧ - ١٣٨٨ - ١٣٨٩ - ١٣٩٠
١٣٩١ - ١٣٩٢ - ١٣٩٣ - ١٣٩٤ - ١٣٩٥ - ١٣٩٦ - ١٣٩٧
١٣٩٨ - ١٣٩٩ - ١٤٠٠ - ١٤٠١ - ١٤٠٢ - ١٤٠٣ - ١٤٠٤
١٤٠٥ - ١٤٠٦ - ١٤٠٧ - ١٤٠٨ - ١٤٠٩ - ١٤١٠ - ١٤١١
١٤١٢ - ١٤١٣ - ١٤١٤ - ١٤١٥ - ١٤١٦ - ١٤١٧ - ١٤١٨
١٤١٩ - ١٤٢٠ - ١٤٢١ - ١٤٢٢ - ١٤٢٣ - ١٤٢٤ - ١٤٢٥
١٤٢٦ - ١٤٢٧ - ١٤٢٨ - ١٤٢٩ - ١٤٣٠ - ١٤٣١ - ١٤٣٢
١٤٣٣ - ١٤٣٤ - ١٤٣٥ - ١٤٣٦ - ١٤٣٧ - ١٤٣٨ - ١٤٣٩
١٤٤٠ - ١٤٤١ - ١٤٤٢ - ١٤٤٣ - ١٤٤٤ - ١٤٤٥ - ١٤٤٦

٣٨٩ — ٣٩٠ — ٣٩١ — ٣٩٨ — ٣٩٩ — ٤٠٠ — ٤٠٣ — ١٠٦٤

إغناطيوس (أو إغناطيوس) الأنطاكي

٢٦٦ — ١٠٣٩

الأسقف إغناطيوس بر يانتشانينوف

٧ — ٣١ — ٣٤ — ٤١ — ٤٢ — ٦٩ — ٤٨٣ — ٦٨٩ — ٦٩٠ — ٦٩٢ — ٦٩٣ — ٧٧٤ — ٧٧٥ — ٨٨٩ — ٨٩٣ — ٨٩٤ — ٩٠٩ — ٩١٠ — ٩١١ — ٩١٢ — ٩٢٥ — ٩٢٦ — ٩٧٢ — ١٠٤٥ — ١٠٥٥ — ١٠٥٦ — ١٢١١

مار أفرام السرياني

٣٦ — ٤٧ — ٤٧٩ — ٧٦٦ — ٧٦٧ — ٩٢١ — ٩٢٢ — ١٠٥٧ — ١٠٥٨ — ١٠٨٣ — ١١٣٨

العلامة إكليمندس الإسكندري

٢٦٨

الأسقف أمبروسيوس

١٠٧٤ — ١٠٧٩

أناتوليوس

٩٠٥ — ٩٠٦ — ٩٠٧

الأب أندريانوس

٤٨٨

أبّا أنطونيوس الكبير

٦ — ٤١ — ٢٠٤ — ٢٠٥ — ٢٢٤ — ٣٠٩ — ٣١١ — ٣١٢ — ٣١٣ — ٣١٨ — ٣٢١ — ٣٢٢ — ٣٣٤ — ٣٥١ — ٤٥٤ — ٤٥٥ — ٤٥٦ — ٥١٩ — ٥٢٠ — ٦٠٧ — ٦٠٨ — ٦٠٩ — ٦١٠ — ٦١١ — ٦١٢ — ٦١١ — ٧١٢ — ٨٢٦ — ٨٢٥ — ٨٢٦ — ٨٦٧ — ١٠١٤ — ١٠١٥ — ١٠٢٥ — ١٠٢٦ — ١٠٢٧ — ١٠٢٨ — ١٠٢٩ — ١٠٣٠ — ١٠٣١ — ١٠٣٢ — ١٠٩٢ — ١٠٩٣

الشهيد إيرينيوس أسقف ليون

٢٠٩ — ٢١٠ — ٢١١ — ٢١٢ — ٢١٣ — ٢١٤ — ٢١٥ — ٢١٦ — ٢١٧ — ٢١٨ — ٢١٩ — ٢٣٢ — ٢٦٧

الأسقف إيلاري

١٠٨ — ٦٩٤

باسيليوس الكبير رئيس الأساقفة

١٥ — ١٦ — ١٧ — ١٨ — ١٩ — ٢٠ — ٢١ — ٢٦ — ٢٨ — ١٢٢ — ٤١٢ — ٤١٣ — ٤١٤ — ٤١٥ — ٤١٦ — ٤٦٢ — ٤٦٣ — ٤٦٤ — ٦٥٥ — ٦٩٨ — ٦٩٩ — ٧٠٠ — ٧٠١ — ٧٤٥ — ٧٤٦ — ٧٦٤ — ٧٦٨ — ٧٦٩ — ٨٠٨ — ٨٠٩ — ٩٩٢ — ٩٩٣ — ٩٩٤ — ٩٩٥ — ٩٩٦ — ٩٩٧ — ١١٨٦ — ١١٩٦

الأسقف بالليديوس

١٠٦٢

الأسقف بونين

١٠٤٦ — ١٠٥٤

العلامة تروتوليان

٧٠ — ١٠٦٥ — ١٠٧٠ — ١٠٨٠

الأسقف تيوخون زادونسكي

٣٢ — ٤٧١ — ٦٩٦

الأسقف ثيوفان الباسك

١٠٥ — ١٠٦ — ١٠٧ — ١٨٠ — ٥٢١ — ٥٤٣ — ٨٧٦ — ٨٧٧ — ٨٧٨ — ٨٧٩ — ٨٨٠ — ٨٩٥ — ٨٩٦ — ٨٩٨ — ٨٩٩ — ٩٠١ — ٩٠٢ — ٩٠٣ — ٩٠٨ — ١١٧٠ — ١١٧١ — ١١٨٣ — ١١٩٠

الأسقف ثيوفيلس

٢٠٦ — ٢٠٧ — ٢٠٨

الأسقف حزقيوس الأورشليمي

٧٧٠ — ٧٧٨ — ٧٨١ — ٧٨٢ — ٧٨٣ — ٧٩٣ — ٨٨٣ — ٨٨٤ — ٨٨٥

الأب ديمتري من رستوف

١٠٤٧

ديوناسيوس الأريوباغي

١٧١ — ١٩٢ — ١٩٣ — ٢٥٩ — ٢٦٠

أبّا سمعان العمودي

٤١٧

سمعان (المتكلم حديثاً بالإلهيات)

٧٦٥-٨٩٠.

الأب سيراقيم صاروفسكي

١٦٧-٢٣١-٣٥٦-٤٧٦-٤٨٢-٧٦٣-٨٨١-٩٢٧-٩٧١-١١٣٣.

صوفرونيوس

١٠٧٨.

غريغور يوس الثيولوجوس

٨٦٩-٨٧٠-٨٧١-٨٧٢-٨٧٣.

غريغور يوس الكبير

١٢٠-١٤٨-١٤٩-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٣-
 ١٥٤-١٥٥-١٥٦-١٥٧-١٥٨-١٧٢-١٩٩-٢٢٥-
 ٢٣٠-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٦-٢٤٧-٢٤٨-٢٤٩-٢٥٠-
 ٢٥١-٢٥٢-٢٥٣-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦-٢٦٤-٢٨٠-
 ٣١٤-٣١٥-٣٢٠-٣٢٧-٣٢٨-٣٢٩-٣٣٠-٣٤٧-
 ٣٤٨-٣٦٦-٣٦٧-٣٦٨-٣٦٩-٣٧٠-٣٧١-٣٧٢-
 ٣٧٣-٣٧٤-٣٧٥-٣٧٦-٣٧٧-٣٧٨-٣٧٩-٣٨٠-
 ٣٨١-٣٨٢-٣٨٣-٣٨٤-٣٨٥-٣٨٦-٣٨٧-٣٩٢-
 ٣٩٣-٣٩٤-٣٩٥-٤٠١-٤٠٢-٤٥٦-٤٥٧-٤٩٥-
 ٧٧٩-٨٩٧-٩١٣.

الأسقف غريغور يوس بالاماس

٨٣٣-٨٣٤.

غريغور يوس (من سينا)

٣٣

فيلارث مطران موسكو

٥٥٤-١٠٥٢-١٠٨٢-١١٢٧.

الأسقف فيلوكسينوس

٣٠٣.

كالليستوس بطريرك القسطنطينية

٨٨٨-٨٩٢-٩١٤.

كير يانوس أسقف قرطاجنة

١٠٧١-١٠٧٢.

البابا كيرلس الإسكندري

٢٢٠-٢٢١-٢٢٢-٢٢٣.

الأسقف كيرلس الأورشليمي

١٠٨٩-١٠٩٠-١٠٩١.

لكثانتيسوس

١٠٦٥.

أثا مقاريوس الكبير

١-٤-٢٧-٣٠-٧١-٧٢-٧٣-٧٤-٧٥-
 ١٠٠-١٠١-١٠٢-١٠٣-١٢٥-١٣٩-١٤٠-١٤١-
 ١٧٣-٢٦٥-٢٧٧-٢٧٨-٢٨١-٢٨٢-٢٨٣-٢٨٤-
 ٢٨٥-٢٨٦-٢٨٧-٢٨٨-٢٨٩-٣٠٤-٣٠٥-٣٠٦-
 ٣٠٧-٣٠٨-٣١٩-٣٢٣-٣٢٤-٣٢٥-٣٣٣-٣٣٩-
 ٣٤٠-٣٤١-٣٤٢-٣٤٣-٣٤٤-٣٤٥-٣٤٦-٣٥٢-٣٥٣-٣٥٤-
 ٣٥٥-٣٥٦-٣٥٧-٣٥٨-٣٥٩-٣٦٠-٣٦١-٣٦٢-٣٦٣-٣٦٤-
 ٣٦٥-٣٦٦-٣٦٧-٣٦٨-٣٦٩-٣٧٠-٣٧١-٣٧٢-
 ٣٧٣-٣٧٤-٣٧٥-٣٧٦-٣٧٧-٣٧٨-٣٧٩-٣٨٠-
 ٣٨١-٣٨٢-٣٨٣-٣٨٤-٣٨٥-٣٨٦-٣٨٧-٣٨٨-٣٨٩-
 ٣٩٠-٣٩١-٣٩٢-٣٩٣-٣٩٤-٣٩٥-٣٩٦-٣٩٧-٣٩٨-
 ٣٩٩-٤٠٠-٤٠١-٤٠٢-٤٠٣-٤٠٤-٤٠٥-٤٠٦-٤٠٧-٤٠٨-
 ٤٠٩-٤١٠-٤١١-٤١٢-٤١٣-٤١٤-٤١٥-٤١٦-٤١٧-٤١٨-٤١٩-٤٢٠-٤٢١-٤٢٢-٤٢٣-٤٢٤-٤٢٥-٤٢٦-٤٢٧-٤٢٨-٤٢٩-٤٣٠-٤٣١-٤٣٢-٤٣٣-٤٣٤-٤٣٥-٤٣٦-٤٣٧-٤٣٨-٤٣٩-٤٤٠-٤٤١-٤٤٢-٤٤٣-٤٤٤-٤٤٥-٤٤٦-٤٤٧-٤٤٨-٤٤٩-٤٥٠-٤٥١-٤٥٢-٤٥٣-٤٥٤-٤٥٥-٤٥٦-٤٥٧-٤٥٨-٤٥٩-٤٦٠-٤٦١-٤٦٢-٤٦٣-٤٦٤-٤٦٥-٤٦٦-٤٦٧-٤٦٨-٤٦٩-٤٧٠-٤٧١-٤٧٢-٤٧٣-٤٧٤-٤٧٥-٤٧٦-٤٧٧-٤٧٨-٤٧٩-٤٨٠-٤٨١-٤٨٢-٤٨٣-٤٨٤-٤٨٥-٤٨٦-٤٨٧-٤٨٨-٤٨٩-٤٩٠-٤٩١-٤٩٢-٤٩٣-٤٩٤-٤٩٥-٤٩٦-٤٩٧-٤٩٨-٤٩٩-٥٠٠-٥٠١-٥٠٢-٥٠٣-٥٠٤-٥٠٥-٥٠٦-٥٠٧-٥٠٨-٥٠٩-٥١٠-٥١١-٥١٢-٥١٣-٥١٤-٥١٥-٥١٦-٥١٧-٥١٨-٥١٩-٥٢٠-٥٢١-٥٢٢-٥٢٣-٥٢٤-٥٢٥-٥٢٦-٥٢٧-٥٢٨-٥٢٩-٥٣٠-٥٣١-٥٣٢-٥٣٣-٥٣٤-٥٣٥-٥٣٦-٥٣٧-٥٣٨-٥٣٩-٥٤٠-٥٤١-٥٤٢-٥٤٣-٥٤٤-٥٤٥-٥٤٦-٥٤٧-٥٤٨-٥٤٩-٥٥٠-٥٥١-٥٥٢-٥٥٣-٥٥٤-٥٥٥-٥٥٦-٥٥٧-٥٥٨-٥٥٩-٥٦٠-٥٦١-٥٦٢-٥٦٣-٥٦٤-٥٦٥-٥٦٦-٥٦٧-٥٦٨-٥٦٩-٥٧٠-٥٧١-٥٧٢-٥٧٣-٥٧٤-٥٧٥-٥٧٦-٥٧٧-٥٧٨-٥٧٩-٥٨٠-٥٨١-٥٨٢-٥٨٣-٥٨٤-٥٨٥-٥٨٦-٥٨٧-٥٨٨-٥٨٩-٥٩٠-٥٩١-٥٩٢-٥٩٣-٥٩٤-٥٩٥-٥٩٦-٥٩٧-٥٩٨-٥٩٩-٦٠٠-٦٠١-٦٠٢-٦٠٣-٦٠٤-٦٠٥-٦٠٦-٦٠٧-٦٠٨-٦٠٩-٦١٠-٦١١-٦١٢-٦١٣-٦١٤-٦١٥-٦١٦-٦١٧-٦١٨-٦١٩-٦٢٠-٦٢١-٦٢٢-٦٢٣-٦٢٤-٦٢٥-٦٢٦-٦٢٧-٦٢٨-٦٢٩-٦٣٠-٦٣١-٦٣٢-٦٣٣-٦٣٤-٦٣٥-٦٣٦-٦٣٧-٦٣٨-٦٣٩-٦٤٠-٦٤١-٦٤٢-٦٤٣-٦٤٤-٦٤٥-٦٤٦-٦٤٧-٦٤٨-٦٤٩-٦٥٠-٦٥١-٦٥٢-٦٥٣-٦٥٤-٦٥٥-٦٥٦-٦٥٧-٦٥٨-٦٥٩-٦٦٠-٦٦١-٦٦٢-٦٦٣-٦٦٤-٦٦٥-٦٦٦-٦٦٧-٦٦٨-٦٦٩-٦٧٠-٦٧١-٦٧٢-٦٧٣-٦٧٤-٦٧٥-٦٧٦-٦٧٧-٦٧٨-٦٧٩-٦٨٠-٦٨١-٦٨٢-٦٨٣-٦٨٤-٦٨٥-٦٨٦-٦٨٧-٦٨٨-٦٨٩-٦٩٠-٦٩١-٦٩٢-٦٩٣-٦٩٤-٦٩٥-٦٩٦-٦٩٧-٦٩٨-٦٩٩-٧٠٠-٧٠١-٧٠٢-٧٠٣-٧٠٤-٧٠٥-٧٠٦-٧٠٧-٧٠٨-٧٠٩-٧١٠-٧١١-٧١٢-٧١٣-٧١٤-٧١٥-٧١٦-٧١٧-٧١٨-٧١٩-٧٢٠-٧٢١-٧٢٢-٧٢٣-٧٢٤-٧٢٥-٧٢٦-٧٢٧-٧٢٨-٧٢٩-٧٣٠-٧٣١-٧٣٢-٧٣٣-٧٣٤-٧٣٥-٧٣٦-٧٣٧-٧٣٨-٧٣٩-٧٤٠-٧٤١-٧٤٢-٧٤٣-٧٤٤-٧٤٥-٧٤٦-٧٤٧-٧٤٨-٧٤٩-٧٥٠-٧٥١-٧٥٢-٧٥٣-٧٥٤-٧٥٥-٧٥٦-٧٥٧-٧٥٨-٧٥٩-٧٦٠-٧٦١-٧٦٢-٧٦٣-٧٦٤-٧٦٥-٧٦٦-٧٦٧-٧٦٨-٧٦٩-٧٧٠-٧٧١-٧٧٢-٧٧٣-٧٧٤-٧٧٥-٧٧٦-٧٧٧-٧٧٨-٧٧٩-٧٨٠-٧٨١-٧٨٢-٧٨٣-٧٨٤-٧٨٥-٧٨٦-٧٨٧-٧٨٨-٧٨٩-٧٩٠-٧٩١-٧٩٢-٧٩٣-٧٩٤-٧٩٥-٧٩٦-٧٩٧-٧٩٨-٧٩٩-٨٠٠-٨٠١-٨٠٢-٨٠٣-٨٠٤-٨٠٥-٨٠٦-٨٠٧-٨٠٨-٨٠٩-٨١٠-٨١١-٨١٢-٨١٣-٨١٤-٨١٥-٨١٦-٨١٧-٨١٨-٨١٩-٨٢٠-٨٢١-٨٢٢-٨٢٣-٨٢٤-٨٢٥-٨٢٦-٨٢٧-٨٢٨-٨٢٩-٨٣٠-٨٣١-٨٣٢-٨٣٣-٨٣٤-٨٣٥-٨٣٦-٨٣٧-٨٣٨-٨٣٩-٨٤٠-٨٤١-٨٤٢-٨٤٣-٨٤٤-٨٤٥-٨٤٦-٨٤٧-٨٤٨-٨٤٩-٨٥٠-٨٥١-٨٥٢-٨٥٣-٨٥٤-٨٥٥-٨٥٦-٨٥٧-٨٥٨-٨٥٩-٨٦٠-٨٦١-٨٦٢-٨٦٣-٨٦٤-٨٦٥-٨٦٦-٨٦٧-٨٦٨-٨٦٩-٨٧٠-٨٧١-٨٧٢-٨٧٣-٨٧٤-٨٧٥-٨٧٦-٨٧٧-٨٧٨-٨٧٩-٨٨٠-٨٨١-٨٨٢-٨٨٣-٨٨٤-٨٨٥-٨٨٦-٨٨٧-٨٨٨-٨٨٩-٨٩٠-٨٩١-٨٩٢-٨٩٣-٨٩٤-٨٩٥-٨٩٦-٨٩٧-٨٩٨-٨٩٩-٩٠٠-٩٠١-٩٠٢-٩٠٣-٩٠٤-٩٠٥-٩٠٦-٩٠٧-٩٠٨-٩٠٩-٩١٠-٩١١-٩١٢-٩١٣-٩١٤-٩١٥-٩١٦-٩١٧-٩١٨-٩١٩-٩٢٠-٩٢١-٩٢٢-٩٢٣-٩٢٤-٩٢٥-٩٢٦-٩٢٧-٩٢٨-٩٢٩-٩٣٠-٩٣١-٩٣٢-٩٣٣-٩٣٤-٩٣٥-٩٣٦-٩٣٧-٩٣٨-٩٣٩-٩٤٠-٩٤١-٩٤٢-٩٤٣-٩٤٤-٩٤٥-٩٤٦-٩٤٧-٩٤٨-٩٤٩-٩٥٠-٩٥١-٩٥٢-٩٥٣-٩٥٤-٩٥٥-٩٥٦-٩٥٧-٩٥٨-٩٥٩-٩٦٠-٩٦١-٩٦٢-٩٦٣-٩٦٤-٩٦٥-٩٦٦-٩٦٧-٩٦٨-٩٦٩-٩٧٠-٩٧١-٩٧٢-٩٧٣-٩٧٤-٩٧٥-٩٧٦-٩٧٧-٩٧٨-٩٧٩-٩٨٠-٩٨١-٩٨٢-٩٨٣-٩٨٤-٩٨٥-٩٨٦-٩٨٧-٩٨٨-٩٨٩-٩٩٠-٩٩١-٩٩٢-٩٩٣-٩٩٤-٩٩٥-٩٩٦-٩٩٧-٩٩٨-٩٩٩-١٠٠٠-١٠٠١-١٠٠٢-١٠٠٣-١٠٠٤-١٠٠٥-١٠٠٦-١٠٠٧-١٠٠٨-١٠٠٩-١٠١٠-١٠١١-١٠١٢-١٠١٣-١٠١٤-١٠١٥-١٠١٦-١٠١٧-١٠١٨-١٠١٩-١٠٢٠-١٠٢١-١٠٢٢-١٠٢٣-١٠٢٤-١٠٢٥-١٠٢٦-١٠٢٧-١٠٢٨-١٠٢٩-١٠٣٠-١٠٣١-١٠٣٢-١٠٣٣-١٠٣٤-١٠٣٥-١٠٣٦-١٠٣٧-١٠٣٨-١٠٣٩-١٠٤٠-١٠٤١-١٠٤٢-١٠٤٣-١٠٤٤-١٠٤٥-١٠٤٦-١٠٤٧-١٠٤٨-١٠٤٩-١٠٥٠-١٠٥١-١٠٥٢-١٠٥٣-١٠٥٤-١٠٥٥-١٠٥٦-١٠٥٧-١٠٥٨-١٠٥٩-١٠٦٠-١٠٦١-١٠٦٢-١٠٦٣-١٠٦٤-١٠٦٥-١٠٦٦-١٠٦٧-١٠٦٨-١٠٦٩-١٠٧٠-١٠٧١-١٠٧٢-١٠٧٣-١٠٧٤-١٠٧٥-١٠٧٦-١٠٧٧-١٠٧٨-١٠٧٩-١٠٨٠-١٠٨١-١٠٨٢-١٠٨٣-١٠٨٤-١٠٨٥-١٠٨٦-١٠٨٧-١٠٨٨-١٠٨٩-١٠٩٠-١٠٩١-١٠٩٢-١٠٩٣-١٠٩٤-١٠٩٥-١٠٩٦-١٠٩٧-١٠٩٨-١٠٩٩-١١٠٠-١١٠١-١١٠٢-١١٠٣-١١٠٤-١١٠٥-١١٠٦-١١٠٧-١١٠٨-١١٠٩-١١١٠-١١١١-١١١٢-١١١٣-١١١٤-١١١٥-١١١٦-١١١٧-١١١٨-١١١٩-١١٢٠-١١٢١-١١٢٢-١١٢٣-١١٢٤-١١٢٥-١١٢٦-١١٢٧-١١٢٨-١١٢٩-١١٣٠-١١٣١-١١٣٢-١١٣٣-١١٣٤-١١٣٥-١١٣٦-١١٣٧-١١٣٨-١١٣٩-١١٤٠-١١٤١-١١٤٢-١١٤٣-١١٤٤-١١٤٥-١١٤٦-١١٤٧-١١٤٨-١١٤٩-١١٥٠-١١٥١-١١٥٢-١١٥٣-١١٥٤-١١٥٥-١١٥٦-١١٥٧-١١٥٨-١١٥٩-١١٦٠-١١٦١-١١٦٢-١١٦٣-١١٦٤-١١٦٥-١١٦٦-١١٦٧-١١٦٨-١١٦٩-١١٧٠-١١٧١-١١٧٢-١١٧٣-١١٧٤-١١٧٥-١١٧٦-١١٧٧-١١٧٨-١١٧٩-١١٨٠-١١٨١-١١٨٢-١١٨٣-١١٨٤-١١٨٥-١١٨٦-١١٨٧-١١٨٨-١١٨٩-١١٩٠-١١٩١-١١٩٢-١١٩٣-١١٩٤-١١٩٥-١١٩٦-١١٩٧-١١٩٨-١١٩٩-١٢٠٠-١٢٠١-١٢٠٢-١٢٠٣-١٢٠٤-١٢٠٥-١٢٠٦-١٢٠٧-١٢٠٨-١٢٠٩-١٢١٠-١٢١١-١٢١٢-١٢١٣-١٢١٤-١٢١٥-١٢١٦-١٢١٧-١٢١٨-١٢١٩-١٢٢٠-١٢٢١-١٢٢٢-١٢٢٣-١٢٢٤-١٢٢٥-١٢٢٦-١٢٢٧-١٢٢٨-١٢٢٩-١٢٣٠-١٢٣١-١٢٣٢-١٢٣٣-١٢٣٤-١٢٣٥-١٢٣٦-١٢٣٧-١٢٣٨-١٢٣٩-١٢٤٠-١٢٤١-١٢٤٢-١٢٤٣-١٢٤٤-١٢٤٥-١٢٤٦-١٢٤٧-١٢٤٨-١٢٤٩-١٢٥٠-١٢٥١-١٢٥٢-١٢٥٣-١٢٥٤-١٢٥٥-١٢٥٦-١٢٥٧-١٢٥٨-١٢٥٩-١٢٦٠-١٢٦١-١٢٦٢-١٢٦٣-١٢٦٤-١٢٦٥-١٢٦٦-١٢٦٧-١٢٦٨-١٢٦٩-١٢٧٠-١٢٧١-١٢٧٢-١٢٧٣-١٢٧٤-١٢٧٥-١٢٧٦-١٢٧٧-١٢٧٨-١٢٧٩-١٢٨٠-١٢٨١-١٢٨٢-١٢٨٣-١٢٨٤-١٢٨٥-١٢٨٦-١٢٨٧-١٢٨٨-١٢٨٩-١٢٩٠-١٢٩١-١٢٩٢-١٢٩٣-١٢٩٤-١٢٩٥-١٢٩٦-١٢٩٧-١٢٩٨-١٢٩٩-١٣٠٠-١٣٠١-١٣٠٢-١٣٠٣-١٣٠٤-١٣٠٥-١٣٠٦-١٣٠٧-١٣٠٨-١٣٠٩-١٣١٠-١٣١١-١٣١٢-١٣١٣-١٣١٤-١٣١٥-١٣١٦-١٣١٧-١٣١٨-١٣١٩-١٣٢٠-١٣٢١-١٣٢٢-١٣٢٣-١٣٢٤-١٣٢٥-١٣٢٦-١٣٢٧-١٣٢٨-١٣٢٩-١٣٣٠-١٣٣١-١٣٣٢-١٣٣٣-١٣٣٤-١٣٣٥-١٣٣٦-١٣٣٧-١٣٣٨-١٣٣٩-١٣٤٠-١٣٤١-١٣٤٢-١٣٤٣-١٣٤٤-١٣٤٥-١٣٤٦-١٣٤٧-١٣٤٨-١٣٤٩-١٣٥٠-١٣٥١-١٣٥٢-١٣٥٣-١٣٥٤-١٣٥٥-١٣٥٦-١٣٥٧-١٣٥٨-١٣٥٩-١٣٦٠-١٣٦١-١٣٦٢-١٣٦٣-١٣٦٤-١٣٦٥-١٣٦٦-١٣٦٧-١٣٦٨-١٣٦٩-١٣٧٠-١٣٧١-١٣٧٢-١٣٧٣-١٣٧٤-١٣٧٥-١٣٧٦-١٣٧٧-١٣٧٨-١٣٧٩-١٣٨٠-١٣٨١-١٣٨٢-١٣٨٣-١٣٨٤-١٣٨٥-١٣٨٦-١٣٨٧-١٣٨٨-١٣٨٩-١٣٩٠-١٣٩١-١٣٩٢-١٣٩٣-١٣٩٤-١٣٩٥-١٣٩٦-١٣٩٧-١٣٩٨-١٣٩٩-١٤٠٠-١٤٠١-١٤٠٢-١٤٠٣-١٤٠٤-١٤٠٥-١٤٠٦-١٤٠٧-١٤٠٨-١٤٠٩-١٤١٠-١٤١١-١٤١٢-١٤١٣-١٤١٤-١٤١٥-١٤١٦-١٤١٧-١٤١٨-١٤١٩-١٤٢٠-١٤٢١-١٤٢٢-١٤٢٣-١٤٢٤-١٤٢٥-١٤٢٦-١٤٢٧-١٤٢٨-١٤٢٩-١٤٣٠-١٤٣١-١٤٣٢-١٤٣٣-١٤٣٤-١٤٣٥-١٤٣٦-١٤٣٧-١٤٣٨-١٤٣٩-١٤٤٠-١٤٤١-١٤٤٢-١٤٤٣-١٤٤٤-١٤٤٥-١٤٤٦-١٤٤٧-١٤٤٨-١٤٤٩-١٤٥٠-١٤٥١-١٤٥٢-١٤٥٣-١٤٥٤-١٤٥٥-١٤٥٦-١٤٥٧-١٤٥٨-١٤٥٩-١٤٦٠-١٤٦١-١٤٦٢-١٤٦٣-١٤٦٤-١٤٦٥-١٤٦٦-١٤٦٧-١٤٦٨-١٤٦٩-١٤٧٠-١٤٧١-١٤٧٢-١٤٧٣-١٤٧٤-١٤٧٥-١٤٧٦-١٤٧٧-١٤٧٨-١٤٧٩-١٤٨٠-١٤٨١-١٤٨٢-١٤٨٣-١٤٨٤-١٤٨٥-١٤٨٦-١٤٨٧-١٤٨٨-١٤٨٩-١٤٩٠-١٤٩١-١٤٩٢-١٤٩٣-١٤٩٤-١٤٩٥-١٤٩٦-١٤٩٧-١٤٩٨-١٤٩٩-١٥٠٠-١٥٠١-١٥٠٢-١٥٠٣-١٥٠٤-١٥٠٥-١٥٠٦-١٥٠٧-١٥٠٨-١٥٠٩-١٥١٠-١٥١١-١٥١٢-١٥١٣-١٥١٤-١٥١٥-١٥١٦-١٥١٧-١٥١٨-١٥١٩-١٥٢٠-١٥٢١-١٥٢٢-١٥٢٣-١٥٢٤-١٥٢٥-١٥٢٦-١٥٢٧-١٥٢٨-١٥٢٩-١٥٣٠-١٥٣١-١٥٣٢-١٥٣٣-١٥٣٤-١٥٣٥-١٥٣٦-١٥٣٧-١٥٣٨-١٥٣٩-١٥٤٠-١٥٤١-١٥٤٢-١٥٤٣-١٥٤٤-١٥٤٥-١٥٤٦-١٥٤٧-١٥٤٨-١٥٤٩-١٥٥٠-١٥٥١-١٥٥٢-١٥٥٣-١٥٥٤-١٥٥٥-١٥٥٦-١٥٥٧-١٥٥٨-١٥٥٩-١٥٦٠-١٥٦١-١٥٦٢-١٥٦٣-١٥٦٤-١٥٦٥-١٥٦٦-١٥٦٧-١٥٦٨-١٥٦٩-١٥٧٠-١٥٧١-١٥٧٢-١٥٧٣-١٥٧٤-١٥٧٥-١٥٧٦-١٥٧٧-١٥٧٨-١٥٧٩-١٥٨٠-١٥٨١-١٥٨٢-١٥٨٣-١٥٨٤-١٥٨٥-١٥٨٦-١٥٨٧-١٥٨٨-١٥٨٩-١٥٩٠-١٥٩١-١٥٩٢-١٥٩٣-١٥٩٤-١٥٩٥-١٥٩٦-١٥٩٧-١٥٩٨-١٥٩٩-١٦٠٠-١٦٠١-١٦٠٢-١٦٠٣-١٦٠٤-١٦٠٥-١٦٠٦-١٦٠٧-١٦٠٨-١٦٠٩-١٦١٠-١٦١١-١٦

الأب يوحنا الدمشقي

٢ — ١٠٤ — ٦٥٨ — ٦٥٩ — ١١١٣ — ١١١٤ — ١١١٥ —
 ١١١٦ — ١١١٧ — ١١١٨ — ١١١٩ — ١١٢٠ — ١١٢١ —
 ١١٢٢ — ١١٢٣ — ١١٢٤ — ١١٢٥ — ١١٢٦ .

الأب يوحنا كاسيان

١٥٩ — ١٩٧ — ٣١٠ — ٣٣١ — ٣٩٧ — ٥٧٧ — ٥٧٨ —
 ٦٥٤ — ٧٤٧ — ٧٤٨ — ٧٨٠ — ٩٢٨ — ٩٦٨ — ٩٦٩ — ٩٧٤ —
 ٩٩٨ — ١٠١٩ — ١٢٠٩ .

البطريك يوحنا ذهبي الفم

٥ — ٨ — ٩ — ٢٩ — ٤٣ — ٤٤ — ٤٥ — ٤٦ — ٥٧ — ٥٨ —
 ٥٩ — ٦٧ — ٤٦٥ — ٤٦٦ — ٤٦٧ — ٤٦٨ — ٤٦٩ — ٤٧٠ —
 ٥٢٨ — ٦٦٠ — ٦٦١ — ٦٩٦ — ٦٩٧ — ٧٣١ — ٧٤٤ — ٨٨٦ —
 ٨٨٧ — ١٠٦٦ — ١٠٧٣ — ١٠٧٥ — ١٠٧٦ — ١٠٧٧ — ١٠٨٤ .

الأب يوحنا كرونستادت

١١ — ١٢ — ١٣ — ١٤ — ٢٤ — ٢٥ — ٣٨ — ٥٦ — ٦٨ —
 ٤٧٧ — ٤٧٨ — ٤٨٧ — ٥٢٧ — ٥٤٩ — ٥٥٠ — ٥٥١ — ٥٥٢ —
 ٥٥٣ — ٦٥٣ — ٦٦٣ — ٦٦٤ — ٦٦٥ — ٦٦٦ — ٦٦٧ — ٦٦٨ —
 ٦٦٩ — ٦٧٠ — ٦٧١ — ٦٧٢ — ٦٧٣ — ٦٧٤ — ٦٧٥ — ٦٧٦ —
 ٦٧٧ — ٦٧٨ — ٦٧٩ — ٦٨٠ — ٦٨١ — ٦٨٢ — ٦٨٣ — ٦٨٤ —
 ٦٨٥ — ٦٨٦ — ٦٨٧ — ٦٨٨ — ٧١٤ — ٧٢٠ — ٧٢١ — ٧٢٢ —
 ٧٢٣ — ٧٢٤ — ٧٢٥ — ٧٣٠ — ٧٨٧ — ٧٨٨ — ٧٨٩ — ٧٩٠ —
 ٧٩١ — ٧٩٢ — ٩١٥ — ٩٦٧ — ١٠٤٠ — ١٠٤١ — ١٠٤٢ —
 ١٠٤٣ — ١٠٤٤ — ١٠٥٣ — ١٠٦٣ — ١٠٨٥ — ١٠٨٦ —
 ١٠٨٧ — ١٠٨٨ — ١٠٩٥ — ١٠٩٦ — ١٠٩٧ — ١٠٩٨ —
 ١١٠٥ — ١١٠٦ — ١١٠٧ — ١١٠٨ — ١١٠٩ — ١١١٠ —
 ١١١١ — ١١١٢ — ١١٢٨ — ١١٢٩ — ١١٣٠ — ١١٣١ —
 ١١٣٢ — ١١٣٤ — ١١٣٦ — ١١٣٧ — ١١٦٨ — ١١٦٩ —
 ١١٨١ — ١١٨٢ — ١١٨٤ — ١١٨٥ — ١١٨٨ — ١١٨٩ .

يوحنا سابا الشهير بالشيخ الروحاني

١٠٩ — ١١٠ — ١١١ — ١١٢ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٩ —
 ١٢١ — ١٦١ — ١٦٨ — ١٦٩ — ١٧٠ — ١٩١ — ٢٠١ — ٢٠٢ —
 ٢٣٦ — ٢٣٧ — ٢٥٧ — ٢٥٨ — ٢٦٠ — ٢٩١ — ٢٩٢ — ٢٩٣ —
 ٢٩٤ — ٢٩٥ — ٢٩٦ — ٢٩٧ — ٢٩٨ — ٢٩٩ — ٣٠٠ — ٣٠١ —
 ٣٠٢ — ٣١٧ — ٣٢٦ — ٣٣٧ — ٣٥٥ — ٤٨٩ — ٤٩٠ — ٨٤٤ —
 ٨٤٥ — ٨٤٦ — ١٠١٠ — ١٠٤٨ — ١٠٤٩ — ١٠٥٠ — ١٠٥١ —
 ١٢٠٧ — ١٢٠٨ .

أنبا يوساب الأبح

٩٧٥ — ٩٧٦ — ٩٧٧ — ٩٧٨ — ٩٧٩ — ٩٨٠ — ٩٨١ —
 ١١٠٣ — ١١٠٤ — ١١٣٥ .

يوحنا كارباتيسكي

٩٠٤ .



مراجع الكتاب

□ □ □

مخطوطات:

- (١) أربعة كتب للقديس مار إسحق أسقف نينوى:
مخطوطة مسموله عن نسخة القمص مينا اليرموسي المتوحد — المتنح السانا كيرلس السادس
(١٩٥٩ — ١٩٧١).
- (٢) ميامر الشيخ الروحاني:
مخطوطة رقم ١٩ لاهوت بمكتبة دير السريان.
- (٣) درجات الفضائل للقديس يوحنا الدرجي:
مخطوطة رقم ٥٢ لاهوت بمكتبة دير السريان، ومخطوطة مترجمة عن الأصل اليوناني باللغة
الإنجليزية مهداة من الراهب لعازر مور.
- (٤) ميامر وتعاليم مار أفرام السرياني:
مخطوطة رقم ٥٧ لاهوت بمكتبة دير السريان.
- (٥) تفسير بشارة متى الرسول للقديس يوحنا ذهبي الفم:
مخطوطة رقم ٢٠ لاهوت بمكتبة دير السريان.
- (٦) قوانين الكنيسة:
مخطوطة رقم ٣٥ لاهوت بمكتبة دير السريان.
- (٧) البرهان لأثناسيوس الرسولي:
مخطوطة رقم ٢٣ لاهوت بمكتبة دير السريان.

مطبوعات:

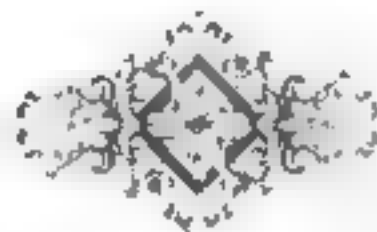
- (١) عظات القديس يوحنا ذهبي الفم.
- (٢) مقالات القديس مقار يوس.


- (٣) رسائل القديس أنبا أنطونيوس .
 (٤) سيرة أنبا أنطونيوس بقلم أثناسيوس الرسولي .
 (٥) كتاب القديس أنبا باخوميوس .
 (٦) الآباء الحاذقون في العبادة: الجزء الأول لما رفلوكسينوس .
 (٧) إحتشارات روحية: مطبوعات مدارس أحد الجيزة .

مصادر باللغة الإنجليزية:

- (1) Some Aspects about Orthodox Prayer , by Father Lazar Moore
 (2) Orthodox Spirituality , by a Monk of Eastern Church
 (3) On the Psalms., by St. Athanasius.
 (4) The Confessions of St. Augustine.
 (5) Western Mysticism., by Dom Cuthbert.
 (6) Coptic Homilies in the Dialect of Upper Egypt , «Budge»
 (7) Miscellaneous Coptic Texts , in the dialect of upper Egypt , «Budge»
 (8) Apostolic Fathers., Vol., I & II, Loeb. Library
 (9) The Fathers of the Church., St. Basil Letters
 (10) Murray's Dictionary of Christian Biography & Literature

(بالإضافة إلى المراجع المذكورة على هامش الكتاب).



A decorative rectangular border made of intricate floral and leaf patterns, framing the central text. The border is composed of four corner pieces and four side pieces, each featuring detailed botanical designs.

أشهر الأيقونات القبطية القديمة



اللوحة (٢)

صوره في سكو (حائط طاب) - في ما قبل الأعموان - من دير ناو بط (القرن ٤/٥ م).

تظهر فيها رب اخذ في أعلى الصورة، وفي أسفلها الرسل مع العذراء المديسة. والصورة طقسه بقدسه باطمة. وبلغت نظر القاريء إلى أن:

(١) رب اخذ جالس على العرس، والعرس محمول على السارويم (الأربعة حلائق غير المحسدة). فيها الإشارة إلى رؤيا حرمال التي القديسة، وبذلك سر منصور إلى ربوبه المسيح القاعة في اخذ. كم حاول المصور الملهم أن يبرز العجالات الأربعة في سفل العرس، والبار بالامعة عن عمن و سار. والعيون الكثيرة التي يحملها السارويم على هيئة دوائر صغيرة لامعة.

(٢) العذراء المديسة مع الرسل جالسة في وسطهم سم هم وفوف، وحلوسها إشاره إلى كرامتها، وكرمها نسب المسيح الطفل الذي تحمله على يدها اليسرى حسب الطقس الأرثوذكسي.

(٣) الصورة في محاسنها سجاور الورد التاريخي الرمي: فالعذراء حمل الطفل يسوع وجلس بين الرسل الدس، بظهرها في برمن التاريخي إلا بعد ذلك سلا من سة. وامصور بر يد إشاره إلى أن كرمه العذراء بين الرسل لا تر يد عليهم إلا نسب المسيح الذي حمله.

اللوحة (٣)

صورہ فرسکو (جسٹس) - فرسکو فیل الاخوان سے من ذہن و دہش و بے تعلد (اقرن ۱ ۶۹).

يظهر فيها رب اخذ حجابا على عريته في انفس الصوره. ولرسول مع بعدد، القديس في اسفل الصوره.

هذه الصورة عفائدية باطمة، وتُلمح نظر القارئ إلى أن:

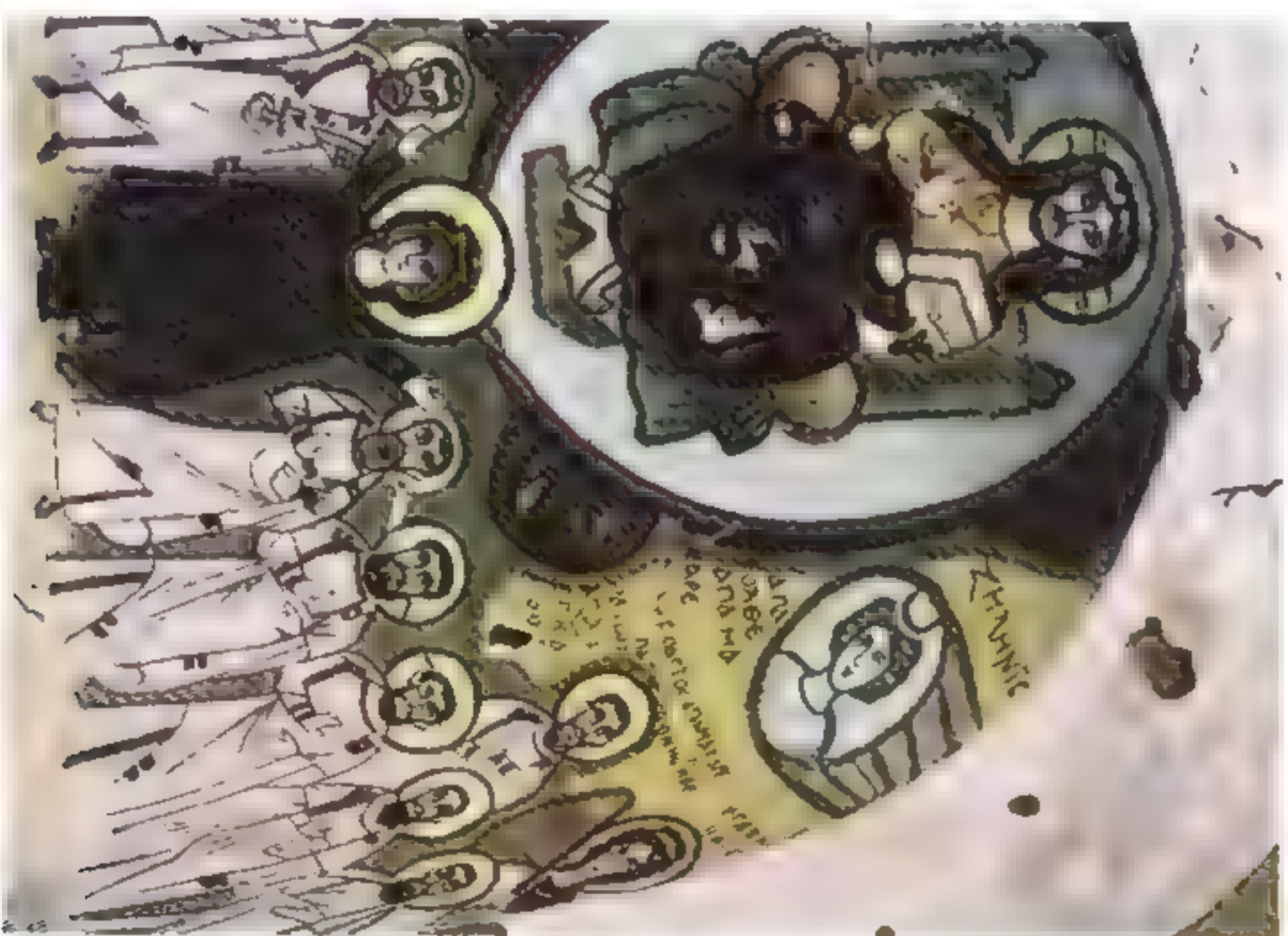
(١) رب المجد في الوصع الأسمنى خط به حالة محمد كره تفصله عن نقد الرسل والعداء أيضاً. وبه انتهى سر بالركة القلدية الأزود كره.

(٢) العذراء في مصاف الرسل كأول وكأعظم بهم. ودرجها في المجد أعلى من الرب بدون قياس.

(٣) حالة الخد التي حول رأس العذراء أعظم بساً من كل حالات محمد الرسل.

(٤) العذراء يدها مرفوعتان بالصلاة علامه السقع الذي اصاب به في الصورة على كافة الرسل.

(5) درجہ رفع میں العداء فی ہا۔ انکسرہ کہو عن مسون حیدہ، واندراجہ بصعیدہ
 کہو علی مسون کہف۔ وھذا استلذ کان اسار بکھتہ الواقف فہا ھیکل فی بھتہ
 القدم.



اللوحة (٤)

صورة فر يسكو (حانطيات) من دير ناويط بصعيد مصر (القرن ٤ / ٦ م).

وفيها يظهر رب اتخذ حاسا على العرس و يده في وضع المركب حيث يظهر سكين وضع الأصابع بمشي
الدفء، حيث تلامس إبهام مع الأصبع الرابع (البص) في الطرف لهما في أي على أول خنقه من الغنص
السلام للأصبع يساره في العدد عشره (عشره ثقل) أي حرف النوط يدي هو أول اسم يسوع (نظر من

(٥٦٧)



لوحة (٤)

اللوحة (٥)

عند باب علنا من حيث الحبر كانت برش اعلى احد ابواب الكنيسة معقده الرئيسة ، وغلها نفوس بارده عات ، في الانفاق نيل دحول اسند المسح إلى عذبة أورسلم طائر . وفي على النفوس امد كوزة كانه بارده ساد حرف اسودت ، في خطوط افقة بعضها وقد اومسود ، ومنها ما هو مفسس ما من لوزاه ومن الرسائل . ويرجع تاريخها إلى القرن الخامس الميلادي .

أما ترجمه النصوص بالعربية فهي :

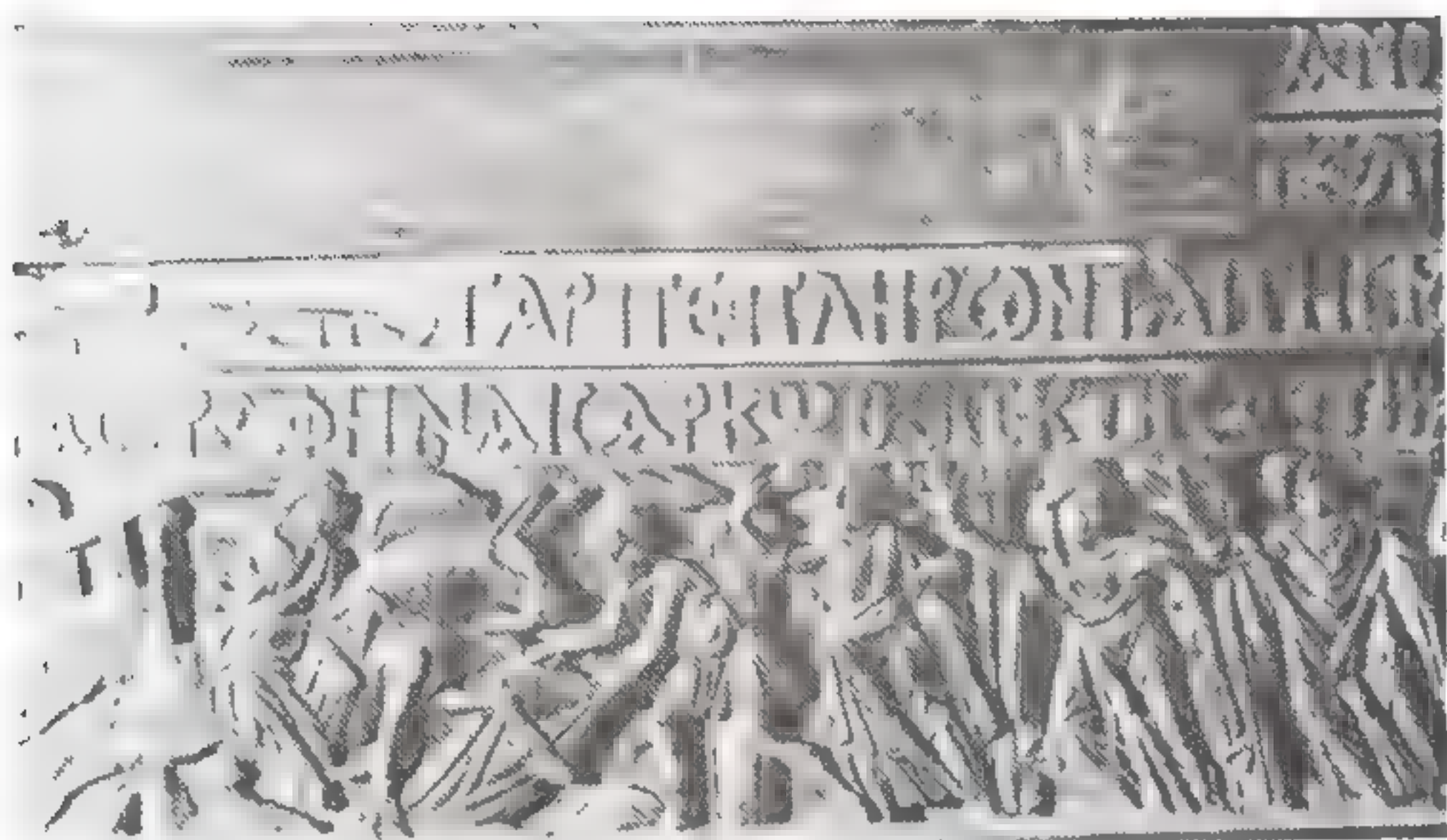
« يلمع في هباء طاهري لا عيب فيه ، ويسكن حيث تجمع كل الروحاني كالعنوين من سماء السمائية » .

« واسلائك محدود ، داغما بالقدسات الالهة مرنين فائق : قدوس قدوس قدوس أنت يا رب ، السماء والأرض » .

« ملوؤنا من مجدك الأقدس وحسروك الشائق يا عظم الرحمة عز مسطور في السواب من القواب المختفة ، يا من قبلت راضياً أن تغل بيبا » .

« لنعين معجدا وموودا من لعذراء أم الإله . من شهر يسس من الأندكس البابت لدمندايوس ٥١ (؟) » .

وبلاحظ أنه بالرغم من صعوبة الحفر على الخشب فإن الصورة تتضح بالحركة ، وكل شخص عمل وصفا خاصاً حتى الآن التي تركها الرب تدفع إلى الأمام بحركة وإصرار بكل حيوة .



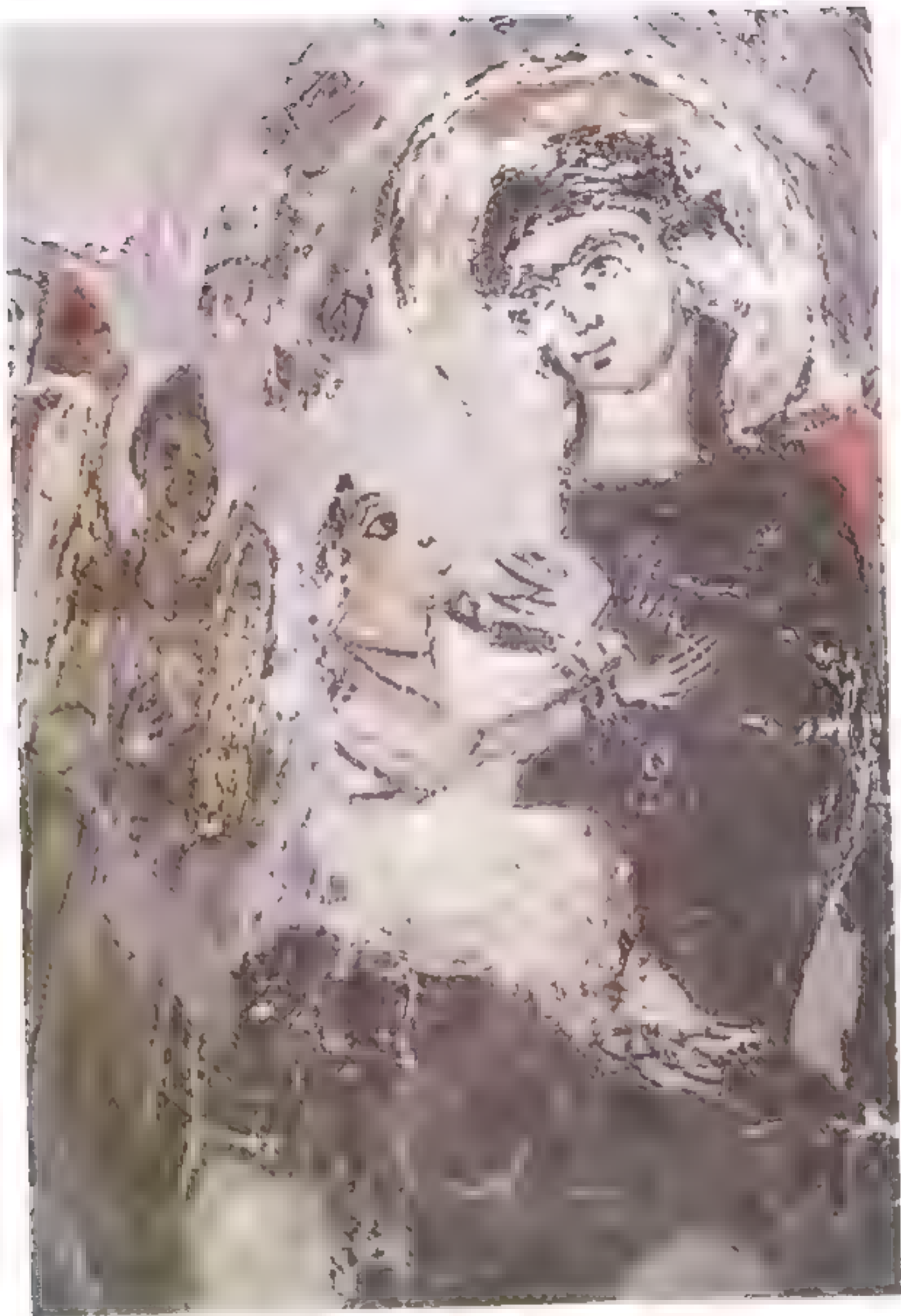
لوحة (٥)

اللوحة (٦)

صورة فرسكو (جائظان) - في ما قبل الأثنيات - من ديرناو بط بضعه مصر (لقرن ٤ م٦) .

ويظهر فيها العذراء القديسة مريم برصع الطفل يسوع ، وتعتبر هذه الصورة من الصور القديسة التي حسن الصانع القبطي الصميم لأن الثعلب القبطي هو الذي سترد دون نقاليد كاهن ككنيس الأخرى في حرته القديسة في تصوير هذا الوضع .

وبلاحظ لشاريء جمال وجه الطفل يسوع وسده مناسبة ملامحه بدور الطفولة . ولصورة واقعة قديسة في واقعة الإلهية .



اللوحة (٧)

صورة قبر يسكو (حاصص) - في ميسل لا شوب - من دير السريان يودي لظروب (القرن ٧ م).

و تمثيل في نصف الدائرة فيها اشارة حمر من سر اعداء مرة بالاسلاد الهبي. و لاحظ كلف ن
فان سطي صور اصغر اعداء في حرك عنها مقروص و يداه مرفوعة في قرب ثوبا.

وفي النصف الاخر من الصورة جمع قتل كل ما صاحب اسلاد اسون من اعداء. اثنائها اعداء مع
طعن بسوء مضطرب مصصحا في مدود. وهو سطر يدي حمر اعداء في الكرم من الصور. بعونها جهوز من
جند الاساوي ومن سفل يظهر اسان من برعد سحابة ان حصوص نسري. و حوتهم فتلعان نعم. وفي
طرف الصورة الايمن يظهر الخوس الدين اتوا من المشرق يقدمون هداياهم.



اللوحة (٨)

صورة فيسكو (حاصبات) - في ما قبل الثورات - من دير أسيان بوازي بطرول (تقري
٧٩٠ م).

وفيها يظهر صومير ساحل اعداء وصعود حيدها. وتظهر في الصورة ايضا الرسل حثفون ١٠ وسيد
الرب في وسط حثف من يد روحا من مكان حثف صغير مع منه. ويرى مديرونا صاين طين. لا حصل من
صورة اعداء ارفادة عن اشرس. وهذا في رقع غير من عتمة لثقة. ويرى مديرونا حثفون من
الروح وعلاقتها الوثقة بكل احمد.

ووضح هذه الصورة. استخدام في الثورات في كنيسة اعيان. في معنى الروح صيدا.
(انظر الشرح والتوضيح ص ٥٩٢ - ٥٩٣)



لوحة (٩)

صورہ فرسکو (خصص) — فی ماقبل الاسود — فی دبر باوٹھ نصعد مصر (شول ۴۶)۔
و ظہری تصویر مائے شفاء اندکوری قصہ سائہ انوار ۱۵ فی سہر د سائہ حبی برآں فی وسط سون
سارلسفہم۔

وهذا الملاك يُعبر عن ظهور ابن الله في العهد القديم «نشد ابن الله».

[illegible]

والصورة آية من الإبداع المعبري. كما أنها تحمل آية من آيات عبادة الله بأنفسنا.

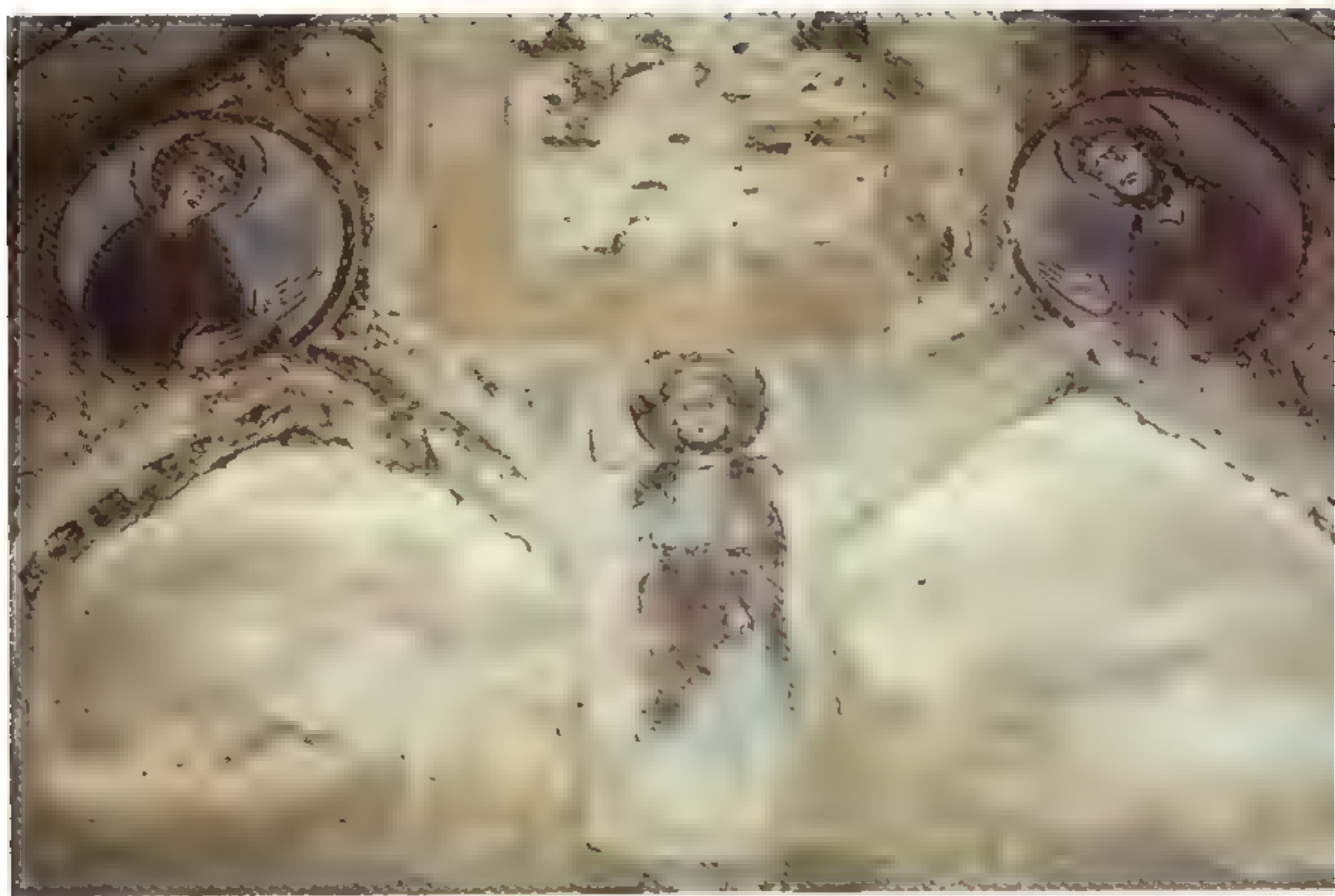
ولبلا حظ الثاريء المعطه الباده على وحوه البلاه فيه .



رسوم حائطية قديمة

من كنيسة أنبا مقار الكبير بديره ببرية شيهيت
(ترجع إلى القرن العاشر / الحادي عشر)

(وهي مرسومة على جدران هيكل يوحنا المعمدان بالكنيسة
فيما عدا اللوحة رقم ١٨)



اللوحة (١٠) أنقوبة الشفاعة

تسهر أنقوبات الشفاعة والنوسل اسماء باليونانية *Προφύλακται* من الأنقوبات الأرثوذكسية عموماً. وهي تمثل المسيح واقفاً حبل بيده اليسرى كتاباً، بيده اليمنى في وضع البركة، بيده اليمنى عن يمينه اليسرى العذراء ترفع يديها في وضع النوسل والشفاعة، وعن يساره يوحنا المعمدان في نفس الموقف.

و نلاحظ في طقس السورجند المصطفى أن طلب «الشفاعة» أو الـ «برسيفيا» *Προσφωγία* محفوظ للقدسة العذراء مريم والقدوس يوحنا المعمدان فقط من بين القديسين السمر، حيث يلتمس العابدون «شفاعتهم» أي وساطتهم، بين بقصر الطلب للقدوس الآخرين على طلب صلواتهم: «إنيكي *Εγώ*».

اللوحة (١١) العذراء النضعة (أنهية الشفاعة)

صوره مكسره تفصله من انهية الشفاعة للعذراء القديسة مريم و نصبح عني وحيثما انوار لوسل مع شيء من افرح أو نفس في إسحده انبا لوسلها مع احباء امام انبا المسيح بآله الكلمة المسحود.

اللوحة (١٢) القديس يوحنا المعمدان (أيقونة الشفاعة)

صورة مكسرة تفصلية من أيقونة الشفاعة للقديس يوحنا المعمدان . وهو في نفس وضع العذراء القديسة مريم .



لوحة (١١)



اللوحة (١٣) أيقونة الشارة

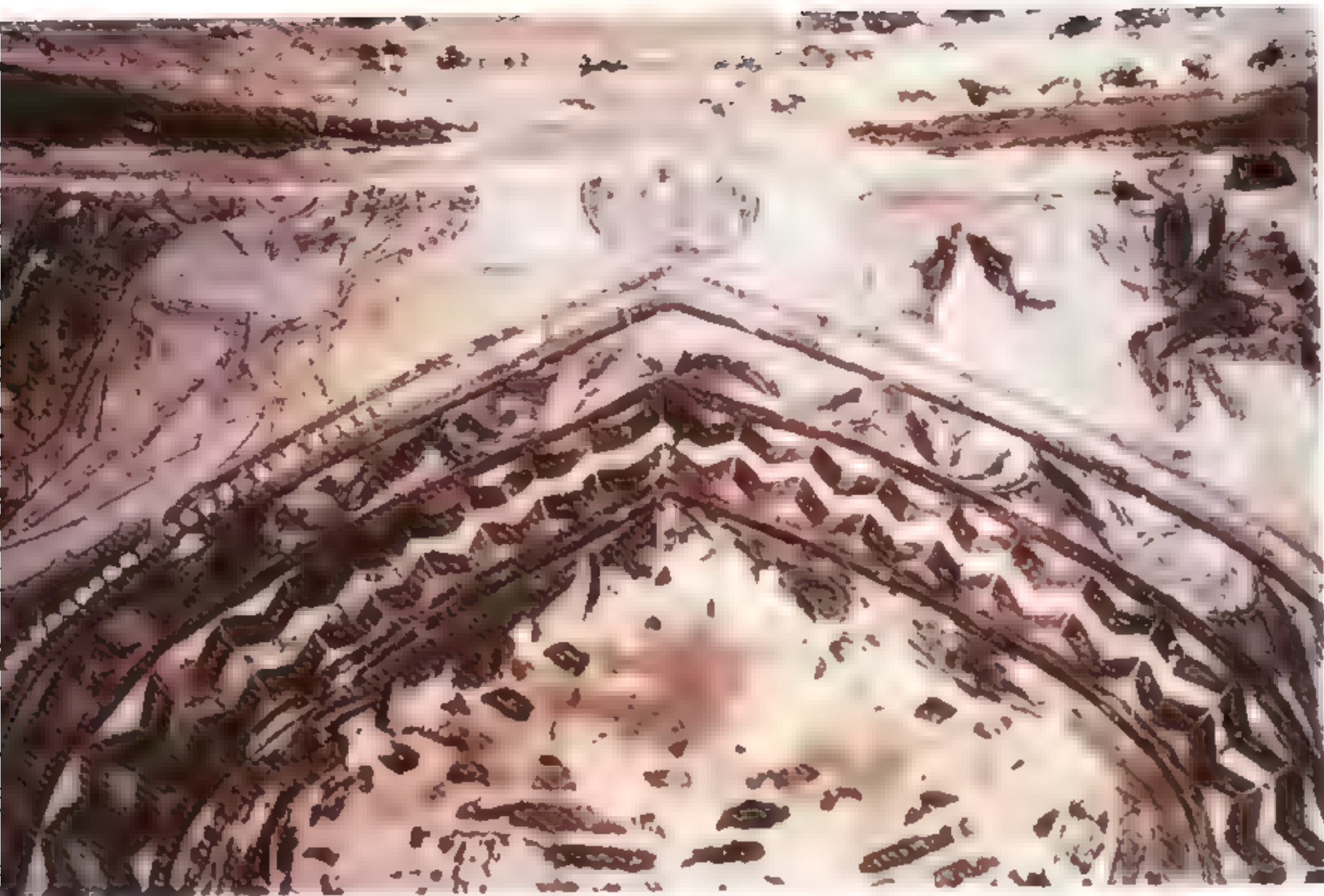
أيقونة الشارة، وفيها يظهر العذراء وهي تلبس السارة من أملاك حبرائيل و تظهر بجانبها ماء مكعب الشكل تعلوه فتة وفي واجهه مدخل له فوسان متقاطعان محمولان على عمودين عليها أطراف سارة مطوية ، ربما رمز لإفتاح السماء وبرول الملاك بالشارة على العذراء .

والى اليسار حبرائيل الملاك ، بغير لحية ، له أجمحة وهالة نوزانية ومتسربل بالبياض .

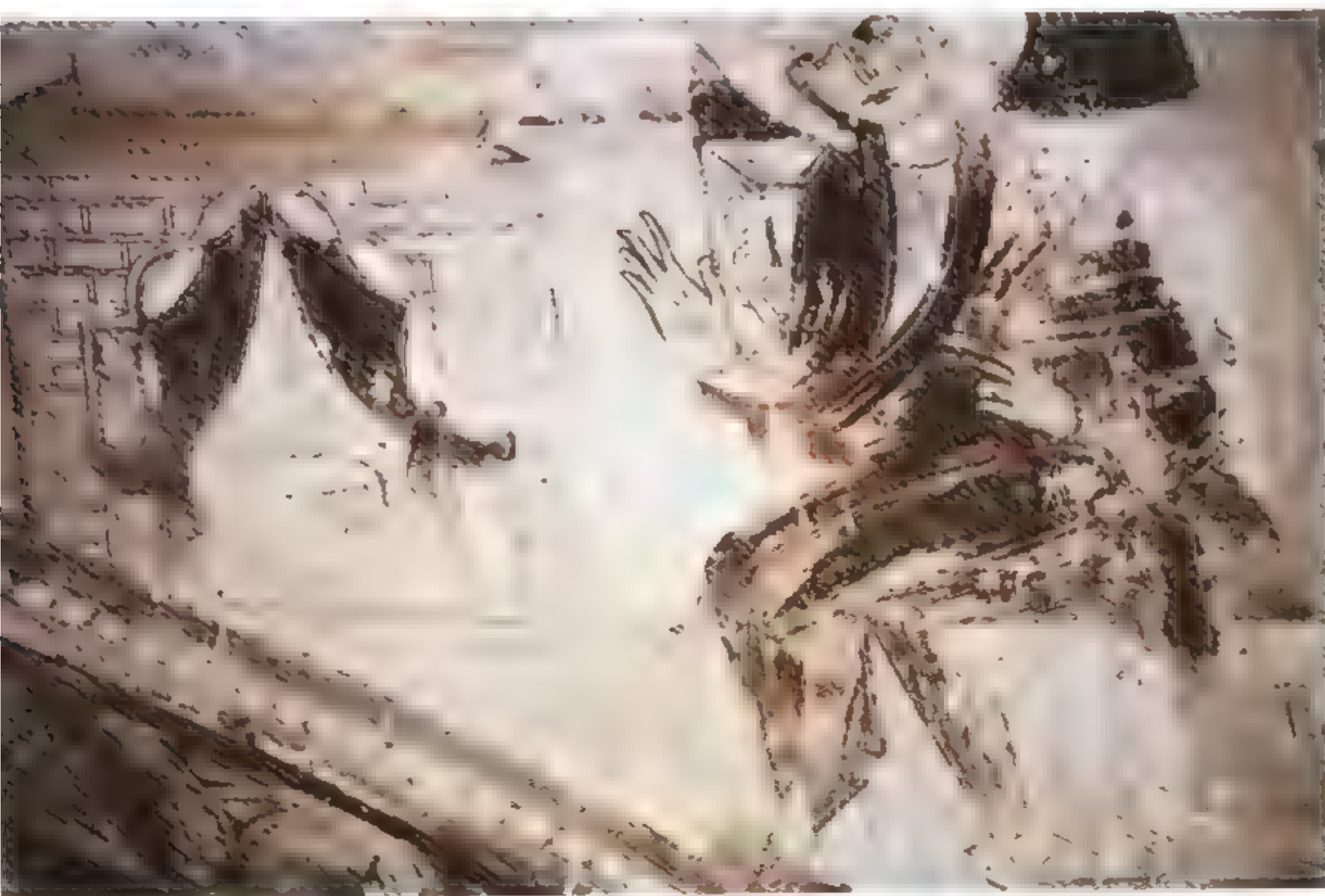
اللوحة (١٤) العذراء تلبس السارة (أيقونة الشارة)

صورة مصصبة مكررة للعذراء وهي تلبس السارة من أملاك ، وقد كتبت فوقها : « المجدسة مريم » . وهي في رداء أحمر فاتح وعليها هالة النور ، حالسة على كرسي مربع رحلاه متقاطعان وظهره أسود مسدور .

ويظهر العذراء بوجه مسروق حمل الألامح غامد الجمال ، تحسده فسطح رانعه خلوص أي نور الروح المستقيمة بقلبتهم . وترى وهي تلبس ثامعرب في ثديها السرى . وهو وضع سكررى معظم أيقونات السارة استقلبتة في العام جمع . بى يدها اليمنى مرفعه بى عن الذهب من حده أملاك لها : « كيف يكون هذا ، وأن لست أعرف رجلاً » (لوقا : ٣٤) . بى هي في الوقت نفسه حي رأسها . معتره عن جانب بعد سماعها بغير أملاك . « هودا أنا أمة الرب ليكن لي كهولك . » (لوقا : ٣٨)



لوحة (١٣)

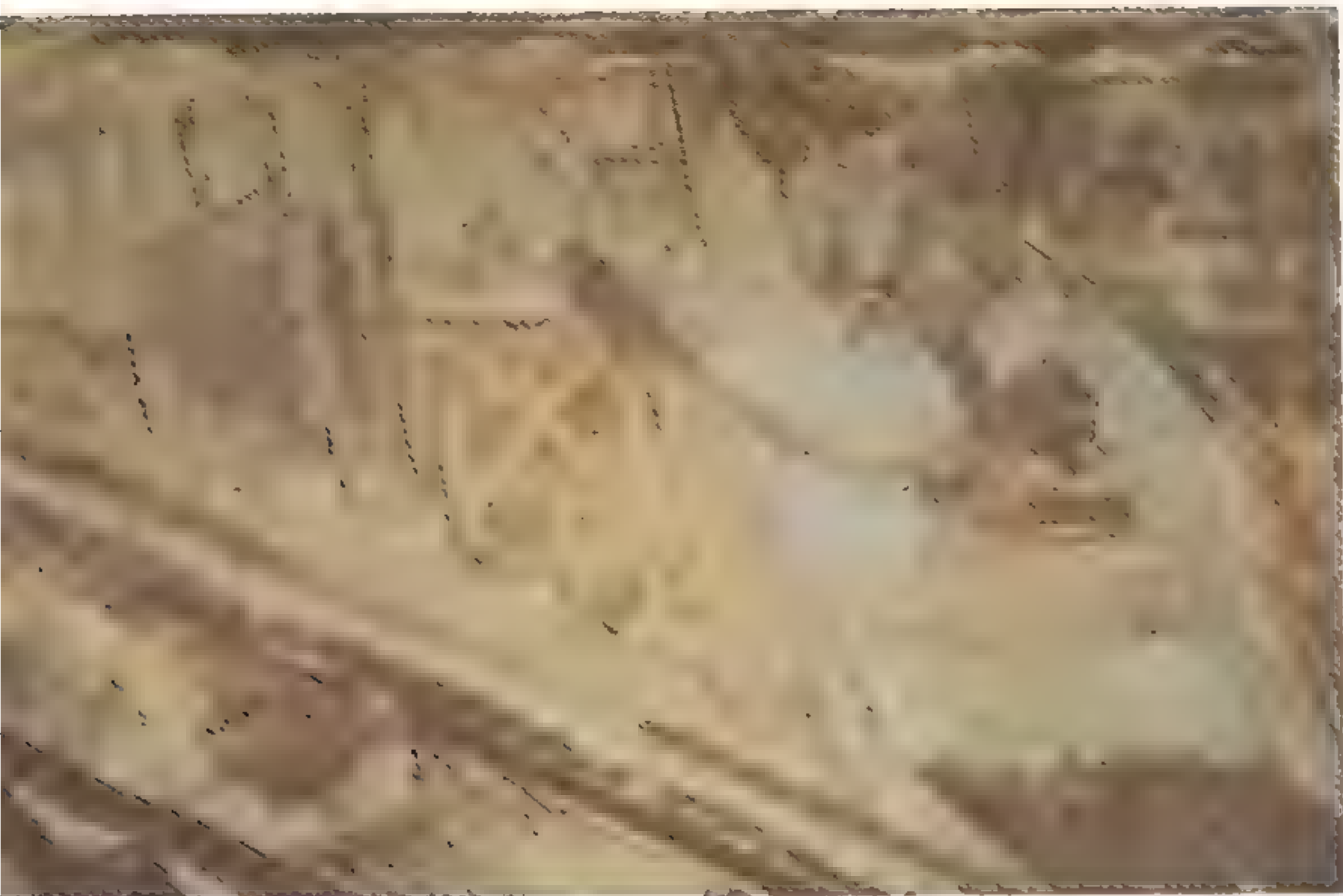


لوحة (١٤)

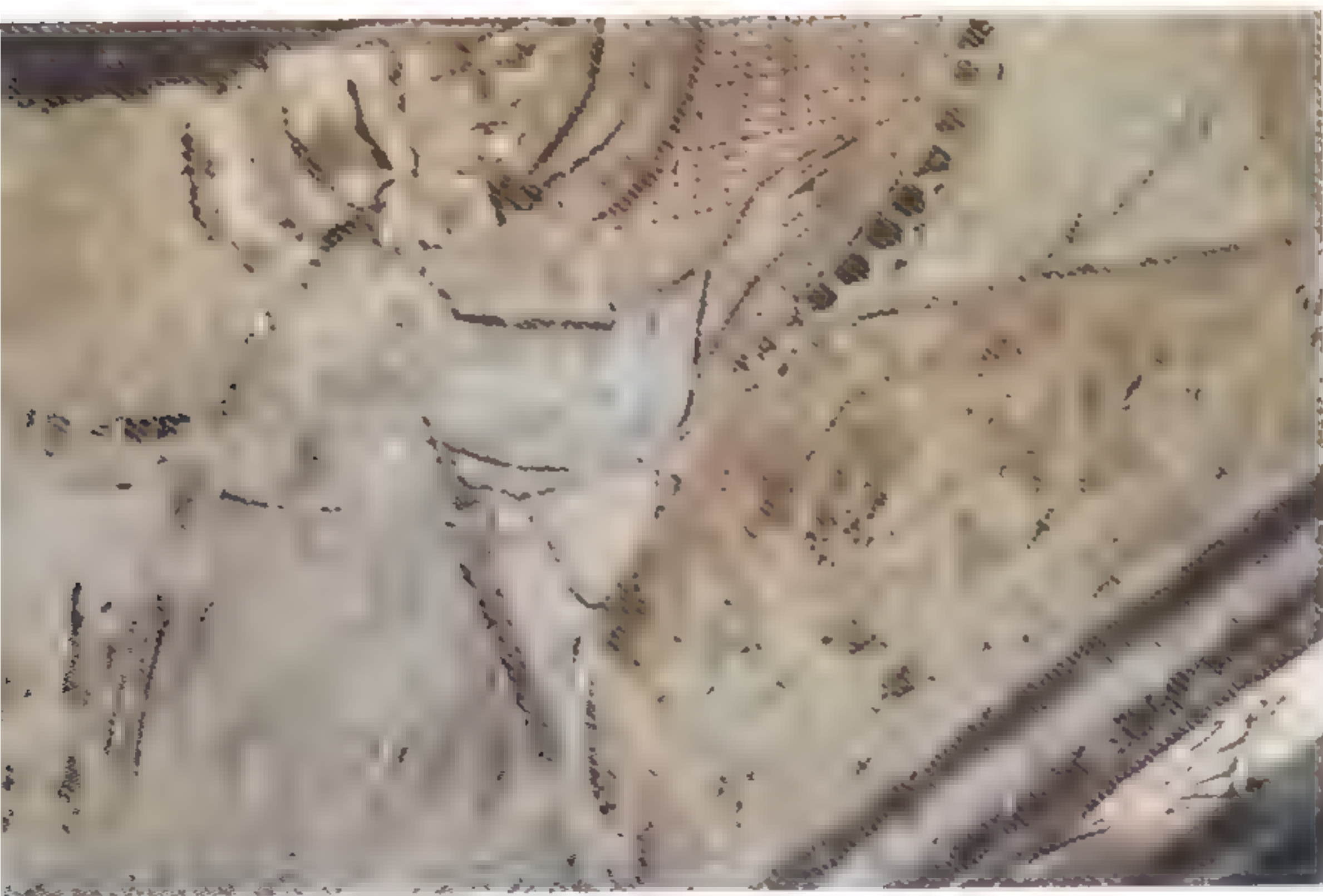
اللوحة (١٥) السيد المسيح (الباطوكراطور)
الصانع الكل

صوره مكمرة لرسم المسيح (في أنفونه السقاعة - لوحة ١٠) وهو في وضع الباطوكراطور - أي صانع الكل - ونرى وهو ممسك بيده اليسرى كتاباً، سما البداعى في وضع البركة. و نسمي وجه المسيح بالسياطة واغدوء، مع إمارات المجد والملئك، فهو الخالق والمادي والديان معاً.





مجله (۱۶)



اللوحة (١٨) صورة الشارويم

الشارويم هو المود المتجه إلى رافقت المقدس السا مقدار كل انا حده ، وصورة مرسومة بالركن اسرى البحري شكل أنا سياهن في قاعده القبة .

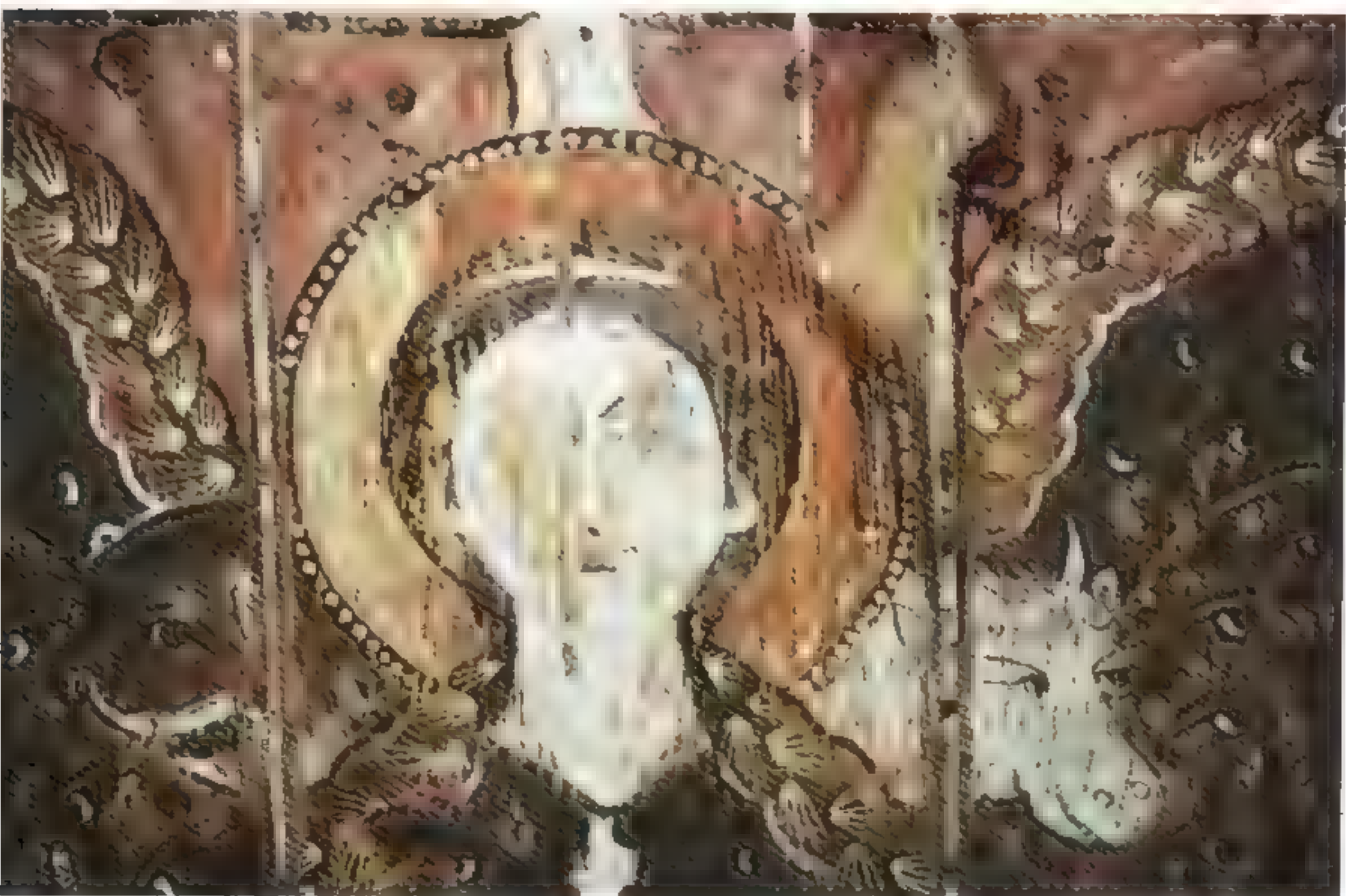
وسارويم هو اسكن لدى ذكر في سود حرمال ١ : ٥ ، ٥ : ١٠ . على مال الأربعة الموقوفات الحده . وهو عبارة عن كاس حتى راسه راس اسان حط به هاله بورايه ، وشعر الرأس اعبر بر حده قوس صغير ، البدان بشر يتان ممدودتان وما في وضع عادة رعم أن البرفقين ملتصقان بالجسين .

وحسم بصاوي عمال شكل طائر . حاصد مع الرحلين . ومهي بصره عربت على سكل بصاوي .

ومن اكشف حرج روح من الأحصحة المسطحة سعة ان الراوس انا حرجس للبطنة اسفله . سطح الحجاج سدو حصف الرس قرب الجسم . ولكن عند الأطراف سدو مرضعا بكون ذ نر به . وهو بصوير مدهش للشارويم .

وسرر من حصف الكف الاسر راس بور والكف الأيمن رأس اسد . و بطل من فوق اهانه رأس سر . وبين اهالة والحاج الأيسر ترى رأس اسان باهته .

وقد ورد شرح روجي للشارويم في كتاب عطات المقدس مقاربوس ، العطة الأولى .

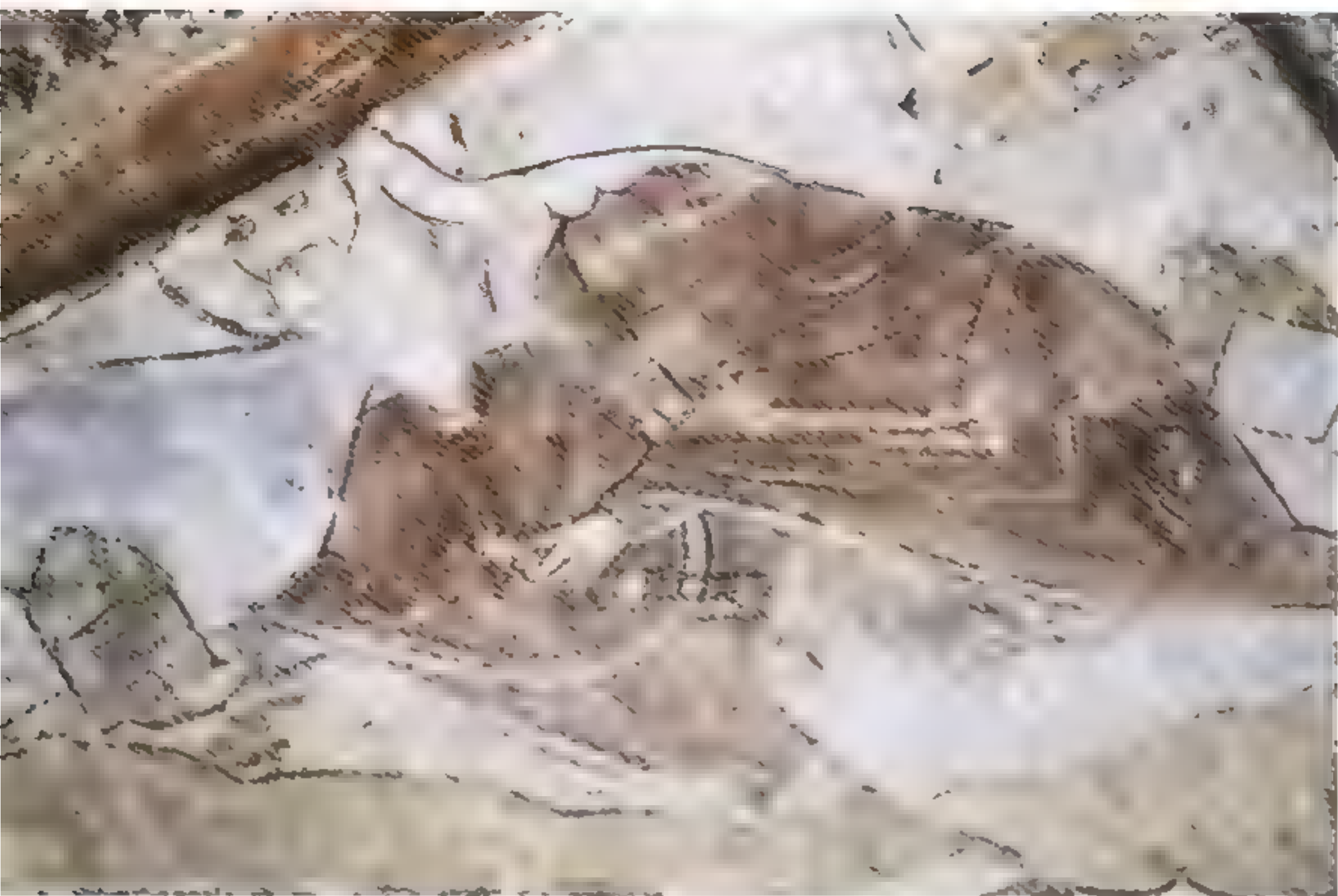


اللوحة (١٩) هارون الكاهن

رسم على لوحه اسرى في مواجهد باب هكل نوحا اعمدان، فوق انشوده شصاعه (لوحه رقم ١٠)،
وسدوفسه هارون الكاهن ممكث بعلده أسد ما يكون بعلده الحوز. في خائب لأحرص الرسمة (٢٠ بظهر في
هذه الصورة) مرسوم فيها موسى النبي ممكث شيء أشبه بلوحي العهد.

اللوحة (٢٠) إسمعاء واليرافيم

وعلى نفس اللوحه تمثي سمس. ولكن إلى اليسار، بظهر إسمعاء النبي سجد بضاء ووساح أحمر وواجهه
واحد من لشرق، بأحده وحسه بسه الظنور. ولوحه ولدان هما لإسك، شفت على مديح مربع بعلده سر
أوراق ويلمس شفي التي عجرة بين طرفي ملقاط (إش ٦: ٦).



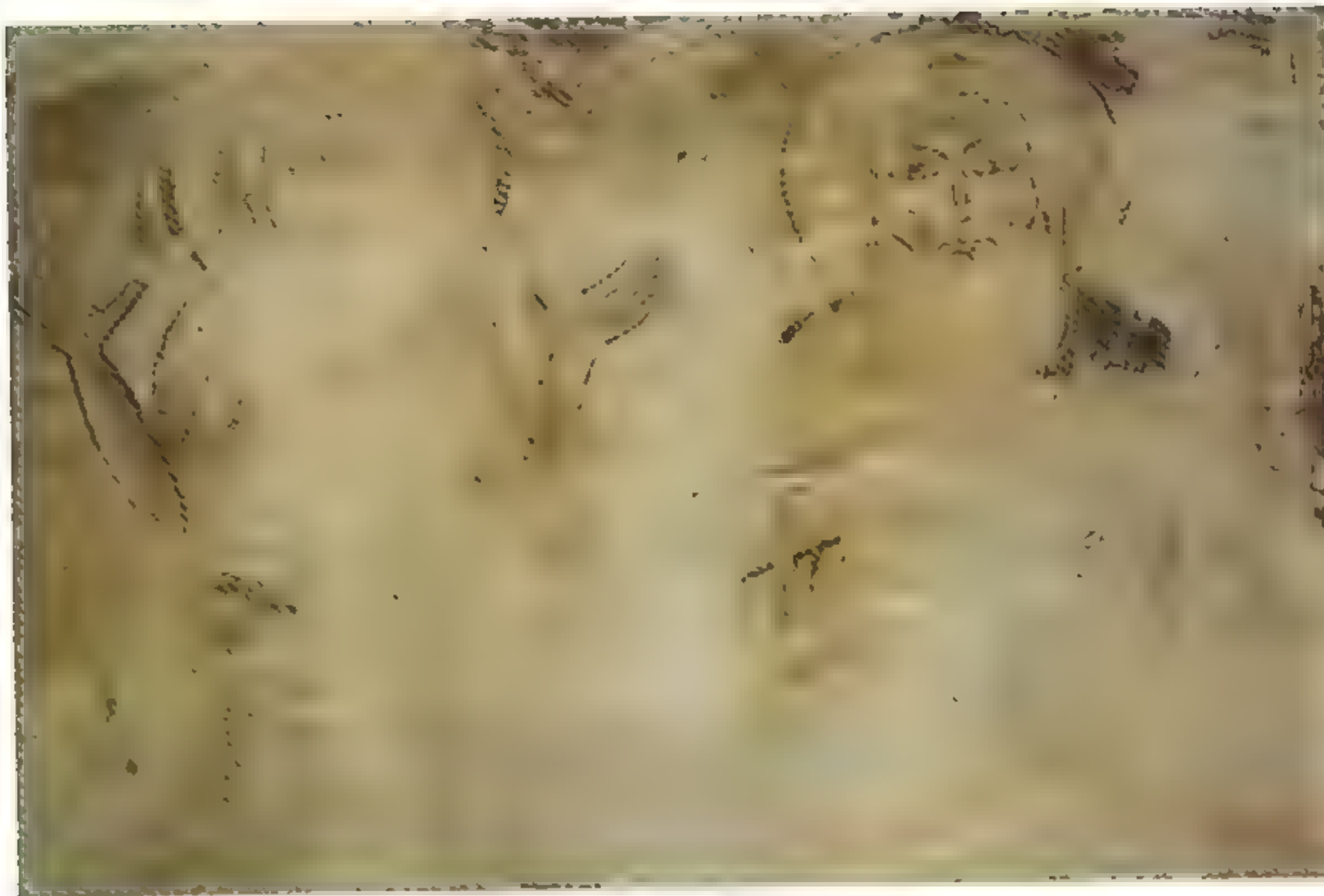
لوحة (١٩)





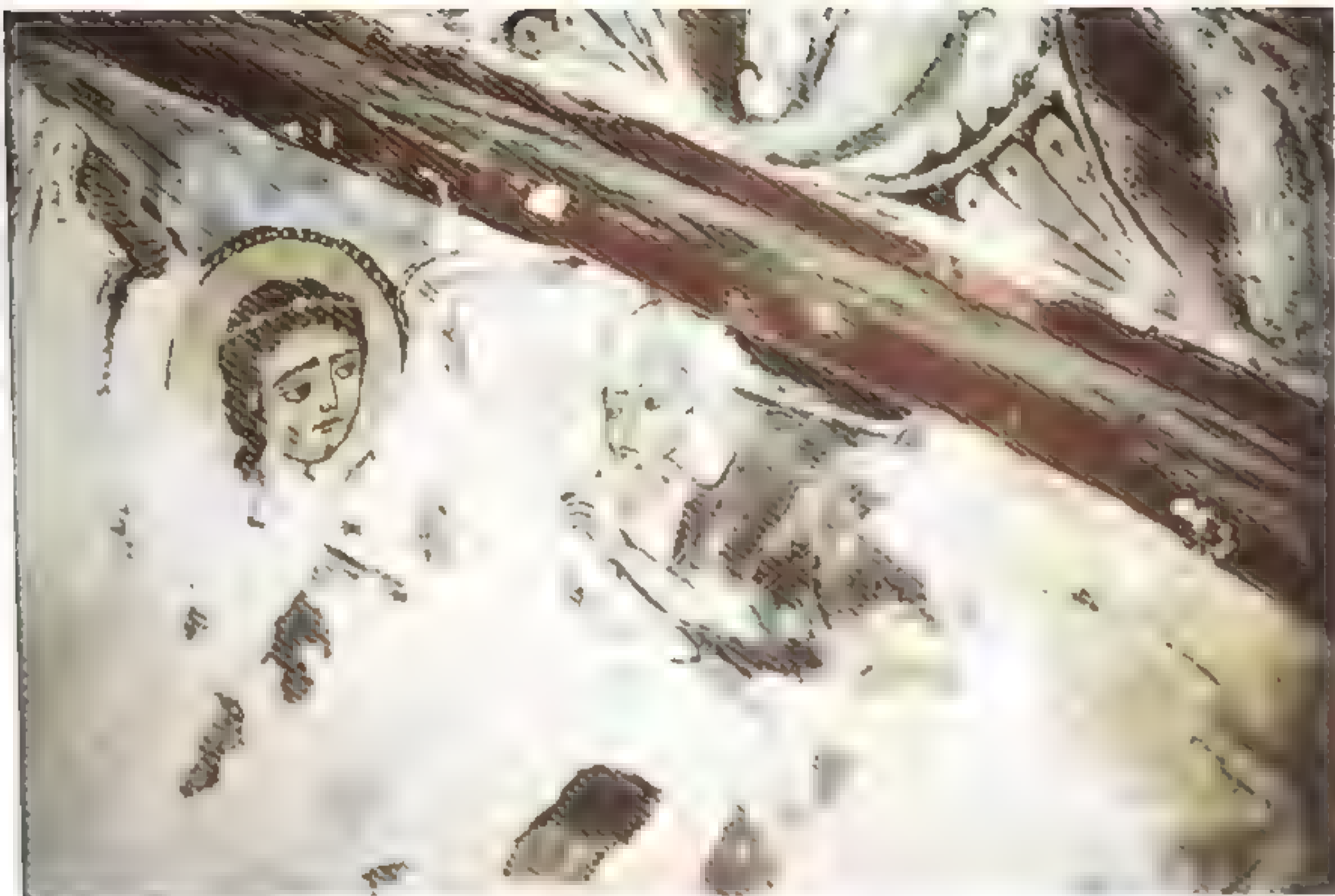
اللوحة (٢١) القديس باخوميوس وفوانين الرهبة

رسم للقديس باخوميوس ، وعلى يمينه لوحة المشهور
الذي برع في فوانيس الرهبانية التي استمها من
الملاك ، ويجوار أذنه اليمنى مباشرة ثلاثة مصاحح معاً ،
وهي تمثل مصاحح معرفة طريق « الثالث » المؤدي إلى
الحياة الأبدية .



اللوحة (٢٢) القديسان أنطونيوس وأنا بولا

رسم لمقدسين أنطونيوس الكبير وبولا أول السواح، الأيمن منهما في حالة صلاة، ملتحي بلحية طويلة وعليه مسح من لف السجل وطارئ حمل إليه حبراً. سمات هذا الرسم مع ما سبق من الحروف من أنه صورة أنا بولا أول السواح، وبصحبه شخص آخر هو أنطونيوس بلا شك، وعنده هالة بوزائه وعلى رأسه فسوسه رهبانية خفيفة، وبدوا أن يديه معمودتان على صدره.



اللوحة (٢٣) ماظر من صورة جيلاد

في سجونك مد في بروء الشجرة
 ن رسم لوجه ساد، كشهرها سوي منظر
 حوس وفع، مد (اللوحة شل)، وح
 ودر سسد سسد ساد (كم نون في
 عل، ولف سول من لوح، ساد ه رب حلة
 غر، ورجل



المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٩
الباب الأول	
طبيعة الصلاة	١٧
الفصل الأول : تعريف بالصلاة وفاعليتها	٢١
أولاً : ما هي الصلاة	٢٣
أقوال الآباء في ماهي الصلاة	٢٨
ثانياً : يا لعظمة الصلاة	٣٣
أقوال الآباء في عظمة الصلاة	٣٦
ثالثاً : ضرورة الصلاة	٤١
أقوال الآباء في ضرورة الصلاة	٤٥
رابعاً : فاعلية الصلاة	٥١
أقوال الآباء في فاعلية الصلاة	٥٧
الفصل الثاني : درجات الصلاة	٦٥
أولاً : الهذيد	٧١
أقوال الآباء في الهذيد	٨١
ثانياً : التأمل	٨٩
أقوال الآباء في التأمل	١٠٩
الفصل الثالث : ما فوق حدود الصلاة	١٢٣
أولاً : الدهش	١٢٩
الدهش أي الجذب الإلهي وما يلزمه من انفعالات نفسية	١٣٥
أقوال الآباء في الدهش	١٤٥
ثانياً : رؤية الله	١٥٧
أقوال الآباء في رؤية الله	١٧٦
ثالثاً : الإتحاد بالله	١٩١
أقوال الآباء في الإتحاد بالله	١٩٨

٢٠٧	الفصل الرابع: ثمار التأمل
٢١٦	أقوال الآباء في ثمار التأمل
٢٢٥	الفصل الخامس: حياة التأمل وحياة العمل

الباب الثاني

٢٥١	نواحي النشاط الداخلي للصلاة
-----	-----------------------------

٢٥٤	المفهوم الكسبي لمعنى النسك
٢٥٦	الفصل الأول: تحرير النفس
٢٦٥	أقوال الآباء في تحرير النفس
٢٦٦	الفصل الثاني: تنقية القلب
٢٦٦	أقوال الآباء في تنقية القلب
٣٠١	الفصل الثالث: إنسحاق الروح
٣٠٨	أقوال الآباء في إنسحاق الروح
٣٢٣	الفصل الرابع: النكال والمثابرة
٣٣٨	أقوال الآباء في الإيمان والمثابرة
٣٥٥	الفصل الخامس: الإجهاد والتغصب
٣٦٢	أقوال الآباء في الإجهاد والتغصب
٣٦٦	الفصل السادس: ضبط الفكر
٣٦٦	أقوال الآباء في ضبط الفكر
٤٠١	الفصل السابع: الصمت المقدس
٤٠٥	أقوال الآباء في الصمت المقدس
٤١١	الفصل الثامن: صوا كل حين
٤٢١	أقوال الآباء في الصلاة الدائمة
٤٣٤	اختيار الصلاة الدائمة: صلاة يسوع
٤٤١	الفصل التاسع: الدموع
٤٥٥	أقوال الآباء في الدموع
٤٦١	الفصل العاشر: الصوم
٤٦١	أقوال الآباء في الصوم

الباب الثالث

معوقات الصلاة

٤٧٩

٤٨٣

الفصل الأول: الجفاف الروحي

٤٨٩

الفصل الثاني: الفتور الروحي

٤٩٨

أقوال الآباء في الجفاف والفتور الروحي

٥٠٩

الفصل الثالث: ضياع الهدف

٥٢٣

أقوال الآباء في أهداف الصلاة ودوافعها

الباب الرابع

نواحي النشاط الخارجي للصلاة

٥٣٧

٥٤٧

الفصل الأول: بيت الله

٥٥٢

أقوال الآباء عن بيت الله

٥٥٩

الفصل الثاني: إشارة الصليب

٥٦٩

أقوال الآباء عن إشارة الصليب

٥٧٥

الفصل الثالث: الأيقونات

٥٩٤

أقوال الآباء في الأيقونات

٦٠٣

الفصل الرابع: الشموع

٦١١

أقوال الآباء عن الشموع

٦١٣

الفصل الخامس: البخور

٦٢٠

أقوال الآباء عن البخور

٦٢٣

الفصل السادس: التسبيح بالمزامير

٦٣٠

أقوال الآباء عن التسبيح بالمزامير

٦٣٩

الفصل السابع: السجود

٦٤٧

أقوال الآباء عن السجود

ملاحق الكتاب

٦٤٩	سير شخصيات أهم الآباء الواردة أقوالهم في الكتاب
٦٦٥	فهرس أقوال الآباء التي جاءت بالكتاب
٦٦٩	مراجع الكتاب
٦٧١	أشهر الأيقونات القبطية القديمة

□ * □ * □ * □

